

تاريخ ابن خلدون

ابن خلدون ج ٦

[١]

تاريخ ابن خلدون المسمى بكتاب العبر، وديوان المبتداء والخير، في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر لوحيده عصره العلامة عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي المغربي المتوفى سنة ٨٠٨ هجرية الجزء السادس ١٣٩١ هـ. - ١٩٧١ م. منشورات مؤسسة الاعلمي للمطبوعات بيروت لبنان ص. ٧١٢٠ ب.

[٢]

* (بسم الله الرحمن الرحيم) * { الطبقة الرابعة من العرب المستعجمة أهل الجيل الناشئ لهذا العهد من بقية أهل الدولة الاسلامية من العرب } لما استقلت مضر وفرسانها وأنصارها من اليمن بالدولة الاسلامية فيمن تبع دينهم من اخوانهم ربيعة ومن وافقهم من الاحياء اليمنية وغلبوا الملل والامم على أمورهم والتزعوا الامصار من أيديهم وانقلبت أحوالهم من خشونة البداوة وسذاجة الخلافة إلى عز الملك وترف الحضارة ففارقوا الحلل واقتربوا على الثغور البعيدة والاقطار البائنة عن ممالك الاسلام فنزلوا بها حامية ومرابطين عصبا وفرادى وتناقل الملك من عنصر إلى عنصر ومن بيت إلى بيت واستفحل ملكهم في دولة بنى أمية وبنى العباس من بعدهم بالعراق ثم دولة بنى أمية الأخرى بالاندلس وبلغوا من الترف والبيذخ ما لم تبلغه دولة من دول العرب والعجم من قبلهم فانقسموا في الدنيا ونبتت أجيالهم في ماء النعيم واستأثروا مهاد الدعوة واستطابوا خفض العيش وطال نومهم في ظل الغرف والسلم حتى ألقوا الحضارة ونسوا عهد البداوة وانفلتت من أيديهم الملكة التي نالوا بها الملك وغلبوا الامم من خشونة الدين وبداوة الاخلاق ومضاء

[٣]

المضرب فاستوت الحامية والرعية لولا الثقافة وشابة الجند والحضر الا في الشدة وأبوا السلطان من المساهمة في المجد والمشاركة في النسب فجدعوا أنوف المتطاولين إليه من أعاصيهم وعشائرتهم ووجوه قبائلهم وغضوا من عنان طموحهم واتخذوا البطانة مقرهم من موالى الاعجام وصنائع الدولة حتى كثروا بهم قبيلتهم من العرب الذين أقاموا الدولة ونصروا الملة ودعموا الخلافة وأذاقوهم وبال الخلافة من القهر وساموهم خطة الخسف والذل فأنسوهم ذكر المجد وحلاوة العز وسلبوهم نصره العصبية حتى صاروا أجزاء على وخولا لمن استعبدتهم من الخلاصة وأوزاعا متفرقين بين الامة وصيروا لغيرهم الحل والعقد والابرار والنقض من الموالى والصنائع فداخلتهم أريحية العز وحدثوا أنفسهم بالملك فجدعوا الخلفاء وقعدوا بدست الامر والنهي واندرج العرب أهل الحماية في القهر واختلطوا بالهجم ولم يراجعوا أحوال البداوة لبعدها ولا تذكروا عهد الانساب لدروسها

فدثروا وتلاشوا شأن من قبلهم وبعدهم سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا (وكان المولدون) لتمهيد قواعد الامر وبناء أساسه من أول الاسلام والدين والخلافة من بعده والملك قبائل من العرب موفورة العدد عزيزة الاحياء فنصروا الايمان والملة ووطدوا أكناف الخلافة وفتحوا الامصار والاقاليم وغلبيو عليها الامم والدول أما من مضر فقريش وكنانة وخزاعة وبنو أسد وهذيل وتميم وغطفان وسليم وهوازن ويطونها من ثقيف وسعد بن بكر وعامر ابن صعصعة ومن إليهم من الشعوب والبطون والافخاذ والعشائر والخلفاء والموالي وأما من ربيعة فينو ثعلب بن وائل وبنو بكر بن وائل وكافة شعوبهم من بنى شكر وبنى حنيفة وبنى عجل وبنى ذهل وبنى شيبان وتيم الله ثم بنو النمر من قاسط ثم عبد القيس ومن إليهم وأما من اليمانية ثم من كهلان بن سبا منهم فأنصار الله الخزرج والاوز بنو ابي قحافة شعوب غسان وسائر قبائل الازد ثم همدان وختعم وبيحيلة ثم مذحج وكافة بطونها من عيس ومراد وزبيد والنخع والاشعريين وبنى الحرث بن كعب ثم لحي ويطونها ولخم ويطونها ثم كندة وملوكها وأما من حمير بن سبا فقضاة وجميع بطونها ومن إلى هذه القبائل والافخاذ والعشائر والاحلاف هؤلاء كلهم أنفقتهم الدولة الاسلامية العربية فبنا منهم النغور القصية وأكلتهم الاقطار المتباعدة واستلحمتهم الوقائع المذكورة فلم يبق منهم حى يطرف ولا حلة تنجع ولا عشير يعرف ولا قليل يذكر ولا عاقلة تحمل جناية ولا عصابة بصريخ الاسمع من ذكر أسمائهم في أنساب أعقاب متفرقين في الامصار التي أخموها بجملتهم فتقطعوا في البلاد ودخلوا بين الناس فامتحنوا واستهينوا وأصبحوا خولا للامر وربيا للواسد وعالة على الحرب

[٤]

وقام بالاسلام والملة غيرهم وصار الملك والامر في أيدي سواهم وجابت بضائع العلوم والصنائع إلى غير سوقهم فغلب أعاجم المشرق من الديلم وانسلخوا فيه والاكرد والعرب والترک على ملكه ودولته فلم يزل مناقلة فيهم إلى هذا العهد وغلب أعاجم المغرب من زناتة والبربر على أمره أيضا فلم تزل الدول تتناقل فيهم على ما نذكره بعد إلى هذا العهد وغلب أعاجم المغرب والبربر على أمره وانقرض أكثر الشعوب الذين كان لهم الملك من هؤلاء فلم يبق لهم ذكر وانتبذ بقية هذه الشعوب من هذه الطبقة بالفغار وأقاموا أحياء با دين لم يفارقوا الحلل ولا تركوا البداوة والخشونة فلم يتورطوا في مهلكة الترف ولا غرقوا في بحر النعيم ولا فقدوا في غيابات الامصار والحضارة ولهذا أنشد شاعرهم فمن ترك الحضارة أعجبته * بأى رجال باذية ترانا وقال المتنبي يمدح سيف الدولة ويعرض يذكر العرب الذين أوقع بهم لما كثر عيثهم وفسادهم وكانوا يرعون الملوك بأن بدوا * وأن نبتت في الماء نبت الغلافق (١) فهاجوك أهدى في الفلا من نجومه * وأبدي بيوتا من أداحي النفاق (٢) (وأقامت) هذه الاحياء في صحارى الجنوب من المغرب والمشرق بأفريقية ومصر والشام والحجاز والعراق وكرمان كما كان سلفهم من ربيعة ومضر وكهلان في الجاهلية وعتوا وكثروا وانقرض الملك العربي الاسلامي وطرق الدول الهرم الذى هو شأنها واعتز بعض أهل هذا الجيل غربا وشرقا فاستعملتهم الدول ولوهم الامارة على أحيائهم وأقطعوهم في الضاحية والامصار والتلول وأصبحوا جيلا لعالم ناشئا كثروا سائر أهله من العجم ولهم في تلك الامارة دول فاستحقوا أن تذكر أخبارهم وتلحق بالاحياء من العرب وقع به الاعجاز ونزل به القرآن فتوى فيهم وتبدل اعرابه فمالوا إلى العجمة وان كانت واستحقوا أن يوصفوا بالعجمة من أجل الاعراب فلذلك قلنا فيهم العرب المستعجمة (فلنذكر الآن) بقية هؤلاء لشعوب من هذه الطبقة في المغرب والمشرق ونخص منهم أهل الاحياء الناجعة والاقدار النابهة ولنغني المندرجين في غيرهم ثم نرجع إلى ذكر المنتقلين من هذه الطبقة إلى افريقية والمغرب فنستوعب أخبارهم لان العرب لم يكن

المغرب لهم في الايام السابقة بوطن وانما انتقل إليه في أواسط
المائة الخامسة أفريق من بنى هلال وسليم اختلطوا في الدول
هنالك فكانت أخبارهم من أخبارها فلذلك استوعبتها وأما آخر
مواطن العرب فكانت

[٥]

برقة وكان فيها بنو قرة بن هلال بن عامر وكان لهم في دول
العبيديين أخبار وحكايتهم في الشورة أيام الحاكم والبيعة لابي ركوة
من بنى أمية في الاندلس معروفة وقد أشرنا إليها في دولة
العبيديين ولما أجاز بنى هلال وسليم إلى المغرب خالطوهم في
تلك المواطن ثم ارتحلوا معهم إلى المغرب كما نذكره في دخول
العرب إلى أفريقية والمغرب وبقي في مواطنهم بركة لهذا العهد
أحياء بنى جعفر وكان شيخهم أواسط هذه المائة الثامنة أبو ذئب
وأخوه حامد بن حميد (١) وهم ينسبون في المغرب تارة في العزة
ويزعمون أنهم من بنى كعب بن سليم وتارة في سيب كذلك وتارة
في فزارة والصحيح في نسبهم أنهم من سراته إحدى بطون هوارة
سمعتهم من كثير من نسابتهم وبعدهم فيما بين بركة والعقبة الكبيرة
أولاد سلام وما بين العقبة الكبيرة والاسكندرية أولاد مقدم وهم
بطنان أولاد التركية وأولاد قائد ومقدم وسلام معا ينسبون إلى لبيد
فبعضهم يقول لبيد بن لعة بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر
وبعضهم يقول في مقدم مقدم بن عزاز بن كعب بن سليم (وذكر لى
سلام) شيخ أولاد التركية أن أولاد مقدم من ربيعة بن نزار ومع هؤلاء
الاحياء حى محارب ينتمون بال جعفر ويقال انهم من جعفر بن كلاب
وهى رواحة ينتمون بال زبيد ويقال ابن جعفر أيضا والناجعة من هؤلاء
الاحياء كلهم ينتمون في شأنهم إلى الواحات من بلاد القبلة (وقال
ابن سعيد) ومن غطفان في رقة مهيب ورواحة وفزارة فجعل هؤلاء
من غطفان والله أعلم بصحة ذلك (وفيما بين الاسكندرية ومصر)
قبائل رحالة ينتقلون في نواحي البحيرة هنالك ويعمرون أرضها
بالسكنى والفلاح ويخرجون في المشاتى إلى نواحي العقبة وبرقة
من مراية وحوارة وزنارة إحدى بطون لواته وعليهم مغارم الفلاح ويندرج
فيهم أخلاط من العرب والبربر لا يحصون كثرة وبنوا حى الصغير قبائل
من العرب من بنى هلال وبنى كلاب من ربيعة أحياء كثيرة ويركبون
الخيل ويحملون السلاح ويعمرون الارض بالفلاحة ويقومون بالخراج
للسلطان وبينهم مع ذلك من الحروب والفتن ما ليس يكون بين أحياء
الفقر (وبالصعيد) الاعلى من اسوان وما وراءها إلى أرض النوبة إلى
بلاد الحبشة قبائل متعددة وأحياء متفرقة كلهم من جهة إحدى
بطون قضاة ملؤا تلك القفار وغلبوا النوبة على مواطنهم وملكهم
وزاحموا الحبشة في بلادهم وشاركوهم في أطرافها والذين يلون
اسوان هم يعرفون بأولاد الكنز كان جدهم كنز الدولة وله مقامات مع
الدول المذكورة ونزل معهم في تلك المواطن من اسوان إلى قوص بنو
جعفر بن أبى طالب حين غلبهم بنو الحسن على نواحي المدينة
وأخرجوهم منها فهم يعرفون بينهم بالشرفاء الجعافرة ويحترفون

[٦]

في غالب أحوالهم بالتجارة (وبنوا حى مصر) من جهة القبلة إلى
عقبة أيلة جمهورهم من العائد وعليهم درك السابلة بتلك
الناحية ولهم على ذلك الاقطاع والعوائد من جهة الشرق بالکرد
ونواحيها أحياء بنى عقبة من جذام أيضا ورحالة ناجحة تنتهى وعليهم
درك السابلة فيما يليهم وفيما وراء عقبة ايلة إلى القلزم قبائل من
قضاة ومن القلزم إلى الينبع قبائل من جهة ومن الينبع بدر
ونواحيه من زبيد إحدى بطون مذحج ولهم مع الامراء بمكة من بنى

حسن حلف ومواخاة وفيما بين مكة والمهج مما يلي اليمن قبائل بنى شعبة من كنانة وفيما بين الكرد و غزة شرقا قبائل جذام من قضاة في جموع وافرة ولهم أمراء أعزة يقطعهم السلطان على العسكر وحفظ السابلة وينجعون في المشاتى إلى معان وما يليها من أسافل نجد مما يلي تيماء ويعدهم في أرض الشام بنو حارثة بن سنيس وآل مرء من ربيعة اخوال فضل الملوك على العرب في بيرة الشام والعراق ونجد وأخبرني بعض أمراء حارثة بن سنيس عن بطون فلنذكر الآن خبر أولاد فضل أمراء الشام والعراق من طيئ فبين أعراب الشام جميعا * (خبر آل فضل وبنى مهنا منهم ودولتهم بالشام والعراق) * هذا الحى من العرب يعرفون بأل فضل وهم رحالة ما بين الشام والجزيرة وبيرة نجد من أرض الحجاز ينتقلون هكذا بينها في الرحلتين وينتهون في طيئ ومعهم أحياء من زبيد وكلب وهريم ومذحج أحلاف لهم باين بعضهم في الغلب والعدد آل مرء ويزعمون أن فضلا ومرء آل ربيعة ويزعمون أيضا أن فضلا ينقسم ولده بين آل مهنا وآل على وأن آل فضل كلهم كانوا بأرض حوران فغلبهم عليها آل مرء وأخرجوهم منها فنزلوا حمص ونواحيها وأقامت زبيد من أحلافهم بحوران فهم بها حتى الآن لا يفارقونها قالوا ثم اتصل آل فضل باللد من السلطنة وولوههم على أحياء العرب وأقطعوهم على اصلاح السابلة بين الشام والعراق فاستظفروا برياستهم على آل مرء وغلبوهم على المشاتى فصار عامة رحلتهم في حدود الشام قريبا من التلول والقرى لا ينجعون إلى البرية الا في الاقل وكانت معهم أحياء من أفريق الاعراب يندرجون في لفيهم وحلفهم من مذحج وعامر وزبيد كما كان لآل فضل الا أن أكثر من كان من آل مرء أولئك الاحياء وأوفرهم عددا بنو حارثة من احدى سنى بطون طيئ هكذا ذكر الثقة عنهم من رجالاتهم وحارثة هؤلاء متغلبون لهذا العهد في تلول الشام لا يجاوزونها إلى القفار ومواطن طيئ بنجد قد اتسعت وكانوا أول خروجهم من اليمن نزلوا جبلى أجوسلمى وغلبوا عليهما بنى أسد وجاوروهم مكان لهم من

المواطن سميراء وميدمن منازل الحاج ثم انقرض بنو أسد وورثت طيئ بلادهم فيما وراء الكرخ من أرض غفر وكذلك ورثوا منازل تميم بأرض نجد فيما بين البصرة والكوفة واليمامة وكذلك ورثوا غطفان بيطن مما يلي وادى القرى هكذا قال ابن سعيد وقال أشهر الحجازيين منهم الآن بنو لام وبنو نيهان والصولة بالحجاز لبنى لام بين المدينة والعراق ولهم حلف مع بني الحسين أمراء المدينة قال وبنو صخر منهم في جهة تيماء بين الشام وخيبر قال وغربة من طيئ بنو غربة بن أفلت بن معبد بن معن بن عمر بن عنيس بن سلامان ومن بعد بلادهم حى الانمر والاساور ورثوها من عنزة ومنازلهم لهذا العهد في مصابفهم بالكيات وفى مشاتيهم مع بنى لام من طيئ وهم أهل غارة وصولة بين الشام والعراق ومن بطونهم الاجود والبطنين واخوانهم زبيد نازلون بالموصل فقد جعل ابن سعيد هؤلاء من بطون طيئ ولم يجعلهم من مذحج ووباسة آل فضل في هذا العهد في بنى مهنا وينسبونه هكذا كنا بن مايع بن مدسة بن عصية بن فضل بن بدر بن على بن مفرج بن بدر بن سالم بن قصية بن بدر بن سميع ويقفون عند سميع ويقول زعمائهم ان سميغا هذا هو الذى وليته العباسة أخت الرشيد من جعفر بن يحيى البرمكى وحاشا لله من هذه المقالة في الرشيد وأخته وفى بنات كبراء العرب من طيئ إلى موالى العجم من بنى برمك وأمثالهم ثم ان الموجود تميل رياسته مثل هؤلاء على هذا الحى إذا لم يكونوا من نسبهم وقد تقدم مثل ذلك في مقدمات الكتاب (وكان مبدأ رياستهم) من أول دولة بنى يعقوب قال العماد الاصبهاني نزل العادل بمرج دمشق ومعه عيسى بن محمد بن ربيعة شيخ الاعراب في جموع كثيرة وكانت الرياسة فيهم لعهد الفاطميين لبنى جراح من طيئ وكان

كبيرهم مفرج بن دغفل بن جراح وكان من أقطاعه التي معه وهو الذي قبض على اسكي مولى بنى بويه لما انهزم مع مولاة بختيار بالعراق وجاء إلى الشام سنة أربع وستين وثلاثمائة ومملك دمشق وزحف مع القرامطة لقتال العزيز بن المعز لدين الله صاحب مصر فهزمهم العزيز وهرب افتكين فلقبه مفرج بن دغفل وجاء به إلى العزيز فأكرمه ورفاه في دولته ولم يزل شأن مفرج هذا وتوفى سنة أربع وأربعمئة وكان من ولده حسان ومحمود وعلى وجرار وولى حسان بعده وعظم صيته وكان بينه وبين خلفاء الفاطميين معزة واستقامة وهو الذي هزم الرملة وهزم قائدهم باروق التركي وقتله وسبى نساءه وهو الذي مدحه التهامي ويذكر المسمى وغيره أن موطن دولة العبيديين في قرابة حسان بن مفرج هذا فضل بن ربيعة بن حازم وأخوه بدر بن ربيعة وابنا بدر ولعل فضلا هذا هو جد آل فضل (قال ابن الأثير) ان فضل بن ربيعة بن حازم كان أباه أصحاب السقاء والبيت المقدس وكان

[٨]

الفضل تارة مع الفرع وتارة مع خلفاء مصر ونكره لذلك طغركين أتاك دمشق وكافل بنى نبتى فطرده من الشام فنزل على صدقة بن وتر بالملة وحالفه ووصله صدقة بتسعة آلاف دينار فلما خالف صدقة بن مزيد على السلطان محمد بن ملسكاب سنة خمسمائة وما بعدها ووقعت بينهما الفتنة اجتمع له فضل هذا وقرواس بن شرف الدولة من قريص صاحب الموصل وبعض أمراء التركمان كانوا كلهم أولياء صدقة فصار في الطلائع بين يدي الحرب وهربوا إلى السلطان فأكرمهم وخلع عليهم وأنزل فضل بن ربيعة بدار صدقة بن مزيد ببغداد حتى إذا سار السلطان لقتال صدقة واستأذنه فضل في الخروج إلى البرية ليأخذ بحجرة صدقة فأذن له وعبر إلى الأنبار فلم يراجع السلطان بعدها اه كلام ابن الأثير ويظهر من كلامه وكلام المسيحي أن فضلا هذا وبدرا من آل جراح بلا شك ويظهر من سياقة هؤلاء نسبهم أن فضلا هذا هو جدهم لانهم ينسبونه فضل بن ربيعة بن الجراح فلعل هؤلاء نسبوا ربيعة إلى مفرج الذي هو كبير بنى الجراح لبعده العهد وقلة المحافظة على مثل هذا من البداية القفر وأما نسبة هذا الحى من آل فضل بن ربيعة بن فلاح من مفرج في طيئ فبعضهم يقول ان الرياسة في طيئ كانت لاياس بن قبيصة من بنى سبا بن عمر بن الغوث من طيئ وياس هو الذى ملكه كسرى على الحرة بعد آل المنذر لما قتل النعمان بن المنذر وهو الذى صالح خالد بن الوليد عن الحرة على الجزية ولم تزل الرياسة على طيئ إلى بنى قبيصة هؤلاء صدرا من دولة الاسلام فلعل بنى الجراح وآل فضل هؤلاء من أعقابهم وان كان انقرض أعقابهم فهم من أقرب الحى إليهم لان الرياسة على الاحياء والشعوب انما تتصل في أهل العصية والنسب كما مر أول الكتاب (وقال ابن حزم) عندما ذكر أنساب طيئ وأنهم لما خرجوا من اليمن مع بنى أسد نزلوا جبلى أجا وسلمى وأوطنوهما وما بينهما ونزل بنو أمد ما بينهم وبين العراق وفضل كثير منهم وهم بنو حارثة نسبة إلى أمهم وتيم الله وحبيش والاسعد اخوتهم رحلو على الميلين في حرب الفساد فلحقوا بحلب وحاصر طيئ وأوطنوا تلك البلاد الا بنى رومان بن جندب بن خارجة بن سعد فانهم أقاموا بالجبليين فكانوا جبليين ولاهل حلب وحاصر طيئ من بنى خارجة السهيليون اه فلعل هذه الاحياء الذين بالشام من بنى الجراح وآل فضل من بنى خارجة هؤلاء الذين ذكر ابن حزم انهم انتقلوا إلى حلب وحاصر طيئ لان هذا الموطن أقرب إلى مواطنهم لهذا العهد من مواطن بنى الجراح بفلسطين من جبلى أجا وسلمى اللذين هو موضع الآخرين فالله أعلم أي ذلك يصح من انسابهم وتحت خفارى بنوا حى الفرات ابن كلاب بن ربيعة بن عامر دخلوا مع قبائل عامر بن صعصعة بن نجد إلى الجزيرة ولما افترق بنو عامر على الممالك الاسلامية اختص هؤلاء بنواحي حلب

وملكها منهم بنو صالح بن مرداس من بنى عمر بن كلاب ثم تلاشى ملكهم ورجعوا عنها إلى الاحياء وأقاموا بالفرات تحت خفارة هؤلاء الامراء من طيئ (وأما ترتيب رياستهم) على العرب بالشام والعراق منذ دولة بنى أيوب العادل والى هذا العهد وهو آخر ست وتسعين وسبعمائة فقد ذكرنا ذلك في دولة الترك ملوك مصر والشام وذكرناهم واحدا بعد واحد على ترتيبهم وسنذكرهم ههنا على ذلك الترتيب فنقول كان الامير لعهد بنى أيوب عيسى بن محمد بن ربيعة أيام العادل كما كان بعده حسام الدين مانع بن حارثة بمصر والشام * وفى سنة ثلاثين وسبعمائة ولى عليهم بعده ابنه مهنا ولما ارتجع قطز بن عصية بن فضل أحد ملوك الترك بمصر الشام من أيدي التتر وهزمهم بعين جالوت أقطع سلمية لمهنا بن مانع وانتزعها من عمل المنصور بن قطر بن شالعه شاه صاحب حماة ولم أقف على تاريخ وفاة مهنا ثم ولى الظاهر على احياء العرب بالشام عند ما استفحل ملك الترك وسار إلى دمشق لتشجيع الخليفة الحاكم عم المستعصم إلى بغداد عيسى بن مهنا بن مانع وجزله الاقطاعات على حفظ السابلية وحبس ابن عمه زامل بن على بن ربيعة من آل فضل على سعابته وأغرامه ولم يزل بغير على احياء العرب وصلحوا في أيامه لانه خالف أباه في الشدة عليهم وهرب إليه سنقر الاسفر سنة تسع وسبعين وكتبوا أنفا واستحثوه لملك الشام وتوفى عيسى بن مهنا سنة أربع وثمانين فولى المنصور قلاون من بعده ابنه مهنا ثم سار الاشرف بن قلاون إلى الشام ونزل حمص ووفد عليه مهنا بن عيسى في جماعة من قومه فقبض عليه وعلى ابنه موسى وأخوته محمد وفضل ابني مهنا وبعث بهم إلى مصر فحبسوا بها حتى أفرج عنهم العادل كنعاً عند ما جلس على التخت سنة أربع وتسعين ورجع إلى امارته وكان له في أيام الناصر نصره واستقامة وميلة إلى ملوك التتر بالعراق ولم يحضر شيئاً من وقائع غازال ولما فر اسفر واقوش الافرم وأصحابهما سنة عشر وسبعمائة لحقوا به وساروا من عنده إلى خرشيد واستوحش هو من السلطان وأقام في أحيائه منقبضا عن الوفاة ووفد أخوه فضل سنة ثنتى عشرة فرعا له حق وفادته وولاه على العرب مكان أخيه مهنا وبقي مهنا مشرداً ثم لحق سنة ست عشرة بخرشيد ملك التتر فأكرمه وأقطعه بالعراق وهلك خرشيد في تلك السنة فرجع مهنا إلى أحيائه ووفد ابنه أحمد وموسى وأخوه محمد بن عيسى مستعنيين على الناصر ومتطارحين عليه فأكرم وفادتهم وأنزلهم بالقصر الابلق وشملهم بالاحسان وأعتب مهنا ورده إلى امارته واقطاعه وذلك سنة سبع عشرة وحج هذه السنة ابنه عيسى وأخوه محمد وجماعة من آل فضل في اثنى عشر ألف راحلة ثم رجع مهنا إلى دينه في ممالاة التتر والاجلاء على الشام واتصل ذلك

منه فنقم السلطان عليه وسخط عليه قومه أجمع وتقدم إلى أبواب الشام سنة عشرين بعد مرجعه من الحج فطرد آل فضل عن البلاد وأدال منهم مالكا على عدالته بينهم وولى منهم على احياء العرب محمد بن وصرف أقطاع مهنا وولده إلى محمد وولده فاقام مهنا على ذلك مدة ثم وفد سنة احدى وثلاثين مع الافضل ابن المؤيد صاحب حماة متوسلا به ومتطارحا على السلطان فأقبل عليه ورد عليه أقطاعه وامارته (وذكر لى) بعض أمراء الكبراء بمصر فيمن أدرك وفادته أو حدث بها انه تجافى في هذه الوفاة من قبول شئ من السلطان حتى انه ساق عنده النياق الحلوية والعراب وأنه لم يغش باب احد من ارباب الدولة ولا سأل منهم شيئاً من حاجاته ثم رجع إلى أحيائه

وتوفى سنة اربع وثلاثين فولى ابنه مظفر الدين موسى وتوفى سنة ثنتين واربعين عقب مهلك الناصر وولى مكانه اخوه سليمان ثم هلك سليمان سنة ثلاث واربعين فولى مكانه شرف الدين عيسى ابن عمه فضل بن عيسى ثم توفى سنة اربع واربعين بالفرس ودفن عند قبر خالد بن الوليد وولى مكانه اخوه سيف بن فضل ثم عزله السلطان بمصر الكامل ابن الناصر سنة ست واربعين وولى مكانه أحمد بن مهنا بن عيسى ثم جمع سيف بن فضل ولقيه فياض بن مهنا بن عيسى وانهزم سيف ثم ولى السلطان حسن الناصر في دولته الاولى وهو في كفالة سغاروس أحمد بن مهنا فسكنت الفتنة بينهم ثم توفى سنة سبع واربعين فولى مكانه أخوه فياض وهلك سنة تسع واربعين وولى مكانه أخوه حدار بن مهنا وولاه حسن الناصر في دولته الثانية ثم انتقض سنة خمس وستين واقام سنتين بالقصر عاصيا إلى أن تشيع فيه نائب حماة فأعيد إلى امارته ثم انتقض سنة سبعين فولى السلطان الاشرف مكانه ابن عمه زامل بن موسى بن عيسى وجاء إلى نواحي حلب واجتمع إليه بنو كلاب وغيرهم وعاثوا في البلاد وعلى حلب يومئذ قشتمر المنصوري فيرز إليهم وانتهى إلى خيمهم واستاق نعمهم وتخطى إلى الخيام فاستجاشوا بها وهزموا وقتل قشتمر ابنه في المعركة تولى هو قتله بيده وذهب إلى القفر منفضا فولى الاشرف مكانه ابن عمه معيقل بن فضل بن عيسى ثم بعث ابن معيقل صاحبه سنة احدى وسبعين يستأ من بجبار فامنه ثم وفد جبار بن مهنا سنة خمس وسبعين فرضى عنه السلطان وأعادته إلى امارته ثم توفى سنة سبع وسبعين فولى أخوه مالك إلى أن هلك سنة احدى وثمانين فولى مكانه معيقل بن موسى بن عيسى وابن مهنا شريكين في امارتهما ثم عزلا لسنة وولى يعير بن جابر بن مهنا واسمه محمد وهو لهذا العهد أمير على آل فضل وجميع أحياء طيئ بالشام والسلطان الظاهر لعده يزاحمه بحجر بن محمد ابن قارى حتى سخطه ثم وصل انتقاضه على السلطان وخلافه وظاهر السلطان على

مولاه ثم محمد بن قارى فسخطه وولى مكانهما ابن عمهما محمد بن كوكتين ابن عمه موسى ابن عساف بن مهنا فقام بامر العرب وبقي يعير منتبذا بالقفر وعجز عن الميرة لقله ما بيده واختلت أحواله وهو على ذلك لهذا العهد والله ولى الامور لارب سواه موسى بن عساف بن مهنا - بن عيسى بن مهنا بن مانع بن حديثة بن عصية بن فضل محمد بن قارى فياض موسى زامل زامل بن على أحمد سفيان بن فضل عيسى (ولنرجع) إلى ما بقى من شعوب هذه الطبقة فنقول كان بنو عامر بن صعصعة كلهم بنجد وبنو كلاب في خنصرة والريذة من جهات المدينة وكعب بن ربيعة فيما بين تهامة والمدينة وأرض الشام وبنو هلال بن عامر في بسائط الطائف ما بينه وبين جبل غزوان ونمير بن حامد معهم وجشم محسوبون منهم بنجد وانتقلوا كلهم في الاسلام إلى الجزيرة الفراتية مسلك نهر حران ونواحيها وأقام بنو هلال بالشام إلى أن طعنوا إلى المغرب كما نذكر في أخبارهم وبقي منهم بقية بجبل بنى هلال المشهور بهم قبلى قلعة صرخد وأكثرهم اليوم يتعاطون الفلج وبنو كلاب بن ربيعة ملكوا أرض حلب ومدبنتها كما ذكرناه وبنو كعب بن ربيعة دخلت إلى الشام منهم قبائل عقيل وقسر وحريش وجعدة فانقرض الثلاثة في دولة الاسلام ولم يبق الا بنو عقيل (وذكر) ابن حزم أن عددهم يقى عدد جميع مصر فملك منهم الموصل بنو مالك بعد بنى حمدان وتغلبوا واستولوا عليها وعلى نواحيها وعلى حلب معها ثم انقرض ملكهم ورجعوا للبادية وورثوا مواطن العرب في كل جهة فمنهم بنو المنتفق بن عامر بن عقيل وكان بنو مالك بن عقيل في أرض تيماء من نجد وهم الآن بجهات البصرة في الآجام التى بينها وبين الكوفة المعروفة بالبطائح والامارة منهم في بنى معروف وبالمغرب من بنى المنتفق

أحياء دخلوا مع هلال بن عامر يعرفون بالخلط ومواطنهم بالمغرب الأقصى ما بين فاس ومراكش (وقال الجرجاني) ان بنى المنتفق كلهم يعرفون بالخلط ويليهم في جنوب البصرة اخوتهم بنو عامر بن عوف بن مالك بن عوف بن عامر وعوف أخو المنتفق قد غلبوا على البحرين وعمارة وملكوها من يدى أبى الحسن الاصغر بن ثعلب وكانت هذه

[١٢]

المواطن للازد وبنى تميم وعبد القيس فورث هؤلاء أرضهم فيها وديارهم (قال ابن سعيد) وملكو أيضا أرض اليمامة من بنى كلاب وكان ملوكهم فيها العهد الخمسين والستمئة بنى عصفور وكان من بنى عقيل خفاجة بن عمر بن عقيل كان انتقلهم إلى العراق فأقاموا به وملكو ضواحيه وكانت لهم مقامات وذكر وهم أصحاب صولة وكثرة وهم الآن ما بين دجلة والفرات ومن عقيل هؤلاء بنو عبادة بن عقيل ومنهم الاجافل لان عبادة كان يعرف بالاجفل وهم لهذا العهد بالعراق مع بنى المنتفق وفى البطائح التى بين البصرة والكوفة وواسط والامارة فيهم على ما يبلغنا لرجل اسمه ميان بن صالح وهو في عدد ومنعة وما أدري أهو في بنى معروف أمراء البطائح بنى المنتفق أو من عبادة الاجافل هذه أحوال بنى عامر بن صعصعة واستيلائهم على مواطن العرب من كهلان وربيعه ومضر (فأما بنو كهلان) فلم يبق لهم أحياء فيما يسمع (وأما ربيعة) فأجازوا بلاد فارس وكرمان فهم ينتجعون هنا لك ما بين كرمان وخراسان وبقيت بالعراق منهم طائفة ينزلون البطائح والسبب إلى الكوفة منهم بنو صباح ومعهم لغائف من الاوس والخزرج فأمير ربيعة اسمه الشيخ ولى وعلى الاوس والخزرج طاهر بن خضر منهم هذه شعوب الطبقة الثالثة من العرب لهذا العهد في ديار المشرق بما أدى إليه الامكان (ونحن الآن نذكر شعوبهم الذين انتقلوا إلى المغرب) فان أمة العرب لم يكن لهم المام قط بالمغرب لا في جاهلية ولا في اسلام لان أمة البربر الذين كانوا به كانوا يمانعون عليه الامم وقد غزاه افريقش بن ضبيع الذى سميت به افريقية من ملوك التبابعة وملكها ثم رجع عنها وترك كتامة وصنهاجة من قبائل حمير فاستحالت طبيعتهم إلى البربر واندرجوا في أعدادهم وذهب ملك العرب منهم ثم جاءت الملة الاسلامية وظهر العرب على سائر الامم بظهور الدين فسارت في المغرب وافتتحو سائر أمصاره ومدنه وعابنوا من حروب البربر شدة وقد تقدم لنا ما ذكره ابن زيد من انهم ارتدوا اثنى عشرة مرة ثم رسخ فيهم الاسلام ولم يسكنوا بأجبالهم في الخيام ولا نزلوا أحياء لان الملك الذى حصل لهم يمنعه من سكنى الضاحية ويعدل بهم إلى المدن والامصار فلهذا قلنا ان العرب لم يوطنوا بلاد المغرب ثم انهم دخلوا إليه في منتصف المائة الخامسة وأوطنوه وافترقوا بأحيائهم في جهاته كما نذكر الآن ونستوعب أسبابه { الخبر عن دخول العرب من بنى هلال وسليم المغرب من الطبقة الرابعة وأخبارهم هنا لك } كانت بطون هلال وسليم من مضر لم يزالوا بادين الدولة العباسية

[١٣]

وكانوا أحياء ناجعة محللتهم من بعد الحجاز بنجد فبنو سليم مما يلي المدينة وبنو هلال في جبل عزوان عند الطائف وربما كانوا يطوفون رحلة الصيف والشتاء اطراف العراق والشأم فيغيرون على الضواحي ويفسدون السابلة ويقطعون على الرفاق وربما أغار بنو سليم على الحاج أيام الموسم بمكة وأيام الزيارة بالمدينة وما زالت البعوث تجهز والكتائب تكتب من باب الخلافة ببغداد للايقاع بهم وضون الحاج عن مضرات هجومهم ثم تحيز بنو سليم والكثير من ربيعة بن عامر إلى

القرامطة عند ظهورهم وصاروا جندا بالبحرين وعمان ولما تغلب شيعة ابن عبيد الله المهدي على مصر والشام وكان القرامطة قد تغلبوا على أمصار الشام فانتزعها العزيز منهم وغلبهم عليها وردهم على أعقابهم إلى قرارهم بالبحرين ونقل أشياعهم من العرب من بنى هلال وسليم فانزلهم بالصعيد وفي العدة الشرقية من بحر النيل فاقاموا هناك وكان لهم اضرار بالبلاد ولما انساق ملك صنهجة بالقيروان إلى المعز بن باديس بن المنصور سنة ثمان وأربعمائة قلده الظاهر لدين الله على بن الحاكم بأمر الله منصور بن العزيز لدين الله أمر افريقية على عادة آبائه كما نذكره لك بعد وكان لعهد ولايته غلاما يفعة ابن ثمان سنين فلم يكن مجريا للامور ولا بصيرا بالسياسة ولا كانت فيه عزة وأنفة ثم هلك الظاهر سنة سبع وعشرين وولى المنتصر بالله معز الطويل أمر الخلافة بما لم ينله أحد من خلفاء الاسلام يقال ولى خمسا وسبعين وقيل خمسا وتسعين والصحيح ثلاث وسبعون لأن مهلكه كان على رأس المائة الخامسة وكانت أذن المعز بن باديس صاغية إلى مذاهب أهل السنة وربما كانت شواهدها تظهر عليه وكبابه فرسه في أول ولايته لبعض مذاهبه فنأدى مستغيثا بالشيخين أبي بكر وعمر وسمعته العامة فناروا بالرافضة وقتلوه وأعلنوا بالمعتقد الحق ونادوا بشعار الايمان وقطعوا من الاذان حتى على خير العمل وأغضى عنه الظاهر من ذلك وابنه معز المنتصر من بعده واعتذر بالعامه فقبل واستمر على اقامة الدعوة والمهاداة وهو في أثناء ذلك ي كاتب وزيرهما وحاجب دولتهما المضطلع بأموورهما أبا القاسم أحمد بن على الجرجاني ويستميله يعرض بينى عبيد وشيعتهم وكان الجرجاني يلقب بالاقطع بما كان أقطعه الحاكم بجناية ظهرت عليه في الاعمال وانتهضته السيدة بنت الملك عمة المنتصر فلما ماتت استبد بالدولة سنة أربع عشرة وأربعمائة إلى أن هلك سنة ست وثلاثين وولى الوزارة بعده أبو محمد الحسن بن على الباروزي أصله من قرى فلسطين وكان أبوه ملاحا بها فلما ولى الوزارة خاطبه أهل الجهات ولم يولوه بالف من ذلك فعظم عليه وحنق عليه ثمال بن صالح صاحب حلب والمعز بن باديس صاحب افريقية وانحرفوا عنه وحلف

المعز لينقض طاعتهم وليحولن الدعوة إلى بنى عباس ويمحون اسم بنى عبيد من مناره ولج في ذلك وقطع أسماءهم من الطراز والرايات ويابح القائم أنا جعفر بن القادر من خلفاء بنى العباس وخاطبه ودعا له على منابره سنة سبع وثلاثين وبعث بالبيعة إلى بغداد ووصله أبو الفضل البغدادي وحظي من الخليفة بالتقليد والخلع وقرئ كتابه بجامع القيروان ونشرت الرايات السود وهدمت دار الاسماعيلية وبلغ الخبر إلى المستنصر معز الخليفة بالقاهرة والى الشيعة الرافضة من كتامة وصنائع الدولة فوجموا وطلع عليهم المقيم المقعد من ذلك وارتبكوا في أمرهم وكان أحياء هلال هؤلاء الاحياء من جشم والاثير وزغبة ورياح وربيعه وعدى في محلاتهم بالصعيد كما قدمناه وقد عم ضررهم وأحرق البلاد والدولة شررهم فأشار الوزير أبو محمد الحسن بن على الباروزي باصطناعهم والتقدم لمشايخهم وتوليتهم أعمال افريقية وتقليدهم أمرها و صنهجة ليكونوا عند نصر الشيعة والسبب في الدفاع عن الدولة فان صدقت المخيلة في ظفرهم بالمعز وصنهجة كانوا أولياء للدعوة وعمالا بتلك القاصية وارتفع عدوانهم من ساحة الخلافة وان كانت الأخرى فلها ما بعدها وأمر العرب البادية أسهل من أمر صنهجة الملوك فتغلبوا على هدية وثورانه وقيل ان الذى أشار بذلك وفعله وأدخل العرب إلى افريقية انما هو أبو القاسم الجرجاني وليس ذلك بصحيح فبعث المستنصر وزيره على هؤلاء الاحياء سنة احدى وأربعين وأرضخ لامرائهم في العطاء ووصل عامتهم بعيرا ودينارا لكل واحد منهم وأباح لهم اجازة النيل وقال لهم قد أعطيتكم المغرب وملك المعز بن بلكين

الصنهاجي العبد الأبق فلا تفتقرون وكتب الباروزى إلى المغرب اما بعد فقد أنفذنا اليكم خيولا فحولا وأرسلنا عليها رجالا كهولا ليقتضى الله أمرا كان مفعولا فطمعت العرب إذ ذاك وأجازوا النيل إلى برقة ونزلوا بها وافتتحوا أمصارها واستباحوها وكتبوا لآخوانهم شرقي النيل يرغبونهم في البلاد فأجازوا إليهم بعد أن أعطوا لكل رأس دينارين فأخذ منهم أضعاف ما أخذوه وتقارعوا على البلاد فحصل لسليم الشرق وللهلال الغرب وخربوا المدينة الحمراء وأجد ابية واسمرا وسرت وأقامت لهب من سليم وأحلافها راحة وناصرة وعمرة بأرض برقة وسارت قبائل دياب وعرف وزغب وجميع بطون هلال إلى افريقية كالجراد المنتشر لا يمرون بشئ الا أتوا عليه حتى وصلوا إلى افريقية سنة ثلاث وأربعين وكان أول من وصل إليهم أمير رياح موسى بن يحيى الصنبرى فاستماله المعز واستدعاه واستخلصه لنفسه وأصره إليه وواقومه في استدعاء العرب من قاصية وطنه للاستغلاظ على نواحي بنى عمه فاستنفر القرى وأتى عليهم فاستدعاهم فعاتوا في البلاد

[١٥]

وأظهروا الفساد في الارض ونادوا بشعار الخليفة المستنصر وسرح إليهم من صنهاجة الاولياء فافجعوا بها فتمخط المعز لكبره وأشاط بغضيه وتقبض على أخى موسى وعسكر بظاهر القيروان وبعث بالصريح إلى ابن عمه صاحب القلعة القائد بن حامد بن بلكين فكتب إليه كتيبة من ألف فارس سرحهم إليه واستغرزوا عن زنانة فوصل إليه المستنصر بن حزور المغراوى في ألف فارس من قومه وكان بالبدو من افريقية مع النازعة من زنانة وهو من أعظم ساداتهم وارتحل المقرف في أولئك النفر ومن لف لفهم من الاتباع والحشم والاولياء ومن في أبطالهم من بقايا عرب الفتح وحشد زنانة والبربر وصدم نحوهم في أمم لا تحصى وحاصر عددهم فيما يذكر ثلاثون ألفا وكانت رياح وزغبة وعدى حيدران من جهة فاس ولما تزاحف الفريقان انخذل بقية عرب الفتح وتميزوا إلى الهلاليين للعصية القديمة وخانته زنانة وصنهاجة وكانت الهزيمة على المعز وفر بنفسه وخاصته إلى القيروان وانتهبت العرب جميع محله من المال والمتاع والذخيرة والفساطيط والرايات وقتلوا فيها من البشر ما لا يحصى يقال ان القتلى من صنهاجة بلغوا ثلاثة آلاف وثلاثمائة وفى ذلك يقول على بن رزق الرياحي كلمته ويقال انها لابن شداد وأولها لقد زارو هنا من أميم خيال * وأيدي المطايا بالزميل عجال وإن ابن باديس لأفضل مالك * لعمرى ولكن ما لديه رجال ثلاثون ألفا منهم قد هزمتهم * ثلاثة آلاف وذاك ضلال ثم نازلوه بالقيروان وطال عليه أمر الحصار وهلكت الضواحي والقرى بافساد العرب وعيظهم وانتقام السلطان منهم بانتمائهم في ولاية العرب وليجأ الناس إلى القيروان وأكثروا النهب واشتد الحصار وفر أهل القيروان إلى تونس النهب في البلاد والعيث في البلاد ودخلت تلك الارض سنة خمس وأربعين وأحاطت زغبة ورياح بالقيروان ونزل موسى قريبا من ساحة البلد وفر القرابة والاعياص من آل زير فولاهم موسى قابس وغيرها ثم ملكوا بلاد قسطينة كلها وغزا عامل بن أبى هم زنانة ومغراوة فاستباحهم ورجع واقتسمت العرب بلاد افريقية سنة ست وأربعين وكان لزغبة طرابلس وما يليها ولمرداس بن رياح باجة وما يليها ثم اقتسموا البلاد ثانية فكان للهلال من تونس إلى الغرب وهم رياح وزغبة والمعقل وجشم وقرية والأثيج والخلط وسفیان وتصرم الملك من يد المعز وتغلب عائذ بن أبى الغيث على مدينة تونس وسلبها وملك أبو مسعود من شيوخهم مومه صلحا وعامل المعز على خلاص نفسه وصاهره ببناته ثلاثة

من أمراء العرب فارس بن أبي الغيث وأخاه عائذا والفضل بن أبي على المرادى وقدم ابنه تميم إلى المهدي سنة ثمان وأربعين ولسنة تسع بعدها بعث إلى اصهاره من العرب وترحم بهم ولحق بهم بالقيروان واتبعوه فركب البحر والساحل وأصلح أهل القيروان فأخبرهم ابنه المنصور بخبر أبيه فساروا بالسودان والمنصور وجاء العرب فدخلوا البلد واستباحوه واكتسحوا المكاسب وخربوا المباني وعاثوا في محاسنها وطمسوا من الحسن والرونق معالمها واستصفوا ما كان لآل بلكين في قصورها وشملوا بالغيث والنهب سائر حريمها وتفرق أهلها في الاقطار فعظمت الرزية وانتشر الداء وأعضل المطب ثم ارتحلوا إلى المهدي فنزلوها وضيقوا عليها بمنع المرافق وإفساد السابلة ثم حاربوا زناتة من بعد صنهاجة وغلبوهم على الضواحي واتصلت الفتنة بينهم وأغزاهم صاحب تلمسان من اعقاب محمد بن خزر وجيوشه مع وزيره أبي سعدى خليفة اليمرنى فهزموه وقتلوه بعد حروب طويلة واضطرب أمر افريقية وخرب عمرانها وفسدت سابلتها وكانت رئاسة الضواحي من زناتة والبربر لبنى يفرق ومغراوة وبنى ماند وبنى تلويمان ولم يزل هذا دأب العرب وزناتة حتى غلبوا صنهاجة وزناتة على ضواحي افريقية والزاب وغلبوا عليها صنهاجة ونهروا من بها من البربر وأصاروهم عبيدا وخدموا بياحة وكان في هؤلاء العرب لعهد دخولهم افريقية رجالات مذكورون وكان من أشرفهم حسن بن سرحان وأخوه بدر وفضل بن ناهض وينسبون هؤلاء في دريد بن الاثيخ وماضي بن مقرب ونيونه بن قره وسلامة بن رزق في بنى كبير من بطون كرفة بن الاثيخ وشاقة بن الاحيمر وأخوه صلصيل ونسيوهم في بنى عطية من كرفة ودياب ابن غانم وينسبونه في بنى ثور وموسى بن يحيى وينسبونه في مرداس رياح لا مرداس سليم فاحذر من الغلط في هذا وهو من بنى صغير بطن مرداس رياح وزيد بن زيدان وينسبونه في الضحاك ومليحان بن عباس وينسبونه في حمير وزيد العجاج بن فاضل ويزعمون أنه مات بالحجاز قبيل دخولهم إلى افريقية وفارس بن أبي الغيث وعامر أخوه والفضل بن أبي على ونسبهم أهل الاخبار منهم في مرداس المقهى كل هؤلاء يذكرون في أشعارهم وكان زياد بن عامر رائدهم في دخول افريقية ويسمونه بذلك أبا مخبير وشعوبهم لذلك العهد كما نقلناهم زغبة ورياح والاثيخ وقره وكلهم من هلال بن عامر وربما ذكر فيهم بنو عدى ولم نقف على أخبارهم وليس لهم لهذا العهد حى معروف فلعلمهم دثروا وتلاشوا وافترقوا في القبائل وكذلك ذكر فيهم بريعة ولم نعرفهم لهذا العهد الا أن يكونوا هم المعقد كما تراه في نسبهم وكان فيهم من غير هلال كثير من فزارة وأشجع من بطون غطفان وحشم بن معاوية بن بكر بن هوازن وسلول بن مرة بن

صعصة بن معاوية والمعقل من بطون اليمنية وعمرة بن أسد بن ربيعة بن نزار وبنى تور ابن معاوية بن عبادة بن ربيعة البكاء بن عامر بن صعصة وعدوان بن عمرو بن قيس ابن عيلان وطرود بطن من فهم بن قيس الا أنهم كلهم مندرجون في هلال وفى الاثيخ منهم خصوصا الآن الرئاسة كانت عند دخولهم للاثيخ وهلال فأدخلوا فيهم وصاروا مندرجين في جملتهم وفرقة من هؤلاء الهلاليين لم يكونوا من الذين أجازوا القيل العهد البازورى أو الجرجاني وإنما كانوا من قبل ذلك ببرقة أيام الحاكم العبيدي ولهم فيها اخبار مع الصنهاجيين ببرقة ضرخوط ونسبهم إلى عبد مناف بن هلال كما ذكر شاعرهم في قوله طلبنا القرب منهم وجزيل منهم * بلا عيب من عرب سحاح جمودها وبيت عرت أمره منا وبينها * طرود انكاد اللى يكودها ماتت ثلاث آلاف مره واربعه * بحرمة منا تداوى كبودها وقال الآخر منهم أبا رب جبر الخلق من نائج البلا * الا القليل انجار ما لا يجيرها وخص بها

قرة مناف وعينها * ديما لارياد البوادي تشيرها فذكر نسيهم في مناف وليس في هلال مناف هكذا منفردا انما هو عبد مناف والله تعالى اعلم وكان شيخهم أيام الحاكم مختار بن القاسم ولما بعث الحاكم يحيى بن على الاندلسي لصرخ فلغور بن سعيد بن خزروق بطرابلس على صنهاعة كما نذكره في اخبار بنى خزروق اوغر لهم في السير معه فوصلوا إلى طرابلس وجروا الهزيمة على يحيى بن على ورجعوا إلى برقة وبعث عنهم فامتنعوا ثم بعث لهم بالامان ووصل وفدهم إلى الاسكندرية فقتلوا عن آخرهم سنة أربع وتسعين وثلاثمائة وكان عندهم معلم للقرآن اسمه الوليد بن هشام ينسب إلى المغيرة بن عبد الرحمن من بنى أمية وكان يزعم ان لديه اثاره من علم في اختيار ملك آياته وقيل ذلك منه البرابرة من مرامه وزناته ولواته وتحدثوا بشانه فنصبه بنو قرة وما بعده بالخلافة سنة خمس وتسعين وتغلبوا على مدينة برقة وزحف إليهم جيوش الحاكم فهزموهم وقتل الوليد بن هشام وقائدها من الترك ثم رجعوا به إلى مصر فانهمزوا ولحق الوليد بأرض ألحا من بلاد السودان ثم أخفرت ذمته وسبق إلى مصر وقتل وهدرت لبنى قرة جنابتهم هذه وعفا عنهم ولما كانت سنة ثنتين وأربعمائة اعترضوا هدية باديس بن المنصور ملك صنهاعة من افريقية إلى مصر فأخذوها وزحفوا إلى برقة فغلبوا العامل عليها ومر في البحر واستولوا على برقة ولم يزل هذا شأنهم ببرقة فلما زحف اخوانهم الهلاليون من زغبة

ورياح والاثيج واتباعهم إلى افريقية كانوا ممن زحف معهم وكان من شيوخهم ماضى ابن مقرب المذكور في اخبار هلال ولهؤلاء الهلاليين في الحكاية عن دخولهم إلى افريقية طرق في الخبر يزعمون ان الشريف بن هاشم كان صاحب الحجاز ويسمونه شكر بن أبى الفتوح وأنه أصهر إلى الحسن بن سرحان في أخته الجازية فانكحه اياها وولدت منه ولدا واسمه محمد وأنه حدث بينهم وبين الشريف مغاضبة وفتنة وأجمعوا الرحلة عن نجد إلى افريقية وتحيلوا عليه في استرجاع هذه الجازية فطلبتة في زيارة أبويها فأزارها اياهم وخرج بها إلى حلهم فارتحلوا به وبها وكنتموا رحلتها عنه وموهوا عليه بانهم يباكرون به للصيد والقنص ويروحون به إلى بيوتهم بعد بنائها فلم يشعر بالرحلة إلى ان فارق موضع ملكه وصار إلى حيث لا يملك أمرها عليهم ففارقوه فرجع إلى مكانه من مكة وبين جوانحه من حبها داء دخيل وانها من بعد ذلك كلفت به مثل كلفه إلى ان ماتت من حبه ويتناقلون من اخبارها في ذلك ما يعفى عن خبر قيس وكثير ويروون كثيرا من اسغارها محكمة المباني متفقة الاطراف وفيها المطبوع والمنتحل والمصنوع لم يفقد فيها من البلاغة شئ وانما فقط ولا مدخل له في البلاغة كما قرناه لك في الكتاب الاول من كتابنا هذا الا ان الخاصة من أهل العلم بالمدن يهدون في روايتها ويستنكفون عنها لما فيها من خلل الاعراب وبحسبون ان الاعراب هو أصل البلاغة وليس كذلك وفى هذه الاشعار كثير أدخلته الصنعة وفقدت فيه صحة الرواية فلذلك لا يوثق به ولو صحت روايته لكانت فيه شواهد بآياتهم ووقائعهم مع زناته وحر وبهم وضبط لاسماء رجالاتهم وكثير من أحوالهم لكننا لا نشق بروايتها وربما يشعر البصير بالبلاغة بالمصنوع منها وبتهمه وهذا اقصاري الامر فيه وهم متفقون على الخبر عن حال هذه الجازية والشريف خلفا عن سلف وجيلا عن جيل ويكاد القادح فيها والمستريب أمرها أن يرمى عندهم بالجنون والخلل المفرط لتواترها بينهم وهذا الشريف الذي يشيرون إليه هو من الهواشم وهو شكر بن أبى الفتوح الحسن بن أبى جعفر بن هاشم محمد بن موسى بن عبد الله أبى الكرام بن موسى الجون بن عبد الله بن ادريس وأبو الفتوح هو الذى خطب لنفسه بمكة أيام الحاكم العبيدي وبايع له بنو الجراح امراء طيئ بالشام وبعثوا عنه فوصل إلى احيائهم وبايع له كافة العرب ثم غلبتهم

عساكر الحاكم العبيدي ورجع إلى مكة وهلك سنة ثلاثين وأربعمائة فولى بعده ابنه شكر هذا وهلك سنة ثلاث وخمسين وولى ابنه محمد الذي يزعم هؤلاء الهلاليون أنه من الجازية هذه وتقدم ذلك في اخبار العلوية هكذا نسيه ابن حزم (وقال ابن سعيد) هو من السليمانيين من ولد

[١٩]

محمد بن سليمان بن داود بن حسن بن الحسن السبط الذي بايع له أبو الزاب الشيباني بعد ابن طباطبا ويسمى الناهض ولحق بالمدينة فاستولى على الحجاز واستقرت اماره ملكه في بنيه إلى ان غلبهم عليها هؤلاء الهواشم جدا قريبا من الحسن والحسين واما هاشم الاعلى فمشترك بين سائر الشرفاء فلا يكون مميزا لبعضهم عن بعض واخبرني من أثق به من الهلاليين لهذا العهد انه وقف على بلاد الشريف شكر وانها بقعة من أرض نجد مما يلي الفرات وان ولده بها لهذا العهد والله أعلم ومن مزاعمهم ان الجازية لما صارت إلى افريقية وفارقت الشريف خلفه عليها منهم ماض بن مقرب من رجالات دريد وكان المستنصر لما بعثهم إلى افريقية عقد لرجالاتهم على امصارها وتغورها وقلدهم أعمالها فعقد لموسى بن يحيى المرادسى على القيروان وباجة وعقد لزغبة على طرابلس وقابس وعقد لحسن بن سرحان على قسنطينة فلما غلبوا صنهجة على الامصار وملك كل ما عقد له سميت الرعايا بالامصار عسفهم وعيئهم باختلاف الايدي إذ الوازع مفقود من أهل هذا الجيل العربي مذ كانوا فشاروا بهم وأخرجوهم من الامصار وصاروا إلى ملك الضواحي والتغلب عليها وسوم الرعايا بالخسف في النهب والعيث وافساد السابلة هكذا إلى هلم ولما غلبوا صنهجة اجتهد زناتة في مدافعتهم بما كانوا أملك للباس والنجدة باليدوة فحاربوهم ورجعوا إليهم من افريقية والمغرب الاوسط وجهاز صاحب تلمسان من بنى خزر قائده أبا سعدى الفتري فكانت بينهم وبينه حروب إلى ان قتلوه بنواحي الزاب وتغلبوا على الضواحي في كل وجه وعجزت زناتة عن مدافعتهم بافريقية والزاب وصار الملتحم بينهم في الضواحي بجبل راشد ومصاب من بلاد المغرب الاوسط فلما استقر لهم الغلب وضعت الحرب أوزارها وصالحهم الصنهاجيون على خطة خسف في انفرادهم بملك الضواحي دونهم وصاروا إلى التفريق بينهم وظاهر الأئيج على رياح وزغبة وحشد القاصر بن علناس صاحب القلعة لمظاهرتهم وجمع زناتة وكان فيهم المعز بن زيري صاحب فاس من مغراوة ونزلوا الارس جميعا ولقيهم رياح وزغبة بسببه ومكر المعز بن زيري المغراوى بالقاصر وصنهجة بدسياسة زعموا من تميم بن تميم ومن المعز بن باديس صاحب القيروان فجر عليهم الهزيمة واستباحت العرب وزناتة هذا من القاصر ومضاربه وقتل أخوه القاسم ونجا إلى قسنطينة ورياح في اتباعه ثم لحق بالقلعة فنزلوها وخربوا جنباتها واحبطوا عروشها وعاجوا على ما هنالك من الامصار ثم طينة والمسيلة فحربوها وأزعجوا ساكنيها وعطفوا على المنازل والقرى والضياح والمدن فتركوها قاعا صفصفا أفر من بلاد الجن وأوحش من جوف العير وغوروا المياه واحتبطوا الشجر

[٢٠]

وأظهروا في الارض الفساد وهجروا ملوك افريقية والمغرب وصنهجة وولاة أعمالها في الامصار وملكوا عليهم الضواحي يتحينون جوانبهم ويفعدون لهم بالمراسد ويأخذون لهم الاتاوة على التصرف في أوطانهم ولم يزل هذا دأبهم حتى لقد هجر القاصر بن علناس سكنى القلعة واختط بالساحل مدينة بجاية ونقل إليها ذخيرته

وأعدّها لنزله ونزلها المنصور ابنه من بعده فرارا من ضيم هذا الجيل
وفسادهم بالضواحي إلى منعة الجبال وتوعر مسالكها على
رواحلهم واستقروا بها بعد وتركوا القلعة وكانوا يختصون الأثيخ من
هؤلاء الأحياء بالرياسة سائر أيامهم ثم افترق جمع الأثيخ وذهبت
بذهاب صنهاجة دولتهم ولما غلب الموحدون سائر الدول بالمغرب
في سنة إحدى وأربعين وخمسمائة وزحف شيخ الموحدين عبد
المؤمن إلى إفريقية وفد عليه بالجزائر أميران منهم لذلك العهد أبو
الجليل بن شاذلي أمير الأثيخ وحباس بن مسيفر من رجالات جشم
فتلقاهما بالميرة وعقد لهما على قومهما ومضى لوجهه وفتح بجاية
سنة تسع وخمسين ثم انتقض العرب الهلاليون على دعوة صنهاجة
وكان أمير رباح فيهم محرز بن زناد بن بادخ إحدى بطون بني علي بن
رباح فلقبهم جيوش الموحدين سطيف وعليهم عبد الله بن عبد
المؤمن فتوافقوا علقوا فيهما رواحلهم وأثبتوا في مستنقع الموت
أقدامهم ثم انتقض في الرابعة جمعهم واستلحقهم الموحدون وغلبوا
عليهم وغنموا أموالهم وأسروا رجالهم وسبوا نساءهم وأتبعوا
أديارهم إلى محصن سبتة ثم راجعوا من بعد ذلك بصائرهم
واستكانوا العز الموحدين وغلبهم فدخلوا في دعوتهم وتمسكوا
بطاعتهم وأطلق عبد المؤمن أسراهم ولم يزالوا على استقامتهم
ولم يزل الموحدون يستغزونهم في جهادهم الأندلس وربما بعثوا
إليهم في ذلك المخاطبات الشعرية فأجازوا مع عبد المؤمن ويوسف
ابنه كما هو في أخبار دولتهم ولم يزالوا في استقامتهم إلى أن خرج
عن الدولة بنو غانية المسوفيون أمراء ميورقة أجازوا البحر في
أساطيلهم إلى بجاية فكسبها سنة إحدى وثمانين وخمسمائة
لاول دولة المنصور وكشفوا القناع في نقض طاعة الموحدين ودعوا
العرب بها فعدت هيف إلى أديانها وكانت قبائل جشم ورياح وجمهور
الأثيخ من هؤلاء الهلاليين أسرع اجابة إليها ولما تحركت جيوش
الموحدين إلى إفريقية لكف عدوانهم تحيزت قبائل زغبة إليهم وكانوا
في حملتهم ولحق بنو غانية بفاس ومعهم كافة جشم ورياح ولحق
بهم جل قومهم من مسوفة واخوانهم لمتونة من اطراف البقاع
واستمسكوا بالدعوة العباسية التي كان أمراؤهم بنو تاشفين
بالمغرب يتمسكون بها فأقاموها فيمن إليهم من القبائل والمسالك
وتزلوا بفاس وطلبوا من الخليفة ببغداد المستنصر تجديد العهد لهم
بذلك

وأوفدوا عليه كاتبهم عبد البر بن فرسان فعقد لابن غانية وأذن له في
حرب الموحدين واجتمعت اليه قبائل بني سليم بن منصور وكانوا
جاؤا على اثر الهلاليين عند اجازتهم إلى إفريقية وظاهره على أمره
ذلك قراقوش الأرميني ونذكر أخباره في أخبار الميروفى فاجتمع لعل
بن غانية من الملهين والعرب والعجم عساكر جمعة وغلب الضواحي
وافتح بلاد الجريد وملك قفصة ونور ونفطة ونهض إليه المنصور من
مراكش يجر أمم المغرب من زناتة والمصامدة وزغبة من الهلاليين
وجمهور الأثيخ فأوقعوا بمقدمته بفحص عمرة من جهات قفصة ثم
زحف إليهم من تونس فكانت الكرة عليهم وقل جمعهم وأتبع آثارهم
إلى أن شردهم إلى صحارى برقة وانتزع بلاد قسطينة وناسى
وقفصة من أيديهم وراجعت قبائل جشم ورياح من الهلاليين طاعته
ولاذوا بدعوته فنفاهم إلى المغرب الأقصى وأنزل جشم ببلاد تامسنا
ورياحا ببلاد الهبط وأزغار مما يلي سواحل طنجة إلى سلا وكانت
لحوم بلاد تاتة منذ غلبهم الهلاليون على إفريقية وضواحيها أرض
مصاب ما بين صحراء إفريقية وصحراء المغرب الأوسط وبها قصور
جددها فسميت باسم من ولى خطتها من شعوبهم وكان بنو يادين
وزناتة وهم بنو عبد الواد وتوجين ومصاب وبقوز ودال وبنوراش شيعة
الموحدين منذ أول دولتهم فكانوا أقرب إليهم من أمثالهم بنو مرين
وأنظارهم كما يأتي وكانوا يتولون من ريف المغرب الأوسط وتلو له ما

ليس يليه أحد من زناتة ويجوسون خلاله في رحلة الصيف بما لم يؤذن لاحد ممن سواهم في مسه حتى كأنهم من جملة عساكر الموحدين وحاميتهم وأمرهم إذ ذاك راجع إلى صاحب تلمسان من سادة القرابة ونزل هذا الحى من زغبة مع بنى يادين هؤلاء لما اعتزلوا اخوانهم الهلاليين وتميز إلى فنتهم وصاروا جميعا قبلة المغرب الاوسط من مصاب إلى جبل راشد بعد ان كانت قسمتهم الاولى بقابس وطرابلس وكانت لهم حروب مع أولاد حزروق أصحاب طرابلس وقتلوا سعيد بن عزرون فصاروا إلى هذا الوطن الآخر بمشة بن غانية وانحرفهم عنه إلى الموحدين وانعقد ما بينهم وبين بنى يادين حلف على الجوار والذب عن الاوطان وحمائتها من معرة العدو في احتيال غرتها وانتهاز الفرصة فيها فتعاقدوا على ذلك واجتوروا وأقامت زغبة في القفار وبنو يادين بالتلول والضواحي ثم فر مسعود بن سلطان بن زمام أمير الرياحيين من بلاد الهبط ولحق ببلاد طرابلس ونزل على زغب وذئاب من قبائل بنى سليم ووصل إلى مرافش بن رياح أخص معه طرابلس حين افتتحها وهلك هنالك وقام إلى الميرونى ولحق ولفيه بالجملة فهزمه وقتل الكثير من قومه وانهزمت طائفة من قوم محمد بن مسعود منهم ابنه عبد الله وابن عمه حركات بن أبى الشيخ بن عساكر بن سلطان وشيخ من شيوخ قره فضر

[٢٢]

أعناقهم وفر يحيى بن غانية إلى مسقطه من الصحراء واستمرت على ذلك أحوال هذه القبائل من هلال وسليم واتباعها ونحن الآن نذكر أخبارهم ومصائر أمورهم ونعددهم فرقة فرقة ونخص منهم بالذكر من كان لهذا العهد بحيه وناجعته ونطوى ذكر من انقرض منهم ونبدأ بذكر الأثيج لتقدم رياستهم أيام صنهاجة كما ذكرناه ثم نقفى بذكر جشم لانهم معدودون فيهم ثم نذكر رياحا وزغبة ثم المعقل لانهم من أعداء هلال ثم نأتى بعدهم بذكر سليم لانهم جاؤا من بعدهم ولله الخلق القديم * (الخبر عن الأثيج ويطونهم من هلال بن عامر من هذه الطبقة الرابعة) * كان هؤلاء الأثيج من الهلاليين أوفر عددا وأكثر بطونا وكان التقدم لهم في جملتهم وكان منهم الضحاك وعباس ومقدم والعاصم والطيف ودريد وكرفة وغيرهم حسبما يظهر في نسبهم وفى دريد بطنان وعنز ويقولون بزعمهم ان أثيج هو ابن أبى ربيعة ابن نهنيك بن هلال فكرفة هو ابن الأثيج وكان لهم جمع وقوة وكانوا أحياء غزيرة من جملة الهلاليين الداخلين لأفريقية وكانت مواطنهم حيال جبل أوراس من سرقية ولما استقر أمر الأثيج بأفريقية على غلب صنهاجة على الضواحي ووقعت الفتنة بينهم وذلك ان حسن ابن سرحان وهو من دريد قتل شبانة بن الاحيمر من كرفة غيلة فطوت كرفة له على الهائم ثم ان أخته الجازية غاضبت زوجها ماضى بن مقرب بن قره ولحقت بأخيها فمنعها منه فاجتمعت قره وكرفة على فتنة حسن وقومه وظاهرتهم عياض ولم تزل الفتنة إلى ان قتل حسن بن سرحان قتله أولاد شبانة بن الاحيمر وثأروا منه بأبيهم ثم كان الغلب بعده لدريد على كرفة وعباس وقره واستمرت الفتنة بين هؤلاء الامالغ وافترق أمرهم وجاءت دولة الموحدين وهم على ذلك الشتات والفتنة وكانت لبطونهم ولاية لصنهاجة فلما ملك الموحدون افريقية نقلوا منهم إلى المغرب العاصم ومقدما وقره وتوابع لهم من جشم وأنزلوا جميعهم بالمغرب كما نذكر واعتزت رياح بعدهم بأفريقية وملكوا ضواحي قسطينة ورجع إليهم شيخهم مسعود بن زمام من المغرب فاعتز الزواودة على الامراء والدول وساء أثرهم فيها وغلبوا بقايا الأثيج فنزلوا قرى الزاب وقعدوا عن الطعن وأوطنوا بالقرى والأطام ولما نبذ بنو أبى حفص العهد للزواودة كما يأتي في أخبارهم واستجاش عليهم بنو سليم وأنزلوهم القيروان اصطنعوا كرفة من بطون الأثيج فكانوا حر بالرياح وشيعة للسلطان وأقطعهم الدولة لذلك جباية الجانب الشرقي من

جبل أوراس وكثيرا من بلاد الزاب الشرقية حيث كانت محلاتهم الشموية حتى إذا اختل ريح الدولة وأخلقت جدتها واعتزت رياح عليها وملكوا

[٢٣]

المجالات على من يطعن فيها نزل كرفة هؤلاء بجبل أوراس حيث أقطاعاتهم وسكنوه مللا متفرقة واتخذوه وطنا وربما يطعن بعضهم إلى تخوم الزاب كما نذكر عن بطونهم وهم بطون كثيرة فأولهم بنو محمد بن كرفة ويعرفون بالكلية وأولاد سعيب بن محمد بن كليب ويعرفون بالشبه وأولاد صبيح بن فاضل بن محمد بن كليب ويعرفون بالصحة وأولاد سرحان بن فاضل أيضا ويعرفون بالسرحانية وهؤلاء هم المودعات وهم موطنون بجبل أوراس مما يلي زاب تهودا ثم أولاد نافث بن فاضل وهم أهل الرياسة في كرفة ولهم أقطاعات السلطان التي ذكرناها وهم ثلاثة أفخاذ أولاد مساعد وأولاد ظافر وأولاد قطيعة والرياسة أخص بأولاد مساعد في أولاد على بن جابر بن فتاح بن مساعد بن نابت وأما بنو محمد والمروانة فهم طواعن جائلة في القفار تلقاء مواطن أولاد نابت ويكتالون الحبوب لا قواتهم من زروع أهل الجبل وأولاد نابت وربما يستعملهم صاحب الزاب في تصاريق أمره من عسكر وأخبار وغير ذلك من اغراضه وأما دريد فكانوا أعز الأثبج وأعلامهم كعبا بما كانت الرياسة على الأثبج كلهم عند دخولهم إلى إفريقية لحسن بن سرحان بن وبرة إحدى بطونهم وكانت مواطنهم ما بين ولد العناب إلى قسنطينة إلى طارف مصقلة وما يحاذيها من القفر وكانت بينهم وبين كرفة الفتنة التي هلك فيها حسن بن سرحان كما ذكرناه وقبره هنالك وكانوا بطونا كثيرة منهم أولاد عطية بن دريد وأولاد سرو بن دريد وأولاد جار الله من ولد عبد الله بن دريد وتوبة من ولد عبد الله أيضا وهو توبة بن عطاق بن جبر ابن عطاق بن عبد الله وكانت لهم بين هلال رياسة كثيرة ومدحهم شعراؤهم فمن ذلك قول بعض شعرائهم دريد ذات سراة البدو للوجود منقع * كما كل أرض منقع الماء خيارها تحن إلى أوطان مرة يا فتى لكن معها * جملة دريد كان موارها وهم عربوا الأعراب حتى تعربت * بنوف المعالي ما ينفي فصارها وتركوا طريق النار برهة وقد * كان ما تقوى المطايا حجارها فأما أولاد عطية فكانت رياستهم في أولاد بنى مبارك بن حباس وكانت لهم تلة بن حلوف من أرض قسطينة ثم دثروا وتلاشوا وغلبتهم توبة على تلة بن حلوف زحفوا إليها من مواطنهم بطارق مصقلة بملوكها وما إليها ثم عجزوا عن رحلة القفر وتركوا الابل واتخذوا الشاء والبقر وصاروا في عداد القبائل الغارمة وربما طالبهم السلطان بالعسكرة معه فيعينون له جندا منهم ورياستهم في أولاد وشاح بن عطوة بن عطية بن كمون بن فرج بن توبة وفي أولاد مبارك بن عابر بن عطية بن عطوة

[٢٤]

وهم على ذلك العهد ويجاورهم أولاد سرور وأولاد جار الله على سنانهم في ذلك فأما أولاد وشاح فرياستهم لهذا العهد منقسمة بين سجم بن كثير بن جماعة بن وشاح وبين أحمد بن خليفة بن رشاش بن وشاح وأما أولاد مبارك بن عابر فرياستهم أيضا منقسمة بين ماح بن محمد بن منصور وأما أولاد جار الله فرياستهم في ولد عنان بن سلام منهم وأما العاصم ومقدم والضحاك وعباض فهم أولاد مشرف بن أثلج ولطيف وهو ابن سرح بن شرف وكان لهم عدد وقوة بين الأثبج وكان العاصم ومقدم انحرفوا عن طاعة الموحدين إلى ابن غانية فأشخصهم يعقوب المنصور إلى المغرب وأنزلهم تامسنا مع جشم ويأتى خبرهم ويقيت عباض والضحاك بمواطنهم بإفريقية

فعباض نزلوا بجبل القلعة قلعة بنى حماد وملكوا قبائله وغلبوهم على أمرهم وصاروا يتولون جبايتهم ولما غلبت عليهم الدولة بمظاهرة رياح صاروا إلى المدافعة عن تلك الرعايا وجبايتهم للسلطان وسكنوا ذلك الجبل فطوله من المشرق إلى المغرب ما بين ثنية غنية والقصاب إلى وطن بنى يزيد بن زغبة فأولهم مما يلي غنية للمهاية ورياستهم في أولاد يغل ومعهم بطن منهم يقال لهم الزبر وبعدهم المرتفع والخراج من بطونهم فأما المرتفع فثلاثة بطون أولاد تبار ورياستهم في أولاد محمد بن موسى وأولاد حناش ورياستهم في بنى عبد السلام وأولاد عبدوس ورياستهم في بنى صالح ويرعى أولاد حناش وأولاد تبار جميعا أولاد حناش وأما الخراج فرياستهم لأولاد زائدة بنى عباس ابن خصى ويجاور الخراج من جانب الغرب أولاد صخر وأولاد رحمة من بطون عباض وهم مجاورون لبنى يزيد بن زغبة في آخر وطن الاثابج من الهلاليين وأما الضحاك فكانوا بطونا كثيرة وكانت رياستهم مفترقة بين أميرين منهم وهما أبو عطية وكلب بن منيع وغلب كلب أبا عطية على رئاسة قبيلتهما الأولى دولة الموحدين فارتحل فيما زعموا إلى المغرب وسكن صخر سجلماسة وكانت له فيها آثار حتى قتله الموحدون أو غربوه إلى الأندلس هكذا ينقل أصحاب أخبارهم ويقى نجعهم بالزاب حتى غلب مسعود بن زمام والزواودة عليهم وأصاروهم في جملتهم ثم عجزوا عن الطعن ونزلوا بلاد الزاب واتخذوا بها المدن فهم عن ذلك لهذا العهد وأما لطيف فهم بطون كثيرة منهم الينى وهم أولاد كسلان بن خليفة بن لطيف ببرذوى مطرف وذوى أبى الحليل وذوى حلال بن معافى ومنهم اللقامنة أولاد لقمان بن خليفة بن لطيف ومنهم أولاد جرير بن علوان بن محمد بن لقمان ونزار بن معن بن عيا واليه يرجع نسب بنى مرى الولاة بالزاب لهذا العهد وكانت لهؤلاء كثرة ونجعة ثم عجزوا عن الطعن وغلبهم على الضواحي الزواودة من بعدهم لما قل جمعهم وافترق ملوكهم وصار إلى المغرب من صار

منهم من جمهور الاثابج فاهتضموا وعليهم رياح والزواودة فنزلوا بلاد الزاب واتخذوا بها الأطم والمدن مثل الدرسن وعرسدا ونهدوه ونقموه وبادس وهم لهذا العهد من جملة الرعايا الغارمة لأمير الزاب ولهم عجمة منذ رياستهم القديمة لم يفارقوها وهم على ذلك لهذا العهد وبينهم في قصورهم بالزاب فتن متصلة بين المتجاورين منهم وحروب ودية وعامل الزاب يدرأ بعضا ببعض ويستوفى جبايته منهم جميعا والله خير الوارثين ويلحق بهؤلاء الاثابج القمور وغلب على الظن أنهم من ولد عمرو بن عبد مناف وليسوا من ولد عمر بن أبى ربيعة بن نهيك بن هلال لان رياحا وزغبة والاثابج بن أبى ربيعة ولا نجد بينهم انتماء بالجملة ونجد بينهم وبين قره وغيرهم من بطون هلال الانتماء فدل على أنهم لعمرو بن عبد مناف أو يكونون من عمر بن ربيعة بن عبد الله بن هلال وكلهم معروف ذكره ابن الكلبي والله أعلم بذلك وهم بطنان قره وعبد الله وليس لهم رئاسة على أحد من هلال ولا ناجعة تطعن لقتلهم وافتراق ملئهم انما هم ساكنون بالضواحي والجبال وفيهم الفرسان وأكثرهم رجالة وموطنهم ما بين جبل أوراس شرقا إلى جبل راشد وكان كل ذلك من ناحية المصنة والصحراء وأما التلول فهم مرفوعون عنها بقتلهم وجومهم من حامية الدول فتجدهم أقرب إلى موطن القفر والجذب (فأما بنو قره) منهم فبطون متسع الانهم مفترقون في القبائل والمدن وحدانا وبنو عبد الله منهم على رئاسة فيهم وهم عبد الله بن على وبنوه محمد وماضي بطنان وولد محمد عنان وعزيز بطنان وولد عنان شكر وفارس بطنان من ولد شكر أولاد يحيى بن سعيد بن بسيط بن شكر بطن أيضا فأما أولاد فارس وأولاد عزيز وأولاد ماضي فموطنهم بسفح جبل أوراس المطل على بسكرة قاعدة الزاب متصلين كذلك غربا إلى مواطن غمرة وهم في حوار رياح وتحت أيديهم وخول لأولاده وخصوصا من الزواودة المتولين

موطنهم بالمجال ولصاحب الزاب عليهم طاعة لقرب جواره وحاجتهم إلى سلطانه فيصرفهم لذلك في حاجته متى عنت من أخبار العير ومقارفة مدن الزاب مع رحله وغير ذلك (وأما أولاد شكر) وهم أكبر رياسة فيهم فنزلوا جبل راشد وكانوا فريقين فنزلوا واحتربوا أولاد ذكرى ودفعوهم عن جبل راشد فصاروا إلى جبل كسال محاذيه من ناحية الغرب وأوطنوه واتصلت فتننتهم معهم على طول الايام وافتتحهم رجال زغبة باقسام المواطنين فصار أولاد يحيى أهل جبل راشد في اباله سوبر بن زغبة واحلافا لهم وأولاد ذكرى أهل جبل كسال في اباله بنى عامر واحلافا لهم وربما يقتحمون بادية زغبة مع أهل المصر احلافا لهم في فتننتهم كما نذكر في اخبار زغبة وكان شيخهم من أولاد يحيى فيما قرب من عهدنا عامر بن أبى يحيى بن يحيى وكان له فيهم ذكر وشهرة وكان ينتحل العبادة وحج

[٢٦]

ولقى بمصر شيخ الصوفية لعصره يوسف الكوراني وأخذ عنه ولقى طرف هداية ورجع إلى قومه وعاهدهم على طريقته ونحلته وكان شيخ أولاد ذكرى يعمر بن موسى بن بوزير بن ذكرى وكان يساوى عامرا وبناهضه في شرفه الا ان عامرا كان اسود منه بنحلة العبادة والله مصرف الامور والخلق اه

[٢٧]

هؤلاء الاحياء بالمغرب لهذا العهد فيهم بطون من قره والعاظم ومقدم والاثبح وجشم والخلط وغلب عليهم جميعا اسم جشم فعرفوا به وهم جشم بن معاوية بن بكر بن هوازن وكان أصل دخولهم إلى المغرب ان الموحدين لما غلبوا على افريقية وأذعنت لهم هؤلاء القبائل من العرب كانت فتنة ابن غانية فاجلبوا فيها وانحرفوا عن الموحدين وراجعوا الطاعة لعهد المنصور فنقل جشم هؤلاء الذين غلب اسمهم على من معهم من الاحياء وأنزلهم تامسنا ونقل رياح وأنزلهم السبط فنزل جشم بتامسنا البيط الافيج ما بين سلا ومراكش أواسط بلاد المغرب الاقصى وأبعدها عن الثنايا المفضية إلى القفار لاحاطة جبل درن بها وشموخه بأنفه حذاءها ووشوح اعراقه حجرا عليها فلم يتمموا بعدها قفرا ولا ابعداو رحلة وأقاموا بها احياء حلولا وافتقرت جيوشهم بالمغرب إلى الخلط وسفيان وبنى جابر وكانت الرياسة لسفيان من بينهم في أولاد جرمون سائر أيام الموحدين ولما وهن أمر بنى عبد المؤمن وفشلوا وذهبت ريحهم استكثروا بجموعهم فكانت لهم سورة غلب واسر على الدولة بكثرتهم وقرب عهدهم بالبدواة وخربوا ما بين الاعياض وظاهروا الخلافة وأكثروا الفساد وسائر آثارهم باقية ولما اقتحم بنو مرين بلاد المغرب على الموحدين وملكوا فاس وقريتها لم تكن فيه حامية أشد منهم بأسا ومن رياح لقرب العهد بالبدواة فكانت لهم معهم وقائع وحروب استلحهم فيها بنو مرين إلى ان حق الغلب واستكانوا لعز بنى مرين ووصولتهم وأعطوهم صفقة الطاعة وأصهر بنو مرين منهم إلى الخلط في بنت بنى مهلهل فكان في جملة بنى مرين وكانت لهم الجولة للملك واستقرت رياسة جشم وكترهم في الخلط منهم في بنت مهلهل بعد ان كانت على عهد الموحدين في سفيان ثم ضربت الايام ضربانها وأخلقت حدتهم وفشلوا وذهبت ريحهم ونسوا عهد البدواة والناجعة وصاروا في عداد القبائل الغارمة للجباية والعسكرة مع السلطان (ولنذكر الآن) فرقمهم الاربع واحياء كل واحدة منها ونحق الكلام في أنسابهم فليست راجعة إلى جشم على ما يتبين ولكن الشهرة بهذا النسب متصلة والله أعلم بحقائق الامور هذه قبائل معدودة في جشم وجشم المعهود هو جشم بن معاوية

بن بكر بن هوان أو لعله جشم آخر من غيرها وكان شيخهم المشهور لعهد المأمون وبنيه جرمون بن عيسى ونسبه فيما يزعم بعض المؤرخين أيام الموحدين في بنى قرة وكانت بينهم وبين الخلط شيعة للمأمون وبنيه فصار سفيان لذلك شيعة يحيى بن الناصر منازعه في الخلافة بمراكش ثم قتل الرشيد مسعود بن حميدان شيخ الخلط كما نذكر بعد فصاروا إلى يحيى ابن القاص وصار سفيان إلى الرشيد ثم ظهر بنو مرين بالمغرب واتصلت حروبهم مع

[٢٨]

الموحدين ونزع جرمون سنة ثمان وثلاثين عن الرشيد ولحق بمحمد بن عبد الحق أمير بنى مرين حياء مما وقع له معه وذلك سنة ثمان وثلاثين وذلك انه نادمه ذات ليلة حتى سكر وحمل عليه وهو سكران يرقص طربا ثم أفاق فندم وفر إلى محمد بن عبد الحق وذلك سنة ثمان وثلاثين وستمائة وهلك سنة تسع وثلاثين بعدها وعلا كعب كانون ابنه من بعده عند السعيد وخالف عليه عند نهوضه إلى بنى مرين سنة ثلاث وأربعين ورجع إلى دازمور فملكها وقت ذلك في عقد السعيد فرجع عن حركته وقصد كانون بن جرمون ففر أمامه وحضر حركته إلى تامزركت وقتل قبل مهلكه بيوم قتله الخلط في فتنة وقعت بينهم في محلته السعيدة وهى التى جرت عليها تلك الواقعة وأقام بأمر سفيان من بعده أخوه يعقوب بن جرمون وقتل محمد ابن أخيه كانون وقام بأمر سفيان وحضر مع المرتضى حركة أمان إيملولين سنة تسع وأربعين فرحل عن السلطان واختل عسكره فرجع فاتبعه بنو مرين وكانت الهزيمة ثم رجع المرتضى وعفا له عنها ثم قتله سنة تسع وخمسين مسعود وعلى أبناء أخيه كانون بثأر أبيهما ولحقا يعقوب بن عبد الحق سلطان بنى مرين وقدم المرتضى ابنه عبد الرحمن فعجز عن القيام بأمره فقدم عمه عبيد الله بن جرمون فعجز فقدم مسعود بن كانون ولحق عبد الرحمن بنى مرين ثم نهض المرتضى على يعقوب بن قيطون شيخ بنى جابر وقدم عوضا منه يعقوب بن كانون السفيناني ثم راجع عبد الرحمن بن يعقوب سنة أربع وخمسين فتقبض عليه وأقتل وأقام مسعود بن كانون شيخا على سفيان وكان لبنى عمه معه وعيسى أبناء يعقوب بن جرمون ونزع مسعود عن يعقوب مقامه إلى ان هلك سنة ست وستين ابن عبد الحق ولحق بمسكورة وشب نار الفتنة والحرب وأقيم الحطوحطو ابن يعقوب مقامه إلى ان هلك سنة تسع وستين فولى مكانه أخوه عيسى وهلك مسعود بمسكورة سنة ثمانين ولحق ابنه منصور بن مسعود بالسكسيوى إلى أن راجع الخدمة أيام يوسف بن يعقوب ووفد عليه بعسكره من حصار تلمسان سنة ست وسبعمائة فتقبله واتصلت الرياسة على سفيان في بنى جرمون هؤلاء إلى عهدنا وأدركت شيخا لعهد السلطان أبى عنان يعقوب بن على بن منصور بن عيسى بن يعقوب بن جرمون ابن عيسى وكان سفيان هؤلاء حيا حلولا باطراف تامسنا مما يلى أسفى وملك بسائطها الفسيحة عليهم الخلط وبقي من أحيائهم الحرث والكلابة ينتجعون أرض السوس وقفاره ويطلبون ضواحي بلاد جاجة من المصامدة فبقيت فيهم لذلك شدة وبأس ورماتهم في أولاد مطاوع من الحرث وطال عيئهم في ضواحي مراكش وافسادهم فلما استبد سلطان مراكش الامير عبد الرحمن بن أبى فلفوس على ابن السلطان أبى على

[٢٩]

سنة ست وسبعين وسبعمائة كما نذكر استخلصهم ورفع منزلتهم واستقدمهم بعض أيامه للعرض بفرسانهم ورجلهم على العادة وشيخهم منصور بن يعييش من أولاد مطاع وتقبض عليهم أجمعين

مبارك هذا معه ولما تقبض على أبي الفضل تقبض على مبارك وأودع السجن إلى ان غلب السلطان عبد العزيز على عامر بن محمد وقتله فقتل معه مبارك هذا لما كان يعرف به من صحابته ومدخلته في الفتن كما يذكر في أخبار بنى مرين وولى ابنه محمد على قبيل الخلط الا ان الخلط اليوم دثرت كان لم تكن بما أصابهم من الخصب والترف منذ مائتين من السنين بذلك البسيط الافيح زيادة للجز والدعة فأكلتهم السنون وذهب بهم الترف والله غالب على أمره * (بنو جابر بن جشم) * بنو جابر هؤلاء من عداد جشم بالمغرب وربما يقال انهم من سدراتة احدى فرق زناتة أو لواتة والله أعلم بذلك وكان لهم أثر في فتنة يحيى بن الناصر بما كانوا معه من احزابه ولما هلك يحيى بن الناصر سنة ثلاث وثلاثين وستمائة بعث الرشيد بقتل شيخهم قائد بن عامر وأخيه قائد وولى بعده يعقوب بن محمد بن قيطون ثم اعتقله يعلو قائد الموحد بن بعثه المرتضى لذلك وقدم يعقوب بن حرموق وولى مشيخة بنى جابر اسمعيل بن يعقوب بن قيطون ثم تحيز بنو جابر هؤلاء من احياء جشم إلى سفح الجبل بتادلاوما إليها يجاورون هناك صناكة السالكين بقشة وهضابة من البربر فيسهلون إلى السبب تارة وبأوون إلى الجبل في حلف البربر وجوارهم أخرى إذا دهمتهم مخافة

من السلطان أودى غلبة والرياسة فيهم لهذه العصور في ورديقة من بطونهم أدركت شيئا عليهم لعهد السلطان أبي عنان حسين بن على الورديقى ثم هلك وأقيم مقامه الناصر ابنه ولحق بهم الوزير الحسن بن عمر عند نزوعه عن السلطان إلى سالم سنة ستين وسبعمائة ونهضت إليهم عساكر السلطان فأمكنوا منه ثم لحق بهم أبو الفضل بن السلطان أبي سالم عند فراره عن مراكش سنة ثمان وستين ونازله السلطان عبد العزيز واحتط به فلحق براهة وصناكة من قومه ثم أمكنوا منه على مال حمل إليهم ولحق بهم أثناء هذه الفتن الأمير عبد الرحمن يعلو سن على عهد الوزير عمر بن عبد الله المتغلب على المغرب وطلبه عمر فأخرجه عنهم وطال بذلك مراس الناصر هذا للفتنة فنكرته الدولة وتقبض عليه وأودع السجن فمكث فيه سنين وتجاقت الدول عنه من بعد ذلك وأطلق عقابهم ثم رجع من المشرق فتقبض عليه الوزير أبو بكر بن غازي المستبد بالمغرب على ابن السلطان عبد العزيز وأودعه السجن ونقلوا الرياسة عن بنى على هؤلاء والله يقلب الليل والنهار وقد يزعم كثير من الناس ان ورديقة من بنى جابر ليسوا من جشم وانهم بطن من بطون سدراتة احدى شعوب لواتة من البربر ويستدلون على ذلك بمواطنهم وجوارهم للبربر والله أعلم بحقيقة ذلك * (العاصم ومقدم من الاثبج) * هؤلاء الاحياء من الاثبج كما ذكرنا في أنسابهم ونزلوا تامسنا معهم وكانت لهم عزة وعلواء الا ان جشم أعز منهم لمكان الكثرة وكان موطنهم بسيط تامسنا وكانت للسلطان عليهم عسكرة وجباية كان اخوانهم من جشم وكان شيخ العاصم لعهد الموحد بن عامر المأمون منهم حسن بن زيد وكان له أثر في فتنة يحيى بن الناصر ولما هلك سنة ثلاث وثلاثين أمر الرشيد بقتل حسن بن زيد مع قائد وقائدا بنى عامر شيوخ بنى جابر فقتلوا جميعا ثم صارت الرياسة لابي عياد وبنيه وكان بينهم لعهد بنى مرين عياد بن أبي عياد وكان له تغلب في النفرة والاستقامة فر إلى تلمسان ورجع منها أعوام تسعين وستمائة وفر إلى السوس ورجع منه سنة سبع وسبعمائة ولم يزل دأبه هذا وكانت له ولاية مع يعقوب بن عبد الحق من قبل ذلك ومقاماته في الجهاد المذكورة وبقيت رياسته في بنيه إلى ان انقرض أمرهم وأمر مقدم وديروا وتلاشوا والله خير الوارثين * (الخبر عن رياح ووطنهم من هلال بن عامر من هذه الطبقة الرابعة) * كان هذا القبيل من أعز قبائل هلال وأكثرهم جمعا عند دخولهم افريقية

وهم فيما ذكره ابن الكلبي رياح بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر وكانت رياستهم حينئذ

[٣٢]

لموسى بن يحيى الضنبري من بطون مرداس بن رياح وكان من رجالاتهم لذلك العهد الفضل بن علي مذكور في حروبهم مع صنهاعة وكانت بطونهم عمر ومرداس وعلي كلهم بنو رياح وسعيد بن رياح وخضر بن عامر بن رياح وهم الا خضر ولمرداس بطون كثيرة داود بن مرداس وضنبر بن حواز بن عقيد بن مرداس واخوتهم مسلم بن عقيل ومن اولاده عامر بن يزيد بن مرداس بطن اخرى منهم بنو موسى بن عامر وجابر بن عامر وقد يقال انهم من لطيف كما قدمناه وسودان ومشهور وبنو محمد بن عامر من بطون ثلاثة اسم وسودان وعلي بن محمد وقد يقال أيضا ان المشاهرة وهم بنو مشهور بن هلال ابن عامر من نمير رياح والله أعلم والرياسة على رياح في هذه البطون كلها لمرداس وكانت عند دخولهم افريقية في ضنبر منهم ثم صارت للزواودة أبناء داود بن مرداس بن رياح ويزعم بنو عمر بن رياح ان اباهم كفله ورباه وكان رئيسهم لعهد الموحدين مسعود ابن سلطان بن زمام بن ورديقى بن داود وكان يلقب البلط لشدة وصلابته ولما نقل المنصور رياحا إلى المغرب تخلف عساكر أخو مسعود في جماعات منهم لما بلاه السلطان من طاعته وانحياشه وأنزل مسعودا وقومه لبلاد الهبط ما بين قصور كتامة المعروف بالقصر الكبير إلى ازغار البسيط الفيج هناك إلى ساحل البحر الاخضر واستقروا هنالك وفر مسعود بن زمام من بينهم في لمة من قومه سنى تسعين وخمسمائة ولحق بافريقية واجتمع إليه بنو عساكر أخيه ولحقوا بطرابلس ونزلوا على زغب وذئاب يتقلبون بينهم ثم نزع إلى خدمة قراقش وحضر معه بقومه فتح طرابلس كما نذكره في أخبار قراقش ثم رجع إلى ابن غانية الميروفى ولم يزل في خلافة ذلك إلى ان هلك وقام بأمره من بعده ابنه محمد وكانت له رياسة وغناء في فتنة الميروفى مع الموحدين ولما غلب أبو محمد بن أبي حفص يحيى الميروفى مع الموحدين سنة ثمانى عشرة على الحمة من بلاد الجريد وقتل من العرب من قتل كان فيمن قتله ذلك اليوم عبد الله بن محمد هذا وابن عمه أبو الشيخ بن حركات بن عساكر ولما هلك الشيخ أبو محمد رجع محمد بن مسعود إلى افريقية وغلب عليها واجتمع إليه حلف الاثنج طواعن من الضحاك ولطيف فكاثروه واعتزوا به على قتالهم من دريد وكرفة إلى ان عجزت طواعن الضحاك ولطيف عن الرحلة واقتروا في قرى الزاب وصدرة وبقى محمد بن مسعود يتغلب في رحلته وصارت رياسة البدو في ضواحي افريقية ما بين قسطيلة والزاب والقيروان والمسيلة له ولقومه ولما هلك يحيى بن غانية من العرب من بنى سليم والرياح سنة احدى وثلاثين كما نذكره انقطع ملكهم واستغلظ سلطان أبي حفص واستقل منهم الامير يحيى بن عبد الواحد بخطبة الخلافة عندما فسد كرما بمراكش واقترق اتباع يحيى بن غانية من العرب من بنى سليم

[٣٣]

والرياح فنكره آل أبي حفص هؤلاء الزواودة ومكانهم من الوطن مما سلف من عنادهم ومشايعتهم لابن غانية في أخبارهم واصطنعواهم لمشايعة الدولة وضربوا بينهم وبين قبائل رياح وأنزلوهم بالقيروان وبلاد قسطيلة وكان آية لمحمد بن مسعود ووفد عليه في بعض السنين وقد مرداس يطليون المكيل وينزلون عليهم فشرهوا إلى نعمتهم وقتلواهم عليها وقتلوا رزق بن سلطان عم محمد بن مسعود

فكانت بينهم وبين رياح أيام وحروب حتى رحلهم جانب المشرق من افريقية وأصاروهم إلى جانبها الغربي وملك الكعوب ومرداس من بنى سليم ضواحي الجانب الشرقي كلها من قاس إلى بونة ومعطة وامتاز الزواودة بملك ضواحي قسنطينة وبجاية من التلول ومجالات الزاب وريغ وواركلا وما وراءها من القفار في بلاد القبلة وهلك محمد بن مسعود فولى رياسته موسى بن محمد وكان له صيت وغناء في قومه واعتزاز على الدولة (ولما هلك يحيى) بن عبد الواحد بوبع ابنه محمد المنتصر الطائر الذكر المصنوع له في الشهرة وخرج عليه أخوه ابراهيم فلحق بالزواودة هؤلاء فبايعوه بجهات قسنطينة واتفقوا على تقديمه ونهض إليه المنتصر سنة ست وستين وستمئة ففروا أمامه وافترق جمعهم وتميز إليه بنو عساكر ابن سلطان منهم ورياستهم يومئذ لولد مهدي بن عساكر ونبذوا العهد إلى ابراهيم بن يحيى ولحقوا بتلمسان وأجاز البحر إلى الاندلس وأقام بها في جوار الشيخ ابن الاحمر ثم هلك موسى بن محمد وولى رياسته ابنه شبل بن موسى واستطال على الدولة وكثر عينهم فنبذ المنتصر عهدهم ونهض إليه بعساكره وجموعه من الموحدين والعرب من بنى سليم وأولاد عساكر اخوانهم وعلى مقدمته الشيخ أبو هلال عياد بن محمد الهنتاتي وكان يومئذ أميراً بجاية وحاول عليهم فاستقدم رؤسائهم شبل بن موسى بن محمد بن مسعود ومعهم دريد بن تازير شيخ أولاد نابت من كرفة فتقبض عليهم لحين قدومهم وضرب أعناقهم في سريح واخذ ابن راية حيث بايعوا أبا اسحق أخاه والقاسم بن بوزير بن أبي حفص القارح إليهم لطلب الخروج على الدولة وافترقت ظواعنهم وفروا امامه واتبعهم إلى آخر الزاب وترك شبل بن موسى سباعاً ابنه طفلاً صغيراً فكفله عمه مولاهم ابن موسى ولم تزل الرياسة بهم وترك سباع ابنه يحيى ايضاً طفلاً فكفله عمه طلحة ابن يحيى ولحق جدهم بملوك زناتة المغرب وأولاد محمد لحقوا ببعقوب بن عبد الحق بفاس وأولاد سباع بن يحيى لحقوا بيغمراسن بن زيان بتلمسان فكسوهم وحملوهم فارتاشوا وقتلوا واحتالوا وزحفوا إلى مواطنهم فتغلبوا على اطراف الزاب من واركلا وقصور ريغ وصيروها سهاماً بينهم وانتزعوها للموحدين فكان آخر عهدهم بملكها ثم تقدموا إلى بلاد الزاب وجمع لهم عاملها أبو سعيد عثمان بن محمد بن عثمان ويعرف

بابن عتوا من رؤساء الموحدين وكان منزله بمقرة فزحف إليهم بمكانهم من الزاب وأوقعوا به وقتلوه بقلطاوة وغلبوا على الزاب وضواحيه لهذا العهد ثم تقدموا إلى جبل أوراس فغلبوا على من به من القبائل ثم تقدموا إلى التل وجمع لهم من كان به من أولاد عساكر وغلبهم موسى بن ماضى بن مهدي بن عساكر فجمع قومه ومن في حلفهم من عياض وغيرهم وتزاحفوا فغلبهم أولاد مسعود وقتلوا شيخهم موسى بن ماضى وتولوا الوطن بما فيه ثم تلافى الدولة أمرهم بالاصطناع والاستمالة وأقطعوهم ما غلبوا عليه من البلاد بجبل أوراس والزاب ثم الامصار التي بالبسيط الغربي من جبل أوراس المسمى عندهم بالحصنة وهي نفاوس ومقرة والمسيلة واختص أقطاع المسيلة بسباع بن شبل بن يحيى حتى صارت لعلى بن سباع بن يحيى من بعد ذلك فهي في قسم بنه وسهامهم واختص أقطاع مقرة بأحمد بن عمر بن محمد وهو ابن عم شبل ابن موسى بن سباع ونفاوس بأولاد عساكر ثم هلك سباع بن شبل وقام بامرهم ابنه عثمان ويعرف بالعاكر فنازعه الرياسة بنو عمه على بن أحمد بن عمر بن محمد بن مسعود وسليمان بن على بن سباع بن يحيى ولم يزلوا كذلك لهذا العهد ولهم تغلب على ضواحي بجاية وقسنطينة ومن بها من سرديكش وعياض وأمثالهم ورياسة أولاد محمد الآن ليعقوب بن على بن أحمد وهو كبير الزواودة بمكانه وسنه وله شهرة وذكر ومجل من السلطان متوارث ورياسة أولاد سباع في

أولاد على بن سباع وأولاد على أشرف منهم وأعز بالكثرة والعدد ورياستهم في ولد يوسف بن سليمان بن على بن سباع وترادفهم أولاد يحيى بن على بن سباع واختص أولاد محمد بنواحي قسنطينة وأقطعتهم الدول كثيرا من أريافها واختص أولاد سباع بنواحي بجاية واقطاعهم فيها قليل لمنعة بجاية وضواحيها عن ضيم العرب ولغلبهم بالجيال المطيية بها وتوعد مسالكها على رواحل الناجعة وأما ريغ وواركلا فقسمة بينهم منذ عهد سلغهم كما قلنا وأما الزاب فالجانب الغربي منه وقاعدته طواقة لاولاد محمد وأولاد سباع بن يحيى وكانت لابي بكر بن مسعود فلما ضعف بنوه ودثروا اشتراها منهم على بن أحمد شيخ أولاد عمر وسليمان بن على شيخ أولاد سباع واتصلت بينهم بسببها الفتنة وصارت في مجالات أولاد سباع بن يحيى فسار غلب سليمان وبنيه عليها أكثروا لجانب الوسط وقاعدته بسكرة لاولاد محمد وفي مجالاتهم وليعقوب بن على على عامله بسبب ذلك سلطان وعزة وله به تمسك واليه انجياش في منعته من الدولة واستبداده بوطنه وحماية ضواحيه من غيث الاعراب وفسادهم غالب الاوقات وأما الجانب الشرقي من الزاب وقاعدته بادس وتنومة فهو لاولاد نابت رؤساء كرمسة بما هو من مجالاتهم وليس هو من مجالات رياح الا ان

| ٣٥ |

عمال الزاب تأخذ منه في الاكثر جباية غير مستوفاة بعسكر لها بنادية رياح باذن من كبيرهم ويعقوب وانزاله في الامر ويطون رياح كلها تبع لهؤلاء الزواودة ومقتسمون عليهم وملتمسون مما في أيديهم وليس لهم في البلاد ملك يستولون عليه وأشدهم قوة وأكثرهم جمعا بطون سعيد ومسلم والاخضر يبعدون النجعة في القفار والرمال ويسخرون الزواودة في فتنة بعضهم مع بعض ويختصون بالحلف فريقا دون آخر فسعيد احلاف لاولاد محمد سائر أيامهم الا قليلا من الاحيان ينايدونهم ثم يراجعونهم ومسلم والاخضر احلاف لاولاد سباع وكذلك لابي حاييز (فاما سعيد) فرياستهم لاولاد يوسف ابن زيد منهم في ولد ميمون بن يعقوب بن عريف بن يعقوب بن يوسف واردا فهم أولاد عيسى بن رحاب بن يوسف وهم ينتسبون بزعمهم إلى بنى سليم في أولاد القرس من سليم والصحيح من نسبهم انهم من رياح بالحلف والموطن ومع أولاد يوسف هؤلاء لفائف من العرب يعرفون بالمخادمة والعيوث والفجور فاما المخادمة والعيوث من ابناء مخدم فمن ولد مشرف بن أثيج وأما الفجور فمنهم من البرابر لواتة وزناتة احدى بطونهم وفيهم من بغاث فاما بغاث فمن بطون حرام وسياتي ذكرهم (وأما زناتة) فهم من طور لواتة كما ذكرناه في بنى جابر ويتاد لا كثير منهم إلى العدو لعهد بنى الاحمر سلطان الزنادى وكانت له في الجهاد آثار وذكروا أن منهم بأرض مصر والصعيد كثيرا وأما احلاف أولاد محمد من الزواودة فبطن من رقاب بن سودات بن عامر بن صعصعة اندرجوا في أعداد رياح ولهم معهم ظعن ونجعة ولهم مكان من حلفهم ومظاهرتهم وأما احلاف أولاد سباع من مسلم والاخضر فقد قدمنا ان مسلما من أولاد عقيل بن مرداس بن رياح ومرداس بن رياح بعضهم ينتسب إلى الزبير بن العوام وهو خلط ويقول بعض من ينكر عليهم انما هو نسب إلى الزبير بن المهابة الذين هم من بطون عياض كما ذكرناه ورياسته في أولاد جماعة بن مسلم بن حماد بن مسلم بين أولاد تاسكر بن حامد بن كسلان ابن غيل بن رحال بن جماعة وبين أولاد زواوة بن موسى بن قطران بن جماعة وأما الاخضر فيقولون انهم من ولد خضر بن عامر وليس عامر بن صعصعة فان ابناء عامر ابن صعصعة معروفون كلهم عند النسابين وانما هو والله أعلم عامر آخر من أولاد رياح ولعله عامر بن زيد بن مرداس المذكور في بطونهم أولهم من الخضر الذين هم ولد مالك ابن طريف بن مالك بن حفصة بن قيس عيلان ذكرهم صاحب الاغانى وقال انما سمو الخضر لسوادهم والعرب تسمى الاسود أخضر قال

وكان مالك شديد السمرة فأشبهه ولده ورياستهم في أولاد تامر بن على بن تمام بن عمار بن خضر بن عامر بن رياح واختصت مريم بأولاد تامري ولد عامر بن صالح بن عامر بن عطية بن تامر وفيهم بطن

[٣٦]

آخر لزيادة بن تمام بن عمار وفي رياح أيضا بطن من عمرة بن أسد بن ربيعة من نزار ويظعنون مع ناديم (وأما من نزل من رياح) ببلاد الهبط حيث أنزلهم المنصور فأقاموا هنالك بعد رحلة رئيسهم مسعود بن زمام بتلك المواطن إلى ان انقرضت دولة الموحدين وكان عثمان بن نصر رئيسهم أيام المأمون وقتله سنة ثلاثين وستمائة ولما تغلب بنو مريم على ضواحي المغرب ضرب الموحدون على رياح هؤلاء البعث مع عساكرهم فقاموا بحماية ضواحيهم وتحيز لهم بنو عسكر بن محمد بن محمد من بنى مريم حين كانوا حربا لآخوانهم بنى حمامة بن محمد سلف الملوك منهم لهذا العهد فكانت بين الفريقين جولة قتل فيها عبد الحق بن مجيد بن أبي بكر بن جماعة أبو الملك وابنه ادريس فأوجدوا السبيل لبنى مريم على أنفسهم في طلب الثرة والدماء فأثخنوا فيهم واستلجموهم قتلا وسبوا مرة بعد أخرى وكان آخر من أوقع بهم السلطان أبو ثابت عامر بن يوسف بن يعقوب سنة سبع وسبعمائة تتبعهم بالقتل إلى ان لحقوا برؤس الهضاب وأسنمة الربا المتوسطة في المرج المستبحر بازغار فصاروا إلى عدد قليل ولحقوا بالقبائل القادمة ثم دثروا وتلاشوا شأن كل أمة والله وارث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين لا رب غيره ولا معبود سواه وهو نعم المولى ونعم النصير عليه توكلنا واليه أنبأ واليه المصير نسأله سبحانه وتعالى من فيض فضله العميم وتوسل إليه بجاه نبيه الكريم أن يرزقنا إيمانا دائما وقلبا خاشعا وعلمنا نافعا ويقينا صادقا ودينا قيما والعافية من كل بلية وتمام العافية ودوام العافية والشكر على العافية والغنى عن الناس وان يحسن عاقبتنا في الأمور كلها وان يجيرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة وان يرزقنا من فضله وكرمه إيمانا لا يرتد ونعيما لا ينفد وقرة عين لا تنقطع ومرافقة نبينا وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في أعلى جنات الخلد بمنه وكرمه انه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين

[٣٨]

* (الخبر عن سعادة العالم بالسنة في رياح ومآل أمره وتصاريف أحواله) * كان هذا الرجل من مسلم احدى شعوب رياح ثم من رحمان منهم وكانت أمه تدعى خصيبة وكانت في أعلى مقامات العبادة والورع ونشأ هو منتحلا للعبادة والزهد وارتحل إلى المغرب ولقى شيخ الصالحين والفقهاء لذلك العهد بنواحي تازة أبا اسحق التسولى وأخذ عنه ولزمه وتفقه عليه ورجع إلى وطن رياح بفقهِ صحيح وورع وإفِر ونزل طولة من بلاد الزاب وأخذ بنفسه في تغيير المنكر على أقاربه وعشيرته ومن عرفه أو صحبه فاشتهر بذلك وكثرت غاشيته لذلك من قومه وغيرهم ولزم صحابته منهم اعلام عاهدوه على التزام طريفته كان من أشهرهم أبو يحيى بن أحمد بن شيخ بنى محمد بن مسعود من الزواودة وعطية بن سليمان بن سباع شيخ أولاد سباع بن يحيى منهم وعيسى بن يحيى بن ادريس شيخ أولاد ادريس وأولاد عساكر منهم محسن بن سلامة شيخ أولاد طلحة بن يحيى بن دريد بن مسعود منهم وهجرس بن على من أولاد يزيد بن زغبة ورجال من العطاف من زغبة في كثير من اتباعهم والمستضعفين من قومهم فكثر بذلك تابعه واستظهر

بهم على شأنه في إقامة السنة وتغيير المنكر على من جاء به واشتد على قاطع الطريق من شرار البوادي ثم تخطى ذلك إلى العمار فطلب عامل الزاب يومئذ منصور بن فضل بن مزني باعفاء الرعايا من المكوس والظلمات فامتنع من ذلك واعتزم على الإيقاع به فحال دونه عشائر أصحابه وباعوه على إقامة السنة والموت دونه في ذلك وأذنهم ابن مزني في الحرب ودعا لذلك أمثالهم ونظراءهم من قومهم وكان لذلك العهد على بن أحمد بن عمر بن محمد قد قام برياسة أولاد محمد وسليمان بن علي بن سباع قد قام برياسة أولاد يحيى واقتسموا برياسة الزواودة فظاهروا ابن مزني على مدافعة سعادة وأصحابه المرابطين من اخوانهم وكان أمر ابن مزني والزاب يومئذ راجعا إلى صاحب بجاية من بنى أبي حفص وهو الامير خالد ابن الامير أبي زكريا والقائم بدولته أبو عبد الرحمن بن عمرو بعث إليه ابن مزني في المدد فأمدّه بالعساكر والجيش وأوعز إلى أهل طولقة بالقبض على سعادة فخرج منها وابتنى بأنحائها زاوية ونزل بها هو وأصحابه ثم جمع أصحابه المرابطين وكان يسميهم لسقية وزحفوا إلى بسكرة وحاصروا ابن مزني سنة ثلاث وسبعمئة وقطعوا نخيلها وامتنعت عليهم فرحلوا عنها ثم أعادوا حصارها سنة أربع وسبعمئة وامتنعت ثم انحدر أصحاب سعادة من الزواودة إلى مشاتيهم سنة خمس وسبعمئة وأقام المرابط سعادة بزوايته من زاب طولقة وجمع من كان إليه من المرابطين المتخلفين عن الناحية وعن امليلي وحاصرها أياما وبعثوا ابي الصريح إلى ابن مزني والعسكر السلطاني مقيم عندهم ببسكرة فأركبهم ليلا مع أولاد

حرب من الزواودة وصبحوا سعادة وأصحابه على مليلي فكانت بينهم جولة قتل فيها سعادة واستحلهم الكثير من أصحابه وحمل رأسه إلى ابن مزني وبلغ الخبر إلى أصحابه بمشاتيهم فظهروا إلى الزاب ورؤساؤهم أبو يحيى بن أحمد بن عمر شيخ أولاد محرز وعطية ابن سليمان شيخ أولاد سباع وعيسى بن يحيى شيخ أولاد عساكر ومحمد بن حسن شيخ أولاد عطية ورياستهم جميعا راجعة لأبي يحيى بن أحمد ونزلوا بسكرة وقطعوا نخيلها وتقبضوا على عمال ابن مزني فأحرقوهم في النار واتسع الخرق بينهم وبينه ونادى ابن مزني في أوليائه من الزواودة واجتمع إليه على بن أحمد شيخ أولاد محمد وسليمان بن علي شيخ أولاد سباع وهما يومئذ اجلاء الزواودة وخرج ابنه على بينهم بعساكر السلطان وتزاحفوا بالصحراء سنة ثلاث عشرة فغلبهم المرابطون وقتل على بن مزني وتقبض على على بن أحمد فقادوه أسيرا ثم أطلقه عيسى بن أحمد رعا لآخيه أبي يحيى بن أحمد واستفحل أمر هؤلاء السنية ما شاء الله أن يستفحل ثم هلك أبو يحيى بن أحمد وعيسى بن يحيى وختل أحياء أولاد محرز من هؤلاء السنية وتفاوض السنية فيمن يقيمونه بينهم في الفتيا في الأحكام والعبادات فوقع نظرهم على الفقيه أبي عبد الله محمد بن الأزرق من فقهاء مقرة وكان أخذ العلم ببجاية على أبي محمد الزواوي من كبار مشيختها فقصده بذلك وأجابهم وارتحل معهم ونزل على حسن بن سلامة شيخ أولاد طلحة واجتمع إليه السنية واستفحل بهم جانب أولاد سباع واجتمعوا على الزاب وحاربوا على بن أحمد طويلا وكان السلطان أبو تاشفين حين كان يجلب على أوطان الموحدين ويخب عليهم أوليائهم من العرب يبعث إلى هؤلاء السنية بالجوائز يستدعي بذلك ولايتهم ويبتع معهم للفقيه أبي الأزرق بجائزة معلومة في كل سنة ولم يزل ابن الأزرق مقيما لرسمهم إلى ان غلبهم على أمرهم ذلك على بن أحمد شيخ أولاد محمد وهلك حسن بن سلامة وانقرض أمر السنية من رياح ونزل ابن الأزرق بسكرة فاستدعاه يوسف بن مزني لقضائها تقريفا لامر السنية فأجابته ونزل عنده فولاه القضاء ببسكرة إلى ان هلك سنة ثم قام على بن أحمد بهذه السنية بعد حين ودعا إليها وجمع

لابن مزنى سنة أربعين وسبعمائة ونزل بسكرة وجاءه مدد أهل ريف وأقام محاصرا لها أشهراً وامتنعت عليه فأقلع عنها وراجع يوسف بن مزنى وصاروا إلى الولاية إلى ان هلك على ابن أحمد وبقي من عقب سعادة في زاوية بنون وحفدة يوجب لهم ابن مزنى الرعاية وتعرف لهم اعراب الفلاة من رباح حقا في اجازة من يجيزونه من أهل السابلة وبقي هؤلاء الزواودة ينزع بعضهم احيانا إلى اقامة هذه الدعوة فيأخذون بها أنفسهم غير متصفين من الدين والتعمق في الورع بما يناسبها ويقضى حقها بل يجعلونها ذريعة

[٤٠]

لاخذ الزكوات من الرعايا ويتظاهرون بتغيير المنكر يسرون بذلك خسرا في ارتقاء فينحل أمرهم بذلك وتخفق مساعيهم ويتنازعون على ما تحصل بأيديهم ويعترفون على غير شئ والله متولى الامور لا اله الا هو سبحانه يحيى ويميت * (الخبر عن زغبة وبطونهم من هلال بن عامر من هذه الطبقة الرابعة) * هذه القبيلة اخوة رباح ذكر ابن الكلبي ان زغبة ورياحا أبناء أبى ربيعة بن نهبك بن هلال ابن عامر هكذا نسبهم وهم لهذا العهد مما يزعمون ان عبد الله يجمعهم بكسر دال عبد ولم يذكر ابن الكلبي ذلك وذكر عبد الله في ولد هلال فلعل انتسابهم إليه بما كفلهم واشتهر دونهم وكثيرا ما يقع مثل هذا في انساب العرب أعنى انتساب الابناء لعمهم أو كافلهم والله أعلم وكانت لهم عزة وكثرة عند دخولهم افريقية وتغلبوا على نواحي طرابلس وقابس وقتلوا سعيد بن خزرون من ملوك مغراوة بطرابلس ولم يزالوا بتلك الحال إلى ان غلب الموحدون على افريقية وثار بها ابن غانية وتحيزت إليه أفريق هلال ابن رباح وجشم فنزعت زغبة إلى الموحدين وانحرفوا عن ابن غانية نزعا له حق نزوعهم وصاروا يدا واحدة مع بنى بادس من زناتة في حماية المغرب الاوسط من ابن غانية واتباعه واتصلت مجالاتهم ما بين المسيلة وقبلة تلمسان في القفار وملك بنو يادين وزناتة عليهم التلول (ولما سلكت زناتة بلاد المغرب الاوسط ونزلوا بأمصاره دخل زغبة هؤلاء التلول وتغلبوا فيها ووضعوا الاثارة على الكثير من أهلها بما جمعهم وزناتة من البداوة وعصية الحلف وخلا نفرهم وحمائيتهم فطرات عرب المعقل المجاورون لهم من جانب المغرب وغلبوا على من وجدوا من مخلف زغبة هؤلاء بتلك القفار وجعلوا عليهم خفارة يأخذونها من ابلهم ويختارون عليهم البكرات منها وأنفوا بذلك وتأمروا وتعاقدوا على دفع هذه الهزيمة وتولى كبرها من بطونهم ثوابة بن جوثة من سديد كما تذكره بعد فدفعوهم عن اوطانهم من ذلك القفر ثم استفحلت دولة زناتة وهيجوا العرب عن وطن تلولهم لما انتشأ عنهم من العيث والفساد فرجعوا إلى صحرائهم وملكوا الدولة عليهم التلول والحبوب واستصعب المير وهزل الكراع وتلاشت أحوالهم وضربت عليهم البعوث واعطوا الاتاوة والصدقة حتى إذا فشل ربح زناتة وداخل الهرم دولتهم وانتزى الخوارج من قرابة الملك بالعاصية وجدوا السبيل بالفتن إلى طروق التلول ثم إلي الغلب فيها ثم غالبوا زناتة عليها فغلبوهم في أكثر الاحايين وأقطعهم الدولة الكثير من نواحي المغرب الاوسط وأمصاره في سبيل الاستظهار بهم فتمشت طعونهم فيه وملكوه من كل جانب كما تذكره ويطون زغبة هؤلاء يتعددون من يزيد وحصين ومالك وعامر وعروة وقد اقتسموا بلاد المغرب الاوسط كما نذكر في أخبارهم

[٤١]

* (بنو يزيد بن زغبة) * كان لبنى يزيد هؤلاء محل من زغبة بالكثرة والشرف وكان للدول به عناية فكانوا لذلك أول من اقتطعه الدول من

العرب التلول والضواحي أقطعهم الموحدون في أرض حمزة من أوطان بجاية مما يلى بلاد رياح والاثابح فنزلوا هنالك ولحق تلك الثابا المفضية إلى تلول حمزة والدهوس وأرض بنى حسن وتلولها ويفا وصحراء وصار للدولة استظهار بهم على بجاية تلك الدعاية من صنهجة وزواوة فلما عجزت عساكر بجاية من حيايتهم دفعوهم للقاء فأحسنوا في اقتضائها وزادت الدول بهم تكرمة وعناية بذلك واقتطعهم الكثير من تلك الاوطان ثم غلب زناتة الموحدون على تلك الاوطان فاقتطعوه عن أوطان بجاية وأصاروها عن ممالكهم فلما فشل ريح زناتة وجاش بحر فتقهم مع العرب استبد بنو يزيد هؤلاء بملكة تلك الاوطان وغلبوا عليها من جميع جوانبها وفرقوا بجايتها واقتضاء مغارمتها وهم على ذلك لهذا العهد وهم بطون كثيرة فمنهم حميان بن عقبة بن يزيد وجواب وبنو كرز وبنو موسى والمرابطة والخشنة وهم جميعا بنو يزيد بن عيسى بن زغبة واخوانهم عكرمة بن عيسى من طعونهم وكانت الرياسة في بنى يزيد لاولاد لاحق ثم لاولاد معافى ثم صارت في بيت سعد بن مالك بن عبد القوى ابن عبد الله بن سعيد بن محمد بن عبد الله بن مهدي بن يزيد بن عيسى بن زغبة وهم يزعمون أنه مهدي بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق نسب تأباه رياستهم على غير عصبتهم وقد مر ذلك قبل وربما نسبهم آخرون إلى سلول وهم بنو مرة بن صعصعة أخى عامر بن صعصعة وليس بصحيح لما قلناه وقد يقال ان سلولا وبنى يزيد اخوة ويقال لهم جميعا اولاد فاطمة وبنو سعد هؤلاء ثلاثة بطون بنو ماض بن رزق بن سعد وبنو منصور بن سعد وبنوزغلى بن رزق بن سعد واخصت الرياسة على الطعون والحلول ببنى زغلى وكانت لريان بن زغلى فيما علمناه ثم من بعده لآخيه ديفل ثم لآخيها أبى بكر ثم لابنه ساسي بن أبى بكر ثم لابنه معتوق بن أبى بكر ثم لموسى بن عمهم أبى الفضل بن زغلى ثم لآخيه أحمد بن أبى الفضل ثم لآخيها على بن أبى الفضل ثم لآبي الليل بن أبى موسى ابن أبى الفضل وهو رئيسهم لهذا العهد وتوفى سنة احدى وتسعين وخلفه في قومه ابنه وكان من أحلافهم فيما تقدم بنو عامر بن زغبة يطعنون معهم في مجالاتهم ويظاهرونهم في حروبهم وكانت بين رياح وزغبة فتنة طويلة لعهد موسى بن محمد بن مسعود وابنه شبل أيام المستنصر بن أبى حفص فكان بنو يزيد هؤلاء يتولون كبرها لمكان الجوار وكان بنو عامر احلافهم فيها وظهراءهم وكان لهم على مظاهرتهم وضعية من الزرع تسمى القرارة وهى ألف غرارة من الزرع وكان سببها فيما يزعمون

ان أبا بكر بن زغلى غلبته رياح على الدهوس من وطن حمزة ازمان فتنته معهم فاستنصر بنى عامر فجاءه اولاد شافع وعليهم صالح بن بالغ وبنو يعقوب وعليهم داود بن عطاق وحميد وعليهم يعقوب بن معروف واسترجع وطنه وفرض لهم على وطنه ألف غرارة من الزرع واستمرت بنو عامر فلما ملك يغمراسن بن زيان تلمسان ونواحيها ودخلت زناتة إلى التلول والارياف كثر عيث المعقل وفسادهم في وطنها فجاء يغمراسن ببنى عامر هؤلاء من محلاتهم بصحراء بنى يزيد وأنزلهم في جواره بصحراء تلمسان كيدا للمعقل ومزاحمة لهم بأقيالهم فنزلوا هنالك وتبعتهم حميان من بطون بنى يزيد بما كانوا بطونا وناجعة ولم يكونوا حلولا فصاروا في عداد بنى عامر لهذا العهد وتولت بنو يزيد بلاد الريف وخصبه فأوطن فيه أكثرهم وقال أهل الناجعة منهم الافاريق من عكرمة وبعض بطون عيسى يطعنون مع اولاد زغلى في قفرهم وأقصروا عن الطعن في القفر الا في الليل ومع احلافهم من طعون رياح أو زغبة وهم على ذلك لهذا العهد ومن بطون بنى يزيد بن عيسى زغبة هؤلاء بنو خشين وبنو موسى وبنو معافى وبنو لاحق وكانت الرياسة لهم وبنى معافى قبل بنى سعد بن مالك وبنو جواب وبنو كرز وبنو مربع وهم المرابطة وهؤلاء كلهم

بطن حمزة لهذا العهد ومن المرابطة حي ينجعون بضواحي تونس لهذا العهد وغلب عليهم بسبب زغبة والله الخلاق العليم أبو الفضل بن موسى بن زغلي بن رزق بن سعد بن مالك بن عبد القوي بن عبد الله بن سعيد بن محمد بن عبد الله ابن مهري أولاد زيان الزوانية بن حميدان بن عقبة كرز جواب لاحول ذوى حسن السندان معافى موسى حشين مربع عكرمة بن يزيد بن عيسى بن زغبة

[٤٣]

* (حصين بن زغبة) * وأما أولاد حصين بن زغبة فكانت مواطنهم بجوار بنى يزيد إلى المغرب عنهم كانوا حيا حلوا هنا لك وكان الريف الحامى لهم من تيطرى ونواحي المدينة مواطن للتعالية من بطون البعوث وبأخذون منهم الاتاوات والصدقات حتى إذا ذهب سلطان بنى توجين من أرض المدينة وغلبهم عليهم بنو عبد الواد ساموا حصينا هؤلاء خطة الخسف والذل وألزمهم الوضائع والمغارم واستلحموهم بالقتل وهضموهم بالتكاليف وصيروهم في عداد القبائل بالمقاومة ومآثر ذلك كان تغلب بنى مرين على جميع زناتة كما نذكره فكانوا لهم أطوع ولدولتهم أذل فلما عاد بنو عبد الواد إلى ملكهم لعهد أبى حمو موسى بن يوسف بعد مهلك السلطان أبى عنان هبت ريح العز للعرب وفشل ريح زناتة ولحق دولتهم ما يلحق الدول من الهرم ونزل حصين هؤلاء بتيطرى وهو جبل أشير وملكوه وتحصنوا به وكان أبو زيان ابن عم السلطان أبى حمو لما ملك من قبله لحق بتونس مقتطعا حباله بنى مرين وخرج طالبا لملك أبيه ومنازلا لابن عمه هذا ونزل في خبر طويل نذكره بقبائل حصين هؤلاء أعوج ما كانوا لمثلها لما راموه من خلع ما كان بأعناقهم من الدول وطرق الاهتزام والعسف فتلقوه بما يجب له ونزل منهم بأكرم قول وأحسن مثنوى وبإيعوه وراسلوا اخوانهم وكبراءهم من رؤساء زغبة بنى سويد وبنى عامر فأصفقوا عليه وترددت عساكر السلطان أبى حمو وبنى عبد الواد إليهم فتحصنوا بجبل تيطرى وأوقعوا بهم ونهض إليهم السلطان أبو حمو بعساكره فقتلوه ونالوا منه ونالت زغبة بذلك ما أرادوه من الاعتزاز على الدولة آخر الأيام وتملكوا البلاد أقطاعات وسهمانا ورجع أبو زيان إلى رياح فنزل بهم على سلم عقده مع ابن عمه ويقى لحصين أثر الاعتزاز من حرات واقطعتهم الدولة ما ولوه من نواحي المدينة وبلاد صنهاجة لحصين ولهؤلاء بطنان عظيمان جندل وخراش فمن جندل أولاد سعد خنفر بن مبارك بن فيصل بن سنان ابن سباع بن موسى بن كامام بن على بن جندل ورياستهم في بنى خليفة بن سعد لعلى وسيدهم أولاد خشعة بن جندل وكانت رياستهم على جندل قبل أولاد خليفة من رئيسهم الآن على بنى صالح بن دياب بن مبارك بن يحيى بن مهلهل ابن شكر بن عامر بن محمد بن خشعة ومن خراش أولاد مسعود بن مظفر بن محمد الكامل ابن خراش ورياستهم لهذا العهد في ولد رحاب بن عيسى بن أبى بكر بن زمام بن مسعود وأولاد فرج بن مظفر ورياستهم في بنى خليفة بن عثمان بن موسى بن فرج وأولاد طريف بن معبد بن خراش ويعرفون بالمعابدة ورياستهم في أولاد عريف وربما انتسب أولاد مظفر من خراش إلى بنى سليم ويزعمون ان مظفر بن محمد الكامل جاء من بنى سلم ونزل بهم والله أعلم بحقيقة ذلك

[٤٤]

على بن صالح بن دياب بن مبارك بن مهلهل بن شكر بن عامر بن محمد بن خشعة على ابن خليفة بن سعد بن خنفر بن مبارك بن فيصل بن سنان بن سباع بن موسى بن كامام بن على بن خدل - بن حصين بن زغبة سبدم رحاب بن عيسى بن أبى بكر بن زمام بن

مسعود < بن مظفر بن محمد الكامل - بن خراش بن معبد ابن يزيد بن مسعود بن معرف - بن عريف بن طريف سباد بن عبد الله بن كثير * (بنو مالك بن زغبة) * وأما بنو مالك بن زغبة فهم بطون ثلاثة سويد بن عامر بن مالك وهم بطنان العطاف ابن ولد عطاف بن روى بن حارث والديالم من ولد ديلم بن حسن بن ابراهيم بن روى مابل

[٤٥]

سويد فكانوا احلafa لبنى يادين قبل الدولة وكان لهم اختصاص ببنى عبد الواد وكانت لهم لهذا العهد اتاوات على بلد سراة والبطحاء وهوارة ولما ملك بنو يادين تلول المغرب الاوسط وامصاره كان قسم بنى توجين منه شياخ التلول القفلى وما بين قلعة سعيدة في الغرب إلى المدينة في الشرق فكان لهم قلعة بن سلامة ومنداس وأنشريس وورنية وما بينهما فاتصل جوارهم لبنى مالك هؤلاء في القفر والتل ولما ملك بنو عبد الواد تلمسان ونزلوا بساحتها وضواحيها كان سويد هؤلاء أخص بحلفهم وولايتهم من سائر زغبة وكانت لسويد هؤلاء بطون مذكورون من فلما وشبابه ومجاهر وجوثة كلهم من بنى سويد والحساسة بطن من شبابة إلى حسان بن شبابة وغفير وشافع ومالف لهم بنو سليمة بن مجاهر وبو رحمة وبو كامل وحمدان بنو مقرر بن مجاهر وبزعم بعض نسابتهم ان مقرر ليس بجد لهم وانما وضع ذلك أولا بو كامل وكانت رياستهم لعهدهم ويغمر اسن وما قبله في اولاد عيسى بن عبد القوي بن حمدان وكانوا ثلاثة مهدي وعطية وطراد واختص مهدي بالرياسة عليهم ثم ابنه يوسف بن مهدي ثم أخوه عمر بن مهدي واقطع يغمراس يوسف بن مهدي ببلاد البطحاء وسيرات واقطع عنتر بن طراد بن عيسى مراري البطحاء وكان يقتصون اتاوتهم على الرعايا ولا يناكرهم فيها وربما خرج في بعض خروجه واستخلف عمر بن مهدي على تلمسان وما إليها من ناحية المشرق وفى خلال ذلك خلت مجالاتهم بالقفر من طعونهم وناجعتهم الاحياء من بطونهم قليلى العدد من الجوثة وقلية ومالف وغفير وشافع وامثالهم فغلب عليهم هنا لك المعقل وفرضوا عليهم اتاوة من الابل يعطونها ويختارونها عليهم من البكرات وكان المتولي لاخذها منهم من شيوخ المعقل ابن الريشر بن نهار بن عثمان بن عبید الله وقيل على بن عثمان أخو نهار وقيل ان البكرات انما فرضها للمعقل على قومه عامر بن جميل لاجل مظاهرة له على عدوه وبقيت للمعقل عادة إلى ان تمشت رجالات من زغبة في نقض ذلك وغدروا برجال المعقل ومنعوا تلك البكرات (اخبرني يوسف) بن على ثم غانم عن شيوخ قومه من المعقل ان سبب البكرات وفرضها على زعمه كما ذكرناه وأما سبب رفعها فهو ان المعقل كانوا يقولون غرامتها ادالة بينهم فلما دالت لعبيد الله الدولة في غرامتها جمع ثوابه في جوثة قومه وحرضهم على منعها فاختلفوا واختبروا مع عبید الله ودفعوهم إلى جانب الشرق وحالوا بينهم وبين احيائهم وبلادهم وطالت الحرب ومات فيها بنو جوثة وابن مريح من رجالاتهم وكتب بنو عبد الله إلى قومهم من قصيدة بنى معقل ان لم يصرخونا على العدو * فلا يذلكم تذكر ما طرا لنا

[٤٦]

قتلنا ابن جوثة والهمام مريح * على الوجه مكتوب وذا من فعالنا فاجتمعوا وجاؤا إلى قومهم وفرت احياء زغبة واجتمع بنو عبید الله واخوانهم من ذوى منصور وذوى حسان وارتفع أمر البكرات من زغبة لهذا العهد ثم حدث بين يغمراسن وبينهم فتنة هلك فيها عمر بن مهدي وابن حلوا وانزلوهم عن التلول والارياف من بلاد عبد الواد إلى القفر المحاذي لاوطان بنى توجين على المهادنة والمصاهرة فصاروا

لهم حلفاء على بنى عبد الواد ومن عجز منهم عن الطعن نزل ببسائط البطحاء وسارت بطونهم كلها من شبابة ومجاهر وغير وشافع ومالف وبدو رحمة وبدو كامل ونزل محيسن ابن عمارة وأخوه سويد بضواحي وهران فوضعت عليهم الاتاوات والمغارم وصاروا من عداد الرعايا أهل الجباية وولى عثمان بن عمر أمر الطاعين من سويد ثم هلك وقام بأمره ابنه ميمون وغلب عليه أخوه سعيد واستند وكان بين سويد وبين بنى عامر بن زغبة فتنة اتصلت على الأيام وثقلت وطأة الدولة الزيانية عليهم وزحف يوسف بن يعقوب إلى منازل تلمسان وطال مقامه عليها فوفد عليه سعيد بن عثمان بن عمر بن مهدي شيخهم لعهد فأتى مجلسه وكرم وفادته ثم أجمع قتله ففر ولحق بقومه وأجلب على اطراف التلول وملك السرسو قبلة بلاد توجين ونزعت إليه طائفة من عكرمة بنى يزيد وعجزوا عن الطعن وأنزلهم بجبل كريكرة قبلة السرسو ووضع عليهم الاتاوة ولم يزل كذلك إلى أن هلك يوسف بن يعقوب واتصل سلطان آل يغمراسن ولما ولى أبو تاشفين بن موسى بن عثمان بن يغمراسن استخلص عريف بن يحيى لديه صحابة كانت له معه قبل الملك ثم أسفه ببعض النزعات الملوكية وكان هلال مولاه المستولي عليه يغص بما كان عريف منه فنزع عريف بن يحيى إلى بنى مريين ملوك المغرب الأقصى ونزل على السلطان أبي سعيد منهم سنة عشرين وسبعمائة واعتقل أبو تاشفين عمه سعيد بن عثمان إلى أن هلك في محبسه قبيل فتح تلمسان ولحق أخوه ميمون بن عثمان وولده بملك المغرب وأنزل عريف بن يحيى من سلطان بنى مريين أكرم نزل وأدنى مجلسه وأكرم مثواه ثم اتخذته ابته السلطان أبو الحسن من بعده بطانة لشوراه ونجيا لخلواته ولم يزل يحرضهم على آل زيان بتلمسان ونفس ميمون بن عثمان وولده عريف رتبته عند السلطان أبي الحسن فنزعوا إلى أخيه أبي على بتافيلات فلم يزالوا بها إلى أن هلك ميمون ثم السلطان أبو الحسن على أخيه أبي على وصار أولاد ميمون في جملته وزحف السلطان أبو الحسن إلى تلمسان يجر أمم المغرب وأجحر إلى زيان بتلمسان ثم اقتحمها عليهم عنوة وأبترهم ملكهم وقتل السلطان أبا تاشفين عند شدونة وبعث كلمته في أقطار المغرب الأقصى والادنى إلى تخوم الموحديين من اندلس وبعث وجمع كلمة زناته واستتبعهم تخت لواتة وفر بنو عامر

من زغبة أولياء بنى عبد الواد إلى القفر كما نذكره ورفع السلطان أبو الحسن قوم عريف بن يحيى بمحلته على كل عربي في ايالته من زغبة والمعقل وكان عقد سمعون بن سعيد على الناجعة من سويد وهلك أيام نزول السلطان بتاسالة سنة ثنتين وثلاثين قبل فتح تلمسان وولى من بعده أخوه عطية وهلك لاشهر من ولايته بعد فتح تلمسان فعقد السلطان لوزمار بن عريف على سويد وسائر بنى مالك وجعل رئاسة البدو حيث كان من أعماله وأخذ الصدقات منهم والاتاوات فعكفت على هيئة أمم البدو واقتدى بشوراه رؤسائهم وابن عمه المسعود بن سعيد ولحق بينى عامر وأجلبوا على السلطان بدعاء صرارشة ابنه أبي عبد الرحمن فجمع لهم وزمار وهزمهم كما نذكره وسفر عريف بين السلطان أبي الحسن وبين الملوك لعهد من الموحديين بأفريقية وبنى الأحمر بالاندلس والترك بالقااهرة ولم يزل على ذلك إلى أن هلك السلطان أبو الحسن (ولما تغلب) السلطان أبو عنان على تلمسان كما سنذكره رعى لسويد ذمة الإنقطاع إليه فرفع وزمار بن عريف على سائر رؤسا البدو من زغبة وأقطع السرسو وقلعة ابن سلامة وكثيرا من بلاد توجين وهلك أبو عريف بن يحيى فاستقدمه من البدو وأجلسه بمكان أبيه من مجلسه جوار أركينة ولم يزل على ذلك وعقد لأخيه عيسى على البدو من قومه ثم بنى عبد الواد بعد ملك السلطان أبي عنان عادت لهم الدولة بأبي حمو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن يحيى

بن أبي يغمراسن من أعياص ملوكهم وتولى كبير ذلك صغير ابن عامر وقومه لما لهم مع آل زيان من الولاية وما كان لبني مرين فيهم من النعمات فملكوا تلمسان ونواحيها وعقدوا على سويد لميمون ابن سعيد بن عثمان وتاب وزمار بن عريف ورأى الترهيب والخروج عن الرياسة فبنى حصنا بوادي ملوية من تخوم بنى مرين ونزل به وأقام هنالك لهذا العهد وملوك بنى مرين يرعون له ذمة اختصاصه سلفهم فيؤثرونه بالشورى والمداخلة في الاحوال الخاصة مع الملوك والرؤساء من سائر النواحي فتوجهت إليه بسبب ذلك وجوه أهل الجهات من الملوك وشيوخ العرب ورؤساء الاقطار ولحق أخواه أبو بكر ومحمد بقومهم فمكروا بالميمون وادسوا عليه من قتله غيلة من ذويهم وحاشيتهم واستبدوا برياسة البدو ثم لما نصب بنو حصين بن زيان ابن عم السلطان أبي حمو للملك كما نذكره ورشحوه للمنازعة سنة سبع وستين وسبعمائة هبت من يومئذ ریح العرب وجاش مرجلهم على زناتة ووطؤا من تلول بلادهم بالمغرب الاوسط فأعجزوا عن حمايته وولجوا من فروجها ما قصرو عن سده ودبوا فيها ديب الظلال في الفيء فتملكت زغبة سائر البلاد بالاقطاع من السلطان طوعا وكرها رعا لخدمته وترغيبا فيها وعدة وتمكينا لقوته حتى

أفرجت لهم زناتة عن كثيرها ولجؤا إلى سيف البحر وحصل كل منهم في الفلول على ما يلي موطنه من بلاد القفر فاستولى بنو يزيد على بلاد حمزة وبنى حسن كما كانوا من قبل ومنعوا المغارم واستولى بنو حسين على ضواحي المدينة اقطاعا والعطاف على نواحي مليمانة والديالم على وزنية وسويد على بلاد بنى توجين كلها ما عدا جبل ونشريس لتوعره بقيت فيه لمة من توجيز رياستهم لاولاد عمر بن عثمان من الجشم بنى تيفرين كما نذكره وبنى عامر على تاسالة وميلانة إلى صيرور إلى كيدزة الجبل المشرف على وهران وتماسك السلطان بالامصار وأقطع منها كلميتو لابي بكر بن عريف ومازونة لمحمد بن عريف ونزلوا لهم عن سائر الضواحي فاستولوا عليها كافة وأوشك بهم أن يستولوا على الامصار وكل أول فالى آخر ولكل أجل كتاب وهم على ذلك لهذا العهد ومن بطون سويد هؤلاء بطن بنواحي البيطحاء يعرفون بهيرة ينسبهم الناس إلى مجاهد بن سويد وهم يزعمون انهم من قوم المقداد بن الاسود وهم بهذا من قضاة ومنهم من يزعم أنهم من تجيب احدى بطون كندة والله أعلم ومن طواعن سويد هؤلاء ناجعة يعرفون بصبيح ونسبهم إلى صبيح بن علاج بن مالك ولهم عدد وقوة وهم يطعنون ويد ويقمون بمقامهم (وأما الحرث بن مالك) وهم العطاف والديالم فموطن العطاف قبلة مليانة ورياسة طعونهم لولد يعقوب بن نصر بن عروة من منصور بن أبي الذئب بن حسن ابن عياض بن عطاف بن زيان بن يعقوب وابن أخيه على بن أحمد وبنينهم ومعهم طائفة من براز احدى بطون الاثنج وأقطعهم السلطان مغارم جبل دراك وما إليه من وادي شلب وحال بينهم وبين موطن سويد ونشريس ولهم بلاد وزنية في قبلة الجبل رياستهم في ولد ابراهيم بن زروق بن رعاية من مزروع بن صالح بن ديلم والسعد بن العباس بن ابراهيم منهم لهذا العهد وكانت من قبل لعمه أبي يحيى بن ابراهيم وتقبض عليه السلطان أبو عثمان باشره عريف بن يحيى وأغرى به وهلك في محبسه (وفيه بطون كثيرة) منهم بنو زيادة بن ابراهيم بن روى والدها بقة اولاد هلال بن حسن وبنو نوال بن حسن أيضا وكلهم اخوة ديلم بن حسن وابن عكرمة من مزروع بن صالح ويعرفون بالعمارمة وهؤلاء العطاف والديالم أقل عددا من سويد وأولياؤهم م في فتنتهم مع بنى عامر لمكان العطية من نسب مالك ولسويد عليهم اعتزاز بالكثرة والديالم أبعد مجالا منهم في القفر ويحاديهم في مواطنهم من جانب التلول بطن من بطون الحرث يعرفون بغريب نسبهم إلى غريب بن حارث حتى حلول مالك المواطن يطلبهم

السلطان في العسكرة وبأخذ منهم المغارم وهم أهل شاء وبقر
ورياستهم في أبناء مزروع بن خليفة بن خلوف بن يوسف بن بكرة بن
منهاب بن مكتوب بن منيع بن مغيث بن محمد الغريب وهو جدهم بن
حارث

[٤٩]

وترادفهم في رياستهم على غريب أولاد يوسف وهم جميعا أولاد
بنى منيع وسائر غريب من الاحلاف شيوخهم أولاد كامل والله مالك
الخلق والامر

[٥١]

* (بنو عامر بن زغبة) * وأما بنو عامر بن زغبة فمواطنهم في آخر
مواطن زغبة من المغرب الاوسط قبلة تلمسن مما يلي المعقل
وكانت مواطنهم من قبل ذلك في آخرها مما يلي المشرق وكانوا مع
في يزيد حيا جميعا وكانوا يغلبون غيرهم في مواطن حمزة والدهوس
وبنى حسن ميرة اقواتهم في المصيف ولهم على وطن بنى يزيد
ضريبة من الزرع متعارفة بين أهله لهذا العهد يقال انها كانت لهم
أزمان تغلبهم في ذلك الوطن وقيل ان أبا بكر بن زغبة في فتنته مع
رياح غلبوه على الدهوس من وطنه فاستصرخ بنى عامر فجاءوا
لصريخه وعلى بنى يعقوب داود بن عطاق وعلى بنى حميد يعقوب
بن معروف وعلى شافع بن صالح ابن بالغ وغلبوا رياحا بعز كان وفرض
لهم على وطن بنى يزيد ألف غرارة واستمرت لهم عادة عليهم ولما
نقلهم يغمراسن إلى مواطنهم هذه لمحاذاة تلمسان ليكونوا حجزا
بين المعقل وبين وطنها استقروا هنالك يتقليون في قعارها في
المشاتي ويظهرون إلى التلول في المرباع والمصايف وكان فيهم
ثلاثة بطون بنو يعقوب بن عامر وبنو حميد ابن عامر وبنو شافع بن
عامر وهم بنو شقارة وبنو مطرف ولكل واحد من البطنين الآخرين
أفخاذ وعمائر ولبنى حميد فصائل أخرى فمنهم بنو حميد ومن عبيد
الحجر وهم بنو حجاز بن عبيد وكان له من الولد حجرش وهجيش
ابني حجاز وحجوش حامد ومحمد ورياب ومن محمد الولادة بنو ولاد
بن محمد ومن رياب بنو رياب وهم معروفون لهذا العهد ومن عبيد
أيضا العقلة بنو عقيل بن عبيد والمحارزة بنو محرز بن حمزة بن عبيد
وكانت الرياسة على حميد لعلاق من هؤلاء المحارزة وهم الذين قبل
حجوش جد بنى رياب وكانت الرياسة على بنى عامر كافة لبنى
يعقوب على عهد يغمراسن وابنه لداود بن هلال بن عطاق بن رداد
بن ركيش بن عياد بن منيع بن يعقوب منهم وكان بنو حميد أيضا
بريشهم وشيخهم الا انه رديف لشيخ بن يعقوب منهم وكانت رياسة
حميد لاولاد رياب بن حامد بن جوش بن حجاز بن عبيد بن حميد
ويسمون الحجز وعلى عهد يغمراسن لمعرف بن سعيد بن رياب
منهم وهو رديف لداود كما قلناه ووقعت بين عثمان وبين داود بن
عطاق مغاضبة وسخطه عثمان لما أجاز الامير أبا زكريا ابن السلطان
أبى اسحق من آل أبى حفص حين فر من تلمسان طالب الخروج
على الخليفة بتونس وكان عثمان بن يغمراسن في بيعته فاعتزم
على رجعه فأبى داود من اخفار ذمته في ذلك ورحل معه حتى لحق
بعطية بن سليمان من شيوخ الزواودة وتغلب على بجاية وقسنطينة
كما يذكر في أخباره وأقطع داود بن هلال رعا لفلتنه وطنا من بلاد
حمزة يسمى كدارة وأقام داود هنالك في مجالاتهم الاولى إلى ان
نازل يوسف بن يعقوب تلمسان

وطال حصاره لها فوفد عليه داود مؤملا صلاح حاله لديه وحمله صاحب بجاية رسالة إلى يوسف بن يعقوب فاستراب به من أجلها فلما قفل من وفادته بعث في اثره خيالة من زناتة بيتوه بنى ييقى في سد وقتلوه وقام بأمره في قومه ابنه سعيد ونفس مخنق الحصار عن تلمسان وكان قبل بنى مرين وسيلة رعاها لهم بنو عثمان بن يغمراسن فرجعوهم إلى مواطنهم ومع قومهم وقد اغتر أولاد معرف بن سعيد في غيبتهم تلك يساجلونهم في رياسة بنى عامر وعض كل واحد بمكان صاحبه واختص بنو معرف باقبال الدولة عليهم لسلامتهم من الحزاة والخلاف ونزع سعيد بن داود لاجل هذه الغيرة إلى بنى مرين ووفد على السلطان أبى ثابت من ملوكهم يؤمل به الكرة فلم يصادف لها محلا ورجع إلى قومه وكانوا مع ذلك حيا جميعا ولم تزل السعاية بينهم تدب حتى عدا ابراهيم ابن يعقوب بن معرف على سعيد بن داود فقتله وتناول قتله ماضى بن ردان من أولاد معرف بن عامر بمجالاته وتعصب عليه أولاد رباب كافة فافترق أمر بنى عامر وصاروا حيين بنو يعقوب وبنو حميد وذلك لعهد أبى حمو موسى بن عثمان من آل زيان وقام بأمر بنى يعقوب بعد سعيد ابنه عثمان ثم هلك بعد حين ابراهيم بن يعقوب شيخ بنى حميد وقام مقامه من قومه ابنه عامر بن ابراهيم وكان شهما حازما وله ذكر ونزل المغرب قبل عريف بن يحيى ونزل على السلطان أبى سعيد وأصهر إليه ابنته فأنكحه عامر اياها وزفها إليه ووصله بمال له خطر فلم يزل عثمان يحاول أن يثار منه تارة والصلح والاجتماع أخرى حتى غدره في بيته وقتله فيه الشنعاء التى تنكرها العرب فتقاطع الفريقان لذلك آخر الدهر وصارت بنو يعقوب احلafa لسويد في فتنتهم مع بنى حميد هؤلاء ثم تلاحقت طواعن سويد بعريف ابن يحيى في مكانه عند بنى مرين واستطال ولد عامر بن ابراهيم بقومهم على بنى يعقوب فلحقوا بالمغرب ولم يزالوا به إلى ان جاؤا في عساكر السلطان ابى الحسن وهلك شيخهم عثمان قتله أولاد عريف بن سعيد بثار عامر بن ابراهيم وولى بعده ابن عمه هجر بن غانم بن هلال فكان رديفا له في حياته ثم هلك وقام بأمرهم بعده عمه سليمان بن داود ولما تغلب السلطان أبو الحسن على تلمسان فر بنو عامر بن ابراهيم إلى الصحراء وكان شيخهم لذلك العهد صغير ابنه واستأنف السلطان على يد عريف بن يحيى سائر بطون حميد وأولاد رباب فحالف صغيرا اخوانه إلى السلطان وولى عليهم شيخا من بنى عمهم عريف بن سعيد وهو يعقوب بن العباس بن ميمون بن عريف ووفد بعد ذلك عمر بن ابراهيم عم صغير فولاه عليهم واستخدمهم ولحق بنو عامر بن ابراهيم بالزواودة ونزلوا على يعقوب بن على ولم يزالوا هناك حتى شبوا نار الفتنة بالدعى بن هيدور الملبس بشبه أبى عبد الرحمن

ابن السلطان أبى الحسن وأعانه على ذلك أهل الحقوق على الدولة والاضغان من الديالم وأولاد ميمون بن غنم بن سويد نغموا على الدولة مكان عريف وابنه ونرمار منها فاجتمعا وبايعا لهذا الداعي وأوعز السلطان إلى ونرمار بحربهم فنهض عليهم بالعرب كافة وأوقع بهم وفضهم ومزق جموعهم وطال مفر مغير بن عامر واخوته في القفار وأبعدوا في الهرب قطعوا لعرق الرمل الذى هو سياج على مجالات العرب ونزل قليعة والذوا وطنها ووفد من بعد ذلك على السلطان أبى الحسن منذ نمى به فقبل واستوهن أخاه أبا بكر وصحب السلطان إلى افريقية وحضر معه واقعة القيروان ثم رجع إلى قومه وعادوا جميعا إلى لواتة بنى يغمراسن واستخدموا قبائلهم لابي سعيد عثمان ابن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن الدائل بتلمسان بعد واقعة القيروان أعوام خمسين وسبعمئة فكان له

ولقومه فيها مكان ولحق سويد وبنو يعقوب بالمغرب حتى جاؤا في مقدمة السلطان أبي عنان ولما هلك بنو عبد الواد وافترق جمعهم فر صغير إلى الصحراء على عادته وأقام بالقفر بترقب الخوارج ولحق به أكثر قومه من بنى معرف بن سعيد فأجلب بهم على كل ناحية وخالف أولاد حسين بالمعقل على السلطان أبي عنان أعوام خمسة خمسين وما بعدها ونازلوا سجلماسة فكأثرهم وكان معهم وأوقعت بهم عساكر بنى مرين في بعض سنن خلائهم وهم بنكور يمتارون فاكنتسحوا عامة أموالهم وأثنوا فيهم قتلا وأسرا ولم يزالوا كذلك شريدا في الصحراء وسويد وبنو يعقوب بمكانهم من المجالات وفي حظهم عند السلطان حتى هلك السلطان أبو عنان وجاء أبو حمو موسى بن يوسف اخو السلطان أبي سعيد عثمان بن عبد الرحمن لطلب ملك قومه بتلمسان وكان مستقرا بتونس منذ غلبهم أبو على على أمرهم فرحل مقير إلى وطن الزواودة ونزل على يعقوب بن على ازمان خلفه على السلطان أبي عنان وداخله في استخلاص أبي حمو هذا من اباله الموحدين للاجلاب على وطن تلمسان وبنى مرين الذين به فأرسلوا معه الآلة ومضى به مقير وصوله بن يعقوب بن على وزيان بن عثمان ابن سباع وشبل بن أخيه ملوك بنى عثمان ومن بادية رياح دعار بن عيسى بن رحاب بقومه من سعيد وبلغوا معهم إلى تخوم بلادهم فرجع عنهم رياح دعار بن عيسى وشبل ابن ملوك ومضوا لوجههم ولقيتهم جموع سويد وكان الغلب لبنى عامر وقتل يومئذ شيخ سويد بن عيسى بن عريف واسراخوه أبو بكر ثم من عليه على بن عمر بن ابراهيم وأطلقه ولم يتصل الخبر بفاس الا والناس منصرفون من جنازة السلطان أبي عنان ثم أجلب أبو حمو بالمغرب على تلمسان فأخذوها وغلب عساكر بنى مرين عليها واستوسق ملكه بها ثم هلك مقير لسنتين أو نحوهما حمل نفسه في جولة فتنه في الحى يروم تسكينها

على بعض الفرسان فاعترضه سنان رمح على غير قصد فأنفذه وهلك لوقته وولى رياستهم من بعده أخوه خالد بن عامر يرادفه عبد الله ابن أخيه مقير وخلصت زغبة كلها للسلطان أبي حمو فأساء بنى مرين لما كان بينهم من الفتنة واستخدمهم جميعا على مضاربهم وعوائدهم من سويد وبنى يعقوب والديالم والعطاف حتى إذا كانت فتنة أبي زيان بن السلطان أبي سعيد عم أبي حمو كما تذكره في خبرهم جاش مرجل الفتنة من زغبسة واختلفوا على أبي حمو وتقضى علي محمد بن عريف أمير سويد لاثامه اياه بالادهان في أمره فنزع أخوه أبو بكر وقومه إلى صاحب المغرب عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن سنة سبعين وسبعماية و جاؤا في قومته واستولى على مواطنهم ولحق بنو عامر وأبو حمو بالصحراء وطال ترددهم فيها وسعى عند أبي حمو في خالد من عمومته وأقاربه عبد الله بن عسكر بن معرف بن يعقوب ومعرف هو أخو ابراهيم بن يعقوب وكان عبد الله حذاء بطانة للسلطان وعينا فاستفسد بذلك قلب خالد وتغير ونبذ إليه عهده ونزع عنه إلى السلطان عبد العزيز وجاءت به عساكر بنى مرين فأوقع بالسلطان أبي حمو ومن معه من العرب وهلك عبد العزيز سنة أربع وسبعين فارتحل إلى المغرب هو وعبد الله ابن أخيه مقير ولحقهم ساسى بن سليم بن داود شيخ بنى يعقوب كان قومه بنى يعقوب قتلوا أبناء محمد بن عريف فحدثت بينهم فتنة ولحق ساسى هذا وقومه بالمغرب وصحب خالدًا يؤمل به الكرة ويئسوا من صريخ بنى مرين لما بينهم من الفتنة فرجعوا إلى أوطانهم سنة سبع وسبعين وأضرموا نار الفتنة وخرجت إليهم عساكر السلطان أبي حمو مع ابنه أبي تاشفين وزحف معه سويد والديالم والعطاف فأوقعوا بهم على وادي مينا قبلة القلعة وقتل عبد الله بن مقير وأخوه ملوك في قرابة لهم آخرين وسار فلهم شريدا إلى الصحراء ولحقوا بالديالم والعطاف واجتمعوا جميعا إلى سالم بن

ابراهيم كبير الثعالبية وصاحب وطن تيجيه وكان يتوحش لابي حمو
لحنقه فاتفقوا على الخلاف ويعثوا إلى الامير أبي زيان بمكان من
وطن رياح فجاءهم وتابعوه وأمكنه سالم من الجزائر ثم هلك خالد
في بعض تلك الايام فافترق أمرهم وولى علي بنى عامر المسعود
بن مقير وزحف إليهم أبو حمو في سويد وأوليائه من بنى عامر
واستخدم سالم بن ابراهيم وخرج أبو زيان إلى مكانه من وطن رياح
ولحق المسعود بن عامر وقومه بالقفر ولحق ساسى بن سليم
ببعبقوب بن علي وقومه من الزاودة ثم راجعوا جميعا خدمة السلطان
وأوفدوا عليه فأمّنهم وقدموا عليه وأظهروا البر والرحب بالمسعود
وساسى وطوى لهم على السوء ثم داخل بطانة من بنى عامر
وسويد في نكبتهم فأجابوه ومكر بهم وبعث ابنه أبا تاشفين لقبض
الصدقات من قومهم حتى

[٥٥]

اجتمع له ما أراد من الجموع فتقبض على المسعود وعشرة من
إخوانه بنى عامر بن ابراهيم ونهض أبو تاشفين والعرب جميعا إلى
أحياء بنى يعقوب وكانوا سراة وقد أرصد لهم سويد بوادي مينا
فصبحهم بنو عامر بمكانهم واكتسحوهم وصار فلهم إلى الصحراء
فاعترضهم أبو تاشفين بنى راشد فلم يبق لهم باقية ونجا ساسى
بن سليم إلى الصحراء في فل قليل من قومه ونزل على النضر بن
عروة واستبد برياسة بنى عامر سليمان بن ابراهيم بن يعقوب عم
مقير ورديفه عبد الله بن عسكر بن معرف بن يعقوب وهو أقرب مكانا
من السلطان وخلعه ثم بعث صاحب المغرب السلطان أبو العباس
أحمد بن الولي أبا سالم بالشفاعة في المسعود وإخوانه بوسيلة
من ونرمار بن عريف بعد ان كان مداخلا لابي حمو ولاخوانه في
نكبتهم فأطلقهم أبو حمو بتلك الشفاعة فعادوا إلى الخلاف وخرجوا
إلى الصحراء واجتمع إليهم الكثير من أولاد ابراهيم بن يعقوب واجتمع
أيضا فل بنى يعقوب من مصداحهم إلى شيخهم ساسى بن سليم
ونزلوا جميعا مع عروة وأوفد إخوانه على السلطان أبي العباس
صاحب افريقية لهذا العهد منتدبا به وصريخا على عدوه فتلغاه من
البر والاحسان ما يناسبه وأفاض في وفده العطاء وصرفه بالوعد
الجميل وشعر بذلك أبو حمو فبعث من عيونته من اغتاله ووفد بعدها
على السلطان أبي العباس صاحب افريقية على بن عمر بن ابراهيم
وهو ابن عم خالد بن محمد وكبير النفر المخالفين من بنى عامر
على أبي حمو ووفد معه سليمان بن شعيب بن عامر فوفدوا عليه
بتونس يطلبون صريخه فأجابهم ووعدهم واحسب الاحسان والميرة
أمامهم ورجعوا إلى قومهم ثم راجع على بن عمر خدمة أبي حمو
وقدمه على بنى عامر وأدال به من سليمان بن ابراهيم بن عامر
فخرج سليمان إلى أهل بيته من ولد عامر بن ابراهيم الذين بالصحراء
ونزلوا مع بنى يعقوب بأحياء أبي بكر بن عريف وهو على ذلك لهذا
العهد والله مقدر الليل والنهار اه

[٥٦]

ساسى بن سليم < بن داود بن هلال بن عطاف بن رداد بن كريش
بن عياد بن منيع بن يعقوب عنان بن سعيد عبد الله بن عسكر بن
معرف يعقوب بن العباس بن ميمون بن عريف مقير - بن عامر - بن
ابراهيم - بن يعقوب بن معرف - بن سعيد - بن رباب بن حامد - بن
جحرش - بن حجاز - بن عبيد - بن حميد - بن عامر مسعود مقراد
السجادة السعدالة خالد سليمان عريف بن زيان على بن عثمان بن
سلطان بن وانود بن عبد الله عمر بن زيان بن مسعود بن شداد بن

* (عروة بن زغبة) * وأما عروة بن زغبة فهم بطنان النضر بن عروة وخميس بن عروة وبطون خميس ثلاثة عبيد الله وفرغ ويقطان من بطون فرغ بنو قائل احلاف أولاد يحيى من المعمور القاطنين بجبل راشد وبنو يقطان وعبيد الله احلاف لسويد يطعنون لظعنهم ويقيمون لاقامتهم ورياستهم لاولاد عابد من بطن راشد وأما النضر بن عروة فممتبذون بالقفر ينتجعون في رماله ويصعدون إلى اطراف التلول في ايالة الديالم والعطاف وحصين وتخوم أوطانهم وليس لهم ملك ولا اقطاع لعجزهم عن دخول التلول بلغتهم وممانعة بطون زغبة الآخرين عنها الا ما تغلبوا عليه في أذنان الوطن بجبل المستند مما يلى وطن رياح يسكنه قوم من عمرة وزناتة استمر عليهم غلب العرب منذ سنين فوضع النضر هؤلاء عليهم الاتاوة وأصاروهم خولا ورعية وربما نزل منهم مع هؤلاء البرابر من عجز عن الطعن في بيوتهم ولهم بطون مذكورة أولاد خليفة والخماننة وشريعة والسحاوى وذوى زيان وأولاد سليمان ورياستهم جميعا في أولاد خليفة بن النضر بن عروة وهى لهذا العهد لمحمد بن زيان بن عسكر بن خليفة ورديفه سمعون بن أبى يحيى بن خليفة بن عسكر وأكثر الصحارى موطنون بجبل المستند الذى ذكرناه ورياستهم في أولاد وناجعة هؤلاء النضر احلاف لزغبة دائما فتارة للحرب وحصين جيرانهم في المواطن وتارة لبنى عامر في فتنتهم مع سويد وندبتهم مع بنى عامر فيما يزعمون بأبى قحافة وسمعت من مشايخهم انه ليس باب لهم وانما هو اسم واد كان به حلفهم قديما وربما سودوا على بنى عامر الا أنه في الاقل والندرة وهم إلى حلف بنى عامر أقرب وأسرع لما ذكرناه وربما ظاهروا رياحا بعض المرات في فتنتهم لجوار الوطن الا أنه قليل أيضا وفى النادر ويتناولون في الاكثر مع البادية من رياح مثل مسلم وسعيد وربما وقعت بينهم حروب في القفر يصيب فيها بعض من دماء بعض هذه بطون زغبة وما تأدى اليها من اخبارهم ولله الخلق والامر وهو رب العالمين

سمعون بن يحيى بن خليفة > بن عسكر بن خليفة - بن النضر - بن عروة بن زغبة شيوخ ذوى سليم شريعة محمد بن زيان السحاوى خمامنة ذوى زيان أولاد عابد بن يقطان - بن خميس - سليم عبد الله بنو نائل - بن فرغ بنو جابر (الخبر عن المعقل من بطون هذه الطبقة الرابعة وانسابهم وتصاريف أحوالهم) هذا القبيل لهذا العهد من أوفر قبائل العرب ومواطنهم بفغار المغرب الاقصى مجاورون لبنى عامر من زغبة في مواطنهم بقبلة تلمسان وينتهون إلى البحر المحيط من جانب الغرب وهم ثلاثة بطون ذوى عبيد الله وذوى منصور وذوى حسان فذوي عبيد الله منهم هم المجاورون لبنى عامر ومواطنهم بين تلمسان وتاوريرت في التل وما يواجهها من القبلة ومواطن ذوى منصور من تاوريرت إلى بلاد درعة فيستولون على ملوية كلها إلى سلجماسة وعلى درعة وعلى ما يحاذيها من التل مثل تازى وعساسا ومكناسة وفاس وبلاد تادلا والمقدر ومواطن ذوى حسان من درعة إلى البحر المحيط وينزل شيوخهم

بلاد قول قاعدة السوس فيستولون على السوس الاقصى وما إليه
وينتجعون كلهم في الرمال إلى مواطن الملتمين من كدالة ومسوفة
ولمتونة وكان دخولهم إلى المغرب مع الهلاليين في عدد قليل يقال
انهم لم يبلغوا المائتين واعترضهم بنو سليم فأعجزوهم وتحيزوا إلى
الهلاليين منذ عهد قديم ونزلوا بأخر مواطنهم مما يلي ملوية ورمال
تافيلالت وجاوروا زناتة في القفار والقريبة فغفوا وكثروا وأسروا في
صحارى المغرب الاقصى فعمروا رماله وتغلبوا في فيافيه وكانوا هناك
احلا فالزناتة أيامهم وبقي منهم بافريقية جمع قليل اندرجوا في
حملة بنى كعب بن سليم وداخلوهم حتى كانوا وزراء لهم في
الاستخدام للسلطان واستتلاف العرب فلما ملكت زناتة بلاد المغرب
ودخلوا إلى الامصار والمدن قام هؤلاء المعقل في القفار وتفردوا في
البيداء فنمووا نموا لا كفاء له وملكوا قصور الصحراء التي اختطها زناتة
بالقفر مثل قصور السوس غربا ثم توات ثم جودة ثم تامنطيت ثم
واركلان ثم تاسيبت ثم تيكورارين شرقا وكل واحد من هذه وطن
منفرد يشتمل على قصور عديدة ذات نخيل وانهار وأكثر سكانها من
زناتة وبينهم فتن وحروب على رياستها فجاز عرب المعقل هؤلاء
الايوطان في مجالاتهم ووضعوا عليها الاتاوات والضرائب وصارت لهم
حباية يعتدون فيها ملكا وكانوا من تلك السالفة يعطون الصدقات
لملوك زناتة ويأخذونهم بالدماء والصوائل ويسمونهم جمل الرحيل وكان
لهم الخيار في تعيينها ولم يكن هؤلاء العرب يستحمون من أطراف
المغرب وحلوله حمى ولا يعرضون لسابلة سلجماسة ولا غيرها من
بلاد السودان باذية ولا مكروه لما كان بالمغرب من اعتزاز الدين وسد
الثغور وكثرة الحامية أيام الموحدين وزناتة بعدهم وكان لهم بازاء ذلك
أقطاع من الدول يمدون إلى أخذه إليه السفلى وفيهم من مسلم
سعيد بن رياح والعمور من الاثنج وعددهم كما قلنا قليل وانما كثروا
بمن اجتمع إليهم من القبائل من غير نسيهم فان فيهم من فزارة
ومن أشجع أحياء كبيرة وفيهم النشطة من كرفة والمهاية من عياض
والشعراء من حصين والصباح من الاخضر ومن بنى سليم وغيرهم
(وأما انسابهم عند الجمهور) فخضية ومجهولة وسلافة العرب من
هلال يعدونهم من بطون هلال وهو غير صحيح وهم يزعمون أن
نسيهم في أهل البيت إلى جعفر بن أبى طالب وليس ذلك أيضا
بصحيح لان الطالبيين والهاشميين لم يكونوا أهل بادية ونجعة
والصحيح والله أعلم من أمرهم انهم من عرب اليمن فان فيهم بطنين
يسمى كل واحد منهما بالمعقل ذكرهما ابن الكلبي وغيره فأحدهما
من قضاة بن مالك بن حمير وهو معقل بن كعب بن غليم بن خباب
بن بن عبد الله بن كنانة بن بكر ابن عوف بن عذرة بن زيد بن اللات
بن ربيعة بن ثور بن كعب بن وبرة بن ثعلب بن حلوان

ابن عمران بن الحاف بن قضاة والآخر من بنى الحرث بن كعب بن
عمرو بن علة بن جلد بن مذحج واسمه مالك بن أدد بن زيد بن
يشجب بن عريب بن زير بن كهلان وهو معقل واسمه ربيعة بن كعب
بن ربيعة بن كعب بن الحرث والانسب أن يكونوا من هذا البطن الآخر
الذى من مذحج كان اسمه ربيعة وقد عده الاخباريون في بطون
هلال الداخلين إلى افريقية لان مواطن بنى الحرث بن كعب قريب
من البحرين حيث كان هؤلاء العرب مع العرابة قبل دخولهم إلى
افريقية ويؤيده ان ابن سعيد لما ذكر مذحج وأنهم بجهاة الجبال من
اليمن وذكر من بطونهم زيد ومراد ثم قال وبافريقية منهم فرقة وبرية
ترتجل وتنزل وهؤلاء الذين ذكر انما هو المعقل الذين هم بافريقية
وهم فرقة من هؤلاء الذين بالمغرب الاقصى (ومن املاء نسايتهم) أن
معقل جدهم له من الولد سحير ومحمد فولد سحير عبيد الله وثعلب
فمن عبيد الله ذوى عبيد الله البطن الكبير منهم ومن ثعلب الثعالبة
الذين كانوا ببسيط متيجة من نواحي الجزائر وولد محمد مختار
ومنصور وجلال وسالم وعثمان فولد مختار بن محمد حسان وشبانة

فمن حسان ذوى حسان البطن المذكور أهل السوس الأقصى ومن شبانة الشبانات جيرانهم هنا لك ومن جلال وسالم وعثمان الرقيطات بأدية لذوى حسان ينتجعون معهم وولد منصور بن محمد حسين وأبو الحسين وعمران وشب يقال لهم جميعا ذوى منصور وهو أحد بطونهم الثلاثة المذكورة والله سبحانه وتعالى اعلم بغيه وأحكم حسان ب - ن مختار ب - ن محمد ب - بن معقل شبانة روح محمد بن عثمان على جلال تغلب بن سجير عبيد الله حسين ب - ن منصور مينا أبو الخير عمران سالم

[٦١]

* (ذوى عبيد الله) * فأما ذوى عبيد الله فهم المجاورون لبنى عامر بن زغبة من سلطان بنى عبد الواد من زناتة فمواطنهم من بين تلمسان إلى وجدة إلى منصب وادى ملوية في البحر ومنبعث وادى صامن القبلة وتنتهى رحلتهم في القفار إلى قصور توات وتمنطيت وربما عاجوا إلى ذات الشمال إلى تاسايت وتوكرارين وهذه كلها رقاب القفر إلى بلد السودان وبينهم وبين بنى عامر فتن وحروب موصولة وكان لهم مع بنى عبد الواد مثلها قبل السلطان والدولة فما كانوا أحلافا لبنى مرين وكان المنبات من ذوى منصور أحلافا لبنى عبد الواد فكان يغمراسن يوقع بهم أكثر أوقاته وينال منهم إلى أن صحبوا بسبب الجوار واعتزت عليهم الدولة فأعطوا الصدقة والطوائل وعسكروا مع السلطان في حروبه ولم يزل ذلك إلى ان لحق الدولة الهرم الذى يلحق مثلها فوطنوا الثلول وتملكوا وجدة وندرومة وبنى يرناس ومديونة وبنى سنوس اقطاعا من السلطان إلى ما كان لهم عليها قبل من الاتاوات والوضائع فصار معظم جبايتها لهم وضربوا على بلد هنين بالساحل ضريبة الاجازة منها إلى تلمسان فلا يسير ما بينهما مسافر أيام حلولهم بساحتها الا باجازتهم وعلى ضريبة يؤديها إليهم وهم بطنان الهراج والخراج فالخراج من ولد فراج بن مطرف بن عبيد الله ورياستهم في أولاد عبد الملك وفرج بن على بن أبى الريش بن نهار بن عثمان بن خراج لاوولاد عيسى بن عبد الملك ويعقوب بن عبد الملك ويغمور بن عبد الملك وكان يعقوب بن يغمور شيخهم لعهد السلطان أبى الحسن ولما تغلب على تلمسان استخدم له عبيد الله هؤلاء وكان يحيى بن العز من رجالة بنى يرناس أهل الجبل المطل على وجدة وكان له قدم في خدمة الدول فاتصل بالسلطان أبى الحسن ورغبه في ملك قصور هذه الصحراء فبعثه مع هؤلاء العرب في عسكر ودخل معهم إلى الصحراء وملك تلك القصور واستولى عليها وأسف عبيد الله بانتزاع أملاكهم وسوء المعاملة لهم فوثبوا به وقتلوه في خبائه وانتهبوا عسكر السلطان الذين معه ونقضوا الطاعة وفر يعقوب بن يغمور فلم يزل شريدا بالصحراء سائر أيامه ورجع بعد ذلك ثم عادت دولة بنى عبد الواد فصدوا في ولايتها فلم يزل على ذلك وخلفه ابنه طلحة وكان أيام خلاف يعقوب وانتفاضه رأس على الخراج من أهل بيته منصور بن يعقوب بن عبد الملك وابنه رحوا من بعده وجاء أبو حمراء فكان له في خدمته ومخالطته قدم فقدمه شيخا عليهم فرياستهم لهذا العهد منقسمة بين رحو بن منصور بن يعقوب بن عبد الملك وبين طلحة بن يعقوب المذكور أنفا وربما نازعه ولهم بطون كثيرة فمنهم الجعونة من جعوان بن خراج والغسل من غاسل بن خراج والمطارفة من مطرف بن

[٦٢]

خراج والمهايا من عثمان بن خراج وفيهم رياستهم كما قلناه ومعهم الناجعة يسمون بالمهايا ينسبون تارة إلى المهايا بن عياض وقدمنا

ذكرهم وتارة انى مهايا بن مطرف وأما الهراج فمن ولد الهراج بن مهدي بن محمد بن عبيد الله ومواطنهم في ناحية المغرب عن الخراج فيحاورون بنى منصور ولهم تاوريرت وملؤها وخدمتهم في الغالب لبنى مرين واقطاعاتهم من أيديهم ومواطنهم تحتهم ورجوعهم إلى عبد الواد في الاقل وفي بعض الاحيين ورياستهم في ولد يعقوب بن هبا بن هراج لاولاد مرين بن يعقوب واولاد مناد ابن رزق الله بن يعقوب واولاد فكرون بن محمد بن عبد الرحمن بن يعقوب من ولد حريز ابن يحيى الصغير بن موسى بن يوسف بن حريز كان شيخا عليهم أيام السلطان عبد العزيز وهلك عقبه ورأس عليهم ابنه ومن ولد مناد أبو يحيى الكبير بن مناد كان شيخا قبل أبي يحيى الصغير وبالاضافة إليه وصف بالصغير ومنهم أبو حميدة محمد بن عيسى بن مناد وهو لهذا العصر رديف لشيخهم من ولد ابى يحيى الصغير وهو كثير التقلب في القفار والغزو للقاصية ولاهل الرمال والملثمين والله مللك الملوك لا رب غيره ولا معبود سواه وهو نعم المولى ونعم النصير

[٦٤]

* (الثعالبة) * وأما الثعالبة اخوتهم من ولد ثعلب بن على بن بكر بن صغير أخى عبيد الله بن صغير فهو المنهى لهذا العهد بمتيحة من بسيط الجزائر وكانوا قبلها يتطيرون ومواطن حصين لهذا العهد نزولها منذ عصور قديمة وأقاموا بها حيا حلولا ويظهر أن نزولهم لها حين كان ذوى عبيد الله في مواطن بنى عامر لهذا العهد وكان بنو عامر في مواطن بنى سويد فكانت مواطنهم لذلك العهد متصلة بالتلول الشرقية فدخلوا من ناحية كزول وتدرجوا في المواطن إلى ضواحي المدينة ونزلوا جبل تيطرى وهو جبل اشير الذى كانت فيه المدينة الكبيرة فلما بلغت بنو برحين على التلول وملكوا وانشريس زحف محمد بن عبد القوى إلى المدينة فملكها وكانت بينهم وبينه حروب وسلم إلى أن وفدت عليه مشيختهم فتقبض عليهم وأغزى من وراءهم من بقية الثعالبة واستلحهم واكتسح أموالهم وغلبهم بعدها على تيطرى وأزاحهم عنها إلى متيحة وأنزل قبائل حصين تيطرى وكانوا معه في عداد الرعايا يؤدون إليه المغارم والوظائف ويأخذهم بالعسكرة معه ودخل الثعالبة هؤلاء في ابالة ملكيش من صنهاجة ببسيط متيحة وأوطنوا تحت ملكتهم وكان لهم عليهم سلطان كما تذكره حتى إذا غلب بنو مرين على المغرب الاوسط واذهبوا ملك ملكيش منها استبد الثعالبة هؤلاء بذلك البسيط وملكوه وكانت رياستهم في ولد سباع بن ثعلب بن على بن مكر بن صغير ويزعمون ان سباعا هذا كان إذا وفد على الموحدين يجعلون من فوق عمامته دينارا يزن عددا من الدينار سابقا في تكرمته وترفيعه (وسمعت) من بعض مشيختنا ان ذلك لما كان من كرامته للامام المهدي حين أجاز بهم فانه مر بهم ساعيا فحملوه واستقرت الرياسة في ولد سباع هذا في بنى يعقوب بن سباع أولا فكانت لهم مددا ثم في عقب حنيش منهم ثم غلب السلطان أبو الحسن على ممالك بنى عبد الواد ونقلهم إلى المغرب وصارت الولاية لهم لابي الحملات ابن عائد بن ثابت وهو ابن عم حنيش وهلك في الطاعون الجارف أواسط هذه المائة الثامنة لعهد نزول السلطان أبى الحسن بالجزائر من تونس فولى عليهم ابراهيم بن نصر ولم تزل رياستهم إليه إلى أن هلك بعد استيلاء السلطان أبى عنان عن المغربيين كما تذكره في أخباره وقام برياستهم ابنه سالم وكانوا أهل مغارم ووضيعة للبكش ومن بعدهم من ولاة الجزائر حتى إذا هبت ريح العرب أيام خروج أبى زيان وحصين على أبى حمو أعوام ستين وسبعمائة كما ذكرناه وكان شيخهم لذلك العهد سالم بن ابراهيم بن نصر بن حنيش بن أبى حميد بن ثابت بن محمد بن سباع فأخبت في تلك الفتنة وأوضع وعافد أبو حمو وانتقض عليه مرارا وغلب بنو مرين على تلمسان فتحيز إليهم وكانت رسله ووفده

تقدموا إليهم بالمغرب ثم هلك السلطان عبد العزيز ورجع أبو حمو إلى ملكه ونزلت الغوائل فخشيه سالم واستدعى أبا زيان ونصبه بالجزائر وزحف إليه أبو حمو سنة تسع وسبعين فقبض جمعه وراجع سالم خدمته وفارق أبا زيان كما نذكره في أخباره ثم زحف إليه أبو حمو وحاصره بجبال منيعة أيام قلائل واستنزله على عهده ثم أخفره وتقبض عليه وقاده إلى تلمسان أسيرا وقتله قعصا بالرماح وذهب أثره وما كان له من الرياسة التي لم تكن الثغالبية لها بأهل ثم تتبع اخوانه وعشيرته وقبيلة بالقتل والسبي والنهب إلى ان دثروا والله يخلق ما يشاء

* (ذوى منصور) * وأما أولاد منصور بن محمد فهم معظم هؤلاء المعقل وجمهورهم ومواطنهم تخوم المغرب الأقصى من قبلته ما بين ملوية ودرعة ويطونهم أربعة أولاد حسين وأولاد أبي الحسين وهما شقيقان والعمارية أولاد عمران والمنيات أولاد منبا وهما شقيقان أيضا ويقال لهذين البطنين جميعا الاحلاف فأما أولاد أبي الحسن فعجزوا عن الطعن ونزلوا قصورا اتخذوها بالقفر ما بين تافيللات وتيكورارين وأما أولاد حسين فهم جمهور ذوى منصور ولهم العزة عليهم ورياستهم أيام بنى مرين في أولاد خالد بن جرمون ابن حرار بن عرفة بن فارس بن على بن عبد الواحد بن يحيى ثم لآخيه زكريا ثم لابن عمه أحمد بن رحو بن غانم ثم لآخيه يعيش ثم لابن عمه يوسف بن على بن غانم لهذا العهد وكانت لبنى مرين فيهم وقائع أيام يعقوب بن عبد الحق وابنه يوسف وسيأتي في أخبار بنى مرين غزوة يوسف بن يعقوب بن مراكش إليهم وكيف أوقع بهم بصحراء درعة ولما أقام بالشرق على تلمسان محاصرا لها أحلف هؤلاء العرب من المعقل على أطراف المغرب ما بين درعة وملوية إلى تاوريرت وكان العامل يومئذ بدرعة عبد الوهاب بن صاعد من صنائع الدولة وكبار ولاتها فكانت بينه وبينه حروب قتل في بعضها ثم هلك يوسف بن يعقوب ورجع بنو مرين إلى المغرب فأخذوا منهم بالثار حتى استقاموا على الطاعة وكانوا يعطون الصدقة أطوع ما يكون إلى أن فشل ربح الدولة واعتزت العرب فصاروا يمنعون الصدقة الا في الأقل يغلبهم السلطان على اعطائها ولما استولى السلطان أبو عنان على تلمسان أعوام خمسين وسبعمئة وفر صغير بن عامر إلى الصحراء ونزل عليهم واستجار بهم فأجاروه ونزل السلطان عليهم ذلك فأجمعوا نقض طاعته وأقاموا معه بالصحراء وصغير متولى كبر ذلك الخلاف حتى إذا هلك أبو عنان وكان من سلطان أبي حمو بتلمسان ما نحن ذاكروه وزحف بنو مرين إلى تلمسان ففر منها أبو حمو وصغير ونزلوا عليهم فأوقعوا بعسكر بنى مرين بنواحي تلمسان واتسع الخرق بينهم وبين بنى مرين فانحازوا إلى أبي حمو وسلطانه واقطعهم بضواحيه ثم رجعوا إلى أوطانهم بعد مهلك السلطان أبي سالم أعوام ثلاث وستين على حين اضطراب المغرب بفتنة أولاد السلطان أبي على ونزولهم بسجلماسة فكان لهم في ذلك الفتنة آثار إلى أن انقضت ثم كان لاحمر بن رحو مع أبي حمو جولة وأجلب عليه بأبي زيان حافد أبي تاشفين فقتل في تلك الفتنة كما نذكره ثم اعتدوا على الدولة من بعد ذلك وأكثر مغارم درعة لهذا العهد وأقطع ببلاد تادلا والمعمر من تلك البنايا التي منها دخولهم إلى المغرب للمربيع والمصيف ولميراث الاقوات وسجلماسة من مواطن اخوانهم الاحلاف كما نذكره وليست من

مواطنهم فأما درعة فهي من بلاد القبلة موضوعة حفا في الوادي الأعظم المنحدر من جبل درن من بوهة يخرج منها وادي أم ربيع ويتساهل إلى البسائط والتلول ووادي دريعة ينحدر إلى القبلة مغربا إلى أن يصب في الرمل ببلاد السوس وعليه قصور درعة ووادي آخر كبير أيضا ينحدر إلى القبلة مشرقا بعض الشيء إلى أن يصب في الرمل دون تيكو رارين وفي قبيلتها وعليه من جهة المغرب قصور توات ثم بعدها تمنطيت ثم بعدها وركلان وعندها يصب في الرمل وفي الشمال عن ركان قصور تسابيت وفي الشمال عنها إلى الشرق قصور يتكورارين والكل وراء عرب الرمل وجبال درن هي الجبال العظيمة الجاثمة سياجا على المغرب الأقصى من أسفى إلى تازى وفي قبيلتها جبل نكيسة لصنهاجة وآخره جبل ابن حميدي من طرف هسكورة ثم ينعطف من هنا لك جبال أخرى متوازية حتى تنتهى إلى ساحل بادس من البحر الرومي وصار المغرب لذلك الجزيرة أحاطت الجبال به من القبلة والشرق والبحر ومن المغرب والجوف واعتمرت هذه الجبال والبسائط التي بينها أمم من البربر لا يحصيهم الا خالقهم والمسالك بين هذه الجبال إلى المغرب منحصرة ثم معدودة وبازاء القبائل المعتمرين لها كاظة ومصب وادي درعة هذا إلى الصحراء والرمال ما بين سجلماسة وبلاد السوس ويمتد إلى أن يصب في البحر ما بين نون وواديان وحفا فيه قصور لا تحصى شجرتها النخل وقاعدتها بلد تاندست بلد كبير يقصده التجار للمسلم في النيلج وانتظار خروجه بالصناعة ولأولاد حسين هؤلاء استيلاء على هذا الوطن ومن بازائه في فسيح جبلة من قبائل البربر صناكة وغيرهم ولهم عليهم ضرائب وخفريات ووضائع ولهم في مجابى السلطان اقطاعات ويجاورهم الشبانان من أولاد حسان من ناحية الغرب فلهم بسبب ذلك على درعة بعض الاتاوات (وأما الاحلاف) من ذوى منصور وهم العمارية والمنبات فمواطنهم مجاورة لأولاد حسين من ناحية الشرق وفي مجالاتهم بالقفر تافيلات وصحراؤها وبالتل ملوية وقصور وطاط وتازى ويطوية وعساسة لهم على ذلك كله الاتاوات والوضائع وفيها الاقطاعات السلطانية وبينهم وبين أولاد حسين فتنة ويجمعهم العصبية في فتنة من سواهم ورياسة العمارية في أولاد مظفر بن ثابت بن مخلف بن عمران وكان شيخهم لعهد السلطان أبى عنان طلحة بن مظفر وابنه الزبير ولهذا العهد محمد بن الزبير وأخوه موسى ويراد فهم في رياستهم أولاد عمارة بن قلان بن مخلف فكان منهم محمد العائد ومنهم لهذا العهد سليمان بن ناجى بن عمارة ينتجع في القفر ويكثر الغزو إلى اعتراض العير وقصور الصحراء ورياسة المنبات لهذا العهد لمحمد بن عبد بن حسين بن يوسف بن فرج بن منبا وكانت أيام السلطان أبى عنان لآخيه على من قبله

وترادفهم في رياستهم ابن عمهم عبد الله بن الحاج عامر بن أبى البركات بن منبا والمنبات والعمارية اليوم إذا اجتمعوا جميعا يكثر أولاد حسين وكان للمنبات كثرة لأول دولة بنى مرين وكان خلفهم مع بنى عبد الواد وكان مقدمه يغمراسن بن زيان في افتتاح سجلماسة وتملكها من أيدي الموحدين ثم تغلب بنو مرين عليها وقتلوا من حاربها من مشيختهم مع بنى عبد الواد ثم أوقعوا بالمنبات من بعد ذلك في مجالاتهم بالقفر واستلحموهم فنقص عددهم لذلك آخر الايام والله مالك الامور لا رب سواه

* (ذوى حسان عرب السوس) * وأما بنو مختار بن محمد فهم كما قدمناه ذوى حسان والشبانان والرقيطات ومنهم أيضا الجياينة وأولاد أبو ربه وكانت مواطنهم بنواحي ملوية إلى مصبة في البحر مع اخوانهم ذوى منصور وعبيد الله إلى أن استصرخهم على بن بدر الزكندري صاحب السوس من بعد الموحدين ونسبه ابن عمه في عرب الفتح وكانت بينه وبين كزولة الطواعن ببساتط السوس وجباله فتنة طويلة استصرخ لها بنى مختار هؤلاء فصارخوه وارتحلوا إليه بطعونهم وحمدوا مواطن السوس لعدم المزاحم من الطواعن فيها فأوطنوها وصارت مجالاتهم بقفرها وغلبوا كزولة وأصاروهم في حملتهم ومن طعونهم وغلبوا على القصور التي بتلك المواطن في سوس ونول ووضعوا عليها الاتاوات مثل تارودانت من سوس وهي ضفة وادي سوس حيث يهبط من الجبل وبين مصبه ومصب وادي ماسة حيث الرباط المشهور مرحلة الى القبلة ومن هناك إلى زوايا أولاد بنى نعمان مرحلة أخرى في القبلة على سائر البحر وتواصت على وادي نول حيث يدفع من جبل نكيسة غربا وبينها وبين ايفرى مرحلة والعرب لا يغلبونها وإنما يغلبون على البساتط في نواحيها وكانت هذه المواطن لعهد الموحدين من جملة ممالكهم وأوسع عمالاتهم فلما انقرض أمر الموحدين حجبت عن ظل الدولة وخرجت عن ايةال السلطان الا ما كان بها لبنى بدر هؤلاء الذين قدمنا ذكرهم وكان على ابن بدر مالكا لقصورها وكان له من الجند نحو ألف فارس وولى من بعده عبد الرحمن بن الحسن بن بدر وبعده أخوه على بن الحسن وكان لعبد الرحمن معهم حروب وفتن بعد استظهاره بهم وهزموه مرات متتابة أعوام خمس وسبعمائة وما بعده وغدر هو بمشيعتهم وقتلهم بتارودانت سنة ثمان من بعد ذلك وكان لبنى مرين على هؤلاء المعقل السوس وقائع وأيام وظهر يعقوب بن عبد الحق بنى مرين في بعضها الشبانان على بنى حسان واستلحم منهم عددا وحاصرهم يوسف بن يعقوب بعدها فأمسكوها وأغرهم ثمانية عشر ألفا وأئخن فيهم يوسف بن يعقوب ثانية سنة ست وثمانين وحاربتهم جيوشه أيضا أياما لحق بهم بنو كمي من بنى عبد الواد وخالفوا على السلطان فترددت إليهم العساكر واتصلت الحروب كما نذكر في أخباره (ولما استفحل) أمر زناتة بالمغرب وملك أبو على ابن السلطان أبي سعيد سجلماسة واقتطعها عن ملك أبيه بصلح وقع على ذلك انضوى إليه هؤلاء الاعراب أهل السوس من الشبانان وبنى حسان ورغبوه في ملك هذه القصور فأغزأها من تخوم وطنه بدرعة ودخل القرى عنوة وفر على بن الحسن وأمه إلى جبال نكيسة عند صنهاجة ثم رجع ثم غلب السلطان أبو الحسن

واستولى على المغرب كله ورغبه العرب في مثلها من قصور السوس فبعث معهم عساكره وقائده حسون بن ابراهيم بن عيسى من بنى يربنيان فملكها وجبى بلاد السوس وأقطع فيه للحرب وساسهم في الجباية فاستقامت حاله مدة ثم انقرض أمر السلطان أبي الحسن فانقرض ذلك ورجع السوس إلى حاله وهو اليوم ضاح من ظل الدولة والعرب يقتسمون جبايته ورعاياه من قبائل المصامدة وصنهاجة قبائل الجباية والطواعن منهم يقتسمونهم خولا للعسكرة مثل كزولة مع بنى حسان وزكرز ولخس من لمطة مع الشبانان هذه حالهم لهذا العهد ورياسة ذوى حسان في أولاد أبي الخليل بن عمر بن عفير بن حسن بن موسى بن حامد بن سعيد بن حسان بن مختار لمخلوف بن أبي بكر بن سليمان بن الحسن بن زيان بن الخليل ولاخواته ولا أدري رياسة الشبانان لمن هي منهم الا أنهم حرب لبنى حسان آخر الايام والرقيطات في غالب أحوالهم أحلاف للشبانان وهم أقرب إلى بلاد المصامدة وجبال درن وذوى حسان أبعد في القفر والله تعالى يخلق ما يشاء لا اله الا هو

{ الخبر عن بنى سليم بن منصور من هذه الطبقة الرابعة وتعديد بطونهم وذكر أنسابهم وأولية أمرهم وتصاريف أحوالهم { ونبدأ أولاً بذكر بنى كعب وأخبارهم وأما بنى سليم هؤلاء فبطن متسع من اوسع بطون

مضر وأكثرهم جموعاً وكانت منازلهم بنجد وهم بنو سليم بن منصور بن عكرمة ابن خضفة بن قيس وفيهم شعوب كثيرة ورياستهم في الجاهلية لبنى الشريد بن رياح لبنى ثعلبة بن عطية بن خفاف بن امرئ القيس بن بهنة بن سليم وعمر بن الشريد عظيم مضر وأبناؤه صخر ومعاوية فصخر أبو الخنساء وزوجها العباس بن مرداس صحابي حضرت معه القادسية (ومن بطون سليم) عطية ورعل وذكوان الذان دعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فتكوا باصحابه فحمد ذكرهم وكان بنو سليم لعهد الخلافة العباسية شوكة بغى وفتنة حتى لقد أوصى بعض خلفائهم ابنه أن لا يتزوج فيهم وكانوا يغيرون على المدينة وتخرج الكتائب من بغداد إليهم وتوقع بهم وهم منتبذون بالفقر ولما كانت فتنة القرامطة صاروا حلفاء لابي الطاهر وبنيه أمراء البحرين من القرامطة مع بنى عقيل بن كعب ثم لما انقرض أمر القرامطة غلب بنو سليم على البحرين بدعوة الشيعة لما أن القرامطة كانوا على دعوتهم ثم غاب بنو الاصغر بن تغلب على البحرين بدعوة العباسية أيام بنى بويه وطردوا عنها بنى سليم فلحقوا بصعيد مصر وأجازهم المستنصر على يد الاروزى وزيره إلى افريقية لحرب المعز بن باديس عند خلافته عليهم كما ذكرنا ذلك أولاً فأجازوا مع الهلاليين وأقاموا بركة وجهات طرابلس زمانا ثم صاروا إلى افريقية كما يذكر في الخبر عنهم وبافريقية وما إليها من هذا العهد من بطونهم أربعة بطون زغب وذياب وهيب وعوف * فاما زغب فقال ابن الكلبي في نسبه زغب بن نصر بن خفاف بن امرئ القيس بن بهنة بن سليم وقال أبو محمد التجاني من مشيخة التونسيين في رجامة انه زغب بن ناصر بن خفاف بن جرير ابن ملاك بن خفاف وزعم أنه أبو ذياب وزغب الاصغر الذين هم الآن من أحياء بنى سليم بافريقية وقال أبو الحسن بن سعيد هو زغب بن مالك بن بهنة بن سليم كانوا بين الحرمين وهم الآن بافريقية مع اخوانهم ونسب ذياب بن مالك بن بهنة فالله أعلم بالصحيح من ذلك ونسب ابن سعيد والتجاني لهؤلاء قريب بعضه من بعض ولعله واحد وسقط لابن سعيد جد * وأما هيب فهو ابن بهنة بن سليم ومواطنهم من أول أرض بركة مما يلي افريقية إلى العقبة الصغيرة من جهة الاسكندرية أقاموا هنا لك بعد دخول اخوانهم إلى افريقية وأول ما يلي الغرب منهم بنو حميد لهم اجرابية وجهاتها وهم عديد يرهبهم الحاج ويرجعون إلى شماخ لها عدد ولهم العز في هيت لكونها صارت خصب بركة الذي منه المرج وفي شرقهم إلى العقبة الكبيرة شمال ومحارب والرياسة في هاتين القبيلتين لبنى عزازوهم المعروفون بالعزة وجميع بطون هيب هذه استولت على اقليم طويل خربوا مدنه ولم يبق فيه مملكة ولا ولاية الا لاشياخهم وفي خدمتهم بربر ويهود يحترفون

بالفلاحة والتجر ومعهم من راحة وفرارة أمر واشتهر لهذا العهد ببرقة من شيوخ اعرابها أبو ذؤيب ولا أدري نسبه فيمن هو وهم يقولون من العزة وقوم يقولون من بنى احمد وقوم يجعلونه من فرارة هنا لك قليل عددهم والغلب لهيب فكيف تكون الرياسة لغيرهم * وأما عوف فهو ابن بهنة بن سليم ومواطنهم من وادي قابس إلى أرض بونة ولهم حرمان عظيمان بمرداس وعلاق يطنان بنو يحيى وحصن وفي أشعار هؤلاء المتأخرين منهم مثل حمزة بن عمر شيخ الكعوب وغيره أن يحيى وعلاقا أخوان ولبنى يحيى ثلاثة بطون حمير ودلاج ولحمير بطنان ترحم وكردم ومن ترحم الكعوب بنو كعب ابن أحمد بن ترحم ولحصن بطنان بنو علي وحكيم ونحن نأتى على الحكاية عن جميعهم بطنا بطنا وكانوا عند اجازتهم على اثر الهالبيين مقيمين ببرقة كما ذكرناه وهنا لك نزل عليهم القاضي أبو بكر بن العربي وأبوه حين غرقت سفينتهم ونجوا إلى الساحل فوجدوا هنا لك بنى كعب فنزل عليهم فأكرمه شيخهم كما ذكر في رحلته ولما كانت فتنة ابن غانية وقراقش الغزق بجعات طرابلس وقابس وضواحيها كما نذكر في أخبارهم كان بنو سليم هؤلاء فيمن تجمع إليهم من حوiban العرب وأوثاب القبائل فاعصو صبا عليهم وكان لهم معهم حروب وقتل قراقش ثمانين من الكعوب وهربوا إلى برقة واستصرخوا برياح من بطون سليم وديكل من حمير فصارخوهم إلى أن تجلب علياية تلك الفتنة بمهلك قراقش وابن غانية من بعده وكان رسوخ الدولة الحفصية بأفريقية ولما هلك قراقش واتصلت فتنة ابن نمانية مع أبي محمد بن أبي حفص ورجع بنو سليم إلى أبي محمد صاحب أفريقية وكان ابن غانية الزواودة من رباح وشيخهم مسعود البلط فر من المغرب ولحق به فكان معه هو وبنوه وبنو عوف هؤلاء من سليم مع الشيخ أبي محمد فلما استبد ابنه الامير أبو زكريا بملك أفريقية رجعوا جميعا إليه واشفوف للزواودة فلما انقطع دابر ابن غانية صرف عزمه إلى اخراج رباح من أفريقية لما كانوا عليه من العيث بها والفساد فجاء بمرداس وعلاق وهما بنو عوف بن سليم هؤلاء من بطونهم بنواحي السواحل وقابس واصطنعهم ورياسة مرداس يومئذ في أولاد جامع وبعده لابنه يوسف وبعده هنان بن جابر بن جامع ورياسة علاق في الكعوب لأولاد شيخه ابن يعقوب بن كعب وكانت رياسة علاق عند دخولهم أفريقية لعهد هذا المعز وبنيه لرافع بن حماد وعنده راية جده التي حضر بها مع النبي صلى الله عليه وسلم وهو جد بنى كعب فيما يزعمون فاستظهر بهم السلطان على شأنه وأنزلهم بساح القيروان وأجزل لهم الصلات والعوائد وزاحموا الزواودة من رباح بمنكب بعد أن كان لهم استطالة على جميع بلاد أفريقية وكانت لهم آية اقطاع لمحمد بن مسعود بن سلطان أيام الشيخ أبي محمد بن أبي حفص فأقبل إليه

مرداس في بعض السنين غيرهم للكيد ونزلوا به فرأ وانعمة الزواودة في تلولهم تلك فشرهوا إليها وأجمعوا طلبها فحاربوهم فغلبوهم وقتلوا رزق بن سلطان واتصلت الفتنة فلما حضرهم الامير أبو زكريا صادف عندهم القبول لتحريضه فاعصو صبا جميعا على فتنة الزواودة وتأهبوا لها وتكررت بينهم وبين رباح الحروب والوفائع حتى أزاحوهم عن أفريقية إلى مواطنهم لهذا العهد بتلول قسنطينة وبجاية إلى الزاب وما إليه ثم وضعوا أوزار الحرب وأوطن كل حيث قسمت له قومه وملك بنو عوف سائر ضواحي أفريقية وتغلبوا عليه واصطنعهم السلطان وأثبتهم في ديوان العطاء ولم يقطع شيأ من البلاد واختص بالولاية منهم أولاد جامع وقومه فكانوا له خالصة وثمر تدبيره في غلب الزواودة ورياح في ضواحي أفريقية وازعاجهم عنها إلى ضواحي الزاب وبجاية وقسنطينة وطال بالدولة واختلف حالهم في الاستقامة معها والنفرة وضرب السلطان بينهم ابن علاق فنشأت الفتنة وسخط عنان بن جابر شيخ مرداس من أولاد جامع مكانه من الدولة فذهب مغاضبا

عنها وأقام بناجته من مرداس ومن إليهم بنواحي المغرب في بلاد رياح من زاعر إلي ما يقاربها وخاطبه أبو عبد الله بن أبي الحسن خالصة السلطان أبي زكريا صاحب إفريقية يومئذ يؤنبه على فعلته في مراجعة السلطان بقصيدة منها قوله وهي طويلة قدوا المهامه بالممرية القود * واطو وإفلاة بتصويب وتصعيد ويقوله سلواد منة بين الغضى والسواحر * هل استن فيها وإكفات المواطر فأجاب عن هذه عنان بقوله خليلي عوجا بين سلع وحاجر * بهوج عنا بيج نواج ضوامر يقيم عروة في النزوع عنهم السلطان بعض الشئ كما نذكره في أخبار الدولة الحفيدة ثم لحق بمراكش بالخليفة السعيد من بنى عبد المؤمن محرزا له على إفريقية وآل أبي حفص وهلك في سبيله وقبر بسلا ولم يزل حال مرداس بين النفرة والاصحاب إلى أن هلك الامير أبو زكريا واستفحل ملك ابنه المستنصر من بعده وعلا الكعوب بذمة قومه من السلطان وكان شيخهم لعده عبد الله بن شيخة فسعى عند السلطان في مرداس وكان أبو جامع مبلغا سعابته واعصوبت عليه سائر علاق فحاربوا المراداسيين هؤلاء وغلبوهم على الاوطان والحظ من السلطان وأخرجوهم عن إفريقية وصاروا إلى القفر وهم اليوم به من جهة يادية الاعراب أهل الفلاة ينزعون إلى الرسل ويمتارون من أطراف التلول تحت

أحكام سليم أو رياح ويختصون بالتغلب على ضواحي قسنطينة أيام مراتب الكعوب ومصاحبهم بالتلول فإذا انحدروا إلى مشاتيهم بالقفر أجفلت احياء مرداس إلى القفر البعيد أو يخالطونهم على حلف ولهم على توزر ونقطة وبلاد قسطيله اناوة يؤدونها إليهم بما هي مواطنهم ومجالاتهم وتصرفهم ولانها في الكثير من أعراضهم وصاروا لهذا العهد إلى تملك القفار بها فاصطفوا منه كثيرا واصبح منه عمران قسنطينة لهم مرتابا واستقام أمر بنى كعب من علاق في رياسة عوف وسائر بطونهم من مرداس وحسين ورياح ودلاج ومن بطون رياح وعلا شأنهم عند الدولة واعتزوا على سائر بنى سليم ابن منصور واستقرت رياستهم في ولد يعقوب بن كعب وهم بنو شيخة وبنو طاهر وبنو على وكان التقدم لبنى شيخة بن يعقوب لعبد الله أولا ثم لابراهيم أخيه ثم لعبد الرحمن ثالثهما على ما يأتي وكان بنو على يرادفونهم في الرياسة وكان منهم بنو كثير بن يزيد ابن على وكان كعب هذا يعرف بينهم بالحاج لما كان قضى فرضه وكانت له صحابة مع أبي سعيد العود الرطب شيخ الموحدين لعهد السلطان المنتصر أفادته جاهها وثروة وأقطع له السلطان أربعا من القرى أصارها لولده كان منها بناحية صفاقس وبإفريقية وبناحية الجريد وكان له من الولد سبعة أربعة لام وهم اجر وماضي وعلى ومحمد وثلاثة لام وهم بريد وبركات وعبد الغنى فنازع أحمد أولاد شيخة في رياستهم على الكعوب واتصل بالسلطان أبي اسحق وأحفظهم ذلك فلحقوا بالدعى عند ظهوره وكان من شأنه ما قدمنا وهلك أحمد واستقرت الرياسة في ولده وكان له من الولد جماعة فمن عرفة احدى نساء بنى قاسم أبو الليل وأبو الفضل ومن الحكمية قائد وعبيد ومنديل وعبد الكريم السرى كليب وعساكر وجهد الملك وعبد العزيز ولما هلك أحمد قام بأمرهم بعده ابنه أبو الفضل ثم من بعده أخوه أبو الليل بن أحمد وغلب رياسة بنى أحمد هؤلاء على قومهم وتآلفوا ولد اخوتهم جميعا وعرفوا ما بين أحيائهم بالاعشاش إلى هذا العهد ولما كان شأن الدعى بن أبي عمارة ويئس الفضل بن يحيى المخلوع وأوقع بالسلطان أبي اسحق وقتله وأكثر منه كما نذكره في موضعه لحق أبو حفص أخوه الاصغر بقلعة سنان من حصون إفريقية وكان لابي الليل بن أحمد في نجاته ثم في القيام بأمره اثر وقع منه أحسن المواقع فاصطنعه به وشيد من رياسته على قومه عندما أдал الله به من الدعى فاصطنع أبو الليل هذا بأمرهم وزاحم أولاد شيخة بمنكب قوى ولحق آخرهم عبد الرحمن بن شيخة ببجاية عندما اقتطعها

الامير أبو زكريا بن سلطان أبي اسحق على ملك عمه السلطان أبي حفص فوفد عليه مستجيشا به ومرغبا له في ملك تونس يرجو بذلك كثرة رياسته فهلك دون مرامه وقبر ببجاية وانقرضت رياسته اولاد شيخة بمهلكه

[٧٦]

واستبد أبو الليل بالرياسة في الكعوب ووقع بينه وبين السلطان أبي حفص وحشة فقدم على الكعوب مكانه محمد بن عبد الرحمن بن شيخة وزاحمه به أياما حتى استقام على الطاعة ولما هلك قام بأمرهم ابنه أحمد واتصل أمر رياسته ونكبه السلطان أبو عصيدة فهلك في سجنه وولى بعده أخوه عمر بن أبي الليل وزاحمه هراج ابن عبيد بن أحمد بن كعب إلى أن هلك هراج كما نذكر ولما هلك عمر قام بأمره في قومه أخوه محمد بن أبي الليل وكفل مولاهم وحمزة ابن أخيه عمر وكان عمر مضعفا عاجزا فنازعه اولاد مهلهل ابن عمه قاسم وهم محمد ومسكيا ومرغم وطالب وعون في آخرين لم يحضرنهم أسماؤهم فترشحوا للاستبداد على قومهم ومجادبة محمد ابن عمهم أبا الليل جبل اباعة فيهم ولم يزالوا على ذلك سائر أيامهم ولما ظهر هراج بن عبيد بن أحمد بن ؟ ؟ وعظم ضغائنه وعتوه وافساد الاعراب من احيائه السابلة وساء أثره في ذلك وأسس السلطان بالاعزاز عليه والاستراط في ماله وتوغلت له صدور الغوغاء والعامه فوفد على تونس عام خمسة وسبعمائة ودخل المسجد يوم الجمعة لابسا خفيه ونكر الناس عليه وطأه بيت الله عجب لم ينزعه وربما قال له في ذلك بعض المصلين إلى جنبه فقال انى أدخل بها بساط السلطان فكيف الجامع فاستعظم الناس كلمته وثاروا به لحيته فقتلوه في المسجد وارضوا الدولة بفعلهم وكان أمره المذكورا وقتل السلطان بعد ذلك أخاه كيسان وابن عمه شبل بن منديل بن أحمد وقام بامر الكعوب مريد محمد ابن أبي ليلى وهراج بن عبيد مولاهم وحمزة أبناء عمر واستبد برياسة البدو ومن سليم بافريقية على مزاحمة من بنى عمهم مهلهل بن قاسم وأمثالهم وفحول سواهم وانتقض أحمد بن أبي الليل وابن أخيه مولاهم ابن عمر على السلطان سنة سبع وسبعمائة واستدعى عثمان بن أبي دبوس من مكانه بوطن ذباب فجاءه واجلب له على تونس ونزل كدية الصعتر بظاهرها وبرز إليهم الوزير أبو عبد الله بن برزيكن فهزمهم واستخدم أحمد بن أبي الليل ثم قبض عليه واعتقل بتونس إلى أن هلك ووفد بعد ذلك مولاهم ابن عمر سنة ثمان فاعتقل معه ولحق أخوه حمزة بالامير أبي البقا خالد ابن الامير زكريا صاحب الثغر الغربي من افريقية بين يدي مهلب السلطان أبي عصيدة ومعه أبو علي ابن كثير ويعقوب بن الفرس وشيوخ بنى سليم هؤلاء مورد الامير أبا البقاء في ملك الحضرة وغاز في صحبته وأطلق أخاه مولاهم من الاعتقال منذ دخول السلطان تونس سنة عشرة وسبعمائة كما نذكر في خبره ثم لحق حمزة بالسلطان أبي يحيى زكريا ابن اللحياني واتصلت به يده فرفعه على سائر العرب حتى لقد نفس ذلك عليه أخوه مولاهم و ؟ ع إلى السلطان أدر ؟ ؟ الطويل أمر الخلافة ولى سبعا ببجاية وثلاثين

[٧٧]

بعد استيلائه على الحضرة وسائر بلاد افريقية فاستخلصه السلطان لدولته ونابذه حمزة فأجلب عليه بالقرابة واحدا بعد واحد كما نذكره وداهن أخوه مولاهم في مناصحة السلطان ومالا حمزة على شأنه وربما نمى عنه الغدر فتقبض عليه السلطان وعلى ابنه منصور وعلى ربيبه زعدان ومغرار بن محمد بن أبي الليل وكان الساعي بهم إلى

السلطان ابن عمهم عون بن عبد الله بن أحمد وأحمد بن عبد الواحد أبو عبيد وأبو هلال بن محمود ابن فائد وناجى بن أبى على بن كثير ومحمد بن مسكين وأبو زيد بن عمر بن يعقوب ومن هوارة فيصل بن زعزاع فقتلوا لحينهم سنة ثنتين وعشرين وبعث اشلاؤهم إلى حمزة فاشتد حنقه ولحق صريخا بأبى تاشفين بعساكر تلمسان لعده من آل يغمراسن ومعه محمد ابن السلطان اللحيانى المعروف بأبى ضربة قد نصبه للملك وأمدهم أبو تاشفين بعساكر زناتة وزحفوا إلى افريقية فخرج إليهم السلطان وهزمهم برغيش ولم يزل حمزة من بعدها مجلبا على السلطان أبى يحيى بالمرشحين من أعياص البيت الحفصى وأبو تاشفين صاحب تلمسان يمدهم بعساكره وتكررت بينهم الوقائع والايام سجالا كما نذكره في مواضعه حتى إذا استولى السلطان أبو الحسن وقومه من بنى مرين على تلمسان والغرب الاوسط سنة سبع وثلاثين وسبعمائة واستتبوا بنى عبد الواد وسائر زناتة قصى حمزة من فتنته وانقطع حبلها في يده ولحق بالسلطان أبى الحسن مستشفعا به فتقبل السلطان أبو يحيى شفاعته وعفا له عن جرائمه وأحل محل الاصفاء والخلوص فشرم عن نصحه واجتهاده وظاهر قائده محمد بن الحكيم على تدرج افريقية وظهر البدو من الاعراب فاستقام أمر الدولة وتوثر مهادها وهلك حمزة سنة أربعين وسبعمائة بيد أبى عون نصر بن أبى على عبد السلام من ولد كثير بن زيد المتقدم الذكر في بنى على من بطون بنى كعب طعنه في بعض الحروب فأشواه وكان فيها مهلكه وقام بأمرهم من بعده ابنه عمر بمظاهرة شقيقه قتيبة ولكن أبا الليل تغلب على سائر الاخوة وللقرابة واستبد برياسة بنى كعب وسائر بنى يحيى وأقتاله بنو مهلهل ينافسونه ويرتقبون الادالة منه وكان مساهمه في أمره معن بن مطاعن من فزارة وزير أبيه وخرجوا على السلطان بعد مهلك حمزة أبيهم واتهموا ان قتل أبى عون اياهم انما كان بممالة الدولة فنازلوا تونس وجمعوا لمحاصرتها أولاد مهلهل أمثالهم ثم اختلفوا ورحلوا عن البلد وانخذل طالب بن مهلهل وقومه إلى السلطان ونهض في أثرهم فأوقع بهم في القيروان ووفدت مشيختهم على ابنه الامير أبى العباس بقصره يداخلونه في الخروج على ابنه وكان فيهم معن بن مطاعن وزيرهم فتقبض عليه وقتله وأفلت الباقيون وراجعوا الطاعة وأعطوا الرهن (ولما هلك) السلطان أبو يحيى وقام بالامر ابنه عمر انحرفوا عنه وظاهروا أخاه أبا

العباس صاحب الجريد وولى العهد وزحفوا معه بطواعنهم إلى تونس فدخلها وقتله أخوه عمر كما نذكره في موضعه وقتل معه أخاهم أبا الهول بن حمزة فأسعفهم بذلك ووفد خالد على صاحب المغرب السلطان أبى الحسن فيمن وفد عليه من وجوه الدولة وكافة المشيخة من افريقية وجاء في جملته حتى إذا استولى على البلاد قبض أيديهم عما كانت تمتد إليه من افساد السابلة وأخذ الاتاوة وانتزع الامصار التى كانت مقطعة بأيديهم وألحقهم بأمثالهم من اعراب بلاد المغرب الاقصى من المعقل وزغبة فثقلت وطأته عليهم وتكروا له وساء ظنه بهم وفشت فارات المفسدين من بداويهم بالاطراف فنسب ذلك إليهم ووفد عليه بتونس من رجالاتهم خالد بن حمزة وأخوه أحمد وخليفة بن عبد الله بن مسكين وخليفة بن أبى زيد من شيوخ حليم فسعي بهم عنده انهم داخلوا بعض الاعياص من أولاد اللحيانى من بنى أبى حفص كما في رحلته كما نذكره في موضعه فتقبض عليهم وبلغ خبرهم إلى الحى فناشبو بقشطيلة والبريد فظفروا بزنايى من بقية آل عبد المؤمن من عقب أبى العباس ادريس الملقب بأبى ادريس آخر خلفائهم بمراكش واستبلاؤه على المغرب وهو أحمد بن عثمان بن ادريس فنصبوه وبايعوه واجتمعوا عليه وناشبت معهم بنو عمهم مهلهل أقتالهم وكان طالب هلك وقام مكانه فيهم ابنه محمد فصرخهم بقومه واصفقوا جميعا على حرب

زناة ونهض إليهم السلطان أبو الحسن من تونس فاتح تسع وأربعين فأجفلوا امامه حتى نزل القيروان ثم ناجزوه ففضوا جموعه وملؤا حقائبهم باسلايه واسلابهم وخضدوا من شوكة السلطان والأنوا من حد الملك وخفضوا من أمر زناة وغلبهم الامم وكان يوم له ما بعده في اعتزاز العرب على الدول آخر الايام وهلك أبو الليل بن حمزة فعجز عمر عن مقامة اخوته واستبد بالرياسة عليه أخوه خالد ثم من بعده أخوهما منصور واعتز على السلطان أبي اسحق ابن السلطان أبي يحيى صاحب تونس لعهد اعتزاز الاكفاء له وانبسطت أيدي العرب على الضاحية وأقطعتهم الدولة حتى غلبوا على الضاحية وقاسموهم في جبايات الامصار بالاقطاع ريفا وصحراء وتلولا وجريدا ويحرضون بين اعياص الدولة ويجلبون بهم على الحضرة لما يعطونه طعمة من الدولة ويرميهم السلطان باقتالهم أولاد مهلهل بن قاسم بن أحمد يديل به منهم حتى احفظوها ويحرض بينهم بقضاء أوطارها حتى إذا أراد الله انقاذ الامة من هوة الخسف وتخليصهم من مكاره الجوع والخوف وإدانتهم من ظلمات الموت بنور الاستقامة بعث همة السلطان أمير المؤمنين أبي العباس أحمد ايده الله لطلب ارثه من الخلافة فبعث من بالحضرة فانبعث لها من مكان امارنه بالثغر العربي ونزل إليه أمير البدو

ومنصور ابن حمزة هذا وذلك سنة احدى وسبعين وسبعماية على حسين مهلك السلطان أبي اسحق مقتعد كرسى الحضرة وصاحب عصا الخلافة والجماعة وقام ابنه خالد بالامر من بعده فنهض إلى افريقية ودخل تونس عنوة واستولى على الحضرة سنة ثنتين بعدها وارهب حده للعرب في الاعتزاز عليهم وقبض ايديهم عن المفاسد وذويهم فحدثت لمنصور نفرة عن الدولة ونصب الامير أبو يحيى زكريا ابن السلطان ابن أبي يحيى جدهم الاكبر كان في احياء العرب منذ سنين كما نذكر ذلك كله في اخبار الدولة وأجلب به على تونس سنة ثلاث وسبعين فامتنعت عليهم ولم يظفروا بشئ وراجع منصور حاله عند السلطان وكشف عن وجه المناصحة وكان عشيرته قد ملوا منه حسدا ومنافة بسوء ملكته عليهم فغدا عليه محمد ابن أخيه أبي الليل وطعنه فاشواه وهلك ليومه سنة خمس وسبعين وافترق جمعهم وقام بأمرهم من بعده صولة ابن أخيه خالد بن حمزة ويرادفه أولاد مولاهم ابن عمر فجهد بعض الشئ في خدمة السلطان ومناصحته ثم رجع إلى العصيان وكشف القناع في الخلاف واتصل حاله على ذلك ثلاثا وإدال السلطان منه ومن قومه باقتالهم أولاد مهلهل ورياستهم لمحمد بن طالب فرجع إليهم رياسة البدو وجعل لهم المنع والاعطاء فيهم ورفع رتبهم على العرب وتخيذ إليه معهم أولاد مولاهم ابن عمر بن أبي الليل ونقلت أولاد حمزة سائر هذه الايام في الحلاف ونهض السلطان سنة ثمانين إلى بلاد الجريد لتقديم رؤسائها عن المراوغة وحملهم على جادة الطاعة فتعرضوا لمدافته عنها باملاء هذه الرؤساء ومشارطتهم لهم على ذلك وبعد ارجعوا له الجموع من دومان العرب الاعراب وذياب البدو فغلبهم عليها جميعا وازاحهم عن ضواحيها وظفر بفرائسة من أولئك الرؤساء وأصبحوا بين معتقل ومشرد واستولى على قصورهم وذخائرهم وأبعد أولاد حمزة وأحلافهم من حكيم المفر وجاوزوا تخوم بلادهم من جهة المغرب واعتزت بعد الفساد وانفتحت أبو اب الرحمة على العباد وقد كان اعتزاز هؤلاء العرب على السلطان والدولة لا ينتهى إليه اعتزاز ولهم عنجهية وإباية وخلق في التكبر الذى هو غريزة لما انهم لم يعرفوا عهد الاول ولا يسامون باعطاء الصدقات لهذا العهد الاول اما في دولة بنى أمية فللعصية التى كانت للعرب بعضها مع بعض يشهد بذلك اخبار الردة والحلفاء معهم مع أمثالهم مع أن الصدقة كانت لذلك العهد تتحرى الحق بجانب الاعتزاز والغلظة فليس في اعطائها كثير غمط ولا مذلة واما أيام بنى العباس حين استفحال

الملك وحدث الغلظة على أهل العصابة فلا يعادهم بالقفر من بلاد نجد وتهامة وما وراءهما وأما أيام العبيديين فكانت الحاجة تدعو الدولة إلى استمالتهم للفتنة التي كانت بينهم وبين بنى العباس وأما حين خرجوا بعد ذلك إلى فضاء برقة

[٨٠]

وأفريقية فكانوا ضاحين من ظل الملك ولما اصطنعهم بنو أبي حفص كانوا معهم بمكان من الذل وسوم الخسف حتى كانت واقعتهم بالسلطان أبي الحسن وقومه من زناتة بالقيروان فنهجوا سبيل الاعتزاز لغيرهم من العرب على الدول بالمغرب فتحامل المعقل وزغبة على ملوك زناتة واستطالوا في طلبهم بعد أن كانوا مكبوحين بحكمة الغلب عن التناول إلى مثلها والله مالك الأمور صولة بن خالد بن حمرة بن عمر بن أبي الليل بن أحمد بن كعب بن علي بن يعقوب بن كعب بن أحمد بن ترحم بن حميد بن يحيى بن علان بن عوف بن امرئ القيس بن بهسته بن سليم - عمر - منصور - خالد بن علي مولاهم - سليمان بن عبد الله بن أحمد - زعلان يحيى بن مسكيا بن مهلهل بن قاسم - عون - أبو الفضل - عبيد - فائد - محمد بن طالب مرغه - محمد - عبد الغنى - ماضى - اجر - الحاج - بنو عون بن نصر بن ابي علي عبد السلام بن كثير بن يزيد - كردم - حبيب بن رياح - دلاج - حصن - منصور قتيبة - أحمد - مندبل - مغرار بن محمد - مندبل - عساكر - كليب - عبد العزيز عبد الملك - بريد - بركات - محمد - علي - عبد الله بن شيخة - عبد الرحمن - ابراهيم

[٨١]

{ الخبر عن قاسم بن مرا من الكعوب القائم بالسنة في سليم ومآل أمره وتصاريف أحواله } كان هذا الرجل من الكعوب من أولاد أحمد بن كعب منهم وهو قاسم بن مر ابن أحمد نشأ بينهم ناسكا منتحلا للعبادة ولقى بالقيروان شيخ الصلحاء بعصره أبا يوسف الدهانى وأخذ عنه ولزمه ثم خرج إلى قومه مقتفيا طريقة شيخه في التزام الورع والاخذ بالسنة ما استطاع ورأى ما العرب عليه من افساد السابلية والخروج عن الجادة فأخذ نفسه بتغيير المنكر فيهم واقامة السنة لهم ودعا إلي ذلك عشيره من أولاد أحمد وإن يقاتلوا معه على ذلك فأشار عليه أولاد ابي الليل منهم وكانوا عيبة له تنصح له أن ينكف عن طلب ذلك من قومه مخافة ان يلحوا في عداوته فيفسد أمره ودفوعه إلى مطالبة غيرهم من سليم وسائر الناس بذلك وانهم منعة له ممن يرومه خاصة فجمع إليه أوباشا من البادية تبعوه على شأنه والتزموا طريقته والمرابطة معه وكانه يسمون بالجنادة وبدا بالدعاء إلى اصلاح السابلية بالقيروان وما إليها من بلاد الساحل وتبع المحاربين بقتل من يعثر عليه منهم بالطرق وغزو المشاهير منهم في بيوتهم واستباحة أموالهم ودمائهم حتى شردهم كل مشرد وعلت بذلك كلمته على آل حصن وصلحت السابلية بأفريقية ما بين تونس والقيروان وبلاد الجريد وطار له ذكر نفسه عليه قومه وأجمع عداوته واغتياله بنو مهلهل قاسم بن أحمد وتنصحوا ببعض ذلك للسلطان بتونس الامير ابن حفص وأن دعوة هذا الرجل قاذحة في أمر الجماعة والدولة فأغضى لهم عن ذلك وتركهم وشأنهم فخرجوا من عنده مجمعين قتله ودعوه في بعض أيامهم إلى المشاورة في شؤونهم معه على عادة العرب ووقفوا معه بساحة حيهيم ثم خلصوا معه نجيا وطعنه من خلفه محمد بن مهلهل الملقب بأبي عذبتين فخر صريعا لليدين والفم وامتعض له أولاد ابي الليل وطلبوا بدمه فافتقرت أحياء بنى كعب من يومئذ بعد ان كانت جميعا وقام بامرهم من بعده ابنه رافع على مثل طريقته إلى ان هلك في طلب الامر

على يد بعض رجالات آل حصن سنة ست وسبعمائة ولم يزل بنو
أبى الليل على الطلب بثار قاسم بن مرا إلى ان ظهر فيهم حمزة
ومولاهم ابنا عمر بن أبى الليل وصارت إليهم الرياسة على أحيائهم
واتفق في بعض الايام اجتماع أولاد مهلهل بن قاسم في سيدى
حمزة ومولاهم في مشائهم بالقفر فاجمع اغتيالهم وقتلهم عن
آخرهم شاق ابن عمهم قاسم بن مرا ولم يفلت منهم الا طالب بن
مهلهل لم يحضر معهم وعظمت الفتنة من يومئذ بين هذين الحيين
وانقسمت عليهم أحياء بنى سليم وصاروا يتعاقبون في الخلاف
والطاعة على الدولة وهم على ذلك لهذا العهد والرياسة في بنى
مهلهل اليوم لمحمد بن طالب بن مهلهل وأخيه يحيى والله وارث
الارض

[٨٢]

ومن عليها وهو خير الوارثين (بنو حصن بن علاق) بنو حصن هؤلاء
من بطون علاق وحصن أخو يحيى بن علاق كما مر فهم بطنان أيضا
بنو على وحكيم وقد يقال ان حكيم ليس لحصن وانما ربه في
حجره فانتمى إليه واما حكيم فلم يزل بطون منهم بنو طريف بن حكيم
وهم أولاد عائر والشراعبة ونعير وجرين لمقدام ابن طريف وزباد بن
طريف ومنهم بنو وائل بن حكيم ومنهم بنو طرود بن حكيم وقد يقال
ان طرودا ليس لسليم وانهم من منبى احدى بطون هلال بن عامر
ويقال ان منهم زيد العجاج بن فاضل المذكور في رجالات هلال
والصحيح في طرود انهم من بنى فهم ابن عمر بن قيس بن عيلان
بن عدوان وفى تعدادهم وكانت طرود أحلاف الدلاج ثم قاطعوهم
وحالفوا آل ملاعب ومن بطون حكيم آل حين ونوال ومقعد والجميعات
ولا أدرى كيف يتصل نسبهم ومنهم بنو نمير بن حكيم ولنمير بطنان
ملاعب وأحمد فمن أحمد بنو محمد والبطين ومن ملاعب بنو هيكل
بن ملاعب وهم أولاد زمام والغزيات وأولاد مياس وأولاد فائد ومن
أولاد فائد الصرح والمدافعة وأولاد يعقوب بن عبد الله بن كثير بن
حرقوص بن فائد واليهم رياسة حكيم وسائر بطونهم ومواطن حكيم
هؤلاء لهذا العهد ما بين سوسة والاجم والناجعة منهم أحلاف لبنى
كعب تارة لأولاد أبى الليل وتارة لا قتالهم أولاد مهلهل ورياستهم في
بنى يعقوب بن عبد السلام بن يعقوب شيخا عليهم وانتقض أيام
اللحيانى ووفد على السلطان أبى يحيى بالثغر الغربي من افريقية
في بجاية وفسنطينة وجاء في حملته فلما ملك ملك تونس عقد له
على قومه ورفع على أنظاره وغص به بنو كعب فحرض عليه حمزة
من الاعشاش محمد بن حامد بن يزيد فقتله في موقف شوارهم
وولى إلى الرياسة فهم من بعده ابن عمه محمد ابن مسكين بن
عامر بن يعقوب بن القوس وانتهت إليه رياستهم وكان يرادفه أو
ينازعه جماعة من بنى عمه فمنهم سحيم بن سليمان بن يعقوب
وحضر واقعة طريف مع السلطان أبى الحسن وكان له فيها ذكر
ومنهم أبو الهول وأبو القاسم ابنا يعقوب ابن عبد السلام وكان لأبي
الهول مناصحة للسلطان أبى الحسن حين احلف عليه بنو سليم
بالقيروان وأدخله مع أولاد مهلهل في الخروج على القيروان فخرج
معهم جميعا إلى سوسة ومنهم بنو يزيد بن عمر بن يعقوب وابنه
خليفة ولم يزل محمد بن مسكين على رياسته أيام السلطان أبى
يحيى كلها وكان مخالطا له ومتهالكا في نصيحته والانحياش إليه
ولما هلك خلفه في رياسته ابن أخيه خليفة بن عبد الله بن

[٨٣]

مسكين وهو أحد الاشياخ الذين تقبض عليهم السلطان أبو الحسن
بتونس بدعاء واقعة القيروان ثم أطلقه وهو محصور بالقيروان فكان له

به اختصاص من بعد ذلك ولما تغلب العرب على النواحي بعد واقعة القبروان تغلب بنو مسكين هؤلاء على سوسة فأقطعها السلطان خليفة هذا وبقيت في ملكته وهلك خليفة فقام برياستهم في حكيم ابن عمه عامر ابن محمد بن مسكين ثم قتله محمد بن بئثة بن حامد من بنى كعب قتله يعقوب بن عبد السلام ثم قتله محمد هذا غدرا بجهد الجريد سنة خمس وخمسين وسبعمئة ثم افترق أمرهم واستقرت رياستهم لهذا العهد بين أحمد بن محمد بن عبد الله بن مسكين وتلقب أبا معنونة وهو ابن أخى خليفة المذكور وعبد الله بن محمد بن يعقوب وهو ابن أخى أبى الهول المذكور ولما تغلب السلطان أبو العباس على تونس وملكها انتزع سوس من أيديهم فامتعض أحمد لذلك وصار إلى ولاية صولة بن خالد بن حمزة من أولاد أبى الليل وسلخوا سبيل الخلاف والفتنة وأبعدوا في شأوها وهم لهذا العهد مشردون عن الضواحي والأرياف منزاحون إلى القفر وأما عبد الله بن محمد ويلقب الرواي فتحيز إلى السلطان وأكد حلفه مع أولاد مهلهل على ولايته ومظاهرتة فعظمت رياسته في قومه وهو على ذلك لهذا العهد ثم راجع أبو معنونة خدمة السلطان وانقسمت رياسته حكيم بينهما وهم على ذلك لهذا العهد وأما بنو على أخوة حكيم فلهم بطون أولاد صورة ويجمعهما معا عوف بن محمد بن على حصن ثم أولاد غى والبدرانة وأولاد أم أحمد والحضرة أو الرجلان وهو مقعد والجميعات والحمر والمسابحة آل حسين وحجرى وقد يقال ان حجرى ليسوا لسليم وانهم من بطون كندة صاروا معهم بالحلف فانتسبوا بنسبهم ورياسة بن على في أولاد صورة وشيخهم لهذا العهد أبو الليل بن أحمد بن سالم بن عقبة بن شبل بن صورة بن مرعى بن حسن بن عوف ويراد فهم المراعية من أهل نسبهم أولاد مرعى ابن حسن بن عوف ومواطنهم ما بين الإجم والمباركة من نواحي قابس وناجعتهم أحلاف الكعوب اما لأولاد أبى الليل أو لأولاد مهلهل وغالب أحوالهم أولاد مهلهل والله مقدر الامور لا رب سواه

[٨٤]

(ذباب بن سليم) قد ذكرنا الخلاف في نسبهم من انهم من ذباب بن ربيعة بن زعب الأكبر وان ربيعة أخو زعب الأصغر وضبط هذه اللفظة لهذا العهد بضم الزاى وقد ضبطها الاجل

[٨٥]

أبى والرشاطى بكسر الزاى كذا نقل أبو محمد التجانى في رحلته ومواطنهم ما بين قابس وطرابلس إلى برقة ولهم بطون فمنهم أولاد أحمد بن ذباب ومواطنهم غربي قابس وطرابلس إلى برقة عيون رجال مجاورون لحصن ومن عيون رجال بلاد زعب من بطون ذباب بنو يزيد مشاركون لأولاد أحمد في هذه المواطن وليس هذا أبا لهم ولا اسم رجل وانما هو اسم حلفهم انتسبوا به إلى مدلول الزيادة كذا قال التجانى وهم بطون أربعة الصهب بسكون الهاء بنو صهب بن جابر بن فائد بن رافع بن ذباب واخوتهم الحمادية بنو حمدان بن جابر والخرجة بسكون الراء بطن من آل سليمان منهم أخرجهم آل سليمان من مواطنهم بمسالة فخالفوا هؤلاء ونزلوا معهم والأصابعة نسبة إلى رجل ذى اصبع زائدة ولم يذكر التجانى في أي بطن من ذباب ينتسبون ومنهم النوائل بنو نائل بن عامر بن جابر واخوتهم أولاد سنان بن عامر واخوتهم أولاد وشاح بن عامر وفيهم رياسته هذا القبيل من ذباب كلهم وهم بطنان عظيمان المحاميد بنو محمود بن طوب بن بقية بن وشاح ومواطنهم ما بين قابس ونفوسة وما إلى ذلك من الضواحي والجبال ورياستهم لهذا العهد في بنى رحاب ابن محمود لأولاد سباع بن يعقوب بن عطية بن رحاب والبطن الآخر

الجواری بنو حمید بن جاریة بن وشاح ومواطنهم طرابلس وما إليها مثل تاجورا وهزاعة وز نزور وما إليها من ذلك لهذا العهد وریاستهم لهذا العهد فی بنی مرغم بن صابر بن عسکر بن علی بن مرغم ومن أولاد وشاح بطنان آخران صغیران مندرجان مع الجواری والمحامد وهما الجواربة بنو جراب بن وشاح والعمور بنو عمر بن وشاح هكذا زعم التجانی فی العمور هؤلاء وفی هلال بن عامر بطن العمور كما ذكرناه وهم يزعمون ان عمور ذباب هؤلاء منهم وانهم انما جمعهم مع ذباب الموطن خاصة ولبسوا من سلیم والله أعلم بحقیقة ذلك وكان من أولاد وشاح بنو حریر بن تمیم بن عمر بن وشاح كان منهم فائد بن حریر من فرسان العرب المشاهیر وله شعر متداول بینهم لهذا العهد سمرا وفكاهة المجالس ويقال انه من المحامید فائد بن حریر بن حربی ابن محمود بن طوب وكان بنو ذباب هؤلاء شیعة لقراقش الغزی وابن غانية ولهما فیة اثر وقتل قراقش مشیخة الجواری فی بعض أيامه ثم صاروا بعد مهلك ابن غانية إلى خدمة الامیر أبی زکریا وأهل بیته من بعده وهم الذین أقاموا أمر الداعی بن أبی عمارة وعليهم كان تلبسه لان یصیر أمیرا بدل المخلوع وكان فر إلیهم بعد مهلك مولاه وبنیه ونزل علیهم حتی إذا مر بهم ابن أبی عمارة فعرفه الخیر فانفقوا علی التلبیس وزینوا ذلك لهؤلاء العرب فقبلوه وتولى کبر ذلك مرغم بن صابر وتبعه قومه وداخلهم فی الامر أبو مروان عبد الملك بن مکی رئیس قابس فكان من قدر

الله ما كان من تمام أمره وتلویت كرسى الخلافة بدمه حسبما یذكر فی أخبار الدولة الحفصية وكان السلطان أبو حفص یعتمد علیهم و ؟ ابهم فی دعوة عمارة فخالفوا علیه وسرح لحریم قائده أبا عبد الله الغزالی واستصرخوا بالامیر أبی زکریا ابن أخیه وهو یومئذ صاحب بجایة والثغر الغربی من افريقية ووفد علیه منهم عبد الملك بن رجاب ابن محمود فنهض لصریخه سنة سبع وثمانین وستمائة وحاربوا أهل قابس وهزموهم وأخذوا فیهم ثم غلبهم الغزالی ومانعهم عن وطن افريقية ورجع الامیر أبو زکریا إلى القرية وكان مرغم بن صابر بن عسکر شیخ الجواری قد أسره أهل صقلية من سواحل طرابلس سنة ثنتين وثمانین وباعوه لاهل برشلونة فاشتراه ملكهم وبقي أسیرا عندهم إلى ان زعم إلیه عثمان بن ادريس الملقب بأبى دبوس بقية الخلفاء من بنی عبد المؤمن وأراد الاجازة إلى افريقية لطلب حقه فی الدعوة الموحدة فعقد الملك ملك برشلونة بینة و بین مرغم حلفا وبعثهما ونزول بساحل طرابلس وأقام مرغم الدعوة لابن دبوس وحمل علیها قومه وحاصر طرابلس سنة ثمان وثمانین آیاما ثم تركوا عسکرا لحصارها وارتحلوا لجباية الوطن فاستفرغوه وكان ذلك غاية أمرهم وبقي أبو دبوس یتقلب فی أوطانهم مدة واستدعاه الكعوب لأول المائة الثامنة وأجلبوا به علی تونس آیام السلطان أبی عصيدة من الحفصیین وحاصروها آیاما فلم یظفروا ورجع إلى نواحي طرابلس وقام بها مدة ثم ارتحل إلى مصر وأقام بها إلى ان هلك كما یأتي ذكره فی خبر ابنه مع السلطان أبی الحسن بالقیروان ولم یزل هذا شأن الجواری والمحامید إلى ان تقاص ظل الدولة عن أوطان قابس وطرابلس فاستبد بریاسة ضواحيها واستعدوا سائر الرعاية المعتمرة فی جبالها وبساتینها واستبد أهل الامصار بریاسة أمصارهم بنو مکی بقابس وبنو ثابت بطرابلس علی ما یذكر فی أخبارهم وانقسمت ریاسة أولاد وشاح بانقسام المصرین فتولى الجواری طرابلس وضواحيها ونزور وغریان ومغر وتولى المحامید بلد قابس وبلاد نفوسة وحرب وفی ذباب هؤلاء بطون أخرى ناجعة فی الفقر ومواطنهم منزاحة إلى جانب الشرق عن مواطن هؤلاء الشاحین فمنهم آل سلیمان بن هبیب بن رابع بن ذباب ومواطنهم قبلة مغر وغریان وریاستهم فی ولد نصر بن زائد بن سلیمان وهی لهذا العهد لهائل بن حماد بن نصر وبنیه و بین البطن

الأخر إلى سالم بن وهب أخى سليمان ومواطنهم بلد مسراتة إلى لهد ومسلاتة وشعوب آل سالم هؤلاء الا حامد والعائم والعلاونة وأولاد مرزوق ورياستهم في أولاد ولد مرزوق وهو ابن معلى بن معراق بن قليتة بن قماص بن سالم وكانت في أول هذه المائة الثامنة لغبون بن مرزوق واستقرت في بنيه وهى اليوم لحميد بن سنان بن عثمان

[٨٧]

ابن غلبون والعلاونة منهم مجاورون للعدة من عرب برقة والمشابنة من هواره المقيمين وتجاذب ذباب هؤلاء في مواطنهم من جهة القبلة ناصرة وهم من بطون ناصرة بن خفاف بن امرئ القيس بن بهتة بن سليم فان كان زعب أبو ذباب لملك بن خفاف كما زعم التجانى فهم اخوة ناصرة ويبعد أن يسمى قوم باسم اخوانهم وان كانوا لناصره كما زعم ابن الكلبى وهو أقرب فيكون هؤلاء اختصوا باسم ناصرة دون ذباب وغيرهم من بنيه وهذا كثير من بطون الغيايا والله أعلم ومواطنهم بلاد فزان وودان هذه اخبار ذباب هؤلاء وأما لغرة جيرانهم في الشرق الذين منا ذكرهم بهم برقة خلفاء لاستيلاء الخراب على أمصارها وقرارها من دولة صنهجة تمرنت بمرانها بادية العرب وناجعتهم فتجيعوا غارة ونهبا إلى ان فسدت فيها مذاهب المعاش وانتقض العمران فخربت وصار معاش الاكثر من هؤلاء العرب المواطنين بها لهذا العهد من الملح يثيرون له الارض بالعوامل من الجمال والحمير والنساء إذا ضاق كسبهم عن العوامل وارتكبوا ضرورة المعاش وينجعون إلى بلاد النخل في جهة القبلة منهم من اجلة وسنترية الواحات وما وراء ذلك من الرمال والفقر إلى بلد السودان المجاورين لهم وهم كانوا قسمي بلادهم يرنق وشيخ هؤلاء العرب ببرقة يعرف لهذا العهد بأبى ذئب من بنى جعفر وركاب الحج من المغرب يحمدون مساطتهم في مرهم وحسن نيتهم في التجافي عن جامع بيت الله وارفادهم بجلب الاقوات لسريهم وحسن الظن بهم فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره وأما نسبهم فما أدرى فيمن هو من العرب وحدثني الثقة من ذباب عن خريص بن شيخهم أبى ذباب أنهم من بقايا الكعوب ببرقة وتزعم نسابة الهلاليين أنهم لربيعة بن عامر اخوة هلال بن عامر وقد مر الكلام في ذلك في أول ذكر بنى سليم ويزعم بعض النسابة أنهم والكعوب من العزة وان العزة من هيث وان رياسة العزة لاوولاد أحمد وشيخهم أبو ذئب وان المسانية جيرانهم من هواره وذكر لى سلام بن ال ؟ ركية شيخ أولاد مقدم جيرتهم بالعقبه أنهم من بطون مسراتة من بقية هواره وهو الذى رأيت النسابة المحققين عليه بعد ان دخلت مصر ولقيت كثيرا من المترددين إليها من أهل برقة وهذا آخر الطبقة الرابعة من العرب وبانقضائه انقضى الكتاب الثانى في العرب وأجيالهم منذ بدء الخليفة فلنرجع إلى أحوال البربر في الكتاب الثالث والله ولى العون اه

[٨٩]

* (بسم الله الرحمن الرحيم) * صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم } الكتاب الثالث في أخبار البربر والامة الثانية من أهل المغرب وذكر أوليتهم وأجيالهم ودولتهم منذ بدء الخليقة لهذا العهد ونقل الخلاف الواقع بين الناس في أنسابهم { هذا الجيل من الأدميين هم سكان المغرب القديم ملؤا البساتن والجبال من تلولة وازيافه وضواحيه وأمصاره يتخذون البيوت من الحجارة والطين ومن الخوص والشجر ومن الشعر والوبر ويطعن أهل العز منهم والغلبة لانتجاع المراعى فيما قرب من الرحلة لا يجاوزون

فيها الريف إلى الصحراء والقفار الاملس ومكاسيهم الشاء والبقر والخيل في الغالب للركوب والنتاج وربما كانت الابل من مكاسب أهل النجعة منهم شان العرب ومعاش المستضعفين منهم بالفلح ودواجن السائمة ومعاش المعتزين أهل الانتجاع والاطعان في نتاج الابل وظلال الرماح وقطع السابلة ولباسهم وأكثر أثاثهم من الصوف يشتملون الصماء بالاكسية المعلمة ويفرغون عليها البرانس الكحل ورؤسهم في الغالب حاسرة وربما يتعاهدونها بالحلل ولغتهم من الرطانة الاعجمية متميزة بنوعها وهي التي اختصوا من أجلها بهذا الاسم يقال ان افريقش ابن قيس بن صيفي من ملوك التابعة لما غزا المغرب وافريقية وقتل الملك جرجيس وبنى المدن والامصار وباسمه زعموا سميت افريقية لما رأى هذا الجيل من الاعاجم وسمع رطانتهم ووعى اختلافها وتنوعها تعجب من ذلك وقال ما أكثر بربرتكم فسموا بالبربر والبربرة بلسان العرب هي اختلاط الاصوات غير المفهومة ومنه يقال بربر الاسد إذا زار بأصوات غير مفهومة * وأما شعوب هذا الجيل ويطونهم فان علماء النسب متفقون على أنهم يجمعهم جذمان عظيمان وهما برنس وماد غيس ويلقب ماد غيس بالابتر فلذلك يقال لشعوبه البتر ويقال لشعوب برنس البرانس وهما معا ابنا برو بين النسابين خلاف هل هما لاب واحد فذكر ابن حزم عن أيوب بن أبي يزيد صاحب الحمار أنهما لاب واحد على ما حدثه عنه يوسف الوراق وقال سالم بن سليم المظماطي وصابي بن مسرور الكومي وكهلان بن أبي لووهم نسابة البربر ان البرانس بتروهم من نسل مازيغ بن كنعان والبتر بنو بر بن قيس بن عيلان وربما نقل ذلك عن أيوب بن أبي يزيد الا ان رواية ابن حزم أصح لانه أوثق (وأما) شعوب البرانس فعند النسابين انهم يجمعهم سبعة اجذام وهي ازداجة ومصمودة وأورية وعجيسة

[٩٠]

وكتامة وصنهاجة وأوريغة وزاد سابق بن سليم وأصحابه لمطة وهسكورة وكزولة وقال أبو محمد بن حزم يقال ان صنهاج ولمط انما هما ابنا امرأة يقال لها بصكي ولا يعرف لهما أب تزوجها أوريغ فولدت له هو ارفلا يعرف لهما أكثر من انهما اخوان لهوار من أمه قال وزعم قوم من أوريغ أنه ابن المثنى بن السكك من كندة وذلك باطل وقال الكلبي ان كتامة وصنهاجة ليستا من قبائل البربر وانما هما من شعوب اليمانية تركهما افريقش بن صيفي بافريقية مع من نزل بها من الحامية هذه جماع مذاهب أهل التحقيق في شأنهم فمن ازداجة مسطاطه ومن مصمودة غمارة بنو غمار بن مصطفى بن مليل بن مصمود ومن أوريغة هواره ومملك ومغد وقلدن فمن هوار بن أوريغ مليلة وبنو كهلان ومن ملك بن أوريغ صطط وورفل واسيل ومسراتة ويقال لجمعهم لهانة بنو لهان بن ملك ويقال ان مليلة منهم ومن مغد بن أوريغ ماواس وزمور وكبا ومصراى ومن قلدن بن أوريغ ممصاة وورسطيف وبيانة وقل مليلة * (وأما شعوب البتر) * وهم بنو مادغيس الابتر فيجمعهم أربعة جذام اداسة ونفوسة وضربة وبنو لو الاكبر وكلهم بنو زحيك بن مادغيس فأما اداسة بنو اداس بن

[٩١]

زحيك فبطونهم كلها في هواره لان كل اداس تزوجها بعد زحيك ابن أوريغ ابن عمه برنس والدهواره فكان اداس أبا لهواره ودخل نسب بنيه كلهم في هواره وهم وسفارة واندارة وهنزولة وضربة وهداغة واوطيطة وترهنتة هؤلاء كلهم بنو اداس بن زحيك بن بادغيس وهم اليوم في هواره وأما لو الاكبر فمنه بطنان عظيمان وهما نفزاوة بنو نفزاو بن لو الاكبر ولواتة بنو لو الاصغر ومن لواتة سردانة بنو نيظط بن

لو الاصغر ودخل نسب سرداته في مغراوة قال أبو محمد بن حزم كان مغراوة تزوج أم سرداته فسار سرداته أبا بنى مغراوة لامهم واختلط نسبه بهم ومن نفاوة أيضا بطون كثيرة وهم ولهاصة وغساسة وزهلة وسوماتة وورسيف ومرنيزة وزاتيمة ووركول ومرسينة وورد غروس ووردن كلهم بنو تطوفت من نفاوة وزاد ابن سابق وأصحابه مجر ومكلاتة وقال ويقال ان مكلاتة ليس من البربر وانه من حمير وقع إلى تطوفت صغيرا فتيناه وهو مكلاتن رعان بن كلاع حاتم بن سعد بن حمير ولو لهاصة من نفاوة بطون كثيرة من بيزغاش ودحية ابني ولهاص فمن بيزغاش بطون ورمجوسة وهم رجال وطو وبورغيش ووانجد وكرطيظ وما انجول سينتت بنو ومجوح بن بيزغاش بن ولهاص بن تطوفت بن نغزا وقال ابن سابق واصحابه وبنو بيزغاش من لواتة كلهم بجبال اوراس ومن دحية ورترين وتر يروور تيونت ومكرا ولقوس بنو دحية بن ولهاص بن تطوفت بن نفاوة واما ضرية وهم بنو ضرى بن زحيك بن مادغيس الابتر فيجمعهم جذمان عظيمان بنو تمصيت بن ضرى وبنو يحيى بن ضرى وقال سابق واصحابه ان بطون تمصيت اختصوا بنسب ضرية دون بطون يحيى فمن بطون تمصيت مطماطة وصطفورة وهم لحومية ولماية ومطغرة ومرينة ومغيلة ومعزوزة وكشاة ودوتة ومدبونة كلهم بنو فاتن ابن تمصيت بن ضرى ومن بطون يحيى زنانة كلهم وسمكان وورصطف فمن ورصطف مكناسة وأوكنة وورتناج بنو ورصطف بن يحيى فمن مكناسة ورثيفة ووربر ومن معليت قنصارة وموالات وحراب ورفلابس ومن ملزلولالين ولرتر ويصلتن وجرير وفرغان ومن ورتناج مكنسة ومطاسة وكرسطة وسردجة وهنائة وفولال بنو ورتناج بن ورصطف ومن سمكان زواغة وزواوة بنو سمكان بن يحيى وابن حزم يعد زواوة التى بالواو في بطونها وهو أظهر ويشهد له الوطن فالغالب ان زواوة بنو سمكان بن يحيى وغير ابن حزم بعد زواوة التى بالواو في بطون كتامة والتى تعد في سمكان هي التى بالزاي وهي قبيلة معروفة ومن زواغة بنو ماجر وبنو واطيل وسمكين وسياتى الكلام فيهم مستوفى عند ذكرهم ان شاء الله تعالى هذا آخر الكلام في شعوب هذا الجيل مجملا ولا بد من تفصيل فيه عند تفصيل أخبارهم اه

* (وأما) * إلى من يرجع نسبهم من الامم الماضية فقد اختلف النسابون في ذلك اختلافا كثيرا ومجثوا فيه طويلا فقال بعضهم انهم من ولد ابراهيم عليه السلام من نقشان ابنه وقد تقدم ذكره عند ذكر ابراهيم عليه السلام وقال آخرون البربر يمنيون وقالوا اوزاع من اليمن وقال المسعودي من غسان وغيرهم تفرقوا عند ما كان من سيل العرم وقيل تخلفهم ابرهة ذو الهار بالمغرب وقيل من لخم وجذام كانت منازلهم بفلسطين وأخرجهم منها بعض ملوك فارس فلما وصلوا إلى مصر منعهم ملوك مصر النزول فعبروا النيل وانتشروا في البلاد وقال أبو عمر بن عبد البرادعت طوائف من البربر انهم من ولد النعمان بن حميد بن سبا قال ورأيت في كتاب الاسعدياد الحكيم ابن النعمان بن حمير بن سبا كان ملك زمانه في الفترة وأنه استدعى ابناءه وقال لهم أريد أن أبعث منكم للمغرب من يعمره فراجعوه في ذلك وزعم عليهم وأنه بعث منهم لمت أبا لمتونة ومسفوا بامسوفة ومرطا أبا هسكورة وأصناك أبا صنهجة ولمط أبا لمطة وايلان ابا هيلانه فنزل بعضهم بجبل دون وبعضهم بالسوس وبعضهم بدرعه ونزل لمط عند كزول وتزوج ابنته ونزل جانا وهو أبو زناتة بوادي شلف ونزل بنو ورتجين ومغراو باطراف افريقية من جهة المغرب ونزل مقرونك بمقربة من طنجة والحكاية أنكرها أبو عمرو بن عبد البر وأبو محمد بن حزم وقال آخرون انهم كلهم من قوم جالوت وقال على بن عبد العزيز الجرجاني النسابة في كتاب الانساب له لا أعلم قولا يؤدي إلى الصحة الا قول من قال انهم من ولد جالوت ولم ينسب جالوت ممن هو وعند ابن قتيبة انه ونور بن هربيل ابن

حديلان بن جالود بن رديلان بن حظى بن زياد بن زحيك بن مادغيس
الابتر ونقل عنه أيضا أنه جالوت بن هريال بن جالود بن دنيال بن
قحطان بن فارس قال وفارس مشهور وسفك أبو البربر كلهم قالوا
والبربر قبائل كثيرة وشعوب جمّة وهى هوارة وزناتة وضرية ومغيلة
وزيوجة ونفزة وكنامة ولواتة وعمارة ومصمودة وصدينه ويزدران
ردنجين وصنهاجة ومجكسة وواركلان وغيرهم وذكر اخرون منهم
الطبري وغيره ان البربر أخلاط من كنعان والعماليق فلما قتل جالوت
تفرقوا في البلاد وأغزى افريقيش المغرب ونقلهم من سواحل الشام
وأسكنهم افريقية وسماهم بربر وقيل ان البربر من ولد حام بن نوح
بن بربر بن تملا بن مازيغ بن كنعان بن حام وقال الصولى هم من ولد
بربر بن كسلاجيم بن مسراييم بن حام وقيل من العمالقة من بربر
بن تملا ابن مارب بن قاران بن عمر بن عملاق بن ولاد بن ارم بن
سام وعلى هذا القول فهم عمالقة وقال مالك بن المرحل البربر
قبائل شتى من حمير ومضر والقيط والعمالقة وكنعان وقريش تلاقوا
بالشام ولغطوا فسماهم افريقيش البربر لكثرة كلامهم وسبب

[٩٤]

خروجهم عند المسعودي والطبري والسهيلى ان افريقيش
استجاشهم لفتح افريقية وسماهم البربر وينشدون من شعره بربرت
كنعان لما سقتها * من اراضي الضنك للعيش الخصب وقال ابن
الكلبي اختلف الناس فيمن أخرج البربر من الشام فقيل داود بالوحى
قيل باداود أخرج البربر من الشام فانهم جذام الارض وقيل يوشع بن
نون وقيل افريقيش وقيل بعض الملوك التابعة وعند البكري ان بنى
اسرائيل أخرجوهم عند قتل جالوت وللمسعودي والبكري انهم فروا
بعد موت جالوت إلى المغرب وأرادوا مصر فأجلتهم القبط فسكنوا برقة
وافريقية والمغرب على حرب الافرنج والافارقة وأجازوهم على صقلية
وسردانية وميورقة والانديلس ثم اصطلحوها على ان المدن للافرنجة
وسكنوا القفار عصورا في الخيام وانتجاع الامصار من الاسكندرية إلى
البحر إلى طنجة والسوس حتى جاء الاسلام وكان منهم من تهود
ومن تنصر واخرون مجوسا يعبدون الشمس والقمر والاصنام ولهم
ملوك ورؤساء وكان بينهم وبين المسلمين حروب مذكورة وقال
الصولى البكري ان الشيطان نزع بين بنى حام وبنى سام فانجلى
بنو حام إلى المغرب ونسلوا به وقال أيضا ان حام لما اسود يدعو
أبيه فر إلى المغرب حياء واتبه بنوه وهلك عن اربعمائة سنة وكان
من ولده بربر بن كسلاجيم فنسل بنوه بالمغرب قال وانضاف إلى
البربر حيان من المغرب يمنيان عند خروجهم من مارب كنامة
وصنهاجة قال وهوارة ولمطة ولواتة بنو حمير بن سبا وقال هانئ بن
بكور الضريسي وسابق بن سليمان المظماطى وكهلان بن أبى لؤى
وأيوب بن أبى يزيد وغيرهم من نسابة البربر فرقتان كما قدمناه وهما
البرانس والبتتر من ولد بر بن قيس بن عيلان والبرانس بنو بربر سحو
بن ابزج بن جمواج بن ويل بن شراط بن ناح بن دويم بن داح بن ماريغ
بن كنعان بن حام وهذا هو الذى يعتمده نسابة البربر قال الطبري
خرج بربر بن قيس ينشد ضالة بأحياء البربر وهى جارية وتزوجها
فولدت وعند غيره من نسابة البربر انه خرج فارا من أخيه عمر بن
قيس وفى ذلك تقول تماض وهى أخته لتبكى كل باكبة أخاها * كما
أبكى على بر بن قيس تحمل عن عشيرته فأضحى * ودون لقائه
انضاء عيس ومما ينسب إلى تماض أيضا وشطت ببر داره عن بلادنا
* وطوح بر نفسه حيث يمما وازرت ببر لكنة أعجمية * وما كان بر في
الحجاز باعجما كآنا وبرأ لم نقف بحيادنا * بنجد ولم نقسم نهابا
ومغنا

[٩٥]

وأُشيد علماء البربر لعبيدة بن قيس العقيلي إلا أيها الساعي بعرفة
بيننا * توقف هداك الله سبل الاطايب فاقسم انا والبرابر اخوة * مماتا
وهاجد كريم المناصب ابونا أبوهم قيس عيلان في الوري * وفي
حومه يشفى غليل المحارب فنحن وهم ركن منبع واخوة * على
رغم أعداء لثام المناقب فان لبر ما يقى الناس ناصرا * وبر لنا ركن
منيع المناكب تعد لمن عادى شواذق حمرا * وبيضا تقص الهام يوم
التضارب وبر بن قيس عصبة مضرية * وفي الفرع من أحسابها
والذوائب وقيس قوام الدين في كل بلدة * وخير معد عند حفظ
المناسب وقيس لها المجد الذي يقتدى به * وقيس لها سيف حديد
المضارب وينشد أيضا أبيات ليزيد بن خالد يمدح البربر أيها السائل عنا
اصلنا * قيس عيلان بنو العز الاول نحن ما نحن بنو بر القوي * عرف
المجد وفي المجد دخل وابتنى المجد فاورى زنده * وكفانا كل خطب
ذى جلل ان قيسا يعتزى بر لها * ولبر يعتزى قيس الاجل ولنا الفخر
بقيس انه * جدنا الاكبر فكاك الكبل ان قيسا قيس عيلان هم *
معدن الحق على الخير دلل حسيك البربر قومي انهم * ملكوا الارض
باطراف الاسل وبيض تضرب الهام بها * هام من كان عن الحق نكل
أبلغوا البربر عنى مدحا * حيك من جوهر حيك منتحل وعند نسابة
البربر وحكاه البكري وغيره انه كان لمضر ولدان الياس وعيلان أمهما
الرياب بنت جبدة بن عمر بن معد بن عدنان فولد عيلان بن مضر
قيسا ودهمان اما دهمان فولده قليل وهم أهل بيت من قيس يقال
لهم بنو امامة وكانت لهم بنت تسمى البهاء بنت دهمان وأما قيس
بن عيلان فولد له أربعة بنين وهم سعد وعمرو أمهما مزنة بنت أسد
بن ربيعة بن زنار وبر وتماص وأمهما تمرغ بنت مجدل ومجدل بن
عمار بن مضمود وكانت قبائل البربر يومئذ يسكنون الشام ويجاورون
العرب في المساكن ويشاركونهم في المياه والمراعى والمسارح
ويصهرون إليهم فتزوج بر بن قيس بنت عمه وهى البهاء بنت همان
وحسده اخوته في ذلك وكانت أمه تمرغ من دهاة النساء فحشيت
منهم عليه وبعثت بذلك إلى أخوالها سرا ورحلت معهم يولدها
وزوجته إلى

أرض البربر وهم إذ ذاك ساكنون بفلسطين واكناف الشام فولدت
البهاء لبر ابن قيس ولدين علوان وما دغيس فمات علوان صغيرا وبقي
مادغيس فكان يلقب الابتر وهو أبو التمر من البربر ومن ولده جميع
زنانة قالوا وتزوج مادغيس بن بر وهو الابتر باحال بنت واطاس بن
محمد بن مجدل بن عمار فولدت له زحيك بن مادغيس وقال أبو عمر
بن عبد البر في كتاب التمهيد في الانساب اختلف الناس في انساب
البربر اختلافا كثيرا وانسب ما قيل فيهم أنهم من ولد قبط بن حام لما
نزل مصر خرج ابنه يريد المغرب فسكنوا عن اخر عمالة مصر وذلك ما
وراء برقة إلى البحر الأخضر مع بحر الاندلس إلى منقطع الرمل
متصلين بالسودان فمنهم لواتة بأرض طرابلس ونزل قوم بقربها وهم
نفزة ثم امتدت بهم الطرق إلى القيروان وما وراءها إلى تاهرت إلى
طنجة وسجلماسة إلى السوس الأقصى وه طوائف صنهاجة وكنامة
وركالة وركلاوة وفتواكة ومرطاوة وذكر بعض أهل الاثار ان الشيطان
نزغ بين بنى حام وبنى سم فوقعت بينهم مناوشات كانت الدبرة
فيها لسام وبنيه وخرج سام إلى المغرب وقدم مصر وتفرق بنوه
ومضى على وجهه يؤم المغرب حتى بلغ السوس الأقصى وخرج بنوه
في اثره يطلبونه فكل طائفة من ولده بلغت موضعا وانقطع عنهم
خبره فأقاموا بذلك الموضع وتناسلوا فيه ووصلت إليهم طائفة فأقاموا
معهم وتناسلوا هنا لك وكان عمر حام أربعمائة وثلاثا وأربعين سنة
فيما ذكره البكري وقال آخرون كان عمره خمسمائة واحدى وثلاثين
سنة وقال السهيلي يمن هو يعرب بن فحطان قال وهو الذى أجلى
سام إلى المغرب بعد ان كان الجرمي من ولد قوط بن يافث هذا اخر
الخلاف في انساب البربر * واعلم أن هذه المذاهب كلها مرجوحة

وبعيدة من الصواب فأما القول بأنهم من ولد ابراهيم فبعيد لان داود الذى قتل جالوت وكان البربر معاصر ين له ليس بينه وبين اسحق بن ابراهيم أخى نعثان الذى زعموا أنه الا نحو عشرة آباء ذكرناهم أول الكتاب ويبعد أن تشعب النسل فيهم مثل التشعب وأما القول بانهم من ولد جالوت أو العماليق وأنهم نقلوا من ديار الشام وانتقلوا فقول ساقط يكاد يكون من أحاديث خرافة إذ مثل هذه الامة المشتملة على أمم وعوالم ملات جانب الارض لا تكون منتقلة من جانب آخر وقطر محصور والبربر معروفون في بلادهم وأقاليمهم متحيزون بشعارهم من الامم منذ الاحقاب المتطاولة قبل الاسلام فما الذى يحوجننا إلى التعليق بهذه الترهات في شأن أوليتهم ويحتاج إلى مثل في كل جيل وأمة من العجم والعرب وافريقش الذى يزعمون انه نقلهم قد ذكروا انه وجدهم بها وانه تعجب من كثرتهم وعجمتهم وقال ما أكثر بربركم فكيف يكون هو الذى نقلهم وليس بينه وبين ذى المغار من يتشعبون فيه إلى

مثل ذلك ان قالوا انه الذى نقلهم وأما القول أيضا بأنهم من حمير من ولد النعمان أو من مضر من ولد قيس بن عيلان فمفكر من القول وقد أبطله امام النسابين والعلماء أبو محمد ابن حزم وقال في كتاب الجماهرة ادعت طوائف من البربر أنهم من اليمن ومن حمير وبعضهم ينسب إلى بربر بن قيس وهذا كله باطل لا شك فيه وما علم النسابون لقيس بن عيلان ابنا اسمه بر أصلا وما كان لحمير طريق إلى بلاد البربر الا في تكاذيب مؤرخي اليمن وأما ما ذهب إليه ابن قتيبة أنهم من ولد جالوت وان جالوت من ولد قيس بن عيلان فابعد عن الصواب فان قيس عيلان من ولد معد وقد قدمنا أن معدا كان معاصر البختنصر وان أرمياء النبي خلص به إلى الشام حذرا عليه من بختنصر حين سلط على العرب وبختنصر هو الذى خرب بيت المقدس بعد بناء داود وسليمان اياه بأربعمائة وخمسين سنة ونحوها فيكون معد بعد داود بمثل هذا الامد فكيف يكون ابنه قيس أبا لجالوت المعاصر لداود هذا في غاية البعد وأظنها غفلة من ابن قتيبة ووهما والحق الذى لا ينبغي التعويل على غيره في شأنهم أنهم من ولد كنعان بن حام بن نوح كما تقدم في انساب الخليفة وان اسم ابيهم مازيغ واخوتهم اركيش وفلسطين (١) اخوانهم بنو كسلوحيهم بن مصرايم بن حام وملكهم جالوت سمة معروفة له وكانت بين فلسطين هؤلاء وبين بنى اسرائيل بالشام حروب مذكورة وكان بنو كنعان وواكريكيش شيعا لفلسطين فلا يقعن في وهمك غير هذا فهو الصحيح الذين لا يعدل عنه ولا خلاف بين نسابة العرب أن شعوب البربر الذى قدمنا ذكرهم كلهم من البربر الاصلهاجة وكنامة فان بين نسابة العرب خلافا والمشهور أنهم من اليمنية وان أفريقش لما غزا إفريقية أنزلهم بها وأما نسابة البربر فيزعمون في بعض شعوبهم أنهم من العرب مثل لوانة يزعمون أنه من حمير ومثل هوارة يزعمون أنهم من كندة من السكاسك ومثل زناتة تزعم نسابهم أنهم من العمالقة فروا أما بنى اسرائيل وربما يزعمون فيهم أنهم من بقايا التبايعة ومثل عمارة أيضا وزواوة ومكلاتة يزعم في هؤلاء كلهم نسابتهم أنهم من حمير حسبما نذكره عند تفصيل شعوبهم في كل فرقة منهم وهذه كلها مزاعم والحق الذى شهد به المواطن والعجمة أنهم بمعزل عن العرب الا ما تزعمه نسابة العرب في صنهاجة وكنامة وعندى أنهم من اخوانهم والله أعلم وقد انتهى بنا الكلام إلى انسابهم وأوليتهم فلنرجع إلى تفصيل شعوبهم وذكرهم أمة بعد أمة ونقتصر على ذكر من كانت له منهم دولة ملك أو سالف شهرة أو تشعب نسل في العالم وعدد لهذا العهد وما قبله من صنفى البرانس والبر من تربيهم شعبا شعبا حسبما تأدى الينا من ذلك واشتمل عليه محفوظنا والله المستعان

* (الفصل الثاني في ذكر مواطن هؤلاء البربر بافريقية والمغرب) *
 اعلم أن لفظ المغرب في أصل وضعه اسم اضافي يدل على مكان
 من الامكنة باضافته إلى جهة المشرق ومشرق بالاضافة إلى جهة
 المغرب لان العرف قد يخص هذه الاسماء بجهات معينة وأقطار
 مخصوصة وعرف أهل الجغرافيا المعنيين بمعرفة هيئة الارض
 وقسمتها باقاليمها ومعمورها وخرابها وجبالها وبحارها ومسكن
 أهلها مثل بطليموس ورجاوز وصاحب صقلية المنسوب له الكتاب
 المشهور بين الناس لهذا العهد في هيئة الارض والبلدان وأمثالهم أن
 المغرب قطر واحد مميز بين الاقطار فحده من جهة المغرب بحر
 المحيط وهو عنصر الماء وسمى محيطا لاحاطته بما انكشف من
 الارمن كما قدمنا أول الكتاب ويسمى أيضا البحر الاخضر لثلونه غالبا
 بالخرصة ويسمى بحر الظلمات لما أنه تقل فيه الاضواء من الاشعة
 المنعكسة على سطح الارض من الشمس لبعده عن الارض فيكون
 مظلمًا ولفقدان الاضواء نقل الحرارة المحللة للابخرة فلا تزال السحب
 والغيوم متكاثفة على سطحه منعقدة هنا لك متراكمة وتسميه
 الاعاجم بحر اوقيانوس يعنون به والله أعلم ما نعنى نحن بالعنصر
 ويسمونه أيضا بحر البالية بتفخيم اللام الثانية وهو بحر كبير غير
 منحصر لا تبعد فيه السفن عن مرأى العين من السواحل للجهل
 بسموت الرياح هنا لك ولنهايتها إذ لا غابة من العمران وراءه والبحار
 المنحصرة انما جرت فيها السفن بالرياح المعروفة الهوائية بكثرة
 تجاربهم فتبعث الريح من الاماكن وغاية مهبتها في سمتها فكل ربح
 عندهم معروفة الغاية فإذا علم ان جريته بالريح المنبعثة من مكان
 كذا وبما خرج من ربح إلى ربح بحسب مفضوده ووجهته وهذا مفقود
 في البحر الكبير لانه منحصر ومنبعث الريح وان كان معروفا فيه فغايبته
 غير معروفة لفقدان العمران وراءه فتضل السفن إذا جرت به وتذهب
 فتهلك وأيضا فإذا أوغل فيه وربما وقع في المتكاثف من الغيوم
 والابخرة كما قلناه فيهلك فلهذا كان راكبه على غرر وخطر فحد الغرب
 من جهة المغرب البحر المحيط كما قلناه وعليه كثير من مدنه مثل
 طنجة وسلا وأزمور وانفى واسفي وهي من مدن الغرب وحواضره
 وعليه أيضا مسجد ماسة وبلدنا كاوست ونول من بلاد السوس وهي
 كلها من مساكن البربر وحواضرهم وتنتهي المراكب إلى وراء ساحل
 نول ولا تجاوزه الا على خطر كما قلناه وأما حده من جهة الشمال
 فالبحر الرومي والمرتفع من هذا البحر المحيط يخرج في خليج
 متضايق بين طنجة من بلاد المغرب وطريف من بلاد الاندلس ويسمى
 هذا الخليج الزقاق وعرضه ثمانية أميال فما فوقها وكانت عليه قنطرة
 ركها ماء البحر ثم تذهب هذا البحر الرومي في سمت الشرق إلى
 أن ينتهي إلى

سواحل الشام وثورته وما إليها مثن انطاكية والعلايا وطرسوس
 والمصيصة وطرابلس وصوريا والاسكندرية ولذلك سمي البحر
 الشامى وهو إذا خرج من الخليج يفسح في ذهابه عرضا وأكثر
 انفساحه إلى جهة الشمال ولا يزال انفساحه ذلك متصاعدا إلى
 الشمال إلى أن ينتهي إلى غايته وطوله فيما يقال خمسة آلاف ميل
 وستة وفيه جزائر ميورقة وميرقة وباسة وصقلية وإفريطش وسردانية
 وقبرس وأما عرضه من جهة الجنوب فانه يخرج عن سمت واحد ثم
 يختلف في ذهابه فتارة يبعد في الجنوب وتارة يرجع إلى الشمال
 واعترض ذلك بعروض البلدان التي بساحله وذلك أن عرض البلد هو
 ارتفاع قطبه الشمال على أفقه وهو أيضا بعد ما بين سمت رؤس
 أهله ودائرة معدل النهار والسبب في ذلك أن الارض كرية الشكل

والسما من فوقها مثلها وأفق البلد هو فرق بين ما يرى وبين ما لا يرى من السما ومن الارض والفلك ذو قطبين إذا ارتفع أحدهما على رؤس معمور انخفض الآخر بقدره عنهم والعمارة في الارض كلها هي إلى الحانب الشمال أكثر وليس في الجنوب عمران لما تقرر في موضعه فلهذا ارتفع القطب الشمالي على أهل العمران دون الجنوب والمار على سطح الكرة كلما أبعد في جهة ظهر له من سطح الكرة ومن السما المقابل لها ما لم يكن يظهر فيزيد بعد القطب على الافق كما أبعد في الشمال وينقص كلما رجع إلى الجنوب فعرض سبتة وطنجة التي هي على زقاق هذا البحر وخليجه (له) ودقائق ثم يتصاعد البحر إلى الجنوب فيكون عرض تلمسان (بد) ونصف فتزيد في الجنوب فيكون عرض وهران (لب) أبعد من فاس بيسير لان عرض فاس (لج) ودقائق ولهذا كان العمران في المغرب الاقصى أعرض في الشمال من عمران المغرب الاوسط بقدر ما بين فاس وسبتة وصار ذلك القطر كالجزيرة بين البحار لانعطاف البحر الرومي إلى الجنوب ثم يرجع البحر بعد وهران عن سمته ذلك فيكون عرض تونس والجزائر (له) على مثل سمته الاول عند منبعته من الزقاق ثم يزيد في الشمال فيكون عرض بجاية وتونس يوم على مثل سمت غرناطة ومرية ومالقة ثم يرجع إلى الجنوب فيكون عرض طرابلس وقابس (له) على مثل سمت الاول بطنجة وسبتة ثم يزيد في الجنوب فيكون عرض برقة (لج) على مثل سمت فاس وتوزر فيكون عرض الاسكندرية (لا) على مثل مراكش واغمات ثم يذهب في الشمال إلى القطافة إلى منتهى سمته بسواحل الشام وهكذا اختلافه في هذه العدو الجنوبية ولسنا على علم من حاله في العدو الشمالية وينتهى بسواحل عرض هذا البحر في انفساحه إلى سيعماتة ميل أو نحوها ما بين سواحل افريقية وحنوة من العدو الشمالية والبلاد الساحلية من المغرب الاقصى واللاوسط وافريقية من

[١٠٠]

لدى الخليج حيث منبعته كلها عليه مثل طنجة وسبتة وبادس وعساسة وهنين ووهران والجزائر وبجاية وبونة وتونس وسوسة والمهدية وصفافس وقابس وطرابلس وسواحل برقة والاسكندرية هذا وصف هذا البحر الرومي الذي هو حد المغرب من جهة الشمال واما حده من جهة القبلة والجنوب فالجبال المتهيلة المائلة حذاء بين بلاد السودان وبلاد البربر وتعرف عند العرب الرحالة البادية بالعرق وهذا العرق سياج على المغرب من جهة الجنوب مبتدئ من البحر المحيط وذاهب في جهة الشرق على سمت واحد إلى أن يعترضه النيل الهابط من الجنوب إلى مصر فهنا لك ينقطع وعرضه ثلاثة مراحل وأزيد ويعترضه في جهة المغرب الاوسط أرض محجرة تسمى عند العرب الحمادة من دوتر إلى بلاد ريغ ووراء من جهة الجنوب وبعض بلاد الجزيرة ذات نخيل وأنهار معدودة في جملة بلاد المغرب مثل بلاد بودة وتمنطيت في قبلة المغرب الاقصى وتساييت وتيكورارين في قبلة المغرب الاوسط وغدامس وفزان وودان في قبلة طرابلس كل واحد من هذه اقليم يشتمل على بلدان عامرة ذات قرى ونخيل وأنهار ينتهى عدد كل واحد منها إلى المائة فاكثرو إلى هذه العدو الجنوبية من هذا العرق ينتهى في بعض السنين مجالات أهل الشام من صنهاجة ومتقلبهم الجائلون هناك إلى بلاد السودان وفي العدو الشمالية منه مجالات البادية من الاعراب الطواعن بالمغرب وكانت قبلهم مجالات للبربر كما نذكره بعد هذا حد المغرب من جهة الجنوب ومن دون هذا العرق سياج آخر على المغرب مما يلي التلول منه وهى الجبال التى هي تخوم تلك التلول ممتدة من لدن البحر المحيط في القرب إلى برنيق من بلاد برقة وهنا لك تنقطع هذه الجبال ويسمى مبدؤها من المغرب جبال درن وما بين هذه الجبال المحيطة بالتلول وبين العرق الذى وصفناه أنفا بسائط وقفار أكثر نباتها الشجر وفيما يلي التلول منها ويقاربها بلاد الجريد ذات

نخل وأنهار ففى أرض السوس قبلة مراکش تروانت والقرى قویان
وغيرهما بلاد ذات نخل وأنهار ومزارع متعددة عامرة وفى قبلة فاس
سجلماسة وقرائها بلد معروف ودرعة أيضا وهى معروفة وفى قبلة
تلمسان قصور متعددة ذات نخل وأنهار وفى قبلة تاهرت القصور أيضا
بلاد متتالية على سطر من المشرق إلى المغرب أقرب ما إليها جبل
راشد وهى ذات نخل ومزارع وأنهار ثم قصور معينات تناهز المائة
وأكثر قبلة الجزائر ذات نخل وأنهار ثم بلد واركلی قبلة بجاية بلد واحد
سسئجر العمران كثير النخل وفى سمتة إلى جهة التلول بلاد ريغ
تناهز الثلثمائة منتظمة على حفافي واد ينحدر من المغرب إلى
المشرق يناهز مائة من البلاد فاكثر قاعدتها بسكرة من كبار الامصار
بالمغرب وتشتمل كلها على النخل والانهار والقدن

[١٠١]

والقرى والمزارع ثم بلاد الجريد قبلة تونس وهى نقطة وتوزر وقفصة
وبلاد نقزاوة وتسمى كلها بلاد قسطيلة مستبحرة العمران
مستحكمة الحضارة مشتملة على النخل والانهار ثم قابس قبلة
سوسة وهى حاضرة البحر من أعظم أمصار افريقية وكانت دار ملك
لابن غانية كما نذكره بعد وتشتمل على النخل والانهار والمزارع ثم
فزان وودان قبلة طرابلس قصور متعددة ذات نخل وأنهار وهى أول ما
افتتح المسلمون من أرض افريقية لما أغزاها عمر بن الخطاب وعمرو
بن العاص ثم الواحات قبلة برقة ذكرها المسعودي في كتابه وما وراء
هذه كلها في جهة الجنوب فقفار ورمال لا تنبت زرا ولا مرعى إلى
أن تنتهى إلى العرق الذى ذكرناه ومن ورائه مجالات المتلثمين كما
قلناه مفاوز معطشة إلى بلاد السودان وما بين بلاد هذه والجبال
التي هي سياج التلول بسائط متلون مزاجها تارة بمزاج التلول وتارة
بمزاج الصحراء بهوائها ومياهها ومنابتها وفيها القيروان وجبل أوراس
معترض وسطها وبلاد الحصنة حيث كانت طينة ما بين الزاب والتل
وفيها مغرة والمسيلة وفيها السرسو قبلة تلمسان حيث تاهرت فيها
جبل دير وقبلة فاس معترض في تلك البسائط هذا حد المغرب من
جهة القبلة والجنوب وأما من جهة الشرق فيختلف باختلاف
اصطلاحات فعرف أهل الجغرافيا انه بحر أهل القلزم المنفجر من بحر
اليمن هابط على سمت الشمال وباغراب يسير إلى المغرب حتى
ينتهى إلى القلزم والسويس ويبقى بينهم من هنا لك وبين سمتة
من البحر الرومي مسيرة يومين وينقطع عند السويس والقلزم وبعده
عن مصر في جهة الشرق ثلاثة أيام هذا آخر المغرب عندهم ويدخل
فيه اقليم مصر وبرقة وكان المغرب عندهم جزيرة أحاطت بها البحار
من ثلاث جهاتها كما تراه وأما العرف الجارى لهذا العهد بين سكان
هذه الاقاليم فلا يدخل فيه اقليم مصر ولا برقة وإنما يختص بطرابلس
وما وراءها إلى جهة المغرب في هذا العرف لهذا العهد وهذا الذى
كان في القديم ديار البربر ومواطنهم فأما المغرب الاقصى منه وهو ما
بين وادى ملوية من جهة الشرق إلى اسفى حاضرة البحر المحيط
وجبال درن من جهة الغرب فهى في الاغلب ديار المصامدة من أهل
درن وبرغواطة وغمارة وآخر غمارة بطوية مما يلي غساسة ومعهم
عوالم من صنهجة ومضغره وأورية وغيرهم يحيط به البحر الكبير من
غربيه والرومي من شماليه والجبال الصاعدة المتكاثفة مثل درن
وجانب القبلة وجبال تازا من جهة الشرق لان الجبال أكثر ما هي
وأكنف قرب البحار بما اقتضاه التكوين من ممانعة البحار بها فكانت
جبال المعرب لذلك أكثر ساكنها من المصامدة في الاغلب وقيل من
صنهجة وبقيت البسائط من الغرب مثل ازغاو وتامسنا وتادلاود كالة
واعتمرها الطواغن من البربر الطارئین

[١٠٢]

عليه من جشم ورياح بعض المغرب ساكنه من الامم لا يحصيهم الا خالقهم وصار كانه جزيرة وبلد واحد احاطت به الجبال والبحار وقاعدته لهذا العهد فاس وهى دار ملكه ويمر فيه النهر العظيم المعروف بوادي أم ربيع وهو نهر عظيم يمتنع عبوره أيام الامطار لاتساعه ويعظم مده إلى البحر فينتهى إلى سبعين ميلا أو ما يقاربها ومصبه في البحر الكبير عند أزبور ومنبعه من جبال درن من فوهة كبيرة ينبع منها هذا النهر ويتساهل إلى بسيط المغرب وينبع منها أيضا نهر آخر وينحدر إلى القبلة ويمر ببلاد درعة ذات النخل المخصوصة بنيات النيلج وصناعة استخراجه من شجره وهى قصور ذات نخل موضوعة في سفح جبل درن من آخره وبها يسمى هذا النهر ويجاورها إلى أن يغوص في الرمل قبلة بلاد السوس وأما نهر ملوية آخر المغرب الاقصى فهو نهر عظيم منبعه من فوهة في جبال قبلة زازى ويصب في البحر الرومي عند غاسة وعليه كانت ديار مكناسة المعروفة بهم في القديم ويسكنها لهذا العهد أمم أخرى من زناتة في قصور منتظمة إلى أعلى النهر يعرفون بوطاط ويجاورهم هنا لك وفى سائر نواحيه أمم من البربر أشهر من فيهم بطالسة أخوة مكناسة وينبع مع هذا النهر من فوهته نهر كبير ينحدر ذاهبا إلى القبلة مشرقا بعض الشئ ويقطع العرق على سمته إلى أن ينتهى إلى البردة ثم بعدها إلى تميطت ويسمى لهذا العهد كبيرا وعليه قصورها ثم يمر إلى أن يصب في القفار وبروغ في قفارها ويغور في رمالها وهو موضع مقامه قصور ذات نخل تسمى وركلان وفى شرق بوده مما وراء العرق قصور تساييت من قصور الصحراء وفى شرقي تساييت إلى ما يلى الجنوب قصور تيكورارين تنتهى إلى ثلثمائة أو أكثر في واد واحد فينحدر من المغرب إلى المشرق وفيها أمم من قبائل زناتة وأما المغرب الاوسط فهو في الاغلب ديار زناتة كان لمغراوة وبنى يفرن وكان معهم مديونة ومغيلة ركومية ومطغرة ومطماطة ثم صار من بعدهم لبنى وماتوا وبنى يلومى ثم صار لبنى عبد الواد وتوجين من بنى ما دين وقاعدته لهذا العهد تلمسان وهى دار ملكه ويجاوره من جهة المشرق بلاد صنهاجة من الجزائر ومنيحة والمرية وما يليها إلى بجاية وقبائله كلهم لهذا العهد مغلوبون للعرب من زغبة ويمر في وادي شلف بنى واطيل النهر الاعظم منبعه من بلد راشد في بلاد الصحراء ويدخل إلى التل من بلاد حصين لهذا العهد ثم يمر مغربا ويجتمع نيه سائر اودية المغرب الاوسط مثل مينا وغيره إلى أن يصب في البحر الرومي ما بين كلمتين ومستغانم وينبع من فوهته نهر آخر يذهب مشرقا من جبل راشد ويمر بالزاب إلى ان يصب في شيخة ما بين توزر ونغزاوة معروفة هنا لك ويسمى هذا النهر وادي شدى وأما بلاد بجاية وقسنطينة فهى دار زواوة وكنامة ومحيسة وهوارة وهى اليوم ديار

[١٠٣]

للغرب الجبال وفيها بقاياهم وأما افريقية كلها إلى طرابلس فبساط فتح كانت ديارا لنغزاوة وبنى يفرن ونفوسة ومن لا يحصى من قبائل البربر وكانت قاعدتها القيروان وهى لهذا العهد مجالات للعرب من سليم وبنى يفرن وهوارة مغلوبون تحت أيديهم وقد تبدوا معهم ونسوا رطانة الاعاجم وتكلموا بلغات العرب وتحلوا بشعارهم في جميع أحوالهم وقاعدتها لهذا العهد تونس وهى دار ملكها ويمر فيها النهر الاعظم المعروف بوادي مجرد يجتمع فيه سائر الاودية بها ويصب في البحر الرومي على مرحلة من غربي تونس بموضع يعرف ببنزرت وأما برقة فدرست وخربت أمصارها وانقرض أمرها وعادت مجالات للعرب بعد أن كانت دار اللواتة وهوارة وغيرهم من البربر وكانت بها الامصار المستجرة مثل لبدة وزويلة وبرقة وقصر حسان وامثالها فعادت يبابا ومفاوز كان لم تكن والله أعلم { الفصل الثالث في ذكر ما كان لهذا الجيل قديما وحديثا من الفضائل الانسانية } والخصائص الشريفة الراقية بهم إلى مراقى العز ومعارج السلطان

والملك { قد ذكرنا ما كان من أمر هذا الجيل من البربر ووفور عدده وكثرة قبائلهم وأجيالهم وما سواه من مغالبة الملوك ومزاحمة الدول عدة آلاف من السنين من لدن حروبهم مع بنى اسرائيل بالشام وخروجهم عنه إلى افريقية والمغرب وما كان منهم لاول الفتح في محاربة الطوابع من المسلمين أولا ثم في مشايعتهم ومظاهرتهم على عدوهم ثانيا من المقامات الحميدة والآثار الجميلة وما كان لوهيا الكاهنة وقومها بجبل أوراس من الملك والعز والكثرة قبل الاسلام وبعده حتي تغلب عليهم العرب وما كان لمكناسة من مشايعة المسلمين أولا ثم ردتهم ثانيا وتحيزهم إلى المغرب الاقصى وفرارهم أمام عقبة بن نافع ثم غلبهم بعد ذلك طوابع هشام بارض المغرب (قال ابن أبي زيد) ان البربر ارتدوا بافريقية المغرب اثنتى عشرة مره وزحفوا في كلها للمسلمين ولم يثبت اسلامهم الا في أيام موسى بن نصير وقيل بعدها وتقدم ذكر ما كان لهم في الصحراء والقفر من البلاد وما شيّدوا من الحصون والأطام والامصار من سجلماسة وقصور توات وتجورارين وفيجيج ومصاب وواركل وبلاد ريغة والزاب ونقراوة والحمة وغدامس ثم ما كان لهم من الايام والوقائع والدول والممالك ثم ما كان بينهم وبين طوابع العرب من بنى هلال في المائة الخامسة بافريقية وما كان لهم مع دولة آل حماد بالقلعة ومع لمتونة بتلمسان وتاهرت من الموالة والانحراف وما استولى عليه بنو يادين آخر ابا سهام الموحدين واقطاعهم من بلاد المغرب وما كان لبنى مرين في الاجلاب على غير عيد المؤمن من الآثار وما تشهد أخباره كلها بانه جيل عزيز على الايام وأنهم

[١٠٤]

قوم مرهوب جانبهم شديد بأسهم كثير جمعهم مظاهرون لامم العالم واجياله من العرب والفرس ويونان والروم لكنهم لما أصابهم الفناء وتلاشت عصابتهم بما حصل لهم من ترف الملك والدول التي تكررت فيهم قلت جموعهم وفنيت عصابتهم وعشائرتهم وأصبحوا خولا للدول وعبيد اللجباية واستنكف كثير من الناس عن النسب فيهم لاجل ذلك والا فقد كانت أوربة أميرهم كسيلة عند الفتح كما سمعت وزناتة أيضا حتى أسر أميرهم وزمار بن مولات وحمل إلى المدينة إلى عثمان بن عفان ومن بعد ذلك هواره وصنهاجة وبعدهم كتامة وما أقاموا من الدولة التي ملكوا بها المغرب والمشرق وزاحموا بنى العباس في ديارهم وغير ذلك منهم كثير وأما تخلقهم بالفضائل الانسانية وتنافسهم في الخلال الحميدة وما جبلوا عليه من الخلق الكريم مراقبة الشرف والرفعة بين الامم ومراعاة المدح والثناء من الخلق من عز الجوار وحماية النزول ورعى الازمة والوسائل والوفاء بالقول والعهد والصبر على المكارم والثبات في الشدائد وحسن الملكة والاعضاء عن العيوب والتجافى عن الانتقام ورحمة المسكين وبر الكبير وتوقير أهل العلم وحمل الكل وكسب المعدوم وقرى الضيف والاعانة على النوائب وعلو الهمة واباية الضيم ومشاققة الدول ومقارعة الخطوب وغلاب الملك وبيع النفوس من الله في نصر دينه فلهم في ذلك آثار نقلها الخلف عن السلف لو كانت سسطورة لحفظ منها ما يكون اسوة لمتبعيه من الامم وحسبك ما اكتسبوه من حميدها واتصفوا به من شريفها أن قادتهم إلى مراقى العز وأوقت بهم على ثنايا الملك حتى علت على الايدي أيديهم ومضت في الخلق بالقبض والبسط أحكامهم وكان مشاهيرهم بذلك من أهل الطبقة الاولى فلكين بن زبرى الصنهاجى عامل افريقية للعبيديين ومحمد بن خزر والخير ابنه وعروبة بن يوسف الكتامى القائم بدعوة عبد الله الشيعي ويوسف بن تاشفين ملك لمتونة بالمغرب وعبد المؤمن بن علي شيخ الموحدين وصاحب الامام المهدي وكان عظاماؤهم من أهل الطبقة الثانية السابقون إلى الراية بين دولهم والمعاهدون لملكهم بالمغرب الاقصى والاوسط كبيرهم يعقوب بن عبد الحق سلطان بنى مرين ويغمراسن بن زيان سلطان بنى عبد

إلواد ومحمد بن عبد القوى ووزمار كبير بنى توجين وثابت بن منديل أمير مغراوة أهل شلف ووزمار بن إبراهيم زعيم بنى راشد المتعارضين في ازمانهم المتناغين في تأثيل عزهم والتمهيد لقومهم على شاكلته بقوة جمعه فكانوا من أرسخهم في تلك الخلال قدما وأطولهم فيها يدا وأكثرهم لها جمعا طارت عنهم في ذلك قبل الملك وبعده أخبار عنى بنقلها الأثبات من البربر وغيرهم وبلغت في الصحة والشهرة منتهى التواتر وأما اقامتهم لمراسم الشريعة وأخذهم باحكام الملة ونصرهم

[١٠٥]

لدين الله فقد نقل عنهم من اتخاذ المعلمين كتاب الله لصيانهم والاستفتاء في فروض أعيانهم واقتفاء الأئمة للصلوات في بواديهم وتدارس القرآن بين أحيائهم وتحكيم حملة الفقه في نوازلهم وقضاياهم وصاغيتهم إلى أهل الخير والدين من أهل مصرهم للبركة في آثارهم وسؤال الأعداد عن صالحهم وأغشائهم البحر أفضل المرابطة والجهاد وبيعهم النفوس من الله في سبيله وجهاد عدوه ما يدل على رسوخ إيمانهم وصحة معتقداتهم ومنين ديانتهم التي كانت ملاكا لعزهم ومقادا إلى سلطانهم وملكهم وكان المبرز منهم في هذا المنتحل يوسف بن تاشفين وعبد المؤمن بن على وبنوهم ثم يعقوب ابن عبد الحق من بعدهم وبنوه فقد كان لهم في الاهتمام بالعلم والجهاد وتشديد المدارس واختطاط الزوايا والربط وسد الثغور وبذل النفس في ذات الله وانفاق الاموال في سبيل الخيرات ثم مخالطة اهل العلم وترفيح مكانهم في مجالستهم ومفاوضتهم في الاقتداء بالشريعة والانقياد لآشاراتهم في الوقائع والاحكام ومطالعة سير الانبياء وأخبار الاولياء وقراءتها بين أيديهم من دواوين ملكهم ومجالس أحكامهم وقصور عزهم والتعرض بالمعاقل لسماح شكوى المتظلمين وانصاف الرعايا من العمال والضرب على يد أهل الجور واتخاذ المساجد بصحن دورهم وشدة خلافهم وملكهم يعمرونها بالصلوات والتسبيحات والقراء المرتبين لتلاوة كتاب الله احزابا بالعشى والاشراق على الايام وتحصين ثغور المسلمين بالبنيان المشيد والكتائب المجهزة وانفاق الاموال العريضة شهدت لهم بذلك آثار تخلفوها بعدهم وأما وقوع الخوارق فيهم وظهور الكاملين في النوع الانساني من أشخاصهم فقد كان فيهم من الاولياء المحدثين أهل النفوس القدسية والعلوم الموهوبة ومن حملة العلم عن التابعين ومن بعدهم من الأئمة والكهان المفطورين على المطلع للاسرار المغيبة ومن الغرائب ابلي خرفت العادة وأوضحت أدلة القدرة ما يدل على عظيم عناية الله بذلك الجيل وكرامته لهم بما أتاهم من جماع الخير وأثرهم به من مذاهب الكمال وجمع لهم من متفرق خواص الانسان ينقل ذلك في أخبار توهم عجائب فكان من مشاهير حملة العلم فيهم سعيد بن واسول جد بنى مدرار ملوك سجلماسة أدرك التابعين واخذ عن عكرمة مولى العباس ذكره عريب بن حميد في تاريخه ومنهم أبو يزيد مخلد بن كيداد اليفرنى صاحب الحمار الخارج على الشيعة سنة ثنتين وثلاثمائة الدائن بدين الخارجية أخذ العلم بتوزر عن مشيختها ورأس في الفتيا وقرأ مذاهب الاضافية من الخوارج وصدق فيه ثم لقي عمارا الاعمى الصفرى النكار فتلقن عنه من مذاهبهم ما انسلخ من آية السعادة بانتحاله وهو مع ذلك من الشهرة في هذا الجيل بحيث لا يغفل ومنهم منذر بن سعيد قاضى الجماعة بقرطبة من طواعن

[١٠٦]

ولهاصة ثم من سوماتة منهم مولده عام عشرة ووفاته عام ثلاثة
وثمانين وثلثمائة كان من البتر من ولد مادغيس هلك على عهد عبد
الرحمن الناصر ومنهم أيضا أبو محمد بن أبي زيد علم الملة وهو من
قفزة أيضا ومنهم علماء بالنسب والتاريخ وغير ذلك من فنون العلوم
ومن مشاهير زناتة أيضا موسى بن صالح الغمرى معروف عند
كافتهم معرفة وضوح وشهرة وقد ذكرناه عند ذكر غمرة من شعوب
زناتة وهو وإن لم توقفنا الاخبار الصحيحة على الجلى من أمره في
دينه فهو من محاسن هذا الجيل الشاهدة بوجود الخواص الانسانية
فيهم من ولاية وكهانة وعلم وسحر وكان نوعا من آثار الخليقة ولقد
تحدث أهل هذا الجيل فيما يتحدثون به ان أخت يعلى بن محمد
البيفرنى جاءت بولد من غير أب سموه كلامم ويذكر له أخبار في
الشجاعة خرقت العوائد ودلت على انه موهبة من الله استأثره بها
لم يشاركه فيها غيره من أهل جلدته وربما ضاقت حوامل الخواص
منهم عن ملتقط هذه الكائنة ويجهلون ما يتسع لها ولامثالها من
نطاق القدرة وينقلون أن حملها كان اثر استحمامها في عين حامية
هنا لك غب ما صدر عنها بعض السباع كانت ترد فيها على الناس
ويردون عليها ويرون أنها علققت من فضل ولوغه ويسمون ذلك المولود
ابن الاسد لظهور خلعة الشجاعة فيه وكثير من أمثال هذه الاخبار
التي لو انصرفت إليها عناية الناقلين لمئات الدواوين ولم يزل هذا
دأبهم وحالهم إلى أن مهدوا من الدول وأثلوا من الملك ما نحن في
سبيل ذكره { الفصل الرابع في ذكر أخبارهم على الجملة من قبل
الفتح الاسلامي ومن بعده إلى ولاية بنى الاغلب } هؤلاء البربر جيل
وشعوب وقبائل أكثر من أن تحصى حسيما هو معروف في تاريخ
الفتح بافريقية والمغرب وفي أخبار ردتهم وحرورهم فيها نقل ابن أبي
الرقيق أن موسى ابن نصير لما فتح سقوما كتب إلى الوليد بن عبد
الملك انه صار لك من سبى سقوما مائة ألف رأس فكتب إليه الوليد
بن عبد الملك ويحك انى أظنها من بعض كذباتك فان كنت صادقا
فهذا محشر الامة ولم تزل بلاد المغرب إلى طرابلس بل وإلى
الاسكندرية عامرة بهذا الجيل ما بين البحر الرومي وبلاد السودان
منذ أزمنة لا يعرف أولها ولا ما قبلها وكان دينهم دين المجوسية شأن
الاعاجم كلهم بالمشرق والمغرب الا في بعض الاحايين يدينون بدين
من غلب عليهم من الامم فان الامم اهل الدول العظيمة كانوا
يتغلبون عليهم فقد غزتهم ملوك اليمن من قرارهم مرارا علي ما ذكر
مؤرخوهم فاستكانوا لغلبيهم ودانوا بدينهم ذكر ابن الكلبي أن حميرا
بالقبائل اليمانية ملك المغرب مائة سنة وانه الذى ابنتى مدائنه مثل
افريقية وصقلية واتفق المؤرخون على غزو افريقيش صيفي من
التبابعة

إلى المغرب كما ذكرنا في أخبار الروم واختطوا بسبب البحر وما يليه
من الارياف مدنا عظيمة الخطة ويثمة المبانى شهيرة الذكر باقية
المعالم والآثار لهذا العهد مثل سبلة وجلولاء ومرناق وطاقة وزناتة
وغيرها من المدن التى خربها المسلمون من العرب لأول الفتح عند
استيلائهم عليها وقد كانوا دانوا لعهدهم بما تعبدوهم به من دين
النصرانية وأعطوهم المهادنة وأدوا إليهم الجباية طواعية وكان للبربر
في الضواحي وراء ملك الامصار المرهوبة الحامية ما شاء من قوة
وعدة وعدد وملوك ورؤساء واقبال وأمرأؤها لا يرامون بذل ولا ينالهم
الروم والافرنج في ضواحيهم تلك بمسخصة الاساءة وقد صحهم
الاسلام وهم في مملكة قد استولوا على رومة وكانوا يؤدون الجباية
لهرقل ملك القسطنطينية كما كان المقوقس صاحب الاسكندرية
وبرقة ومصر يؤدون الجباية له وكما كان صاحب طرابلس وليدة وصيرة
وصاحب صقلية وصاحب الاندلس من الغوط لما كان الروم غلبوا على
هؤلاء الامم اجمع وعنهم كلهم أخذوا دين النصرانية فكان الفرنجة
هم الذين ولوا أمر افريقية ولم يكن للروم فيها شئ من ولاية وإنما

كان كل من كان منهم بها جند اللافرنج ومن حشودهم وما يسمع في كتب الفتح من ذكر الروم في فتح افريقية فمن باب التغليب لان العرب يومئذ لم يكونوا يعرفون الفرنج وما قاتلوا في الشام الا الروم فظنوا انهم هم الغالبون على أمم النصرانية فان هرقل هو ملك النصرانية كلها فغلبوا اسم الروم على جميع أمم النصرانية ونقلت الاخبار عن العرب كما هب فجرحير المقتول عند الفتح من الفرنج وليس من الروم وكذا الامة الذين كانوا بافريقية غالبين على البربر ونازلين بمدنها وحصونها انما كانوا من الفرنجة وكذلك ربما كان بعض هؤلاء البربر دانوا بدين اليهودية أخذوه عن بنى اسرائيل عند استفحال ملكهم لقرب الشام وسلطانه منهم كما كان جراءة أهل جبل أوراس قبيلة الكاهنة مقتولة العرب لاول الفتح وكما كانت نفوسة من برابر افريقية وفندلاووق ومديونة وبهلولة وغبائة وبنو بازاز من برابرة المغرب الاقصى حتى محا ادريس الاكبر الناجم بالمغرب من بنى حسن ابن الحسن جميع ما كان في نواحيه من بقايا الاديان والملل فكان البربر بافريقية والمغرب قبل الاسلام تحت ملك الفرنج وعلى دين النصرانية الذي اجتمعوا عليه مع الروم كما ذكرناه حتى إذا كان الفتح وزحف المسلمون إلى افريقية زمان عمر رضى الله عنه سنة تسع وعشرين وغلبهم عبد الله بن سعد بن أبى سرح من بنى عامر بن لؤى فجمع لهم جرير ملك الفرنجة يومئذ بافريقية من كان بامصارها من الفرنج والروم ومن بضواحيها من جموع البربر وملوكهم وكان ملك ما بين طرابلس وطنجة وكنت دار ملكه سبيطلة فلقوا المسلمين في زهاء مائة وعشرين ألفا والمسلمون يومئذ في عشرين

[١٠٨]

ألفا فكان من هزيمة العرب لهم وفتحهم لسبيطلة وتخریبهم اياها وقتلهم جرجير ملكهم وما نقلهم الله من أموالهم وبناتهم التي اختصت منهن ابنته بقاتله عبد الله بن الزبير لعهد المسلمين له بذلك بعد الهزيمة رخلوصه بخبر الفتح والملا من المسلمين بالمدينة ما هو كله مذكور مشهور ثم أرزئ الفرنجة ومن معهم من الروم بعد الهزيمة وخلوصه بخبر الفتح إلى حصون افريقية وانساح المسلمون في البسائط بالغارات ووقع بينهم وبين البربر أهل الضواحي زحوف وقتل وسبى حتى لقد حصل في أسرهم يومئذ من ملوكهم وزمار بن صقلاب جد بنى حزر وهو يومئذ أمير مغوارة وسائر زنانة ورفعوه إلى عثمان بن عفان فأسلم على يده ومن عليه وأطلقه وعقد له على قومه ويقال انما وصله وإفدا وحصن المسلمين عليهم ولاذ الفرنج بالسلم وشرطوا لابن أبى سرح ثلثمائة فنطار من الذهب على أن يرحل عنهم بالعرب ويخرج بهم من بلادهم ففعل ورجع المسلمون إلى المشرق وشغلوا بما كان من الفتن الاسلامية ثم كان الاجتماع والاتفاق على معاوية بن أبى سفيان وبعث معاوية بن خديج السكرنى من مصر لافتتاح افريقية سنة خمس وأربعين وبعث ملك الروم من القسطنطينية عساكره لمدافعتهم في البحر فلم تغن شيأ وهزمهم العرب بسائر أجم وحاصروا جلولاء وفتحوها وقفل معاوية بن خديج إلى مصر فولى معاوية بن أبى سفيان على افريقية بعده عقبة بن نافع فاخطت القيروان وافترق أمر الفرنجة وصاروا إلى الحصون وبقي البربر بضواحيهم إلى أن ولى يزيد ابن معاوية وولى على افريقية أبا المهاجر مولى وكانت رئاسة البربر يومئذ في أوربة لكسيلة بن لمزم وهو رأس البرانس ومرادفه سكرديد بن رومى بن ما زرت من أوربة وكان على دين النصرانية فأسلما لاول الفتح ثم ارتدا عند ولاية أبى المهاجر واجتمع اليهما البرانس وزحف اليهم أبو المهاجر حتى نزل عيون تلمسان فهزمهم وظفر بكسيلة فأسلم واستبقاه ثم جاء عقبة بعد أبى المهاجر فنكبه غيظا على صحابته لابي المهاجر ثم استفتح حصون الفرنجة مثل ماغانة ولميس ولقيه ملوك البربر بالزاب وتاهرت فغضهم جمعا بعد جمع ودخل المغرب

الاقصى واطاعته غمارة وأميرهم يومئذ بليان ثم أجاز إلى ولى ثم إلى جبال درن وقتل المصامدة وكانت بينهم وبينه حروب وحاصروه بجبال درن ونهضت إليهم جموع زناتة وكانوا خالصة للمسلمين منذ اسلام مغراوة فافرجت المصامدة عن عقبة وأئخن فيهم حتى حملهم على طاعة الاسلام ودوخ بلادهم ثم أجاز إلى بلاد السوس لقتال من بها من صنهجة أهل اللثام وهم يومئذ على دين المجوسية ولم يدينوا بالنصرانية فأئخن فيهم وانتهى إلى تارود انت وهزم جموع البربر وقتل مسوفة من وراء السوس وساسهم وقفل راجعا وكسيلة اثناء هذا كله في اعتقاله يجمعه معه

[١٠٩]

في عسكر مسائر غزواته فلما قفل من السوس سرح العساكر إلى القيروان حتى بقى في خوف من الجنود وتراسل كسيلة وقومه فأرسلوا له شهودا وانتهزوا الفرصة فيه وقتلوه ومن معه وملك كسيلة افريقية خمس سنين ونزل القيروان وأعطى الامان لمن بقى بها ممن تخلف من العرب أهل الذراري والاثقال وعظم سلطانه على البربر وزحف قيس بن زهير البلوى في ولاية عبد الملك للثأر بدم عقبة سنة سبع وستين وجمع له كسيلة سائر البربر ولقيه بجيش من نواحي القيروان فاشتد القتال بين الفريقين ثم انهزم البربر وقتل كسيلة ومن لا يحصى منهم وأتبعهم العرب إلى محنة إلى ملوية وفى هذه الواقعة دل البربر وفنيت فرسانهم ورجالهم وخضت شوكتهم واضمحل أمر الفرنجة فلم يعد وخاف البربر من زهير ومن العرب خوفا شديدا فلجؤا إلى القلاع والحصون ثم تهرب زهير بعدها وقفل إلى المشرق فاستشهد ببرقة كما ذكرناه واضطرت افريقية نارا وافترق أمر البربر وتعددت سلطاناتهم في رؤسائهم وكان من أعظمهم شأنًا يومئذ الكاهنة دهايا بنت ماثية بن تيفان ملكة جبل أوراس وقومها من جراوة ملوك البتروز وعمائهم فبعث عبد الملك إلى حسان بن النعمان الغساني عامله على مصر ان يخرج إلى جهاد افريقية وبعث إليه بالمدد فزحف إليها سنة تسع وسبعين ودخل القيروان وغزا قرطاجنة وافتتحها عنوة وذهب من كان بقى بها من الافرنجة إلى صقلية وإلى الاندلس ثم سأل عن أعظم ملوك البربر فدلوه على الكاهنة وقومها جراوة فمضى إليها حتى نزل وادى مسكياتة وزحفت إليه فاقتتلوا قتالا شديدا ثم انهزم المسلمون وقتل منهم خلق كثير وأسر خالد بن يزيد القيسي ولم تزل الكاهنة والبربر في اتباع حسان والعرب حتى أخرجوهم من عمل قايس ولحق حسان بعمل طرابلس ولقيه كتاب عبد الملك بالمقام فأقام وبنى قصوره وتعرف لهذا العهد ثم رجعت الكاهنة إلى مكانها واتخذت عهدا عند أسيرها خالد بالرضاع مع ابنتها وأقامت في سلطان افريقية والبربر خمس سنين ثم بعث عبد الملك إلى حسان بالمدد فرجع إلى افريقية سنة أربع وسبعين وخربت الكاهنة جميع المدن والضباع وكانت من طرابلس إلى طنجة ظلا واحدا في قرى متصلة وشق ذلك على البربر فاستامنوا لحسان فأمنهم ووجد السبيل إلى تفريق أمرها وزحف إليها وهى في جموعها من البربر فانهزموا وقتلت الكاهنة بمكان السر المعروف بها لهذا العهد بجبل أوراس واستأمن إليه البربر على الاسلام والطاعة وعلى أن يكون منهم اثنا عشر ألفا مجاهدين معه فأجابوا وأسلموا وحسن اسلامهم وعقد للاكبر من ولد الكاهنة على قومهم من جراوة وعلي جبل أوراس فقالوا لزمنا الطاعة له سيقناها إليها وبايعناه عليها وأشارت عليهم بذلك لاثارة من علم كانت لديها بذلك من

[١١٠]

شياطينها وانصرف حسان إلى القيروان فدون الدواوين وصالح من الفئ بيده إلى البربر على الخراج وكتب الخراج على عجم افريقية ومن أقام معهم على النصرانية من البربر والبرانسى واختلفت أيدي البربر فيما بينهم على افريقية والمغرب فخلت أكثر البلاد وقدم موسى بن نصير إلى القيروان واليا على افريقية ورأى ما فيها من الخلاف وكان ينقل العجم من الاقاصى إلى الاداني وأثنى في البربر ودوخ المغرب وأدى إليه البربر الطاعة وولى على طنجة طار وبن زياد وأنزل معه سبعة وعشرين ألفا من العرب وأثنى عشر ألفا من البربر وأمرهم أن يعلموا البربر القرآن والفقه ثم أسلم بقية البربر على يد اسمعيل بن عبد الله بن أبى المهاجر سنة احدى ومائة * وذكر أبو محمد بن أبى زيدان البربر ارتدوا اثنتى عشرة مرة من طرابلس إلى طنجة ولم يستقر اسلامهم حتى أجاز طارق وموسى بن نصير إلى الاندلس بعد ان دوخ المغرب وأجاز معه كثير من رجالات البربر وامرهم برسم الجهاد فاستقروا هنا لك من لدن الفتح فحينئذ استقر الاسلام بالمغرب وأدعن البربر لحكمه ورسخت فيهم وكلمة الاسلام وتناسلوا الردة ثم نبضت فيهم عروق الخارجية فدانوا بها ولقنوها من العرب الناقلة ممن سمعها بالعراق وتعددت طوائفهم وتشعبت طرقها من الاباضية والصفرية كما ذكرنا في أخبار الخوارج وفشت هذه البدعة وعقدتها رؤس النفاق من العرب وجرت إليهم الفتنة من البربر ذريعة الانتزاع على الامر فاختلفوا في كل جهة ودعوا إلى قائدهم طغام البربر تتلون عليهم مذاهب كفرها ويلبسون الحق بالباطل فيها إلى ان رسخت فيهم عروق من غرائسها ثم تناول البربر إلى الفتك بأمر العرب فقتلوا يزيد بن أبى مسلم سنة ثنتين ومائة لما نقموا عليه في بعض الفعلات ثم انتقض البربر بعد ذلك سنة ثنتين وعشرين ومائة في ولاية عبد الله بن الحجاب أيام هشام بن عبد الملك لما أوطأ عساكره بلاد السوس وأثنى في البربر وسبى وغنم وانتهى إلى مسوفة فقتل وسبى وداخل البربر منه رعب وبلغه أن البربر احسوا بانهم فى للمسلمين فانتقضوا عليه وثار ميسرة المطغنى بطنجة على عمرو بن عبد الله فقتله وبايع لعبد الاعلى بن جريح الافريقى رومى الاصل ومولوي العرب كان مقدم الصفرية من الخوارج في انتحال مذهبهم فقام بأمرهم مدة وبايع ميسرة لنفسه بالخلافة داعيا إلى نحلته من الخارجية على مذهب الصفرية ثم ساءت سيرته فنقم عليه البربر ما جاء به فقتلوه وقدموا على أنفسهم خالد بن حميد الزناتى (قال ابن عبد الحكم) هو من هتورة احدى بطون زناتة فقام بأمرهم وزحف إلى العرب وسرح إليهم عبد الله بن الحجاب العساكر في مقدمته ومعهم خالد بن أبى حبيب فالتقوا بوادي شلف وانهزم العرب وقتل خالد بن أبى حبيب ومن معه وسميت وقعة

[١١١]

الاسراب وانتقضت البلاد ومرج أمر الناس وبلغ الخبر هشام بن عبد الملك فعزل ابن حجاب وولى كلثوم بن عياض القشيري سنة ثلاث وعشرين وسرحه في اثنى عشر ألفا من أهل الشام وكتب إلى ثغور مصر وبرقة وطرابلس أن يمدوه فخرج إلى افريقية والمغرب حتى بلغ وادى طنجة وهو وادى سبسر فزحف إليه خالد بن حميد الزناتى فيمن معه من البربر وكانوا خلقا لا تحصى ولقوا كلثوم بن عياض من بعد أن هزموا مقدمته فاشتد القتال بينهم وقتل كلثوم وأضرمت العساكر فمضى أهل الشام إلى الاندلس مع فلح بن بشير القشيري ومضى أهل مصر وافريقية إلى القيروان وبلغ الخبر إلى هشام بن عبد الملك فبعث حنظلة بن سفيان الكلبي فقدم القيروان سنة أربع وعشرين وأربعمائة وهوارة يومئذ خوارج على الدولة منهم عكاشة بن أيوب وعبد الواحد بن يزيد في قومهما فثارت هوارة ومن تبعهم من البربر فهزمهم حنظلة بن المعز وظاهر القيروان بعد قتال شديد وقتل عبد الواحد الهوارى وأخذ عكاشة أسيرا وأحصيت القتلى

في هذه الواقعة فكانوا مائة وثمانين ألفا وكتب بذلك حنظلة إلى هشام وسمعها الليث بن سعد فقال ما غزوة كنت أحب ان أشهدها بعد غزوة بدر أحب إلى من غزوة القرن والاصنام ثم خفت الخلافة بالمشرق والتاب أمرها لما كان من بنى أمية من الفتنة وما كان من أمر الشيعة والخوارج مع مروان وأفضى الأمر إلى الادالة بنى العباس من بنى أمية وأجاز الفخر عبد الرحمن بن حبيب من الاندلس إلى افريقية فملكها وغلب حنظلة عليها سنة ست وعشرين ومائة فعادت لفيف إلى أديانها واستشرى داء البربر وأعضل أمر الخارجية ورؤسها فانتقضوا من أطراف البقاع وتواثبوا على الأمر بكل ما كان داعين إلى بدعتهم وتولى كبر ذلك يومئذ صنهجة وتغلب أميرهم ثابت ابن وريدون وقومه على باجة وثار معه عبد الله بن سكرديد من أمرائهم فيمن تبعه وثار بطرابلس عبد الجبار والحريث من هوارة وكانا يدينان برأى الاباضية فقتلوا عامل طرابلس بكر بن عيسى القيسي لما خرج إليهم يدعوهم إلى الصلح ويقى الأمر على ذلك مدة وثار اسمعيل بن زياد في قتل البربر وأتخن فيهم وزحف إلى تلمسان سنة خمس وثلاثين فظفر بها ودوخ المغرب واذل من كان فيه من البربر ثم كانت بعد ذلك فتنة وريجومة وسائر قبائل نفاوة سنة أربعين ومائة وذلك لما انحرف عبد الرحمن بن حبيب عن طاعة أبي جعفر وقتله أخواه الياس وعبد الوارث فولى مكانه ابنه حبيب عن طاعة أبي جعفر وقتله أخواه الياس وعبد الوارث فولى مكانه ابنه حبيب وطالبهما بثار أبيه فقتل الياس ولحق عبد الوارث وريجومة فأجاره أميرهم عاصم بن جميل وتبعه على شأنه يزيد بن سكوم أمير ولهامة واجتمعت لهم كلمة نفاوة ودعوا لابي جعفر المنصور وزحفوا إلى القيروان ودخلوها عنوة وفر حبيب بن قابس

[١١٢]

فأتبعه عاصم في نفاوة وقبائلهم وولى على القيروان عبد الملك بن أبي الجعد وجموع نفاوة الذين كانوا بالقيروان وقتلوه واستولت وريجومة على القيروان وسائر افريقية وقتلوا من كان بها من قريش وربطوا دوابهم بالمسجد الجامع واشتد البلاء على أهل القيروان وأنكرت ذلك من فعل وريجومة ومن إليهم من نفاوة برابرة طرابلس الاباضية من هوارة وزنانة فخرجوا واجتمعوا إلى أبي الخطاب عليها واجتمع إليه سائر البربر الذين كانوا هنا لك من زناتة وهوارة وزحف بهم إلى القيروان فقتل عبد الملك بن أبي الجعد وسائر وريجومة ونفاوة واستولى على القيروان سنة احدى وأربعين ثم ولى على القيروان عبد الرحمن بن رسين وهو من أبناء رستم أمير فارس بالقادسية كان من موالى العرب ومن رؤس هذه البدعة ورحيم أبو الخطاب إلى طرابلس واضطرم المغرب نارا وانتزى خوارج البربر على الجهات فملكوها واجتمعت الصفرية من مكناسة بناحية المغرب منه أربعين ومائة وقدموا عليهم عيسى بن يزيد الاسود واسسوا مدينة سجلماسة ونزلوها وقدم محمد بن الاشعث واليا على افريقية من أبي جعفر المنصور فزحفها إليه أبو الخطاب ولقيه بسرت فهزموا ابن الاشعث وقتل البربر ببلاد ريفا وفر عبد الرحمن بن رستم من القيروان إلى تاهرت بالمغرب الاوسط واجتمعت إليه طوائف البربر الاباضية من لماية ولواتة ورجالة ونفاوة فنزل بها واختط مدينتها سنة أربع وأربعين وضبط ابن الاشعث افريقية وخاف البربر ثم انتقل بنو يفرن من زناتة ومغيلة من البربر بنواحي تلمسان وقدموا على أنفسهم أبا قره من بنى يفرن ويقال أنه من مغيلة وهو الاصح في شأنه ويبيع له بالخلافة سنة ثمان وأربعين ومائة وزحف إليه الاغلب بن سود التميمي عامل طينة فلما قرب منه هرب أبو قره فنزل الاغلب الزاب ثم اعتزم على تلمسان ثم طنجة ورجع إليه الجند فرجع ثم انتقض البربر من بعد ذلك أيام عمرو بن حفص من ولد قبصة بن أبي صفرة أعنى المهلب وكان تغلب هوارة منذ سنة احدى وخمسين واجتمعوا بطرابلس وقدموا عليهم أبا حاتم يعقوب

بن حبيب بن مرين بن يسطوفت من أمراء مغيلة ويسمى أبا قادم ورجفت بجنود عمر بطينة في اثني عشر عسكريا وكان منهم أبو قرة في أربعين ألفا من الصفرية وعبد الرحمن بن رستم في ستة آلاف من الاباضية المسور بن هانئ في عشرة آلاف كذلك وجري بن مسعود فيمن تبعه من مديونة وعبد الملك بن سكرديد الصنهاجى في ألفين منهم من الصفرية واشتد الحصار على عمر بن حفص فاعمل الحيلة في الخلاف وأعطى ابنه في اتمام ذلك أربعة آلاف وافترقوا وارتحلوا عن طينة ثم بعث بعثا إلي ابن رستم فهزمه ودخل تاهرت مفلولا وزحف عمر بن حفص إلى أبي حاتم والبربر الاباضية الذين معه ونهضوا إليه

[١١٣]

فحالفهم إلى القيروان وشحنها بالاقوات والرجال ثم لقي أبا حاتم والبربر وهزموه ورجع إلى القيروان وحاصروه وكانوا في ثلثمائة وخمسين ألفا الخيل منها خمسة وثلاثون ألفا وكانوا كلهم أبا ضية وطال الحصار وقتل عمر بن حفص في بعض أيامه سنة أربع وخمسين ومائة وصالح أهل القيروان أبا حاتم على ما أحب وارتحل وقدم يزيد بن قبيصة بن المهلب سنة أربع وخمسين ومائة واليا على افريقية فزحف إليه أبو حاتم بعد أن خالف عليه عمر بن عثمان الفهري وافترق أمرهم فلقبه يزيد بن حاتم بطرابلس فقتل أبو حاتم وانهزم البربر ولحق عبد الرحمن بن حبيب بن عبد الرحمن من أصحاب أبي حاتم بكتامة وبعث المخارق بن غفار الطائى فحاصره ثمانية أشهر ثم غلب عليه فقتله ومن كان معه من البربر وهربوا إلى كل ناحية وكانت حروبهم مع الجند من لدن قتل عمر بن حفص بطينة إلى الفضاة ثلثمائة وخمسة وسبعين حربا وقدم يزيد افريقية فزال فساده ورتب القيروان ولم تزل البلاد هادئة وانتفض ورفجومة سنة سبع وخمسين وولوا عليهم رجلا منهم اسمه أبو زرجونة فسرح إليهم يزيد من عشيرة ابن محرارة المهلبى فهزموه واستأذنه ابنه المهلب وكان على الزاب وطينة وكتامة في الزحف إلى ورفجومة فأذن له وأمه بالعلاء بن سعيد بن مروان المهلبى من عشيرتهم أيضا فأوقع بهم وقتلهم أبرح قتل وانتفض نفزاوة من بعد ذلك في سلطنة ابنه داود من بعد مهلكه سنة احدى وستين ومائة وولوا عليهم صالح بن نصير السفرى ودعوا إلى رأيهم رأى الاباضية فسرح إليهم ابن عمه سليمان بن الصحة في عشرة آلاف فهزمهم وقتل البربر أبرح قتل ثم تحيز إلى صالح بن نصير ولم يشهد الاولى من البربر الاباضية واجتمعوا بشغبناوية فهزمهم إليها سليمان ثانية وانصرف إلى القيروان وركدت ربح الخوارج من البربر من افريقية وتداعت بدعتهم إلى الاضمحلال ورغب عبد الرحمن بن رستم صاحب تاهرت سنة احدى وسبعين في موادعة صاحب القيروان روح بن حاتم بن قبيصة بن المهلب فوادعه وانحصدت شوكة البربر واستكانوا للغلب وأطاعوا للدين فحضر الاسلام بجرانه وألقت الدولة الضريبة على البربر بكللها وتقلد ابراهيم بن الاغلب التميمي أمر افريقية والمغرب من قبل الرشيد هرون سنة خمس وثمانين ومائة فاضطلع بأمر هذه الولاية وأحسن السرة وقوم القتاد ورأب الصدع وجمع الكلمة ورضيت الكافة واستقل بولايتها غير منازع ولا متشوه وتوارثها بنوه خالفا عن سالف وكانت لهم بافريقية المغرب الدولة التى ذكرناها من قبل إلى ان انقرض أمر العرب بافريقية على زيادة الله عاقبتهم الفار إلى المشرق أمام كتامة سنة ست وتسعين ومائتين كما نذكره وخرج كتامة على بنى الاغلب بدعوة الراضية قام فيهم أبو عبد الله المحتسب

[١١٤]

الشيعة داعية عبيد الله المهدي فكان ذلك آخر عهد العرب بالملك والدولة بافريقية واستقل كتامة بالامر من يومئذ ثم من بعدهم من برابرة المغرب وذهبت ربح العرب ودولتهم من المغرب وافريقية فلم يكن لهم بعد دولة إلى هذا العهد وصار الملك للبربر وقبائلهم يتداولونه طائفة بعد أخرى وجيلاً بعد آخر تارة يدعون إلى الامويين الخلفاء بالاندلس وتارة إلى الهاشميين من بنى العباس وبنى الحسن ثم استقلوا بالدعوة لانفسهم آخراً حسبما نذكر ذلك كله مفصلاً عندما يعرض لنا من ذكر دول زناتة والبربر الذين نحن في سياقة أخبارها { الخبر عن البرابرة البتر وشعوبهم ونبداً منهم أولاً بذكر نفوسة وتصاريق أحوالهم } كان مادغيس الابتر جد البرابرة البتر وكان ابنه زحيك ومنه تشعبت بطونهم فكان له من الولد فيما يذكر نسابة البربر أربعة نفوس وإداس وضرا ولوا فاما اداس فصار في هوارة لما يقال ان هوارة خلف أبا هـ زحيك على أمه قبل فصاله فانتسب إليه واختلط بولده واندرجت بطون اداس في هوارة كما ذكرناه وأما ضرا ولوا فسناتني بذكر بطونهم واحداً واحداً وأما نفوس فهم بطن واحد تنسب إليه نفوسة كلها وكانوا من أوسع قبائل البربر فيهم شعوب كثيرة مثل بنى زمور وبنى مكسور وماطوسة وكانت مواطن حمهورهم بجهات طرابلس وما إليها وهناك الجبل المعروف بهم وهم على ثلاثه مراحل من قبلة طرابلس يسكنه اليوم بقاياهم وكانت مدينة صيرة قبل الفتح في مواطنهم وتعزى إليهم وهي كانت باكورة الفتح لأول الاسلام وخرب المغرب بعد استيلائهم عليها فلم يبق منهم الا الاطلال ورسوم خافية وكان من رجالاتهم اسمعيل ابن زياد المتغلب على قابس سنة ثنتين وثلاثين ومائة لأول الدولة العباسية ومنهم لهذا العهد أوزاع متفرقون في الاقطار بعمالات مصر والمغرب والله وارث الارض ومن عليها وأمالوا فمن ولده نفاوة ولو انه كما نذكر (الخبر عن نفاوة وبطونهم وتصاريق أحوالهم) وهم بنو تطوفت بن نفا وبن لوا الأكبر بن زحيك وبطونهم كثيرة مثل غساسة ومرنيسة وزهيلة وسومانية وزاتيمة وولهاصة ومجره وورسيف ومن بطونهم مكلانة ويقال ان مكلانة من عرب اليمن وقع إلى تطوفت صغيراً فتبناه وليس من البربر ولمكانة بطون متعددة مثل بنى ورياغل وكزناية وبنى يصلتن وبنى ديمان ورمحوق وبنى بزناسن ويقال ان غساسة منهم هكذا عند نسابة البربر مثل سابق المظماطى

[١١٥]

وغيره ومن بطون ولمهاصة ورتدين بن داحية بن ولهاصة وورفجومة بن نيرغاس بن ولهاص ومن بطون ورفجومة زكوله رجالة لذلك بن ورفجوم إلى بطون أخرى كثيرة وكان ورفجومة هؤلاء أوسم بطون نفاوة وأشدهم بأساً وقوة ولما انحرف عبد الرحمن بن حبيب عن طاعة أبي جعفر المنصور وقتله اخواه عبد الوارث والباس وطالبهما ابنه حبيب بالثار فلحق عبد الوارث بورفجومة ونزل علي أميرهم عاصم بن جميل بأوراس وكان كاهناً فأجاره وقام بدعوة أبي جعفر المنصور واجتمعت إليه نفاوة وكان من رجالاتهم عبد الملك بن أبي الجعد ويزيد بن سكوم وكانوا يدينون بدين الاباضية من الخوارج وزحفوا إلى القيروان سنة أربعين ومائة وفر عنها حبيب بن عبد الرحمن ودخلها عبد الملك بن أبي الجعد وقتل حبيباً واستولت نفاوة على القيروان وقتلوا من كان بها من قريش وسائر العرب وربطوا دوابهم بالمسجد وعظمت حوادثهم ونكر ذلك عليهم الاباضية من برابرة طرابلس وتولى كبرها زناتة وهوارة فاجتمعوا إلى الخطاب بن السمح ورجالات العرب واستولوا علي طرابلس ثم عن القيروان سنة احدى وأربعين وقتلوا عبد الملك بن أبي الجعد وأئخنوا في قومه من نفاوة وورفجومة ورجعوا إلى طرابلس بعد ان استعمل أبو الخطاب على القيروان عبد الرحمن بن رستم واضطرم المغرب ناراً وعظمت فتنة ورفجومة هؤلاء إلى ان قدم محمد بن الأشعث سنة ست وأربعين من قبل المنصور فأئخن في البربر وأطفأ نار هذه الفتنة كما

قدمناه ولما اختط عمر بن حفص مدينة طينة سنة احدى وخمسين
أنزل ورفجومة هؤلاء بها بما كانوا شيعا له وعظم غناؤهم فيها عند ما
حاصره بها ابن رستم وبنو يفرن ثم انتقضوا بعد مهلك عمر على يزيد
بن حاتم عند قدومه على افريقية سنة سبع وخمسين وولوا عليهم
أبا زرجونة منهم وسرح إليهم يزيد العساكر مع ابنه وقومه فأثخنوا
فيهم ثم انتقضت نفاؤه على أبيه داود ودعوا إلى دين الاباضية وولوا
عليهم صالح بن نصر منهم فرجعت العساكر إليهم متراسلة وقتلوهم
أبرح قتل وعليها كان ركود ربح الخوارج بافريقية وأذعار البربر وافترق
بنو ورفجوم بعد ذلك وانقرض أمرهم وصاروا أوزاعا في القبائل وكان
رجالا منهم بطنا متسعا وكان منهم رجالات مذكورون في أول
العبيديين وبنى أمية بالاندلس منهم الرحالي أحد الكتاب بقرطبة
وبقى منهم لهذا العهد فرق بمراجة وهناك قرية ببسيتها تنسب
إليهم وأما سائر ولهافة من ورفجومة وغيرهم فهم لهذا العهد أوزاع
لذلك أشهرهم قبيلة بساحل تلمسان اندرجوا في كومية وعدوا
منهم بالنسب والخلط وكان منهم في أواسط هذه المائة الثامنة ابن
عبد المكاف استقل برياستهم وتملك بدعوى السلطان بعد استيلاء
بنى عبد الواد على تلمسان

[١١٦]

ونواحيها ونغلب على سلطانهم لذلك العهد كما يذكره عثمان بن عبد
الرحمن وسجنه بالمطبق بتلمسان ثم قتله ومن أشهر قبائل ولهافة
أيضا قبيلة أخرى ببسيط بونة يركبون الخيل ويأخذون بمذاهب العرب
في زيهم ولغتهم وسائر شعارهم كما هو شأن هوارة وهم في عداد
القبائل الغارمة ورياستهم في بنى عريف منهم وهى لهذا العهد في
ولد حازم ابن شداد بن حزام بن نصر بن مالك بن عريف وكانت قبلهم
لعسكر بن بطنان منهم هذه أخبار ولهافة فيما علماه (وأما نهاية
بطون نفاؤه) فمنهم زاتيمة وبقية منهم لهذا العهد بساحل برسك
ومنهم غساسة وبقية منهم لهذا العهد بساحل بوطة حيث القرية
التي هناك حاضرة البحر ومرسي لاساطيل المغرب وهى مشهورة
باسمهم وأما زهيلة فبقيتهم لهذا العهد بنواحي بادس مندرجون في
غمارة وكان منهم لعهد مشيختنا أبو يعقوب البادسى أكبر الاولياء
وأخرهم بالمغرب وأما مرنيسة فلا يعلم لهم موطن ومن أعقابهم
أوزاع بين أحياء العرب بافريقية وأما سوماتة فمنهم بقية من نواحي
القيروان كان منهم منذر بن سعيد القاضى بقرطبة لعهد الناصر والله
أعلم وأما بقايا بطون نفاؤه فلا يعرف لهم لهذا العهد حى ولا موطن
الا القرى الظاهرة المقدره السير المنسوبة إليهم ببلاد قسطينة وبها
معاهدون من الفرنجة أوطنوهم على الجزية واعتقاد الذمة عند عهد
الفتح وأعقابهم بها لهذا العهد وقد نزل معهم كثير من بنى سليم
من الشريد وزغبة وأوطنوها وتملكوا بها الفقار والضياح وكان أمر هذه
القرى راجعا إلى عامل توزر أيام استبداد الخلافة فلما تقلص ظل
الدولة عنهم وحدثت العصية في الامصار استبدت كل قرية بأمرها
وصار مقدم توزر يحاول دخولهم في ايلته فمنهم من يعطيه ذلك
ومنهم من ياباه حتى أظلتهم دولة مولانا السلطان أبى العباس
وأدرجوا كلهم في طاعته واندرجوا في حبله والله ولى الامور لا رب
غيره اه) الخبر عن لوانة من البرابرة البتر وتصاريف أحوالهم وهو بطن
عظيم متسع من بطون البربر البتر ينتسبون إلى لوا الاصغر بن لوا
الأكبر ابن زحيك ولوا الاصغر هو نفاؤه وكما قلناه ولوا اسم أبيهم والبربر
إذا أرادوا العموم في الجمع زادوا الالف والتاء فصار لوات فلما عربته
العرب حملوه على الافراد وألحقوا به هاء الجمع وذكر ابن حزم أن
نسابة البربر يزعمون ان سدراتة ولوانة ومزاتة من القبط وليس ذلك
بصحيح وابن حزم لم يطلع على كتب علماء البربر في ذلك وفى
لوانة بطون كثيرة وفيهم قبائل كثيرة مثل سدراتة بن نيطط بن لوا
ومثل عرورة بن ما صلت بن لوا وعد سابق وأصحابه في بنى ما

صلت بطونا أخرى غير عروزة وهم أكررة وجرمانه ونقاعة مثل بنى زائد بن لوا وأكثر بطونهم مزاتة ونسائه البربر يعدون في مزاتة

[١١٧]

بطونا كثيرة مثل ملايان ومرنه ومحيجه ودكمه وحمره ومدونه وكان لواتة هؤلاء طواعن في مواطنهم بنواحي بركة كما ذكر المسعودي وكان لهم في فتنة أبي يزيد آثار وكان منهم بجبل أوراس أمة عظيمة ظاهروا أبا يزيد مع بنى كملان على أمره ولم يزالوا بأوراس لهذا العهد مع من به من قبائل هوارة وكتامة ويدهم العالية عليهم تناهز خيالتهم الفا وتجاوز رجالاتهم العدة وتستكفى بهم الدولة في جباية من تحت أيديهم بجبل أوراس من القبائل الغارمة فيحسنون الغناء والكفا وكان البعوث مضروبة عليهم ينفرون بها في معسكر السلطان فلما تقلص ظل الدولة عنهم صار بنو سعادة منهم في أقطاع أولاد محمد من الزواودة فاستعملوهم في مثل ما كانت الدولة تستعملهم فيه فاصاروهم خولا للجباية وعسكر الاستنفاق وأصبحوا من جملة رعاياهم وقد كان بقى جانب منهم لم تستوفه الأقطاعات وهم بنو زنجان وبنو باديس فاستضافهم منصور بن مزنى إلى عمله فلما استبد مزنى عن الدولة واستقلوا بالزاب صاروا يبعدونهم بالجبلية بعض السنين ويعسكرون عليهم لذلك بأفريق الاعراب وهم لهذا العهد معتصمون بجبلهم لا يجاوزونه إلى البسيط خوفا من عادية الاعراب ولبنى باديس منهم اتاوات على بلد نقاوس المحيطة في فسيح الجبل بما تغلبوا عن ضواحيها فإذا انحدر الاعراب إلى مشاتهم اقتضوا منها اتاواتهم وخفارتهم وإذا أقبلوا إلى مصايغهم رجع لواتة إلى معاقلمهم الممتنعة على الاعراب وكان من لواتة هؤلاء أمة عظيمة بضواحي تاهرت إلى ناحية القبلة وكانوا طواعن هنا لك على وادى میناس ما بين جبل يعود من جهة الشرق والى وان حلف من جهة الغرب يقال ان بعض أمراء القيروان نقلهم معه في غزوة وأنزلهم هنا لك وكان كبيرهم أورغ بن على بن هشام قائدا لعبد الله الشيعي ولما انتقض حميد بن مصل صاحب ترهوت على المنصور ثالث خلفاء الشيعة ظاهروه على خلافه وجاوروه في مذاهب ضلاله إلى ان غلبه المنصور وأجاز حميد إلى الأندلس سنة ست وثلاثين وزحف المنصور يريد لواتة فهربوا أمامه إلى الرمال وهرب عنهم ونزل إلى وادى میناس ثم انصرف إلى القيروان (وذكر) ابن الرقيق ان المنصور وقف هنا لك على أثر من آثار الأقدميز بالقصور التى على الجبال الثلاثة مبنية بالحجر المنحوت يبدو للناظر على البعد كأنها أسنمة قبور ورأى كتابا في حجر فسره له أبو سليمان السرد غرس خالف أهل هذا البلد على الملك فأخرجني إليهم ففتح لى عليهم وبنيت هذا البناء لاذكر به هكذا ذكر ابن الرقيق وكان بنو وجد يجى من قبائر زناتة بمواطنهم من منداس جيرانا للواتة هؤلاء والعجم بينهما وادى میناس وتاهرت وحدثت بينهما فتنة بسبب امرأة أنكحها بنو وجد يجى في لواتة فعيروا بالفقر فكتبت بذلك إلى قومها

[١١٨]

ورئيسهم يومئذ غسان فندامروا واستمدوا من وراءهم من زناتة فامدوهم بعلى بن محمد اليفرنى وزحفت مطماطة من الجانب الآخر في مظاهرتهم وعليهم عزانة أميرهم وزحفوا جميعا إلى لواتة فكانت بينهم وقائع وحروب هلك في بعضها علاق وازاحوا عن الجانب الغربي السرسو والجؤهم إلى الجبل الذى في قبلة تاهرت المسمى لهذا العهد دارك وانتشرت عمائرها بتلوله وما وراءه إلى الجبال المطللة على متيجة وهم لهذا العهد في عداد القبائل الغارمة وجبل دارك في أقطاع ولد يعقوب بن موسى مشيخة العطاف من ورغة ولواتة

أيضا بطون بالجيل المعروفة بهم قبلة قابس وصفاقس ومنهم بنو مكي رؤساء قابس لهذا العهد ومنهم أيضا لواحات مصر فيما ذكره المسعودي أمة عظيمة بالجيزة التي بينها وبين مصر وكان لما قرب من هذه القصور شيخهم هنا لك بدر بن سالم وانتقض على الترك وسرحوا إليه العساكر فاستلحموا كثيرا من قومه وفر إلى ناحية برقة وهو الآن في جوار العرب بها ومن زناة هؤلاء أحياء بنواحي تادلا قرب مراكش من الغرب الأقصى ولهم هنا لك كثرة ويزعم كثير من الناس انهم بنواحي جابر من عرب جسم واختلطوا بهم وصاروا في عدادهم ومنهم أوزاع مفترقون بمصر وقرى الصعيد شافية وفلاحين ومنهم أيضا بضواحي بجاية قبيلة يعرفون بلواتة ينزلون بسيط تآكرارت من أعمالها ويعتمرونها فدنا لمرارعتهم ومسارح لانعامهم ومشيختهم لهذا العهد في ولد راجح بن صواب منهم وعليهم للسلطان جباية مفروضة وبعث مضروب هؤلاء المعروفون من بطون لواتة ولهم شعوب أخرى كثيرة اندرجوا في البطون وتوزعوا بين القبائل والله وارث الارض ومن عليها { الخبر عن بنى فاتن من ضريسة احدى بطون البرابرة البتر وتصاريف أحوالهم } وهم بطون مضغرة ولماية وصدينة وكرمية ومديونة ومغيلة ومطماطة وملزوزة ومكناسة ودونة وكلهم من ولد فاتن بن ممصيب بن حريس بن زحيك بن مادغيس الابتر ولهم ظهور من البرابر واخبار نسردها بطنا بطنا إلى آخرها مصغرة وهم من أوفر هذه الشعوب وكانوا خصاصين أهلين وكان جمهورهم بالمغرب منذ عهد الاسلام نشبوا في نشر الردة وضروبها وكان لهم فيها مقامات ولما استتوسق الاسلام في البربر أجازوا إلى فتح الاندلس وأجازت منهم أمم واستقروا هنا لك ولما سرى دين الخارجية في البربر أخذ مضغرة هولاء برأى الصفرية وكان شيخهم ميسرة ويعرف بالجفير مقدا فيه ولما ولي عبيد الله بن الحجاب على افريقية من قبل هشام بن عبد الملك وأمره أن يمضى إليها من مصر فقدمها سنة اربع عشرة واستعمل عمر بن عبد الله المرادي على

[١١٩]

طنجة والمغرب الأقصى وابنه اسمعيل على السوس وما وراءه واتصل أمر ولانهم وسار سيرتهم في البربر نعموا عنهم أحوالهم وما كانوا يطالبونهم به من الوظائف البربريات والاردية العسلية الالوان وأنواع طرف المغرب فكانوا يتغالون في جمعهم ذلك وانتحاله حتى كانت الصرمة من الغنم تهلك بالذبح لاتخاذ الجلود العسلية من سخالها ولا يوجد فيها مع ذلك الا الواحد وما قرب منه فكثر عيتم بذلك في اموال البربر وجورهم عليهم وامتعض لذلك ميسرة الحسن زعيم مضغرة الحسن وحمل البرابرة على الفتك بعمر بن عبد الله عامل طنجة فقتلوه سنة خمس وعشرين وولى ميسرة مكانه عبد الاعلى من خديم الافريقي الرومي الاصل كان من موالى العرب واصل خارجتهم وكان يرى رأى الصفرية فولاه ميسرة على طنجة وتقدم إلى السوس فقتله عامله اسمعيل ابن عبد الله واضطرم المغرب نارا وانتقض أمره على خلفاء المشرق فلم يراجع طاعتهم بعد وزحف بعض الحجاب إليه من القيروان في العساكر على مقدمة خالد بن أبى حبيب الفهري فلقبهم ميسرة في جموع البرابرة فهزم المقدمة واستلحمهم وقتل خالد وتسامع البربر بالاندلس بهذا الخبر فشاروا بعاملهم عقبة بن الحاج السلولى وعزلوه وولوا عبد الملك بن قطر الفهري وبلغ الخبر بذلك إلى هشام بن عبد الملك فسرح كلثوم بن عياض المرى في اثنى عشر الفا من جنود الشام وولاه على افريقية وأدال به من عبيد الله بن الحجابى وزحف كلثوم إلى البرابرة سنة ثلاث وعشرين حتى انتهت مقدمته إلى اسبو من أعمال طنجة فلقبه البرابرة هنا لك مع ميسرة وقد فحصوا عن أوساط رؤسهم وقادوا امعاد الخارجية فهزموا مقدمته ثم هزموه وقتلوه وكان كيدهم في لقائهم اياه وملؤا الشنان بالحجارة وربطوها بأذنان الخيل يفادى بها فتقعع الحجارة في شنانها وسربت بمصاف العساكر من العرب

فنفرت خيولهم واختل مصافهم وانحزب عليهم المربة فافترقوا وذهب ملح مع الطلائع من أهل الشام إلى سبتة كما ذكرناه في أخبارهم ورجع إلى القيروان أهل مصر وأفريقية وظهرت الخواج في كل جهة واقتنع المغرب عن طاعة الخلفاء إلى أن هلك ميسرة وقام برياسة مضغرة من بعده يحيى بن حارث منهم وكان خلفا لمحمد بن خزر ومغراوة ثم كان من بعد ذلك ظهور ادريس بالمغرب فقدم بها البرابرة وتولى كبرها واربه منهم كما ذكرناه وكان على مضغرة يومئذ شيخهم بهلول بن عبد الواحد فانحرف مالك عن ادريس إلى طاعة هرون الرشيد بمدخله ابراهيم بن الاغلب عامل القيروان فصالحه ادريس وأنبأه بالسلم ثم ركذ ربح مضغرة من بعد ذلك وافترق جمعهم وجزت الدول عليهم اذبالها واندرجوا في عمال البربر الغارمين لهذا العهد بتلول المغرب وصحرائه فمنهم ما بين فاس وتلمسان أمم

[١٢٠]

يتصلون بكومية ويدخلون حلقهم واندرجوا من لدن الدعوة الموحدية منهم ورياستهم لولد خليفة كان شيخهم على عهد الموحدين وبنى لهم حصنا بمواطنهم على ساحل البحر سمى تاونت ولما انصرفت دولة بنى عبد المؤمن واستولى بنو مرين على المغرب قام يعرون بن موسى بن خليفة بدعوة يعقوب بن عبد الحق سلطانهم وتغلب على ندرومة وزحف إليه يغمراسن بن زيان فاسترجع ندرومة من يده وغلبه على ما رتب ثم زحف يعقوب بن عبد الحق إليهم وأخذها من أيديهم وشحنها بالاقوات واستعمل يعرون ورجع إلى المغرب محمد بن هرون نفسه بالاستبداد فدعا لنفسه معتصما بذلك الحصن خمس سنين ثم صاهره يغمراسن وأسدله على صلح سنة ثنتين وسبعين وستمائة ولحق هرون بيعقوب بن عبد الحق ثم أجاز إلى الجهاد فأذنه واستشهد هنا لك وقام بأمر مضغرة من بعده أخوه تاشفين إلى أن هلك سنة ثلاث وسبعمائة واتصلت رياستهم على عقبه لهذا العهد ومن قبائل مضغرة أمة بجبل قبلة فاس معروف بهم ومنهم أيضا قبائل كثيرون بنواحي سلجماسة وأكثر أهلها منهم وربما حدث بها عصبية من جراهم ومن قبائل مضغرة أيضا بصحراء المغرب كثيرون نزلوا بقصورها واغترسوا شجرة النخل على طريقة العرب فمنهم بتوات قبلة سلجماسة إلى تمنطيت آخر عملها قوم كثيرون موطنون مع غيرهم من أصناف البربر ومنهم في قبلة تلمسان وعلى ستة مراحل منها وهى قصور متقاربة بعضها من بعض أثلف منها مصر كبير مستبحر بالعمران البدوى معدود في أحاد الامصار بالصحراء ضاح من ظل الملك والدول لبعده في القفر ورياسته في بنى سيد الملك منهم وفى شرفيها وعلى مراحل منها قرى أخرى متتابعة على سمتها متصاعدة قليلا إلى الجوف آخرها على مرحلة من قبلة جبل راشد وهى في مجالات بنى عامر من زغبة وأوطانهم من القفر وقد تملكوها لحظ أبنائهم وقضاء حاجاتهم حتى نسبت إليهم في الشهرة وفى جهة الشرق على هذه القصور وعلى خمس مراحل منها دامعة متوغلة في القفر تعرف بقلية والى يعتمرها رهط من مضغرة هؤلاء وينتهى إليها المنتهى من أهل الصحراء بعض السنين إذا لفحهم الهجير يستبدون في تلولها لتوغلها في ناحيتهم ومن مضغرة هؤلاء اوزاع في أعمال المغرب الاوسط وأفريقية والله الخلق جميعا * (لماية) * وهم بطون كما ذكرناه أخوه مضغرة ولهم بطون كثيرة عد منها سابق وأصحابه هو زكرمار مزينة ومليزة بنو مدنيين كلهم من لماية وكانوا طواعن بأفريقية والمغرب وكان جمهورهم بالمغرب الاوسط موطنين بسحومة مما يلى الصحراء ولما سرى دين الخارجية في البربر أخذوا برأى الاباضية ودانوا به وانتلوه

[١٢١]

وانتقله جيرانهم من مواطنهم تلك من لواتة وهوارة وكانوا بارض السرسو قبلة منداس وزواغة الغرب عنهم وكانت مطماطة ومكناسة وزناتة جميعا في ناحية الجوف والشرق فكانوا جميعا على ناحية الخارجية وعلى رأى الاباضية منهم وكان عبد الرحمن بن رستم من مسلمة الفتح وهو من ولد رستم أمير الفرس بالقادسية وقدم إلى افريقية مع طوابع الفتح فكان بها وأخذ بدين الخارجية والاباضية منهم وكان صنيعة للمنة وحليفا لهم ولما تحزب الاباضية بناحية طرابلس منكرين على ورفجومة فعلهم في القيروان كما مر واجتمعوا إلى ابن الخطاب عبد الاعلى بن السمح المغافرى امام الاباضية فملكوا طرابلس ثم ملكوا القيروان وقتل واليها مروان يحومة عبد الملك بن أبى الجعد وأتخنوا في ورفجومة وسائر مغراوة سنة احدى وأربعين ورجع أبو الخطاب والاباضية الذين معه من زناتة وهوارة وغيرهم بعد ان استخلف على القيروان عبد الرحمن بن رستم وبلغ الخبر بفتنة ورفجومة هذه واضطراب الخوارج من البربر بافريقية والمغرب وتسلفهم على الكرسى للامارة بالقيروان إلى المنصور أبى جعفر فسرح محمد بن الاشعث الخزاعى في العساكر إلى افريقية وقلده حرب الخوارج بها فقدمها سنة أربع وأربعين ولقيهم أبو الخطاب في جموعه قريبا من طرابلس فأوقع به ابن الاشعث ويقومه وقتل أبو الخطاب وطار الخبر بذلك إلى عبد الرحمن بن رستم بمكان امارته في القيروان فاحتمل أهله وولده ولحق باباضية المغرب الاوسط من البرابرة الذين ذكرناهم ونزل على لماية لقديم حلف بينه وبينهم فاجتمعوا إليه وباعوا له بالخلافة واسفروا في مدينة منصور بها كرسى لامارتهم فشرعوا في بناء مدينة تاهرت في سفح جبل كزول السياح على تلول منداس واختطوها علي وادى ميناس التابعة منه عيون بالقبلة وتمر بها وبالبطحاء إلى أن تصب في وادى شلف فأسسها عبد الرحمن بن رستم واختطها سنة أربع وأربعين ومائة فمدنت واتسعت خطتها إلى أن هلك عبد الرحمن وولى ابنه عبد الوهاب من بعده وكان رأس الاباضية وزحف سنة ست وسبعين مع هوارة إلى طرابلس وبها عبد الله بن ابراهيم بن الاغلب من قبل أبيه فحاصره في جموع الاباضية من البربر إلى أن هلك ابراهيم بن الاغلب واستقدم عبد الله بن الاغلب لامارته بالقيروان فصالح عبد الوهاب على أن تكون الصباحية لهم وانصرف إلى مقوسة ولحق عبد الله بالقيروان وولى عبد الوهاب ابنه ميمونا وكان رأس الاباضية والصفرية والواصلية وانصرف إلى مقوسة والصفرية والواصلية وكان يسلم عليه بالخلافة وكان أتباعه من الواصلية وحدهم ثلاثين ألفا طواعن ساكنين بالخيام ولم يزل الملك في بنى رستم هؤلاء بتاهرت وحازتهم جيرانهم من

[١٢٢]

مغراوة وبنى يفرن على الدخول في طاعة الادارسة لما ملكوا تلمسان وأخذت بها زناتة من لدن ثلاث وسبعين ومائة فامتنعوا عليهم سائر أيامهم إلى ان كان الاستيلاء إلى عبد الله الشيعي على افريقية والمغرب سنة ست وسبعين فغلبهم على مدينة تاهرت وأسرههم ملكهم بها وبث دعوة عبد الله في أقطار المغربين فانقرض أمرهم بظهور هذه الدولة وعهد عروبة بن يوسف الكتامى فاتح المغرب للشيعية على تاهرت لابي حميد دراس بن صولان الهبصى فغدا إلى المغرب سنة ثمان وتسعين فأمحي في مؤامرتها الاباضية من لماية وازداجة ولواية ومكناسة ومطماطة وحملهم على دين الرافضة وشيخ بها دين الخارجية حتى استحكم في عقائدهم ثم وليها أيام اسمعيل المنصور بن صلاح بن حبوس ثم نزع إلى دعوة الاموية وراء البحر ولحق بالخير بن محمد بن حزر صاحب دعوتهم في زناتة واستعمل المنصور بعده على تاهرت ميسور الحصنى مولاه أحمد بن الرحالى من صنائعه فزحف إليها حميد والخير وانهمزم ميسور واقتحموا تاهرت عنده وتعصبوا على أحمد

الرحالى وميسور إلى ان أطلقوهما بعد حين ولم تزل تاهرت هذه بعد لاعمال الشيعة وصنهاجة سائر أيامهم وتغلب عليها زناتة مرارا ونازلها عسكر بنى أمية راجعة في اثر زيرى بن عطية أمير المغرب من مغراوة أيام أجاز المظفر بن أبى عامر من العدو إلى حربه ولم يزل الشأن هذا إلى أن انقرض أمر تلك الدول وصار أمر المغرب إلى لمتونة ثم صار إلى دولة الموحدين من بعدهم وملكوا الفرس وخرج عليهم بنو غانية بناحية قابس ولم يزل يجرى منهم جلب على ثغور الموحدين وشن الغارات على بسائط افريقية والمغرب الاوسط وتكرر دخوله إليها عنوة مرة بعد أخرى إلى أن احتل سكانها وخلا جوها وعفا رسمها لما تناهى عشرون من المائة السابعة والارض لله (وأما قبائل لماية) فانقرضوا وهلكوا بهلاك مصرهم الذى اختطوه وحازوه وملكوه سنة الله في عباده وبقيت فرق منهم اوزاعا في القبائل ومنهم حربة الذين سميت بهم الجزيرة البحرية تجاه ساحل قابس وهم بها لهذا العهد وقد كان النصرانية من أهل صقلية ملكوها على من بها من المسلمين وهى قبائل لماية وكتامة مثل جربة وسديكس ووضعوا عليهم الجزية وشيدوا على ساحل البحر بها معقلا كافيا سموه القشتيل وطال تمرس العساكر به من حضرة الدولة الحفصية حتى كان افتتاحها أعوام ثمان وثلاثين من المائة الثامنة في دولة مولانا السلطان أبى بكر وعلى يد مخلوف بن الكماد من صنائعه واستقرت بها الدعوة الاسلامية إلى هذا العهد الا أن القبائل الذين بها من البربر لم يزالوا يدينون بدين الخارجية ويتدارسون مذاهبهم مجلدات تشتمل على تأليف لانهم في توعر ديانتهم وأصول عقائدهم وفروع مذاهبهم يناقلونها

[١٢٣]

وبعكفون على دراستها وقراءتها والله خلقكم وما تعملون (مطماطة) وهم اخوة مضغرة ولماية من ولد فارس تمطيت الذين مر ذكرهم وهم شعوب كثيرة وعن سابق المطمطي وأصحابه من النسابة أن اسم مطماط مصكاب ومطماط أقتاله وأن شعوبهم من لو امن مطماطة وانه كان له ولد آخر اسمه واوشيط ولم يذكروا له عقبا قالوا وكان للوا أربعة من الولد ورماس وميلاغر ووريكول ويليص ولم يعقب يليص واعقب الثلاثة الباقون ومنهم افترق شعوب مطماطة كلها فأما ورماس فمنه مصمود ويونس ونغرين وأما وريكول فكان له من الولد كلدام وسيده وقيدر ولم يعقب سيده ولا قيدير وكان لكلدام عصفراص وسليبايان سافجان ووريقي ووصدى وقطسايان عمر ويقال لهؤلاء الخمسة بنو سمو بأهمهم وكان لعصفراص زهاص ونهراص فمن عصفراص ورهل وخامد وسكوم ويقال لهم بنو تليكشان سموا بأهمهم وكان من زهاص بليست وبصلاطين فمن بليست ورسقلاسن وسكر ومحمد ومكربل ودكوال ومريصلاسين بان يولى وسمساسن ومسامر وملوسن ويحمد ونافع وعبد الله وعردابين وأما يلاعب بن لو ابن مطماط فكان له من الولد دحيا وتاينة فمن تاينة ما حرسكن وريغ وعجلان ومقام وقررة وكان لدحيا ورتجى ومحديل فمن ورتجى مغربن وبور ورسيكم وممجيس ومن محديل ماكور وأشول وكفلان ومذكور وفطارة وأبورة هذه شعوب مطماطة كما ذكر نساية البربر سابق وأصحابه وهم مفرقون في المواطن فمنهم من نواحي من قبلتها في جبل هنا لك معروف بهم ما بين فاس وصغرو ومنهم بجهات قابس والبلد المختط على العين الحامية من جهة غربها منسوب إليهم ولهذا العهد يقال حمه مطماطة ويأتى ذكرها في الدولة الحفصية وممالك افريقية وبقاياهم أوزاع من القبائل وكانت مواطن جمهورهم بتلول منداس عند جبل وانشريس وجبل كزول من نواحي تاهرت ولهم بتلك المواطن عزم بدولة صنهاجة استفحل وصوله وفى فتنة حماد بن بلكن مع باديس المنصور مقامات وآيات وكان كبيرهم يومئذ عزانة وكان له مع البرابرة المجاورين له من لواتة وغيرهم حروب وأيام (ولما هلك) عزانة قام بأمره في مطماطة ابنه زيرى فمكث فيهم أياما

ثم غلبت صنهاجة على أمره فأجاز البحر إلى العدو ونزل على المنصور بن أبي عامر فاصطنعه ونظمه في طبقة الامراء من البربر الذين كانوا في جملته واستظهره على أمره فكان من أوجه رجالهم عنده وأعظمهم قدرا لديه إلى أن هلك وإجراه ابنه المظفر من بعده وأخوه عبد الرحمن الناصر سيدها في ترفيع مكانه وإخلاص ولايته وكان عند ثورة محمد بن هشام بن عبد الجبار غائبا مع أبي عامر

[١٢٤]

في أعراب النعمان مع من كان معه من أمراء البربر وعرفائهم فلما رأوا انتقاضي أمره وسوء تدبيره لحقوا بمحمد بن هشام المهدي فكانوا معه إلى أن كانت الفتنة البربرية بالاندلس إلى أن هلك هنا لك ولا أدري أي السنين كان مهلكه وأجاز إلى الاندلس أيضا من فصالحهم بهلا بهلا من أبي لوى يصلص ونزل على الناصر وهو من أهل العلم بانساب البربر (وكان من مشاهيرهم) أيضا النسابة سابق بن سليمان بن حراث بن مولات بن دوياسر وهو كبير نسابة البربر ممن علمناه (وكان منهم) أيضا عبد الله بن ادريس كاتب الخراج لعبيدالله المهدي في آخرين يطول ذكرهم اه بان يولى بن يصلص بن يرهاص بن عصفراس بن كلثام بن وريكول بن لو بن مطماط عرادي - عبد الله - نافع - مسامر - محديل - ناركسن بن ثابت - ورسملاسن واسكري بن يحيى بن ذهيا بن يلاعف - كفلان - ماکور - باخرسن بن نابتة - سعدم فرب - قيدك - ولبخ - عجلان - مذکور - وابوره - بطاره - عجيس بن ورتجن - سكيم مفرين - لور - ورعيد - فلوس - تماس - دكران - سلف - محه - سالجان بن سليبايان لسد مصصكوره - عمود - ريغى - نطساياان - وزدى - سليط - بلسيمسر - ورماكسن

[١٢٥]

وهذا ما تلقيناه من أخبار مطماطة (وأما موطن منداس) فزعم بعض الاخباريين من البربر ووقفت على كتابه في ذلك انه سمي يمنداس بن مفر بن اوريغ بن لهر بن المساو وهو هواره وكانه والله أعلم بشير إلى اداس بن زحيك الذى يقال انه ربيب هوار كما يأتي في ذكرهم الا أنه اختلط عليه الامر وكان لمنداس من الولد شرارة وكلتوم وتبكم قال ولما استفحل أمر مطماطة وكان شيخهم لهذا العهد ارهاص بن عصفراس فأخرج منداس من الوطن وغلبه على أمره واعتمر بنوه موطن منداس ولم يزالوا به اه كلامه ولقيه هؤلاء القوم لهذا العهد بجبل أو تبتيش لحقوا به لما غلبهم بنو توجين من زناتة على منداس وصاروا في عداد قبائل الغارمة والله وارث الارض ومن عليها * (مغيلة) * وهم اخوة مطماطة ولماية كما قلناه واخوتهم ملزورة معدودون منهم وكذلك دونة وكشانة ولهم افتراق في الوطن وكان منهم جمهوران أحدهما بالمغرب الاوسط عند مصب شلف في البحر من صوادر ما دونه المصر لهذا العهد ومن ساحلهم أجاز عبد الرحمن الداخل إلى الاندلس ونزل بالمنكب فكان منهم أبو قره المغيلي الدائن بدين الصفرية من الخوارج ملك أربعين سنة وكانت بينه وبين امراء العرب بالقيروان لأول دولة بنى العباس حروب ونازل طينة وقد قيل ان ابا قره هذا من بنى مطماطة وهذا عندي صحيح فلذلك أشرت ذكر أخباره إلى أخبار بنى يفرن من زناتة (وكان) منهم أيضا أبو حسان ثار بافريقية لأول الاسلام وأبو حاتم يعقوب بن لبيب بن مرين ابن يطوفت من مازوز الثائر مع أبي قره سنة خمسين ومائة وتغلب على القيروان فيما ذكر خالد بن خراش وخليفة بن خياط من علمائهم وذكروا من رؤسائهم أيضا موسى ابن خليد ومليح بن علوان وحسان بن زروال الداخل مع عبد الرحمن وكان منهم أيضا دلول بن حماد أميرا عليهم في سلطان يعلى بن محمد اليفرنى وهو

الذى اختط تلك ايكري على اثنى عشر ميلا من البحر وهى لهذا العهد خراب لم يبق منها الا الاطلال ماثلة ولم يبق من مغيلة بذلك الوطن جمع ولا حى وكان جمهورهم الآخر بالمغرب الاقصى وهم الذين تلوا مع أوربة وصدينة القيام بدعوة ادريس بن عبد الله لما لحق بالمغرب واجازه وحملوا قبائل البربر على طاعته والدخول في أمره ولم يزالوا على ذلك إلى أن اضمحلت دولة الادارسة وبقياهم لهذا العهد بمواطنهم ما بين فاس وصفرون ومكناسة والله وارث الارض ومن عليها * (مديونه) * وهم من اخوة مغيلة ومطماطة من ولد فاس كما قلناه وكانت مواطن جمهورهم بنواحي تلمسان ما بين جبل بنى راشد لهذا العهد إلى الجبل المعروف بهم قبلة وحدة يتقليون بطواعنهم في ضواحيه وجهاته وكان بنو يلومى وبنو يفرن من قبلهم يحاورونهم من ناحية المشرق ومكناسة من ناحية

[١٢٦]

المغرب وكومية وولهاصة من جهة الساحل (وكان) من رجالاتهم المذكورين جرير بن مسعود كان أميراً عليهم وكان مع أبى حاتم وأبى قرة في فتنتهم واجاز إلى الاندلس في طوابع الفتح كثير منهم فكان لهم هنا لك استفحال وخرج هلال بن ابزبا منهم يشتد به على عبد الرحمن الداخل مسعاسعا المكناسى في خروجه ثم راجع الطاعة فقتله وكتب له على قومه فكان بشرق الاندلس وسنتمرية ثم خلفه بها من قومه نابتة بن عامر ولما تغلب بنو توجين وبنو راشد من زناتة على ضواحي المغرب الاوسط وكان مديونة هؤلاء قد قل عددهم وقل حدهم فداخلتهم زناتة على الضواحي من مواطنهم وتملكوها وصارت مديونة إلى الحصون من بلاده بجبل ما ساله وجد وحده المعروف بهم وبنواحي ما بينها وبين صفروى قبيلة منهم مجاورة لمغيلة والله يربث الارض ومن عليها * (كومية) * وهم المعروفون قديما بصطفورة أحد مطاية ومضغرة وهم من ولد فاتن كما قدمنا ولهم ثلاث بطون منها تفرعت شعوبهم وقبائلهم وهى ندرومة ومغارة وبنو يلول فمن ندرومة مفوطة وحرسة ومردة ومصمانة ومراثة ومن بنى يلول مسيقة ورتيوة وهنشبة وهيورة ووالغة ومن مغارة ملتيلة وبنو حباسة وكان منهم النسابة المشهور مانى بن مصدور بن مريس بن يعوط هذا هو المعروف في كتبهم وكانت مواطن أكدمية بالمغرب الاوسط سيف البحر من ناحية ارسكول وتلمسان وكان لهم كثرة موفوة وشوكة مرهوية وصاروا من أعظم قبائل الموحدين لما ظاهرها المصامدة على أمر المهدي وكلمه لوجده وربما كانوا رهط عبد المؤمن صاحبه وخليفته فانه كان من بنى عابد احد بيوتاتهم وهم عبد المؤمن بن على بن مخلوف بن يعلى بن مروان بن نصر بن على بن عامر بن الاسر بن موسى بن عبد الله بن يحيى بن وريغ من صطفور هكذا نسبه مؤرخو دولة الموحدين إلى صطفور ثم يقولون صطفور بن يقور بن مطماط بن هودج بن قيس عيلان بن مضر ويذكر بعضهم أن في خط أبى عبد الواحد المخلوع ابن يوسف بن عبد المؤمن ما يدل على أنه مصنوع إذ هذه الاسماء ليست من أسماء البربر وانما هي كما تراه كلها عربية والقوم كانوا من البرابرة معروفون بينهم وانتساب مطفور إلى مطماط تخليط أيضا فانهما أخوان عند نسابة البربر أجمع وعبد المؤمن بلا شك منهم والله أعلم بما سوى ذلك وكان عبد المؤمن هذا من بيوتاتهم وأشرفهم وموطنهم بتكرارت وهو حصن في الجبل المطل على هنين من ناحية الشرق ولما نجح عبد المؤمن منهم وثب وارتحل في طلب العلم فنزل بتلمسان وأخذ عن مشيختها مثل ابن صاحب الصلاة وعبد السلام البرنسى وكان فقيها يعد في فنونه وكان شيخ عصره في الفقه

[١٢٧]

والكلام يعطش التلميذ بعده إلى القراءة ومنهم الفقيه محمد بن تومرت المهدي ووصل إلى بجاية وكان يعرف إذ ذاك بالفقيه السوسى ونسبته إلى السوس ولم يكن لقب المهدي وضع عليه بعد وكان في ارتحاله من المشرق إلى المغرب قد أخذ نفسه مع تغيير المنكر الذي شأنه وطريقته نشر العلم وتبيين الفتاوى وتدريس الفقه والكلام وكان له في طريقته الأشعرية امامة وقدم راسخة وهو الذي أدخلها إلى المغرب كما ذكرناه وتشوق طلبة العلم بتلمسان إلى الاخذ عنه وتفاوضوا في ذلك وندب بعضهم بعضا إلى الرحلة إليه لاستجلابه وأن يكون له السبق باتحاف القطر بعلمه فانتدب لها عبد المؤمن بن علي فكانه من صغر السن بنشاطا للسفر لبدأوته فارتحل إلى بجاية للقائه وترغيبه في نزوله تلمسان فلقبه بملاة وقد استحكمت بينه وبين العزيز النفرة وبنو ورياكل متعصبون على اجارته منهم ومنعه من اذابته والوصول إليه فألقى إليه عبد المؤمن ما عنده من الترغيب وأدى إليه رسالة طلبة العلم بتلمسان وشأنه غير شأنهم وعكف عبد المؤمن على التعليم والاخذ عنه في ظعنه ومقامه وارتحل إلى المغرب في صحابته وصدق في العلم وأثره الامام بمزيد الخصوصية والقرب بما خصه الله به من الفهم والرعى للتعليم حتى كانه خالصة الامام وكنز صحابته وكان مؤمله لخلافته لما ظهر عليه من الشواهد المدونة بذلك ولما اجتازوا في طريقهم إلى المغرب بالنعالية من موطن الغرب الذين ذكرناهم قبل في نواحي المدينة قربوا إليه حمارا فارها يتخذه له عطية لمركوبه فكان يؤثر به عبد المؤمن ويقول لاصحابه اركبوه الحمار يركبكم الخيول المسومة ولما بويغ له هرغة سنة خمس عشرة وخمسمائة وانفقت على دعوته كلمة المصامدة وحاربوا لمتونة نازلوا مراكش وكانت بينهم في بعض أيام منازلتها حرب شديدة هلك فيها من الموحدين الالف فقبل للامام ان الموحدين قد هلكوا فقال لهم ما فعل عبد المؤمن قالوا هو على جواده الادهم قد أحسن البلاء فقال ما بقى عبد المؤمن فلم يهلك أحد ولما احتضر الامام سنة ثنتين وعشرين عهد بخلافته في أمره لعبد المؤمن واستراب من العصبية بين المصامدة فكنم موت المهدي وأرجى أمره حتى صرح الشيخ أبو حفص أمير هنتانة وكبير المصامدة لمصاهرتة وأمضى عهد الامام فيه فقام بالامر واستبد شياخة الموحدين وخلافة المسلمين ونهض سنة سبع وثلاثين إلى فتح المغرب فدانت له غمارة ثم ارتحل منها إلى الريف ثم إلى بطوية ثم إلى مطالة ثم إلى بنى يزناسين ثم إلى مديونة ثم إلى كومية وجيرانهم ولهاصة وكانوا يلونهم في الكثرة فاشتد عضده بقومه ودخلوا في أمره وشايعوه على تمكين سلطانه بين الموحدين وخلافته ولما رجع إلى

[١٢٨]

المغرب وافتتح امصاره واستولى على مراكش استدعى قومه للرحلة إليها والعسكرة عليه بحب جمهورهم إلى المغرب واستوطن مراكش لحمل سرير الخلافة والقيام بأمر الدعوة والذب عن ثغورهم والمدافعة فاعتضد بهم عبد المؤمن وبنوه سائر الدولة وكانوا بمكانتهم فاتحة الكتاب وتداركه الجماعة وتقدموا في الفتوح والعساكر وأكلتهم الاقطار في تجهز الكتائب وتوزع الممالك فانقرضوا وبقي بمواطنهم الاولى بقايا منهم بنو عابد وهم في عداد القبائل القارمة قد انقلب زمانهم فأمهلمهم فحملوا المغرب وألفوا نهوضهم بالتكاليف ونظموا مع جيرانهم ولهاصة في سوم الخسف والذل واقتضاء الخراج بالنكال والعذاب والله مبدل الامر ومالك الملك سبحانه { الخبر عن زاوة وزواغة من بطون ضرسة من البرابر البتر والامام ببعض أحوالهم } هؤلاء البطون من بطون البرابرة البتر من ولد سمكان بن يحيى بن ضرى بن زحيك بن مادغيس الابتر وأقرب ما إليهم من البرابر زناته لان أباهم جاقا هو أخو سمكان ابن أبيه لذلك كانوا ذوى قربى لهم * (زاوة) * فأما زاوة فهم من بطونهم وقد

يقال ان زاووة من قبائل كتامة ذكر ذلك ابن حزم ونسابة البربر انما يعدونهم من ولد سمكن كما قلناه والصحيح عندي ما ذكره ابن حزم ويشهد له الموطن ونحلة الشيع مع كتامة لعبد الله وعد نسابة البربر ولهم بطون كثيرة بنو مجسطة وبنو مليكش من صنهجة والله أعلم ومن قبائلهم المشهورة لهذا العهد بنو بحرو وبنو ما بكلات وبنو مترون وبنو مانى وبنو بو عردان وبنو تورغ وبنو بو يوسف وبنو عيسى وبنو بو شعيب وبنو صدقة وبنو غبرين وبنو كسطولة ومواطن زاووة بنواحي بجاية ما بين مواطن كتامة وصنهجة أوطنوا عنها جبالا شاهقة متوعرة تنذر منها الابصار ويضل في غمرها السالك مثل بنى غبرين بجبل زبرى وفيه شعراء من شجر الزان يشعر بها لهذا العهد ومثل بنى فرلوسين وبنى سراو جبلهم ما بين بجاية وتدلس وهو أعظم معاقلهم وأمنع حصونهم فلهم به الاعتزاز على الدول والخيار عليها في اعطاء المغرم مع أن كلهم لهذا العهد قد امتنع لساهمه واعتز على السلطان في ابناء طاعته وقانون مزاجه وكانت لهم في دولة صنهجة مقامات مذكورة في السلم والحرب بما كانوا أولياء لكتامة وظهر أولهم على أمرهم من أول الدولة وقتل بادس بن المنصور في احدى وقائعه بهم وشيخهم رمري ابن اجانا لاتهامه أباه عامر حماداتهم واختط بنو حماد بعد ذلك بجاية وتمرسوا بهم فانقادوا واذعنوا لهم إلى آخر الدولة واتصل اذغانهم إلى هذا العهد أيضا ويحملهم عليه الموثقون بمنعه خيالهم وكانت رئاسة بنى يراين منهم في بنى عبد الصمد من بيوتاتهم

[١٢٩]

وكتب عبد ثعلب السلطان أبو الحسن على المغرب الاوسط شيخة عليهم من بنى عبد الصمد هؤلاء اسمها شمسي وكان لها عشرة من الولد فاستفحل شأنها بهم وملكت عليهم أمرهم ولما تقبض السلطان أبو الحسن على ابنه يعقوب الممكنى بأبى عبد الرحمن عندما فر من معسكره بمخنقه سنة ثمان أو سبع وثلاثين وسرح في أثره الخيالة فرجعوه واعتقله ثم قتله من بعد ذلك حسبا يذكر في أخبارهم لحق حينئذ بنى يراين هؤلاء خازن من بطحة فموه عليهم باسمه وسند سمثاله ودعا إلى الخروج على ابنه بزعمه فشمرت شمسي هذه عزائمها في اجازته وحملت قومها على طاعته وسرب السلطان أبو الحسن أمواله في قومها وهما على السلامة فابته ثم نمت إليها الخبر بمكره وتمويهه فنبذت إليه عهده وخرج عنها إلى بلاد العرب كما نذكر بعض ذلك في أخبارهم وقدمت على السلطان أبى الحسن في وفد من قومها وبعض بنينا فاستبلغ السلطان من تكرمها وأحسن صلتها وأجاز الوفد ورجعت بهم إلى موطنها ولم تزل الرئاسة في هذا البيت * (زواغة) * وأما زواغه فلم يتأد الينا من أخبارهم وتصاريف أحوالهم ما نعمل فيه الاقلام ولهم ثلاثة بطون وهى دمر بن زواغ وهراوطيل بن زحيك بن زواغ وبنو ماخر تبغون من زواغة ومن دمرس سمكن وهم أوزاع في القبائل ومنهم بنواحي طرابلس مفترقون في براريها ولهم هالك الجبل المعروف بدمر وفى جهات قسنطينة أيضا رهط من زواغة وكذلك بجبال شلف هراوطيل منهم وبنواحي فاس آخرون والله الخلق والامر { الخبر عن مكناسة وسائر بطون بنى ورصطف وما كان لمكناسة من الدول بالمغرب وأولية ذلك وتصاريفه { كان لورصطف بن يحيى وهو أخو جانا بن يحيى وسمكن بن يحيى ثلاثة من البيطون وهم مكناسة وورتناجة واوكتة ويقال مكنه وبنو ورتناجة أربعة بطون سدرجة ومكسه ومطاسة وكوسطه وزاد سابق وأصحابه في بطونهم هناطة وفولالة وكذلك عدوا في بطون مكنه بنى درطين وبنى فولالين وبنى يزين وبنى جرين وبنى بو عال ولمكناسة عندهم أيضا بطون كثيرة منها وصولات وبوحاب وبنو ورفلاس وبنو وردنوس وقيصاره ونبعه وورقطنة ويطون ورصطف كلهم مندرجون في بطون مكناسة وكانت مواطنهم على وادى ملوية من ولدن أعلاه سجلماسة إلى مصبه في البحر

وما بين ذلك من نواحي تازا وتسول وكانت رياستهم جميعا في بنى ايا بيرون واسمه مجدول بن ناقريس بن فراديس ابن ونيف بن مكناس وأجاز منهم إلى العدو عضد الصلح أمم وكانت لهم بالاندلس رياسة وكثرة وخرج منهم على عبد الرحمن الداخل شعيا بن عبد الواحد سنة احدى وخمسين واعتصم يستم به ودعا لنفسه منتسبا إلى الحسن بن على ويسمى عبد الله بن محمد

[١٣٠]

يلقب الشيعة ومصاله بن حبوس من منازل اتصل بعبيد الله الشيعي وكان من أعظم فواده وأوليائه رولاه بالغرب وافتتح له المغرب وفاس وسجلماسة ولما هلك أقام أخاه برصلتين بن حبوس مقامه في ولاية تاهرت والمغرب ثم هلك وأقام ابنه حميدا مقامه فانحرف عن الشيعة ودعا لعبد الرحمن الناصر واجتمع مع بنى حرزا من أحراره على ولايته المروانية ثم أجاز إلى الاندلس وولى الولايات أيام الناصر وابنه الحكم وولى في بعضها تلمسان بدعوتهم ثم هلك وأقام ابنه لرصل بن حميد وأخوه يباطن ابن برصلتين وعلى ابن عمه من ماله في ظل الدولة الاموية إلى أن أجاز المظفر بن أبى عامر إلى المغرب فولى يصل بن حميد سجلماسة كما نذكر ثم رياسة مكناسة بالعدوة انقسمت في بنى أبى نزول وانقسمت مسايل مكناسة بانقسامها وصارت رياسة مكناسة في مواطن سجلماسة وما إليها من بنى واسول بن مصلان بن أبى نزول ورياسة مكناسة بجهات تازا وتوسول وملوية ومليله لبنى أبى العافية بن أبى نائل بن أبى الضحك بن أبى نزول ولكل واحد من هذين الفريقين في الاسلام دولة ولمطاط صاروا به في عداد الملوك كما نذكره * (الخبر عن دولة بنى واسول ملوك سجلماسة وأعمالها من مكناسة) * كان أهل مواطن سجلماسة من مكناسة يدينون لأول الاسلام بدين الصغرية من الخوارج لقنوه عن أئمتهم ورؤسهم من المغرب لما لحقوا من المغرب وأسروا على الامتناع وماجت أقطار المغرب لفتنة ميسرة فلما اجتمع على هذا المذهب زهاء أربعين من رجالاتهم نقضوا طاعة الحفاد وولوا عليهم عيسى بن يزيد الأسود من موالى العرب ورؤس الخوارج واختطوا مدينة سجلماسة لاربعين ومائة من الهجرة ودخل سائر مكناسة من أهل تلك الناحية في دينهم ثم سخطوا أميرهم عيسى ونقموا عليه كثيرا من أحواله فشدوه كفاحا ووضعوه على فنة جبل إلى أن هلك سنة خمس وخمسين واجتمعوا بعده على كبيرهم أبى القاسم سمو بن واسول بن مصلان بن أبى نزول كان أبوه يتحقق من حملة العلم ارتحل إلى المدينة فادرك التابعين وأخذ عن عكرمة مولى بن عباس ذكره عريب بن حميد في تاريخه وكان صاحب ماشية وهو الذى بايع لعيسى ابن يزيد وحمل قومه على طاعته فبايعوه من بعده وقاموا بأمره إلى أن هلك سنة سبع وستين ومائة لمنتهى عشر سنين من ولايته وكان أباضيا صغريا وخطب في عمله للمنصور والمهدى من بنى العباس ولما هلك ولوا عليهم ابنه الياس وكان يدعى بالوزير ثم انتقضا عليه سنة أربع وتسعين فخلعوه وولوا مكانه أخاه اليسع بن أبى القاسم وكسه بن منصور فلم يزل أميرا عليهم وبنى سور سجلماسة لاربع وثلاثين سنة من ولايته وكان صغريا وعلى عهده استفحل ملكهم بسجلماسة وهو الذى أتم بناءها وتشبيدها واختط بها

[١٣١]

المصانع والقصور وانتقل إليها آخر المائة الثانية ودوخ بلاد الصغرا وأخذ اقليم من معادن درعة وأصهر لعبد الرحمن بن رستم صاحب تاهرت بابنه مدرار في ابنته أروى فانكحه اياها ولما هلك سنة ثمان ومائتين

ولى بعده ابنه مدرار ولقبه المنتصر وطال أمر ولايته وكان له ولدان اسم كل واحد منهما ميمون أحدهما لا روى بنت عبد الرحمن بن رستم وقيل ان اسمه أيضا عبد الرحمن والآخر لبغى وتنازع في الاستبداد على أبيه ودامت الحرب بينهما ثلاث سنين وكانت لابيها مدرار صاغية إلى أن اردى فجال معه حتى غلب فاخذه وأخرجه عن سجلماسة ولم يلبث أن خلع أباه واستبد بأمره ثم ساءت سيرته في قومه ومدينته فخلعوه وصار إلى درعة وأعادوا مدرارا إلى أمره ثم حدث نفسه باعادة ابنه ميمون بن الرستمية إلى امارته بصاغية إليه فخلعوه ورجعوا ابنه ميمونا من البغى وكان يعرف بالامير ومات مدرار اثر ذلك سنة ثلاث وخمسين لخمس وأربعين من ملكه وأقام ابنه ميمون في استبداده إلى أن هلك سنة ثلاث وستين وولى ابنه محمد وكان أباضيا وتوفي سنة سبعين فولى اليسع بن المنتصر وقام بأمره ولحق عبيد الله الشيعي وابنه وأبو القاسم بسجلماسة لعهد وأوعد المعتضد إليه في شانهما وكان على طاعته فاستراب بهما وحبسهما إلى أن غلب الشيعي بنى الاغلب وملك رقاده فرحف إليه لاستخرج عبيد الله وابنه من محبسه وخرج إليه اليسع في قومه مكناسة فهزمه أبو عبد الله الشيعي واقتحم عليه سجلماسة وقتله سنة ست وتسعين واستخرج عبيد الله وابنه من محبسهما وبيع لهما وولى عبيد الله المهدي على سجلماسة ابراهيم بن غالب المراسى من رجالات كتامة وانصرف إلى افريقية ثم انتقض أمراء سجلماسة على واليهم ابراهيم فقتلوه ومن كان معه من كتامة سنة ثمان وتسعين وبايعوا الفتح بن ميمون الامير ابن مدرار ولقبه واسول وميمون ليس هو ابن البغى الذي تقدم ذكره وكان أباضيا وهلك قريبا من ولايته لرأس المائة الثالثة فولى أخوه أحمد واستقام أمره إلى أن زحف مصالة بن حبوس في جموع كتامة ومكناسة إلى المغرب سنة تسع وثلاثمائة فدوخ المغرب وأخذهم بدعوة صاحبه عبيد الله المهدي وافتتح سجلماسة وتقبض على صاحبها أحمد بن ميمون بن مدرار وولى عليها ابن عمه المعتز بن محمد ابن ساور بن مدرار فلم يلبث ان استبد وبلغها المعتز وهلك سنة احدى وعشرين قبيل ملك المهدي وولى من بعده ابنه أبو المنتصر محمد بن المعتز فمكث عشرا ثم هلك وولى من بعده ابنه المنتصر سمكو شهرين وكانت جدته تدبر أمره لصغره ثم ثار عليه ابن عمه محمد ابن الفتح بن ميمون الامير وتغلب عليه وشغب عليه بنو عبيد الله لفتنة ابن أبي العافية وتاهرت ثم نقلته إلى أبى يزيد بعدهما فدعا محمد بن الفتح لنفسه بحواغا بالدعوة لبنى

[١٣٢]

العباس وأخذ بمذاهب أهل السنة ورفض الخارجية ولقب الشاكر بالله واتخذ السكة باسمه ولقبه وكانت تسمى الدراهم الشاكرية كذا ذكره ابن حزم وقال فيه وكان غاية العدل حتى إذا فرغ له بنو عبيد وحمت الفتنة زحف جوهر الكاتب أيام المعز لدين الله في جموع كتامة وصنهاجة وأولياهم إلى المغرب سنة سبع وأربعين فغلب على سجلماسة وملكها وفر محمد بن الفتح إلى حصن تاسكرات على أميال من سجلماسة وأقام به ثم دخل سجلماسة متنكرا فعرفه رجل من مضجرة وأنذر به فتقبض عليه جوهر وقاده أسيرا إلى القيروان مع أحمد بن بكر صاحب فاس كما تذكره وقفل إلى القيروان فلما انتقض المغرب على الشيعة وفشت بدعة الامية وأخذ زناة بطاعة الحكم المنتصر ثار بسجلماسة فاتم من ولد الشاكر وباهى المنتصر بالله ثم وثب عليه أخوه أبو محمد سنة ثنتين وخمسين فقتله وقام بالامر مكانه وبلغها المعتز بالله وأقام على ذلك مدة وأمر مكناسة يومئذ قد تداعى إلى الانحلال وأمر زناة قد استفحل بالمغرب عليهم إلى أن زحف حرزون بن فلحول من ملوك مغراوة إلى سجلماسة سنة ست وستين وأبرز إليه أبو محمد المعتز فهزمه حرزون وقتله واستولى على بلده وذخيرته وبعث برأسه إلى قرطبة

مع كتاب الفتح وكان ذلك لأول حجابة المنصور بن أبي عامر فنسب إليه واحتسب له لجدًا بقية وعقد لحرزون على سجالمة فقام دعوة هشام بأنحائها فكانت أول دعوة أقيمت لهم بالامصار في المغرب الأقصى وانقرض أمر بنى مدرار ومكناسة من المغرب أجمع وأدال منهم بمغراوة وبنى يفرن حسيما يأتي ذكرهم في دولتهم والامر لله وحده وله البقاء سبحانه وتعالى

[١٣٤]

{ الخبر عن دولة بنى أبي العافية ملوك تسول من مكناسة وأولية أمرهم وتصريف أحوالهم { كان مكناسة من أهل مواطن ملوية وكرسيف ومليلة وما إليها من التلول بنواحي تازا وتسول والكل يرجعون في رياستهم إلى بنى أبي باسل بن أبي الضحاك بن أبي نزول وهم الذين اختطوا بلد كرسيف ورباط تازا ولم يزالوا على ذلك من أول الفتح وكانت رياستهم في المائة الثالثة لمصالة بن حبوس وموسى بن أبي العافية بن أبي باسل واستفحل أمرهم في أيامه وعظم سلطانهم وتغلبوا على قبائل البربر بأنحاء تازا إلى الكاي وكانت بينهم وبين الادارسة ملوك المغرب لذلك العهد فتن وحروب وكانوا يقتلونهم على كثير من ضواحيها لما كان نزل بدولتهم من الهرم ولما استولى عبيد الله على المغرب واستفحل أمره كانوا من أعظم أوليائه وشيعه وكان مصالة بن حبوس من أكبر قواده لانحياشه إليه وولاه على مدينة تاهرت والمغرب الأوسط ولما زحف مصالة إلى المغرب الأقصى سنة خمس وثلاثمائة واستولى على فاس وعلى سجالمة وفرغ من شأن المغرب واستنزل يحيى بن ادريس من امارته بفاس إلى طاعة عبيد الله وأبقاه أميراً على فاس عقد حينئذ لابن عمه موسى بن أبي العافية أمير مكناسة على سائر ضواحي المغرب وأمصاره مضافة إلى عمله من قبل تسول وتازا وكرسيف وقبل مصالة إلى القيروان وقام موسى بن أبي العافية بأمر المغرب وناقضه يحيى بن ادريس صاحب فاس لما يطعن له من المظاهرة عليه فلما عاود مصالة غرق المغرب سنة تسع أنزل ابن أبي العافية يحيى بن ادريس فتقبض عليه واستصفاه وطرده عن عمله فلحق بينى عمه بالبصرة والريف وولى مصالة على فاس ريجان الكتامي وقفل إلى القيروان فهلك وعظم ملك ابن أبي العافية بالمغرب ثم ثار بفاس سنة ثلاث عشرة الحسن بن محمد بن القاسم بن ادريس وكان مقداما شجاعا وتلفت لطفه في المحاجر دخل فاس على حين غفلة من أهلها وقتل ريجان واليهما واجتمع الناس على بيعته ثم خرج لقتاله ابن أبي العافية فتزاحفوا لحفص بفحص إذا ماد بين تازا وفاس ويعرف لهذا العهد بوادي المطاحن واشتدت الحرب بينهم وهلك منهال بن موسى بن أبي العافية في الفتن من مكناسة ثم كانت العاقبة لهم وانفض عسكر الحسن ورجع مغلولاً إلى فاس فغدر به عامله على عدوة القرويين حامد ابن حمدان الهمداني واستمكن من عاقله واستحث ابن أبي العافية للقدوم وأمكته من البلد وزحف إلى عدوة الاندلس فملكها وقتل عاملها عبد الله بن ثعلة بن محارب ابن محمود وولى مكانه أخاه محمدا وطالب حامدا بصاحبه الحسن ففسد إليه حامد بالفرار تجافيا عن دعاء أهل البيت وتدلّى الحسن من السور فسقط وانكسر ساقه

[١٣٥]

ومات مستخفيا بعدوة الاندلس لثلاث ليال منها وحذر حامد من سطوة أبي العافية فلحق بالمهدية واستولى ابن أبي العافية على فاس والمغرب أجمع وأجلى الادارسة عنهم وألجأهم إلى حصنهم بقلعة حجر النسر مما يلي البصرة وحاصروهم بها مرارا ثم خرجت

العساكر وخلف فيهم قائده أبا الفتح فحاصروهم ونهض إلى تلمسان سنة تسع عشرة بعد ان استخلف على المغرب الاقصى ابنه مدين وأنزله بعدوة القرويين واستعمل على عدوة الاندلس طول بن أبي يزيد وعزل بن محمد بن ثعلبة وزحف إلى تلمسان فملكها وغلب عليها صاحب الحسن بن أبي العيش بن عيسى بن ادريس بن محمد ابن سليمان من عقب سليمان بن عبد الله أخى ادريس الاكبر الداخل إلى المغرب بعده فغلب موسى بن أبي العافية الحسن على تلمسان وأرجعه عنها إلى مليلة من جزائر ملوية ورجع إلى فاس وقد كان الخليفة الناصر لما فشت دعوته بالمغرب خاطبه بالمقاربة والوعد فسارع إلى اجابته ونقض طاعة الشيعة وخطب للناصر على منابر عمله فسرح إليه عبد الله المهدي قائده ابن أخى مصالة وهو حميد بن يصلت المكناسى قائد تاهرت فزحف في العساكر إلى حرمة سنة احدى وعشرين ولقيه موسى بن أبي العافية بفحص مسون فتزاحفوا أياما ثم لقيه حميد فهزمه ولحق ابن أبي العافية بتسول فامتنع بها وأفرج قائده أبو الفتح عن حصن الادارسة فاتبعوه وهزموه ونهبوا معسكره ثم نهض حميد إلى فاس ففر عنها أعزل بن موسى إلى ابنه واستعمل عليها حامد بن حمدان كان في جملته وقفل حميد إلى افريقية وقد ذوخ المغرب ثم انتفض أهل المغرب على الشيعة بعد مهلك عبيد الله وثار أحمد بن بكر بن عبد الرحمن بن سهل الجذامي على حامد بن حمدان فقتله وبعث برأسه إلى ابن أبي العافية فأرسله إلى الناصر بقرطبة واستولى على المغرب وزحف ميسور الخصى قائد أبي القاسم الشيعي إلى المغرب سنة ثلاث وعشرين وخام ابن أبي العافية عن لقائه واعتصم بحصن الكاى ونهض ميسور إلى فاس فحاصرها واستنزل أحمد بن بكر عاملها ثم تقبض عليه وأشخصه إلى المهديّة وبدر أهل فاس بغدره فامتنعوا وقدموا على أنفسهم حسن بن قاسم اللواتى وحاصروهم ميسور مدة حتى رغبوا إلى السلم واشترطوا على أنفسهم الطاعة والاناوة فتقبل ميسور ورضى وأقر حسن بن قاسم على ولايته بفاس وانحل إلى حرب بن أبي العافية فكانت بينهما حروب إلى أن غلبه ميسور فتقبض على ابنه الغورى وغربه إلى المهديّة وأجلى موسى بن أبي العافية عن أعمال المغرب إلى نواحي ملوية ووطاط وما وراءها من بلاد الصحراء وقفل إلى القيروان ولما مر بارشكول خرج إليه صاحبها ملاطفا له بالتحف وهو ادريس بن ابراهيم من ولد سليمان بن عبد الله أخى ادريس الاكبر فتقبض عليه واصطلم نعمته

[١٣٦]

وولى مكانه أبا العيش بن عيسى منهم وأغذ السير لى القيروان سنة أربع وعشرين ورجع موسى بن أبي العافية من الصحراء إلى أعماله بالمغرب فملكها وولى على الاندلس أبا يوسف بن محارب الأزدي وهو الذى مدن عدوة لاندلس وكانت حصونا وأجمل موسى بن أبي العافية قلعة كرماط وخاطب الناصر فبعث إليه مددا من أسطوله وزحف إلى تلمسان ففر عنها أبو العيش واعتصم بارشكول عبارله وغلبه عليها سنة خمس وعشرين ولحق أبو العيش بتكور واعتصم بالقلعة التى بناها هنا لك لنفسه ثم زحف ابن أبي العافية إلى مدينة تنكور فحاصرها مدة ثم تغلب عليها وقتل صاحب عبد البديع بن صالح وخرّب مدينتهم ثم سرح ابنه مدين في العساكر فحاصر أبا العباس بالقلعة حتى عقد له السلم عليها واستفحل أمر ابن أبي العافية في المغرب الاقصى واتصل عمله بعمل محمد بن خزر ملك مغراوة وصاحب المغرب الاوسط وبتوا دعوة الاموية في أعمالها وبعث ابنه مدين بأمره في قومه وعقد له الناصر على أعمال ابنه بالمغرب واتصلت يده بيد الخير بن محمد كما كان بين آبائهما ثم فسد ما بينهما وتزاحفا للحرب وبعث الناصر قاضيه مقدر بن سعد لمشاركة أحوالهما وإصلاح ما بينهما فتم ذلك كما أرادته ولحق به سنة خمس وثلاثين أخوه البورى فارا من عسكر المنصور مع أحمد

بن بكر الجذامي عامل فاس بعد أن لحق بالبريد فسار أحمد بن أبي بكر إلى فاس وأقام بها متنكراً إلى أن وثب بعاملها حسن بن قاسم اللواتي وتخلّى له عن العمل وصار البوري إلى أخيه مدين واقتسم أعمال ابنه معه ومع ابنه الآخر منقذ فكانوا ثلاث الاثافي وأثار الثوري إلى الناصر سنة خمس وأربعين فعقد الناصر لابنه منصور على عمله وكانت وفاته وهو محاصر لأخيه مدين بفاس وأجاز ابنه أبو العيش ومنصور إلى الناصر فأجزل لهما الكرامة على سنن أبيها ثم هلك مدين فعقد الناصر لأخيه أبي منقذ على عمله سنة ثم غلب مغراوة على فاس وأعمالها واستفحل أمرهم بالمغرب وأزاحوا مكناسة عن ضواحيه وأعماله وساروا إلى مواطنهم وأجاز اسمعيل بن الثوري ومحمد بن عبد الله بن مرين إلى الأندلس فنزلوا بها إلى أن جازوا مع واضح أيام المنصور كما مر عندما نهض زيري بن عطية طاغيتهم سنة ست وثمانين فملك واضح المغرب ورجعهم إلى أعمالهم وتغلب ملكين بن زيري على المغرب الأوسط وغلب عليه ملوكة بن خزر من مغراوة فاتصلت يد مكناسة ولم يزالوا في طاعة بني مزیدی ومظاهرتهم وهلك اسمعيل بن الثوري في حروب حماد مع باديس يشلف سنة خمس وأربعمئة وتوارث ملكهم في اعقاب موسي إلى أن ظهرت دولة المرابطين وغلب يوسف بن تاشفين على أعمال المغرب فزحف إليهم القاسم بن محمد بن عبد الرحمن

[١٣٧]

ابن ابراهيم بن موسى بن أبي العافية فاستدعى أهل فاس وصرخ زناة بعد مهلك معصرة المغراوى فلقى عساكر المرابطين بوادي صفر فهزمهم وزحف إليه يوسف ابن تاشفين من مكانه فحاصر قلعة فازاز فهزم القاسم بن محمد وجموع مكناسة وزناة ودخل فاس عنوة كما ذكرناه في أخباره ثم زحف إلى أعمال مكناسة فاقترح الحصن وقتل القاسم وفي بعض تواريخ المغرب أن مهلك ابراهيم بن موسى كان سنة خمس وأربعمئة وولى ابنه عبد الله أبو عبد الرحمن وهلك سنة ثلاثين وولى ابنه محمد وهلك سنة ست وأربعين وولى ابنه القاسم وهلك سول عند افتتاح لمتونة عليه سنة ثلاث وستين وانفض ملك مكناسة من المغرب بانقراض ملك مغراوة والامر لله وحده وهى من قبائل مكناسة لهذا العهد بهذه المواطن افريق في جبال تازا بعد ما شرست بهم الدول وأناخت بساحتهم الامم وهم موصوفون بوفور الحمالية وقوة الشكيمة ولهم عناء في مظاهرة الدولة وحقوق عند الحشد والعسكرة وفيهم ميدان من الحمالية ومن مكناسة غير هؤلاء أوزاع في القبائل لهذا العهد مفرقون في نواحي افريقية والمغرب الأوسط إن يشأ يذهبكم ويات بخلق جديد وما ذلك على الله بعزير وهذا آخر الكلام في بني ورصطيف فلنرجع إلى من بقى علينا من البربر وهم زناة والله ولى العون وبه المستعان

[١٣٩]

{ أخبار البرانس من البربر ولنبدأ أولاً بالخبر عن هوارة من شعوبهم وذكر بطونهم وتصاريح أحوالهم وافتراق شعوبهم في عمالات افريقية والمغرب { وهوارة هؤلاء من بطون البرانس باتفاق من نسابة العرب والبربر ولد هوارة بن أوريغ ابن برنس الا ما يزعم بعضهم أنهم من عرب اليمن تارة يقولون من عاملة احدى بطون قضاة وتارة يقولون من ولد المسور بن السكاسك بن وابل بن حمير وإذا تحروا الصواب المسور بن السكاسك بن أشريس بن كندة وينسبونه هكذا هوار بن أوريغ بن جنون بن المثني بن المسور وعند هؤلاء هوارة وصنهاجة ولمطة وكزولة وهسكورة يعرف جميعهم بنى ينهل وان المسور

جدهم جميعا وانه وقع إلى البتر ونزل على بنى زحيك ابن مادغيس
الابتر وكانوا أربعة اخوة لوا وضرا واداس ونفوس وانهم زوجوه أختهم
بصكي العرجاء بنت زحيك فولدت منه المثنى أبا هوارا وتزوجها بعد
المسور بن عافيل ابن زعزاع أبو صنهاجة ولمطة وكزولة وهسكورة
كما يأتي فيما بعد أنهم اخوة المثنى لامة وبها عرف جميعهم قالوا
وولد المثنى بن المسور خبوز وولد خبوز بن المثنى ريغ الذي يقال
فيه أوريج بن برنس ومنه عرفت قبائل هوارا قالوا انما سميت هوارا
لان المسور لما جال البلاد ووقع في المغرب قال لقد تهورنا هكذا
عند بعض نسابة البربر وعندني والله أعلم ان هذا الخبر مصنوع وان
أثر الصنعة باد عليه ويعضد ذلك ان المحققين ونسابتهم مثل سابق
وأصحابه قالوا ان بطون اداس بن زحيك دخلت كلها في هوارا من
أجل ان هوارا خلف زحيك على أم اداس فربى اداس في حجره
وزحيك على ما في الخبر الاول هو جد هوارا لأن المثنى جده الاعلى
هو ابن بصكي وهي بنت زحيك فهو الخامس من زحيك فكيف يخلفه
على امراته هذا بعيد والخبر الثاني أصلح عند نسابتهم من الاول *
(وأما بطون) * هوارا فكثير وأكثرهم بنو نيه وأوريج أشهر والنسبة
لشهرته وكبر سنه من بينهم فانتسبوا جميعا إليه وكان لاوريج أربعة
من الولد هوارا وهو أكبرهم ومغر وقلدن ومندر ولكل واحد منهم بطون
كثيرة وكلهم ينسبون إلى هوارا فمن بطون مغراموس وزمور وكباد
وسواى ذكر هذه البطون الاربعة إلى حزم وزاد سابق المطماطى
وأصحابه ورجين ومنداسة وكركوده من بطون قلدن خماصه وورصطيف
وبيانة ويل ذكر هذه الاربعة ابن حزم وسابق ومن بطون مار مليلة
وسطط وروفل واسيل ومسراتة ذكرها ابن حزم وقال جميعهم بنو
لهال بن ملك وكذا عند سابق ويقال ان ورنيفن أيضا من نهانه ومن
بطون هوارا بنو كهلان ويقال ان مليلة من بطونهم وعند نسابة البربر
من بطونهم عريان وورغة وزكاره ومسالاتة ومجريس ويقال ان ورنيفن
منهم ومجريس لهذا العهد ينتسبون إلى ورنيفن وعند سابق وأصحابه

[١٤٠]

أن بنى كهلان وورجين احدى بطون مغروآن من بطون بنى كهلان
بنى كسى ورتاكت ولشوه وهيوار وأما بطون اداس بن زحيك بن
مادغيس الامراء الذين دخلوا في هوارا فكثير فمنهم هراعة وترهوتة
وشتاتة واندائة وهيزونة وأوطيعة وضيرة هؤلاء باتفاق من ابن حزم
وسابق وأصحابه

[١٤١]

وكانت مواطن الجمهور من هوارا هؤلاء ومن دخل في نسبهم من
اخوانهم البرانس والصمغر لاول الفتح بنواحي طرابلس وما يليها من
برقة كما ذكره المسعودي والبكري وكانوا طواعن واهلين ومنهم من
قطع الرمل إلى بلاد الفجر وجاوز المطلة من قبائل المثلثين فيما
يلى بلاد كوكو من السودان تجاه افريقية ويعرفون بنسبهم هكاره
قلبت العجمة واوه كافا أعجمية تخرج بين الكاف العربية والقاف وكان
لهم في الردة وحروبها آثار ومقامات ثم كان لهم في الخارجية والقيام
بها ذكر وخصوصا بالاباضية منها وخرج على حنظلة منهم عبد الواحد
بن يزيد مع عكاشة الفزاري فكانت بينهما وبين حنظلة حروب شديدة
ثم هزمهما وقتلها وذلك سنة أربع وعشرين ومائة أيام هشام بن
عبد الملك وخرج على يزيد بن حاتم سنة ست وخمسين ومائة
يحيى بن فوناس منهم واجتمع إليه كثير من قومه وغيرهم وزحف
إليه قائد طرابلس عبد الله بن السمط الكندل على شاطئ البحر
بسواريه من سواحلهم فانهمزمو وقتل عامة هوارا وكان منهم مع عبد
الرحمن بن حبيب مجاهد بن مسلم من قواده ثم أجاز منهم إلى

الاندلس مع طارق رجالات المذكورون واستقروا هنا لك وكان من خلفهم بنو عامر بن وهب أمير ولده أيام لمتونة وبنو ذى النون الذين ملكوها من أيديهم واستضافوا معها طليطلة وبنو رزين أصحاب السهلة ثم ثارت هوارة من بعد ذلك على ابراهيم بن الاغلب سنة ست وتسعين ومائة وحاصروا طرابلس وافتتحوها فخربوها وتولى كبر ذلك منهم عياض ووهب وسرح ابراهيم إليهم ابنه أبا العباس فهزمهم وقتلهم وبنى طرابلس وحاجا هوارة بعبد الوهاب بن رستم من مكان امارتهم بتاهرت فجلاهم واجمعوا إليه ومعهم قبائل نفوسة وحاصروا أبا العباس بن الاغلب بطرابلس إلى أن هلك أبو ه ابراهيم بالقيروان وقد عهد إليه فصالحهم على أن يكون الصحراء لهم وانصرف عبد الوهاب إلى نفوسة ثم أصبحوا بعد ذلك وغزوا مع الجيوش صقلية وشهد فتحها منهم زواوة من يعم الحلفاء ثم كان لهم مع أبى يزيد النكارلى وفى حروبه مقامات مذكورة اجتمعوا إليه من مواطنهم بجبل أوراس ومر ماجنه لما غلب عليه وأخذ أهلها بدعوته فانحاش إلى ولايته وفعلوا الافاعيل وكان من أظهرهم في تلك الفتنة بنو كهلان ولما هلك أبو يزيد كما نذكره سطا اسمعيل المنصور بهم وأثنى فيهم وانقطع ذكر بنى كهلان ثم جرت الدول عليهم اذبالها وأناخت بكلاكلها وأصبحوا في عداد القبائل الغارمة من كل ناحية فمنهم لهذا العهد بمصر أوزاع متفرقون أوطنوها أكرة وعباره وشاوية وآخرون موطنون ما بين برقة والاسكندرية يعرفون بالمثانية ويطعنون مع الحرة من بطون لهث من سليم بأرض التلول من افريقية ما بين تبسة إلى مزماحة إلى باجة طواعن صاروا في عداد الناجعة

[١٤٢]

عرب بنى سليم في اللغة والذى وسكنى الخيام وركوب الخيل وكسب الابل وممارسة الحروب وابلاف الرحلتين في الشتاء والصفى في تلولهم قد نسوا رطانة البربر واستبدلوا منها بفصاحة العرب فلا يكاد يفترق بينهم فأولهم مما يلى تبسة قبيلة وينفن ورياستهم لهذا العهد في ولد يفرن بن حناش لاولاد دحمان بن فلان بعده وكانت الرياسة قبلهم سارية من بطون وينفن ومواطنهم ببساط مزماحة وتبسة وما اليهما وبينهم قبيلة أخرى في الجانب الشرقي منهم يعرفون بقيصرون ورياستهم في بيت بنى مر من ما بين ولد زعازع وولد حركات ومواطنهم بفحص أبه وما إليها من نواحي الارنس وتليهم إلى جانب الشرق قبيلة أخرى منهم يعرفون بنصورة ورياستهم في بيت الرمامنة لولد سليمان بن جامع منهم ويراد بهم في رياسة نصره قبيلة وربمامة ومواطنهم ما بين تبسة إلى صامته إلى جبل الزنجار إلى اطار على ساحل تونس وبساطها ويجاورهم متساحلين إلى ضواحي باجة قبيلة أخرى من هوار يعرفون بنى سليم ومعهم بطن من عرب نصر من هذيل من مدركة بن الياس جاؤا من مواطنهم بالحجاز مع العرب الهلاليين غد دخولهم إلى المغرب وأوطنوا بهذه الناحية من افريقية واختلطوا بهوارة وحملوا في عدادهم ومعهم أيضا بطن آخر من بطون رياح من هلال ينتمون إلى عتية بن مالك ابن رياح صاروا في عدادهم وجروا على مجراهم والظعن والمغرب ومعهم أيضا بطن من مرداس بنى سليم يعرفون بنى حبيب ويقولون هو حبيب بن مالك وهم غارمة مثل سائر هوارة وضواحي افريقية من هذا العهد معهودة لهؤلاء الطواعن ومعظمهم من هوارة وهم أهل بقروشاء وركوب للخيل وللسلطان بافريقية عليهم وظائف من الجباية وضعها عليهم دهاقين العمال بديوان الخراج قوانين مقررة وتضرب عليهم مع ذلك البعث في غزوات السلطان بعسكر مفروض يحضر بمعسكر السلطان متى استنفروا لذلك ولرؤسائهم آراء ذلك قاطعات ومكان في الدول بين رجالات البدو ويربطون هوارة بمواطنهم الاولى من نواحي طرابلس طواعن وأهلين توزعتهم العرب من دبان فيما توزعوه من الرعايا وغلبوهم على أمرهم منذ ضحا عملهم من ظل الدولة فتملكوهم تملك العبيد

للجباية منهم والاستكثار منهم في الانتجاع والحرب مثل برهونه وورقلة الطواعن ومجريس المواطنين بزر نزور من ونيغن وهي قرية من قرى طرابلس ومن هوارة هؤلاء بأخر عمل طرابلس مما يلي بلد سرت وبرقة قبيلة يعرفون بمسراتة لهم كثرة واعتزاز ووضائع العرب عليهم قليلة ويعطونها من عزة وكثيرا ما ينقلون في سبيل التجارة ببلاد مصر والاسكندرية وفي بلاد الجريد من افريقية وأرض السودان إلى هذا العهد (واعلم) ان في قبلة قايس وطرابلس جبالا متصلا بعضها ببعض من المغرب

[١٤٣]

إلى المشرق فأولها من جانب الغرب جبل دمر يسكنه أمم من لواتة ويتصلون في بسطه إلى فاس وصفاقس من جانب الغرب وأمم أخرى من نفوسة من جانب الشرق وفي طوله سبع مراحل ويتصل به شرقا جبل نفوسة تسكنه أمة كبيرة من نفوسة ومغراوة وسدراته وهو قبلة طرابلس على ثلاث مراحل عنها وفي طوله سبع مراحل ويتصل به من جانب الشرق جبل مسلاتة ويعتمره قبائل هوارة إلى بلد مسراتة وبرقة وهو آخر جبال طرابلس وكانت هذه الجبال من مواطن هوارة ونفوسة ولواتة وكانت هنا لك مدينة صغيرة بلد نفوسة قبل الفتح وكانت برقة من مواطن هوارة هؤلاء ومنهم مكان بنى خطاب ملوك زويلة احدى أمصار برقة كانت قاعدة ملكهم حتى عرفت بهم فكان يقال زويلة بن خطاب ولما خربت انتقلوا منها إلى فزان من بلاد الصحراء وأوطنوها وكان لهم بها ملك ودولة حتى إذا جاء قراموش الغزى الناصري مملوك ثقي الدين ابن أخي صلاح الدين كما نذكر في مكانه عند ذكر الغوري بن مسوفة وأخباره وافتتح ولدوا وجله افتتح فزان بعدها وتقبض على عاملها محمد بن خطاب بن يصلتن بن عبد الله بن صنفل بن خطاب آخر ملوكهم وامتنحه وطالبه بالاموال ويسط عليه العذاب إلى ان هلك وانقرض أمر بنى خطاب هؤلاء الهواريين سارى بن سليم بن عبد الواحد بن عسكر - بن بعرة بن حناس بن ونيغن بن لهاتة بن هوار بعرة بن وامون عدى بن زيتون بن محمد شارن بن سرن بن دحمان

[١٤٤]

(ومن قبائل) هوارة هؤلاء بالمغرب أمم كثيرة في مواطن من أعمال تعرف بهم وطواعن شاوية تنتجع لمسرحها في نواحيها وقد صاروا عبيدا للمغارم في كل ناحية وذهب ما كان لهم من الاعتزاز والمنعة أيام الفتوحات بسبب الكثرة وصاروا إلى الافتراق في الاودية بسبب القلة والله مالك الامور ومن أشهرهم بالمغرب الاوسط أهل الجبل المطل على البطحاء وهو مشهور باسم هوارة وفيه من مسراتة وغيرهم من بطونهم ويعرف رؤساؤهم من بنى اسحق وكان الجبل من قبلهم فيما زعموا لبنى يلومين فلما انقرضوا صار إليه هوارة وأوطنوه وكانت رياستهم في بنى عبد العزيز منهم ثم ظهر من بنى عمهم رجل اسمه اسحق واستعمله ملوك القلعة وصارت رياستهم في عقبه بنى اسحق وحفظ كبيرهم محمد بن اسحق القلعة المنسوبة إليهم وورث رياسته فيهم أخوه حيول وصارت في عقبه واتصلوا بالسلطان أيام ملك بنى عبد الواد على المغرب الاوسط وانتظموا في شرائعهم واستعمل أبو تاشفين من ملوكهم يعقوب بن يوسف بن حيون قائدا على بنى توجين عندما غلبهم على أمرهم وفرض المغارم عليهم فقام بها أحسن قيام ودوخ بلادهم واذل من عزهم وبعد أن غلب بنو مري بنى عبد الواد على المغرب الاوسط استعمل السلطان أبو الحسن عبد الرحمن بن يعقوب على قبيلة هؤلاء ثم استعمل بعده عمه عبد الرحمن ثم ابنه محمد ابن عبد

الرحمن بن يوسف ثم تلاشى حال هذا القبيل وخف ساكن الجبل بما اضطرهم بهم دولة بنى عبد الواد وأصبحت لهم في الظلمات وانقرض نبت بنى اسحق والامر على ذلك لهذا العهد والله وارث الارض ومن عليها * (الخبر عن ازداجة ومسطاسه وعجيسة من بطون البرانس ووصف أحوالهم) * اما ازداجة ويعرفون أيضا وزداجة فمن بطون البرانس وكثير من نسابة البربر يعدونهم في بطون زناتة وقد يقال ان ازداجة من زناتة ووزداجة من هوارة وانهما بطنان مفترقان وكان لهم وفور وكثرة وكانت مواطنهم بالمغرب الاوسط بناحية وهران وكان لهم اعتزاز وأثار في الفتن والحروب ومسطاسة مندرجون معهم فيقال انهم من عداد بطونهم ويقال انهم اخوة مسطاس اخى وزداج والله أعلم وكان من رجالهم المذكورين شجرة بن عبد الكريم المسطاسى وأبو دليم بن خطاب وأجاز أبو دليم إلى الاندلس من ساحل تلمسان وكان لبنيه بها ذكروا في معها قرطبة وكان من بطون ازداجة بنو مشقق وكانا يجاوران مهران ونزل مرس وهران من رجال الدولة الاموية محمد بن أبى عون ومحمد بن عبدون فدخلوا بنى مسكن وملكوا وهران سبع سنين مقيمين فيها للدعوة الاموية فلما ظهرت دعوة الشيعة وملك عبيد الله المهدي تاهرت وولى عليها دواس بن مولاة للقيط من كتامة وأخذت البرابرة بدعوتهم أوعزدواس بحصار

[١٤٥]

وهران فرجعوا إليها سنة سبع وتسعين وأدخلوا بنى مسكن في ذلك فأجابوهم وفر محمد بن أبى عون فلحق بدواس وصولات والسحب ومعراق وأضرمت نارا ثم حدد بناءها دواس وأعاد محمد بن أبى عون إلى ولايتها فعدت أحسن ما كانت وأمراء تلمسان لذلك العهد ثم ولي على تاهرت أيام أبى القاسم بن عبد الله أيا ملك يغمراسن بن أبى سحمة وانتقض عليه البربر فحاصروه عند زحف ابن أبى العافية إلى المغرب الاوسط بدعوة المروانية وكان ممن أخذ بها محمد بن أبى عون صاحب وهران وأبو القاسم ميسور فولاه إلى المغرب وراجع طاعته إلى المروانية ثم كان بشأن أبى يزيد وانتقاض سائر البرابرة على العبيديين واستفحل أمر زناتة وأخذ بدعوة المروانيين وكان الناصر عقد ليعلى بن أبى محمد النفزى على المغرب فخاطبه بمراوغة محمد بن ابن عون وقبائل ازداجة في الطاعة للعداوة بين القبيلتين بالمجاورة وزحف إلى ازداجة فحصرهم بجبل كيدرة ثم تغلب عليهم واستاصلهم وفرق جماعتهم وذلك لسنة ثلاث وأربعين وثلثمائة ثم زحف إلى وهران ونزلها ثم افتتحها عنوة وأضرمها نارا واستلحم ازداجة ولحق رياستهم بالاندلس فكانوا بها وكان منهم حزون بن محمد من كبار أصحاب المنصور بن أبى عامر وابنه المظفر وأجاز إلى المغرب وبقي ازداجة بعد ذلك على حال من الهزيمة والمذلة وانتظموا في عداد الغارم من القبائل (وأما العجيسة) وهم من بطون البرانس من ولد عجيسة من برنس ومدلول هذا الاسم البطن فان البربر يسمون البطن بلغتهم عدس بالبدال المشددة فلما عربتها العرب قلبت دالها جيما مخففة وكان لهم بين البربر كثرة وظهور وكانوا مجاورين في بطونهم لصنهاجة وبقاياهم لهذا العهد في ضواحي تونس والجبال المطلة على المسيلة وكانت منهم يسكنون جبل القلعة وكان لهم في فتنة أبى يزيد ولما هزمهم المنصور لجأ إليهم واعتصم بقلعة كتامة من حصونهم حتى اقتحم عليه ثم بادر حماد بن بلكين من بعد ذلك مكانا لبناء مدينة فاخططها بينهم ونزلها ووسع خطتها واستبحر عمرانها وكانت حاضرة لملك آل حماد فاخلفت هذه المدينة من مدة عجيسة لما تمرست بهم وخضت من شوكتهم وراموا كيد القلعة مرارا وأجلبوا على ملوكها بالاعياص منهم فاستلحمهم السيف ثم هلكوا وهلكت القلعة من بعدهم وورثت مواطنهم بذلك الجبل عياض من أفريق العرب الهلاليين وسعى الحمل منهم وفى القبائل بالمغرب

كثير من عجيسة هؤلاء مفترقون فيهم والله أعلم { الخبر عن أوربة
من بطون البرانس وما كان لهم من الردة والثورة وما صار لهم من
الدعاء لادريس الاكبر }

[١٤٦]

كانت البطون التي فيها الكثرة والغلب من هؤلاء البربر البتر كلهم
لعهد الفتح أوربة وهوارة وصنهاجة من البرانس ونفوسة وزناتة
ومطعرة ونغزاوة من البتر وكان التقدم لعهد الفتح لاوربة هؤلاء بما
كانوا أكثر عددا وأشد بأسا وقوة وهم من ولد أورب بن برنس وهم
بطون كثيرة فمنهم بجاية ونفاسة ونجد وزهكوجة ومزياتة ورغبيوتة
وديقوسة وكان أميرهم بين يدي الفتح ستردير بن رومي بن بارزت
بن بزريات ولى عليهم مدة ثلاث وسبعين سنة وأدرك الفتح
الاسلامي ومات سنة احد وسبعين وولى عليهم من بعده كسيلة
بن لزم الأوربي فكان أميرا على البرانس كلهم ولما نزل ابن المهاجر
تلمسان سنة خمس وخمسين كان كسيلة بن لزم مرتادا بالمغرب
الاقصى في جموعه من أوربة وغيرهم فظفر به أبو المهاجر وعرض
عليه الاسلام فأسلم واستنقذه وأحسن إليه وصحبه وقدم عقبة في
الولاية الثانية أيام يرید سنة ثنتين وستين فاضطغن عليه صحابته
لابي المهاجر وتقدم أبو المهاجر في اصطناعه فلم يقبل وزحف إلى
المغرب وعلى مقدمته زهير بن قيس البلوى فدوخه ولقيه ملوك
البربر ومن انضم إليه من الفرنجة بالزاب وتاهرت فهزمهم واستباحهم
وأذعن له بليان أمير غمارة ولاطفه وهاداه ودله على عوارات البرابرة
ورداه بوليلة والسوس وما والاهما من مجالات المثلثين فغنم وسبى
وانتهى إلى ساحل البحر وقفل ظافرا وكان في غزاة تلك يستهين
كسيلة ويستخف به وهو في اعتقاله وأمره يوما بسلخ شاة بين
يديه فدفعها إلى غلماته وأراده عقبة على أن يتولاها بنفسه وانتهره
فقام إليها كسيلة مغضبا وجعل كل ما دس يده في الشاة مسح
بلحيته والعرب يقولون ما هذا يا بربري فيقول هو أجير فيقول لهم
شيخ منهم ان البربري يتوعدكم وبلغ ذلك أبا المهاجر فنهى عقبة
عنه وقال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستألف جبابرة
العرب وأنت تعمد إلى رجل جبار في قومه بدار عزه قريب عهد
بالشرك متفسد وأشار عليه بأن يوثق منه وخوفه فتكه فتهاون عقبة
بقوله فلما قفل عن غزاته وانتهى إلى طينة صرف العساكر إلى
القيروان أفواجا ثقة بمادوخ من البلاد وأذل من البربر حتى بقى في
القليل وسار إلى تهودة لينزل بها الحامية فلما نظر إليه الفرنجة
طمعوا فيه وراسلوا كسيلة بن لزم ودلوه على الفرصة فيه فانتزها
وراسل بنى عمه ومن تبعهم من البربر واتبعوا عقبة وأصحابه رضى
الله عنه حتى إذا غشوه بتهودة ترجل القوم وكسروا أجفان سيوفهم
ونزل الصبر واستلحم عقبة وأصحابه رضى الله عنهم ولم يفلت منهم
أحد وكانوا زهاء ثلثمائة من كبار الصحابة والتابعين استشهدوا في
مصرع واحد وفيهم أبو المهاجر كان أصحابه في اعتقاله فأبلى رضى
الله عنه في ذلك اليوم البلاء الحسن وأجدات الصحابة رضى الله
عنهم أولئك الشهداء عقبة وأصحابه

[١٤٧]

بمكانهم ذلك من أرض الزاب لهذا العهد وقد جعل على قبر عقبة
اسنمة ثم حصص واتخذ عليه مسجد عرف باسمه وهو في عداد
المزارات ومطان البركة بل هو أشرف مزور من الاجداث في بقاع
الارض لما توفر فيه من عدد الشهداء من الصحابة والتابعين الذين لا
يبلغ أحد مد احدهم ولا نصيفه وأسر من الصحابة يومئذ محمد بن
أوس الانصاري ويزيد بن خلف العبسى ونفر معهم ففداهم ابن مصاد

صاحب قفصة وكان زهير بن قيس البلوي بالقيروان وبلغه الخبر فخرج هاربا وارتحل بالمسلمين ونزل برقة وأقام بها ينتظر المدد من الخلفاء واجتمع إلى كسيلة جميع أهل المغرب من البربر والفرنجة وزحف إلى القيروان فخرج العرب منها ولحق بزهير بن قيس ولحق بها أصحاب الذراري والاثقال فامنهم وداخل القيروان وأقام أميراً على أفريقية ومن بقى بها من العرب خمس سنين وقارن ذلك مهلك يزيد بن معاوية وفتنة الضحاك بن قيس مع المروانية بمرج راهط وحروب آل الزبير فاضطرب أمر الخلافة بعض الشئ واضطرم المغرب نارا وفشت الردة في زناتة والبرانس ثم استقل عبد الملك بن مروان من بعد ذلك وأذهب بالمشرك آثار الفتنة وكان زهير بن قيس مقيماً منذ مهلك السلطان عقبة فبعث إليه بالمدد وولاه حرب الجبابرة والنار بدم عقبة فزحف إليها في آلاف من العرب سنة سبع وستين وجمع كسيلة البرانس وسائر البربر ولقيه بجيش من نواحي القيروان واشتد القتال بين الفريقين ثم انهزم البربر وقتل كسيلة ومن لا يحصى منهم واتبعهم العرب إلى مرماجنة ثم إلى ملوية وذال البربر ولجأوا إلى القلاع والحصون وحدث شوكة أوربة من بينهم واستقر جمهورهم بديار المغرب الأقصى فلم يكن بعدها لهم ذكر واستولوا على مدينة ولىلى بالمغرب كانت ما بين موضع فاس ومكناسة بجانب جبل زرهون وأقاموا على ذلك والجيوش من القيروان تدوخ المغرب مرة بعد أخرى إلى أن خرج محمد بن عبد الله ابن حسن بن الحسن بن علي أيام المنصور وقتل بالمدينة سنة خمس وأربعين ثم خرج بعده ابن عمه حسين بن علي بن حسن المثلث ابن حسن المثنى ابن حسن السبط أيام الهادي وقتل بفتح على ثلاثة أميال من مكة سنة تسع وستين ومائة واستلحم كثير من أهل بيته وفرادريس بن عبد الله إلى المغرب ونزل على أوربة سنة ثنتين وسبعين وأميرهم يومئذ بو ليلى اسحق بن محمد بن عبد الحميد منهم فاجاره وجمع البرابر على دعوته واجتمعت عليه زوجة ولواتة وسراتة وغمات ونفزة ومكناسة وغمارة وكافة برابرة المغرب فبايعوه واثتمروا بأمره وتم له الملك والسلطان بالمغرب وكانت له الدولة التي ورثها أعقابها إلى حين انقراضها كما ذكرنا في دولة الفاطميين والله تعالى اعلم

{ الخبر عن كتامة من بطون البرانس وما كان لهم من العز والظهور على القبائل وكيف تناولوا الملك من أيدي الاغالية بدعوة الشيعة { هذا القبيل من قبائل البربر بالمغرب وأشدهم بأساً وقوة وأطولهم باعاً في الملك عند نسابة البربر من ولد كتام بن برنس ويقال كتم ونسابة العرب يقولون إنهم من حمير ذكر ذلك ابن الكلبي والطبري وأول ملوكهم فريقتش بن صيفي من ملوك التبابعة وهو الذي افتتح أفريقية وبه سميت وقتل ملكها جرجير وسمى البربر بهذا الاسم كما ذكرناه يقال أقام في البربر من حمير صنهاجة وكتامة فهم إلى اليوم فيهم وتشعبوا في المغرب وانبثوا في نواحيه إلا أن جمهورهم كانوا لأول الملة بعد تهيج الردة وطفئت تلك الفتن موطنين بارياف قسنطينة إلى تخوم بجاية غرباً إلى جبل أوراس من ناحية القبلة وكانت بتلك المواطن بلاد مذكورة أكبرها لهم وبين ديارهم ومجالات ثقلهم مثل ابكجان وسطيف وياغاية وبفاس وتلزمه ويتكست وميلة وقسنطينة والسيكرة والقل وجيجل من حدود جبل أوراس إلى سيف البحر ما بين بجاية وبونة وكانت بطونهم كثيرة يجمعها كلها غرسن ويسوده بن كتم بن يوسف من يسودة فالسيد دنهاجة ومتوسة ورسين كلهم بنو يسودة بن كتم والى دنهاجة ينسب قصور كتامة بالمغرب لهذا العهد ومن غرسن مصالة وقلان وما وطن ومعاد بنو غرسن بن كتم ولهيفه وجيملة ومسالتة وبنو يناوة بن غرسن وملوسة من ايان ولطاية واجانة وغسمان وأوايست بنو تيطاسن بن غرسن وملوسة من ايان غرسن بن غرسن ومن ملوسة هؤلاء بنو

زيدوى أهل الجبل المطل على قسنطينة لهذا العهد وبعد البرابرة من كتامة بنو يستين وهشتيو ومصالة وبنى قنسيلا وعد ابن حزم منهم زواوة بجميع بطونهم وهو الحق على ما تقدم وكان من البطون بالمغرب الأقصى كثير منتبذون عن مواطنهم وهم بها إلى اليوم ولم يزالوا بهذه المواطن وعلى هذه الحالة من لدن ظهور الملة وملك المغرب إلى دولة الأغالبة ولم تكن الدولة تسومهم بهزيمة ولا ينالهم تعسف لاعتزازهم بكثرة جموعهم كما ذكره ابن الرقيق في تاريخه الا أن كان من قيامهم في دعوة الشيعة ما ذكرناه في دولتهم عند ذكر دولة الفاطميين إثر دولة بنى العباس فانظره هنا لك وتصفحه تجد تفصيله ولما صار لهم الملك بالمغرب زحفوا إلى المشرق فملكوا الاسكندرية ومصر والشام واختطوا القاهرة أعظم الامصار بمصر وارتحل المعز رابع خلفائهم فنزلها وارتحل معه كتامة على قبائلهم واستفحلت الدولة هنا لك وهلكوا في ترفها وبذخها وبقي في مواطنهم الاولى بجبل أوراس وجوانبه من البسائط بقايا من قبائلهم على أسمائها والقابها والآخرين بغير لقبهم وكلهم رعايا معبدون للمغامر الا من اعتصم

[١٤٩]

بقنة الجبل مثل بنى زيدوى بجبلهم وأهل جبال جيغل وزواوة أيضا في جبالهم وأما البسائط فاشهر من فيها منهم سدويكش ورياستهم في أولاد سواد ولا أدري إلى من يرجعون في قبائل كتامة المسمين بهذه الاسم الا أنهم منهم باتفاق من أهل الاخبار ونحن الآن ذاكرون ما عرفناه من أخبارهم المتأخرة بعد دولة كتامة والله تعالى ولى العون * (الخبر عن سدويكش ومن إليهم من بقايا كتامة في مواطنهم) * هذا الحى لهذا العهد وما قبله من العصور يعرفون سدويكش وديارهم في مواطن كتامة ما بين قسنطينة وبجاية في البسائط منها ولهم بطون كثيرة مثل سيلين وطرسون وطرغيان وموليت وبنى فتنه وبنى لمام وكاياره وبنى زغلان والنورة وبنى مزوان ووار مسكن وسكوال وبنى عيار وفيهم من لمامه ومكلاية وريفة والرياسة على جميعهم في بطن منهم يعرفون أولاد سواد لهم جمع وقوة وعدد وعدة وكان جميع هذه البطون وعيالهم غارمة فيمتطون الخيل ويسكنون الخيام ويظعنون على الابل والبقر ولهم مع الدول في ذلك الوطن استقامة وهذا شأن القبائل الاعراب من العرب لهذا العهد وهم ينتفون من نسب كتامة ويفرون منه لما وقع منذ أربعمئة سنة من النكير على كتامة بانتحال الرافضة وعداوة الدول بعدهم فيتفادون بالانتساب إليهم وربما انتسبوا في سليم من قبائل مضر وليس ذلك بصحيح وإنما هم من بطون كتامة وقد ذكرهم مؤرخو صنهاجة بهذا النسب ويشهد لذلك الموطن الذى استوطنوه من افريقية ويذكر نسابتهم ومؤرخوهم أن موطن أولاد سواق منهم كان في قلاع بنى بوخصرة من نواحي قسنطينة ومنه انتقلوا وانتشروا في سائر تلك الجهات وأولاد سواق بطنا وهم أولاد علاوة بن سواق من أولاد يوسف بن حمو بن سواق فاما أولاد علاوة فكانت الرياسة على قبائل سدويكش لهم فيما سمعناه من مشيختنا وان ذلك كان لعهد دولة الموحدين وكان بيتهم على بن علاوة وبعده ابنه طلحة بن على وبعده أخوه يحيى بن على وبعده أخوهما منديل ابن على وعرالت زين ابن أخيه طلحة ولما بويع السلطان أبو يحيى بقسنطينة سنة عشر من هذه المائة وقع من تازير انحراف على طاعته واعتلوا بطاعة ابن الخلوفا ببجاية فقدم عوضا منه عمه منديل ثم استبدل منهم أجمعين بأولاد يوسف فشمروا في طاعته وأبلوا وغلب السلطان على بجاية وقتل ابن الخلوفا فظهر أولاد يوسف وزحموا أولاد علاوة وأخرجوهم من الوطن فصاروا إلى عياض من أفريق هلال وسكنوا في جوارهم بجبلهم الذى أوطنوه المطل على المسيلة واتصلت الرياسة على سدويكش في أولاد يوسف وهم لهذا العهد أربع قبائل بنو محمد بن يوسف وبنو المهدي وبنو ابراهيم بن يوسف

[١٥٠]

يوسف وهم اشقاء وأمهم تاعزيت فنسبوا إليها أولاد محمد
والعزيبون يوطنون بنواحي بجاية وأولاد المهدي وابراهيم بنواحي
قسطنطينة وما زالت الرياسة في هذه القبائل الاربعة تجتمع تارة في
بعضهم وتفترق أخرى إلى هذا العهد وكانت الاخرى دولة مولانا
السلطان أبي يحيى اجتمعت رياستهم لعبد الكريم بن مندبل بن
عيسى بن العدرين ثم افتترقت واستقلت كل بطن من هؤلاء الاربعة
برياسة وأولاد علاوة في خلال هذا كله بجبل عياض ولما تغلب بنو
مربن على افريقية نكر السلطان أبو عنان أولاد يوسف ورماهم
بالميل إلى الموحدين وصرف الرياسة على سدويكش إلى مهني
من تازير بن طلحة من أولاد علاوة فلم يتم له ذلك وقبله أولاد يوسف
ورجع أولاد علاوة إلى مكانهم من جبل عياض وكان رئيسهم لهذه
العصور عدوان بن عبد العزيز بن زروق بن علي بن علاوة وهلك ولم
تجتمع رياستهم بعده لاحد وفي بطون سدويكش هؤلاء بطن مرادف
أولاد سواق في الرياسة على بعض أحيائهم وهم بنو سكين
ومواطنهم في السلطان أبو يحيى بالرياسة على قومهم وكان له
مقامات في خدمته ثم عرف بعده في الوفاء ابنه الامير أبو حفص فلم
يزل معه إلى أن وقع به بنو مرين بناحية قابس وحاربه مع السرى
الوقية فقطعه السلطان أبو الحسن من خلاف وهلك بعد ذلك وقام
برياسته ابنه عبد الله وكان له فيها وفي خدمة السلطان بجاية شأن
إلى أن هلك لأعوام ثمانين وولى ابنه محمد من بعده والله وارث
الارض ومن عليها * (الخير عن بنى ثابت أهل الجبل المطل على
قسطنطينة من بقايا كتامة) * ومن بطون كتامة وقبائلهم أهل الجبل
المطل على القل ما بينه وبين قسطنطينة المعروف

[١٥١]

برياسة أولاد ثابت بن حسن بن أبي بكر من بنى تليلان ويقال ان أبا
بكر هذا الجد هو الذي فرض المغرم على أهل هذا الجبل لايام
الموحدين ولم يكن قبل ذلك عليه مغرم فلما انقرض ملك صنهاجة
وغلب الموحدون على افريقية وفر أبو بكر هذا علي الخليفة بمراكش
لاول دولته وفي عنيته لابن عمر لدولة طرابلس أعوام إحدى عشر
وسبعمائة كما نذكره فلما تملك السلطان بجاية وقتل ابن خلوفا
ورجع ابن عمر من تونس إلى حجابته وجد حسن بن ثابت معسكرا
بفرحيرة لانقضاء مغارم الوطن فبعث إليه من قبله وكان آخر رياسته
بجبل على أدرك دولة بنى مرين بافريقية وولى بعده ابن عبد الرحمن
ووفد على السلطان أبي عنان بفاس ولما استجد مولانا السلطان أبو
العباس دولته بافريقية استولى عليهم ومحا أثر مشيختهم
ورياستهم وصيرهم من عداد جنده وحاشيته واستعمل في الجبل
عماله وهو جبل مطاوع وحياتته مؤداة لسولته وجواره للعسكر
بقسطنطينة ومن بقايا كتامة أيضا قبائل أخرى بناحية تدلس في
هضابة مكنته وهم في عداد القبائل الغارمة وبالمغرب الأقصى
منهم قبيلة من بنى سنس بجبل قبلة جبل يزناسن وقبيلة اخرى
بناحية الهبط مجاورون لنصر بن عبد الكريم وقبائل أخرى بناحية
مراكش نزلوا مع صنهاجة هنا لك ونسب كتامة لهذا العهد بين
القبائل المثل السائر في الدولة لما نكرتهم الدول من بعدهم
أربعمائة سنة بانتحالهم الرافضة ومذاهبها الكفرية حتى صار كبيرهم
من أهل نسبهم يفرون منه وينتسبون فيمن سواهم من القبائل
فرارا من هجنته والعزة لله وحده سلطان حسن بن عبد الرحمن بن علي

حسن ابن ابراهيم عبد الله * (الامام بذكر زوارة من بطون كتامة) *
هذا البطن من أكبر بطون البربر ومواطنهم متصلة بمواطن كتامة
هؤلاء وأكثر الناس جاهلون بنسبهم وعامة نسابة البربر على أنهم
من بنى سمكان يحيى بن ضريس وأنهم اخوة زواغة والمحققون من
النسابة مثل ابن حزم وانظاره انما يعدونهم في بطون كتامة وهو
الاصوب والمواطن أوضح دليل عليه والافان مواطن زواغة وهى
طرابلس بالمغرب

[١٥٢]

الاقصى من مواطن كتامة وانما حمل على الغلط في نسبهم إلى
كتامة تصحيف اسم زوازه بالزاي بعد الواو وهم اخوة زواغة بلا شك
فصحف هذا القارى الزاي بالواو فعد زواوة اخوان زواغة ثم استمر
التصحيف وجميعا في نسب سمكان والله أعلم وقد مر ذكرهم هنا
لك مع ذكر زواغة وتعديد بطونهم { الخبر عن صنهجة من بطون
البرانس وما كان لهم من الظهور والدول في بلاد المغرب والاندلس {
هذا القبيل من أوفر قبائل البربر وهو أكثر أهل الغرب لهذا العهد وما
بعده لا يكاد قطر من أقطاره يخلو من بطن من بطونهم في جبل أو
بسيط حتى لقد زعم كثير من الناس أنهم الثلث من أول البربر وكان
لهم في الردة ذكر وفى الخروج على الأمراء شان تقدم منه في صدر
ذكر البرابر ونذكر منه هنا ما تيسر وأما ذكر نسبهم فانهم من ولد
صنهاج وهو صنك بالصاد المشمة بالزاي والكاف القريبة من الجيم الا
أن العرب عربته وزادت فيه الهاء بين النون والالف فصار صنهاج وهو
عند نسابة البربر من بطون البرانس من ولد برنس بن بر وذكر ابن
الكلبي والطبري انهم وكتامة جميعا من حمير كما تقدم في كتامة
وفيما نقل الطبري في تاريخه أنهم صنهاج بن بر بن صوكان بن
منصور بن الفند بن افريقش بن قيس وبعض النسابة يزعم أنه صنهاج
بن المثنى بن المنصور بن مصباح ابن يحصاب بن مالك بن عامر بن
حمير الاصغر من سبأ كذا نقل ابن النحوي من مؤرخي دولتهم وجعله
ليحصب وقد مر ذكره في أنساب حمير وليس كما ذكر والله اعلم واما
المحققون من نسابة البربر فيقولون هو صنهاج بن عاميل بن زعراع
بن قيمتا بن سدور بن مولان بن مصلين بن بيرين بن مكسييلة بن
دقيوس بن حلحال بن شرو بن مصرايم بن حام ويزعمون أن جزول
واللمط وهسكور اخوة صنهاج وإن أمهم الاربعة بصكي وبها يعرفون
وهى بنت زحيك بن مادغيس ويقال لها العرجاء فهذه القبائل الاربعة
من القبائل أخوة لام والله أعلم وأما بطون صنهجة فكثيرة فمنهم
بلكانة وأنجفة وسرطة والامتوته ومسوقة وكدالة ومندلسة وبنو وارت
وبنو يتين ومن بطون أنجفة بنو مزوات وبنو تثيب وفشتالة وملوافة
هكذا يكاد نقل بعض نسابة البربر في كتبهم وذكر آخرون من مؤرخي
البربر أن بطونهم تنتهى إلى سبعين بطناً وذكر ابن الكلبي والطبري
أن بلادهم بالصحراء مسيرة ستة أشهر وكان أعظم قبائل صنهجة
بلكانة وفيهم كان الملك الاول وكانت مواطنهم ما بين المغرب
الاوسط وافريقية وهم أهل مدر ومواطن مسوقة والامتونة وكدالة
وسرطة بالصحراء وهم أهل وبر وأما أنجفة فبطونهم مفترقة وهم أكثر
بطون صنهجة ولصنهجة ولاية لعلى بن أبى طالب كما ان

[١٥٣]

لمغراوة ولاية لعثمان بن عفان رضى الله تعالى عنهما الا أنا لا نعرف
سبب هذه الولاية ولا أصلها وكان من مشاهيرهم في الدولة
الاسلامية بالفاق ورمون ثار بافريقية أيام السفاح عند انقراض الاموية
وعبد الله بن سكرد بر لك وعباد بن صادق من قواد حماد بن بلكين
وسليمان بن مطعمان بن غيلان امام باديس ابن بلكين وبنى حمدون

وورا بنى حماد وهو حمدون بن سليمان بن محمد بن علي بن علم منهم ميمون بن جبل بن أخت طارق مولى عثمان بن عفان صاحب فتح الأندلس في آخرين يطول ذكرهم وكان الملك في صنهاجة في طبقتين الطبقة الأولى لملكانة ملوك إفريقية والأندلس والثانية مسووقة ولمتونة من الملتمين ملوك المغرب المسمون بالمرابطين ويأتى ذكرهم كلهم ان شاء الله تعالى والله أعلم * (الطبقة الأولى من صنهاجة وما كان لهم من الملك) * كان أهل هذه الطبقة بنو لمكان بن كرت وكانت مواطنهم بالمسيلة إلى حمرة إلى الجزائر مليوية ومليباتة من مواطن بنى يزيد وحصين والعطاف من زغبة ومواطن الثغالية لهذا العهد وكان معهم بطون كثيرة من صنهاجة أعقابهم هنالك من متنان وأنوغة وبنو مزغنة وبنو جعد وملكانة ويطوية وبنو يفرن وبنو خليل وبعض أعقاب ملكانة بجهات بجاية ونواحيها وكان التقدم منهم جميعا لملكانة وكان أكثرهم لعهد الاغالبة مناد بن منقوش بن صنهاج الاصغر وهو صناك بن واسفاق بن جريل ابن يزيد بن واسلى بن سمليل بن جعفر بن الياس بن عثمان بن سكاك بن ملكان ابن كرت ابن صنهاج الاكبر هكذا نسيه ابن النحوي وزعم أن مناد بن منقوش ملك جانبى افريقية والمغرب الاوسط مقيما لدعوة ابن العباس وراجعا إلى أمر الاغالبة وأقام أمره من بعده ابنه زيرى بن مناد وكان من أعظم ملوك البربر وكانت بينه وبين مغراوة من زناتة المجاورين له من جهة المغرب الاوسط كما نذكر حروب وفتن طويلة ولما استوسق الملك للشيعية بافريقية تحثوا إليهم للولاية التى لعلى رضى الله عنه فيهم وكان من أعظم أوليائهم واستطال بهم على عدوه من مغراوة فكانوا ظهرا له عليهم وانحرفت لذلك مغراوة وسائر زناتة عن الشيعية سائر أيامهم وتحيزوا عن المرابطين ملوك العدو بالأندلس فأقاموا دعوتهم بالمغرب الاوسط والاقصى كما نذكره بعد ان شاء الله تعالى ولما كانت فتنة أبى يزيد والثلاث أمر العبيديين بالقيروان والمهدية كان لزيرى بن مناد منافرة إلى الخوارج أصحاب أبى يزيد وأعقابهم وشريف بالحشود إلى مناصرة العبيديين بالقيروان كما ستراه وأحفظ مدينة واشين للتحصن بها سفح الجبل المسمى تيطرا لهذا العهد حيث مواطن حصن وحصنا بأمر المنصور وكانت من أعظم

مدن المغرب واتسعت بعد ذلك خطتها واستبحر عمرانها ورحل إليها العلماء والتجار من القاصية وحين نازل اسمعيل المنصور أبى يزيد لقلعة كتامة جاءه زيرى في قومه ومن انضم إليه من حشود البربر وعظمت نكايته في العدو وكان الفتح وصحبة المنصور إلى أن انصرف من المغرب ووصله صلات سنوية وعقد له على قومه وأذن له في اتخاذ القصور والمنازل والحمامات بمدينة أشير وعقد له على تاهرت وأعمالها ثم اختصت ابنه بلكين بأمره وعلى عهده مدينة الجزائر المنسوبة لبنى مزعد بساحل لبحر ومدينة ملينة بالعدوة الشرقية من شلف ومدينة لمدينة وهم بطن من بطون صنهاجة وهذه المدن لهذا العهد من أعظم مدن المغرب الاوسط ولم يزل زيرى على ذلك قائما بدعوة العبيديين منايد المغراوة واتصلت الفتنة فيهم ولما نهض جوهر الكاتب إلى المغرب الاقصى أيام معد المعز لدين الله أمره أن يستصحب زيرى بن مناد فصحبه إلى المغرب وظهره على أمره ولما ظهر يعلى بن محمد النفزى اتهمه زناتة بالممالة عليه ولما نزل جوهر فاس وبها أحمد بن بكر الجذامي وطال حصاره إياها كان لزيرى في حصارها أعظم العياء وكان فتحها على يده سهر ذات ليلة وصعد سورها فكان الفتح ولما استمرت الفتنة بين زيرى ابن مناد ومغراوة ووصلوا أيديهم بالحاكم المستنصر وأقاموا دعوة المرابطين بالمغرب الاوسط وشمر محمد بن الخير بن محمد بن خزر لذلك رماه معد لقريعة زيرى في قومه واحتشد أهل وطنه وقد جمع له محمد بن الخير وزناتة فسرح إليهم ولده بلكين في مقدمة وعارضهم قبل

استكمالهم التعبية فدارت بينهم حرب شديدة بعد العهد بمثلها يومئذ واختل مصاف مغراوة وزناتة ولما أبقن محمد بن الخير بالمهلكة وعلم انه أحيط به مال إلى ناحية من العسكر وتحامل على سيفه فذبح نفسه وانفض جموع زناتة واستمرت الهزيمة عليهم سائر يومهم فاستلحموا ومكثت عظامهم ماثلة بمصارعهم عصورا وهلك فيما زعموا بضعة عشر أميرا منهم وبعث زيري برؤوسهم إلى المعز بالقيروان فعظم سروره وهش لها الحكم المستنصر صاحب الدعوة بما أوهنوا من أمره واستطال زيري وصنهاجة على بوادي المغرب وغلب يده على جعفر بن علي صاحب المسيلة والزاب وسما به في الرتب عند الخلافة وتآخمه في العمالة واستدعى معد جعفر بن علي من المسيلة لتولية افريقية حين اعتزم على الرحيل إلى القاهرة فاستتراب مما كانت السعاية كبرت فيه وبعث معد المعز بعض مواليه فخافه جعفر على نفسه وهرب من المسيلة ولحق بمغراوة فاشتملوا عليه وألقوا بيده زمام أمرهم وقام فيهم بدعوة الحكم المستنصر وكانوا أقدم لها اجابة وفاوضهم زيري الحرب قبل استفحالهم فزحف إليهم واقتتلوا قتالا شديدا وكانت على زيري الدبرة وكبابه فرسه وأجلت الهزيمة عن مصرعه

[١٥٥]

ومصارع حاميته من قومه فخرؤا رأسه وبعثوا به إلى الحكم لمستنصر بقرطبة في وفد أوفدوه عليه من أمرائهم يؤدون الطاعة ويؤكدون البيعة ويجمعون لقومهم النصر وكان مقدم وفدهم يحيى بن أخو جعفر هذا كما ذكرناه وهلك زيري هذا سنة ستين وثلاثمائة لست وعشرين سنة من ولايته ولما وصل خبره إلى ابنه بلكين وهو باشير نهض إلى زناتة ودارت بينهم حرب شديدة فانهزمت زناتة وثار بلكين بابيه وقومه واتصل ذلك بالسلطان محمد اثره وعقد له على عمل ابيه باشير وتيهرت وسائر أعمال المغرب وضم إليه المسيلة والزاب وسائر عمل جعفر فاستعجب واستفحل أمره واتسعت ولايته وأئخن في البربر أهل الخصوص من احرايه وهوارة ونفزة وتوغل في المغرب في طلب زناتة فأئخن فيهم ثم رجع واستقدمه السلطان لولاية افريقية فقدم سنة احدى وستين واستبلغ السلطان في تكريمه ونفس ذلك عليه كتامة ثم نهض السلطان إلى القاهرة واستخلفه كما نذكره وكان ذلك أول دولة آل زيري بافريقية والله تعالى أعلم } الخبر عن دولة آل زيري بن مناد ولاة العبيديين من هذه الطبقة بافريقية وتصاريف أحوالهم { لما أخذ المعز في الرحلة إلى المشرق وصرف اهتمامه إلى ما يتخلف وراء ظهره من الممالك والعمالات ونظر فيمن يوليه أمر افريقية والمغرب ممن له الغناء والاضطلاع وبه الوثوق من صدق التشيع ورسوخ القدم في دراية الدولة فعثر اختياره على بسكين بن زيري بن مناد ولي الدولة منذ عهد أخذه ما بيده من أيدي زناتة وأموالها في سبيل الالباء على الدولة والمظاهرة للدولة * (دولة بلكين بن زيري) * فبعث خلف بلكين بن زيري وكان متوغلا في المغرب في حروب زناتة وولاه أمر افريقية ما عدا أصهلية كانت لبني أبي الحسين الكلبي وطرابلس لعبد الله بن يخلف الكتامي وسماه يوسف بدلا من بلكين وكناه أبا الفتوح ولقبه سيف الدولة ووصله بالخلع والاكسية الفاخرة وحمله على مقرباته بالمرأكب وانتقله وأنفذ أمره في الجيش والمال وأطلق يده في الاعمال وأوصاه بثلاث أن لا يرفع السيف عن البربر ولا يرفع الجباية عن أهل البادية ولا يولى أحدا من أهل بيته وعهد إليه أن يفتح أمره بغزو المغرب لحسم دائه وقطع علائق الاموية منه وارتحل يريد القاهرة سنة ثنتين وستين ورجع عنه لمكين من نواحي صفاقس فنزل نصر معه بالقيروان واضطلع بالولاية وأجمع غزو المغرب

فغزاه في جموع صماحة وتخلف كتابه وارتحل إلى المغرب وفر امامه ابن خزر صاحب المغرب الاوسط إلى سجلماسة وبلغه خلاف أهل تاهرت وإخراج عامله فرحل إليها وخربها ثم بلغه أن زناته اجتمعوا إلى تلمسان فرحل إليهم فهربوا أمامه ونزل على تلمسان فحاصرها حتى نزل أهلها على حكمه ونقلهم إلى أشير وبلغه كتاب معد ينهاه عن التوغل في المغرب فرجع ولما كان سنة سبعين وستين رغب بلكين من الخليفة نزار بن المعز أن يضيف إليه عمل طرابلس وسرت واجد إليه فأجابه إلى ذلك وعقد له عليها ورحل عنها عبد الله بن يخلف الكتامي وولى بلكين عليه من قبله ثم ارتحل بلكين إلى المغرب وفرت أمامه زناته فملك فاس وسجلماسة وأرض الهبط وطرد منها عمال بنى أمية ثم غزا جموع زناته بسجلماسة وأوقع بهم وتقبض على ابن خزر أمير مغراوة فقتله وجعل ملوكهم أمامه مثل بنى يعلى بن محمد النفزي وبنى عطية بن عبد الله ابن خزر وبنى فلفول بن خزر ويحيى بن علي بن حمدون صاحب البصرة وبرزوا جميعا بقياطينهم إلى سبتة وبعثوا الصريخ إلى المنصور بن أبي عامر فخرج بعساكره إلى الجزيرة الخضراء وأمرهم بمن كان في حضرته من ملوك زناته ورؤسائهم النازعين إلى خلفاء الاموية بالاندلس بقرطبة بالمقام في سبيل الطاعة واغتنام فضل الرباط بثغور المسلمين في إيالة الخلفاء واجتمعت منهم وراء البحر أمم مع ما انضم إليهم من العساكر والحشود وأجازهم البحر لقصر جعفر بن علي بن حمدون صاحب المسيلة وعقد له على حرب بلكين وأمه بمائة حمل من المال فتعاقد ملوك زناته واجتمعوا إليه وضربوا مصاف القتال بظاهر سبتة وهرع إليهم المدد من الجزيرة من عساكر المنصور وكادوا يخوضون البحر من فرائض الزقاق إلى مظاهرة أوليائهم من زناته ووصل بلكين إلى تيطاوير وتسئم هضابها وقطع شعوبها لنهج المسالك والطرق بعسكره حتى أطل على معسكرهم بظاهر سبتة فرأى ما هاله واستيقن امتناعهم ويقال انه لما عابن سبتة من سنسرمة ورأى اتصال المدد من العدو إلى معسكرهم بها قال هذه أفعى فغرت البنا فاها وكر راجعا على عقبه وكان موقفه ذلك أقصى اثره ورجع إلى البصرة فهدمها وكانت دار تلك بن الاندلس وبها عمارة عظيمة ثم انفتح له باب في جهاد برغواطة فارتحل إليهم وشغل بجهادهم وقتل ملكهم عيسى بن أبي الانصار كما تذكره وأرسل بالسبي إلى القيروان وأذهب دعوة بنى أمية من نواحي المغرب وزناته مشردون بالصحراء إلى ان هلك سنة ثلاث وسبعين بواركش ما بين سجلماسة وتلمسان منصرفا من هذه الغارة الطويلة * (دولة منصور بن بلكين) *

ولما توفى بلكين بعث مولاه أبو زعبل بالخبر إلى ابنه والى المنصور وكان واليا باشير وصاحب عهد أبيه فقام بأمر صنهجة من بعده ونزل صره وقلده العزيز نزار بن معد أمر افريقية والمغرب وكان على سنن أبيه وعقد لآخيه أبي البهار على تاهرت ولآخيه يطوفت على أشير وسرحه بالعساكر إلى المغرب الاقصى سنة أربع وسبعين يسترجعه من أيدي زناته وقد بلغه انهم ملكوا سجلماسة وفاس فلقية زيري بن عطية المغراوي الملقب بالقرطاس أمير فاس فهزمه ورجع إلى أشير وأقصى المنصور بعدها عن غزو المغرب وزناته واستقبل به ابن عطية وابن خزرون وبدر بن يعلى كما نذكر بعد ثم رحل بلكين إلى رقاده وقتك بعبدالله بن الكاتب عامله وعامل أبيه على القيروان لهنت كانت منه وسعايات انجحت فيه فهلك سنة تسع وسبعين وولى مكانه يوسف ابن أبي محمد وكثر التواتر بكتابه فقتلهم وأثن فيهم حتى أذعنوا وأخرج إليهم العمال وعقد لآخيه حماد على أشير وطالت الفتنة مع زناته ونزل إليه منهم سعيد بن خزرون ولم يزل

سعيد يطيعه إلى ان هلك سنة احدى وثمانين ولى ابنه فلفول بن سعيد وخالف أبو البهار بن زيري سنة تسع وسبعين فرحف إليه المنصور وفر بين يديه إلى المغرب وأمد المنصور أهل تاهرت ومضى في اتباع أبي البهار حتى نفذ عسكره وأشير عليه بالرجوع فرجع وبعث أبو البهار إلى أبي عامر صاحب الاندلس في المظاهرة والمدد واستترهن ابنه في ذلك فكتب زيري بن عطية صاحب دعوة الاموية من زناتة بفاس أن يكون معه يدا واحدة فظاخره زيري واتفق رأيهما مدة وحاربهما بدر بن يعلى فهزماه وملكا فاس وما حولها ثم اختلفت ذات بينهما سنة ثنتين وثمانين ورجع أبو البهار إلى قومه ووفد على المنصور سنة ثنتين وثمانين بالقيروان فأكرمه ووصله وأنزله أحسن نزل وعقد له على تاهرت ثم هلك المنصور سنة خمس وثمانين * (دولة باديس بن المنصور) * ولما هلك المنصور قام بأمره ابنه باديس وعقد لعنه يطوفت على تاهرت وسرح عساكره لحرب زناتة مع عميه يطوفت وحماد فولوا منهزمين امام زناتة إلى أشير ونهض بنفسه سنة تسع وثمانين لحرب زيري بن عطية راجعا إلى المغرب فولى باديس أخاه يطوفت على تاهرت وأشير وخالف عليه عمومته ملكس وزاوي وحلال ومعتز وعزم واستباحوا عسكر يطوفت وأفلت منهم ووصل أبو البهار متبرئا من شأنهم وشغل السلطان باديس بحرب فلفول بن سعيد كما نذكره في أخبار بني خزرون وسرح عمه حمادا لحرب بني زيري اخوته ووصل بنو زيري أيديهم بفلفول ثم رجعوا إلى حماد فهزموهم وتقبض على ماكس منهم فاطمة الكلاب وقتل اولاد الحسن وباديس كذا ذكر ابن

حزم وتجاقلهم إلى جبل سنوه فنازلهم حماد أياما وعقد لهم السلم على ان يحارب الاندلس فلحقوا إلى عامر سنة احدى وتسعين وثلثمائة وهلك زيري بن عطية المغراوي لتسع أيام من مهلك ماكس وأقل باديس عمه حمادا على حضرته ليستعين به في حروب فلفول فاضطرب المغرب لقفوله وأظهرت زناتة الفساد وأضروا بالسابلة وحاصروا المسيلة وأشير فسرح إليهم باديس عمه حماد أخرج على اثره سنة خمس وتسعين متحسب ودوخ حماد المغرب وأثنى في زناتة واختط مدينة القلعة ثم طلب منه باديس أن ينزل على عمل يتجس وفسنطية واختيار النغاية فأبى وأظهر الخلاف وبعث إليه أخاه ابراهيم فأقام معه وزحف إليهم باديس ثم رحل في طلبه إلى شلف ونزع إليه بعض العساكر ودخل في طاعته بنو توجين وحازوا في مدده ووصل أميرهم عطية بن دافلين وبدر بن أغمان بن المعتز فوصلها وكان حماد قبل دافلين ثم نزل باديس نهر واصل وانثنى حماد راجعا إلى القلعة واتبعه باديس ونازله بها وهلك بمعسكره عليها سنة ست وأربعمائة فجأة وهو نائم بين أصحابه بمصرية فارتحلوا راجعين واحتملوا باديس على أعواده * (دولة المعز بن باديس) * ولما بلغ الخبر بمهلك باديس بويع ابنه المعز لثمان سنين ووصل العسكر فبايعوه البيعة العامة ودخل حماد المسيلة وأشير واستعد للحرب وحاصر باعانة وبلغ الخبر بذلك فرحف المعز إليه وأفرج عن باعانة ولقيه فانهزم حماد وأسلم معسكره وتقبض على أخيه ابراهيم ونجا إلى القلعة ورغب في الصلح فاستجيب على أن يبعث ولده وانتهى المعز إلى سطيف وقصر الطين وقفل إلى حضرته ووصل إليه القائد بن حماد بعمل المسيلة وطبنة والزباب وأشير وتاهت وما يفتح من بلاد المغرب وعقد للقائد بن محمد على طبنة والمسيلة مقره ومرسي الدجاج وسوق حمزة وزواوة وانقلب بهدية ضخمة ورفعت أوزارها من يومئذ واقتسموا المظلة والتحموا بالاصهار واقترب ملك صنهاجة إلى دولتين دولة إلى المنصور بن بلكين أصحاب القيروان ودولة إلى حماد بن بلكين أصحاب القلعة ونهض المعز إلى حماد سنة ثنتين وثلثين فحاصره بالقلعة مدة سنين ثم أفلع عنها وانكفأ راجعا ولم يعاود فتنة بعد ووصل راوي بن زيري من الاندلس

سنة عشر وأربعمئة كما ذكرناه في خبره فتلقاه المعز أعظم لقاء
وسلم عليه راجلا وفرشت القصور لنزله ووصله بأعظم الصلات
وأرفعها واستمر ملك المعز بافريقية والقيروان وكان أضخم ملك عرف
للبربر بافريقية وأترفه وأبذخه نقل ابن الرقيق من أحوالهم في الولايم
والهدايا والخبائر والاعطيات ما يشهد بذلك مثل ما ذكر ان عطية

[١٥٩]

صنل عامل باعانة مائة حمل من المال وان بعض توابيت الكبراء
منهم كان العود الهندي بمسامير لذهب وان باديس أعطى فلقول بن
مسعود الزناتي ثلاثين حملا من المال وثمانين تختا وان أعشار بعض
أعمال الساحل بناحية صفاقس كان خمسين ألف قفيز وغير ذلك من
أخبارهم وكانت بينه وبين زناته حروب ووقائع كان له الغلب في
جميعها كل هو مذكور وكان المعز منحرفا عن مذاهب الرافضة
ومنتحلا للسنة فأعلن بمذهبه لأول ولايته ولعن الرافضة ثم صار إلى
قتل من وجد منهم وكبابه فرسه ذات يوم فنادى مستغيثا باسم أبي
بكر وعمر فسمعتة العامة فثاروا لحينهم بالشيعه وقتلوهم أبرح قتل
وقتل دعاة الرافضة يومئذ وامتنع ذلك خلفاء الشيعة بالقاهرة
وخطبه وزيرهم أبو القاسم الجرجاني محذرا وهو يراجع بالتعريض
لخلفائه والمزج فيهم حتى أظل الجو بينه وبينهم إلى أن انقطع
الدعاء لهم سنة أربعين وأربعمئة على عهد المستنصر من خلفائهم
وأحرق بنوده ومحا اسمه من الطرر والسكة ودعا للقائم بن القادر
من خلفاء بغداد وجاءه خطاب القائم وكتاب عهده صحة داعيته أبي
الفضل بن عبد الواحد التميمي فرماه المستنصر خليفة العبيدين
بالمغرب من هلال الذين كانوا مع القرامطة وهم رياح وزغبة والاثيج
وذلك بمشاركة من وزيره أبي محمد الحسن بن علي البازوري كما
ذكرنا في أخبار العرب ودخولهم إلى افريقية وتقدموا إلى البلاد
وأفسدوا السابلة والقرى وسرح إليهم المعز جيوشه فهزمهم
فنهض إليهم ولفيهم بجبل حيدران فهزموه واعتصم بالقيروان
فحاصروه وتمرسوا به وطال عينهم في البلاد واضطرارهم بالرعابا
إلى ان خربت افريقية وخرج ابن المعز من القيروان سنة تسع
وأربعين مع خفيه منهم وهو مؤنس بن يحيى الصري أمير رياح
فلحق في خفارته بالمهدية بعد ان أصهر إليه في ابنته فأنكحه اياها
ونزل بالمهدية وقد كان قدم إليها ابنه تميما فنزل عليه ودخل العرب
القيروان وانتهبوها وأقام المعز بالمهدية وانتزى البوار في البلاد فغلب
حمد بن مليل البرغواطي على مدينة صفاقس وملكها سنة إحدى
وخمسين وخالفت سوسة وصار أهلها إلى الشورى في أمرهم
وصارت تونس أخرا إلى ولاية الناصر بن علناس ابن حماد صاحب
القلعة وولى عليهم عبد الحق بن خراسان فاستبد بها واستقرت في
ملكه وملك بنيه وتغلب موسى بن يحيى على قابس وصار عاملها
المعز بن محمد الصنهاجي إلى ولايته وأخوه ابراهيم من بعده كما
يأتي ذكره والثالث ملك آل يدرس وانقسم في الثوار كما نذكر في
أخبارهم بعد مهلك المعز سنة أربع وخمسين والله أعلم * (دولة
تميم بن المعز) * ولما هلك المعز قام بأمره ابنه تميم وغلبه العرب
على افريقية فلم يكن له الا ما ضمه السور

[١٦٠]

خلا انه كان يخالف بينهم ويسلط بعضهم على بعض وزحف إليه حمو
بن مليل البرغواطي صاحب صفاقس فخرج تميم للقائه وانقسمت
العرب عليها فانهمز حمو وأصحابه وذلك سنة خمس وسار منها إلى
سوسة فافتتحها ثم بعث عساكره إلى تونس فحاصروا ابن خراسان
حتى استقام على الطاعة لتميم ثم بعث عساكره أيضا إلى القيروان

وكان بها قائد بن ميمون الصنهاجى من قبل المعز فأقام ثلاثا ثم غلبته عليها هواد وخرج إلى المهديّة فبعث تميم إليه العساكر فلحق بالناصر وأسلم القيروان ثم رجع بعد ست إلى حمو بن مليل البرغواطى بصفاقس وابتاع له القيروان من مهنى بن على أمير زغبة فولاه عليها وحصنها سنة سبعين وكان بين تميم والناصر صاحب القلعة أثناء ذلك فتن كان سما بها العرب يجاجون بالناصر من قلعته ويطؤون عساكره ببلاد افريقية وربما ملك بعض أمصارها ثم يردونه على عقبه إلى داره إلى إن اصطلحا سنة سبعين وأصهر إليه تميم بابنته ونهض تميم سنة أربع وسبعين إلى قابس وبها ماضى بن محمد الصنهاجى وليها بعد أخيه ابراهيم فحاصرها ثم أفرج عنها ونازلته العرب سنة ست وسبعين بالمهديّة ثم أفرجوا عنه وهزمهم فقصوا القيروان ودخلوها فأخرجهم عنها وفى أيامه كان يعلها نصرى جنده على المهديّة سنة ثمانين نزلوها فى ثلثمائة مركب وثلاثين ألف مقاتل واستولوا عليها وعلى زويلة فبذل لهم تميم فى النزول عنها مائة ألف دينار بعد ان انتهوا جميع ما كان بها فاستخلصها من أيديهم ورجع إليها ثم استولى على قابس سنة تسع وثمانين من يد أخيه عمر بن المعز بايع له أهلها بعد موت قاص بن ابراهيم ثم استولى بعدها على صفاقس سنة ثلاث وتسعين وخرج منها حمو بن مليل إلى قابس فأجاره لكى ابن كامل الدهمانى إلى ان مات بها وكانت رياح قد تغلبت على رغبة وعلى افريقية من لدن سيع وستين وأخرجوه منها وفى هذه المائة الخامسة غلب الاخضر من بطون رياح على مدينة باجة وملكوها وهلك تميم اثر ذلك سنة احدى وخمسمائة * (دولة يحيى بن تميم) * ولما هلك تميم بن المعز ولى ابنه يحيى وافتتح أمره بافتتاح امكيسة وغلب عليها ابن محفوظ الثائر بها وثار أهل صفاقس على ابنه أبى الفتوح فلفظ الحيلة فى تفريق كلمتهم وراجع طاعة العبيديين ووصلته المخاطبات والهدايا وكان قد صرف همه إلى غزو النصارى والاساطيل البحرية فاستكثر منها واستبلغ فى اقتنائها وردد البعوث إلى دار الحرب فيها حتى لقبته أمم النصرانية بالجرى من وراء البحر من بلاد افريقية وحنوة وسردانية وكان له فى ذلك آثار ظاهرة عزيزة وهلك فجأة فى قصره سنة تسع وخمسمائة والله أعلم

[١٦١]

* (دولة على بن يحيى) * ولما هلك يحيى بن تميم ولى على ابنه استقدم لها من صفاقس فقدم أبى بكر أبى جابر عن عسكر ونظرائه من أمراء العرب وكان أعظم أمراء عساكر صنهاجة محاض بن لفظ الاحم فاجتمعوا إليه وتمت بيعته ونهض إلى حصار تونس حتى استقام أحمد بن خرايان على الطاعة وفتح جبل وسلات وكان ممتنعا على من سلف من قومه فجرد إليه عسكرا مع ميمون بن زياد الصخرى المعادي من أمراء العرب فافتتحوه وقتلوا من كان به ووصل رسول الخليفة من مصر بالمخاطبات والهدايا على العادة ثم نهض إلى معصار رافع بن مكن بفاس سنة احدى عشرة وخمسمائة ودون لها قبائل بادغ من بنى على احدى بطون رياح كما نذكره فى أخبار رافع ثم حدثت الفتنة بين رجار صاحب صقلية بمحلات رجار الرافع بن كامل عليه وامداده اياه بأسطوله بغير على ساحل على بن يحيى ويرصد أساطيله فاستخدم على بن يحيى الاساطيل وأخذ فى الاهبة للحرب وهلك سنة خمس عشرة وخمسمائة والله اعلم * (دولة الحسن بن على) * ولما هلك على بن يحيى بن تميم ولى بعده ابنه الحسن بن على غلاما يفعة ابن ثنتى عشرة سنة وقام بأمره مولاه صندل ثم مات صندل وقام بأمره مولاه موفق وكان أبوه أصدر المكاتب إلى رجار عند الوحشة يهدده بالمرابطين ملوك المغرب ولما كان بينهما وبينهم المكاتبسة واتفق أن غزا أحمد بن ميمون قائد اسطول المرابطين صقلية وافتتح قرية منها فسبها وقتل أهلها سنة ست عشرة فلم يشك رجار أن ذلك باملاء الحسن فنزلت

أساطيله إلى المهديّة وعليهم عبد الرحمن بن عبد العزيز وجرى بن محابيل الانطاكي وكان جرى هذا نصرانيا هاجر من المشرق وقد تعلم اللسان وبرع في الحساب وتهذب في الشام بانطاكية وغيرها فاصطنعه تميم واستولى عليه وكان يحيى يشاوره فلما هلك تميم أعمل جريحي الحيلة في اللحاق برجار فلحق به وحظي عنده واستعمله على اسطوله فلما استعجم على حصار المهديّة بعثه لذلك فزحف في ثلاثمائة مركب وبها عدد كثير من النصرانية فيهم ألف فارس وكان الحسن قد استعد لحربهم فافتتح جزيرة قوضرة وقصدوا إلى المهديّة ونزلوا إلى الساحل وضربوا الابنية وملكوا قصر الدهانين وجزيرة الاملس وتكرر القتال فيهم إلى أن غلبهم المسلمون وأقلعوا راجعين إلى صقلية بعد ان استمر القتل فيهم ووصل بالآثر ذلك محمد بن ميمون قائد المرابطين باسطوله فعاش في نواحي صقلية واعتزم رجار على اعادة الغزو إلى المهديّة ثم وصل اسطول يحيى بن العزيز صاحب بجاية لحصار المهديّة ووصلت عساكره في البر مع قائده مطرف بن علي بن

[١٦٢]

حمدون الفقيه فصالح الحسن صاحب صقلية ووصل بدونه واستمد منه اسطوله واستمد الحسن اسطول رجار فأمدته وارتحل مطرف إلى بلده وأقام الحسن مملكا بالمهديّة وانتقض عليه رجار وعاد إلى الفتنة معه ولم يزل يردد إليه الغز والى ان استولى على المهديّة قائد اسطوله جرى بن مناسل سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ووصلها باسطوله في ثلاثمائة مركب وخاذلهم بأنهم انما جاؤا مددا له وكان عسكر الحسن قد توجه صريخا لمحرز بن زياد الفادعي صاحب على بن خراسان صاحب تونس فلم يجد صريخا فجلا عن المهديّة ورحل واتبعه الناس ودخل العدو إلى المدينة وتملكوها دون دفاع ووجد جرى القصر كما هو لم يرفع منه الحسن الا ما خف وترك الذخائر الملوكية فأمن الناس وأبقاهم تحت إيلته ورد الفارين منه إلى أماكنهم وبعث اسطولا إلى صفاقس فملكها وأخذ إلى سوسه فملكها أيضا وأخذ إلى طرابلس كذلك واستولى رجار صاحب صقلية على بلاد الساحل كلها ووضع على أهلها الجزى وولى عليهم كما نذكره إلى ان استنفذهم من ملكة الكفر عبد المؤمن شيخ الموحدين وخليفة امامهم المهدي ولحق الحسن بن يحيى بعد استيلاء النصارى على المهديّة بالعرب من رباح وكبيرهم محرز بن زياد الفادعي صاحب القلعة فلم يجد لديهم مصرخا وأراد الرحيل إلى مصر للحافظ عبد المجيد فأرصد له جرى فارتحل إلى المغرب وأجاز إلى بونة وبها الحارث بن منصور وأخوه العزيز ثم توجه إلى قسنطينة وبها سبع بن العزيز أخو يحيى صاحب بجاية فبعث إليه من أجازة إلى الجزائر ونزل على ابن العزيز فأحسن نزله وجاوزه إلى ان فتح الموحدون الجزائر سنة سبع وأربعين بعد تملكهم المغرب والاندلس فخرج إلى عبد المؤمن فلقيه تكرمة وقبولا ولحق به وصحبه إلى افريقية في غزاته الاولى ثم الثانية سنة سبع وخمسين فنزل المهديّة وحاصرها أشهراً ثم افتتحها سنة خمس وخمسين وأسكن بها الحسن وأقطعه وحيش فأقام هنالك ثمانى سنين ثم استدعاه يوسف بن عبد المؤمن فارتحل بأهله يريد مراکش وهلك بتامسنا من طريقه بابررلو سنة ست وثلاثين والله وارث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين ورب الخلائق أجمعين

[١٦٣]

{ الخبر عن بنى خراسان من صنهاجة الثوار بتونس على آل باديس عند اضطراب افريقية بالعرب ومبدأ أمرهم ومصائر أحوالهم } لما تغلب

العرب على القيروان وأسلم المعز وتحول إلى المهديّة اضطرتت أفريقية نارا واقتسمت العرب البلاد عمالات وامتنع كثير من البلاد على ملوك آل باديس مثل أهل سوسة وصفاقس وقابس وصارت صاغية أهل أفريقية إلى بنى حماد ملوك القلعة كما تقدم وانقطعت تونس عن ملك المعز ووفد مشيختها على الناصر بن علناس فولى عليهم عبد الحق بن عبد العزيز بن خراسان يقال انه من أهل تونس والظاهر انه من قبائل صنهاجة فقام بأمرهم وشاركهم في أمرهم وتردد إليهم وأحسن السيرة فيهم وصالح

[١٦٤]

العرب أهل الضاحية على اتاوة معلومة لكف عاديتهم وزحف تميم بالمغرب من المهديّة إلى سنة ثمان وخمسين في جموعه ومعه يبقى بن علي أمير زغبة فحاصر تونس أربعة أشهر إلى أن صالحه ابن خراسان واستقام على طاعته فأفرج عنه ولم يزل قائما بأمره ابنه أحمد ابن عبد العزيز بن عبد الحق فضل عمه اسمعيل بن عبد الحق لمكان رسمه وقرابته أبو بكر إلى أن بيزرت فأقام بها خوفا على نفسه ونزع أحمد إلى التحلق بسير الملك والخروج عن سيرة المشيخة واشتدت وطأته وكان من مشاهير رؤساء بنى خراسان هؤلاء فاستبد بتونس لأول المائة السادسة وضبطها وبنى أسوارها وعامل العرب على اصلاح سابقتها فصلحت حاله وبنى قصور بنى خراسان وكان مجالسا للعلماء محبا فيهم ونازله على بن يحيى بن العزيز بن تميم سنة عشر وخمسمائة وضيق عليه ودافعه بأسعاف غرضه فأفرج عنه ثم نازله عساكر العزيز بن منصور صاحب بجاية فعاد إلى طاعته سنة أربعة عشر ولم يزل واليا على تونس إلى أن نهض سنة ثنتين وعشرين مطرف بن علي بن حمدون قائد يحيى ابن العزيز من بجاية في العساكر إلى أفريقية وملك عامة أمصارها فتغلب على تونس وأخرج أحمد بن عبد العزيز صاحبها ونقله إلى بجاية بأهله وولده وولى على تونس كرامة ابن المنصور عم يحيى بن العزيز فبقى واليا عليها إلى أن مات وولى عليها بعدها أخوه أبو الفتوح بن المنصور إلى أن مات وولى مكانه ابن ابنه محمد وساءت سيرته فعزل وولى مكانه عمه معد بن المنصور إلى أن استولى النصارى على المهديّة وسواحلها ما بين سوسة وصفاقس وطرابلس سنة ثلاث وأربعين وصارت لصاحب صقلية وأخرج الحسن بن علي كما هو مذكور فأخذ أهل تونس في الاستعداد والحذر واستأسدوا لذلك على واليهم وانتشر بغاتهم وربما ثاروا بعض الايام عليه فقتلوا عبيده بمرأى منه واعتدوا عليه في خاصته فبعث عنه أخوه يحيى من بجاية فركب البحر في الاسطول وترك نائبه العزيز بن دامال من وجوه صنهاجة فأقام بينهم وهم مستبدون عليه وكان بالمعلقة جوارهم محرز ابن زياد أمير بنى علي من بطون رباح وقد تغلب عليها وكانت الحرب بينه وبين أهل تونس سجالا والتحم بينهما المصنف وكان محرز يستمد عساكر صاحب المهديّة على أهل تونس فتأثيه إلى أن غلب النصر على المهديّة وحدثت الفتنة بينهم بالبلد فكان المصاف بين أهل باب السويقة وأهل باب الجزيرة وكانوا يرجعون في أمورهم إلى القاضي عبد المنعم ابن الامام أبي الحسن ولما غلب عبد المؤمن على بجاية وقسنطينة وهم العرب صدف ورجع إلى مراکش انتهت إليه شكوى الرعايا بأفريقية مما نزل بهم من العرب فبعث ابنه عبد الله من بجاية إلى أفريقية في عساكر الموحدين فنازل تونس سنة ثنتين وخمسين وامتنعت عليه ودخل معهم محرز بن زياد وقومه من العرب واجتمع جندهم وبرزوا

[١٦٥]

للموحدين فأوقعوا بهم وأفرجوا عن تونس وهلك أميرها عبد الله بن خراسان خلال ذلك وولى مكانه على بن أحمد بن عبد العزيز خمسة أشهر وزحف عبد المؤمن إلى تونس وهو أميرها فانقادوا لطاعته كما نذكره في أخبار الموحدين ورحل على بن أحمد بن خراسان إلى مراكش بأهله وولده وهلك في طريقه سنة أربع وخمسين وأفرج محرز بن زياد عن المعلقة واجتمعت إليه قومه وبدا من العرب عن مدافعة الموحدين واجتمعوا بالقيروان وبلغ الخبر إلى عبد المؤمن وهو منصرف من غزاته إلى المغرب فبعث إليهم العساكر وأدركوهم بالقيروان فأوقعوا بهم واستلحموهم قتلا وسبيا وتقبض على محرز ابن زياد أميرهم فقتل وصلب شلوه بالقيروان والله يحكم ما يشاء لا معقب لحكمه وهو على كل شئ قدير { الخبر عن بنى الرند ملوك قفصة الثائرين بها عند التياث ملك آل باديس بالقيروان واضطرابه بفتنة العرب ومبدأ دولتهم ومصاير أمورهم } لما تغلب العرب على افريقية وانحل نظام الدولة الصنهاجية وارتحل المعز من القيروان إلى المهديّة وكان بقفصة عاملا لصنهاجة عبد الله بن محمد بن الرند وأصله من حرمة من بنى صدغيان وكان ابن نحيل هو من بنى مريـن من مغراوة وكان مسكنهم بالجوليين من نغزاوة فضبط قفصة وقطع عنها عادية الفساد وصالح العرب على الاتاوة فصلحت

[١٦٦]

السابلة واستقام الحال ثم استبد بأمره وخلع الامتثال من عنقه سنة خمس واربعين واستمر على ذلك وبايعته توزر وقفصة وسوس والحامة ونغزاوة وسائر أعمال قسنطينة فاستفحل أمره وعظم سلطانه ورفد عليه الشعراء والقصاص وكان معظما لاهل الدين إلى ان هلك سنة خمس وستين وولى من بعده ابنه المعتز وكنيته أبو عمر وانقاد إليه الناس فضبط الامور وجبى الاموال واصطنع الرجال وتغلب على نموده وجبل هوارة وسائر بلاد قصبيلة وما إليها وحسنت سيرته إلى ان عمى وهلك في حياته ابنه تميم فعهد لابنه يحيى بن تميم وقام بالامر واستبد على حده ولم يزالوا بخير حال إلى ان نازلهم عبد المؤمن سنة أربع وخمسين فمنعهم من الامر ونقلهم إلى بجاية فمات المعتز بها سنة سبع وخمسين لمائة وأربع عشرة من عمره وقيل لسبعين ومات بعده بيسير حافده يحيى بن تميم وولى عبد المؤمن على قفصة نعمان بن عبد الحق المنتاني ثم عزله بعد سلان بميمون ابن أجانا الكنسي في ثم عزله بعمران بن موسى الصنهاجي وأساء الرعية فبعثوا عن على بن العزيز ابن المعتز من بجاية وكان بها في مضيفة يحترف بالخياطة فقدم عليهم وثاروا بعمران ابن موسى عامل الموحدين فقتلوه وقدموا على بن العزيز فساس ملكه وحاط رعيته وأغراه يوسف بن عبد المؤمن سنة ثلاث وستين أخاه السيد أبا زكريا فحاصره وضيق عليه وأخذه وأشخصه إلى مراكش بأهله وماله واستعمله على الاشغال بمدينة سلا إلى ان هلك وفتيت دولة بنى الرند والبقاء لله وحده اه { الخبر عن جامع الهلاليين امراء قابس لعهد الصنهاجيين وما كان لتميم بها من الملك والدولة وذلك عند فتنة العرب بافريقية } ولما دخلت العرب إلى افريقية وغلبوا المعز على الضواحي ونازلوه بالقيروان وكان الوالى بفاس المعز بن محمد ولموية الصنهاجي وكان أخوه ابراهيم وماضي بالقيروان قائدين للمعز على جيوشه فعزلهما ولحقا مغاضبين بمؤنس بن يحيى وكان ذلك أول تملك العرب ثم أقام ابراهيم منهم واليا بقابس ولحق المعز بن محمد بمؤنس فكان معه إلى ان هلك ابراهيم وولى مكانه أخوه ماضى وكان سيئ السيرة فقتله أهل قابس وذلك لعهد عيم بن المعز بن باديس وبعثوا إلى عمر أخى السلطان إلى طاعة العرب فولياها بكر بن كامل بن جامع أمير المناقشة من دهمان من بنى على احدى بطون رياح فقام بأمرها واستبد على

صنهاجة ولحق به مثنى بن تميم بن المعز نازعا عن أبيه فأجابه ونازل معه المهديّة حتى امتنعت عليه واطلع على قبائح شتى فأفرج عنها ولم يزل كذا على حاله في اجابة قابس وامارة قومه دهمان إلى أن هلك وقام بأمره بعده رافع واستفحل بها ملكه وهو الذي اختط بحر العروسيين من مصانع الملك بها واسمه مكتوب لهذا العهد في جدرانها ولما ولي على بن يحيى على اسطول النصارى ثم ذوى قبائل العرب والاساطيل وزحف إلى قابس سنة احدى عشر وأربعمائة قال ابن أبي الصلت دول الثلاثة الاخماس من قبائل العرب الذين هم سعيد ومحمد ولحسة واطرف إليهم من الخمس الرابع أكابر بنى مقدم فامن كان منهم بفحص القيروان وفر رافع إلى القيروان وامتنع عليه أهلها ثم امتنع شيوخ دهمان واقتسموا البلاد وعينوا القيروان لرافع وأمكوه وبعث على بن يحيى عساكره والعرب المدونة على منازل رافع بالقيروان وخرج إلي محاربتهم فهلك بالطريق في بعض حروبه مع أشياع رافع ثم أن ميمون بن زياد الصخرى حمل رافع بن مكن على مسالمة السلطان وسعى في اصلاح ذات بينهما فانصلح وارتفعت بينهما الفتنة وقام بقابس من ذلك رشيد بن كامل قال ابن بجيل وهو الذي اختط قصر العروسيين وضرب السكة الرشيدية وولى بعده ابنه محمد بن رشيد وغلب عليه مولاه يوسف ثم خرج محمد في بعض وجوهه وترك ابنه مع يوسف فطرده يوسف واستبد وانتهى إلى طاعة رجار فثار به أهل قابس ودفعوه عنهم فخرج إلى أخيه ولحق أخوه عيسى بن رشيد وأخبره الخبر فحاصروهم رجار بسبب ذلك مدة من الايام وكان آخر من ملكها من بنى جامع أخوه مدافع بن رشيد بن كامل ولما استولى عبد المؤمن على المهديّة وصادق وطرابلس بعث ابنه عبد الله بعسكر إلى قابس ففر مدافع بن رشيد عن قابس وأسلمها للموحدين ولحق بعرب طرابلس من عرب فأجاروه سنتين ثم لحق بعبد المؤمن بقابس فأكرمه ورضى عنه وانقرض من بنى جامع من يؤانس والبقاء لله وحده اهـ

{ الخبر عن ثورة رافع بن مكن بن مطروح بطرابلس والعرامي بصفاقس على النصارى واخراجهم واستيادهم بأمر يلدهم في آخر دولة بنى باديس { أما طرابلس فكان رجار صاحب صفلية لعنه الله قد استولى عليها سنة أربعين وخمسائة على يد قائده جرجى بن مخايل الانطاكي وأبقى المسلمين بها واستعمل عليهم وبقيت في مملكة النصارى أباسا ثم إن أبا يحيى بن مطروح من أعيان البلد مشى في وجوه الناس وأعيانهم وداخلهم في الفتك بالنصارى فاجتمعوا لذلك وثاروا بهم وأحرقوهم بالنار ولما وصل عبد المؤمن إلى المهديّة وافتتحها سنة خمس وخمسين وفد عليه أبو يحيى بن مطروح ووجوه أهل طرابلس فأوسعهم برا وتكرمة وقدم ابن مطروح المذكور وردهم إلى بلادهم فلم يزل عليهم إلى ان هزم وعجز بعد يوسف بن عبد المؤمن وطلب الحج فسرحه السيد أبو زيرى بن أبى حفص محمد بن عبد المؤمن عامل تونس فارتحل في البحر سنة ست وثمانين واستقر بالاسكندرية وأما صفاقس فكانت ولائها أيام بنى باديس من صنهاجة قبيلهم إلى أن ولي المعز بن باديس عليها منصور البرغواطى من صنائعه وكان فارسا مقداما فحدث نفسه بالثورة أيام تغلب العرب على افريقية وخرج المعز إلى المهديّة ففتك به ابن عمه حمو بن مليل البرغواطى وقتله في الحمام غدرا وامتنع له حلفاؤه من العرب وحاصروا حمو حتى بذل لهم من المال ما رضوا به واستبد حمو بن مليل بأمر صفاقس حتى إذا هلك المعز حدثته نفسه بالتغلب على المهديّة فزحف إليها في جموعه من العرب ولقيه تميم فانهزم حمو وأصحابه سنة خمس وخمسين ثم

بعث ابنه يحيى مع العرب لحصار صفاقس فحاصرها مدة وأقلع عنها
وزحف إليه تميم بن المعز سنة ثلاث

[١٦٩]

وتسعين فغلبه عليها ولحق حمو لمكن بن كامل أمير قابس فأجاره
وصارت صفاقس إلى ملكة تميم ووليها ابنه ولما تغلب النصارى على
المهدية وملكها جرجى بن ميخائيل قائد رجار سنة ثلاث وأربعين
فغلبوا بعدها على صفاقس وأنفوا أهلها واستعملوا عمر بن أبى
الحسن القربانى لمكانه فيهم وحملوا أباه أبا الحسن معهم إلى
صقلية رهنا وكان ذلك مذهب رجار ودينه فيما ملك من سواحل
افريقية يبيعهم ويستعمل عليهم منهم ويذهب إلي العدل فيهم
فيبقى عمر بن أبى الحسن عاملا لهم في أهل بلده وأبوه عندهم ثم
ان النصارى الساكنين بصفاقس امتدت أيديهم إلى المسلمين
ولحقوا بالضرر وبلغ الخبر أبا الحسن وهو بمكانه من صقلية فكتب
إلى ابنه عمر وأمره بانتهاز الفرصة فيهم والاستسلام إلى الله في
حق المسلمين فثار بهم عمر لوقته سنة احدى وخمسين وقتلهم
وقتل النصارى أباه أبا الحسن وانتقضت عليهم بسبب ذلك سائر
السواحل ولما افتتح عبد المؤمن المهدية من يد رجار وصل إليه عمر
وأدى طاعته فولاه صفاقس ولم يزل واليا عليها وابنه عبد الرحمن من
بعده إلى ان تغلب يحيى بن غانية فرغبه في الحج فسرحه ولم بعد
{ الخبر عما كان بافريقية من الثوار عن صنهجة عند اضطرابها بقتنة
العرب إلى ان محا أثرهم الموحدون } لما كان أبو رجاء اللخمى عند
اضطراب نار الفتنة بالعرب وتقويض المعز عن القيروان إلى المهدية
وتغلبهم عليها قد ضم إليه جماعة من الدعار وكان ساكنا بقلعة
قرسينة من جبل شعيب فكان يضرب على النواحي بجهة بنزرت
فريقان ائدهما من لخم وهو قوم الورد ويقوا فوضى واختلف أمرهم
فبعثوا إلى الورد في أن يقوم بأمرهم فوصل إلى بلدهم فاجتمعوا
عليه وأدخلوه حصن بنزرت وقدموه على أنفسهم فحاطهم من العرب
ودفع عن نواحيهم وكان بنو مقدم من الاثبج ودهمان من بنى احدى
بطون رياح هم المتغلبون على صاحبتهم فهادنهم على الاتاوة وكف
بها عاديتهم واستفحل أمرهم وسمى بالامير وشيد المصانع
والمباني وكثر عمران سدون إلى أن هلك فقام بأمره ابنه طراد وكان
شهما وكانت العرب تهابه وهلك فولى من بعده ابنه محمد بن طراد
وقتل أخوه مقرن لشهر من ولايته في مسامرة وقام بأمر بنزرت
وسمى بالامير وحمى حوزته من العرب واصطنع الرجال وعظم
سلطانه وقصده الشعراء وامتدحوه فوصلهم وهلك فولى من بعده
ابنه عبد العزيز عشر سنين وجرى فيها على سنن أبيه وجده ثم
ولى من بعده أخوه موسى على سننهم أربع سنين ثم من بعده
أخوهما عيسى واقتفى أثرهم ولما نازل عبد الله بن عبد المؤمن
تونس وأفرج عنه مر به في طريقه فاستفرغ جهده في قراه وتجمع
بطاعته وطلب منه الحافظ بلده فأسعفه وولى

[١٧٠]

عليهم أبا الحسن الهرغى فلما قدم عبد المؤمن على افريقية سنة
أربع وخمسين راعى له ذلك وأقطعه واندرج في جملة الناس وكان
بقلعة ورغة بدوكس بن أبى على الصنهاجى من أولياء العزيز
المنصور صاحب بجاية والقلعة قد شادها وحصنها وكان مبدا أمره ان
العزيز تغير عليه في حروب وقعت بينه وبين العرب نسب فيها إلى
نفسه الاقدام والى السلطان العجز فخافه على نفسه ولحق ببجاية
فأكرمه شيخها محمود بن نزال الريفى وأواه وترافع إلى محمود أهل
ورغة من عمله وكانوا فئتين مختلفتين من زائمه احدى قبائل البربر

وهما أولاد مدنى وأولاد لاحق فبعث عليهم عد وسكن بن أبى على لينظر في أحوالهم وأقام معهم بالقلعة ثم استجلب بعض الدعار كانوا بناحيها وأنزلهم بالقلعة معهم واصطنعهم وظاهر أولاد مدنى وظاهرهم على أولاد لاحق وأخرجهم من القلعة واستبد بها وقصدته الرجال من كل جانب إلى ان اجتمعت له خمسمائة فارس وأثن في نواحيه وحارب بنى الورد بينزرت وابن علان بطبرية وقتل محمد بن سباع أمير بنى سعيد من رباح وغصت القلعة بالسكان فاتخذ لها ريبا وجهز إليه العزيز عسكريه من بجاية فبارز قائد العسكر وقتك به واسمه غيلاس وهلك بعد مدة وقام بأمره ابنه منيع ونارله بنو سباع وسعيد طالبين بثار أخيهم محمد وتمادى به الحصار وضافت أحواله فاقتموا عليه القلعة واستلحم هو وأهل بيته قتلا وسبيا والله مالك الامور وكان أيضا بطبرية مدافع بن علان القيسي شيخ من شيوخها فلما اضطرت افريقية عند دخول العرب إليها امتنع بطبرية وحصن قلعتها واستبد بها في حملة من ولده وبنى عمه وجماعته إلى أن ثار عليه ابن بيزون اللخمى في البحرين على واد بحرده بازاء الرياحين وطالت بينهما الفتنة والحرب وكان قهرون بن مخنوس بمنزل دحمون قد بنى حصنه وشيده وجمع إليه جيشا من أوباش القبائل وذلك لما أخرجهم أهل تونس بعد ان ولاه العامة عليهم ثم صرفوه عن ولايتهم لسوء سيرته فخرج من البلد ونزل دحمون وبنى حصنا بنفسه مع الحنايا وردد الغارة على تونس وعاث في جهاتها فرغبوا من محرز بن زياد أن يظاهرهم عليه ففعل وبلغ خبره ابن علان صاحب طبرية فوصل ابن علان يده بصهر منه ونقله إلى بعض الحصون ببلده وهى قلعة عنوش وتظافروا على الافساد وخلفهما بنوهما من بعدهما إلى أن وصل عبد المؤمن إلى افريقية سنة أربع وخمسين فمحا آثار الفساد من جانب افريقية وكان أيضا حماد بن خليفة اللخمى بمنزل رقطون من اقليم زغوان على مثل حال ابن علان مر بن غنوش وابن بيزون وخلفه ولده في مثل ذلك إلى ان انقطع ذلك على يد عبد المؤمن وكب عماد بن نصر الله الكلاعى بقلعة شغضبارية قد صار إليه جند من أهل الدعارة وأوباش القبائل فحلها من العرب واستغاث به ابن قليه شيخ الاربس

من العرب وسوء ملكتهم فزحف إليهم وأخرجهم من الاربس وفرض عليهم مالا يؤدونه إليه إلى ان مات وولى ابنه من بعده فجرى على سننه إلى ان دخل في طاعة عبد المؤمن سنة أربع وخمسين وخمسمائة والله مالك الملك لا رب غيره سبحانه اه { الخبر عن دولة آل حماد بالقلعة من ملوك صنهاجة الداعين لخلافة العبيديين وما كان لهم من الملك والسلطان بافريقية والمغرب الاوسط إلى حين انقراضه بالموحدين { هذه الدولة شعبة من دولة آل زيرى وكان المنصور بلكين قد عقد لآخيه حماد على أشيرو المسيلة وكان يتداولها مع أخيه يطوفت وعمه أبى البهار ثم استقل بها سنة سبع وثمانين أيام باديس من أخيه المنصور ودفعه لحرب زناتة سنة خمس وتسعين بالمغرب الاوسط من مغرواة وبنى يفرن وشرط له ولاية أشير والمغرب الاوسط وكل بلد يفتحه وأن لا يستقدمه فعظم عناؤه فيها وأثن في زناتة وكان مظفرا عليهم واخط مدينة القلعة بجبل كتامة سنة ثمان وتسعين وهو جبل عجيسة وبه لهذا العهد قبائل عياض من عرب هلال ونقل إليها أهل المسيلة وأهل حمزة وخريهما ونقل جراوة من المغرب وأنزلهم بها وتم بناؤها وتمصرها على رأس المائة الرابعة وشيد من بنيانها واسوارها واستكثر فيها من المساجد والفنادق فاستبحرت في العمارة واتسعت في التمدن ورحل إليها من الثغور والقاصية والبلد البعيد طلاب العلوم وأرباب الصنائع لنفاق أسواق المعارف والحرف والصنائع بها ولم يزل حماد أيام باديس هذا أميرا على الزاب والمغرب الاوسط ومتوليا حروب زناتة وكان نزوله ببلد أشير والقلعة مناقما لملوك زناتة واجيالهم البادية بضواحي تلمسان

وتاهرت وحاربه بنو زيري عند خروجهم على باديس سنى تسعين
وثلاثمائة وهم راوي وماسكن واخوانهما فقتل ما سكن وابناه وألجا
راوي واخوته إلى جبل شنوه وأجازهم البحر إلى الاندلس ثم ان
بطانة باديس ومن إليه من الاعجام والقراية نفسوا على حماد رتبته
وسعوا في مكانه من باديس إلى ان فسد ذات بينهما وطلب باديس
أن يسلم عمل يتحست وقسنطينة لولده المعز لما قلده الحاكم
ولاية عهد ابنه فابى حماد وخالف دعوة باديس وقتل الراضة وأظهر
السنة ورضى عن الشيخين ونبذ طاعة العبيديين جملة وراجع دعوة
آل العباس وذلك سنة خمس وأربعمائة وزحف إلى باجة فدخلها
بالسيف ودرس إلى أهل تونس الثورة على المشاركة والراضة فيادوا
لهم فناصره باديس الحرب وعيى عساكره من القيروان وخرج الفينة
فنزع عن حماد أكثر أصحابه مثل بنى أبى والليل أصحاب معرة من
زنانه وبنى حسن كبار صنهاجة وبنى يطوفت من زناتة وبنى عمرة
أيضا منهم وفر حماد وملك باديس

[١٧٢]

أشير ولحق حماد بشلف بنى والليل وباديس في اتباعه حتى نزل
مواطنين فحصر السرسوا من بلاد زناتة ونزل إليه عطية بن دافلتن
في قومه من بنى توين لما كان حماد قتل أباه وجاء على أثره ابن
عمه بدر بن لقمان من المعتز فوصلهما باديس واستظهر بهما على
حماد ثم أجاز إليه باديس وادى شلف وناجزه الحرب ونزع إليه عامة
اهل معسكره فانهمز وأعد السير إلى القلعة وباديس في أثره حتى
نزل فحاصر المسيلة وانحجر حماد في القلعة وحاصره ثم هلك
بمعسكره من ذلك الحصار فجأة بصرية وهو نائم بين أصحابه آخر
ست وأربعمائة فباعته صنهاجة لابنه المعز صبيا ابن ثمان سنين
وتلاقوا من أشير وبعثوا كرامة بن منصور لسدها فلم يقدر واقتحمها
عليه حماد واحتملوا باديس على أعواده إلى مدفنهم بالقيروان
وباعوا المعز بالبيعة التامة وزحف إلى حماد بناحية قفصة وأشفق
حماد فبعث ابنه القائد لاحكام الصلح بينه وبين المعز فوصل إلى
القيروان سنة ثمان وأربعمائة بهدية جليلة وأمضى له المعز ما سأل
من الصلح ورجع إلى أبيه وهلك حماد سنة تسعة عشر وأربعمائة
فقام بأمره ابنه القائد وكان حمارا فاختار أخوه يوسف على المغرب
وريعلان على حمزة بلدا حيطه حمزة بن ادريس وزحف إليه حمامة
بن زيري بن عطية ملك قفاس من مغراوة سنة ثلاثين فخرج إليه
القائد وسرب الاموال في زناتة وأحس بذلك حمامة فصالحه ودخل
في طاعته ورجع إلى فاس وزحف إليه المعز من القيروان سنة أربع
وثلاثين وحاصره مدة طويلة ثم صالحه القائد وانصرف إلى أشير
فحاصرها ثم أقلع عنها وانكفا راجعا وراجع القائد طاعة العبيديين لما
نقم عليه المعز ولقبوه شرف الدولة وهلك سنة ست وأربعين وولى
ابنه محسن وكان جبارا وخرج عليه عمه يوسف ولحق بالمغرب فقتل
سائر أولاد حماد وبعث محسن في طلبه بلكين ابن عمه محمد بن
حماد وأصبحه من العرب خليفة بن بكير وعطية الشريف وأمرهما
بقتل بلكين في طريقهما فأخبرا بلكين بذلك وتعاهدوا جميعا على
قتل محسن ونذر بهم ففر إلى القلعة وأدركوه فقتله بلكين لتسعة
أشهر من ولايته وولى الامر سنة سبع وثلاثين وكان شهما قرما
حازما سفاكا للدماء وقتل وزير محسن الذي تولى قتله وفى أيامه
قتل جعفر بن أبى رماز مقدم بسكرة لما أحس بنكته فحالف أهل
بسكرة باثر ذلك حسبا نذكره ثم مات أخوه مقاتل بن محمد فاتهم
به زوجته ناميرت بنت عمه علناس بن حماد فقتلها وأحفظ ذلك أباها
الناصر وطوى على التبييت وكان بلكين كثيرا ما يردد الغزو إلى
المغرب وبلغه استيلاء يوسف بن تاشفين والمرابطين على المصامدة
فنهض نحوهم سنة أربع وخمسين وفر المرابطون إلى الصحراء
وتوغل بلكين في ديار المغرب ونزل بفاس واحتمل من أكابر أهلها
وأشرافهم رهنا على الطاعة وانكفا

راجعا إلى القلعة فانتهز منه الناصر ابن عمه الفرصة في النار بأخته وماله قومه من صنهاجة لما لحقهم من تكلف المشقة بابعاد الغزو والتوغل في أرض العدو فقتله بتسالة سنة أربع وخمسين وقام بالامر من بعده واستوزر أبا بكر بن أبي الفتوح وعقد على المغرب لآخيه كباب وأنزله بلبا وعلى حمزة لآخيه ورماني وعلى تعارس لآخيه خزر وكان المعز قد هدم سورها فأصلحه الناصر وعقد على قسنطينة لآخيه بلباز وعلى الجزائر وسوس الدجاج لابنه عبد الله وعلى أشير لابنه يوسف وكتب إليه حمو بن مليل البرغواطى من صفاقس بالطاعة وبعث إليه بالهدية ووفد عليه أهل قسنطينة ومقدمهم يحيى بن واطاس فاعلنوا بطاعته وأجزل صلتهم وردهم إلى أماكنهم وعقد عليها اليوسف ابن خلوف من صنهاجة ودخل أهل القيروان أيضا في طاعته وكذلك أهل تونس وكان أهل بسكرة لما قتل بلكين مقدمهم جعفر بن أبى رماز خلعوا طاعة آل حماد واستبدوا بأمر بلدهم وعليهم بنو جعفر فسرح الناصر إليهم خلف بن حيدرة وزيره ووزير بلكين قبله فنازلها وافتتحها عنوة واحتمل بنى جعفر في جماعة من رؤسائها إلى القلعة فقتلهم الناصر وصلبهم ثم قتل خلف بن أبى حيدرة بسعاية رجالات صنهاجة فيه انه لما بلغه خبر بلكين أراد تولية أخيه معمر وشاورهم فيذلك فقتله الناصر وولى مكانه أحمد بن جعفر ابن أفلح ثم خرج الناصر ليتفقد المغرب فوثب على بن ركان على تافر بوست دار ملكهم وكان لما قتل بلكين هرب إلى اخوانه من عجيسة واهتبوا الغرة في تافر بوست لعجيسة الناصر فطرقوها ليلا وملكها على فرجع الناصر من المسيلة وعاجلهم فسقط في أيديهم وافتتحها عليهم عنوة وذبح على بن ركان نفسه بيده ثم وقعت بين العرب الهلاليين فتن وحروب ووفد عليه رجالات الاثيخ صريخا به على رياح فأجابهم ونهض إلى مطايرتهم في جموعه من صنهاجة وزناتة حتى نزل للاريس وتواقعوا بسببه فغدرت بهم زناتة وحروا عليه وعلى قومه الهزيمة بدسياسة ابن المعز بن زيرى بن عطية وإغراء تميم ابن المعز فانهرم الناصر واستباحوا حرائبه ومضاربه وقتل أخوه القاسم وكتبه ونجا إلى قسنطينة في اتباعه ثم لحق بالقلعة في فل وعسكره لم يبلغوا كاس وبعث وزيره ابن أبى الفتوح للاصلاح فعقد بينهم وبينه صلحا وتممه الناصر ثم وفد عليه رسول تميم وسعى عنده بالوزير بن أبى الفتوح وانه مائل إلى تميم فنكسه وقتله وكان المستنصر بن حزرور الزناتى خرج في أيام الفتنة بين الترك والمغاربة بمصر ووصل إلى طرابلس فوجد بنى عدى بها قد أخرجهم الاثيخ وزغبة من افريقية كما ذكرناه فرعبهم في بلاد المغرب وسار بهم حتى نزل المسيلة ودخلوا أشير وخرج إليه الناصر ففر إلى الصحراء ورجع فرجع إلى مكانه من الافساد فراسله الناصر في الصلح فأسعفه وأقطع ضواحي الزاب وريغ

واوعز إلى عروس بن هندي رئيس بسكرة لعهد وولى دولته أن يمكر به فوصل المنتصر إلى بسكرة وخرج إليه عروس بن هندي وأحمد نزله وأشار على حشمة عند انكباب المنتصر وذويه على الطعام فبادروا مكيبين لطعنه وفر اتباعه وأخذوا رأسه وبعث به إلى الناصر فنصبه بجاية وصلب شلوه بالقلعة وجعلوه عظة لغيره وقتل كثير من رؤساء زناتة فمن مغراوة أبى الفتوح بن حنوش أمير بنى يستجلس وكانت له بلد المهديّة والمرية قبيل من بطون صنهاجة سميت البلد بهم وقتل معنصر بن حماد منهم أيضا وكان يناحية شلف فأجلب على عامل مليانه وقتل شيوخ بنى وريسفان من مغراوة فكاتبهم السلطان لما كان مشتغلا عنهم بشأن العرب فزحفوا

إلى معنصر وقتلوه وبعثوا برأسه إلى الناصر فنصبه مع رأس المنتصر وبعث إليه أهل الزاب أن عمر ومغراوة ظاهروا الأثيج من العرب على بلادهم فبعث ابنه المنصور في العساكر ونزل وعلان بلد المنتصر بن خريرون وهدمها وبعث سراياه وجيوشه إلى بلد واركلا وولى عليها وقفل بالغنائم والسبي وبلغه عن بنى توجين من زناتة انهم ظاهروا بنى عدى من العرب على الفساد وقطع السبيل وأميرهم إذ ذاك مناد بن عبد الله فبعث ابنه المنصور إليهم بالعسكر وتقبض على أمير بنى توجين وأخيه زيري وعمهما الاغلب وحمامة وأحضرهم فويخهم وقدر عليهم فغلبه في اجارتهم من أولاد القاسم رؤساء بنى عبد الواد وقتلهم جميعا على الخلاف وفى سنة ستين افتتح جبل بجاية وكان له قبيل من البربر يسمون بهذا الاسم الا أن الكاف فيهم بلغتهم ليست كافا بل هي بين الجيم والكاف وعلى هذا القبيل من صنهاجة يأتون لهذا العهد أوزاعا في البربر فلما افتتح هذا الجبل اختط به المدينة وسمهاها الناصرية وتسمى عند الناس باسم وهى بجاية وبنى بها قصر اللؤلؤة وكان من أعجب قصور الدنيا ونقل إليها الناس وأسقط الخراج عن ساكنيها وانتقل إليها سنة احدى وستين وفى أيام الناصر هذا كان استفحال ملكهم وشغوفه على ملك بنى باديس اخوانهم بالمهدية ولما أصرع منه الدهر بفتنة العرب الهلاليين حتى اضطرب عليهم أمرهم وكثر الثوار عليهم والمنازعون من أهل دولتهم فاعتز آل حماد هؤلاء أيام الناصر هذا وعظم شأن ايامهم فبنى المباني العجيبة المؤنقة وشيد المدائن العظيمة وردد الغزو إلى المغرب وتوغل فيهم ثم هلك سنة احدى وثمانين وقام بالامر من بعده ابنه المنصور بن الناصر ونزل بجاية سنة ثلاث وثمانين وأوطنها بعساكر وخاصة بعراعر منازل الغرب وما كانوا يسومونهم بالقلعة من حصة الخسف وسوء العذاب بوطئ ساحتها والعيث في نواحيها وتخطف الناس من حولها لسهولة طرقها على رواحلهم وصعوبة المسالك عليها في الطريق إلى بجاية لمكان الاوعار فاتخذ بجاية هذه معقلا وصيرها دار الملكة وجدد قصورها وشيد

[١٧٥]

جامعها وكان المنصور هذا جماعة مولعا بالنساء وهو الذى حضر ملك بنى حماد وتأنق في اختطاط المباني وتشيد المصانع واتخاذ القصور واجراء المياه في الرياض والبساتين فبنى في القلعة قصر الملك والمنار والكوكب وقصر الشام وفى بجاية قصر اللؤلؤة وقصر أميميون وكان أخوه يلباز على قسنطينة منذ عهد الناصر إليها وهم بالاستبداد لاول ولاية المنصور فسرح إليه أبا يكنى بن محسن بن العابد في العساكر وعقد له على قسنطينة وبونة فتقبض على بلباز وأشخصه إلى القلعة وأقام واليا على قسنطينة سنة سبع وثمانين وبعث أخاه ابن مودة إلى تميم بن المعز بالمهدية واستدعاه لولاية بونة فبعث معه ابنه أبا الفتوح بن تميم ونزل بونة مع ريغلان وكاتبوا المرابطين بالمغرب الأقصى وجمعوا العرب على أمرهم وسرح المنصور فاعتقله بالقلعة ثم نازلت عساكره قسنطينة واضطرب أحوال ابن أبا يكنى فخرج إلى قلعة بجبل أو رأس وتحصن بها ونزل بقسنطينة صليصل بن الاحمر من رجالات الأثيج وداخل صليصل المنصور في أريكته من قسنطينة على مال يبذله ففعل واستولى عليها المنصور وأقام أبو يكنى بحصنه من أوراس وردد الغارة على قسنطينة فتوجهت إليه العساكر وحاصروه بقلعته ثم اقتحموها عليه وقتلوه وكان بنور مانو من زناتة حيا جميعا وقوما أعزه وكانت إليهم رئاسة زناتة وكان رئيسهم لعده ماخوخ وكان بينهم وبين آل حماد صهر فكانت احدى بناتهم زوجة للناصر وكانت أخرى عند المنصور ولما تجددت الفتنة بينه وبين قومهما أغزاهم المنصور بنفسه في جموع صنهاجة وحشوده وجمع له ماخوخ ولقيه في زناتة فانزهم المنصور إلى بجاية فقتل أخت ماخوخ التى كانت تحته واستحكمت النفرة بين ماخوخ وبينه وصار إلى ولاية امراء تلمسان من لمتونة وحرضهم على بلاد

صنهاجة فكان ذلك مما دعا المنصور إلى النهوض إلى تلمسان وذلك أن يوسف بن تاشفين لما ملك المغرب واستفحل به أمره سما إلى ملك تلمسان فغلب عليها أولاد يعلى سنة أربع وسبعين على ما يأتي ذكره وأنزلها محمد بن سَعمر المسولى وصيرها لعز الملك فاصطنع بأمرها ونازل بلاد صنهاجة وثغورهم فزحف إليه المنصور وأخرب ثغوره وحصون ماخوخ وضيق عليه فبعث إليه يوسف بن تاشفين وصالحه وقبض أبدي المرابطين عن بلاد صنهاجة ثم يلاوذ المرابطين إلى شأنهم في بلاده وزحفوا إلى مراکش واحتل هو بالمغرب الأوسط فشن الغارة في بلاد بنى ومايو وحاصر الجعيات وفتحوها ثم قراب كذلك وعفا عن أهلها ورجع إلى أبيه ثم وقعت الفتنة بينه وبين ماخوخ وقتل أخوه ولحق ابن ماخوخ بتلمسان وظاهره ابن سَعمر صاحب تلمسان على أمره واجتلبوا

[١٧٦]

على الجزائر فنزلوها يومين فاعقبهما محمد بن سَعمر صاحب تلمسان وولي يوسف بن تاشفين مكان أخيه تاشفين بن سَعمر فنهض إلى أشيروا فتتحها فقام المنصور في ركائبه ومعه كافة صنهاجة ومن العرب أحياء الأثيج وزغبة وربيعة وهم العقل من زناتة أمما كثيرة ونهض إلى غزو تلمسان سنة ست وسبعين في نحو عشرين ألفا ولقى أسطقيسه وبعث العسكر في مقدمته وجاء على أثرهم وكان تاشفين قد أفرج من تلمسان وخرج إلى تسالته ولقيته عساكر المنصور فهزموه ولجأ إلى جبل الصخرة وعانت عساكر المنصور في تلمسان فخرجت إليه وأكرم بوصلتها وأفرج عنهم صبيحة يومه وانكفا راجعا إلى حضرته بالقلعة وأثنى بعدها في زناتة وشردهم بنواحي الزاب والمغرب الأوسط ورجع إلى بجاية وأثنى في نواحيها ودوخت عساكره قبائلها فساروا في جبالها المنيعه مثل بنى عمران وبنى تازروت والمنصورية والصحريج والناطور وحجر المعرق وقد كان أسلافه يرمون كثيرا عنها فتمتنع عليهم فاستقام أمره واستفحل ملكه وقدم عليه معز الدولة ابن صمارح من المرية فارا أمام المرابطين لما ملكوا الأندلس فنزل على المنصور وأقطعه بداس وأنزله بها وهلك سنة ثمان وتسعين فولى من بعده ابنه باديس فكان شديد البأس عظيم النظر فنكب عبد الكريم بن سليمان وزير أبيه لأول ولايته وخرج من القلعة إلى بجاية فنكب سهاما عامل بجاية وهلك قبل أن يستكمل سنة وولى من بعده أخوه العزيز وقد كان عزله عن الجزائر وغربه إلى حتجل فبعث عنه القائد على بن حمدون فوصل وبياعوه وصالح زناتة وأصهر إلى ماخوخ فأنكحه ابنته وطال أمر ملكه وكانت أيامه هدنة وأمنا وكان العلماء يتناظرون في مجلسه ونازلت أساطيله جربة فنزلوا على حكمه وأخذوا بطاعته ونازل تونس وصالحه صاحبها أحمد بن عبد العزيز وأخذ بطاعته وكبس العرب في أيامه القلعة وهم غارون فاكسحوا جميع ما وحدوه بطواهرها وعظم عيظهم وقاتلتهم الحامية فغلبوهم وأخرجوهم من البلد ثم ارتحل العرب وبلغ الخبر إلى العزيز فبعث ابنه يحيى وقائده على بن حمدون من بجاية في عسكر وتعبية فصل إلى القلعة وسكن الأحوال وقد أمن العرب واستعتبوا فأعتبوا والكفا يحيى راجعا إلى بجاية في عسكره على عهد العزيز وهكذا كان وصول مهدي الموحدين إلى بجاية فافلا إلى المشرق سنة ثنتي عشرة وغير بها المنكر فسعى به عند العزيز وائتمر به فحرج إلى بنى وريا كل من صنهاجة كانوا ساكنين بوادي بجاية فأجاروه ونزل عليهم بملالة وأقام بها يدرس العلم وطلبه العزيز فمنعوه وقتلوه دونه إلى أن رحل عنهم إلى المغرب وهلك العزيز سنة خمس عشرة وأربعمائة فولى من بعده ابنه يحيى وطالت أيامه مستضعفا مغلبا للنساء مولعا بالصيد على حين انقراض الدولة وذهاب الأيام بقبائل صنهاجة

واستحدثت السكة ولم يحدثها أحد من قومه أدبا مع خلفائهم العبيديين وبعث ابن حماد وان سكتته في الدينار كانت ثلاثة سطور ودائرة في كل وجه فدائرة الوجه الواحد واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون والسطور لا اله الا الله محمد رسول الله يعتصم بحيل الله يحيى بن العزيز بالله الامير المنصور ودائرة الوجه الآخر بسم الله الرحمن الرحيم ضرب هذا الدينار بالناصرية سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة وفي سطوره الامام أبو عبد الله المقتفى لامر الله أمير المؤمنين العباسي ووصل سنة ثلاث وأربعين إلى القلعة لافتقادها ونقل ما بقى بها وانتفض عليه بنو زر ابن مروان فجهز إليه الفقيه مطرف بن علي بن حمدون في العساكر فافتتحها عنوة وتقبض على ابن مروان وأوصله إليه فسجنه بالجزائر إلى أن هلك في معتقله وقيل قتله وبعث مطرف بابنه إلى تونس فافتتحها ونازل في وجهته هذه المهديّة فامتنعت عليه ورجع إلى بجاية وتغلب النصارى على المهديّة وقصده الحسن صاحبها فأجازه إلى الجزائر وأنزله بها مع أخيه القائد حتى إذا زحف الموحدون إلى بجاية وفر القائد من الجزائر وأسلمها قدموا الحسن على أنفسهم ولى عبد المؤمن فأمّنهم وأخرج يحيى بن العزيز أخاه سبع للقاء الموحدين فانهزم وملك الموحدون بجاية وركب يحيى البحر إلى صقلية يروم الاجازة منها إلى بغداد ثم عدل إلى بونة فنزل على أخيه الحارث ونكر عليه سوء صنيعه واخراجه عن البلاد فارتحل عنه إلى قسنطينة فنزل على أخيه الحسن فتخلى له عن الامر وفي خلال ذلك دخل الموحدون القلعة عنوة ودخل حوشن بن العزيز وابن الدحامس من الاثنج معه وخربت القلعة ثم بايع يحيى لعبد المؤمن سنة سبع وأربعين ونزل عن قسنطينة واشترط لنفسه فوفى له ونقله إلى مراکش فسكنها ثم انتقل إلى سلا سنة ثمان وخمسين فسكن قصر بنى عشيرة إلى ان هلك في سنته وأما الحارث صاحب بونة ففر إلى صقلية واستصرخ صاحبها فصارخه على أمره ورجع إلى بونة وملكها ثم غلب عليها الموحدون وقتلوه صبرا وانقرض ملك بنى حماد والبقاء لله وحده ولم يبق من قبائل ماكسن إلا أوزاع بوادي بجاية ينسبون إليهم وهم لهذا العهد في عداد الجند ولهم أقطاع بنواحي البلد على العسكرة في جملة السلطنة مع قواده والله وارث الارض ومن عليها اه

{ الخبر عن ملوك بنى حيوس بن ماكسن من بنى زيرى من صنهاجة من غرناطة من عدوة الأندلس وأولية ذلك ومصابره } لما استبد باديس بن المنصور بن بلكين بن زيرى بن مناد بن هاد بولاية افريقية سنة خمس وثمانين ولى عمومته وقرابته ثغور عمله فأنزل حمادا بأشيرو أخاه يطوفت بتاهرت وزحف زيرى بن عطية صاحب فاس من مغراوة بدعوة المؤيد هشام خليفة قرطبة إلى عمل صنهاجة في جموع زناتة ونزل تاهرت وسرح باديس عساكره لنظر محمد بن أبى العون فالتقوا على تاهرت وانهزم صنهاجة فزحف باديس بنفسه للقائهم وخالف عليه فلغول ابن سعيد بن حزون صاحب طنبة ثم أجفل زيرى بن عطية امامه ورجع إلى المغرب فرجع باديس إلى وترك عمومته اولاد زيرى بأشير مع حماد وأخيه يطوفت وهم زاوى وحلال وعمر ومعنين وأجمعوا على الخلاف والخروج على باديس سنة سبع وثمانين فأسلموا حمادا برمته واستولوا على جميع ما معه واتصل الخبر بأبى البهار بن زيرى وهم مع باديس فخشيته على نفسه ولحق بهم واجتمعوا في الخلاف واشتغل باديس عنهم بحرب فلغول بن يانس مولى الحاكم القادم على طرابلس من قبله

وانفسح مجالهم في الفساد والعيث ووصلوا أيديهم بفلفول وعاقده
ثم رجع أبو البهار عنهم إلى باديس فتقبله وصالح له ثم رجعا إلى
حماد سنة احدى وتسعين ولقيهم فهزمهم وقتل ماكسن وابنه
ولحق زاوى بجبل شنوق من ساحل مليانة وأجاز البحر إلى الاندلس
في بنيه وبنى أخيه وحاشيته ونزل على المنصور بن أبي عامر
صاحب الدولة وكافل الخلافة الاموية فأحسن نزلهم وأكرم وفادتهم
واصطنعهم لنفسه واتخذهم بطانة لدولته وأوليائه على ما يرومه من
قهر الدولة والتغلب على الخلافة ونظمهم في طبقات زناة وسائر
رجالات البربر الذين أدال يجمعهم من جنود السلطان وعساكر
الاموية وقبائل العرب واستغلق أمر صنهاجة بالاندلس واستخلق
امارتهم وحملوا دولة المنصور بن أبي عامر وولديه المظفر والناصر من
بعده على كاهلهم ولما انقرض أمرهم واضمحت دولتهم ونشأت
الفتنة بالاندلس بين البرابرة وأهلها فكان زاوى ملث تلك الوقائع
ومحش حروبها وتمرس بقرطبه هو وقومه صنهاجة وكافة زناة والبربر
حتى أثبتوا قدم خليفتهم المستعين سليمان بن الحكم بن سليمان
بن الناصر الذي أتوه ببيعتهم واعطوه على الطاعة صفقتهم كما
ذكرناه في أخبارهم ثم اقتحموا به قرطبة عنوة واصطلموا عامة أهلها
وأنزلوا المعرات بذوى الصون منها وبيوتات الستر من خواصها فحدث
الناس في ذلك بأخبار وتوصل زاوى عند استباحة قرطبة إلى رأس
أبيه زيرى بن مناد المتصور بجدران قصر قرطبة فأزاله وأصاره إلى
قومه ليدفن في جدته ثم كان شأن بنى حمود من

[١٨٠]

العلوية وافترق أمر البرابرة واضطربت الاندلس نارا وامتلأت جوانبها
فتنة وأسرى الرؤساء من البرابرة ورجالات الدولة على النواحي
والامصار فملكوها وتحيزت صنهاجة إلى ناحية السرة فكانت ضواحيها
لهم وحصل عليها استيلاؤهم وزاوى يومئذ عضد البرابرة فنزل غرناطة
واتخذها دارا لملكته ومعتمدا لقومه ثم وقع في نفسه سوء ثار البربر
بالاندلس أيام الفتنة وحذر مغبة الفعلة واستعاضت الدولة فاعتزم
على الرحلة وأوى إلى سلطان قومه بالقيروان سنة عشرة واربعمائة
بعد مغيبه عشرين سنة وأنزل على المعز بن باديس حافد أخيه
بلكين اجل ما كانت دولتهم بأمر افريقية وأترف وأوسع ملكا وأوفر
عددا فلقبه المعز باحسن أحوال البر والتجلة وأنزله أرفع المنازل من
الدولة وقدمه على الأعمام والقرابة وأسكنه بقصره وأبرز الحرم للقائه
فيقال انه لقيه من ذوات محارمه ألف امرأة لا تحل له واحدة منهن
ووارى ابراهيم مع شلوه بجدته وكان استخلف على عمله ابنه
ونافطعن لاهل غرناطة فانتقضوا عليه وبعثوا عن حيوس ابن عمه
ماكسن بن زيرى مكانه ببعض حصون عمله فبادر إليهم ونزل بقرطبة
فانتقضوا عليه وبايعوه واستحدث بها ملكا وكان من أعظم ملوك
الطوائف بالاندلس إلى أن هلك سنة تسع وعشرين وولى من بعده
ابنه باديس بن حيوس ويلقب بالمظفر ولم يزل مقيما لدعوة آل حمود
امراء مالقة بعد تخلفهم عن قرطبة سائر أيامه وزحف إليها العامري
صاحب المرية سنة تسع وعشرين فلقبه باديس بظاهر غرناطة
فهزمه وقتله وطالت أيامه ومد ملوك الطوائف أيديهم جميعا إلى
مدده فكان ممن استمده محمد بن عبد الله البرزالي لما حاصره
اسماعيل بن القاضى بن عباد بعساكر أبيه فأمدته باديس بنفسه
وقومه وصار إلى صريخه مع ابن بقية قائد ادريس بن حمود صاحب
المالقة سنة احدى وثلاثين ورجعوا من طريقهم وطمع اسمعيل بن
القاضى بن عباد مع صريخه فيهم فاتبعهم ولحق بباديس في قومه
فاقتتلوا وفر عسكر اسمعيل وأسلموه فقتله صنهاجة وحمل رأسه
إلى ابن حمود وكان القادر بن ذى النون صاحب طليبة أيضا يستدفع
به ويقومه استطالة ابن عباد واعوانه وباديس هذا هو الذى مصر
غرناطة واخطت قصبته وشاد قصورها وشيد حصونها وأثاره في مبانها
ومصانعها باقية لهذا العهد واستولى على مالقة عند انقراض بنى

حمود سنة تسع وأربعين وأضافها إلى عمله وهلك سنة سبع وستين وظهر أمر المرابطين بالمغرب واستفحل ملك يوسف بن تاشفين فولى من بعده حافده عبد الله بن بلكين بن باديس وتغلب المظفر وعقد لآخيه تميم على مالقة فاستقام أمرها إلى أن جاز يوسف بن تاشفين إلى العدو اجاز له المعروفة كما نذكره في أخباره ونزل بقرنطة سنة ثلاث وثمانين فتقبض على عبد الله بن بلكين واستصفى

[١٨١]

أمواله وذخيرته وألحق به أخاه تميما من مالقة واستصحبهما إلى العدو فأنزل عبد الله وتهيما بالسوس الأقصى وأقطع لهما إلى أن هلكوا في إيالته ويزعم بنو الماكسن من بيوتات طنجة لهذا العهد انهم من أعقابهم فاضمحل ملك بلكانة من صنهاجة ومن افريقية والاندلس اجمع والبقاء لله وحده اه عبد الله بن بلكين بن باديس بن حيوس بن ماكسن - بن زيري بن مناد ملوك قرنطة بعد الفتنة ملان بن زاوى { الطبقة الثانية من صنهاجة وهم الملمثون وما كان لهم بالمغرب من الملك والدولة } هذه الطبقة من صنهاجة هم الملمثون الموطنون بالفقر وراء الرمال الصحراوية بالجنوب أهدوا في المجالات هنا لك منذ دهور قبل الفتح لا يعرف أولها فأصحروا عن الارياف ووجدوا بها المراد وهجروا التلول وجفوها واعتاضوا منها بالبان الانعام ولحومها انتباذا عن العمران واستثناسا بالانفراد وتوحشا بالعز عن الغلبة والقهر فنزلوا من ريف الحبشة جوارا وصاروا ما بين بلاد البربر وبلاد السودان حجزا واتخذوا اللشام خطاما تميزوا بشعاره بين الامم وعفوا في تلك البلاد وكثروا وتعددت قبائلهم من كذالة فلمتونه فمسوقة فوتريكة فنا وكافزعاوة ثم لمطة اخوة صنهاجة كلهم ما بين البحر المحيط بالمغرب إلى غدامس من قبلة طرابلس وبرقة وللمتونة فيهم بطون كثيرة منهم بنو ورتنطق وبنو زمال وبنو صولان وبنو ناسجة وكان موطنهم من بلاد الصحراء يعرف كأكرم وكان دينهم جميعا المجوسية شان برابرة المغرب ولم يزالوا مستقرين بتلك المجالات حتى كان اسلامهم بعد فتح الاندلس وكانت الرياسة فيهم للمتونة واستوسق لهم ملك ضخم مذ دولة عبد الرحمن بن معاوية الداخل توارثه ملوك منهم تلاكاكين وورثكا أو راكن بن ورتنطق جد ابي بكر بن عمر أمير لمتونة في مينا دولتهم وطالت أعمارهم فيها إلى الثمانين ونحوها ودوخوا تلك البلاد الصحراوية وجاهدوا من بها من أمم السودان وحملوهم على الاسلام فدان به كثيرهم واتقاهم آخرون بالجزية فقبلوها منهم وملك عليهم بعد تلاكاكين المذكور ثبولوثان (قال) ابن أبي زرع أول من ملك الصحراء من لمتونة ثبولوثان فدوخ بلاد الصحراء واقتضى مغارم السودان وكان يركب في مائة ألف

[١٨٢]

نجيب وتوفى سنة ثنتين وعشرين ومائتين وملك بعده يلتان وقام بأمرهم وتوفى سنة سبع وثمانين ومائتين وقام بأمرهم بعده ابنه تميم لى سنة ست وثلثمائة وقتله صنهاجة وفترق أمرهم اه كلام ابن أبي زرع وقال غيره كان من أشهرهم تيزا وابن وانشق بن بيزا وقيل يرويان ابن واستولى ابن يزار ملك الصحراء بأسرها على عهد عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المنتصر في المائة الرابعة وفى عهد عبيد الله وابنه أبى القاسم من خلفاء الشيعة كان يركب في مائة ألف نجيب وعمله مسيرة شهرين في مثلها ودان له عشرون ملكا من ملوك السودان يعطونه الجزى وملك من بعده بنوه ثم افترق أمرهم من بعد ذلك وصار ملكهم طوائف ورياستهم شيعا قال ابن أبي زرع افترق أمرهم بعد تميم بن يلتان مائة وعشرون سنة إلى ان قام

فيهم أبو عبيد الله بن تيفافوت المعروف بناشرت اللمتونى فاجتمعوا عليه وأحبوه وكان من أهل الدين والإصلاح وحج وهلك لثلاثة أعوام من رياسته في بعض غزواته وقام بأمرهم صهره يحيى بن ابراهيم الكندالى وبعده يحيى بن عمر بن تلاكاكين اه كلامه وكان لهذه الطبقة ملك ضخم بالمغرب والاندلس أولا وبافريقية بعده فذكره الآن على نسقه { الخبر عن دولة المرابطين من لمتونة وما كان لهم بالعدوتين من الملك وأولية ذلك ومضايه { كان هؤلاء الملمثون في صحاريهم كما قلناه وكانوا على دين المجوسية إلى أن ظهر فيهم الاسلام لعهد المائة الثالثة كما ذكرناه وجاهدوا جيرانهم من السودان عليه فدانوا لهم واستوسق لهم الملك ثم افترقوا وكانت رئاسة كل بطن منهم في بيت مخصوص فكانت رئاسة لمتونه في بنى ورتانطق بن منصور بن مصالحة بن المنصور بن مزالت بن أميت بن رتمال بن ثلميت وهو لمتونة ولما أفضت الرئاسة إلى يحيى بن ابراهيم الكندالى وكان له صهر في بنى ورتانطق هؤلاء وتظاهروا على امرهم وخرج يحيى بن ابراهيم لقضائه فرصة في رؤساء من قومه في سنى أربعين وأربعمائة فلقوا في منصرفهم بالقيروان شيخ المذاهب المالكي أبو عمران الفاسى واغتنموا ما متعوا به من عهده وما شافهم به من فروض أعيانهم من فتاويه ورئاسة الامير يحيى وصحبهم من تلميذه من يرجعون إليه في نوازلهم وقضايا بينهم فندب تلميذه إلى ذلك حرصا على اىصال الخير إليهم لما رأى من رغبتهم فيه فاستوعروا مسغبة بلادهم وكتب لهم الفقيه أبو عمران إلى الفقيه محمد وكاك ابن رلو اللمطى بسجلماسة من الآخذين عنه وعهد إليه أن يلتمس لهم من يثق بدينه وفقهه ويروى نفسه على مسغبة أرضهم في معاشه فبعث معهم عبد الله بن ياسين بن بك الجزولى ووصل معهم بعلمهم القرآن ويقيم لهم الدين ثم هلك يحيى بن ابراهيم وافترق

[١٨٣]

أمرهم واطرحوا عبد الله بن ياسين واستصعبوا علمه وتركوا الاخذ عنه لما تجشموا فيه من مشاق التكليف فأعرض عنهم وترهب وتنسك معه يحيى بن عمر بن تلاكاكين من رؤساء لمتونة وأخذه أبو بكر فنبذوا عن الناس في ربوة يحيط بحر النيل من جهاتها ضحاحا في المصيف وغمرا في الشتاء فتعود جزرا منقطعة فدخلوا في غياضها منفردين للعبادة وتسامع بهم من في قلبه مثقال حبة من خير فتسايلاوا إليهم ودخلوا في دينهم وغيضتهم ولما كمل معهم ألف من الرجال قال لهم شيخهم عبد الله بن ياسين ان ألفا لن تغلب من قلة وقد تعين علينا القيام بالحق والدعاء إليه وحمل الكافة عليه فاخرجوا بنا لذلك فخرجوا وقتلوا من استعصى عليهم من قبائل لمتونة وكثالة ومهمومة حتى أنابوا إلى الحق واستقاموا على الطريقة وأذن لهم في أخذ الصدقات من أموال المسلمين وسماهم بالمرابطين وجعل أمرهم في العرب إلى الامير يحيى بن عمر فتخطوا الرمال الصحراوية إلى بلاد درعة وسجلماسة فأعطوهم صدقاتهم وانقلبوا ثم كتب إليهم وكاك اللمطى بما نال المسلمين فيما إليه من العسف والجور من بنى وانودين امراء سجلماسة من مغراوة وحرصهم على تغيير أمرهم فخرجوا من الصحراء سنة خمس وأربعين وأربعمائة في عدد ضخم ركبانا على المهارى أكثرهم وعمدوا إلى درعة لابل كانت هنا لك بالحصى وكانت تناهز خمسين ألفا ونحوها ونهض إليهم مسعود بن وانودين أمير مغراوة وصاحب سجلماسة ودرعة لمدافعتهم عنها وعن بلاده فتوافقوا وانهزم ابن وانودين وقتل واستلحم عسكريه مع أموالهم واستلحمهم ودوابهم وأبل الحمى التى كانت ببلد درعة وقصدوا سجلماسة فدخلوها غلابة وقتلوا من كان بها من أهل مغراوة وأصلحوا من أحوالها وغيروا المنكرات وأسقطوا المغارم والمكوس واقتضوا الصدقات واستعملوا عليها منهم وعادوا إلى صحرائهم فهلك يحيى بن عمر سنة سبع وأربعين وقدم

مكانه أخاه أبا بكر ونذب المرابطين إلى فتح المغرب فغزا بلاد
السوس سنة ثمان وأربعين وافتتح ماسة وتارودانت سنة تسع
وأربعين وفر أميرها لقوط بن يوسف بن علي المغراوي إلى تادلا
واستضاف إلى بنى يفرن ملوكها وقتل معهم لقوط بن يوسف
المغراوي صاحب غمات وتزوج امرأته زينب بنت اسحق النفاوية
وكانت مشهورة بالجمال والرياسة وكانت قبل لقوط عند يوسف بن
علي بن عبد الرحمن بن وطاس وكان شيخا على وريكة وهي زوجة
هيلانة في دولة امغارن في بلاد المصامدة وهم الشيوخ وتغلب بنو
يفرن على وريكة وملكوا غمات فتزوج لقوط زينب هذه ثم تزوجها
بعده أبو بكر بن عمر كما ذكرنا ثم دعا المرابطين إلى جهاد برغواطة
بعضها سنة خمسين وقد أم المرابطين بعده سليمان ابن حروا
ليرجعوا إليه في قضايا دينهم واستمر أبو بكر بن عمر في اماره قومه
على جهادهم

[١٨٤]

ثم استاصل شأفتهم ومحا أثر دعوتهم من المغرب وهلك في
جهادهم سليمان بن عروا سنة احدى وخمسين لسنة من وفاة عبد
الله بن ياسين ثم نازل أبو بكر مدينة لواتة وافتتحها عنوة وقتل من
كان بها من زناتة سنة ثنتين وخمسين وبلغه وهو لم يستتم فتح
المغرب بعد ما وقع من الخلاف بين لمتونة ومسوفة ببلاد الصحراء
حيث أصل أعياصهم ووشايح أعراقهم ومنيع عددهم فخشى افتراق
الكلمة وانقطاع الوصلة وتلافي أمره بالرحلة وأكد ذلك وزحف بلكين
بن محمد بن حماد صاحب القلعة إلى المغرب سنة ثلاث وخمسين
لقتالهم فارتحل أبو بكر إلى الصحراء واستعمل على المغرب ابن عمه
يوسف بن تاشفين ونزل له عن زوجه زياب بنت اسحق ولحق بقومه
ورفع ما كان بينهم من حرق الفتنة وفتح بابا من جهاد السودان
فاستولى على نحو تسعين رحلة من بلادهم وأقام يوسف بن
تاشفين باطراف المغرب ونزل بلكين صاحب القلعة فاس وأخذ رهنها
على الطاعة وانكف راجعا فحينئذ سار يوسف بن تاشفين في
عسكره من المرابطين ودوخ أقطار المغرب ثم رجع أبو بكر إلى
المغرب فوجد يوسف بن تاشفين قد استبد عليه وأشارت عليه زينب
أن يريه الاستبداد في أحواله وأن يعد له متاع الصحراء وما عونها
فقطن لذلك الامير أبو بكر وتجافى عن المنازعة وسلم له الامر ورجع
إلى أرضه فهلك لمرجه سنة ثمانين وأربعمائة واخطت يوسف مدينة
مراكش سنة أربع وخمسين ونزلها بالخيام وأدار سورها على مسجد
وقصبة صغيرة لاختزان أمواله وسلاحه وكمل تشييدها وأسوارها
على ابنه من بعده سنة ست وعشرين وخمسمائة وجعل يوسف
مدينة مراكش لنزله لعسكره وللتمرس بقبائل المصامدة المصيفة
بمواطنهم بها في جبل دون فلم يكن في قبائل المغرب أشد منهم
ولا أكثر جمعا ثم صرف عزمه إلى مطالبة مغراوة وبنى يفرن وقبائل
زناتة بالمغرب وجذب الخيل من أيديهم وكشف ما نزل بالرعايا من
جورهم وعسفهم فقد كانوا من ذلك على ألم (حدث المؤرخون في
أخبار مدينة فاس ودولتهم فيها بكثير منه) فنازل أولا قلعة فازاز وبها
مهدى بن توالي من بنى يحفش قال صاحب نظم الجواهر وهم بطن
من زناتة وكان أبو تولى صاحب تلك القلعة ووليها هو من بعده فنازله
يوسف بن تاشفين ثم استجاش به على فاس مهدى بن يوسف
الكرنامى صاحب مكناسة بما كان عدو المعنصر المغراوي صاحب
فاس فزحف في عساكر المرابطين إلى فاس وجمع إليه معنصر
ففض جموعه وارتحل يوسف إلى فاس وتقرى منازلها وافتتح جميع
الحصون المحيطة بها وأقام عليها أياما قلائل وظفر بعاملها بكار بن
إبراهيم فقتله ثم نهض إلى مغراوة وافتتحها وقتل من كان بها من
أولاد وانودين المغراوي ورجع إلى فاس فافتتحها صلحا سنة خمس
وخمسين ثم رجع إلى

غمارة ونازلهم وفتح كثيرا من بلادهم وأشرف على طنجة وبها سكوت البرغواطى الحاجب صاحب سبنة وبقية الامراء من موالى الحمودية وأهل دعوتها ثم رجع إلى منازل قلعة فازاز وخالفه معنصر إلى فاس فاستولى عليها وقتل عاملها واستدعى يوسف ابن تاشفين مهدي بن يوسف صاحب مكناسة ليستجيش به على فاس فاستعرضه معنصر في طريقه قبل أن تتصل بأيديهما وناجزه الحرب ففض جموعه وقتله وبعث برأسه إلى وليه ومساهمه في شدته الحاجب سكوت البرغواطى واستصرخ أهل مكناسة بالامير يوسف بن تاشفين فسرح عساكر لمتونة إلى حصار فاس فأخذوا بمخنقتها وقطعوا المرافق عنها وألحوا بالقتال عليها فمسهم الجهد وبرز معنصر إلى مناجزة عدوه لاحدى الراحتين فكانت الدائرة عليه وهلك واجتمع زناتة من بعده على القاسم بن محمد بن عبد الرحمن من ولد موسى بن أبى العافية كانوا ملو كابتازا وتسول فزحفوا إلى عساكر المرابطين والتقوا بوادي سيمير فكان الظهور لزناتة واستلحم كثير من المرابطين واتصل خبرهم بيوسف بن تاشفين وهو محاصر لقلعة مهدي بلاد فازاز فارتحل سنة ست وخمسين ونزل عليها عسكر من المرابطين وصار يتنقل في بلاد المغرب فافتتح بنى مراسن ثم قبولاوة ثم بلاد ورعة سنة ثمان وخمسين ثم افتتح بلاد غمارة سنة ستين وفى سنة ثنتين وستين نازل فاس فحاصرها مدة ثم افتتحها عنوة وقتل بمغازتها ثلاثة آلاف من مغراوة وبنى يفرن ومكناسة وقبائل زناتة حتى أعوزت مدافعهم فرادى فاتخذت لهم الاخايد وقبروا جماعات منهم وخلص من نجا منهم من القتل إلى بلاد تلمسان وأمر بهدم لاسوار التى كانت فاصلة بين القرويين والاندلسيين من عدوتها وصيرها مصرا واحدا وأدار عليها الاسوار وحمل أهلها على الاستكثار من المساجد ورتب بناءها وأرتحل سنة ثلاث وستين إلى وادى ملوية فافتتح بلادها وحصون وطال من نواحيها ثم نهض سنة خمس وستين إلى مدينة الدمنة فافتتحها عنوة ثم افتتح حصن علودان من حصون غمارة ثم نهض سنة سبع وستين إلى جبال غياثة وبنى مكود من أحواز تازا فافتتحها ودوخها ثم اقتسم المغرب عمالات على بنيه وأمراء قومه وذويه ثم استدعاه المعتمد بن عباد إلى الجهاد فاعتذر له بمكان الحاجب سكوت البرغواطى وقومه من أولياء الدولة الحمودية بسبنة فأعاد إليه ابن عباد الرسل بالمشايعة إليهم فجهز إليهم فائده صالح بن عمران في عساكر لمتونة فلقه سكوت الحاجب بظاهر طنجة في قومه ومعه ابنه ضياء الدولة فانكشف وقتل الحاجب سكوت ولحق ابنه العزيز ضياء الدولة وكتب صالح بن عمران بالفتح إلى يوسف بن تاشفين ثم أعزى الامير يوسف بن تاشفين إلى المغرب الاوسط سنة ثنتين وسبعين فائده مزدلى بن تيلكان بن محمد بن وركوت من عشيرة في عساكر لمتونة

لمحاربة مغراوة ملوك تلمسان وبها يومئذ الامير العباس بن بختى من ولد يعلى بن محمد ابن الخير بن محمد بن خزر فدوخوا المغرب الاوسط وصاروا في بلاد زناتة وظفروا ببعلى ابن الامير العباسي فقتلوه وانكفوا راجعين من غزاتهم ثم نهض يوسف بن تاشفين سنة ثلاث بعدها إلى الريف وافتتح كرسف ومليلة وسائر بلاد الريف برقاس ثم افتتح مدينة تلمسان واستلحم من كان بها من مغراوة وقتل العباس بن بختى أمير تلمسان وأنزل محمد ابن تيغمر المستوفى بها في عساكر المرابطين فصارت ثغرا لملكه ونزل بعساكره واختط بها مدينة تاكرارت بمكان محلته وهو اسم المحلة بلسان البربر ثم

افتتح مدينة تنس ووهران وجبل وانشريرس إلى الجزائر وانكف راجعاً إلى المغرب قافلاً مراکش سنة خمس وسبعين ولم يزل محمد بن تيغمر واليا بتلمسان إلى أن هلك وولى بعده اخوه تاشفين ثم ان الطاغية تكالب على بلاد المسلمين وراء البحر وانتهاز الفرصة فيها بما كان من الفرقة بين ملوك الطوائف فحاصر طليطلة وبها القادر بن يحيى بن ذى النون حتى نالهم الجهد وتسلمها منه صلحا سنة ثمان وسبعين على أن يملكه بلنسية فبعث معه عسكريا من النصرانية فدخل بلنسية وتملكها على حين مهلك صاحبها أبى بكر بن العزيز بين يدي حصار طليطلة وسار الطاغية في بلاد الاندلس حتى وقف بفرصة المجاز من صريف وأعبا أمره أهل الاندلس واقتضى منهم الجزية فأعطوها ثم نازل سرقسطة وضيق على ابن هودبها وطال مقامه وامتد امله إلى تملكها فخاطب المعتمد بن عباد أمير المسلمين يوسف بن تاشفين منتجرا وعده في صريح الاسلام بالعدوة وجهاد الطاغية وكتبه أهل الاندلس كافة من العلماء والخاصة فاهتز للجهاد وبعث ابنه المعز في عساكر المرابطين إلى سبتة فرصة المجاز فنزلها برا وأحاطت بها أساطيل ابن عباد بحرا فاقتحموها عنوة في ربيع الآخر سنة ست وسبعين وتقبض على ضيا الدولة وقيد إلى المغرب فقتله صبرا وكتب إلى أبيه بالفتح ثم أجاز ابن عباد البحر في جماعته والمرابطين ولقيه بفاس مستنفر للجهاد وأنزل له ابنه الراضي عن الجزيرة الخضراء لتكون رباطا لجهاده فأجاز البحر في عساكر المرابطين وقبائل المغرب ونزل الجزيرة سنة تسع وثمانين واربعمائة ولقيه المعتمد بن عباد وابن الألفس صاحب بطليوس وجمع ابن أدفونس ملك الجلالقة أمم النصرانية لقتاله ولقى المرابطين بالزلاقة من نواحي بطليوس فكان للمسلمين عليه اليوم المشهور سنة احدى وثمانين ثم رجع إلى مراکش وخلف عسكريا بالاشبيلية لنظر محمد ومجون بن سيمون بن محمد بن وركوت من عشيرة ويعرف أبوه بالحاج وكان محمد من بطانته وأعظم قواد تكاليب الطاغية على شرق الاندلس ولم يغن فيه أمراء الطوائف شيئا فزحف إليه من سبتة ابن الحاج قائد يوسف بن تاشفين

في عساكر المرابطين فهزموا جميع النصارى هزيمة شنيعة وخلع ابن رشيق صاحب مرسية وتمادى إلى دانية ففر على بن مجاهد أمامه إلى بجاية ونزل على الناصر بن علناس فأكرمه ووصل ابن جحاف قاضي بلنسية إلى محمد بن الحاج مغريا بالقادر بن ذى النون فأنفذ معه عسكريا وملك بلنسية وقتل ابن ذى النون وذلك سنة خمس وثمانين وانتهى الخبر إلى الطاغية فنزل بلنسية واتصل حصاره إياها إلى أن ملكها سنة خمس وثمانين ثم استخلصتها عساكر المرابطين وولى عليها يوسف بن تاشفين الامير مزدلى واجاز يوسف ابن تاشفين ثانية سنة ست وثمانين وتناقل امراء الطوائف عن لقائه لما أحسوا من نكيره عليهم لما يسمون به عليهم من الظلمات والمكوس وتلاحق المغارم فوجد عليهم وعهد برفع المكوس وتجرى المعدلة فلما أجاز انقبضوا عنه الا ابن عباد فانه بادر إلى لقائه وأغراه بالكثير منهم فتقبض على ابن رشيق فأمكن ابن عباد منه العداوة التى بينهما وبعث جيشا إلى المرية ففر عنها ابن صمادح ونزل على المنصور بن الناصر ببجاية وتوافق ملوك الطوائف على قطع المدد عن عساكره ومحلاته فساء نظره وأفتاه الفقهاء وأهل الشورى من المغرب والاندلس بخلعهم وانتزاع الامر من أيديهم وصارت إليه بذلك فتاوى أهل الشرق الاعلام مثل الغزالي والطرطوشي فعهد إلى غرناطة واستنزل صاحبها عبيد الله بن بلكين بن باديس وأخاه تميما من مالقة بعد ان كان منهما مداخلة الطاغية في عداوة يوسف بن تاشفين وبعث بهما إلى المغرب فخاف ابن عباد عند ذلك منه وانقبض عن لقائه وفشت السعيات بينهما ونهض يوسف بن تاشفين إلى سبتة فاستقر بها وعقد للامير سير بن أبى

بكر بن محمد وركوت على الاندلس وأجازه فقدم عليها وقعد ابن عباد عن تلقيه وميرته فأحفظه ذلك وطالبه بالطاعة للامير يوسف والنزول عن الامر ففسد ذات بينهما وغلبه على جميع عمله واستنزل أولاد المأمون من قرطبة ويزيد الراضي من رندة وقرمونة واستولى عن جميعهما وقتلهم وصمد إلى اشبيلية فحاصر المعتمد بها وضيق عليه واستنجد الطاغية فعمد إلى استنقاذه من هذا الحصار فلم يخن عنه شيئا وكان دفاع لمتونة مما فت في عضده واقتحم المرابطون اشبيلية عليه عنوة سنة أربع وثمانين وتقبض على المعتمد وقاده أسيرا إلى مراكش فلم يزل في اعتقال يوسف بن تاشفين إلى أن هلك في محبسه بأغصات سنة سبعين وأربعمائة ثم عمد إلى بطليوس وتقبض على صاحبها عمر بن الافطس فقتله وابنيه يوم الاضحى سنة تسع وثمانين بما صح عنده من مداخلتهم الطاغية وإن يملكوه مدينة بطليوس ثم اجاز يوسف بن تاشفين الجواز الثالث سنة تسعين وزحف إليه الطاغية فبعث عساكر المرابطين لنظر محمد بن الحاج فانهمز النصارى امامه وكان الظهور للمسلمين ثم اجاز الامير يحيى بن أبى بكر بن يوسف

[١٨٨]

ابن تاشفين سنة ثلاث وتسعين وانضم إليه محمد بن الحاج سير بن أبى بكر واقتحموا عامة الاندلس من أيدي ملوك الطوائف ولم يبق منها الا سرقسطة في يد المستعين بن هود معتصما بالنصارى وغزا الامير مزدلى صاحب بلنسية إلى بلد برشلونة فأثنى بها وبلغ إلى حيث لم يبلغ أحد قبله ورجع وانتظمت بلاد الاندلس في ملكة يوسف بن تاشفين وانقرض ملك الطوائف منها أجمع كان لم يكن واستولى على العدوتين واتصلت هزائم المرابطين مرارا وتسمى بامير المسلمين وخاطب المستنصر العباسي الخليفة لعهد بغداد وبعث إليه عبد الله بن محمد بن العرب المعامى الاشبيلي وولده القاضى أبى بكر فتلفا في القول وأحسننا في الإبلاغ وطلبنا من الخليفة أن يعقد له على المغرب والاندلس فعقد له وتضمن ذلك مكتوب الخليفة بذلك منقولاً في أيدي الناس وانقلبا إليه بتقليد الخليفة وعهده على ما إلى نظره من الاقطار والاقاليم وخاطبه الامام الغزالي والقاضى أبو بكر الطرطوشى يحضانه على العدل والتمسك بالخير ويفتيانه في شأن ملوك الطوائف بحكم الله ثم اجاز يوسف بن تاشفين الجواز الرابع إلى الاندلس سنة سبع وتسعين وقد كان ما قدمناه في أخبار بنى حماد من زحف المنصور بن الناصر إلى تلمسان سنة سبع وتسعين للفتنة التى وقعت بينه وبين تاشفين بن يتنعمر وافتتاحه أكثر بلادهم فصالحه يوسف بن تاشفين واسترضاه بعدول تاشفين عن تلمسان سنة سبع وتسعين وبعث اليهما مزدلى من بلنسية وولى بلنسية عوضاً منه أبى محمد بن فاطمة وكثرت غزواته في بلاد النصرانية وهلك يوسف على رأس المائة الخامسة وقام بالامر من بعده ابنه على بن يوسف فكان خير ملك وكانت إيامه صدراً منها وداعة ودولته على الكفر وصله وظهوراً وعزة وأجاز إلى العدو فأتخن في بلاد العدو وقتلا وسبياً وولى على الاندلس الامير تميم بن وجمع الطاغية للامير تميم فهزمه تميم ثم اجاز على بن يوسف سنة ثلاث ونازل طليطلة وأثنى في بلاد النصارى ورجع وعلى اثر ذلك قصد ابن ردمير سرقسطة وخرج ابن هود للقاته فانهمز المسلمون ومات ابن هود شهيداً وحاصر ابن ردمير البلد حتى نزلوا على حكمه ثم كان سنة تسع شأن برقة وتغلب أهل جنوة عليها وأخلوها ثم رجع العمران إليها على يد مرتانا فرطست من قواد المرابطين كما مر في ذكرها عند ذكرها عند ذكر الطوائف ثم استمرت حال على بن يوسف في ملكه وعظم شأنه وعقد لولده تاشفين على غرب الاندلس سنة ست وعشرين وانزله قرطبة واشبيلية وأجاز معه الزبير بن عمر وحشد قومه وعقد لابي بكر ابن ابراهيم المسوقى على شرق الاندلس وانزله بلنسية وهو

ممدوح ابن خفاجة ومخدوم أبي بكر بن ماجه الحكيم المعروف بابن الصائغ وعقد لابن غانية المسوقى على الجزائر الشرقية دانية وميورقة واستقامت أيامه ولاربع عشرة سنة من دولته كان ظهور

[١٨٩]

الامام المهدي صاحب دعوة الموحدين فقيها منتحلا للمعلم والفتيا والتدريس أمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر متعرضا بذلك للمكروه في نفسه ونالته بجاية وتلمسان وكناسة اذايات من الفسقة ومن الظالمين وأحضره الامير على بن يوسف للمناظرة ففلج على خصومه من الفقهاء بمجلسه ولحق بقومه هرغة من المصامدة واستدرك على بن يوسف رأيه فتفقدته وطالب هرغة بأحضاه فأبوا عليه فشرد إليهم البيعت فأوقعوا به وتقاسم معهم هنتاة وتينملل على اجارته والوفاء بما عاهدهم عليه من القيام بالحق والدعاء إليه حسبا يذكر ذلك كله بعد دولتهم وهلك المهدي في سنة أربع وعشرين وقام بأمرهم عبد المؤمن بن على الكومى كبير أصحابه بعهدة إليه وانتظمت كلمة المصامدة وأغزوا مراکش مرارا وفشل ريح لمتونة بالعدوة الاندلسية وظهر أمر الموحدين وفتت كلمتهم في برابر المغرب وهلك على بن يوسف سنة سبع وثلاثين وقام بالامر من بعده ولده تاشفين وولى عهده وأخذ بطاعته وبيعته أهل العدوتين كما كانوا على حين استغلت أمر الموحدين واستفحل شأنهم وألحوا في طلبه وغزا عبد المؤمن غزوته الكبرى إلى جبال المغرب ونهض تاشفين بعساكره بالبساط إلى أن نزل تلمسان ونازله عبد المؤمن والموحدون بكهف الضحاك بين الصخرتين من جبل تيطرى المطل عليها ووصله هنا لك مدد صنهاجة من قبل يحيى بن عبد العزيز صاحب بجاية مع قائده طاهر بن كباب وشروهوا إلى مدافعة الموحدين فغلبوهم وهلك طاهر واستلحم الصنهاجيون وفرتاشفين إلى وهران في موادة لب بن ميمون قائد البحر بأساطيله واتبعه الموحدون واقتحموا عليه البلد فهلك يقال سنة احدى وأربعين واستولى الموحدون على المغرب الاوسط واستلحموا لمتونة ثم بويع بمراكش ابنه ابراهيم والقوه مضعفا عاجزا فخلع وبويع عمه اسحق بن على بن يوسف بن تاشفين وعلى هيئة ذلك وصل الموحدون إليها وقد ملكوا جميع بلاد المغرب عليه فخرج إليهم في خاصته فقتلهم الموحدون واجاز عبد المؤمن والموحدون إلى الاندلس سنة احدى وخمسين وملكوا واستلحموا أمراء لمتونة وكافتهم وفروا في كل وجه ولحق فلهم بالجزائر الشرقية ميورقة ومن ورقة وبابسة إلى أن جددوا من بعده للملك بناحية افريقية والله غالب على أمره } الخبر عن دولته ابن غانية من بقية المرابطين وما كان له من الملك والسلطان بناحية قابسي وطرابلس واجلابه على الموحدين ومظاهرة قراقيش الغزى له على أمره وأولية ذلك ومصابره { كان أمر المرابطين من أوله في كدالة من قبائل الملتمين حتى هلك يحيى بن ابراهيم

[١٩٠]

فاختلفوا على عبد الله بن ياسين امامهم وتحول عنهم إلى لمتونة وأقصر عن دعوته وتنسك وترهب كما قلناه حتى إذا أجاب داعية يحيى بن عمر وأبى بكر بن عمر من بنى ورتانطو بيت رياسة لمتونة واتبعهم الكثير من قومهم وجاهدوا معه سائر قبائل الملتمين وكان مسوقة قد دخل في دعوة المرابطين كثير منهم فكان لهم بذلك في تلك الدولة حظ من الرياسة والظهور وكان يحيى المسوقى من رجالاتهم وشجعانهم وكان مقدما عند يوسف بن تاشفين لمكانه في قومه واتفق أنه قتل بعض رجالات لمتونة في ملاحاة وقعت بينهما فتتاور الحيات وفرهوا إلى الصحراء ففدى يوسف بن تاشفين القتيل

ووداه واسترجع عليا من مفره لسنين من مغيبه وأنكحه امرأة من أهل بيته تسمى غانية بعهد ابيها إليه في ذلك فولدت منه محمدا ويحيى تحت ابن تاشفين وحجر كفالته ورعى لهما على بن يوسف ذمام هذه الامور وعقد ليحيى على غرب الاندلس وأزله قرطبة وعقد لمحمد على الجزائر الشرقية ميورقة ومن ورقة ويابسة سنة عشرين وخمسماية وانقرض بعد ذلك أمر المرابطين وتقدم وفد الاندلس إلى عبد المؤمن وبعث معهم أبا اسحق براق بن محمد المصمودي من رجالات الموحدين وعقد له على حرب لمتونة كما يذكر في أخبارهم فملك اشبيلية واقتضى طاعة يحيى بن علي بن غانية واستنزله عن قرطبة إلى حمال والقلية فسار منها إلى غرناطة يستنزل من بها من لمتونة ويحملهم على طاعة الموحدين فهلك هنا لك سنة ثلاث وأربعين ودفن بقصر باديس وأما محمد بن علي فلم يزل واليا إلى أن هلك وقام بأمره بعده ابنه عبد الله ثم هلك وقام بالامر أخوه اسحق بن محمد بن علي وقيل ان اسحق ولى بعد ابنه محمد وأنه قتل غير من أخيه عبد الله لكان أبيه منه فقتلها معا واستبد بأمره إلى أن هلك سنة ثمانين وخمسماية وخلف ثمانية من الولد وهم محمد وعلي ويحيى وعبد الله والغاني وسير والمنصور وجبارة فقام بالامر ابنه محمد ولما أجاز يوسف بن عبد المؤمن بن علي إلى ابن البربرتيير لاختبار طاعتهم وأحسن وصوله نكر ذلك اخوته وتقبضوا عليه واعتقلوه وقام بالامر أخوه علي بن محمد بن علي وتلوموا في رد ابن البربرتيير إلى مرسله وحالوا بينه وبين الاسطول حين بلغهم أن الخليفة يوسف القسري استشهد في الجهاد باركش من العدو وقام بالامر ابنه يعقوب واعتقلوا ابن البربرتيير وركبوا البحر في ثنتين وثلاثين قطعة من أساطيلهم واسطولوه وركب معه اخوته يحيى وعبد الله والغاني وولى على ميورقة عمه أبا الزبير وأقلعوا إلى بجاية فطرقوها على حين غفلة من أهلها وعليها السيد أبو الربيع بن عبد الله بن عبد المؤمن وكان بايميلول من خارجها في بعض مذاهبه فلم تمنعه أهل البلد واستولوا عليها في صفر سنة احدى وثمانين واعتقلوا بها السيد أبا موسى بن عبد المؤمن كان قافلا من افريقية يؤم المغرب

[١٩١]

واستجروا ما كان بدار السادة والموحدين وكان ولى القلعة فاصدا مراكش وهو يستخبر خبر بجاية فرجع وظاهر السيد ابا الربيع وزحف اليهما على بن غانية فهزمهما واستولى على أموالهما وأسريا ولحقا بتلمسان فنزلا بها على السيد أبي الحسن بن أبي حفص بن عبد المؤمن وأخذ في تحصين تلمسان ورم اسوارها واقاما عند السيد يرومان الكرة من صاحب تلمسان وغار على بن محمد بن غانية في الاموال وفرقها في ذؤبان العرب ومن انضاف إليهم ورحل إلى الجزائر فافتتحها وولى عليها يحيى بن أبي طلحة ثم افتتح مازونة وانتهى إلى مليانة فافتتحها وولى عليها بدر بن عائشة ثم نهض إلى القلعة فحاصرها ثلاثا ودخلها عنوة وكانت له في المغرب خطة مشهورة ثم قصد قسنطينة فامتنعت عليه واجتمعت إليه وفود العرب فاستنجدهم و جاؤا باحلافهم ولما اتصل الخبر بالمنصور وهو بسببته مرجعه من الغزو سرح العساكر في البر لنظر السيد أبي زيد بن أبي حفص بن عبد المؤمن وعقد له على المغرب الاوسط وبعث الاساطيل إلى البحر وقائدها أحمد الصقلي وعقد عليها لابي محمد بن ابراهيم بن جامع وزحفت العساكر من كل جهة فثار أهل الجزائر على يحيى بن أبي طلحة ومن معه وأمكنوا منهم السيد أبا يزيد فقتلهم على شلف وعفا عن يحيى لنجدة عمه طلحة وكان بدر بن عائشة اسرى من مليانة واتبعه الجيش فلحقوه أمام العدو فتقبضوا عليه بعد قتال مع البرابرة حين أرادوا اجارته وقادوه إلى السيد أبي يزيد فقتله وسبق الاسطول الي بجاية فثار بيحيى بن غانية وفر إلى أخيه على لمكانه من حصار قسنطينة بعد ان كان أخذ بمخنقها ونزل

السيد أبو زيد بعساكره بتكلات من ظاهر بجاية وأطلق السيد أبا موسى من معتقله ثم رحل في طلب العدو فأفرج عن قسنطينة بعد ان كان أخذوه مضى شديدا في الصحراء والموحدون في اتباعه حتى انتهوا إلى مغرة ونغارس ثم نقلوا إلى بجاية واستنفر السيد أبا زيد بها وقصد على بن غانية في قفصة فملكها ونازل بورق وقصطيلة فامتنعت وارتحل إلى طرابلس وفيها قراقش الغزي المطغري وكان من خبره على ما نقل أبو محمد التيجاني في كتاب رحلته ان صلاح الدين صاحب مصر بعث تقي الدين ابن أخيه شاه إلى المغرب لافتتاح ما أمكنه من مدينة تكون له معقلا يتحصن فيه من مطالبة نور الدين محمود بن زنكى صاحب الشام الذى كان صلاح الدين عمه من وزرائه واستعجلوا النصر فخشوا عاديته ثم رجع تقي الدين من طريقه لامر عرض له بعد قراقش الارمني بطائفة من جنوده وفر ابراهيم بن فراتسكين سلاح دار المعظم لسيد الملك المعظم صاحب الدولة ابن أيوب أخى صلاح الدين فأما قراقش فلحق ششيرية وافتتحها وذلك سنة ست وثمانين وخطب فيها صلاح الدين ولاستاذه تقي الدين وكتب لهما بفتح زويلة وغلبه ذى خطاب الهوارى

[١٩٢]

على فلك فزار وكانت ملكا لعمه محمد بن الخطاب بن يصلتن بن عبد الله بن صنع بن خطاب وهو آخر ملوكهم وكانت قاعدة ملكة زويلة وتعرف زويلة ابن خطاب فتقبض عليه وغلبه على المال حتى هلك ولم يزل يفتح البلاد إلى أن وصل طرابلس واجتمع عليه عرب ذياب بن سليم ونهض بهم إلى جبل نفوسة فملكه واستخلص أموال العرب واتصل به مسعود بن زمام شيخ الزواودة من رباح عند مغره من المغرب كما ذكرناه واجتمعت أيديهم على طرابلس وافتتحها واجتمع إليه ذؤبان العرب من هلال وسليم وفرض لهم العطاء واستبد بملك طرابلس وما وراءها وكان قراقش من الارمن وكان يقال له المعظمى والناصرى لانه يخطب للناصر صلاح الدين وكان يكتب في ظهائره ولى امير المؤمنين بسكون الميم ويكتب علامة الظهيرة بخطه وثقت بالله وحده أسفل الكتاب وأما ابراهيم بن قراقش صاحبه فانه سار مع العرب إلى قفصة فملك جميع منازلها واساء ذى المرید واساء قفصة فأمكنوه من البلد لانحرافهم عن بنى عبد المؤمن فدخلها وخطب للعباسي ولصلاح الدين إلى أن قتله المنصور عند فتح قفصة كما نذكره في أخبار الموحدين * (رجع الخبر إلى ابن غانية) * ولما وصل على ابن غانية إلى طرابلس ولقى قراقش اتفقا على المظاهرة على الموحدين واستمال ابن غانية كافة بنى سليم من العرب وما جاورهم من غلاتهم مسوفة وخالطوه في ولايتهم واجتمع إليه من كان منحرفا عن طاعة الموحدين من قبائل هلال مثل جشم ورياح والابشج وخالفتهم زغبة إلى الموحدين فاحتفلوا بطاعتهم سائر أيامهم ولحق بابن غانية فل قومه من لمتونة ومنونة من أطراف البقاع فانعقد أمره وتجدد بذلك القطر سلطان قومه وجدد رسوم الملك واتخذ الآلة وافتتح كثيرا من بلاد الجريد وأقام فيها الدعوة العباسية ثم بعث ولده وكاتبه عبد المؤمن من فرسان الاندلس إلى الخليفة الناصر بن المستضى ببغداد مجددا ما سلف لقومه من المرابطين بالمغرب من البيعة والطاعة وطلب المدد والاعانة فعقد له كما كان لقومه وكتب الكتاب من ديوان الخليفة إلى ملك مصر والشام النائب عن الخليفة بها صلاح الدين يوسف بن أيوب فجاء إلى مصر فكتب له صلاح الدين إلى قراقش واتصل أمرهما في اقامة الدعوة العباسية وظاهره ابن غانية على حصاروا شرفا ففتحها قراقش من يد سعيد بن ابن الحسن وولى عليها مولاه وجعل فيها ذخائره ثم اتصل بها إلى أن وصل قفصة خلعوا طاعة ابن غانية فظاهره قراقش عليها فافتتحها عنوة ثم رحل إلى توزر وقراقش في مظاهرتة فافتتحها أيضا ولما اتصل بالمنصور ما نزل بافريقية من اجلاب ابن غانية وقراقش على بلاد الجريد

نهض من مراكش سنة ثمان وثمانين لحسم هذا الداء واستنقاذ ما غلبوا عليه ووصل إلى تونس فأراح بها وسرح في مقدمته السيد أبا يوسف يعقوب بن أبي حفص عمر بن عبد المؤمن ومعه عمر بن أبي زيد من أعيان الموحدين فلقبهم ابن غانية في جموعه بعهدته فانهمز الموحدون وقتل ابن أبي زيد وجماعة منهم وأسر على بن البربرتيير في آخرين وامتلات أملاك العدو من أسلابهم ومتاعهم ووصل سرعان الناس إلى تونس وصمد المنصور إليهم فأوقع بهم بظاهر الحامة في شعبان من سنته وأفلت ابن غانية وقراقش بحومة الوفر وبأدر أهل قابس وكانت خالصة لقراقش دون ابن غانية فأتوا طاعتهم وأسلموا من كان عندهم من أصحابه وذويه فأحملوا إلى مراكش وقصد المنصور إلى توزر فحاصرها فأسلموا إليه من كان فيها من أصحاب ابن غانية وبأدر أهلها بالطاعة ثم رجع إلى قفصة فحاصرها حتى نزلوا على حكمه وقتل من كان بها من الحشود وقتل إبراهيم ابن فراتكين وامتن على سائر الاعوان وخلي سبيلهم وأمن أهل البلد في أنفسهم وجعل أملاكهم بأيديهم على حكم المساقاة تم عزا العرب واستباح عليهم واحتازهم حتى استقاموا على طاعته وفر ذو المراس كثير الخلاف والفتنة منهم إلى المغرب قبل جشم ورياح والعاصم كما قدمناه وقفل إلى المغرب سنة أربع وثمانين ورجع ابن غانية وقراقش إلى حالهما من الاجلاب على بلاد الجريد إلى أن هلك على في بعض حروبها مع أهل نفاوة سنة أربع وثمانين أصابه سهم غرب كان فيه هلاكه فدفن هنا لك وعفى على قبره وحمل شلوه إلى ميورقة فدفن بها وقام بالامر أخوه يحيى بن اسحق ابن محمد بن غانية وجرى في مظاهرة قراقش ومولاته على سنن أخيه على ثم نزع قراقش إلى طاعة الموحدين سنة ست وثمانين فهاجر إليهم بتونس وتقبله السيد أبو زيد بن أبي حفص بن عبد المؤمن وأقام معه أياما ثم فر ووصل إلى قابس فدخلها مخادعة وقتل جماعة منهم واستبد على أشياخ ذباب والكعوب من بنى سليم فقتل سبعين منهم بقصر العروسيين كان منهم محمود بن طرق أبو المحاميد وحميد بن جارية أبو الجوارى ونهض إلى طرابلس فافتتحها ورجع إلى بلاد الجريد فاستولى على أكثرها ثم فسد ما بينه وبين يحيى بن غانية وسار إليه يحيى فانتهمز قراقش ولحق بالجبال وتوغل فيها ثم فر إلى الصحراء ونزل ودان ولم يزل بها إلى أن حاصره ابن غانية من بعد ذلك بمدة وجمع عليه أهل النار من ذباب واقتحمها عليه عنوة وقتله وابنه بالموحدين ولم يزل بالحضرة إلى أيام المستنصر ثم فر إلى ودان وأجلب في الفتنة فبعث إليه ملك كام من قتله لسنة ست وخمسين وخمسمائة (رجع الخبر) واستولى ابن غانية على الجريد واستنزل ياقوت فولى قراقش من طرده كذا ذكره النجاني في رحلته ولحق ياقوت بطرابلس ونازله ابن

غاية بها وطال أمر حصاره وبالغ ياقوت في المدافعة وبعث يحيى عن أسطول ميورقة فأمده أخوه عبد الله بقطعتين منه فاستولى على طرابلس وأشخص ياقوت إلى ميورقة واعتقل بها إلى أن أخذها الموحدون وكان من خبر ميورقة ان على بن غانية لما نهض إلى فتح بجاية ترك أخاه محمدا وعلى بن البربرتيير في معتقلهما فلما خلا الجو من أولاد غانية وكثير من الحامية دخل في البربرتيير نفر من معقل أهل الجزيرة وثاروا بدعوة محمد وحاصروا لقصيبة إلى ان صالحهم أهلها على اطلاق محمد بن اسحق فأطلق من معتقله وصار الامر له فدخل في دعوة الموحدين ووفد مع على بن البربرتيير على يعقوب المنصور وخالفهم إلى ميورقة عبد الله بن اسحق ركب

البحر من افريقية إلى صقلية وأمدوه بأسطول ووصلا إلى ميورقة عند وفادة أخيه على المنصور فملكها ولم يزل بها واليا وبعث إلى أخيه على بالمدد إلى طرابلس كما ذكرناه وبعثوا إليه ياقوت فاعتقله عنوة إلى أن غلب عليه الموحدون سنة تسع وتسعين فقتل ومضى ياقوت إلى مراكش وبهامات (رجع الخبر) ولما فرغ ابن غانية من أمر طرابلس ولى عليها تاشفين ابن عمه الغاني وقصد قايس فوجد بها عامل الموحدين ابن عمر تافراكين بعثه إليهم صاحب تونس الشيخ أبو سعيد ابن أبي حفص فاستدعاه أهلها لما فر عنهم نائب قراقش أخذ ابن غانية لطرابلس فنارل قايس وضيق عليها حتى سألوه الامان على أن يخلي سبيل بن بافراس فعقد لهم ذلك وأمكنوه من البلد فملكها سنة احدى وتسعين وأغرمهم ستين ألف دينار وقصد المهديّة سنة سبع وتسعين فاستولى عليها وقتل الثائر بها محمد بن عبد الكريم الكرابي (وكان من خبره) أنه نشأ بالمهديّة وصار من جندها المرتدين وهو كوفى الاصل وكانت له شجاعة معروفة فجمع لنفسه خيلا ورجالا وصار يغير على المفسدين من الاعراب بالاطراف فداخلهم هيبة وبعد ذلك ملته وأمده الناس بالدعاء وقدم أبو سعيد بن أبي حفص على افريقية من قبل المنصور لاول ولايته وولى على المهديّة أخاه يونس وطالب محمد بن عبد الكريم بالسهمان في المغانم وامتنع فانزل به النكال وعاقبه بالسجن فديوا إلى ابن عبد الكريم الثورة وداخل فيها بطانته وتقبض على يونس سنة خمس وتسعين واعتقله إلى ان فداه أبو سعيد بخمسائة دينار من الذهب العتيق واستبدل ابن عبد الكريم بالمهديّة ودعا لنفسه وبلغت المتوكل على الله ثم وصل السيد أبو زيد بن أبي حفص عمر بن عبد المؤمن واليا على افريقية فنارل ابن عبد الكريم بتونس سنة ست وتسعين واضطرب معسكره بحلق الوادي وبرز إليه جيوش الموحدين فهزموهم وطال حصاره لهم ثم سألوه الافراج عنهم فأجاب لذلك وارتحل عنهم إلى حصار يحيى بن غانية بفاس فنارله مدة ثما ارتحل إلى قفصة وخرج ابن غانية في اتباعه فانهمز ابن عبد الكريم

امامه ولحق بالمهديّة وحاصره ابن غانية برياسة سنة سبع وتسعين وأمده السيد أبو زيد بقطعتين من الغزاة حتى سأل ابن عبد الكريم النزول على حكمه وخرج إليه فقبض عليه ابن غانية وهلك في اعتقاله واستولى على المهديّة واستضافها إلى ما كان بيده من طرابلس وقابس وصفاقس والجريد ثم نهض إلى الجانب الغربي من افريقية فنارل باجة ونصب عليها المجانيق وافتتحها عنوة وخرّبها وقتل عاملها عمر بن غاب ولحق شريدها بالاربع وشقبنار رية وتركها خالية على عروشها وبعد مدة تراجع إليها ساكنها بأمن السيد أبي زيد فزحف إليها ابن غانية ونارلها وزحف إليه السيد أبو الحسن أخو السيد أبي زيد فلقية بقسنطينة وانهمز الموحدون واستولى على معسكرهم ثم نهض إلى بسكرة واستولى عليها وقطع أيدي أهلها وتقبض على حافظها أبي الحسن ابن أبي يعلى وتملك بعدها بلنسية والقيروان وبايعه أهل بونة ورجع إلى المهديّة وقد استفحل ملكه فأزمع على حصار تونس وارتحل إليها سنة تسع وتسعين واستعمل على المهديّة على بن الغاني ويعرف بالكافي بن عبد الله بن محمد بن علي بن غانية ونزل بالجبل الاحمر من ظاهر تونس ونزل أخوه بحلق الوادي ثم ضابقيه بمعسكرهم وردموا خندقها ونصبوا المجانيق والآلات واقتحموها لاربعة أشهر من حصارها في ختام المائة السادسة وقبض على السيد أبي زيد وابنه ومن كان معه من الموحدين وأخذ أهل تونس بغرم مائة ألف دينار وولى بقبضها منهم كاتبه ابن عصفور وأبا بكر بن عبد العزيز ابن اسكالك فأرهبوا الناس بالطلب حتى لاذ معظمهم بالموت واستعملوا القتل فيما نقل أن اسمعيل بن عبد الرفيع من لؤمائها القى بنفسه في بئر فهلك فرجع الطلب بنفيها عنهم وارتحل إلى نفوسة والسيد أبو زيد

معتقل في معسكره ففعل بهم مثل ذلك وأغرمهم ألف ألف مرتين من الدنانير وكثر عيته وإضراره بالرعية وعظم طغيانه وعتوة واتصل بالناصر بمراكش مادهم أهل افريقية منه ومن ابن عبد الكريم قبله فامتعض لذلك ورحل إليها سنة ستمائة وبلغ يحيى بن غانية خبر مرجعه إليه فخرج من تونس إلى القيروان ثم إلى قفصة واجتمع إليه العرب وأعطوه الرهن على المظاهرة والدفاع ونازل طرة من حصون مغراوة واستمالها وانتقل إلى حامة مطماطة ونزل الناصر تونس ثم قفصة ثم قابس وتحصن منه ابن غانية في جبل دمر فرجع عنه إلى المهديّة وعسكر عليها واتخذ الآلة لحصارها وسرح الشيخ أبا محمد عبد الواحد بن أبي حفص لقتال ابن غانية في أربعة آلاف من الموحدين سنة ثنتين وستمائة فلقبه بجبل تاجورا من نواحي قابس وأوقع به وقتل أخاه جبارة بن اسحق واستنقذ السيد أبا زيد من معتقله ثم افتتح الناصر المهديّة ودخل إليها على بن الغاني في دعوته فتقبله ورفع مكانه ووصله بهدية وافق

[١٩٦]

وصولها برسمة إليه على يد واصل مولاه وكان بها ثوبان منسوجان بالجواهر فوصله بذلك كله ولم يزل معه إلى أن استشهد مجاهدا وولى الناصر على المهديّة محمد بن يعمر من الموحدين ورجع إلى تونس ثم نظر فيمن يوليه أمر افريقية لسد فرجها والذب عنها ومدافعة ابن غانية وجموعه دونها فوقع اختياره على الشيخ أبي محمد بن أبي حفص فعقد له على ذلك سنة ثلاث كما ذكرناه في أخباره ورجع الناصر إلى المغرب وأجمع ابن غانية النهوض لقتال الموحدين بتونس وجمع ذؤيان العرب من الزواودة وغيرهم وأوفد الزواودة يومئذ محمد بن مسعود بن سلطف بخبر بنى عوف بن سليم إلى الموحدين والتقوا بشبور من نواحي بلسة فانهمزمت جموع ابن غانية ولجأ إلى جهة طرابلس ثم نهض إلى المغرب في جموعه من العرب والملثمين فانتهى إلى سجلماسة وامتلأت أيدي اتباعه من النهاب وخرقوا الأرض بالعبث والفساد وانتهى إلى المغرب الأوسط وداخله المفسدون من زناتة وأعرف أن صاحب تلمسان السيد أبا عمران موسى بن يوسف بن عبد المؤمن فلقبه بتاهرت فهزمه ابن غانية وقتله وأسر وأفده وكر راجعا إلى افريقية فاعترضه الشيخ أبو محمد صاحب افريقية في جموع الموحدين واستنقذ الغنائم من أيديهم ولجأ ابن غانية إلى جبال طرابلس وهاجر أخوه سير بن اسحق إلى مراكش فقبله الناصر وأكرمه ثم اجتمع إلى ابن غانية طوائف العرب من رياح وعوف وهيث ومن معهم من قبائل البربر وعزم على دخول افريقية ونهض إليهم الشيخ أبو محمد سنة ست ولقيهم بجبل نفوسة فقل عسكرهم واستلحم أمرهم وغنم ما كان معهم من الظهر والكرع والاسلحة وقتل يومئذ محمد بن الغاني وجوارين ويفرن وقتل معه ابن عمه من كتاب ابن أبي الشيخ ابن عساكر بن سلطان وهلك يومئذ من العرب الهلاليين أمير قرّة سمار بن نخيل (حكى) ابن نخيل إن مغنم الموحدين يومئذ من عساكر الملثمين كانت ثمانية عشر ألفا من الظهر فكان ذلك مما أوهن من شدته وطامن من بأسه وتارت قبائل نفوسة بكبت ابن عصفور فقتلوا ولديه وكان ابن غانية يبعثه عليهم للمغرم وسار أبو محمد في نواحي افريقية ودفع سلبهم واستتار أشياخهم بأهلهم وأسكنهم بتونس حسما لفسادهم وصلحت أحوال افريقية إلى أن هلك الشيخ أبو محمد سنة ثمان عشرة وولى أبو محمد السيد أبو العلا ادريس بن يونس بن عبد المؤمن ويقال بل وليها قبيل مهلك الشيخ أبي محمد فاستطار بعد مهلكه سور بن عباة ولخم فعابه رعيته ونهض إليه السيد أبو العلا ونزل قابس وأقام بقصر العروسيين وسرح ولده السيد أبا زيد بعسكر من الموحدين إلى درج وغدامس وسرح عسكرا آخر إلى ودان لحصار ابن غانية فأرجف بهم العرب ونهضوا

وهم بهم السيد أبو العلا وفر ابن غانية إلى الزاب واتبعه السيد أبو
زيد فنازل

[١٩٧]

بسكرة واقتحمها عليه ونجا ابن غانية وجمع أوباشا من العرب والبربر
واتبعه السيد أبو زيد في الموحدين وقبائل هوارة وتزاحفوا بظاهر
تونس سنة احدى وعشرين فانهزم ابن غانية وجموعه وقتل كثير من
الملثمين وامتلأت أيدي الموحدين من الغنائم وكان طراً له يومئذ
حماس من بعد ما سعى في هذا الزحف أثر مذکور وبلاء حسن وبلغ
السيد أبا زيد إثر هذه الواقعة خير مهلك أبيه بتونس فانكف راجعا
وأعيد بنو أبي حفص إلى مكان أبيهم الشيخ أبي محمد بن أثال
بافريقية واستقل الامير أبو زكريا منهم بأمرها واقتلعها عن ملكه إلى
عبد المؤمن وتناولها من يد أخيه أبي محمد عبد وهذا الامير أبو زكريا
هو جد الخلفاء الحفصيين وماهد أمرهم بافريقية فأحسن دفاع ابن
غانية عنها وشرده في أقطارها ورفع يده شيئا فشيئا عن النيل من
أهلها ورواهاها ولم يزل شريدا مع العرب بالقفار فبلغ سجلماسة من
أقصى المغرب والعقبة الكبرى من تخوم الديار المصرية واستولى
على ابن مذکور صاحب السريقة من تخوم برقة وأوقع بمغراوة لواجد
ماهولجة ومليانة وقتل أميرهم منديل بن عبد الرحمن وصلب شلوه
بسور الجزائر وكان يستخدم الجند فإذا سئموا الخدمة تركهم
لسبيلهم إلى أن هلك لخمسين سنة من امارته سنة احدى وثلاثين
وقيل ثلاث وثلاثين ودفن وعفى أثر مدفنه يقال بوادي الرجوان فقله
الاريس ونقل بجهة مليانة من وادي شلف ويقال بصحراء باديس
ومديد من بلاد الزاب وانقرض أمر الملثمين من مسوفة ولمتونة ومن
جميع بلاد افريقية والمغرب والانديلس بمهلكه وذهب ملك صنهاجة
من الارض يذهب ملكه وانقطاع أمره وقد خلف بنات بعثن زعموا
إلى الامير أبي زكريا لعهد بذلك إلى علجه جابر فوضعن في يده
وبلغه وفاة أبيهن وحسن ظنه في كفالته إياهن فأحسن الامير أبو
زكريا كفالتهن وبنى لهن بحضرته دارا لصونهن معروفة لهذا العهد
بقصر البنات وأقمن تحت حراسته وفي سعة من رزقه موصولات
لوصاة أبيهن بذلك منهن وحفظهن لوصاته ولقد يقال ان ابن عم لهن
خطب احداهن فبعث إليها الامير أبو زكريا فقال لها هذا ابن عمك
وأحق بك فقالت لو كان ابن عمنا ما كفلنا الا جانب إلى أن هلكن
عوانس بعد ان متعن من العمر مجظ (أخبرني والدي رحمه الله) أنه
أدرك واحدة منهن أيام حياته في سنى العشر والسبعمائة تناهز
التسعين من السنين (قال) ولقيتها وكانت من أشرف النساء نفسا
وأسراهن خلفا وأزكاهن حالا والله وارث الارض ومن عليها ومضى
هؤلاء الملثمون وقبائلهم لهذا العهد بمجالاتهم من جواز السواد ان
حجزا بينهم وبين الرمال التي هي تخوم بلاد البربر من المقدس
وافريقية وهم لهذا العهد متصلون من ساحل البحر المحيط في
المغرب إلى ساحل النيل بالمشرق وهلك

[١٩٨]

من قام بالملك منهم بالعدوتين وهم قفل من مسوفة ولمتونة كما
ذكرناه أكلتهم الدولة وابتلعتهم الآفاق والاقطار وأفناهم الرق
واستلحمهم أمراء الموحدين وبقي من أقام بالصحراء منهم على
حالهم الاول من افتراق الكلمة واختلاف البين وهم الآن يعطون طاعة
لملوك السودان يجبون إليهم خراجهم وينفرون في معسكرهم
واتصل بنيانهم على بلاد السودان إلى المشرق مناظر السلع العرب
على بلاد المغربيين وافريقية فكدالة منهم في مقابلة ذوى حسان بن
المعقل غرب السوس الاقصى ولمتونة وتريكة ذوى منصور وذوى عبد

الله بن المعقل أيضا عرب المغرب الاقصى ومسوفة في مقابلة زغبة
عرب المغرب الاوسط ولمطة في مقابلة رياح عرب الزاب وبيجاية
وقسنطينة وتاوكا في مقابلة سليم عرب افريقية وأكثر ما عندهم من
المواشي الابل لمعاشهم وحمل أثقالهم وركوبهم والخيل قليلة
لديهم أو معدومة ويركبون من الابل الفارهة وبسمنونها النجيب
ويقاتلون عليها إذا كانت بينهم حرب وسيرها هملجة وتكاد تلحق
بالركض وربما يغزوهم أهل القيض من العرب وخصوصا بنو سعيد من
بادية رياح فهم أكثر العرب غزوا إلى بلادهم وهو يستبيحون من
صحبوه منهم يرمونه في بطون مغاير فإذا اتصل السياح بأحيائهم
وركبوا في اتباعهم واعترضوهم على المياه قبل فصولهم من تلك
البلاد فلا يكادون يخلصون ويشتد الحرب بينهم فلا يخلص العرب من
غوائلهم الا بعد جهد وقد يهلك بعضهم والله الخلق والامر واذ عرض
لنا ملوك السودان فلنذكر ملوكهم لهذا العهد المجاورين لملوك
المغرب { الخبر عن ملوك السودان المجاورين للمغرب من وراء هؤلاء
الملثمين ووصف أحوالهم والالمام بما اتصل بنا من دولتهم { هذه
الامم السودان من الادميين هم أهل الاقليم التالى وراءه إلى آخر
الاول بل وإلى آخر المعمور متصلون ما بين المغرب والمشرق
ويجاورون بلاد البربر بالمغرب وافريقية وبلاد اليمن والحجاز في الوسط
والبصرة وما وراءها من بلاد الهند بالمشرق وهم أصناف وشعوب
وقبائل أشهرهم بالمشرق الزنج والحبشة والنوبة وأما أهل المغرب
منهم فنحن ذاكروهم بعد ما ننسبهم فبنو حام بن نوح بالحبش من
ولد حبش بن كوش بن حام والنوبة من ولد نوبة بن كوش بن كنعان
بن حام فيما قاله المسعودي وقال ابن عبد البر إنهم من ولد نوب بن
قوط بن مصر بن حام والزنج من ولد زنجى بن كوش وأما سائر
السودان فمن ولد قوط بن حام فيما قاله ابن عبد البر ويقال هو قبط
بن حام وعد ابن سعيد من قبائلهم وأممهم سبعة عشر أمة فمنهم
في المشرق الزنج على بحر الهند لهم مدينة فنية وهم مجوس
وهم الذين غلب رقيقهم بالنصر على ساداتهم مع دعوى الزنج في
خلافة المعتمد قال ويليهم

بربرا وهم الذين ذكرهم امرؤ القيس في شعره والاسلام لهذا العهد
فاش فيهم ولهم يومئذ مقاشن على البحر الهندي يعمرها تجار
المسلمين ومن غربيهم وحولهم الدمام وهم حفاة عراة قال وخرجوا
إلى بلاد الحبشة وهم أعظم امم السودان وهم مجاورون لليمن
على شاطئ البحر الغربي ومنه غزو ملك اليمن ذى نواس وكانت دار
مملكتهم كفرة وكانوا على دين النصرانية وأخذ بالاسلام واحد منهم
زمن الهجرة على ما ثبت في الصحيح والذي أسلم منهم لعهد النبي
صلى الله عليه وسلم وهاجر إليه الصحابة قبل الهجرة إلى المدينة
فأواهم ومنعهم وصلى عليه النبي صلى الله عليه وسلم عند ما
نعى إليه كان اسمه النجاشي وهو بلسانهم انكاش بالكاف المشمة
بالجيم عربتها العرب جيما محضة وألحقتها ياء النسب شأنها في
الاسماء الاعجمية إذا تصرف فيها وليس هذا الاسم سمة لكل من
تملك منهم كما يزعم كثير من الناس ممن لا علم له بهذا ولو كان
كذلك لشهروا اسمه إلى اليوم لان ملكهم لم يتحول منهم وملكهم
لهذا العهد اسمه الخطى اسم السلطان نفسه أو اسم العشيرة
الذين فيهم الملك وفى غزيبه مدينة بها ملك من أعاضهم وله ملك
ضخم وفى شماليه ملك آخر منهم اسمه حق الدين محمد بن على
ابن واصمع فى مدينة أسلم أولوه فى تواريخ مجهولة وكان جده
واصمع مطيعا لملك دامرنا وأدركت الخطى الغيرة من ذلك فغزاه
واستولى على بلاده ثم اتصلت الفتنة وضعف أمر الخطى فاسترجع
بنو واصمع بلادهم من الخطى وبنيه واستولوا على وفات وخربوها
وبلغنا أن حق الدين هلك وملك بعده أخوه سعد الدين وهم مسلمون
ويعطون الطاعة للخطى احيانا ويناذونه أخرى والله مالك الملك (قال

ابن سعيد) ويليهم البجاوة وهم نصارى ومسلمون ولهم جزيرة بسواكن في بحر السوس ويليهم النوبة اخوة الزنج والحبشة ولهم مدينة دنقله غرب النيل وأكثرهم مجاورون للديار المصرية ومنهم رقيق ويليهم زغاوة وهم مسلمون ومن شعوبهم تاجرة ويليهم الكانم وهم خلق عظيم والاسلام غالب عليهم ومدينتهم حميمي ولهم التغلب على بلاد الصحراء إلى فزان وكانت لهم مهادنة مع الدولة الحفصية مذ أولها ويليهم من غربهم كوكو وبعدهم نغاله والتكرور ولمى وتميم وحاي وكورى وأفكار ويتصلون بالبحر المحيط إلى غانية في الغرب اه كلام ابن سعيد ولما فتحت افريقية المغرب دخل التجار بلاد المغرب فلم يجدوا فيهم أعظم من ملوك غانية كانوا مجاورين للبحر المحيط من جانب الغرب وكانوا أعظم أمة ولهم أضخم ملك وحاضرة ملكهم غانية مدينتان على حافتى النيل من أعظم مدائن العالم وأكثرها معتمرا ذكرها مؤلف كتاب رجار وصاحب المسالك والممالك وكانت تجاورهم من جانب الشرق أمة أخرى فيما زعم الناقلون تعرف صوصو بصادين مضمومتين

[٢٠٠]

أو سنيين مهملتين ثم بعدها أمة أخرى تعرف مالى ثم بعدها أمة أخرى تعرف كوكو ويقال ثاغو ثم بعدها أمة أخرى تعرف بالتكرور (وأخبرني) الشيخ عثمان فقيه أهل غانية وكبيرهم علما ودينا وشهرة قدم مصر سنة تسع وتسعين حاجا بأهله وولده ولقيته بها فقال انهم يسمون التكر ورزغاي ومالى إنكاويه اه ثم ان أهل غانية ضعف ملكهم وتلاشى أمرهم واستفحل أمر الملتهمين المجاورين لهم من جانب الشمال مما يلى البربر كما ذكرناه وعبروا على السودان واستباحوا حماهم وبلادهم واقتضوا منهم الاتاوات والجزى وحملوا كثيرا منهم على الاسلام فدانوا به ثم اضمحل ملك أصحاب غانية وتغلب عليهم أهل صوصو المجاورون لهم من أمم السودان واستعبدهم وأصاروهم في جملتهم ثم ان أهل مالى كثروا أمم السودان في نواحيهم تلك واستطالوا على الامم المجاورين لهم فغلبوا على صوصوا وملكوا جميع ما بأيديهم من ملكهم القديم وملك أهل غانية إلى ارن من ناحية الغرب وكانوا مسلمين يذكرون ان أول من أسلم منهم ملك اسمه برمندان ضبطه الشيخ عثمان وحج هذا الملك واقتفى سننه في الحجج ملوكهم من بعده وكان ملكهم الأعظم الذى تغلب على صوصو وافتتح بلادهم وانتزع الملك من أيديهم اسمه ماري جاطة ومعنى ماري عندهم الامير الذى يكون من نسل السلطان وجاطة الاسد واسم الحافد عندهم تلز ولم يتصل بنا نسب هذا الملك وملك عليهم خمسا وعشرين سنة فيما ذكره ولما هلك ولى عليهم من بعده مولى من مواليتهم تغلب على ملكهم اسمه ساكورة وقال الشيخ عثمان ضبطه بلسانهم أهل غانية سيكرة وحج أيام الملك الناصر وقتل عند مرجعه بتاجورا وكانت دولته ضخمة اتسع فيها نطاق ملكهم وتغلبوا على الامم المجاورة لهم وافتتح بلاد كوكو وأصارها في ملكة أهل مالى واتصل ملكهم من البحر المحيط وغانية بالمغرب إلى بلاد التكرور في المشرق واعتز سلطانهم وهابيتهم أمم السودان وارتحل إلى بلادهم التجار من بلاد المغرب وافريقية وقال الحاج يونس ويمال التكرورى ان الذى فتح كوكو هو سقمنجه من قواد منسا موسى وولى من بعده ساكورة وهدانو ابن السلطان ماري جاطة ثم من بعده ابنه محمد بن قوئم انتقل ملكهم من ولد السلطان ماري جاطة إلى ولد أخيه أبى بكر فولى عليهم منسا موسى بن أبى بكر وكان رجلا صالحا وملكا عظيما له في العدل أخبار تؤثر عنه وحج سنة أربع وعشرين وسبعمائة لقيه في الموسم شاعر الاندلس أبو اسحق ابراهيم الساحلي المعروف بالطونجق وصحبه إلى بلاده وكان له اختصاص وعناية ورثها من بعده إلى الآن وأوطنوا الاثر من تخوم بلادهم من ناحية المغرب ولقيه في

منصرفه صاحبنا المعمر أبو عبد الله بن خديجة الكومي من ولد عبد المؤمن كان داعية بالزاب للفاطمي

[٢٠١]

المنتظر وأجلب عليهم بعضائب من العرب فمكر به واركلا واعتقله ثم خلى سبيله بعد حين فخاض إلى السلطان منسا موسى مستجيشا به عليهم وقد كان بلغه توجهه للحج فأقام في انتظاره ببلد غدامس يرجو نصرا على عدوه ومعونة على أمره لما كان عليه منسا موسى من استفحال ملكه بالصحراء الموالية لبلد واركلا وقوة سلطانه فلقى منه مبرة وترحبا ووعدته بالمظاهرة والقيام بثاره واستصحبه إلى بلدة اخرى وهو الثقة (قال كنا نواكبه أنا وأبو اسحق الطونجق ذون وزرانه ووجه قومه نأخذ بأطراف الاحاديث نتمتع وكان متحفا في كل منزل بطرف المآكل والحلاوات قال والذي تحمل آتته وحرينه من الوصائف خاصة اثنا عشر ألفا لابسات أقبية الدياج والحرير اليماني (قال الحاج يونس ترجمان هذه الامة بمصر) جاء هذا الملك منسا موسى من بلده بثمانين حملا من التبر كل حمل ثلاثة قناطير قال وإنما يحملون على الوصائف والرجال في أوطانهم فقط وأما السفر البعيد كالحج فعلى المطايا (قال أبو خديجة) ورجعنا معه إلى حضرة ملكه فأراد أن يتخذ بيتا بمقعد سلطانه محكم البناء مجللا لغرابته بأرضهم فأطرافه أبو اسحق الطونجق بنى قبة مربعة الشكل استفرغ فيها اجادته وكان صناع اليدين واصفى عليها من الكاس ووالى عليها بالاصباغ المشبعة فجاءت من أتقن المياني ووقعت من السلطان موقع الاستغراب لفقدان صنعة البناء بأرضهم ووصله باثنى عشر ألفا من مثاقيل التبر ماثوبة عليها إلى ما كان له من الاثرة والميل إليه والصلات السنينة وكان بين هذا السلطان منسا موسى وبين ملك المغرب لعهد من بنى مريم السلطان أبى الحسن مواصلة ومهاداة سفرت بينهما فيها الاعلام من رجال الدولتين واستجاد صاحب المغرب من متاع وطنه وتحت ممالكة مما تحدث عنه الناس على ما نذكره عند موضعه بعث بها مع على بن غانم المغفل واعيان من رجال دولته وتوارثت تلك الوصلة أعقابهما كما سيأتي واتصلت أيام منسا موسى هذا خمسا وعشرين سنة ولما هلك ولى أمر مالى من بعده ابنه منسا مغاومغا عندهم محمد وهلك لاربع سنين من ولايته وولى أمرهم من بعده منسا سليمان بن أبى بكر وهو أخو موسى واتصلت أيامه أربعا وعشرين سنة ثم هلك فولى بعده ابنه منسا بن سليمان وهلك لسنعة من ولايته فولى عليهم من بعده مارى جاطه بن منسا مغا بن منسا موسى واتصلت أيامه أربعة عشر عاما وكان أشرف وال عليهم بما سامهم من النكال والعسف وافساد الحرم وأتحف ملك المغرب لعهد السلطان أبى سالم بن السلطان أبى الحسن بالمهدية المذكورة سنة ثنتين وستين وكان فيها الحيوان العظيم الهيكل المستغرب بأرض المغرب المعروف بالزرافة تحدث الناس بما اجتمع فيه من مفترق الحلى والشبه في جثمانه ونعوته دهرا (وأخبرني القاضى الثقة أبو عبد الله

[٢٠٢]

محمد بن وانسول من أهل سجلماسة وكان أوطن بأرض كوكو من بلادهم واستعملوه في خطة القضا بمالقية منذ سنة ست وسبعين وسبعمائة فأخبرني عن ملوكهم بالكثير مما كتبه وذكر لي عن هذا السلطان جاطه انه أفسد ملكهم وأتلف ذخيرتهم وكاد أن ينتقض شأن سلطانهم (قال) ولقد انتهى الحال به في سرفه وتبذيره ان باع حجر الذهب الذى كان في جملة الذخيرة عن أبيهم وهو حجر يزن عشرين قنطارا منقولا من المعدن من غير علاج بالصناعة ولا تصفية

بالنار كانوا يرونه من أنفوس الذخائر والغرائب لندور مثله في المعدن فعرضه جاطه هذا الملك المسرف على تجار مصر المترددين إلى بلده وابتاعوه منه بأنجس ثمن إذ استهلك من ذخائر ملوكهم سرفا وتبذيرا في سبيل الفسوق والتخلف (قال) وأصابته علة النوم وهو مرض كثيرا ما يطرق أهل ذلك الاقليم وخصوصا الرؤساء منهم يعتاده غشى النوم عامة ازمائه حتى يكاد أن لا يفيق ولا يستيقظ الا في القليل من أوقاته ويضر صاحبه ويتصل سقمه إلى أن يهلك (قال) ودامت هذه العلة بخلطه مدة عامين إثنين وهلك سنة خمس وسبعين وولوا من بعده ابنه موسى فأقبل على مذاهب العدل والنظر لهم ونكب عن طرق أبيه جملة وهو الآن مرجو الهداية ويغلب على دولته وزيره ماري جاطه ومعنى ماري عندهم الوزير وجاطه تقدم وهو الآن قد حجر السلطان واستبد بالامر عليه ونظر في تجهيز العساكر وتجهيز الكتائب ودوخ اقطار الشرق من بلادهم وتجاوز تخوم كوكو ووجهز إلى منازل نكرت بما وراءها من بلاد الملتمين كتائب نازلتها لاول الدولة وأخذت بمخنقها ثم أفرجت عنها وحاطهم الآن هدنة وتكرت هذه على سبعين مرحلة من بلد واركلا في الجانب القبلي الغربي وفيها من الملتمين يعرف بالسلطان وعليهم طريق الحاج من السودان وبينه وبين أمير الزاب ووركلا مهادة ومراسلة (قال) وحاضرة الملك لاهل مالى هو بلد بنى بلد متسع الخطة معين على الزرع مستبحر العمارة نافع الاسواق وهو الآن محط لركاب البحر من المغرب وافريقية ومصر والبضائع مجلوبة إليها من كل قطر ثم بلغنا لهذا العهد ان منسا موسى توفى سنة تسع وثمانين وولى بعده أخوه منسا معا ثم قتل لسنة أو نحوها وولى بعده صندكى زوج أم موسى صندكى الوزير ووثب عليه بعد أشهر من بيت ماري جاطة ثم خرج من بلاد الكفرة وراءهم وجاءهم رجل اسمه محمود ينسب إلى منساقو بن منسا ولى بن ماري جاطه الاكبر فتغلب على الدولة وملك أمرهم سنة ثنتين وتسعين ولقبه منسامغا والخلق والامر لله وحده

[٢٠٣]

{ الخبر عن لمطة وكزولة وهسكورة بنى يصكى وهم اخوة هواره وصنهاجة { هؤلاء القبائل الثلاثة قد تقدم لنا أنهم اخوة لصنهاجة وأن أم الثلاثة بصكي العرجاء بنت زحيك بن مادغيس فأما صنهاجة فمن ولد عاميل بن زعراع وأما هواره لمن وليد أوربغ وهو ابنها ابن برنس وأما الآخرون فلا تحقيق في نسبهم (قال ابن حزم) ان صنهاجة ولمطة لا يعرف لهما أب وهذه الامم الثلاثة موطنون بالسوس وما يليه من بلاد الصحراء وجبال دون تلو بسائطه وجباله (فأما لمطة) فأكثرهم مجاورون الثلثين من صنهاجة ولهم شعوب كثيرة وأكثرهم طواعن أهل وبر ومنهم بالسوس مسلنازكن ولخس صاروا في عداد ذوى حسان من معقل ويقايا لمطة بالصحراء مع الملتمين ومعظمهم قبيلة بين تلمسان وافريقية وكان منهم الفقيه وكاك بن زيرك صاحب أبى عمران الفاسى وكان نزل سجلماسة ومن تلميذه كان عبد الله بن ياسين صاحب الدولة اللمتونية على ما مر (وأما كزولة) فبطونهم كثيرة ومعظمهم بالسوس ويجاورون لمطة ويجارونهم ومنهم الآن طواعن بأرض السوس وكان لهم مع المعقل حروب قبل أن يدخلوا السوس فلما دخلوه تغلب عليهم وهم الآن من خولهم وأحلافهم ورعاياهم (وأما هسكورة) وهم لهذا العهد في عداد المصامدة وينسبون إلى دعوة الموحدين وهم أمم كثيرة ويطون واسعة ومواطنهم بجبالهم متصلة من درن إلى تادلا من جانب الشرق إلى درعة من جانب القبلة وكان دخول بعضهم في دعوة المهدي قبل فتح مراکش ولم يستكملوا الدخول في الدعوة الا من بعده فلذلك لا يعدهم كثير من الناس في الموحدين وان عدوا فليسوا من أهل السابقة منهم لمخالفتهم الامام أول الامر وما كان من حروبهم معه ومع أوليائه وشيعته وكانوا ينادون بخلافهم وعداوتهم ويجهرون

بلعنهم فتقول خطباؤهم في مجامع صلواتهم لعن الله هنتاة وتينملل وهرنه وهرزجة فاستقامتهم على الدعوة كان بعد فتح مراكش ويطون هسكورة هؤلاء متعددون فمنهم مصطاوة وعجرامة وزمراوة وانتيفت وبنو نغال وبنو رسكونت إلى آخرين لم يحضرني أسماؤهم وكانت الرياسة عليهم آخر دولة الموحدين لعمر بن وقاريط المنتسب وذكره في أخبار المأمون والرشيد من بنى عبد المؤمن خلاف الموحدين بمراكش ثم كان من بعده مسعود بن كلداسن وهو القائم بأمر دبوس والمظاهر له على شأنه وأطنه جد بنى مسعود الرؤفاء عليهم لهذا العهد من فطواكة المعروفين ببنى خطاب لاتصال الرياسة في هذا البيت ولما انقرض أمر الموحدين استعصوا على بنى مرين مدة واختلف حالهم معهم في الاستقامة والنفرة وكانوا ملجأ النازعين عن الطاعة من عرب جشم وماوى للثائرين منهم ثم استقاموا

[٢٠٤]

وإدعوا لاداء الضرايب والمغارم وجبايتها من قومهم والخوف إلى العسكر إلى السلطان متى دعوا إليها شأن غيرهم من سائر المصامدة (وأما انتيفت فكانت رياستهم في أولاد هنوا وكان يوسف بن كنون منهم اتخذ لنفسه حصن تاقويت وامتنع به ولم يزل ولده على ومخلوف يشيدانه من بعده وهلك يوسف وقام بأمره ابنه مخلوف وجاهر بالنفاق سنة ثنتين وسبعمائة ثم راجع الطاعة وهو الذى تقبض على يوسف بن أبى عياد المتعدى على مراكش أيام أبى ثابت سنة سبع وسبعمائة كما نذكر في أخباره لما أحيط به فتقبض عليه مخلوف وأمكن منه وكانت وسيلته من الطاعة وكان من بعده ابنه هلال ابن مخلوف والرياسة فيهم متصلة لهذا العهد (وأما بنو نغال) فكانت رياسته لأولاد تروميت وكان منهم لعهد السلطان أبى سعيد وابنه أبى الحسن كبيرهم على بن محمد وكان له في الخلاف والامتناع ذكر واستنزه السلطان أبو الحسن من محله لأول ولايته بعد حصاره بمكانه وأصاره في جملته تحت عنايته وأمراة إلى ان هلك بتونس بعد واقعة القيروان في الطاعون الجارف وولى بنوه من بعده أمر قومهم إلى ان انقرضوا والرياسة لهذا العهد في أهل بيتهم ولاهل عمومهم (وأما فطواكة) وهم أوسع بطونهم وأعظمهم رياسة فيهم وأقربهم اختصاصا لصاحب الملك واستعمالا في خدمته وكان بنو خطاب منذ انقراض أمر الموحدين قد جنحوا إلى بنى عبد الحق وأعطوهم المقادة واختصوا شيوخهم في بنى خطاب بالولاية عليهم وكان شيخهم لعهد السلطان يوسف بن يعقوب محمد ابن مسعود وابنه عمر من بعده وهلك عمر سنة أربع وسبعمائة بمكانه من محله وولى بعده عمه موسى بن مسعود وسخطه السلطان لتوقع خلافه فاعتقله وكان خلاصه من الاعتقال سنة ست وسبعمائة وقام بأمر هسكورة من بعده محمد بن عمر بن محمد بن مسعود ولما استفحل ملك بنى مرين وذهب أثر الملك من المصامدة وبعد عهدهم صار بنو مرين إلى استعمال رؤسائهم في جباية مغارمهم لكونهم من جلدتهم ولم يكن فيهم أكبر رياسة من أولاد تونس في هنتاة وبنى خطاب هؤلاء في هسكورة فداولوا بينهم ولاية الاعمال المراكشية وليها محمد بن عمر هذا من بعد موسى بن على وأخيه محمد شيوخ هنتاة فلم يزل واليا منها إلى ان هلك قبيل نكبة السلطان أبى الحسن بالقيروان ولحق ابنه ابراهيم بتلمسان ذاهبا إلى السلطان أبى الحسن فلما دعا أبو عنان إلى نفسه رجع عنه إلى محله وتمسك بما كان عليه من طاعة أبيه ورعاه أبو عنان لعنه عبد الحق وقلده الاعمال المراكشية فلم يغب في منازعه إلى أن لحق السلطان أبو الحسن بمراكش فكان من أعظم دعائه وأبلي في مظاهرته فلما هلك السلطان أبو الحسن اعتقله أبو عنان وأودعه السجن ثم قتله بين يدي نهوضه إلى تلمسان سنة ثلاث وخمسين وقام بأمره من بعده أخو

منصور بن محمد إلى أن ملك الامير عبد الرحمن بن أبي بقلس
مراكش سنة ست وسبعين فاستقدمه وتقبض عليه واعتقله بدار
ابن عمه نحو من العام ابن مسعود بن خطاب كان من جملته وكان
هو وأبوه نازعا إلى بنى مرين خوفا على أنفسهم من أولاد محمد بن
عمر لنرشحهم للامر فلما استمكن منه بداره معتقلا وثب عليه
فقتله واستلحم بنيه معه وسخطه السلطان لها فاعتقله قليلا ثم
أطلقه واستقل برياسة هكورة لهذا العهد والله قادر على ما يشاء *
(الطبقة الثالثة من صنهاجة) * وهذه الطبقة ليس فيثها ملك وهم
لهذا العهد أوفر قبائل المغرب فمنهم الموطنون بالجانب الشرقي من
جبال درن ما بين تازي وتادلا ومعدن بنى فازان حيث الثنية المفضية
إلى أكرسلومن من بلاد النخل ومقصد تلك الثنية من بلادهم وبلاد
المصامدة في المغرب من جبال درن ثم اعتم والسن تلك الجبال
وشواهقها وتنعطف مواطنهم في تلك الثنية إلى ناحية القبلة إلى أن
ينتهى إلى أكرسلومن ثم يرجع معدله من أكرسلومن إلى درعه إلى
ضواحي السوس الأقصى وامصاره من تارودانت وأيفرى ان قوتان
وغيرها ويعرف هؤلاء كلهم باسم صناكة حرفت إليها من اسم
صنهاجة وأشمووا صاده زايا وأبدلوا الجيم بالكاف المتوسطة المخرج
عند العرب لهذا العهد بين الكاف والقاف أو بين الكاف والجيم وهى
معربة النطق ولصنهاجة هؤلاء بين قبائل الغرب أوفر عدد وشدة بأس
ومنعة وأعزهم جانباً أهل الجبال المطلة على تادلا ورياستهم لهذا
العهد في ولد عمران الصناكى ولهم اعتر زعن الدولة ومنعة عن
الهضمة والانقياد المعرى وتتصل بهم

قبائل خبابة منهم طواعن يسكنون الخط وينتجعون مواقع القطر في
نواحي بلادهم بتيغانيمين من قبيلة مكناسة إلى وادي أم ربيع من
تامسنا في الجانب الشمالي من جانبى جبل درن ورياستهم في
ولد هيدى من مشاهيرهم ولهم اعتياد بالغر مرورهم على الذل
وتتصل بهم قبائل ذكالة في وسط المغرب من عدوة أم ربيع إلى
مراكش ويتصل بهم من جهة المغرب على ساحل البحر المحيط
قبيلة بناحية أزموور وأخرى وأفرة العدد مندرجة في عداد المصامدة
وطنا ونحلة وحباية وعمالة ورياستهم لهذا العهد في دولة عزيز بن
بيروك ورئيسهم لاول دولة زناتة ويأتى ذكره ويعرف عقله الآن بنى
بطال ومن بجبال تازي وما والاها مثل بطوية وبخاصة وبنى وارتن
إلى جبل لداى من جبال المغرب معروف بنى بكك احدى قبائلهم
يعطون المغرم على عدة وبطوية منهم ثلاثة بطون بطوية على تازي
وبنى ورياغل على ولد المزمة وأولاد على بتافرسيت وكان لاولاد
على ذمة مع بنى عبد الحق ملوك بنى مرين وكانت أم يعقوب بن
عبد الحق منهم فاستوزرهم وكان منه طلحة بن على وأخوه عمر
على ما يأتى ذكره في دولتهم ويتصل ببسيط بالمغرب ما بين جبال
درن وجبال الريف من ساحل البحر الرومي حيث مساكن حماد الأتى
ذكرهم قبائل أخرى من صنهاجة موطنون في هضاب وأودية وبسائط
يسكنون بيوت الحجارة والطين مثل فشتالة وسطه وبنى ورياكل وبنى
حميد وبنى مزجلدة وبنى عمران وبنى دركول وورترز وملوانة وبنى وامرد
ومواطن هؤلاء كلهم بورغة وامركو يحترفون بالحياكة والحراثة ويعرفون
لذلك صنهاجة البز وهم في عداد القبائل المغارمة ولغتهم في الاكثر
عربية لهذا العهد وهم مجاورون بجبال غمارة ويتصل بجبال غمارة من
ناحيتهم جبل سريف موطن بنى زروال من صنهاجة وبنى مغالة لا
يحترفون بمعاش ويسمون صنهاجة العز لما اقتضته منعة جبالهم
ويقولون لصنهاجة أزموور الذين قدمنا ذكرهم صنهاجة الذل لما هم

عليه من الذل والمغرم والله وارث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين وقد يقال في بعض مزاعم البربر ان بنى وديد من صنهجة وبنو يزناسن وباطويه هم احوال واصل بن ياسين اجناسن ومعناه بلغة الغرب الجالس على الارض { الخبر عن المصامدة من قبائل البربر وما كان لهم من الدولة والسلطان بالمغرب ومبدأ ذلك وتصاريفه } وأما المصامدة وهم من ولد مصمود بن يونس بربر فهم أكثر قبائل البربر وأوفرهم من بطونهم برغواطة وغمارة وأهل جبل درن ولم تزل مواطنهم بالمغرب الاقصى منذ الاحقاب المتطاولة وكان المتقدم فيهم قبيل الاسلام وصدرة برغواطة ثم صار التقدم بعد ذلك لمصامدة حبال درن إلى هذا العهد وكان لبرغواطة في عصرهم دولة ولاهل درن

[٢٠٧]

منهم دولة أخرى ودول حسبما نذكر فلنذكر هذه الشعوب وما كان فيها من الدول بحسب ما بدا الينا من ذلك { الخبر عن برغواطة من بطون المصامدة ودولتهم ومبدأ أمرهم وتصاريف أحوالهم } وهم الجيل الاول منهم كان لهم في صدر الاسلام التقدم والكثرة وكانوا شيخا وشيعا مفترقين وكانت مواطنهم خصوصا من بين المصامدة في بسائط تامسنا وريف البحر المحيط من سلا وازمور وأنقى وأسفى وكان كبيرهم لاول المائة الثانية من الهجرة طريف أبو صبيح وكان من قواد ميسرة الخفير طريف المضفرى القائم بدعوة الصفرية ومعها معزوز بن طالوت ثم انقرض أمر ميسرة والصفرية وبقي طريف قائما بأمرهم بتامسنا ويقال أيضا انه تنبأ وشرع لهم الشرائع ثم هلك وولى مكانه ابنه صالح وقد كان حضر مع أبيه حروب ميسرة وكان من أهل العلم والخير فيهم ثم انسلخ من آيات الله وانتحل دعوى النبوة وشرع لهم الديانة التى كانوا عليها من بعده وهى معروفة في كتب المؤرخين وأدعى انه نزل عليه قرآن كان يتلو عليهم سورا منه يسمى منها سورة الديك وسورة الحمر وسورة الفيل وسورة آدم وسورة نوح وكثير من الانبياء وسورة هاروت وماروت وابليس وسورة غرائب الدنيا وفيها العلم العظيم بزعمهم حرم فيها وحلل وشرع وقصر وكانوا يقرؤنه في صلواتهم وكانوا يسمونه صالح المؤمنين كما حكاه البكري عن زمور بن صالح بن هاشم بن وراذ الوافد منهم على الحاكم المستنصر الخليفة بقرطبة من قبل ملكهم أبى عيسى بن أبى الانصاري سنة ثنتين وخمسين وثلثمائة وكان يترجم عنه بجميع خبره داود بن عمر المسطاسى قال وكان ظهور صالح هذا في خلافة هشام بن عبد الملك من سنة سبع وعشرين من المائة الثانية من الهجرة وقد قيل ان ظهوره كان لاول الهجرة وانه انما انتحل ذلك عنادا ومحاكاة لما بلغه شأن النبي صلى الله عليه وسلم والاول أصح ثم زعم انه المهدي الاكبر الذى يخرج في آخر الزمان وان عيسى يكون صاحبه ويصلى خلفه وان اسمه في العرب صالح وفى السريان مالك وفى الاعجمي عالم وفى العبراني روبا وفى البربري روبا ومعناه الذى ليس بعده نبي وخرج إلى المشرق بعد ان ملك أمرهم سبعا وأربعين سنة ووعدهم انه يرجع إليهم في دولة السابع منهم وأوصى بدينه إلى ابنه الياس وعهد إليه بموالة صاحب الاندلس من بنى أمية وباطهار دينه إذا قوى أمرهم وقام بأمره بعده ابنه الياس ولم يزل مظهدا للاسلام مسرا لما أوصاه به أبوه من كلمة كفرهم وكان طاهرا عفيفا زاهدا وهلك لخمسین سنة من ملكه وولى أمرهم من بعده ابنه يونس فأظهر دينهم ودعا إلى كفرهم وقتل من لم يدخل في أمره حتى حرق مدائن تامسنا

[٢٠٨]

وما والاها يقال انه حرق ثلثمائة وثمانين مدينة واستلحم أهلها بالسيف لمخافتهم إياه وقتل منهم بموضع يقال له تاملوكاف وهو حجر عال نابت وسط الطريق فقتل سبعة آلاف وسبعمائة وسبعين (قال رمون) ورحل يونس إلى المشرق وحج ولم يحج احد من أهل بيته قبله ولا بعده وهلك لاربع وأربعين سنة من ملكه وانتقل الامر عن بنيه وولى أمرهم أبو غفير محمد بن معاد بن اليسع بن صالح بن طريف فاستولى على ملك برغواطة وأخذ بدين آباءه واشتدت شوكته وعظم أمره وكانت له في البربر وقائع مشهورة وأيام مذكورة أشار إليها سعيد بن هشام المصمودي في قوله قفى قبل التفرق واخبرينا * وقولى واخبرى خبرا يقينا وهذى أمة هلكوا وضلوا * وغاروا لا سقوا ماء معينا يقولون التنبى أبو غفير * فأخرى الله أم الكاذبين ألم تسمع ولم ترلؤم بيت * على آثار خيلهم ربينا وهن الباكيات فملكواكى * وعادمة ومسقطه جنينا ستعلم أهل تامسنا إذا ما * أتوا يوم القيامة سقطعينا هنا لك يونس وبنو أبيه * يقودون البرابر حائرنا إذا زرياور طافت عليهم * جبهتهم بأيدى المنكرينا فليس اليوم يومكم ولكن * ليالى كنتم متيسرينا واتخذ أبو غفير من الزوجات أربعا وأربعين وكان له من الولد مثلها وأكثر وهلك أخريات المائة الثالثة لتسع وعشرين سنة من ملكه وولى بعده ابنه أبو الانصار عبد الله فاعتفى سننه وكان كثير الدعوة مهايا عند ملوك عصره يهادونه ويدافعونه بالمواصلة وكان يلبس الملحفة والسراويل ويلبس المخيط ولا يعتم أحد في بلاده الا الغرباء وكان حافظا للجاروفيا بالعهد وتوفى سنة احدى وأربعين من المائة الرابعة لاربع وأربعين سنة من ملكه ودفن باسلاخت وبها قبره وولى بعده ابنه أبو منصور عيسى ابن اثنتين وعشرين سنة فسار سير آباءه وادعى النبوة والكهانة واستد أمره وعلا سلطانه ودانت له قبائل المغرب (قال رمون) وكان عسكره يناهز الثلاثة آلاف من برغواطة وعشرة آلاف من سواهم مثل جراوة وزواغة والبرانس ومجاصة ومضغرة ودمر ومطماطة وبنو وارنكيت وكان أيضا بنو يفرى وأحدة وركامة وايزمن ورفافة ورنمصرارة على دمهم ولم تسجد ملوكهم الا له منذ كانوا اه كلام رمون وكان لملوك العدوتين في غزو برغواطة هؤلاء وجهادهم اساسوا بعده آثار عظيمة من الادارسة والاموية والشيعية ولما أجاز جعفر بن على من الاندلس إلى المغرب وقلده

[٢٠٩]

المنصور بن أبى عامر عمله سنة ست وستين وثلثمائة فنزل البصرة ثم اختلف ذات بينه وبين أخيه يحيى واستمال عليه وجوه الهند وأمر أن يأتيه فيما قاله جعفر عن العمل وصرف وجهه إلى جهاد برغواطة معتده من صالح عمله وزحف إليهم في أهل المغرب وكافة الجند الاندلسيين فلقوه ببسيط بلادهم وكانت عليه الدبرة ونجا بنفسه في فل من جنده ولحق بأخيه بالبصرة ثم أجاز بعدها إلى المنصور باستدعائه وترك أخاه يحيى على عمل المغرب ثم حاربتهم أيضا صنهاجة لما غزا بلكين بن زيرى المغرب سنة ثمان وستين بعدها وأجفلت زناتة امامه وانزواوا إلى حائط سبتة وامتنعوا منه بأعوادها فأنصرف عنهم إلى جهاد برغواطة وزحف إليهم فلقه أبو منصور عيسى بن أبى الانصار في قومه وكانت عليهم الهزيمة وقتل أبو منصور وأثن فيهم بلكين بالقتل وبعث سبيهم إلى القيروان ولم أقف على من ملك أمرهم بعد أبى منصور ثم حاربتهم أيضا جنود المنصور ابن أبى عامر لما عقد عبد الملك بن المنصور لمولاه واضح إمرة برغواطة هؤلاء فيمن قبله من الاجناد وامراء النواحي وأهل الولاية فعظم الاثر فيهم بالقتل والسبي ثم حاربتهم أيضا بنو يفرن لما استقل أبو يعلى بن محمد اليفرنى من بعد ذلك بناحية سلا من بلاد المغرب واقتطعوه من عمل زيرى بن عطية المغراوى بعدما كان بينهما من الحروب وانتساب اولاد يعلى هؤلاء إلى تميم بن زيرى بن يعلى في أول المائة الخامسة وكان موطنها بمدينة سلا ومجاورا

لبرغواطة فكان له أثر كبير في جهادهم وذلك في سنة عشرين وأربعمائة فغلبهم على تامسنا وولى عليها من قبله بعد ان أثنى فيهم سببا وقتلا ثم تراجعوا من بعده إلى أن ساءت دولة لمتونة وخرجوا من مواطنهم بالصحراء إلى بلاد المغرب وافتتحوا الكثير من معاقل السوس الأقصى وجبال المصامدة ثم بدالهم جهاد برغواطة بتامسنا وما إليها من الريف الغربي فزحف إليهم أبو بكر بن عمر أمير لمتونة في المرابطين من قومه وكانت له فيهم وقائع استشهد في بعضها صاحب الدعوة عبد الله ابن ياسين الكبرى سنة خمس مائة وأربعمائة واستمر أبو بكر وقومه من بعده على جهادهم حتى استأصلوا شأفتهم ومحووا من الأرض آثارهم وكان صاحب أمرهم لعهد إنقراض دولتهم أبو حفص عبد الله من أعقاب أبي منصور عيسى بن أبي الانصار عبد الله بن أبي غفير محمد بن معاذ بن اليسع بن صالح بن طريف فهلك في حروبهم وعليه كان انقراض أمرهم وقطع دابرهم على يد هؤلاء المرابطين والحمد لله رب العالمين وقد نقل بعض الناس في نسب برغواطة فيعضهم بعده في قبائل زناتة وآخرون يقولون في صالح انه يهودى من ولد شمعون بن يعقوب نشأ ببرباط ورحل إلى المشرق وقرأ على عبد الله المغربي واشتغل بالسحر وجمع فنونا وقدم المغرب ونزل تامسنا فوجد بها قبائل جهالا

[٢١٠]

من البربر فأظهر لهم الزهد وسحرهم بلسانه وموه عليهم فقصدوه واتبعوه فادعى النبوة وقيل له برباطى نسبة إلى الموطن الذى نشأ به وهو برباط واد بحصن شريش من بلاد الأندلس فعربت العرب هذا الاسم وقالوا برغواط ذكر ذلك كله صاحب كتاب الجوهر وشئ من بساتين البر وهو من الأغاليط البينة وليس القوم من زناتة ويشهد لذلك موطنهم وجوارهم لاخوانهم المصامدة وأما صالح بن طريف فمعروف منهم وليس من غيرهم ولا يتم الملك والتغلب على النواحي والقبائل لمنقطع جذمه دخيل في نسبه سنة الله في عباده وإنما نسب الرجل برغواطة ولهم في شعوب المصامدة شعب معروف كما ذكرناه والله ولى المتقين { الخبر عن غمارة من بطون المصامدة وما كان فيهم من الدول وتصاريف أحوالهم } هذا القبيل من بطون المصامدة من ولد غمار بن مسمود وقيل غمار بن أضياد من مصيمولان ويقول بعض العامة أنهم عرب فروا إلى تلك الجبال فسموا غمارة وهو مذهب عامى وهم شعوب وقبائل أكثر من أن تحصر والبطون المشهورة منهم بنو حمير ومثيوه وبنو مال وأعضاه وبنو وزوال ومحكسة وهم آخر مواطنهم يعتمرون رحاب الريف بساحل بحر الدر من غير عين ببساط المغرب من لدن عساسة فتكرر فبادس فينكيليس فيتطاوير فسبته فالقصر إلى طنجة خمس مراحل أو أزيد وأوطنوا لها جبالا شاهقة اتصل بعضها ببعض سباجا بعد سباج خمس مراحل أخرى من العرض إلى أن يتخطى بسائط قصر كتامة ووادى ورغة من بسائط المغرب ترتد عنها الانصار وتنزل في حافاتها الطيور والهوام وينفسح في رؤسها وسربها الفجاج سبل السفر ومراتع السائمة وقدن المزرعة وادواح الرياض ويبين لك أنهم من المصامدة يبادر النسب المحيط سمو البعض شعوبهم يعرفون بمصمودة ساكنين ما بين سبته وطنجة واليهم

[٢١١]

ينسب قصر المجاز الذى يعبر منه الخليج البحري إلى بلد طريف ويعضده أيضا اتصال مواطنهم بمواطن برغواطة من شعوب المصامدة بريف البحر الغربي وهو المحيط إذ ذاك بنو حسان منهم موطنين بذلك الساحل من لدن أزغر وأصيلا الا أن أنفى من هنا لك تتصل بهم

مواطن برغواطة ودوكالة إلى قبائل درن من المصامدة فما وراءها من بلاد القبلة فالمصامدة هم أهل الجبال بالمغرب الأقصى الا قليلا منها وغيرهم في البسائط ولم تزل غمارة هؤلاء بمواطنهم هذه من لدن الفتح ولم يعلم ما قبل ذلك وللمسلمين فيهم أزمان الفتح وقائع الملاحم وأعظمها لموسى بن نصير وهو الذي حملهم على الاسلام واسترهن أبناءهم وأنزل منهم عسكريا مع خلوف بطنجة وكان أميرهم لذلك العهد بليان وهو الذي وفد عليه موسى بن نصير وأعان في غزو الاندلس وكان منزله سبتة كما نذكره وذلك قبل استجواء تاتكور وكانت في غمارة هؤلاء بعد الاسلام دول قاموا بها لغيرهم وكان فيهم متنيثون ولم تزل الخوارج تقصد جبالهم للمنع فيها كما نذكره ان شاء الله تعالى * (الخبر عن سبتة ودولة بنى عصام بها) * كانت سبتة هذه من الامصار القديمة قبل الاسلام وكانت يومئذ منزل بليان ملك غمارة ولما زحف إليه موسى بن نصير صانعه بالهدايا وأذن للجزية فأقره عليها واسترهن ابنه وأبناء قومه وأنزل طارق بن زياد بطنجة للجزية وضرب عليهم العسكر للنزول معه ثم كانت اجازة طارق إلى الاندلس فضرب عليهم البعوث وكان الفتح لاكفاء له كما مر في موضعه ولما هلك بليان استولى العرب على مدينة سبتة صلحا من أيدي قومه فعمروها ثم كانت فتنة ميسرة الخفير وما دعا إليه من ضلالة الخارجية وأخذ بها الكثير من البرابر من غمارة وغيرهم فزحف من امرة طنجة إلى سبتة وأخرجوا العرب منها وسبوا وخربوها فبقيت خلاء ثم نزل بها ما حكس من رجالاتهم ووجه قبائلهم وبه سميت محكسة فبناها ورجع إليها الناس وأسلم وسمع من أهل زمانه إلى أن مات فقام بأمره ابنه عصام ووليها دهرًا ولما هلك قام بأمره ابنه مجير فلم يزل واليا عليها إلى أن هلك ووليها أخوه الرضى ويقال انه ابنه وكانوا يعطون لبنى ادريس طاعة مضعفة كما نذكره ولما سما للناصر أمل في ملك المغرب ويتناوله حيلة من أيدي بنى ادريس المالكين ببلاد الهبط وغمارة حين أجهضتهم كنامة وزناتة عن ملكهم بفاس وقام بدعوة الناصر وبتوها في أعمالهم نزلوا حينئذ للناصر عن سبتة وأشاروا له إلى تناولها من بنى عاصم فسرح إليها عساكره وأساطيله مع قائده نجاح بن غفير فكان فتحها سنة تسع عشرة وثلثمائة ونزل له الرضى بن عصام عنها وأناه طاعته وانقرض أمر بنى عصام وصارت سبتة إلى الناصر حتى استولى عليها بعد حين بنو حماد واستحدثوا بعدها دولة

[٢٢٢]

أخرى كما نذكره لما استولى المسلمون أيام الفتح على بلاد المغرب وعمالاتها واقتسموها وأمدهم الخلفاء بالبعوث إلى جهاد البربر وكان فيهم من كل القبائل من العرب وكان صالح بن منصور الحميدى من عرب اليمن في البعث الاول وكان يعرف بالعبد الصالح فاستخلص نكور لنفسه واقطعه اليها الوليد بن عبد الملك في أعوام احدى وتسعين من الهجرة قاله صاحب المقباس وبلد نكور ينتهى من المشرق إلى زواغة وجراوة بن أبى الحفيظ مسافة خمسة أيام وتجاورها من هنا لك مطماطة وأهل كدالة ومن نسبة وعساسة أهل جبل مزك وقلدع جاره التى لبنى ورتندى ولميد وزناتة وينتهى من المغرب إلى مروان من غمارة بنى حميد إلى مسطاسة وصنهاجة ومن ورائهم أوربة حزب فرحون وبنى ولميد وزناتة وبنى يونيان وبنى واسن حزب قاسم صاحب والبحر جومى تكون على خمسة أميال فأقام صالح هنا لك لما اقتطع أرضها وكثر نسله واجتمع إليه قبائل غمارة وصنهاجة وأسلموا على يده وقاموا بأمره وملك تكسامان وانتشر الاسلام فيهم ثم ثقلت عليهم الشرائع والتكاليف وارتدوا وأخرجوا صالحا وولوا عليهم رجلا من نفزة يعرف بالرندي ثم تابوا وراجعوا الاسلام وراجعوا صالحا فأقام فيهم إلى أن هلك بتلمسان سنة ثنتين وثلثين ومائة وولى أمره من بعده ابنه المعتصم بن صالح وكان شهما شريف النفس كثير العبادة وكان يلى الصلاة والخطبة

لهم بنفسه ثم هلك لايام يسيرة وولى من بعده أخوه ادريس فاخط مدينة نكور في عدوة الوادي ولم يكملها وهلك سنى ثلاث وأربعين وولى من بعده ابنه سعيد واستفحل أمره وكان ينزل مدينة تكسامان ثم اختط مدينة نكور لأول ولايته ونزلها وهى التى تسمى لهذا العهد المدة بين نهريين أحدهما نكور مخرجه كزنارية ومخرجه من مخرج وادى ورغة واحد والثانى غيس ومخرجه من بلد بنى ورياغيل يجتمع النهران في آكال ثم يفترقان إلى البحر ويقال نكور من عدوة الأندلس بزليانة وغزا المجوس نكور هذه في أساطيلهم سنة أربع وأربعين فغلبوا عليها واستباحوها ثانيا ثم اجتمع إلى سعيد البرانس وأخرجوهم عنها وانتقضت غمارة بعدها على سعيد فخلعوه وولوا عليهم رجلا منهم اسمه مسكن وتراجعوا فاطهر الله عليهم وفرق جماعتهم وقتل مقدمهم واستوسق أمره إلى أن هلك سنة ثمان وثمانين لسبع وثلاثين من أيامه وقام بأمره ابنه صالح بن سعيد فتقبل مذهب سلفه في الاستقامة والافتداء وكان له مع البربر حروب ووقائع إلى أن هلك سنة خمسين ومائتين لاثنتين وسبعين سنة من ملكه وقام من بعده ابنه سعيد بن صالح وكان أصغر ولده فخرج إليه أخوه عبد الله وعمه الرضى وظفر بهما بعد حروب كثيرة فغرب أخاه إلى

[٢١٣]

المشرق ومات بملكه وأبقى على عمه الرضى لمادة صهر بينهما وقتل سائر من ظفر به من عمومته وقرابته وأنهض لهما سعادة الله بن هرون منهم ولحق بنى يصلتين أهل جبل أبى الحسن ودلهم على عورته وبيتوا معسكره واستولوا عليه وأخذوا الالة وقتل منهم خلق ونجا سعادة الله بتلمسان وتقبض على أخيه ميمون فضرب عنقه ثم سار سعادة الله إلى طلب الصلح فأسعفه وأنزله معه مدينة نكور ثم غزا سعيد بقومه وأهل ايلته من غمارة بلاد بطوية ومن يتصو وقلوع جلده وبنى وديدى وأصهر بأخيه إلى أحمد بن ادريس بن محمد بن سليمان صاحبه وأنزله مدينة نكور معه وتوطأ الامر لسعيد في تلك النواحي إلى أن خاطبه عبد الله المهدي يدعوه إلى أمره وفي أسفل كتابه لهم وإن تستقيموا أستقم بصلاحكم * وان تعدلوا عنى أرى قتلکم عدلا وأعلو بسيفي قاهرا لسيوفكم * وأدخلها عفوا واملؤها قتلا فكتب إليه شاعره الاحميس الطليطلى بأمر يوسف بن صالح أخى الامير سعيد كذبت بيت الله ما تحسن العدلا * ولا علم الرحمن من قولك الفصلا وما أنت الا جاهل ومناق * تمثل للجهاى في السنة المثلى وهمتنا العلىا لدين محمد * وقد جعل الرحمن همتك السفلى فكتب عبد الله إلى مصالة بن حيوس صاحب تاهرت وأغزى إليه فغزاه سنة أربع وثلثمائة لاربع وخمسين من دولته فغلبهم سعيد وقومه أياما ثم غلبهم مصالة وقتلهم وبعث برؤوسهم إلى رقادة فطيف بها وركب بقتيهم البحر إلى مالقة فتوسع الناصر في انزالهم وأجازهم واستبلغ في تكريمهم وأقام مصالة بمدينة نكور ستة أشهر ثم قفل إلى تاهرت وولى عليها دلول من كتامة فانفض العسكر من حوله وبلغ الخبر إلى بنى سعيد بن صالح وقومهم بمالقة وهم ادريس والمعتصم وصالح فركبوا السفن إليها وسبق صالح إليها منهم فاجتمع البربر بمرسى تكسامان وبايعوه سنة خمس وثلثمائة ولقبوه القيم لصغره وزحفوا إلى دلول فظفروا به وبمن معه وقتلوههم وكتب صالح بالفتح إلى الناصر وأقام دعوته بأعماله وبعث إليه الناصر بالهدايا والتحف والآلة ووصل إليه اخوته وسائر قومه واتوه طاعة ولم يزل على هدى أوليه من الاقتداء إلى أن هلك سنة خمس عشرة فحاصره وتغلب عليه فقتله واستباح المدينة وخرها سنة سبع عشرة ثم راجع إليها وقام بأمرهم أبو نور اسمعيل بن عبد الملك بن عبد الرحمن بن سعيد بن ادريس بن صالح ابن منصور وأعاد المدينة التى بناها صالح بن منصور وعمرها وسكنها ثلاثا ثم أعزى ميسور مولى أبى القاسم بن عبد الله صدلا

مولاه عندما أناخ على فاس فبعث عسكريا مع صندل هذا فحاصر
جراوة ثم عطف على نكور وتحصن منه اسمعيل بن عبد الملك

[٢١٤]

بقلعة آبرى وبعث إليه صندل رسله من طريقه فقتلهم فأغذ السير
وقاتله ثمانية أيام ثم ظفر به فقتله واستباح القلعة وسبهاها
واستخلف عليها من كنانة رجلا اسمه مرمازو ووصل صندل إلى
فاس فترافع أهل نكور وبايعوا لموسى بن المعتصم بن صالح بن
منصور وكان عند أبي الحسن عند يصلين وكان يعرف بابن رومى
وقال صاحب المقباس هو موسى بن رومى بن عبد السميع بن
رومى بن ادريس بن صالح بن ادريس بن صالح بن منصور وأخذ
مرمازو ومن معه وضرب أعناقهم وبعث برؤوسهم إلى الناصر ثم ثار
عليه من اعياص بيته عبد السميع بن جرثم بن ادريس بن صالح بن
منصور فخلعه وأخرجه عن نكور سنة تسع وعشرين ولحق موسى
بالاندلس ومعه أهله وولده وأخوه هارون بن رومى وكثير من عمومته
وأهل بيته فمنهم من نزل معه المرية ومنهم من نزل مالقة ثم
انتقض أهل نكور على عبد السميع وقتلوه واستدعوا من مالقة جريح
بن أحمد بن زيادة الله بن سعيد بن ادريس بن صالح بن منصور فبادر
إليهم وبايعوه سنة ست وثلاثين فاستقامت له الامور وكان على
مذهب سلفه في الافتداء والعمل بمذهب مالك إلى أن مات آخر
سنة ستين لخمس وعشرين سنة من ملكه واتصلت الولاية في
بيته إلى أن غلب عليهم ازداجة المتغلبين على وهران وزحف
أميرهم يعلى بن أبي الفتوح الازداجى سنة ست وأربعمائة وقتل
سنة عشر فغلبهم على فكور وخربها وانقرض ملكهم بعد ثلثمائة
سنة وأربعة عشر سنة من لدن ولاية صالح وبقيت في بنى يعلى
بن أبي الفتوح وازداجة إلى أعوام ستين وأربعمائة والله مالك الامور
لا اله الا هو اه

[٢١٦]

* (الخبر عن حاميم المتنبى من غمارة) * كان غمارة هؤلاء عريقين
في الجاهلية بل الجهالة والبعد عن الشرائع بالبداءة والانتباز عن
مواطن الخير وتنبأ فيهم من محكسة حاميم بن من الله بن جرير عمر
بن زحفوا ابن أزوال بن محكسة يكنى أبا محمد وأبوه ابا خلف تنبأ
سنة ثلاث عشرة وثلثمائة بجبل حاميم المشتهر به قريبا من تطوان
واجتمع إليه كثير منهم وأقروا بنيوته وشرع لهم الشرائع والديانات
من العبادات والاحكام وصنع لهم قرآنا كان يتلوه عليهم بلسانه فمن
كلامه يا من يخلى البصر ينظر في الدنيا خلنى من الدنيا يأمن أخرج
موسى من البحر امتن بحاميم وبأبيه أبى خلف من الله وأمن رأسي
وعقلي وما يكنه صدري وما أحاط به دمي ولحمي وأمنت نبا بقيت
عمة حاميم أخت أبى خلف من الله وكانت كاهنة ساحرة إلى غير
هذا وكان يلقب المفترى وكانت أخته دبو ساحرة كاهنة وكانوا
يستغيثون بها في الحروب والقحوط وقتل في حروب مضمودة باحواز
طنجة سنة خمسة عشر وثلثمائة وكان لابنه عيسى من بعده قدر
جليل في غمارة ووفد على الناصر ورهطهم بنو زحفوا موطنون وادى
لاو ووادى واشرقرب تطوان وكذلك تنبأ منهم بعد ذلك عاصم بن
جميل البزدعوى وله أخبار مأثورة وما زالوا يفعلون السحر لهذا العهد
وأخبرني المشيخة من أهل المغرب ان أكثر منتحلى السحر منهم
النساء العواتق قال ولهم علم استجلاب روحانية ما يشاؤنه من
الكواكب فإذا استولوا عليه وتكنفوا بتلك الروحانية تصرفوا منها في
الاكوان بما شاؤوا والله علم * (الخبر عن دولة الادارسة وهى غمارة
وتصاريف أحوالهم) * كان عمر بن ادريس قد قاسم محمد بن ادريس

أعمال المغرب بين اخوته برأى جدته كثيرة أم ادريس اختص منها بتكيباس وترغه وبلاد صنهاجة وعمارة واختص القاسم بطنجة وسبتة والبصرة وما إلى ذلك من بلاد غمارة ثم غلب عمر عليها عندما تنكر له أخوه محمد واستضافها إلى عمله كما ذكرنا في أخبارهم ثم تراجع بنو محمد بن القاسم من بعد ذلك إلى عملهم الاول فملكوه واختص منهم محمد بن ابراهيم بن محمد بن القاسم قلعة حجر النسر الدانية وسبتة معقلا لهم وثغرا لعملهم وبقيت الامارة بفاس وأعمال المغرب في ولد محمد بن ادريس ثم أدالوا منهم بولد عمر بن ادريس وكان آخرهم يحيى بن ادريس بن عمر وهو الذى بايع لعبيد الله الشيعي على يد مصالة بن حبوس قائده وعقد له على فاس ثم نكبه سنة تسع وخرج عليها سنة ثلاث عشرة من بنى القاسم الحسن ابن محمد بن القاسم بن إدريس وتلقب بالحجام لطعنه في المحاجم وكان مقداما شجاعا وثار أهل فاس بريحان وملكوا الحسن وزحف إليه موسى فقله ومات

[٢١٧]

واستولى ابن أبى العافية على فاس وأعمال المغرب وأجلى الأدارسة وأجدمهم بحصنهم حجر النسر ويحترف إلى جبال غمارة وبلاد الريف وكان لغمارة في التمسك بدعوتهم اياذ ومقامات واستجدوا بتلك الناحية ملكا توزعوه قطعا كان أعظمها لبنى محمد هؤلاء ولبنى عمر بتيكيسان ونكور وبلاد الريف ثم سما الناصر عبد الرحمن إلى ملك العدو ومدافعة الشيعة فنزل له بنو محمد عن سبتة سنة تسع وتناولها من يد الرضى بن عصام رئيس محكسة وكان يقيم فيها دعوة الأدارسة فأفرجوا له عنها ودانوا بطاعته وأخذها من يده ولما غزا أبو القاسم ميسور إلى المغرب لمحاربة ابن أبى العافية بفاس نقض طاعتهم ودعا للمروانية وجد بنو محمد السبيل إلى الانتصار والانتقام منه بمظاهرة ميسور عليه ووالاهم على ذلك بنو عمر صاحب نكور ولما استقل ابن أبى العافية من نكسته ورجع من الصحراء سنة خمس وعشرين منصرف ميسور من المغرب نازل بنى محمد وبنى عمر وهلك بعد ذلك وأجاز الناصر وزيره قاسم بن محمد بن طملىس سنة ثلاث وثلاثين لحربهم وكتب إلى ملوك مغراوة محمد بن حزر وابنه بمظاهرة عساكره مع ابن أبى العيش عليهم فتسارع أبو العيش بن ادريس بن عمر المعروف بابن شالة إلى الطاعة وأوفد رسله إلى الناصر فعقد له الامان وأوفد ابنه محمد بن أبى العيش مؤكدا للطاعة فاحتفل لقدمه وأكد له العقد ونصل سائر الأدارسة من بنى محمد مذهبههم وسألوا مثل سؤالهم فعقد لجميع بنى محمد أيضا وكان وفد منهم محمد بن عيسى بن أحمد بن محمد والحسن بن القاسم بن ابراهيم بن محمد وكان بنو ادريس يرجعون في رياستهم إلى بنى محمد هؤلاء منذ استبد بها آخرهم الحسن بن محمد الملقب بالحجام في ثورته على ابن أبى العافية فقدموا على أنفسهم القاسم بن محمد الملقب بكنون بعد فرار موسى بن أبى العافية وملك بلاد المغرب ما عدا فاس مقيما لدعوة الشيعة إلى ان هلك بقلعة حجر النسر سنة سبع وثلاثين وقام بأمرهم من بعده أبو العيش أحمد بن القاسم كنون وكان فقيها عالما بالايام والاخبار شجاعا ويعرف بأحمد الفاضل وكان منه ميل للمروانية فدعا للناصر وخطب له على منابر عمله ونقض طاعة الشيعة وبايعه أهل المغرب كافة إلى سجدماسة ولما بايعه أهل فاس استعمل عليهم محمد بن الحسن ووفد محمد بن أبى العيش بن ادريس بن عمر بن شالة على الناصر عن أبيه سنة ثمان وثلاثين فاتصل به وفاة أبيه وهو بالحضرة فعقد له الناصر على عمله وسرحه وهجم عيسى ابن عمه أبى العيش أحمد بن القاسم كنون على عمله بتيكيسان في غيبة محمد فهبطها واحتوى على مال ابن شالة ولما أقبل محمد من الحضرة زحف برابرة غمارة إلى عيسى المذكور ابن كنون ففطعوا به وأثنوه جراحة وقتلوا أصحابه ببلاد غمارة وأجاز الناصر

قواده إلى المغرب وكان أول من أجاز إلى بنى محمد هؤلاء سنة
ثمان

[٢١٨]

وثلاثين أحمد بن يعلى من طبقة القواد في العساكر ودعاهم إلى
هدم تطوان فامتنعوا ثم انقادوا وتنصلوا وأجابوا إلى هدمها ورجع
عنهم فانتقضوا فسرح إليهم حميد بن يصل المكناسى في العساكر
سنة تسع وثلاثين وزحفوا إليه بوادي لاف وأوقع بهم فأذعنوا بعدها
وتغلب الناصر على طنجة من يد أبى العيش أمير بنى محمد وبقي
باصيلا على بيعة الناصر ثم تخطت عساكر الناصر إلى بسائط المغرب
فأذعن له أهله وأخذ بدعوته فيه امرأ زناة من مغراوة وبنى يفرن
ومكناسة كما ذكرناه فضعف أمر بنى محمد واستأذنه أميرهم أبو
العيش في الجهاد فأذن له وأمر ببناء القصور له في كل مرحلة من
الجزيرة إلى الثغر فكانت ثلاثين مرحلة فأجاز أبو العيش واستخلف
على عمله أخاه الحسن به كنون وتلقاه الناصر بالميرة وأجرى له ألف
دينار في كل يوم وهلك شهيدا في مواقف الجهاد سنة ثلاث وأربعين
وأخذ معه قائده جوهرًا ولما قفل من المغرب راجع الحسن الطاعة
للناصر إلى ان هلك سنة خمس فأسحذ الحكم عزمه في سد
ثغور المغرب وإحكام دعوتهم فيه وشحذ لها عزائم أوليائهم من ملوك
زناة فكان بينهم وبين زيرى وبلكين ما ذكرناه ثم أغزى معه بلكين بن
زيرى المغرب سنة ثنتين وستين أولى غزواته فأئخن في زناة وأوغل
في ديار المغرب وقام الحسن بن كنون بدعوة الشيعة ونقض طاعة
المروانية فلما انصرف بلكين أجاز الحكم إلى العدو مع وزيره محمد
بن قاسم بن طملىس وخلف كثيرا من عسكره وأوليائه ودخل فلهم
إلى سبتة واستصرخوا الحكم فبعث غالبا مولاه البعيد الصيت
المعروف بالشهامة وأمده بما يعينه على ذلك من الاموال والجنود
وأمره باستنزال الادارسة وأجاز بهم إليه وقال سر يا غالب مسير من
لا اذن له في الرجوع الا حيا منصورا أو ميتا معذورا واتصل خبره
بالحسن بن كنون فأفرج عن مدينة البصرة واحتمل منها أمواله
وحرمه وذخيرته إلى حجر النسر معقلهم القريب من سبتة ونازله
غالب ببعض مضمودة فاتصلت الحرب بينهم أياما ثم بث غالب المال
في رؤساء البربر من غمارة ومن معه من الجنود وفروا وأسلموه
والحجر بقلعة جبل النسر ونازله غالب وأمده الحكم بعرب الدولة
ورجال الثغور وأجازهم مع وزيره صاحب الثغر الاعلى يحيى بن محمد
بن ابراهيم التجينسى فيمن معه من أهل بيته وحشمه سنة ثلاث
وستين فاجتمع مع غالب على القلعة واشتد الحصار على الحسن
وطلب من غالب الامان فعقد له وتسلم الحصن من يده ثم عطف
على من بقى من الادارسة ببلاد الريف فأزعجهم وسيرهم شرذا
واستنزل جميع الادارسة من معاقلمهم وسار إلى فاس فملكها
واستعمل عليها محمد بن على بن قشوش في عدوة القرويين وعبد
الكريم بن ثعلبة الجذامي في عدوة الاندلس وانصرف غالب إلى
قرطبة ومعه الحسن بن كنون وسائر

[٢١٩]

ملوك الادارسة وقد مهد المغرب وحاله وقطع الشيعة وذلك سنة أربع
وستين وتلقاهم الحكم وأركب الناس للقديم وكان يوم دخولهم إلى
قرطبة احفل أيام الدولة وعفا عن الحسن بن كنون ووفى له بالعهد
وأجزل له ولرجال العطاء والخلع والجعلات وأوسع عليهم الجراية
وأسنى لهم الارزاق ورتب من حاشيتهم في الديوان سبعمائة من
أنجاد المغاربة وتجنى عليه بعد ثلاث سنين بسؤاله من الحسين
قطعة عنبر عظيمة تأدت عليه من بعض سواحل عمله بالمغرب أيام

ملكه فاتخذ منها أريكة يرتفقها ويتوسدها فسأله حملها إليه على أن يحكمه في رضاه فأبى عليه مع سعاية بنى عمه فيه عند الخليفة وسوء خلق الحسن ولجأته فنكبه واستصفى ما لديه من قطعة العنبر وسواها واستقام المغرب للحكم وتظافر امرأؤه على مدافعة بلكين وعقد الوزير المنصوري لجعفر بن علي على المغرب واسترجع يحيى بن محمد بن هاشم وغرب الحسن بن كنون الأدارسة جميعا إلى المشرق استئقالا لنفقاتهم وشرط عليهم أن لا يعودوا فعبروا البحر من المرية سنة خمس وستين ونزلوا من جوار العزيز معد بالقاهرة خير نزل وبالع في الكرامة ووعد بالنصرة والتره ثم بعث الحسن بن كنون إلى المغرب وكتب له إلى آل زيري بن مناد بالقيروان بالمظاهرة فلحق بالمغرب ودعا لنفسه وبعث المنصور بن أبي عامر العساكر لمدافعتة فغلبوه وتقبضوا عليه وأشخصوه إلى الأندلس فقتل في طريقه كما ذكرناه في أخبارهم وانقرض ملك الأدارسة من المغرب أجمع إلى أن كان رجوع الأمر لبني حمود منهم ببلاد عمارة وسبته وطنجة كما نذكره ان شاء الله تعالى

[٢٢١]

{ الخبر عن دولة حمود ومواليهم بسبته وطنجة وتصاريف أحوالهم وأحوال عمارة من بعدهم { كان الأدارسة لما أجلاهم الحكم عن العدو إلى المشرق ومحا آثارهم من سائر بلاد المغرب واستقامت عمارة على طاعة المروانية وأذعنوا لجند الأندلسيين ورجع الحسن ابن كنون لطلب أمرهم فهلك على يد المنصور بن أبي عامر فانقرض أمرهم وافتقرت الأدارسة في القبائل ولاذوا بالاختفاء إلى أن خلعو إشارة ذلك النسب واستحالت صبغتهم منه إلى البداوة ولحق بالأندلس في جملة البرابرة من ولد عمر بن ادريس رجلان منهم وهم علي والقاسم ابنا حمود بن ميمون بن أحمد بن علي بن عبيد الله بن عمر بن ادريس فطار لهما ذكر في الشجاعة والاقدام ولما كانت الفتنة البربرية بالأندلس بعد انقراض الدولة العامرية ونصب البرابرة سليمان بن الحكم ولقبوه المستعين اختص بنى حمود هذين وأحسنوا العناء في ولايته حتى إذا استولى على ملكه بقرطبة وعقد للمغاربية الولايات عقد لعلي بن محمود هذا على طنجة وأعمال عمارة فنزلها وراجع عهده معهم فيها ثم انتقض ودعا لنفسه وأجاز إلى الأندلس وولى الخلافة بقرطبة كما ذكرناه فعقد على عمله بطنجة لابنه يحيى ثم أجاز يحيى إلى الأندلس بعد مهلك أبيه على منازعا لعمه القاسم واستقل أخوه ادريس من بعده بولاية طنجة وسائر أعمال أبيه بل بالعدو من مواطن عمارة ثم أجاز بعد مهلك أخيه يحيى بمالقة فاستدعى رجال دولتهم وعقد لحسن ابن أخيه يحيى على عملهم بسبته وطنجة وانفذ نجا الخادم معه ليكون تحت نظره واستبداده ولما هلك ادريس واعتزم ابن بقية على الاستبداد بمالقة أجاز نجا الخادم لحسن بن يحيى من طنجة فملك مالقة ورتب أمره في خلافته ورجع إلى سبته وعقد لحسن على عملهم في مواطن عمارة حتى إذا هلك حسن أجاز نجا إلى الأندلس يروم الاستبداد واستخلف على العمل من وثق به من الموالى الصقلية فلم يزل إلى نظرهم واحدا بعد آخر إلى أن استقل بسبته وطنجة من موالى بنى حمود هؤلاء الحاجب سكوت البرغواطى كان عبدا للشيخ حداد من مواليتهم اشتراه من سبى برغواطه في بعض أيام جهله ثم صار إلى علي بن حمود فأخذ النجابه بطبعه إلى أن استقل بأمرهم واقعد كرسى عملهم بطنجة وسبته وأطاعته قبائل عمارة واتصلت أيام ولايته إلى أن كانت دولة المرابطين وتغلب ابن تاشفين سنة احدى وسبعين ودعى الحاجب سكوت إلى مظاهرتة على مغرواة بفاس ونجا إلى بلاد الدمنة من آخر بسط المغرب مما يلي بلاد عمارة ونزلهم يوسف بن تاشفين سنة احدى وسبعين ودعا الحاجب سكوت إلى مظاهرتة عليهم فهم بالابجاش ومظاهرتة على عدوه ثم ثناه عن ذلك ابنه الفائل الراى

فلما فرغ يوسف بن تاشفين من أهل الدمنة وأوقع بهم وافتتح حصن علودان من حصون غمارة من ورائه وانقاد المغرب لحره صرف وجهه إلى سكوت فجهز إليه العساكر وعقد عليها للقائد صالح بن عمران من رجال لمتونة فتباشرت الرعايا بمقدمهم وانثالوا عليهم وبلغ الخبر إلى الحاجب سكوت فأقسم أن لا يسمع أحدا من رعيته هدير طبولهم ولحق هو بمدينة طنجة ثغر عمله وقد كان عليه من قبله ابنه ضياء الدولة المعز وبرز للقائهم فالتقى الجمعان بظاهر طنجة وانكشفت عساكر سكوت وطنت رحى المرابطين وسالت نفسه على ظيأهم ودخلوا طنجة واستولوا عليها ولحق ضياء الدولة بسبته ولما تكالب الطاغية على بلاد الأندلس وبعث ابن عباد صريخه إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين مستنجزا وعده في جهاد الطاغية والذب عن المسلمين وكتبه أهل الأندلس كافة بالتحريض إلى الجهاد وبعث ابنه المعز سنة ست وسبعين في عسكر المرابطين إلى سبته فريضة المجاز فنازلها برا وأحاطت بها أساطيل ابن عباد بحرا واقتحموها عنوة وتقبض على ضياء الدولة ونيد إلى المعز فطالبه بالمال لانحائه فأساء فقتله لوقته وعثر على ذخائره وفيها خاتم يحيى بن علي بن حمود وكتب إلى أبيه بالفتح وانقرضت دولة بني حمود وانمحي آثارهم وسلطانهم من بني غمارة وأقاموا في طاعة لمتونة سائر أيامهم * ولما نجم المهدي بالمغرب واستفحل أمر الموحدين بعد مهلكه تنقل خليفته عبد المؤمن في بلادهم في عزاته الكبرى ففتح المغرب سنة سبع وثلاثين وما بعدها لما قبل استيلائه على مراكش كما نذكره في أخبارهم واتبعوا أثره ونازلوا سبته في عساكره وامتنعت عليهم وتولى كبر امتناعها فأندهم عياض الطائر الذكر رئيسهم لذلك العهد بدينه وأبوته وعمله ومنصبه ثم افتتحت بعد فتح مراكش سنة إحدى وأربعين فكانت هؤلاء للسابقة التي رعيت لهم سائر أيام الدولة ولما فشل أمر بني عبد المؤمن وذهب ريحه وكثر الثوار بالقاصية ثار فيهم ابن محمد الكتامى سنة خمس وعشرين كان أبوه من قصر كنامة منقبضا عن الناس وكان ينتحل الكيمياء وتلقنه عنه ابنه محمد هذا وكان يلقب أبا الطواحن فارتحل إلى سبته ونزل على بنى سعيد وادعى صناعة الكيمياء فاتبعه الغوغاء ثم ادعى النبوة وشرع شرائع وأظهر أنواعا من الشعبة فكثر تابعه ثم اطلعوا على خبثه ونبذوا إليه عهده وزحفت عساكر سبته إليه ففر عنها وقتله بعض البرابرة غيلة ثم غلب بنو مرين على بساط المغرب وامصاره سنة أربعين وستمائة واستولوا على كرسى الامر بمراكش سنة ثمان وستين فامتنع قبائل عمارة من طاعتهم واستعصوا عليهم وأقاموا بمنحة من الطاعة وعلى ثبج من الخلاف وامتنعت سبته من ورائهم على ملوك بنى مرين بسبب امتناعهم وصار أمرها إلى الشورى واستبد بها الفقيه أبو القاسم العزفى

من مشيختها كما سنذكر ذلك كله إلى ان وقع بين قبائل غمارة ورؤسائهم فتن وحروب ونزعت إحدى الطائفتين إلى طاعة السلطان بالمغرب من بنى مرين فاتوها طواعية وأدخل الآخرون في الطاعة ملاهم طوعا أو كرها فملك بنو مرين أمرهم واستعملوا عليهم وتخطوا إلى سبته من ورائهم فملكوا أمر العزفيين سنة سبع وعشرين وسبعمائة على ما نذكره بعد عند ذكر دولتهم وهم الآن على أحسن أحوالهم من الاعتزاز والكثرة يؤتون طاعتهم وجبايتهم عند استقلال الدولة ويمرضون فيها عند التياثها بفشل واشتغال بمحاربتها فتجهز البعوث إليهم من الحضرة حتى يستقيموا على

الطاعة ولهم بوعوره جبالهم عز ومنعة وجوار لمن لحق بهم من أعياص الملك الخوارج إلى هذا العهد من بينهم الحظ الوافر من ذلك لأشراف جبلهم على سائرهما وسموه بقلاعه إلى مجارى السحب دونها وتوعر مسالكة بهبوب الرياح فيها وهذا الجبل مطل على سبته من غريبها وصاحب أمره يوسف بن عمرو بنوه ولهم فيه عزة وثروة قد اتخذوا به المصانع والغروس وفرض لهم السلطان بديوان سبته العطاء وأقطعهم ببسيط طنجة الضياع استئلافا لهم وحسما سائر غمارة بابناس طاعتهم والله الخلق والامر بيده ملكوت السموات والارض } الخبر عن أهل جبال درن بالمغرب الاقصى من بطون المصامدة وما كان لهم من الظهور والاحوال ومبادي أمورهم وتصاريها { هذه الجبال بقاصية المغرب من أعظم جبال المعمور بما أعرق في الثرى أصلها وزهبت في السماء فروعها ومدت في الجوها كلها ومثلت سياجا على ريف المغرب سطورها تبتدئ من ساحل البحر المحيط عند أسفى وما إليها وتذهب في المشرق إلى غير نهاية ويقال انها تنتهى إلى قبلة برنيق من أرض برقة وهى في الجانب مما يلى مراكش قد ركب بعضها بعضا متتالية على نسق من الصحراء إلى التل يسير الراكب فيه متعرضا من نامسنا وسواحل مراكش إلى بلاد السوس ودرعه من القبلة ثمان مراحل وأزيد تفجرت فيها الانهار وجلل الارض حمراء الشعراء وتطابقت بينها ظلال الادواح وزكت فيها مواد الزرع والضرع وانفسحت مسارج الحيوان ومراتع الصيد وطابت منابت الشجر ودرت أفويق الجباية يعمرها من قبائل المصامدة أمم لا يحصيه الا خالقهم قد اتخذوا المعازل والحصون وشيدوا المباني والقصور واستغنوا بقطرهم عن سائر أقطار العالم فرحل إليهم التجر من الآفاق واختلفت إليهم أهل النواحي والامصار ولم يزالوا مذ أول الاسلام وما قبله معتمرين بتلك الجبال قد أوطنوا منها أقاليم تعددت

[٢٢٤]

فيها الممالك والعمالات بتعدد شعوبهم وقبائلهم واقترفت أسماؤها بافتراق أجيالهم تنتهى ديارهم من هذه الجبال إلى بنية المعروفة بينى فزان حيث تبتدئ مواطن صنهاجة ويحفون بهم كذلك من ناحية القبلة إلى بلاد السوس وقبائل هؤلاء المصامدة بهذه المواطن كثيرة فمنهم هرعة وهنتاتة وتينملل وكيد موية وكنفيسة ووريكله وهزيمرة ودكالة وصاحه وأمادين وازكيت وبنو ماكروايلنة ويقال هيلانة ويقال أيضا ان ايلان هو ابن براصهر المصامدة فكانوا حلفاء لهم ومن بطون أمادين مصفاوة وماغوس ومن مصفاوة دغاغة وبوطابان ويقال إن غمارة ورهون وأمل من أمادين والله أعلم ويقال إن من بطون صاحة زكرو لحقيس الطواعن الآن بأرض السوس أحلافا لذوى حسان المتغليين عليها من عرب المعقل ومن بطون كنفيسة أيضا قبيلة سكسباوة الموطنون بأمنع المعازل بهذه الجبال المطل جبلهم على بسيط السوس من القبلة وعلى ساحل البحر المحيط من المغرب ولهم بمنعة ومعقلهم ذلك اعتزاز على أهل جلدتهم حسبما يذكر بعد وكان لهؤلاء المصامدة صدر الاسلام بهذه الجبال عدد وقوة وطاعة للدين ومخالفة لآخوانهم برغواطة في نحلة كفرهم وكان من مشاهيرهم كثير ابن وسلاس بن شملال بن امادة وهو يحيى بن يحيى راوي الموطأ عن مالك دخل الأندلس وشهد الفتح مع طارق وفى آخرين من مشاهيرهم استقروا بالأندلس وكان لآعقابهم بها ذكر في الدولة الاموية كان منهم قبل الاسلام ملوك وامراء ولهم مع لمتونة ملوك المغرب حروب وفتن سائر أيامهم حتى كان اجتماعهم على المهدي وقيامهم بدعوته فكانت لهم دولة عظيمة أدالت من لمتونة العدوئين ومن صنهاجة بافريقية حسبما هو مشهور وبأنى الآن نذكره ان شاء الله وبالله التوفيق لا رب سواه ولا معبود الا اياه

{ الخبر عن مبدأ أمر المهدي ودعوته وما كان للموحدين القائمين بها على يدى بنى عبد المؤمن من السلطان والدولة بالعدوتين وأفريقية وبداية ذلك وتصاريفه { لم يزل أمر هؤلاء المصامدة بجبال درن عظيما وجماعتهم موفورة وبأسهم قويا وفى أخبار الفتح من حروبهم مع عقبة بن نافع وموسى بن نصير حتى استقاموا على الاسلام ما هو معروف مذکور إلى ان أظلتهم دولة لمتونة فكان أمرهم فيها مستفحلا وشأنهم على أهل السلطان والدولة مهما حتى لما اختطوا مدينة مراکش أنزلهم جوار مواطنهم من درن ليميزوا عن سواهم ويذلوا من صعابهم وفى عنفوان تلك الدولة على عهد على بن يوسف منها نجم امامهم العالم الشهير محمد بن تومرت صاحب دولة الموحدين المشتهر بالمهدي أصله من هرغة من بطون المصامدة الذين عدناهم يسمى أبوه عيد الله وتومرت وكان يلقب في صغره أيضا امغار وهو محمد بن عبد الله بن وجليه ابن بامصال بن حمزة بن عيسى فيما ذكر ابن رشيق وحققه ابن القطان وذكر بعض مؤرخي المغرب انه محمد بن تومرت بن نيطاوس بن ساو لابن سفيون بن الكلديس بن خالد

وزعم كثير من المؤرخين ان نسبه في أهل البيت وانه محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن ابن هود بن خالد بن تمام بن عدنان بن سفيان بن عفوان بن جابر بن عطا بن رباح بن محمد من ولد سليمان بن عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب أخى ادريس الأكبر الواقع نسب الكثير من بيته في المصامدة وأهل السوس كذا ذكر ابن نحيل في سليمان هذا وانه لحق بالمغرب ابن أخيه ادريس ونزل تلمسان وافترق ولده في المغرب قال فمن ولده كل طالبي بالسوس وقيل بل هو من قرابة ادريس اللاحقين به إلى المغرب وان رباحا الذى في عمود هذا النسب انما هو ابن يسار بن العباس بن محمد بن الحسن وعلى الامرين فان نسبة الطالبى وقع في هرغة من قبائل المصامدة ورسخت عروقه فيهم والتحم بعصيتهم فلبس جلدتهم وانتسب بنسبتهم وصار في عددهم وكان أهل بيته أهل نسك ورباط وشب محمد هذا فارتا محبا للعلم وكان يسمى أسافو ومعناه الضياء لكثرة ما كان يسرج القناديل بالمساجد لملازمتها وارتحل في طلب العلم إلى المشرق على رأس المائة الخامسة ومر بالاندلس ودخل قرطبة وهى إذ ذاك دار علم ثم أجاز إلى الاسكندرية وحج ودخل العراق ولقى جملة من العلماء يومئذ وفحول النظار وأفاد علما واسعاً وكان يحدث نفسه بالدولة لقومه على يده لما كان الكهان والجزاء يتحنون ظهور دولة يومئذ بالمغرب ولقى فيما زعموا أبا حامد الغزالي وفاوضه بذات صدره بذلك فاراده عليه لما كان فيه الاسلام يومئذ باقطار الارض من اختلال الدولة وتقويض أركان السلطان الجامع الأمة المقيم للمله بعد ان ساء له عن له من العصابة والقبائل التى يكون بها الاعتزاز والمنعة ونشأ بها يتم أمر الله في درك البيعة وظهور الدعوة وانطوى هذا الامام راجعا إلى المغرب بحرا متفجرا من العلم وشهابا واريا من الدين وكان قد لقى بالمشرق أئمة الأشعرية من أهل السنة وأخذ عنهم واستحسن طريقهم في الانتصار للعقائد السلفية والذب عنها بالحجج العقلية الدافعة في صدر أهل البدعة وذهب إلى رأيهم في تأويل المتشابه من الآى والأحاديث بعد ان كان أهل المغرب بمعزل عن اتباعهم في التأويل والاخذ برأيهم فيه اقتداء بالسلف في ترك التأويل وافرار المتشابهات كما جاءت ففطن أهل المغرب في ذلك وحملهم على القول بالتأويل والاخذ بمذاهب الأشعرية في كافة العقائد وأعلن بامامتهم ووجوب تقليدهم وألف العقائد على رأيهم مثل المرشدة في التوحيد وكان من رأيه القول بعصمة الامام على رأى الامامية من الشيعة وألف في ذلك كتابه

في الامامية الذي افتتحه بقوله اعز ما يطلب وصار هذا المفتاح لقباً على ذلك الكتاب وأحل بطرابلس أول بلاد المغرب معنياً بمذهبه ذلك مظهر النكير على علماء المغرب في عدولهم عنه أخذاً نفسه بتدريس العلم والأمر

[٢٢٧]

بالمعروف والنهي عن المنكر ما استطاع حتى لقي بسبب ذلك اذيات في نفسه احتسبها من صالح عمله ولما دخل بجاية وبها يومئذ العزيز بن المنصور بن الناصر بن علناس بن حمار من أمراء صنهاجة وكان من المقترفين فأغلظ له ولاتباعه بالنكير وتعرض يوماً لتغيير بعض المنكرات في الطرق فوفعت بسببها هيجة نكرها السلطان والخاصة واثتمروا به فخرج منها حائفاً ولحق بملاله على رسخ منها وبها يومئذ بنو ورياعل من قبائل صنهاجة وكان لهم اعتزاز ومنعة فأووه وأجاروه وطلبهم السلطان صاحب بجاية باسلامه إليه فأبوا وأسخطوه وأقام بينهم يدرس العلم أياماً وكان يجلس إذا فرغ على صخرة بقارعة الطريق قريباً من ديار ملاله وهى لهذا العهد معروفة وهناك لقيه كبير صحابته عبد المؤمن بن علي حاجاً مع عمه فأعجب بعلمه وانتهى عزمه عن وجهه ذلك واختص به وتشمر للاخذ عنه وارتحل المهدي إلى المغرب وهو في جملته ولحق بوانشريس صاحبه منها البشير من جملة أصحابه ثم لحق بتلمسان وقد تسامع الناس بخبره فأحضره القاضي بها بن صاحب الصلاة ووبخه على منتحله ذلك وخلافه لاهل قطره ووطن أن من العدل نزعه عن ذلك فضم عن قوله واستمر على طريقه إلى فاس ثم إلى مكناسة ونهى بها عن بعض المناكير فأوقع به الشر من الغوغا فأوجعه ضرباً ولحق بمراكش وأقام بها أخذاً في شأنه ولقي على بن يوسف بالمسجد الجامع في صلاة الجمعة فوعظه وأغلظ له القول ولقي ذات يوم الصورة أخت على بن يوسف حاسرة قناعها على عادة قومها المثلثين في زي نسائهم فوبخها ودخلت على أخيها باكية لما نالها من تقريره ففاوض الفقهاء في شأنه بما وصل إليه من شهرته وكانوا ملئوا منه حسداً وحفيظة لما كان ينتحل مذهب الأشعرية في تأويل المتشابه وينكر عليهم جمودهم على مذهب السلف في إفراره كما جاء ويرى أن الجمهور لقنوه تجسيماً وبذهب إلى تكفيرهم بذلك أحد قولى الأشعرية في التكفير فمال إلى الرأي فأغروا الأمير به فأحضره للمناظرة معهم فكان له الفلج والظهور عليهم وخرج من مجلسه ونذر بالشر منهم فلحق من يومه بأغمام وغير المناكير على عادته وأغرى به أهلها على بن يوسف وطيروا إليه بخبره فخرج منها هو وتلميذه الذين كانوا في صحابته ودعا اسمعيل بن أبيك من أصحابه وهو من انجاد قومه وخرج به إلى منجاة من جبال المصامدة لحق أولاً بمسفيوه ثم بهنتاتة ولقيه من أشياخهم عمر بن يحيى بن محمد بن وانودين بن على وهو أبو حفص ويعرف بيته ابن هنتاتة بينى فاصكات وتقول نسابتهم أن فاصكات هو جد وانودين ويقال لهنتاتة بلسانهم هننى فلذلك كان يعرف عمر بهنتى وسيأتى الكلام في تحقيق نسبهم عند ذكر دولتهم ثم ارتحل المهدي غنهم إلى ايكيلين من بلاد هرغة فنزل على قومه وذلك سنة خمس عشرة وخمسمائة وبنى رابطة للعبادة

[٢٢٨]

اجتمعت إليه الطلبة والقبائل يعلمهم المرشدة في التوحيد باللسان البربري وشاع أمره في محجته واستدرك فقيه العلمية بمجلس الأمير على بن يوسف وهو مالك بن وهيب أغراه به وكان حياءً ينظر في النجوم وكان الكهان يتحدثون بان ملكاً كائناً بالمغرب بأمة من

المغرب ويتغير فيه شكل السمكة لقران بين الكوكبين العلويين والسيارة تقتضي ذلك في أحكامهم وكان الامير يتوقعها فقال احتفظوا بالدولة من الرجل فانه صاحب القران والدرهم المربع في كلام سفساف بسجع سوقى يتناقلها الناس نصه * وهو اجعل على رجله كبلا * لنلا يسمعك طيلا * وأظنه صاحب الدرهم المربع فطلبه على بن يوسف ففقدته وسرح الخيالة في طلبه ففاتهم وداخل عامل السوس وهو أبو محمد اللمتونى بعض سرعة في قتله ونذر بهم اخوانهم فنقلوا إلى معقل أشياعهم وقتلوا من داخل في أمرهم ودعوا المصامدة إلى بيعته على التوحيد وقتال المجسمين دونه سنة خمسة عشر وخمسمائة فتقدم إليها رجالاتهم من العشرة وغيرها وكان فيهم من هنتاة أبو حفص عمر بن يحيى وأبو يحيى بن يكت ويونس بن وانودين وابن يغمور ومن تينملل أبو حفص عمر بن على الصناكى ومحمد بن سليمان وعمرو بن تافراتكين وعبد الله بن ملويات وأهب قبيلة هرغة فدخلوا في أمره كلهم ثم دخل معهم كيدومية وكنفيسة ولما كملت بيعته لقبوه بالمهدي وكان لقبه قبلها الامام وكان يسمى أصحابه الطلبة وأهل دعوته الموحدين ولما تم له خمسون من أصحابه سماهم ايت الخمسين وزحف إليهم عامل السوس أبو بكر بن محمد اللمتونى بمكانهم من هرغة فاستجاشوا باخوانهم من هنتاة وتينملل فاجتمعوا إليه وأوقعوا بعسكر لمنونة فكانت هزيمة الفتح وكان الامام يعدهم بذلك فاستبصروا في أمره وتسابق كافتهم إلى الدخول في دعوته وترددت عساكر لمنونة إليهم مرة بعد أخرى ففضوهم وانتقل لثلاث سنين من بيعته إلى جبل تينملل فأوطنه وبنى داره ومسجده بينهم وحو إلى منبع وادى نفيس وقاتل من تخلف عن بيعته من المصامدة حتى استقاموا فقاتل أولاد هرزجة وأوقع بهم مرارا ودانوا بالطاعة ثم قاتل هسكورة ومعهم أبو دوقة اللمتونى فغلبهم وقفل فاتبعه بنو واسكيت فأوقع بهم الموحدون وأثخنوا فيهم قتلا وأسرا ثم غزا بلد غجرامة وكان قد افتتحه وترك فيه الشيخ أبا محمد عطية من أصحابه فعدروا به وقتلوه فغزاهم واستباحهم ورجع إلى تينملل وأقام بها إلى ان كان شأن البشير وميز الموحد من المنافق وكانوا يسمون لمنونة الحشم فاعتزم على غزوهم وجمع كافة أهل دعوته من المصامدة وزحف إليهم فلقوه بكبكب وهزمهم لموحدون واتبعوهم إلى أعماق فلقبهم هنا لك زحوف لمنونة مع بكر بن على بن يوسف وابراهيم بن تاعماش فتهمهم الموحدون وقفل ابراهيم واتبعوهم إلى مراكش فنزلوا البحيرة في زهاء أربعين

[٢٢٩]

ألفا كلهم راجلين الا أربعمائة فارس واحتفل على بن يوسف الاحتشاد وبرز إليهم لاربعين من نزولهم خرج عليهم من باب ايلان فهزمهم وأثخن فيهم قتلا وسبيا وفقد البشير من أصحابه واستحر القتل في هيلانة وأبلى عبد المؤمن في ذلك اليوم أحسن البلاء وكانت وفاة المهدي لاربعة أشهر بعدها وكان يسمى أصحابه بالموحدين تعريضا بلمتونة في أخذهم بالعدول عن التأويل وميلهم إلى التجسيم وكان حصورا لا يأتي النساء وكان يلبس العباءة المرقعة وله قدم في التقشف والعبادة ولم تحفظ عنه فلتة في البدعة الا ما كان من وفاقه الامامية من الشيعة في القول بالامام المعصوم والله تعالى أعلم { الخبر عن دولة عبد المؤمن خليفة المهدي والخلفاء الاربعة من بنيه ووصف أحوالهم ومصابير أمورهم } لما هلك المهدي سنة ثنتين وعشرين كما ذكرناه وقد عهد بأمره من بعده لكبير صحابته عبد المؤمن بن على الكومى المتقدم ذكره ونسبه عند ذكر قومه فقبيره بمسجده لصق داره من تينملل وخشى أصحابه من افتراق الكلمة وما يتوقع من سخط المصامدة ولاية عبد المؤمن بن على لكونه من غير جلدتهم فارجأوا الامر إلى أن يخالط بشاش الدعوة قلوبهم وكنتموا موته زعموا ثلاث سنين يموهون عرضه

ويقيمون سنته في الصلاة والحزب الراتب يدخل أصحابه إلى البيت كأنه اختصاصهم بعبادته فيجلسون حوالى قبره ويتفاوضون في شؤونهم ثم يخرجون لانفاذ ما رموه ويتولاه عبد المؤمن بتلقينهم حتى إذا استحكم أمرهم وتمكنت الدعوة من نفوس كافتهم كشفوا جسد القناع عن حالهم وتمالا من بقى من العشرة على تقديم عبد المؤمن وتولى كبر ذلك الشيخ أبو حفص وأراد هنتاته وسائر المصامدة غلبه فأظهروا للناس موت المهدي وعهده لصاحبه وانقياد بقية أصحابه لذلك وروى يحيى بن يعمر انه كان يقول في دعائه اثر صلواته اللهم بارك في صاحب الافضل فرضى الكافة وانقادوا وأجمعوا على بيعته بمدينة تينملل سنة أربع وعشرين فقام بأمر الموحدين وأبعد في الغزوات فصيح نادلا وأقام بها وأصاب منهم ثم غزا درعه واستولى عليها سنة ست وعشرين ثم غزا تاسعون وافتتحها وقتل واليها أبا بكر بن مازرو ومن كان معه من قومه غمارة بنى وزار وبنى مرزق ثم تسابق الناس إلى دعوتهم أفواجا وانتقض البرابر في سائر أقطار المغرب على لمتونة فسرح على بن يوسف ابنه تاشفين لقتالهم سنة ثلاث وستين فجاءهم من ناحية أرض السوس وأحشد معه قبائل كزولة وجعلهم في مقدمته فلقبهم الموحدون بأوائل حفلهم وهزمهم ورجع تاشفين ولم يلق حربا ودخل كزولة من بعدها في دولة الموحدين وأجمع عبد المومن على غزو بلاد المغرب فغزا غزاته الطويلة منذ سنة أربع وثلاثين إلى سنة احدى وأربعين

[٢٣٠]

ولم يراجع فيها تينملل حتى إذا انقضت بالفتح والاستيلاء على المغربين خرج إليها من تينملل وخرج تاشفين بعساكره يحاذيه في البسائط والناس يفرون منه إلى عبد المؤمن وهو ينقل في الجبال في سعة من الفواكه للاكل والحطب للدفء إلى أن وصل إلى جبل غمارة واشتعلت نار الفتنة والغلا بالمغرب واقشعت الرعايا من المغرب وألح الطاغية على المسلمين بالعدوة وهلك خلال ذلك على بن يوسف أمير لمتونة ملك العدوتين سنة سبع وثلاثين وخمسائة وولى أمرهم تاشفين ابنه وهو في غزاته هذه وقد أحيط به وحزن بعد أبيه على فتنة بنى لمتونة ومسوفة ففرغ أمراء مسوفة مثل بدران بن محمد ويحيى بن ناكصتن ويحيى بن اسحق المعروف بانكار وكان والى تلمسان ولحقوا بعبد المؤمن إليهم من الجملة ودخلوا في دعوته ونبذ إليهم لمتونة العهد والى سائر مسوفة واستمر عبد المؤمن على حاله فنزل سبتة وامتنعت عليه وتولى كبر دفاعه عنها القاضى عياض الشهير الذكر كان رئيسها يومئذ بدينه وأبوته ومنصبه ولذلك سخطته الدولة آخر الايام حتى مات مغربا عن سبتة بتادلا مستعملا في خطة القضاء بالبادية وتمادى عبد المؤمن في غزاته إلى جبال غياثه وبطوية فافتتحها ثم نزل ملوية فافتتح حصونها ثم تخطى إلى بلاد زناتة فاطاعته قبائل مديونة وكان بعث إليهم عساكر من الموحدين إلى نظر يوسف بن وانودين وابن مومو فخرج إليهم محمد بن يحيى بن فانو عامل تلمسان فيمن معه من عساكر لمتونة وزناتة فهزمهم الموحدون وقتل ابن فانو وانقض عسكر زناتة ورجعوا إلى بلادهم وولى ابن تاشفين على تلمسان أبا بكر بن مزدلى ووصل إلى عبد المؤمن بمكانه من الريف أبو بكر بن ماخوخ ويوسف بن بدر أمراء بنى مانو فبعث معهم ابن يغمور وابن وانودين في عسكر من الموحدين فأثنوا في بلاد عبد الواد وبنى باجدى سبيا وأسرا وأمدهم عساكر لمتونة ومعهم البربرير قائد الروم ونزلوا منداماس واجتمعت عليهم زناتة في بنى بلومي وبنى عبد الواد وشيخهم حمامة بن مطهر وبنى نيكياس وبنى ورسفان وبنى توجين فأوقعوا في بنى مانو واستنقذوا غنائمهم وقتل أبو بكر بن ماخوخ في ستمائة من قومه وتحصن الموحدون وابن وانودين بجبال سيرات ولحق تاشفين بن ماخوخ بعبد المؤمن صريحا على لمتونة وزناتة

فارتحل معه إلى تلمسان ثم أجاز إلى سيرات وقصد محلة لتونة وزناتة فأوقع بهم ورجع إلى تلمسان فنزل ما بين الصخرتين من جبل بنى ورتيك ونزل كاشفين باصطفص ووصل مدد صنهاجة من قبل يحيى بن عبد العزيز صاحب بجاية ينظر طاهر بن كباب من قواده أمدوا به تاشفين وقومه لعصية الصنهاجية وفى يوم وصوله أشرف على معسكر الموحدين وكان يدل بأقوام فوراً بلمتونة وأميرهم يتعوذهم لمناجزة الموحدين وقال انما جئتمكم أو منكم من صاحبكم عبد المؤمن

[٢٣١]

هذا وأرجع إلى قومي فامتعض تاشفين لكلمته وأذن له في المناجزة فحمل على القوم فركبوا وصموا للقائه فكان آخر العهد به وبعسكره وكان تاشفين بعث من قبل ذلك قائده على الروم الروبرتير في عسكر ضخمة كما قلناه فاغار على بنى سندم وزناتة الذين كانوا في بسيتهم ورجع بالغنائم فاعترضه الموحدون من عسكر عبد المؤمن فقتلوهم وقتل الروبرتير ثم بعث بعثاً آخر إلى بلاد بنى نوما فلقبهم تاشفين بن ماخوخ ومن كان معه من الموحدين واعترضوا عسكر بجاية عند رجوعهم فنالوا منهم أعظم النيل وتوالت هذه الوقائع على تاشفين فأجمع الرحلة إلى وهران وبعث ابنه ابراهيم ولى عهده إلى مراکش في جماعة من لمتونة وبعث كاتباً معه أحمد بن عطية ورجل هو إلى وهران سنة تسع وثلاثين فأقام عليها شهراً ينتظر قائد أسطوله محمد بن ميمون إلى أن وصله من المرية بعشرة أساطيل فأرسل قريبا من معسكره وزحف عبد المؤمن من تلمسان وبعث في مقدمته الشيخ أبا حفص عمر بن يحيى وبنى مانو من زناتة فتقدموا إلى بلاد بنى يلومى وبنى عبد الواد وبنى ورسيفين وبنى توجين وأتخنوا فيهم حتى دخلوا في دعوتهم ووفد على عبد المؤمن برؤوسائهم وكان منهم سيد الناس بن أمير الناس شيخ بنى يلومى فتلقاهم بالقبول وسار بهم في جموع الموحدين إلى وهران ففتحوا لمتونة بمعسكرهم ففضوهم ولجأ تاشفين إلى رابية هناك فأحدقوا بها وأضرموا النيران حولها حتى غشيهم الليل فخرج تاشفين من الحصن راكبا على فرسه فتردى من بعض حافات الجبل وهلك لسبع وعشرين من رمضان سنة تسع وثلاثين وخمسمائة وبعث برأسه إلى تينملل ونجاقل العسكر إلى وهران فانحصروا مع أهلها حتى جهدهم العطش ونزلوا جميعا على حكم عبد المؤمن يوم الفطر من تلك السنة وبلغ خبر مقتل تاشفين إلى تلمسان مع فل لمتونة وفيهم أبو بكر بن ولحف وسير بن الحاج وعلى بن ميلوفى آخرين من أعيانهم ففر معهم من كان بها من لمتونة وقدم عبد المؤمن فقتل من وجد بتاكرات بعد ان كانوا بعثوا ستين من وجوههم فلقبهم يصلتين من مشيخة بنى عبد الواد فقتلهم أجمعين ولما وصل عبد المؤمن إلى تلمسان استباح أهل تاكرات لما كان أكثرهم من الحشم وعفا عن أهل تلمسان ورجل عنها لسبعة أشهر من فتحها بعد ان ولى عليها سليمان بن محمد بن وانودين وقيل يوسف بن وانودين وفيما نقل بعض المؤرخين انه لم يزل محاصرا تلمسان والفتوح ترد عليه وهنا لك وصلته بيعة سجلماسة ثم اعتزم على الرحيل إلى المغرب وترك ابراهيم بن جامع محاصر التلمسان فقص فاس سنة احدى وأربعين وقد تحصن بها يحيى الصحراوي من فل تاشفين من تلمسان فنازلهم عبد المؤمن وبعث عسكرا لحصار مكناسة ثم رحل في اتباعه وترك عسكرا من الموحدين على فاس وعليهم الشيخ

[٢٣٢]

أبو حفص وأبو ابراهيم وصحابة المهدي العشرة فحاصروه سبعة أشهر ثم داخلهم ابن الجياني فسرب البلد وأدخل الموحدين ليلا وفر الصحراوي إلى طنجة وأجاز منها إلى ابن غانية بالاندلس وبلغ خبر فاس إلى عبد المؤمن وهو بمكانه من حصار مكناسة فرجع إليها وولى عليها ابراهيم بن جامع لما فتح تلمسان ارتحل إلى عبد المؤمن وهو محاصر لفاس فاعترضه في طريقه المخضب بن عسر أمير بنى مرين ونالوا منه ومن رفقة فكتب عبد المؤمن إلى يوسف وانودين عامل تلمسان أن يجهز إليهم العساكر فبعثا صحة عبد الحق ابن منقاد شيخ بنى عبد الواد فأوقعوا بينى مرين وقتل المخضب أميرهم ولما ارتحل عبد المؤمن من فاس إلى مراكش وصلته في طريقه بيعة أهل سبتة فولى عليهم يوسف ابن مخلوف من مشيخة هنتاتة ومر على سلا فافتتحها بعد موقعة قليلة ونزل منها بدار ابن عشرة ثم تمادى إلى مراكش وسرح الشيخ أبا حفص لغزو برغواطة فأنحن فيهم ورجع ولقيه في طريقه ووصلوا جميعا إلى مراكش وقد ضموا إليها جموع لمطة فأوقع بهم الموحدون وأثنوا فيهم قتلا واكتسحوا اموالهم وظعائنهم وأقاموا على مراكش تسعة أشهر وأميرهم اسحق بن علي بن يوسف بايعوه صبيا صغيرا عند بلوغ خبر أبيه ولما طال عليهم الحصار وجهدهم الجوع برزوا إلى مدافعة الموحدين فانهمزوا وتتبعهم الموحدون بالقتل واقتحموا عليهم المدينة في اخريات شوال سنة احدى وأربعين وقتل عامة الملتئمين ونجا اسحق في جملته واعيان قومه إلى القصبة حتى نزلوا على حكم الموحدين وأحضر اسحق بين يدي عبد المؤمن فقتله الموحدون بأيديهم وتولى كبر ذلك أبو حفص بن واكك منهم وانمحي أثر الملتئمين واستولى الموحدون على جميع البلاد ثم خرج عليهم بناحية السوس نائرن سوقة سلا يعرف محمد بن عبد الله بن هود وتلقب بالهادي وظهر في رباط ماسة فأقبل إليه الشراد من كل جانب وانصرفت إليه وجوه الاغمار من أهل الأفاق وأخذ بدعوته أهل سجلماسة ودرعة وقبائل دكالة وركراكة وقبائل تامسنا وهوارة وفشت ضلالته في جميع العرب فسرح إليه عبد المؤمن عسكريا من الموحدين لنظر يحيى انكمارا للمتونى النازع إليه من ايالة تاشفين بن علي ولقى هذا النائر الماسى ورجع مهزوما إلى عبد المؤمن فسرح الشيخ أبا حفص عمر بن يحيى وأشياخ الموحدين واحتفل في الاستعداد فنهضوا الرابطة ماسة وبرز إليهم النائر في نحو ستين ألفا من الرجال وسبعمائة من الفرسان فهزمهم الموحدون وقتل داعيتهم في المعركة مع كثرة اتباعه وذلك في ذى الحجة سنة احدى وأربعين وكتب الشيخ أبو حفص بالفتح إلى عبد المؤمن من انشاء أبا حفص بن عطية الشهير الذكر كان أبوه أبو أحمد كاتباً لعلى بن يوسف وابنه تاشفين وتحصل في قضة الموحدين فعفا عنه عند

المؤمن ولما نزل على فاس اعتزم أبو حفص هذا على الفرار فتقبض عليه في طريقه واعتذر فلم يقبل عذره وقتل وكان ابنه أحمد كاتباً لاسحق بن علي بمراكش فشمله عفو السلطان فيمن شمله من ذلك الغل وخرج في جملة الشيخ أبا حفص في وجهته هذه وطلبه للكتاب في ذلك فاجابه واستحسن كتابه عبد المؤمن لما وقف عليه فاستكتبه أولا ثم ارتفع عنده مكانه فاستوزره وبعد في الدولة صيته وقاد العساكر وجمع الاموال وبذلها ونال من الرتبة عند السلطان ما لم ينله أحد في دولته إلى ان دبت السعاية إلى جهاده الوثير فكان فيها حنقه ونكبه الخليفة سنة ثلاث وخمسين وقتله بمحبسه حسبما هو مشهور ولما انصرف الشيخ أبو حفص من غزاة ماسة راح بمراكش أياما ثم خرج غازيا إلى القائمين بدعوة الماسى بجبال درن فأوقع باهل نغيس وهيلانة وأثن فيهم بالقتل والسبي حتى أذعنوا بالطاعة ورجع ثم خرج إلى هسكورة وأوقع بهم وافتتح معاقلهم

وحصونهم ثم نهض إلى سجلماسة فاستولى عليها ورجع إلى مراكش ثم خرج ثالثة إلى برغواطة فحاربوه مرة ثم هزموه واضطرت نار الفتنة بالمغرب وانتقض أهل سبتة وأخرجوا يوسف بن مخلوف التينمللى وقتلوه ومن كان معه من الموحدين وأجاز القاضي عياض البحر إلى يحيى بن على بن غانية المسوقى الوالى بالاندلس فلقية وطلب منه واليا إلى سبتة فبعث معه يحيى بن أبى بكر الصحراوي الذي كان بفاس منذ منازلة عبد المؤمن لها وذكر انه لحق بطنجة فأجاز البحر إلى الاندلس ولحق بابن غانية بقرطبة وصار في حملته وبعثه ابن غانية إلى سبتة مع القاضي عياض كما ذكرناه وقام بأمرها ووصل يده بالقبائل الناكثة لطاعة الموحدين من برغواطة ودكالة على حين هزيمتهم للموحدين كما ذكرناه ولحق بهم من مكانه لسبتة وخرج إليهم عبد المؤمن بن على سنة ثنتين وأربعين فدوخ بلادهم واستاصل شأفتهم حتى انقادوا للطاعة وتبرؤا من يحيى الصحراوي ولمتونة ورجع إلى مراكش لسنة أشهر من خروجه ووصلته المرعية من مشيخة القبائل في يحيى الصحراوي فعفا عنه وصلحت أحوال المغرب وراجع أهل سبتة طاعتهم فتقبل منهم وكذلك أهل سلا فصصح لهم وأمر بهدم سورهم والله أعلم * (فتح الاندلس وشؤونها) * ثم صرف عبد المؤمن من قصره إلى الاندلس وكان من خبرها انه اتصل بالملتئمين مقتل تاشفين ابن على ومنازلة الموحدين مدينة فاس وكان على بن عيسى بن ميمون قائد اسطولهم قد نزع طاعة لمتونة وامترى بجزيرة قادس فلحق بعبد المؤمن بمكانه من حصار فاس ودخل في دعوته وخطب له بجامع فاس أول خطبة خطبت لهم بالاندلس عام أربعين وخمسائة وبعث أحمد بن قسى صاحب مرتلة ومقيم الدعوة بالاندلس أبا بكر بن حبيس

[٢٣٤]

رسولا إلى عبد المؤمن فلقية على تلمسان وأدى كتاب صاحبه فأنكر ما تضمنه من النعت بالمهدي ولم يجاوب وكان سدراتي بن وزير صاحب بطليوس وباجة وغرب الاندلس قد تغلب على أحمد بن قيسى هذا وغلبه على مرتلة فأجاز أحمد بن قيسى البحر إلى عبد المؤمن من بعد فتح مراكش لمداخلة على بن عيسى بن ميمون ونزل بسبتة فجهره يوسف ابن مخلوف ولحق بعبد المؤمن ورغبه في ملك الاندلس وأغراه بالملتئمين فبعث معه عساكر الموحدين لنظر برار بن محمد المسوقى الناظر إلى عبد المؤمن من جملة تاشفين وعقد له على حروب من بها من لمتونة والثوار وأمده بعسكر آخر لنظر موسى بن سعيد وبعده بعسكر آخر لنظر عمر بن صالح الصنهاجى ولما أجازوا إلى الاندلس نزلوا بالغمر بن عزرون من الثوار بشريش وكانت له مع ولده ثم قصدوا لبله وبها من الثوار يوسف ابن أحمد البطروجى فأعطاهم الطاعة ثم قصدوا مرتلة وهى تحت الطاعة لتوحيد صاحبها أحمد بن قيسى ثم قصدوا شلب ففتحوها وامكنوا منها ابن قيسى ثم نهضوا إلى باجة وبطليوس فأطاعهم صاحب سدراتي بن وزير ثم بران في عسكر الموحدين إلى مرتلة حتى انصرم فصل الشتاء فخرج إلى منازلة اشبيلية فأطاعه أهل طليطلة وحصن القصر واجتمع إليه سائر الثوار وحاصروا اشبيلية برا وبحرا إلى أن افتتحوها في شعبان من سنة احدى وأربعين وفر الملتئمون بها إلى قرمونة وقتل من ادرك منهم وأتى القتل على عبد الله بن القاضي أبى بكر بن العربي في هبة تلك الدخلة من غير قصد وكتبوا بالفتح إلى عبد المؤمن بن على وقدم عليه وفودهم بمراكش يقدمهم القاضي أبو بكر فتقبل طاعتهم وانصرفوا بالجوائر والاقطاعات لجميع الوفد سنة ثنتين وأربعين وخمسائة وهلك القاضي أبو بكر في طريقه ودفن بمقبرة فاس وكان عبد العزيز وعيسى أخو المهدي من مشيخة العسكر باشبيلية ساء أثرهما بالبلد واستطالت أيديهما على أهله واستباحوا الدماء والاموال ثم

اعتز ما على الفتك بيوسف البطروجى صاحب لبله فلحق ببلده وأخرج الموحدين الذين بها وحول الدعوة عنهم وبعث إلى طليطلة وحصن القصر ووصل يده بالملثمين الذين كانوا بالدعوة وارتد ابن قيسى في مدينة شلف وعلى بن عيسى بن ميمون بجزيرة قادس ومحمد بن الحجام بمدينة بطليوس وثبت أبو الغمر بن عزرون على طاعة الموحدين بشريش ورندة وجهاتهما وتغلب ابن غانية على الجزيرة الخضراء وانتقض أهل سبتة كما ذكرناه وضافت أحوال الموحدين باشبيلية فخرج منها عيسى وعبد العزيز أخو المهدي وابن عمهما يصلتين بمن كان معهم ولحقوا بجبال بستر وجاءهم أبو الغمر بن عزرون واتصلت أيديهم على حصار الجزيرة حتى افتتحوها وقتلوا من كان بها من لمتونة ولحق أخو المهدي بمراكش وبعث عبد المؤمن على اشبيلية يوسف بن

[٢٣٥]

سليمان في عسكر من الموحدين وأبقى بران بن محمد على الجباية فخرج يوسف ودوخ اعمال البطروجى ببله وطليطلة وعمل ابن قيسى بشلب ثم أغار على جبيرة وأطاعه عيسى بن ميمون صاحب شنتمرية وغزا معهم وأرسل محمد بن علي بن الحاج صاحب بطليوس بهداياه فتقبلت ورعت له ورجع يوسف إلى اشبيلية وفى أثناء ذلك استغلظ الطاغية على يحيى بن علي بن غانية بقرطبة والح علي جهاته حتى نزل له عن ماسة ورندة وتغلب على الاشبونة وطرطوشة ولاردة وإفراغة وشنتمرية وغيرها من حصون الأندلس وطالب ابن غانية بالزيادة في بيته أو الإفراج له عن قرطبة فأرسل ابن غانية بران بن محمد واجتمعا باستجة وضمن له بران امداد الخليفة على ان يتخلى عن قرطبة وقرمونة فغدر باقماطه واقتلعهم بقلعة ابن سعيد وأفرج الطاغية عن جيان ولحق هو بغرناطة وبها ميمون بن بدر اللمتونى في جماعة من المرابطين قصده ابن غانية ليحمله على مثل حاله مع الموحدين فكان مهلكه بها في شعبان سنة ثلاث وأربعين وقبره بها معروف لهذا العهد وانتهاز الطاغية فرصة في قرطبة فزحف إليها ودفع الموحدون باشبيلية أبا المغمر بن عزرون لحمايتها ووصل إليه مدد يوسف البطروجى من لبله وبلغ الخبر عبد المؤمن فبعث إليها عسكرا من الموحدين لنظر يحيى بن يغمور ولما دخلها أفرج عنها الطاغية لايام من مدخله وبادر الثوار إلى يحيى بن يغمور في طلب الامان من عبد المؤمن ثم تلاحقوا به بمراكش فتقبلهم وصفح لهم ونهض إلى مدينة سلا سنة خمس وأربعين واستدعى منها أهل الأندلس فوفدوا عليه وبايعوه جميعا وبايعه الرؤساء من الثوار على الانخلاع من الامر مثل سدراتى بن وزير صاحب باجة وباتورة والبطروجى صاحب لبله وابن عزرون صاحب شريش ورندة وابن الحجام صاحب بطليوس وعامل بن مهيب صاحب طليطلة وتخلف ابن قيسى وأهل شلب عن هذا الجمع فكان سببا لقتله من بعده ورجع عبد المؤمن إلى مراكش وانصرف أهل الأندلس إلى بلادهم واستصحب الثوار فلم يزالوا بحضرته والله تعالى أعلم * (فتح افريقية وشؤونها) * ثم بلغ عبد المؤمن ماهيج افريقية عليه من اختلاف الامراء واستطالة العرب عليها بالعيث والفساد وانهم حاصروا مدينة القيروان وان موسى بن يحيى الرياحي المرادسى دخل مدينة باجة وملكها فأجمع الرحلة إلى غزو افريقية بعد أن شاور الشيخ أبا حفص وابا ابراهيم وغيرهما من المشيخة فوافقوه وخرج من مراكش في أواخر سنة ست وأربعين موربا بالجهاد حتى انتهى إلى سبتة واستوضح أحوال أهل الأندلس ثم رحل عن سبتة موربا بمراكش وأغذ السير إلى باجة فدخل الجزائر على حين غفلة وخرج إليه الحسن

ابن علي صاحب المهدي فصحبه واعترضه جيوش صنهجة بأم العلو فهزمهم وصبح بجاية من الغد فدخلها وركب يحيى بن العزيز البحر في اسطولين كان أعدهما لذلك واحتمل فيهما ذخائره وأمواله ولحق بقسنطينة إلى أن نزل بعد ذلك منها على أمان عبد المؤمن واستقر بمراكش تحت الجراية والعناية إلى أن هلك رحمه الله ثم سرح عبد المؤمن عساكر الموحدين وعليهم ابنه عبد الله إلى القلعة وبها جوش بن عبد العزيز في جموع صنهجة فاقتحمها واستلحم من كان بها منهم وأضرم النار في مساكنها وقتل جوش ويقال إن القتلى بها كانوا ثمانية عشر ألفا وامتلات أيدي الموحدين من الغنائم والسبي وبلغ الخبر إلى العرب بأفريقية من الاثنج وزغبة ورياح وفسرة فعسكروا بظاهر باجة وتنامروا على الدفاع عن ملكهم يحيى بن العزيز وارتحلوا إلى سطيف وزحف إليهم عبد الله بن عبد المؤمن في الموحدين الذين معه وكان عبد المؤمن قد قفل إلى المغرب ونزل متيحة فلما بلغه الخبر بعث المدد لابنه عبد الله والتقى الفريقان بسطيف واقتتلوا ثم انفضت جموع العرب واستلحموا وسبيت نساؤهم واكتسحت أموالهم وأسر أبناؤهم ورجع عبد المؤمن إلى مراكش سنة سبع وأربعين ووفد عليه كبراء العرب من أهل أفريقية طائعين فوصلهم ورجعوا إلى قومهم وعقد على فاس لابنه السيد أبي الحسن واستوزر له يوسف بن سليمان وعقد على تلمسان لابنه السيد أبي حفص واستوزر له أبا محمد بن وانودين وعلى سبتة لابنه السيد أبي سعيد واستوزر له محمد بن سليمان وعلى بجاية للسيد أبي محمد عبد الله واستوزر له يخلف بن الحسين واختص ابنه أبا عبد الله بولاية عهده وتغير بذلك كله ضمائر عبد العزيز وعيسى أخوي المهدي فلحقا بمراكش مضمرين للغدر وأدخلوا بعض الاوغاد في شأنهم فوثبوا بعمر بن تافراكين وقتلوه بمكانه من القصبه ووصل على اثرهما الوزير أبو حفص بن عطية وعبد المؤمن على اثره فطفا آثار تلك الثورة وقتل أخو المهدي ومن داخلهم فيها والله أعلم * (فتح بقية الاندلس) * وبلغه بمراكش سنة تسع وأربعين أن يحيى بن يغمور صاحب اشبيلية قتل أهل لبلبة بما كان من غدر الوهنى لها وتقبل معذرتهم في ذلك فسخط يحيى بن يغمور وعزله عن اشبيلية بأبي محمد عبد الله بن أبي حفص بن علي التينملى وعن قرطبة بأبي زيد بن بكيت وبعث عبد الله بن سليمان فجاء بابن يغمور معتقلا إلى الحضرة وألزمه منزله إلى أن بعثه مع ابنه السيد أبي حفص إلى تلمسان واستقام أمر الاندلس وخرج ميمون بن بدر اللمتوني عن غرناطة للموحدين فملكوها وأجاز إليها السيد أبا سعيد صاحب سبتة بعهد ابنه عبد المؤمن إليه بذلك ولحق الملتمون بمراكش ونزل السيد أبو سعيد مدينة المرية

حتى نزل من كان بها من النصارى على الامان وحضر لذلك الوزير أبو حفص بن عطية بعد أن أمدهم ابن مودهشى الثائر بشرق الاندلس والطاغية معه وعجزوا جميعا عن المدافعة ثم وفد أشياخ اشبيلية سنة احدى وخمسين ورغبوا من عبد المؤمن ولاية بعض أبناؤه عليهم فعقد لابنه السيد أبي يعقوب عليها وافتتح أمره بمنازلة على الوسينى الثائر بطليبة ومعه الوزير أبو حفص بن عطية حتى استقام على الطاعة ثم استولى على عمل ابن وزير وابن قيسى واستنزل تاشفين اللمتوني من تلة سنة ثنتين وخمسين وكان الذي أمكن الملتمين منها ابن قيسى واستتم الفتح ورجع السيد إلى اشبيلية وانصرف أبو حفص بن عطية إلى مراكش فكانت فيها نكبته ومقتله واستوزر عبد المؤمن من بعده عيد السلام الكومى كان يمت إليه بذمة صهر فلم يزل على وزارته والله أعلم * (بقية فتح أفريقية) * لما بلغ عبد المؤمن سنة ثلاث وخمسين ما كان من ايقاع الطاغية بابنه

السيد أبي يعقوب بظاهر اشبيلية ومن استشهد من أشياخ الموحدين وحفاظهم ومن الثوار مثل ابن عزرون وابن الحجام نهض يريد الجهاد واحتل بسلا فبلغه انتفاض افريقية وأهمه شأن النصارى بالمهدية فلما توافت العساكر بسلا استخلف الشيخ أبا حفص على المغرب وعقد ليوسف بن سليمان علي مدينة فاس ونهض يغذ السير حتى نزل المهدية وبها من نصارى أهل صقلية فافتتحها صلحا سنة خمس وخمسين واستنقذ جميع البلاد الساحلية مثل صفاقس وطرابلس من أيدي العدو وبعث ابنه عبد الله من مكان حصاره للمهدية إلى قابس فاستخلصها من يد بنى كامل المتغلبين عليها من دهمان بعض بطون رياح واستخلص قفصة من يد بنى الورد وورغة من يد بنى بروكسن وطبرية من يد ابن علال وجبل زغوان من يد بنى حماد بن خلفه وسقنتارية من يد بنى عباد ومدينة الاربعة من يد من ملكها من العرب حسيما بلغه أن الاعراب وهؤلاء الثوار في دولة صنهاجة ولما استكمل الفتح وثنى عنانة إلى المغرب وخمسين بلغه أن الاعراب بافريقيه انتقضوا عليه فرجع إليهم عسكر من الموحدين فنهضوا إلى القيروان وأوقعوا بالعرب وقتل كبيرهم عزير بن زياد الفارغى من بنى على أحد بطون رياح والله تعالى أعلم * (أخبار ابن مردنيش الثائر بشرق الاندلس) * كان بلغ عبد المؤمن وهو بافريقية أن محمد بن مردنيش الثائر بشرق الاندلس خرج من مرسية ونزل جيان وأطاعه واليها محمد بن علي الكومي ثم نازل بعدها قرطبة ورحل نها وغدر بقرمونة وملكها ثم رجع إلى قرطبة وخرج ابن بكيث لحربه فهزمه وقتله

[٢٣٨]

فكتب إلى عماله بالاندلس بفتح افريقية وانه واصل إليهم وعبر إلى جبل الفتح واجتمع إليه أهل الاندلس ومن بها من الموحدين ثم رجع وكان السيد أبو يعقوب صاحب اشبيلية وأبو سعيد صاحب غرناطة ارتحلا لزيارة الخليفة بمراكش فخالف ابن همشك إلى مدينة غرناطة وعلا ليلا بمداخلة من بعض أهلها واستولى عليها وانحصر الموحدون بقصبتها وخرج عبد المؤمن من مراكش لاستنقاذهم فوصل إلى سلا وقدم السيد أبو سعيد فأجاز البحر ولقيه عامل اشبيلية عبد الله بن أبي حفص بن علي ونهضوا جميعا إلى غرناطة فنهض إليهم ابن همشك وهزمهم ورجع السيد أبو سعيد إلى مالقة ورداة عبد المؤمن بأخيه السيد أبي يعقوب في عساكر الموحدين ونهضوا إلى غرناطة وكان قد وصلها ابن مردنيش في جموع من النصارى مددا لابن همشك فلقبهم الموحدون بفحص غرناطة وهزمهم وفر ابن مردنيش إلى مكانه في المشرق ولحق ابن همشك بجيان فنزله الموحدون وأقبل السيدان إلى قرطبة فأقاما بها إلى أن استدعى السيد أبو يعقوب بمراكش سنة ثمان وخمسين لولاية العهد والادالة به من أخيه محمد فلحق بمراكش وخرج في ركاب أخيه الخليفة عبد المؤمن لما نهض للجهاد وأدركته المنية بسلا في جمادى الآخرة من هذه السنة ودفن بتينمللى إلى جانب المهدي والله أعلم * (دولة الخليفة يوسف بن عبد المؤمن) * لما هلك عبد المؤمن أخذ البيعة على الناس السيد أبو حفص لأخيه أبي يعقوب باتفاق من الموحدين كافة ورضا من الشيخ أبي حفص خاصة واستقل في رتبة وزارته ورجعوا إلى مراكش وكان السيد أبو حفص هذا وزيرا لأخيه عبد المؤمن واستوزره عند نكبة عبد السلام الكومي فرجعه من افريقية سنة خمس وخمسين وكان أبو على ابن جامع متصرفا بين يديه في رسم الوزارة إلى أن هلك عبد المؤمن فأخذ أبو حفص البيعة لأخيه أبي يعقوب ثم هلك إثر وفاة عبد المؤمن ابنه السيد أبو الحسن صاحب فاس والسيد أبو محمد صاحب بجاية في طريقه إلى الحضرة ثم استقدم أبو يعقوب السيد أبا سعيد من غرناطة سنة ستين فقدم ولقيه السيد أبو حفص بسبتة ثم صرح الخليفة أبو يعقوب معه أخاه السيد أبا حفص إلى الاندلس في عسكر الموحدين لما بلغه ان

الحاج بن مردنيش علا قرطبة بعد ان احتشد معه قبائل العرب رغبة ورياح والاثبح فاجاز البحر وقصد ابن مردنيش وقد جمع جمعه وأولياؤه من النصارى ولقبهم عساكر الموحدين بفحص مرسية فانهمز ابن مردنيش وأصحابه وفر إلى مرسية من سبتة ونالته الموحدون بها ودوخوا نواحيه وانصرف السيد أبو حفص وأخوه أبو سعيد سنة احدى وستين إلى مراكش وخمدت نار الفتنة من ابن مردنيش وعقد

[٢٣٩]

الخليفة على بجاية لآخيه السيد أبى زكريا وعلى اشبيلية للشيخ أبى عبد الله بن ابراهيم ثم أдал عنه بأخيه السيد أبى ابراهيم وأقر الشيخ أبى عبد الله على وزارته وعقد على قرطبة لآخيه السيد أبى اسحق وأقر السيد أبى سعيد على غرناطة ثم نظر الموحدون في موضع العلامات في المكتوبات بخط الخليفة فاخثاروا الحمد لله وحده لما وقفوا عليها بخط الامام المهدي في بعض مخاطبانه فكانت علامتهم إلى آخر دولتهم والله تعالى أعلم * (فتنة غمارة) * وفى سنة ثنتين وستين تحرك الامير أبو يعقوب إلى جبال غمارة لما كان ظهر بها من الفتنة التى تولى كبرها سبع بن منغفاد ونازعهم في الفتنة صنهاجة جيرانهم فبعث الامير أبو يعقوب عساكر الموحدين لنظر الشيخ أبى حفص ثم تعاضمت فتنة غمارة وصنهاجة فخرج إليهم بنفسه وأوقع بهم واستأصلهم وقتل سبع بن منغفاد وانحسم داؤهم وعقد لآخيه السيد أبى على الحسن على سبتة وسائر بلادهم وفى سنة ثلاث وستين اجتمع الموحدون على تجديد البيعة واللقب بأمير المؤمنين وخطب العرب بافريقية يستدعيهم إلى الغزو ويحرضهم وكتب إليهم في ذلك قصيدة ورسالة مشهورة بين الناس وكان من أحافلهم ووفودهم عليه ما هو معروف لما استوسق الامر للخليفة أبى يعقوب بالعدوة وصرف نظره إلى الاندلس والجهاد واتصل به ما كان من غدر العدو دمره الله بمدينة ترحالة ثم مدينة يابدة ثم حصن شبرمة ثم حصن جلمانية ازاء بطليوس ثم مدينة بطليوس فسرح الشيخ أبى حفص في عساكر من الموحدين احتفل في انبعاثهم وخرج سنة أربع وستين لاستنقاذ بطليوس من هذا الحصار فلما وصل إلى اشبيلية بلغه أن الموحدين وبتليوس هزموا ابن الزمك الذى كان يحاصرهم باعانة ابن ادفونش وان ابن الزمك تحصل في قبضتهم أسيرا وفر جواندة الحليفى إلى حصنه فقصد الشيخ أبو حفص مدينة قرطبة وبعث إليهم ابراهيم بن همشك من جيان بطاعته وتوحيده ومفارقته صاحبه ابن مردنيش لما حدث بينهما من الشحنة والفتنة فآلح عليه ابن مردنيش بالحرب وردد إليه الغزو فبعث إلى الشيخ أبى حفص بطاعته وكان الشيخ أبو حفص في عساكر الموحدين فنهض من مراكش سنة خمس وستين وفى جملته السيد أبو سعيد أخوه فوصل إلى اشبيلية وبعث أخاه أبى سعيد إلى بطليوس فعقد الصلح مع الطاغية وانصرف ونهضوا جميعا إلى مرسية ومعهم ابن همشك فحاصروا ابن مردنيش وثار أهل لورقة بدعوة الموحدين فملكها السيد أبو حفص ثم افتتح مدينة بسطة وطاع ابن عمه محمد بن مردنيش صاحب المرية فحصى بذلك جناحه واتصل الخبر

[٢٤٠]

بالخليفة بمراكش وقد توافقت عنده جموع العرب من افريقية صحبة أبى زكريا صاحب بجاية والسيد أبى عمران صاحب تلمسان وكان يوم قدومهم عليه يوما مشهودا فاعترضهم وسائر عساكرهم ونهض إلى الاندلس واستخلف على مراكش السيد أبى عمران أخاه فاحتل بقرطبة سنة سبع وستين ثم ارتحل بعدها إلى اشبيلية ولقيه

السيد أبو حفص هنا لك منصرفا من غزاته وكان ابن مردنيش لما طال عليه الحصار ارتاب ففتك بهم وباد أخوه أبو الحجاج وهلك هو في رجب من هذه السنة ودخل ابنه هلال في الطاعة وبادر السيد أبو حفص إلى مرسية فدخلها وخرج هلال في حملته وبعثه إلى الخليفة باشبيلية ثم ارتحل الخليفة غازيا إلى العدو فنزل رندة أياما وارتحل عنها إلى مرسية ثم رجع إلى اشبيلية سنة ثمان وستين واستصحب هلال بن مردنيش وصهر له في ابنته وولى عمه يوسف على بانسية وعقد لآخيه السيد أبي سعيد على غرناطة ثم بلغه خروج العدو إلى أرض المسلمين مع القومس الاحدب فخرج للقائهم وأوقع بهم بناحية قلعة رباح وأثنى فيهم ورجع إلى اشبيلية وأمر ببناء حصن القلعة ليحصن جهاتها وقد كان خرابا منذ فتنة أبي حجاج فيه مع كريت ابن خلدون بمدة ازمان المنذر بن محمد وأخيه عبد الله من امراء بنى أمية ثم انتقض ابن ادفونيش وأغار على بلاد المسلمين فاحتشد الخليفة وسرح السيد أبا حفص إليه فغزاه بعقر داره وافتتح قنصرة بالسيف وهزم جموعه في كل جهة ثم ارتحل الخليفة من اشبيلية راجعا إلى مراكش سنة احدى وسبعين لخمس سنين من اجازته إلى الاندلس وعقد على قرطبة لآخيه الحسن وعلي اشبيلية لآخيه على وأصاب مراكش الطاعون فهلك من السادات أبو عمران وأبو سعيد وأبو زكريا وقدم الشيخ أبو حفص من قرطبة فهلك في طريقه ودفن بسلا واستدعى الخليفة أخويه السيدين أبا على وأبا الحسن فعقد لآبي على على سجلماسة ورجع أبو الحسن إلى قرطبة وعقد لابنى أخيه السيد أبي حفص لآبي زيد منهما على غرناطة ولآبي محمد عبد الله على مالقة وفى سنة ثلاث وسبعين سطا بذرية بنى جامع وغربهم إلى ماردة وفى سنة خمس وسبعين عقد لقائم بن محمد ابن مردنيش على اسطوله واغراه مدينة الاشبونة فغنم ورجع وفيه كانت وفاة أخيه السيد الوزير ابي حفص بعدما أبلى في الجهاد وبالغ في نكاية العدو وقدم ابناه من الاندلس وأخبر الخليفة بانتفاض الطاغية واعتزم على الجهاد وأخذ في استدعاء العرب من افريقية والله تعالى أعلم * (الخبر عن انتفاض قفوصة واسترجاعها) * كان على بن المعز ويعرف بالطويل من أعقاب بنى الرند ملوك قفوصة قد ثار سنة خمس وسبعين كما ذكرناه في أخبارهم وبلغ الخليفة خبره فنهض إليها من مراكش وسار إلى

[٢٤١]

بجاية وبقي عنده يعلى بن المنتصر الذى كان عبد المؤمن استتله من قفوصة أنه يواصل قريبه الثائر بها ويخاطب العرب فتقبض عليه ووجدت المخاطبات عنده شاهدة بتلك السعاية واستصفى ما كان بيده وارتحل إلى قفوصة ونزلها ووفدت عليه مشيخة العرب من رباح بالطاعة فقتلهم ولم يزل محاصرا لقفوصة إلى ان نزل على بن المعز وانكف راجعا إلى تونس وأنفذ عساكر العرب وعقد على افريقية والزاب للسيد أبي على أخيه وعلي بجاية للسيد أبي موسى وقفل إلى الحضرة والله تعالى أعلم * (معاودة الجهاد) * لما قفل من فتح قفوصة سنة سبع وسبعين وفد عليه أخوه السيد أبو اسحق من اشبيلية والسيد أبو عبد الرحمن يعقوب من مرسية وكافة الموحدين ورؤساء الاندلس يهنونه بالاياب فأكرم موصلهم وانصرفوا إلى بلادهم واتصل به أن محمد بن يوسف بر وانودين تحدر بالموحدين من اشبيلية إلى أرض العدو فنزل مدينة بابورة وغنم ما حولها وافتتح بعض حصونها ورجع إلى اشبيلية التقوا بأسطول أهل اشبونة في البحر فهزموهم وأخذوا عشرين من قطائعهم مع السبى والغنائم ثم بلغ الخبر بان أدفوش ابن شانجة نازل قرطبة وشن الغارات على جهات مالقة ورندة وغرناطة ثم نزل استجة وتغلب على حصن شقيلة وأسكن بها النصارى وانصرف فاستنفر السيد أبو اسحق سائر الناس للغزو ونازل الحصن نحو من أربعين يوما ثم بلغه خرج ادفونش من طليصلة بمدده فانكف راجعا وخرج محمد بن يوسف بن

وانودين من اشبيلية في جموع الوجدين ونازل طليبة وبرز إليه أهلها فأوقع بهم وانصرف بالغنائم اعتزم الخليفة أبو يعقوب على معاودة الجهاد وولى على الاندلس أمناءه وقدمهم للاحتشاد فعقد لابنه السيد أبي زيد الحصراني على غرناطة ولابنه السيد أبي عبد الله على مرسية ونهض سنة تسع وسبعين إلى سلا ووافاه بها أبو محمد بن أبي اسحق بن جامع من افريقية بحشود العرب وسار إلى فاس وبعث في مقدمته هنتاة وتينملل وحشود العرب وأجاز البحر من سبتة في صفر من سنة ثمانين فاحتل بجبل الفتح وصار إلى اشبيلية فوافته بها حشود الاندلس وسخط محمد بن وانودين وغريه إلى حصن غافق ورحل غازيا إلى شنتمرين فحاصرها أياما ثم أفلح عنها واستمر الناس يوم اقلاعه وخرج النصارى من الحصن فوجدوا الخليفة في غير أهبة ولا استعداد فاب في الجهاد هو ومن حضره وانصرفوا بعد جولة شديدة وهلك في ذلك اليوم الخليفة يقال من عنهم اصابه في حومة القتال وقيل من مرض طرقة عفى الله عنه ولما هلك الخليفة أبو يعقوب على حصن شنتمرين سنة ثمانين بويج ابنه يعقوب ورجع بالناس إلى اشبيلية فاستكمل البيعة واستوزر الشيخ أبا محمد عبد الواحد بر

[٢٤٢]

أبى حفص واستفر الناس للغزو مع أخيه السيد يحيى فأخذ بعض الحصون وأتخن في بلاد الكفار ثم أجاز البحر إلى الحضرة ولقيه بقصر مضمودة السيد أبو زكريا ابن السيد أبي حفص قادما من تلمسان مع مشيخة زغبة ومضى إلى مراکش فغير المناكير وبسط العدل ونشر الاحكام وكان من أول الاحداث في دولة شأن بن غانية * (الخبر عن شأن ابن غانية) * كان على بن يوسف بن تاشفين لما تغلب العدو على جزيرة ميورقة وهلك واليها من موالي مجاهد وهو مبشر ويقى أهلها فوضى وكان مبشر بعث إليه بالصريح والعدو محاصر له فلما أخذها العدو وغنم وأحرق وأقلع وبعث على بن يوسف واليا عليها وانور بن أبي بكر من رجالات لمتونة وبعث معه خمسمائة فارس من معسكره فأرهب لهم حده وارادهم على بناء مدينة أخرى بعيدة من البحر فامتنعوا وقتل مقدمهم فناروا به وحبسوه ومضوا إلى على بن يوسف فأسفاهم منه وولى عليهم محمد بن على بن يحيى المسوقى المعروف بابن غانية وكان أخوه يحيى على غرب الاندلس وكان نزله باشبيلية واستعمل أخاه على قرطبة فكتب إليه على بن يوسف يأمره بصرف محمد أخيه إلى ولاية ميورقة فارتحل إليها من قرطبة ومعه أولاده عبد الله واسحق وعلى والزبير وابراهيم وطلحة وكان عبد الله واسحق في تربية عمهما يحيى وكفالتة فتبناهما ولما وصل محمد بن على ابن غانية إلى ميورقة قبض على وانور وبعثه مصفدا إلى مراکش وأقام على ذلك عشرا وهلك يحيى بن غانية وقد ولى عبد الله بن أخيه محمد على غرناطة وأخاه اسحق بن محمد على قرمونة ثم هلك على وضعف أمر لمتونة وظهر عليهم الموحدون فبعث محمد عن ابنه عبد الله واسحق فوصلا إليه في الاسطول وانفض ملك لمتونة ثم عهد محمد إلى ابنه عبد الله فنافسه أخوه اسحق وداخل جماعة من لمتونة في قتله فقتلوه وقتلوا أبا ه محمدا ثم اجمعوا الفتك به فارتاب بهم وداخل لب بن ميمون قائد البحر في أمرهم لكبسهم في منازلهم وقتلهم سنة ست وأربعين وخمسمائة ويقى أمير الميورقة واشتغل أول أمره بالبناء والغراسة وضرر منه الناس لسوء ملكته وفر عنه لب بن ميمون إلى لموحدين ثم رجع أخيرا إلى الغزو وكان يبعث الاسارى والعلوج للخليفة أبي يعقوب لى أن هلك قبيل مهلكه سنة ثمانين وخلف من الولد محمدا وعليا ويحيى وعبد الله سير والمنصور وجبارة وتاشفين وطلحة وعمر ويوسف والحسن فولى ابنه محمد وبعث إلى لخليفة أبي يعقوب بطاعته فبعث هو على ابن الروبرتير لاختبار ذلك منه وأحس بذلك

خوته فمكروهه وتقبضوا عليه وقداموا عليا منهم وبلغهم مهلك الخليفة
وولاية ابنه

[٢٤٣]

المنصور فاعتقلوا ابن الروبرتير وركبوا البحر في أسطولهم إلى بجاية
وولى على ميورقة أخاه طلحة وطرق بجاية في أسطوله على حين
غفلة وعليها السيد أبو ربيع بن عبد الله بن عبد المؤمن وكان خارجها
في بعض مذهبها فاستولوا عليه سنة احدى وثمانين وتقبضوا على
السيد أبي ربيع والسيد أبي موسى عمران بن عبد المؤمن صاحب
افريقية وكان بها مجازا واستعمل أخاه يحيى على بجاية ومضى إلى
الجزائر فافتتحها وولى عليها يحيى ابن أخيه طلحة ثم إلى مليانة
فولى عليها بدر بن عائشة ونهض إلى القلعة ثم إلى قسنطينة
فنازلها واتصل الخبر بالمنصور وهو بسبته مرجعه من الغزو فسرح
السيد أبا زيد بن عمه السيد أبي حفص وعقد له على حرب ابن
غانية وعقد لمحمد بن أبي اسحق بن جامع على الاساطيل والى
نظره أبو محمد بن عطوش وأحمد الصقلي وانتهى السيد أبو زيد إلى
تلمسان وأخوه يومئذ السيد أبو الحسن كان واليا وقد أمعن النظر
في تحصينها ثم ارتحل بعساكره من تلمسان ونادى بالعفو في
الرعية فثار أهل مليانة على ابن عائشة فأخرجوه وسبقت الاساطيل
إلى الجزائر فملكوها وقبضوا على يحيى بن طلحة وسبق بدر بن
عائشة من أم العلو فقتلوا جميعا بئلف وتقدم القائد أحمد الصقلي
بأسطوله إلى بجاية فملكها ولحق يحيى بن غانية بأخيه على
بمكانه من حصار قسنطينة فألقع عنها ونزل السيد أبو زيد للهكلات
وخرج السيد أبو موسى من اعتقاله فلقه هنا لك ثم ارتحل في
طلب العدو فأفرج عن قسنطينة وخرج إلى الصحراء وابعه الموحدون
إلى مقره بفاس ثم قفلوا إلى بجاية واستقر السيد أبو زيد بها وقصد
على بن غانية قفصة فملكها ونازل توزر فامتنعت عليه ولحق
بترابلس وخرج غزى الصنهاجى من جموع ابن غانية في بعض احياء
العرب فتغلب على أشير وسرح إليهم السيد أبو زيد ابنه أبا حفص
عمر ومعه غانم بن مردنيش فأوقعوا بهم واستولى على حليلهم
وقتل غزى وسبق رأسه إلى بجاية ونصب بها وألحق به عبد الله
أخوه وغزا بنو حمدون من بجاية إلى سلا لاتهمهم بالدخول في أمرا
بن غانية واستقدم الخليفة السيد أبا زيد من مكانه بجاية وقدم
مكانه أخاه السيد أبا عبد الله وانصرف إلى الحضرة وبلغ الخبر أثناء
ذلك باستيلاء على بن الروبرتير على ميورقة وكان من خبره ان الامير
يوسف بن عبد المؤمن بعثه إلى ميورقة لدعاء بنى غانية إلى أمره
لما كان أخوهم محمد خاطبه بذلك فلما وصل ابن الروبرتير إليهم
نكروا شأنه على أخيه محمد واجتمعوا دونه وتقبضوا عليه وعلى
ابن الروبرتير في أمره وداخل مواليهم من العلوج في تخلية سبيله
من معتقله على أن يخلى سبيلهم بأهليهم وولدهم إلى أرضهم
فتم له مرادهم منه وصار بالقصبة واستنقذ محمد ابن أبي اسحق
من مكان اعتقاله ولحقوا جميعا بالحضرة وبلغ الخبر على بن غانية
بمكانه من ترابلس فبعث أخاه عبد الله

[٢٤٤]

إلى صقلية وركب منها إلى ميورقة ونزل في بعض قراها وأعمل
الحيلة في تملك البلد فاستولى عليه وأضرم نار الفتنة بأفريقية ونازل
على بن غانية بلاد الجريد وتغلب على الكثير منها وبلغ الخبر
باستيلائه على نفصة فخرج المنصور إليه من مراکش سنة ثنتين
وثمانين ووصل فاس فأراج بها وسار إلى رباط تازا ثم سار إلى التعبية
إلى تونس وجمع ابن غانية من إليه من الملتئمين مين والاعراب وجاء

معه قرقش الغزى صاحب طرابلس فسرح إليهم المنصور عساكره لنظر السيد أبى يوسف بن السيد أبى حفص ولقيهم بغمرة فانفض جموع الموحدين وأفلت المعركة عن قتل على بن الروبرتير وأبى على بن يغمور وفقد الوزير عمر بن أبى زيد ولحق فلهم بقفصة فأثنوا فيهم قتلا ونجا الباقون إلى تونس وخرج المنصور متلافيا خبر الواقع في هذا الحال ونزل القيروان وأخذ السير إلى الحامة فتشاور الفريقان وتزاحفوا فكانت الدبرة على ابن غانية وأحزابه وأفلت من المعركة بدماء نفسه ومعه خليله قراقش وأتى القتل على كثيرهم فصيح المنصور قابس فافتتحها ونقل من كان بها من حرم ابن غانية وذويه في البحر إلى تونس وثنى العنان إلى تونس فافتتحها وقتل من وجد بها ثم إلى قفصة فنازلها أياما حتى نزلوا على حكمه وأمن أهل البلد والأغراب أصحاب قراقش وقتل سائر الملتئمين ومن كان معهم من الحشود وهدم أسوارها وانكف راجعا إلى تونس فعقد على افريقية للسيد أبى زيد وقفل إلى المغرب سنة أربع وثمانين ومم بالمهدية واستجر على طريق تاهرت والعباس بن عطية أمير بنى توجين دليله إلى تلمسان فنكب بها عمه السيد أبى اسحق لشئ بلغه عنه وأحفظه ثم ارتحل إلى مراکش ورفع إليه ان أخاه السيد أبى حفص والى مرسية الملقب بالرشيد وعمه السيد أبى الربيع والى تادلا عندما بلغهم خبر الوقعة بغمرة حدثوا أنفسهم بالتوثب على الخلافة فلما قدما عليه للتهنئة أمر باعتقالهما برباط الفتح خلال ما استملى امرهما ثم قتلها وعقد للسيد أبى الحسن بن السيد أبى حفص على بجاية وقصد يحيى بن غاية قسنطينة فزحف إليه السيد أبو الحسن من بجاية فهزمه ودخل قسنطينة ودخل ابن غانية إلى نسيا كره فقطع نخلها وفتتحها عنوة ثم حاصر قسنطينة فامتنعت عليه فارتحل إلى بجاية وحاصرها وكثر عينه بافريقية إلى ان كان من خبره ما يذكر ان شاء الله تعالى والله أعلم * (اخباره في الجهاد) * بلغه تغلب العدو على قاعدة شلب وانه أوقع بعسكر اشبيلية وترددت سراياهم على واحيها واقتحم كثيرا من حصونها وخاطبه السيد أبو يوسف بن حفص صاحب

اشبيلية بذلك استنفر الياس للجهاد وخرج سنة ست وثمانين إلى قصر مسمودة فأرح به ثم أجاز إلى طريف وأخذ السير منها إلى شلب ووافته بها حشود الأندلس فتركهم لحصارها وزحف إلى حصن طرش فافتتحه ورجع إلى اشبيلية ثم رجع إلى منازل شلب سنة سبع وثمانين فافتتحه وقدم عليه ابن وزير بعد ان كان افتتح في طريقه إليه حصونا أخرى ثم قفل إلى حضرته بعد استكمال غزائه وكتب بعده لابنه الناصر وقدم عليه سنة ثمان وثمانين السيد أبو زيد صاحب افريقية ومعه مشيخة العرب من هلال وسليم فتلقاهم ميرة وتكريما وانقلب وفدهم إلى بلادهم ثم بلغه سنة تسعين استفحال ابن غانية بافريقية وكثرة العيث والفساد بها فاعتزم على النهوض إليها ووصل إلى مكناسة فبلغه من أمر الأندلس ما أهمه فصرف وجهه إليها ووصل قرطبة سنة احدى وتسعين فأراح بها ثلاثا وامداد الحشود تتلاحق به من كل ناحية ثم ارتحل للقاء العدو ونزل بالارك من نواحي بطليوس وزحف إليه العدو من النصارى وأمرؤهم يومئذ ثلاثة ابن ادفونش وابن الرند والبيوح وكان اللقاء يوم كذا سنة احدى وتسعين وأبو محمد ابن أبى حفص يومئذ على المطوعة وأخوه أبو يحيى على العساكر والموحدين فكانت الهزيمة المشهورة على النصارى واستلحم منهم ثلاثين ألفا بالسيف واعتصم فلهم بحصن الارك وكانوا خمسة آلاف من زعمائهم فاستنزلهم المنصور على حكمه وفودي بهم عددهم من المسلمين واستشهد في هذا اليوم أبو يحيى بن الشيخ أبى حفص بعد ان أبلى بلاء حسنا وعرف بنوه بعدها بنى الشهيد وانكف المنصور راجعا إلى اشبيلية ثم خرج منها سنة ثنتين وتسعين غازيا إلى بلاد الجوف فافتتح حصونا ومدنا

وخربها كان منها برحالة وطلبيرة واطل على نواحي طليطلة فخرّب بسائطها واكتسح مسارحها وقفل إلى اشبيلية سنة ثلاث وتسعين فرفع إليه في القاضى أبى الوليد بن رشد مقالات فيها إلى المرض في دينه وعقده وربما لقى بعضها بخطه فحبس ثم أطلق وأشخص إلى الحضرة وبها كانت وفاته ثم خرج المنصور من اشبيلية غازيا إلى بلاد ابن ادفونش حتى احتل بساحة طليطلة وبلغه ان صاحب برشلونة أمد ابن ادفونش بعساكره وانهم جميعا يحصن مجريط فنهص إليهم ولما أطل عليهم انقضت جموع ابن ادفونش من قبل القتال ثم انكف المنصور راجعا إلى اشبيلية ثم رغب إليه ملوك النصرانية في السلم فبذله لهم وعقد على اشبيلية للسيد أبى زيد ابن الخليفة وعلى مدينة بطليوس للسيد أبى الربيع بن السيد أبى حفص وعلى المغرب للسيد أبى عبد الله بن السيد أبى حفص وأجاز إلى حضرته سنة أربع وتسعين فطرقة المرض الذى كان منه حنفة وأوصى وصيته التى تناقلها الناس وحضر لوصيته عيسى ابن الشيخ أبى حفص وهلك رحمه الله سنة خمس

[٢٤٦]

وتسعين في آخر ربيعها والله تعالى أعلم * (الخبر عن وصول ابن منقذ بالهدية من قبل صاحب الديار المصرية) * كان الفرنج قد ملكوا سواحل الشام في آخر الدولة العبيدية منذ تسعين سنة وملكوا بيت المقدس فلما استولى صلاح الدين بن أيوب على ديار مصر والشام اعتزم على جهادهم وصار يفتتح حصونها واحدا بعد واحد حتى أتى على جميعها وافتتح بيت المقدس سنة ثلاث وثمانين وهدم الكنيسة التى بناوحيها وانقضت أمم النصرانية من كل جهة واعترضوا أسطول صلاح الدين في البحر فبعث صريخه إلى المنصور سنة خمس وثمانين يطلب اعانته بالاساطيل لمنازلة عكا وصور وطرابلس ووفد عليه أبو الحرث عبد الرحمن بن منقذ بقية أمراء شيزر من حصون الشام كانوا أشروا به عند اختلال الدولة العبيدية فلما استقام الأمر على يد صلاح الدين وانتظم ملك مصر والشام واستنزل بنى منقذ هؤلاء ورعى لهم سابقتهم وبعثه في هذه إلى المنصور بالمغرب بهدية تشتمل على مصحفين كريمين منسويين ومائة درهم من دهن البلسان وعشرين رطلا من العود وستمائة مثقال من المسك والعنبر وخمسين قوسا عربية باوتارها وعشرين من النصول الهندية وسروج عدة ثقيلة ووصل إلى المغرب ووجد المنصور بالاندلس فانتظره بفاس إلى حين وصوله فلقبه وأدى الرساله فاعتذر له عن الاسطول وانصرف ويقال انه جهز له بعد ذلك مائة وثمانين أسطولا ومنع النصارى من سواحل الشام والله تعالى أعلم * (دولة الناصر بن المنصور) * لما هلك المنصور وأمر ابنه محمد ولى عهده وتلقب النصارى لدين الله واستوزر أبى زيد ابن يوخلين وهو ابن أخى الشيخ أبى حفص ثم استوزر أبى محمد بن الشيخ أبى حفص وعقد للسيد أبى الحسن بن السيد أبى حفص على بجاية وفوض إليه في شؤونها وبلغه سنة ست وتسعين اجحاف العدو بافريقية وفساد الأعراب في نواحيها ورجوع السيد أبى الحسن من قسنطينة منهزما أمام ابن غانية فأنفذ السيد أبى زيد بن أبى حفص إلى تونس في عسكر من الموحدين لسد ثغورها وأنفذ أبى سعد بن الشيخ أبى حفص فتغلب ابن غانية خلال ذلك على حصن المهديّة وثار بالسوس سنة ثمان وتسعين ثائر من كزولة يعرف بأبى قفصة فسرح الناصر إليه عساكر الموحدين فقصدوا جموعه وقتل وفى أيامه كان فتح ميورقة على ما نتلوا من خبرها * (فتح افريقية) *

[٢٤٧]

وكان من خبرها ان محمد بن اسحق لما فصل اخوته على ويحيى إلى افريقية وولى على ميورقة أخاهم طلحة داخل محمد بعض الحاشية وخرج من الاعتقال هو وابن الروبيري وقام بدعوة المنصور وبعث بها مع ابن الروبيري فبعث المنصور أسطوله مع أبي العلا بن جامع لتملك ميورقة فابى محمد من ذلك وأرسل طاغية برشلونة في المدد بجند من النصارى يستخدمهم فأجابهم وانتقض عليه أهل ميورقة لذلك وخشوا عادية المنصور فطردوا محمد بن اسحق وولوا عليهم أخاه تاشفين وبلغ ذلك عليا وهو على قسنطينة فبعث اخوته عبد الله والغاني فدخلوا بعض أهل البلد وعزلوا تاشفين وولوا عبد الله وبعث المنصور أسطوله مرارا مع أبي العلا بن جامع ثم مع يحيى ابن الشيخ ابراهيم الهزرجي فامتنعوا عليهم وقتلوا منهم خلقا وقوى أمره وذلك سنة ثلاث وثمانين ثم لما هلك المنصور بعث الناصر أسطوله مع عمه السيد أبي العلا والشيخ أبي سعيد بن أبي حفص فنازلوه وانخدل عنه أخوه تاشفين بالناس ودخل البلد عنوة واستفتحت وقتل وانصرف السيد إلى مراکش وولى عليها عبد الله بن طاع الله الكومي ثم ولى الناصر عليها عمه السيد أبا زيد وجعل ابن طاع الله على قيادة البحر وبعد السيد أبي زيد وليها السيد أبو عبد الله بن أبي حفص بن عبد المؤمن ثم أبو يحيى على بن أبي عمران التينملي ومن يده أخذها النصارى سنة سبع وعشرين وستمائة والله تعالى أعلم * (خبر افريقية وتغلب ابن غانية عليها ولاية أبي محمد بن أبي الشيخ أبي حفص) * لما هلك المنصور قوى أمر ابن غانية بافريقية وولى الناصر السيد أبا زيد والشيخ أبا سعيد بن أبي حفص ويقال ان المنصور ولاههما وكثر الهرج بافريقية ونار بالمهدية محمد بن عبد الكريم الرجرجي ودعا لنفسه ونار ابن غانية والموحدين الامر ويسمى صاحب قبة الاديم محمد بن عبد الكريم الرركاكي ونزل تونس وعاث في قراها سنة ست وتسعين ونازل ابن غانية بفاس فامتنع عليه وكان محمد بن مسعود البلطى شيخ رياح من أشياعه فانتقض عليه وراجع ابن غانية فاتيح له الظهور على محمد بن عبد الكريم وقصده وهو على قفصة فهزمه واتبعه إلى المهديّة فنازله بها وبعث إلى صاحب تونس في المدد بأسطوله فأنده فضاقت حال ابن عبد الكريم فسأل الامان من ابن غانية فأمنه وخرج إليه فتقبض عليه واستولى على المهديّة سنة تسع وتسعين وبعث الناصر اسطوله في البحر مع عمه أبي العلا وعساكر الموحدين مع السيد أبي الحسن بن أبي حفص ابن عبد المؤمن ونازلوا ابن عبد الكريم قبل استيلاء ابن غانية عليها فادعى ابن عبد الكريم بانه حافظ للحسن من العدو لا يمكنه الا لثقة الخليفة وانصرف السيد أبو الحسن إلى بجاية موضع عمله وقسم العسكر بينه وبين أخيه السيد أبي زيد صاحب

تونس وصلحت الاحوال ثم ان ابن غانية لما تغلب على المهديّة وعلى قراقش الغزي صاحب طرابلس وقد مرت اخباره في أخبار ابن غانية ثم تغلب على بلاد الجريد ثم نزل تونس سنة تسع وتسعين وافتتحها عنوة وتقبض وطالب أهل تونس بالنفقة التي أنفق وبسط عليهم العذاب وتولى ذلك فيهم كاتبه ابن عصفور حتى هلك في الامتحان كثير من بيوتاتهم ثم دخل في دعوته أهل موته وتسمرت وسعارمة والأرض والقيروان وسبتة وصفانس وقابس وطرابلس وانتظمت له أعمال افريقية وفرق العمال وخطب للعباسي كما ذكرناه في أخباره ثم ولى على تونس أخاه الغازي ونهض إلى جبال طرابلس فأعزمهم ألف ألف دينار مكررة مرتين ورجع إلى تونس واتصل بالناصر كثرة الهرج بافريقية واستيلاء ابن غانية عليها وحصول السيد في قبضته فشاور الموحدين في أمره فأشاروا بمسالمة ابن غانية وأشار أبو محمد بن الشيخ أبي حفص بالنهوض إليها والمدافعة عنها فعمل على رأيه ونهض من مراکش سنة احدى وستمائة وبعث

الاسطول في البحر لنظر أبي يحيى بن أبي زكريا الهزرجي فبعث ابن غانية ذخيرته وجرمه إلى المهديّة مع علي بن الغاني ابن محمد بن علي وانتقض أهل طرابلس على ابن غانية وأخرجوا عاملهم تالمفين بن الغاني ابن محمد بن علي بن غانية وقصدهم ابن غانية فافتتحها وخرّبها ووصل أسطول الناصر إلى تونس فدخلوها وقتلوا من كان بها من اتباع ابن غانية ونهض الناصر في اتباع ابن غانية فأعجزه ونازل المهديّة وبعث أبا محمد بن الشيخ أبي حفص للقاء ابن غانية فلقية بتاجرا فأوقع به وقتل جبارة وكاتبه ابن اللمطي وعامله الفتح بن محمد قال ابن نجيل وكانت الغنائم من عسكره يومئذ ثمانية عشر ألفا من أحمال المال والمتاع والخرثي ولألة ونجا بأهله وولده فاطلق السيد ابا زيد من الاعتقال بعد ان هم حرسه بقتله عند الهزيمة ثم تسلّم الناصر للمهديّة من يد علي بن الغازي المعروف بالحاج الكافر على أن يلحق بابن عمه فقبل شرطه ومضى لوجهه ثم رجع من طريقه واختار التوحيد فناله من لكرامة والتقريب مالا فوّه وهلك في يوم العقاب الآتى ذكره ثم فرض الناصر على المهديّة واستعمل عليها محمد يغمور الهرغي وعلي طرابلس عبد الله بن ابراهيم بن جامع ورجع إلى تونس فأقام إلى سنة ثلاث وستمائة وسرح أخاه السيد ابا اسحق في عسكر من الموحدين لاتباع العدو فدوخوا ما وراء طرابلس واستأصلوا بنى دمر ومطماطة وجبال نفوسة وتجاوزوها إلى سويقة بنى مذكور وقتل السيد أبو اسحق بهم إلى أخيه الناصر بتونس وقد كمل الفتح ثم اعتزم على الرحيل إلى المغرب وأجمع راى على تولية أبي محمد ابن الشيخ أبي حفص وكان شيخ دولته وصاحب رأيه فامتنع إلى ان بعث إليه الناصر في ذلك بابنه يوسف فأكبر مجيئه وأتاب لذلك على أن يقيم بأفريقية

[٢٤٩]

ثلاث سنين خاصة خلاف ما يستحكم صلاحها وأن يحكم فيمن يقيم معه من العسكر فتقبل شرطه ورجع الناصر إلى مراكش فدخلها في ربيع سنة أربع وستمائة وقدم عبد العزيز بن أبي زيد اللهثاني على الأشغال بالعدوتين وكان على الوزارة أبو سعيد بن جامع وكان صديقا لابن عيد العزيز وعند مرجعه من افريقية توفى السيد أبو الربيع بن عبد الله بن عبد المؤمن صاحب بجاية وقد كان أبو الربيع هذا ولي بجاية من قبل وهو الذي جدد للربيع وكان بنو حماد شيدها من قبل فأصابها الحريق وجدها السيد أبو الربيع وفي سنة خمس بعدها عقد للسيد أبي عمران بن يوسف بن عبد المؤمن على تلمسان أدال به من السيد أبي الحسن فوصل إلى تلمسان في عساكر الموحدين وتطوف أقطارها وزحف إليه ابن غانية هنا لك فانفض الموحدون وقتل السيد أبو عمران وارتاب باهل تلمسان وأسرع السيد أبو زكريا من فاس إليها فسكن نفوسهم خلال ما عقد الناصر لابني زيد بن يوجان على تلمسان وسرحه في العساكر فنزل بها وفر ابن غانية إلى مكانه من قاصية افريقية ومعه محمد بن مسعود البلط شيخ الزواودة من رياح وغيره من اعراب رياح وسلم واعترضهم أبو محمد بن أبي حفص فانكشفوا واستولى الموحدون على محلاتهم وما بأيديهم ولحقوا بجهات طرابلس ورجع عنهم سيرين اسحق أخذوا بدعوة الموحدين وفي هذه السنة عقد الناصر على جزيرة ميورقة لابني يحيى بن أبي الحسين بن أبي عمران أدال به من السيد أبي عبد الله بن أبي حفص وعقد على بلنسية وعلى مرسية لابني عمران بن ياسين الهنتاتي أدال به من أبي الحسن بن زكك وعقد للسيد أبي زيد علي كورة جيان أدال به من أبي موسى بن أبي حفص وعقد للسيد أبي ابراهيم بن يوسف على أشبيلية ولابني عبد الله بن أبي يحيى بن الشيخ أبي حفص على غرناطة إلى ان كان ما يذكر ان شاء الله تعالى * (أخباره في الجهاد) * لما بلغ الناصر تغلب العدو على كثير من حصون بلنسية أهمه ذلك وأقلقه وكتب إلى الشيخ أبي محمد بن أبي حفص يستشيره في الغزو فأبى عليه

فخالفه وخرج من مراكش سنة تسع ووصل اشبيلية واستقر بها واستعد للغزو ثم رجع من اشبيلية وقصد بلاد ابن اذفونش فافتتح قلعة شليطرة والبخ في طريقه ونازل الطاغية قلعة رباح وبها يوسف ابن قانس وأخذ بمخنقه فصالحه على النزول ووصل إلى الناصر فقتله وصار على التعبية إلى الموضع المعروف بالعقاب وقد استعد له الطاغية وجاءه طاغية برشلونة مددا بنفسه فكانت الدبرة على المسلمين فانكشفوا في يوم بلاء وتمحيص أواخر صفر سنة تسع وستمائة وانكف راجعا إلى مراكش فهلك في شعبان من السنة بعدها وكان ابن

[٢٥٠]

اذفونش قد ناظر ابن عمه اليهوج صاحب لون في ان يوالى الناصر ويجر الهزيمة على المسلمين ففعل ذلك ثم رجعوا إلى الاندلس بعد الكائنة للاغارة على بلاد المسلمين فلقبهم السيد أبو زكريا بن أبي حفص بن عبد المؤمن قريبا من اشبيلية فهزمهم وانتعش المسلمون بها واتصلت الحال على ذلك والله أعلم * (ثورة ابن الفرس) * كان عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن الفرس من طبقة العلماء بالاندلس ويعرف بالمهر وحضر مجلس المنصور في بعض الايام وتكلم بما خشى عاقبته في عقده وخرج من المجلس فاختمى مدة ثم بعد مهلك المنصور ظهر في بلاد كزولة وانتحل الامامة وادعى أنه القحطاني المراد في قوله صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يقود الناس بعصاه يملؤه عدلا كما ملئت جورا إلى آخر الحديث وكان مما ينسب إليه من الشعر قولوا لابناء عبد المؤمن بن علي * تاهبوا لوقوع الحادث الجلل قد جاء سيد قحطان وعالمها * ومنتهى القول والغلاب للدول والناس طوعا عصاه وهو سائقهم * بالامر والنهي بحر العلم والعمل وبادروا أمره فالله ناصره * والله خاذل أهل الزيف والميل فبعث الناصر إليه الجيوش فهزموه وقتل وسيق رأسه إلى مراكش فنصب بها والله أعلم * (دولة المستنصر بن الناصر) * لما هلك محمد بن الناصر بن المنصور بويح ابنه يوسف سنة احدى عشرة وهو ابن ست عشرة سنة ولقب المستنصر بالله وغلب عليه ابن جامع ومشايخه الموحدين فقاموا بأمره وتأخرت بيعة أبي محمد ابن الشيخ أبي حفص من افريقية لصغر سن المستنصر ثم وقعت المحاولة من الوزير ابن جامع وصاحبها لاشتغال عبد العزيز بن أبي زيد فوصلت بيعته واشتغل المستنصر عن التدبير بما يقتضيه الشباب وعقد للسادة على عمالات ملكه فعقد للسيد أبي ابراهيم أخى المنصور وتلقب بالظاهر على فاس وهو أبو المرتضى وعقد على اشبيلية لعمه السيد أبي اسحق الاحول واستولى الفنش على المعافل التى أخذها الموحدون وهزم حامية الاندلس وفر رسوله إلى الفجار فحاوله ابن جامع في السلم فعقده ثم صرف ابن جامع عن الوزارة بعد مهلك ابن أبي زيد بن يوجان واستوزر أبا يحيى الهزوحى وولى على الاشغال أبا على بن أشرف ثم رضى عن ابن جامع وأعادته وعزل أبا زيد بن يوجان من ولاية تلمسان بابى سعيد بن المنصور وبعثه إلى مرسية فاعتقل

[٢٥١]

بها واستمرت أيام المنصور في هدنة وموادعة إلى ان ظهر بنو مرين بجهاث فاس سنة ثلاث عشرة فخرج إليهم واليها السيد أبو ابراهيم في جموع الموحدين فهزموه وأسروه ثم عرفوه وأطلقوه ثم وصل الخبر بمهلك أبي محمد بن أبي حفص صاحب افريقية فولى عليها أبا العلى اخا المنصور وكان واليا باشبيلية فعزل وولى على افريقية

سعاية بن مثنى خاصة السلطان فتوجه إليها كما يذكر في أخبار بنى أبي حفص وخرج بناحية فاس رجل من العبيديين انتسب للعاصد وتسمى بالمهدي فبعث السيد أبو ابراهيم أخو المنصور إلى فاس إلى شيعته وبذل لهم المال فنقضوا عليه وساقوه إليه فقتل وفي سنة تسع عشرة عقد المستنصر لعمه أبي محمد المعروف بالعدل على مرسية وعزله عن غرناطة وهلك سنة عشرين وقد التاثت الأمور فكان ما يذكر والله تعالى أعلم * (الخبر عن دولة المخلوع أخى المنصور) * لما هلك المستنصر في الاضحى من سنة عشرين اجتمع ابن جامع والموحدون وبيعوا للسيد أبي محمد عبد الواحد أخى المنصور فقام بالامر وأمر بمطالبة ابن أشرفى بالمال وكتب أخوه لابي العلا بتجديد الولاية على افريقية بعد ان كان المستنصر أوعز بعزله فأدركته الولاية ميتا فاستبد بها ابنه أبو زيد المشمر كما نذكره في أخبار افريقية ونفذ المخلوع أمره باطلاق ابن يوجان فأطلق ثم صده ابن جامع عن ذلك وأنفذ أخاه أبا اسحق في الاسطول ليغيره إلى ميورقة كما كان المستنصر أنفذه قبل وفاته وكان الوالى بمرسية أبو محمد عبد الله بن المنصور وأغراه ابن يوجان بالتوثب على الامر وشهد له أنه سمع من المنصور العهد له بالخلافة من بعد الناصر وكان الناس على كره ابن جامع وولاة الاندلس كلهم بنو منصور فأصغى إليه وكان مترددا في بيعة عمه فدعا لنفسه وتسمى بالعدل وكان اخوته أبو العلى صاحب قرطبة وأبو الحسن صاحب غرناطة وأبو موسى صاحب مالقة فبايعوه سرا وكان أبو محمد بن أبي حفص بن عبد المؤمن المعروف بالبياسى صاحب جيان وعزله المخلوع بعمه أبي الربيع بن أبي حفص فانتقض وبيع للعدل وزحف مع أبي العلى صاحب قرطبة وهو أخو العدل إلى اشبيلية وبها عبد العزيز أخو المنصور والمخلوع فدخل في دعوتهم وامتنع السيد أبو زيد بن أبي عبد الله أخى البياسى عن بيعة العدل وتمسك بطاعة المخلوع وخرج العدل من مرسية إلى اشبيلية فدخلها مع أبي زيد بن يوجان وبلغ الخبر إلى مراکش فاختلف الموحدون على المخلوع وبادروا بعزل ابن جامع وتغييره إلى هسكورة وقام بأمر هنتاتة أبو زكريا يحيى بن أبي يحيى السيد ابن أبي حفص وبأمر تينملل يوسف بن على وبعث على اسطول البحر أبا اسحق بن جامع وأنفذه لمنع الجواز من الزقاق وكان أسر إلى ابن جامع حين خرج إلى هسكورة أن

[٢٥٢]

يحاول عليه من هنا لك فلم يتم أمره وقتل بمكان خفى في ربيع سنة احدى وعشرين وبعث الموحدون ببيعتهم إلى العدل والله أعلم * (الخبر عن دولة العدل بن المنصور) * لما بلغت بيعة الموحدين للعدل وكتاب ابن زكريا بن الشهيد بقصة المخلوع قارن ذلك تغييره للبياسى فانتقض عليه ودعا لنفسه وتلقب الطافر وشغل بشأنه وبعث أخاه ابا العلى لحصاره فامتنع عليه وبعث بعده ابنه أبا سعيد ابن الشيخ أبي حفص فامتنع عليه أيضا واختلت الاحوال بالاندلس على العدل وكثرت غارة النصارى على اشبيلية ومرسية وهو مقيم بها وانهزمت جيوش الموحدين على طليطلة وأغراه خاصته بابن يوجان فأخذ إلى سبتة وعظم أمر البياسى بالاندلس وظاهر النصارى على شأنه فأجاز العدل إلى العدو وولى اخاه أبا العلى على الاندلس ولما كان بقطر الحجاز دخل عليه عيو ابن أبي محمد بن الشيخ أبي حفص فقال له كيف حالك فأنشده حال متى علم ابن منصور بها * جاء الزمان إليه منها تأسا فاستحسن ذلك وولاه افريقية وكتب للسيد أبي زيد ابن عمه بالقدم ووصل إلى سلا فأقام بها وبعث عن شيوخ جشم وكان لابن يوجان عناية واختصاص بهلال بن حمدان ابن مقدم أمير الخلط فتشاقل ابن جرمون أمير سفيان عن الوصول وأقبل الخلط وسفیان وبادر العدل إلى مراکش فدخلها واستوزر أبا زيد بن أبي محمد بن الشيخ أبي حفص وتغير لابن يوجان

ففسد باطنه وتغلب على الدولة ابن الشهيد ويوسف بن علي شيخ هنتاة وتينمل ثم خالفت هسكورة والخلط وعاثوا في نواحي مراكش وخرج إليهم ابن يوجان فلم يغن شيئا فخرّبوا بلاد دكالة فأنفذ إليهم العادل عسكريا من الموحدين لنظر إبراهيم بن اسمعيل بن الشيخ أبي حفص وهو الذي كان نازع أولاد الشيخ أبي محمد بافريقية كما نذكره فانهزم وقتل وخرج ابن السيد ويوسف بن علي إلى قبائلها للحشد ومدافعة هسكورة فاتفقا على خلع العادل والبيعة ليحيى بن الناصر وقصدوا مراكش فاقترحوا عليه القصر ونهبوه وقتل العادل خنقا أيام الفطر من سنة أربع وعشرين والله تعالى أعلم * (الخبر عن دولة المأمون بن المنصور ومزاحمة يحيى بن الناصر له) * كان المأمون لما بلغه انتقاض الموحدين والعرب على أخيه وتلاشى أمره لنفسه باشيلية فيبيع وأجابه أكثر الاندلس وبيع السيد أبو زيد صاحب بلنسية وشرق الاندلس ثم كان ما قدمناه من انتقاض الموحدين على العادل وقتله بالقصر وبيعتهم

[٢٥٣]

ليحيى ابن أخيه الناصر ابن يوجان سرا وعمل على افساد الدولة فدخلهم هسكورة والعرب في الغارة على مراكش وهزم عساكر الموحدين ووطن الشهيد لتدبير ابن يوجان فقتله بداره وخرج يحيى بن الناصر إلى معتصمه كما ذكرناه فخلع الموحدون العادل وبعثوا بيعتهم إلى المأمون وتولى كبر ذلك الحسن أبو عبد الله العريفي والسيد أبو حفص بن أبي حفص فبلغ خبرهم إلى يحيى بن الناصر وابن الشهيد فنزلوا إلى مراكش سنة ست وعشرين وقتلوهم وبيع للمأمون صاحب فاس وصاحب تلمسان محمد بن أبي زيد بن يوجان وصاحب سبتة أبو موسى بن المنصور وصاحب بجاية ابن أخته ابن الاطامى وامتنع صاحب افريقية وكان ذلك سببا لاستبداد الامير أبي زكريا على ما يذكر ولم يبق على دعوة يحيى بن الناصر الا افريقية وسجلماسة وزحف الياسى إلى قرطبة فملكها ثم زحف إلى اشيلية فنزل بها المأمون والطاغية بعد أن نزل له عن مخاطة وغيرها من حصون المسلمين فهزمهم المأمون بنواحي اشيلية ثم ثار محمد بن يوسف بن هود وملك مرسية واستولى على الكثير من شرق الاندلس كما ذكرناه في أخباره وزحف إليه المأمون وحاصره وامتنع عليه فرجع إلى اشيلية ثم خرج سنة ست وتسعين إلى مراكش لما استدعاه أهل المغرب وبعثوا إليه ببيعتهم وبعث إليه هلال بن حميدان أمير الخلط يستدعيه واستمد الطاغية عسكريا من النصارى وأمره على شروط يقبلها منه المأمون وأجاز إلى العدو وبادر أهل اشيلية بالبيعة لابن هود واعترضه يحيى بن الناصر فهزمه المأمون واستلحم من كان معه من الموحدين والعرب ولحق يحيى بجبل هنتاة ثم دخل المأمون الحضرة وأحضر مشيخة الموحدين وعدد عليهم قولاتهم وتقضى على مائة من أعيانهم فقتلهم وأحدر كتابه إلى البلدان بمحو اسم المهدي من السكة والخطبة والنعي عليه في النداء للصلاة باللغة البربرية وزيادة النداء لطلوع الفجر وهو أصبح ولله الحمد وغير ذلك من السنن التي اختص بها المهدي المعصوم وأعاد في ذلك وأبدى وأذن للنصارى القادمين معه في بناء الكنيسة بمراكش على شرطهم فضربوا بها نواقيسهم واستولى ابن هود بعده على الاندلس وأخرج منها سائر الموحدين وقتلهم العامة في كل محل وقتل السيد أبو الربيع بن أخى المنصور وكان المأمون تركه واليا بقرطبة واستبد الامير أبو زكريا بن أبي محمد بن الشيخ أبي حفص بافريقية وخلع طاعته سنة سبع وعشرين فعقد للسيد أبي عمران ابن عمه محمد الخرصان على بجاية مع أبي عبد الله اللحياني أخى الامير أبي زكريا وزحف إليه يحيى بن الناصر فانهزم ثم ثانية كذلك واستلحم من كان معه ونصبت رؤسهم بأسوار الحضرة ولحق يحيى ابن الناصر ببلاد درعة وسجلماسة ثم انتقض على المأمون أخوه موسى ودعا لنفسه

بسببته وتسمى بالمؤيد فخرج المأمون من مراكش وبلغه في طريقه أن قبائل بنى فازان ومكلاثة حاصروا بمكناسة وعاثوا في نواحيها فساروا إليها وحسم عاملها واستمر إلى سببته فحاصرها ثلاثة أشهر واستمد أخوه أبو موسى صاحب الاندلس لابن هود فأمده بأساطيله وخالف يحيى بن الناصر المأمون إلى الحضرة فافتحمها مع عرب سفيان وشيخهم جرمون ابن عيسى ومعهم أبو سعيد بن وانودين شيخ هنتاة وعاثوا فيها فأقلع المأمون عن سببته يريد الحضرة وهلك في طريقه بوادي أم الربيع مفتح سنة ثلاثين وحين اقلعه دخل أخوه السيد أبو موسى في طاعة ابن هود وأمكنه من سببته فأداله منها والله تعالى أعلم * (الخبر عن دولة الرشيد بن المأمون) * لما هلك المأمون ببيع ابنه عبد الواحد ولقب الرشيد وكنموا موت أبيه وأغذوا السير إلى مراكش ولقيهم يحيى بن الناصر في طريقهم بعد أن استخلف بمراكش أبا سعيد ابن وانودين فهزموه وقتل أكثر من معه وصبح الرشيد مراكش فامتنعوا عليه باشياعهم ثم خرجوا إليه واستقاموا على بيعته وكان وصل في صحبته عمه السيد أبو محمد سعد فحل من الدولة بمكان وكان إليه التدبير والحل والعقد وبعد استقرار الرشيد بالحضرة وصل إليه عمر بن وقاريط كبير الهسكرة بمن كان عنده من أولاد المأمون السيد واخوته جاؤا من اشبيلية عند ثورة أهلها بهم واستقروا بسببته عند عمهم أبي موسى ومنها إلى الحضرة عند استيلاء ابن هود على سببته ومروا بهسكرة وكان ابن وقاريط حذرا من المأمون ومعتقده أن لا يعود إليه فتذم بصحبة هؤلاء الاولاد وقدم على الرشيد فتقبله وأعلق بوصله من السيد أبي محمد سعد وصحبه لمسعود بن حمدان كبير الخلط ولما هلك السيد أبو محمد لحق ابن وقاريط بقومه ومعتصمه وكشف وجه الخلاف وأخذ بدعوة يحيى بن الناصر واستنفر له قبائل الموحدين ونهض إليهم الرشيد سنة احدى وثلاثين واستخلف على الحضرة صهره أبا العلى ادريس وصعد إليهم الجبل فأوقع بيحيى وجموعه بمكانهم من هزوجة واستولى على معسكرهم ولحق يحيى ببلاد سجلماسة وانكف الرشيد راجعا إلى حضرته واستأمن له كثير من الموحدين الذين كانوا مع يحيى بن الناصر فأمنهم ولحقوا بحضرته وكان كبيرهم أبو عثمان سعيد بن زكريا الكدميوى وجاء اليافون على أثره ولسعيه بعد أن شرطوا عليه إعادة ما كان ازاله المأمون من رسوم المهدي فأعيدت وقدم فيهم أبو بكر بن يعزى التتمللى رسولا عن يوسف ابن على بن يوسف شيخ تينملل ومحمد بن يوزيكن الهنتاى رسولا عن أبي على بن عزوز ورجعا إلى مرسلهما بالقبول فقدم على الحضرة وقدم معهم موسى بن الناصر أخو يحيى وكبيره وجاء على أثرهم أبو محمد بن أبي زكريا وأنسوا لاعادة رسوم الدعوة المهديّة

وكان مسعود بن حمدان الخلطى قد اغراه عمر بن وقاريط بالخلاف لصحابة بينهما وكان مولى بياسة وكثرت جموعه يقال ان الخلط كانوا يومئذ يناهزون اثني عشر ألفا سوى الرجل والاتباع والحشود فمرض في الطاعة وتناقل عن الوفاة ولما علم بعقد الموحدين اجتمع اعتراضهم وقبلهم للفرقة والشتات في الدولة فأعمل الرشيد في استدعائه وصرف عساكره إلى باجة لنظر وزيره السيد أبي محمد حتى خلا لابن حمدان الجو وذهب عنه الريب واستقدمه فأسرع اللحاق بالحضرة وقدم معه معاوية عم عمر بن وقاريط فتقبض عليه وقتل لحينه واستدعى مسعود بن حمدان إلى المجلس الخلفى للحديث فتقبض عليه وعلى أصحابه وقتلوا ساعتئذ بعد جولة وهيعة وقضى الرشيد حاجة نفسه فيهم واستقدم وزيره وعساكره من باجة

فقدموا ولما بلغ خير مقتلهم إلى قومهم قدموا عليهم يحيى بن هلال بن حمدان وأجلبوا على سائر النواحي وأخذوا بدعوة يحيى واستقدموه من مكانه بقاصية الصحراء وداخلهم في ذلك عمرو بن وقاريط وزحفوا لحصار الحضرة وخرجت العساكر لقتالهم ومعهم عبد الصمد بن يلوان فدفع ابن وقاريط في جموعه من العساكر فانهمزوا وأحيط بجند النصارى فقتلوا وتفاقم الأمر بالحضرة وعدمت الاقوات واعتزم الرشيد على الخروج إلى جبال الموحدية فخرج إليها وسار منها إلى سجلماسة فملكها واشتد الحصار على مراكش وافتتحها يحيى بن الناصر وقومه من هسكورة والخلط وسار أمرهم فيها وتغيرت أحوال الخلافة وتغلب على السلطان السيد أبو ابراهيم بن أبي حفص الملقب بابي حافة وفي سنة ثلاث وثلاثين خرج الرشيد من سجلماسة بقصد مراكش وخاطب جرمون بن عيسى وقومه من سفيان فأجازوا وادى الربيع وبرز إليه يحيى في جموعه والتقى الفريقان فانهمزمت جموع يحيى واستحر القتل فيهم ودخل الرشيد إلى الحضرة ظافرا وأشار يحيى بن وقاريط على الخلط بالاستصراخ بآبن هود صاحب الاندلس والاخذ بدعوته فنكثوا ببيعة يحيى وبعثوا وفدهم إلى ابن هود صحية عمر بن وقاريط على الخلط بالاستصراخ فاستقر هنا لك وخرج الرشيد من مراكش وفر الخلط أمامه وسار إلى فاس وسرح وزيره السيد أبا محمد إلى غمارة وفازاز لجباية أموالها وكان يحيى بن الناصر لما نكث الخلط بيعته لحق بعرب المعقل فأجاروه ووعده النصر واشتطوا عليه المطالب وأسف بعضهم بالمنع فاغتاله في جهة تازى وسبق رأسه إلى الرشيد بفاس فبعثه إلى مراكش وأوغر إلى نائبه بها أبي على بن عبد العزيز لقتال العرب الذين كانوا في اعتقاله وهو حسن بن زيد شيخ العاصم وقائد اتباعا من شيخها أبي ابر فقتلهم وانكف الرشيد راجعا إلى حضرته سنة أربع وثلاثين وبلغه استيلاء صاحب درعه أبي محمد بن وانود بن على سجلماسة وذلك أن

[٢٥٦]

الرشيد لما فصل من سجلماسة استخلف عليها يوسف بن على التتمللي فاستعمل ابن خالته من بنى مردنيش وهو يحيى بن أرقم بن محمد بن مردنيش فثار عليه ثائر من صنهاجة وقتله في حباله وقدم ابنه أرقم يطلب الثار وبلغ منه ما أراد ثم حدثه نفسه بالانتقاض خوفا من عزل الرشيد اياه فانتقض ونهض إليه الرشيد سنة ثنتين وثلاثين فلم يزل أبو محمد بن وانودين يعمل الحيلة في استخلاصها حتى تمكن منها وعفا عن أرقم وكان ابن وقاريط لما فصل إلى ابن هود سنة أربع وثلاثين ركب البحر في اسطول ابن هود وقصد اسلا وبها السيد أبو العلي صهر الرشيد فكاد ان يغلب عليها وفي سنة خمس وثلاثين بايع أهل اشبيلية للرشيد ونقضوا طاعة ابن هود وتولى كبر ذلك أبو عمر بن الجد واستخف بنو حجاج إلى سببة ووصل وفدهم إلى الحضرة ومروا في طريقهم بسببة فاعتدى أهلها بهم في بيعة الرشيد وخلعوا أميرهم اليانشى الثائر بها على ابن هود وقدموا على الحضرة وولى عليهم الرشيد أبا على بن خلاص منهم ولايام من مقدمهم فأمكنهم من ابن وقاريط وبعث إلى الرشيد في وفد من رسله فاعتقل بأزمور وقتل وصلب برباط هسكورة بعد ان طيف به على جمل وانصرف وفد اشبيلية وسببة واستقدم الرشيد رؤساء الخلط فقبض عليهم وبعث عساكره فاستباحوا حللهم واحياءهم ثم أمر بقتل مشيختهم وقتل معهم ابن وقاريط وقطع دابرهم وفي سنة ست وثلاثين وصلت بيعة محمد بن يوسف بن نصر بن الاحمر الثائر بالاندلس على ابن هود وفي سنة سبع وثلاثين اشتدت الشوكة بالمغرب وانتشر بنو مرين وزحف إليهم فهزموه ثم زحف ثانية وثالثة فهزموه وأقام في محاربتهم سنتين ورجع إلى الحضرة واشتد عدوان بنى مرين بالمغرب وألحوا على مكناسة حتى أعطوا الاتاوة لبنى حمامة منهم فاستنفوا بنى عسكر بذلك واتصل

عليهم في نواحيها وفي سنة سبع وثلاثين قتل الرشيد كاتبه ابن الموميانى لمداخلة له مع بعض السادة وهو عمر بن عبد العزيز أخى المنصور وقف على كتابه إليه بخطه وغلط الرسول بها فدفعها بدار الخليفة وفي سنة أربعين بعدها كانت وفاة الرشيد غريقا في بعض حواري القصر ويقال انه أخرج من الماء وحم لوقته وكانه فيها مهلكه والله تعالى أعلم * (الخير عن دولة السعيد بن المأمون) * لما هلك الرشيد بويج أخوه أبو الحسن السعيد بتعيين أبى محمد بن وانودين وتلقب المقتدر بالله واستوزر السيد أبا اسحق بن السيد أبى ابراهيم ويحيى بن عطوش وتقبض على جملة من مشيخة الموحدين واستصفى أموالهم واستخلف لنفسه رؤساء العرب من جشم واستظهر بجمعهم على أمره وكان شيخ سفیان كانون بن جرمون كبير محكسة ولاول بيعته انتقض عليه أبو على بن الخلاص البلسى صاحب سبنة وكذلك أهل

[٢٥٧]

اشبيلية وبايعوا جميعا للامير ابى زكريا صاحب افريقية ثم انتقض عليه بسجلماسة عبد الله بن زكريا الهزجى صاحب تلمسان فنهض الامير أبو زكريا صاحب افريقية بسبب ذلك إلى تلمسان واستولى عليها ثم عقد عليها بغمراسن حسبا يذكر في أخباره وخرج السعيد من مراكش لتمهيد بلاد المغرب سنة ثنتين وأربعين وتغير لسعيد بن زكريا الكدميوى فتقبض عليه من معسكره بنانسفت وفر أخوه أبو زيد ومعه أبو سعيد العود الرطب ولحقوا بسجلماسة فاستصفى أموالهم بمراكش وارتحل بقصد سجلماسة وأخذ واليها عبد الله الهزجى في اسباب الامتناع فغدر به أبو زيد بن زكريا الكدميوى وداخل أهل سجلماسة في الثورة عليه ومك الملك البلد واستدعى السيد لها فوصل وقتل الهزجى وفر أبو سعيد العود الرطب إلى تونس ثم رجع السعيد إلى المغرب وقتل سعيد بن زكريا ونزل العفرقة من احواز فاس وعقد المهادنة مع بنى مرين وقفل إلى مراكش فتقبض على أبى محمد بن وانودين واعتقله بازمور واعتقل معه يحيى بن مزاحم ويحيى بن عطوش لنظر ابن ماكس فأعمل الحيلة في الفرار من معتقله وخلص ليلا إلى كانون بن جرمون فأركبه وبعث معه من عرب سفیان من أوصله إلى قومه هنتاتة وراسله السعيد على أثرها وسكنه واعتذر له وأسعفه بسكنى تاقوت من حصون عمله بأهله وولده ثم انتقض على السعيد كانون بن جرمون وسفیان وخالفهم إليه بنو جابر والخلط وخرج من مراكش واستوزر السيد أبا اسحق بن السيد أبى ابراهيم اسحق أخى المنصور واستخلف أخاه أبا زيد على مراكش وأخاهما أبا حفص عمر على سلا وفصل من مراكش سنة وجمع له أبو يحيى بن عبد الحق جموع بنى راشد وبنى ورار سفیان حتى إذا تراكى الفريقان للقاء خالف كانون بن جرمون الموحدين إلى ازمور واستولى عليها ورجع السعيد ادراجه في اتباعه ففر كانون واعترضه السعيد فأوقع به واستلحم كثيرا من سفیان قومه واستولى على ماله من مال وماشية ولحق كانون في فل بنى مرين ورجع السعيد إلى الحضرة وفي سنة ثلاث وأربعين ثارت العامة بمكناسة على واليها من قبل السعيد فقتلوه وحذر مشيختها من سطوته فحولوا الدولة إلى الامير أبى زكريا بن أبى حفص صاحب افريقية وبعثوا إليه ببيعتهم وكان من اثنا أبى مطرف بن عميرة وذلك بمداخلة أبى يحيى بن عبد الحق أمير بنى مرين ووفاه له على ذلك وشارطوا أبى يحيى بن عبد الحق بمال دفعوه إليه على الحماية ثم راجعوا أمره وأوفدوا صلحاءهم لبيعتهم فرضى عنهم السعيد ورضوا عنه وفي هذه السنة بعث أهل اشبيلية وأهل سبنة بطاعتهم للامير أبى زكريا صاحب افريقية وبعث ابن خلاص بهديته مع ابنه في اسطول أنشأه لذلك فغرق عند اقلاعه من المرسى وفي سنة ست

وأربعين كان استيلاء الطاغية على اشبيلية لسبع وعشرين من رمضان ولما بلغ السيد بيعة أهل اشبيلية وسبته للامير أبى زكريا إلى ما كان من تغليه على تلمسان وأمر يغمراسن بدعوته ثم ما كان من بيعة أهل مكناسة وأهل سجلماسة أعمل نظره في الحركة إلى تلمسان ثم إلى افريقية وخرج إلى مراكش في ذى الحجة من سنة خمس وأربعين ووافاه كانون بن جرمون فعاوده الطاعة واستحشد سفبان وجاء في جملة السعيد مع سائر القبائل من جشم ولما احتل السعيد بتازى وافاه وفد بنى مريين عن أميرهم أبى يحيى بن عبد الحق فاعطوه الطاعة وبعثوا معه عسكريا من قومهم مددا له ثم ثار السعيد إلى تلمسان فكان مهلكة بتامزردكت على يد بنى عبد الواد في صفر سنة ست وأربعين حسبما يشرح في أخبارهم ويقال ان ذلك كان بمداخلة من الخلط فاستولوا على المحلة وقتلوا عدوهم كانون وانفض العسكر إلى المغرب وقد اجتمعوا إلى عبد الله بن السعيد واعترضهم بنو مريين بجهات تازى فقتلوا عبد الله بن السعيد ولحق الفل بمراكش فبايعوا المرتضى كما يذكر ان شاء الله تعالى * (الخبر عن دولة المرتضى ابن أخى المنصور) * لما هلك لحق فل العسكر بعد مهلك السعيد بمراكش اجتمع الموحدون على بيعة السيد أبى حفص عمر بن السيد أبى ابراهيم اسحق وأخى المنصور واستقدموه لها من سلا فلقبه وافدهم بتامسنا من طريقه ومعه أشياخ العرب فبايعوه وتلقب المرتضى وعقد ليعقوب بن كانون على بنى جابر ولعمه يعقوب بن جرمون على عرب سفبان بعد ان كان قومه قدموه عليهم ودخل الحضرة فاستوزر أبى محمد بن يونس وتقبض على حاشية السعيد ثم وصل أخوه السيد أبو اسحق من الفل أخذوا على طريق سجلماسة فاستوزره واستند عليه واستولى أبو يحيى بن عبد الحق وبنو مريين أن هلك السعيد على رباط تازى من يد السيد أبى على أخى أبى دبوس وأخرجه فلحق بمراكش ثم استولوا بعدها على مدينة فاس سنة سبع وأربعين كما يذكر في أخبارهم بعد وفى هذه السنة ثار بسبته أبو القاسم العز في وأخرج ابن الشهيد الوالى على سبته من قرابة الامير أبى زكريا صاحب افريقية حول الدعوة للرتضى حسبما يذكر في أخبار الدولة الحفصية وأخبار بنى العزفى وفى سنة تسع وأربعين وفد على المرتضى موسى بن زيان الونكاسى وأخوه على من قبائل بنى مريين أغروه بقتال بنى عبد الحق فخرج إليهم ولما انتهى إلى أمان ايملولى أشاع يعقوب بن مون قضية الصلح بينهما فأصبحوا راحلين وقد استولى الجزع على قلوبهم فانفضوا وقعت الهزيمة من غير قتال ووصل المرتضى إلى الحضرة فعزل أبى محمد بن يونس عن وزارة لشيشى بلغه عنه وأسكنه بحملته مع حاشيته وفر من حملته على بن بدر إلى السوس سنة

احدى وخمسين وجاهر بالعناد وسرح إليه السلطان عسكريا من الجند فرجعوا عنه ولم يظفروا به وتفاقم أمره سنة ثنتين وخمسين وجمع اعراب الشبانان وبنى حسان وحل أموال ونازل تارودانت فحاصر من كان بها وسرح المرتضى إليه عسكريا من الموحدين فأفرج عنها ثم رجع بعد قفولهم إلى حاله وعثر المرتضى على خطابه لقريبه ابن يونس إليه بخطه فاعتقل هو وأولاده ثم قتل وفى هذه السنة استدعى مشيخة الخلط إلى الحضرة وقتلوا لما كان منهم في مهلك السعيد وفيها خرج أبو الحسن بن يعلو في عسكر من الموحدين إلى تامسنا ليكشف أحوال العرب ومعه يعقوب بن جرمون وعهد إليه المرتضى بالقبض على يعقوب بن محمد بن قيطون شيخ

بنى جابر فتقبض عليه وعلى وزيره ابن مسلم وطير بهما إلى الحضرة معتقلين وفي سنة ثلاث وخمسين خرج المرتضى من مراكش لاسترجاع فاس ونواحيها من يد بني مرين المتغلبين عليها فوصل إلى بنى بهلول وزحف إليه بنو مرين وأميرهم أبو يحيى فكانت الهزيمة على الموحديين بذلك الموضع ورجع المرتضى مفلولا إلى مراكش ورعى بنى مرين من بعد ذلك سائر أيامه واستبد العزفى بسبته وابن الأمير بطنجة كما نذكره في أخبارهم وفي سنة خمس وخمسين بعث المرتضى إلى السوس عسكريا من الموحديين لنظر أبي محمد بن فلقهم على ابن بدر وهزمهم واستبد بأمره في السوس وفي هذه السنة استولى أبو يحيى بن عبد الحق على سجلماسة وتقبض على واليها عبد الحق بن أصكو بمدخلة من خديم له يعرف بمحمد القطراني بنواحي سلا فصرف عبد الحق ابنه محمدا هذا في وقر به من بين أهل خدمته وحدثه نفسه بالثورة استمال عرب المعقل أولا بالمشاركة في حاجاتهم عند مخدومه والاحسان إليهم حتى اشتملوا عليه ثم داخل أبا يحيى بن عبد الحق فقادته وسرحه إلى مراكش وكان القطراني شرط على أبي يحيى أن يكون والي سجلماسة فأمضى له شرطه وأنزل معه بها من رجالات بنى مرين حتى إذا هلك أبو يحيى بن عبد الحق أخرجهم محمد القطراني واستبد بأمر سجلماسة وراجع دعوة المرتضى واعتذر إليه واشترط عليه الاستبداد فأمضى له شرطه الا في أحكام الشريعة وبعث أبا عمر بن حجاج قاضيا من الحضرة وبعض السادات للنظر في القضية وقائدا من النصارى بعسكر للحماية فأعمل ابن الحجاج الحيلة في قتل القطراني وتولاه قائد النصارى واستبد السيد بأمر سجلماسة بدعوة المرتضى واستفحل أمر بنى مرين اثناء ذلك ونزل يعقوب بن عبد الحق بسائط تامسنا فسرّح إليهم المرتضى عساكر الموحديين لنظر يحيى بن وانودين فاجفلوا إلى وادي أم ربيع فاتبعهم الموحدون فرجعوا إليهم وغدرهم بنو جابر فانهمز الموحدون بأمر الرجلين ولحق شيخ الخلط عيسى بن على ببني مرين وارتحلوا إلى

[٢٦٠]

أوطانهم وكان المرتضى قدم يعقوب بن جرمون على قبائل سفيان وكان محمد ابن أخيه كانون يناهضة في رئاسة قومه وغص به فقتله وثار به أخواه مسعود وعلى بقدف فقتلاه وولى المرتضى مكانه ابنه عبد الرحمن فاستوزر يوسف بن وازرك ويعقوب بن علوان وشغل بلذاته وتصدى لقطع السابلة ثم نكث الطاعة ولحق ببني مرين فولى مكانه عمه عبد الله بن جرمون بأبي زمام وعقد له المرتضى ثم ادال منه بأخيه مسعود لعجزه ووفد على المرتضى عواج بن هلال من امراء الخلط نازعا إلى طاعته ومفارقا لبني مرين فأنزل معه أصحابه بمراكش وجاء على أثره عبد الرحمن بن يعقوب بن جرمون فتقبض على عواج ودفعه إلى على بن أبي على فقتله وكان تقبض معه على عبد الرحمن بن يعقوب ووزيره فقتلوا جميعا واستبد برياسة سفيان مسعود بن كانون وبرياسة بنى جابر اسمعيل بن يعقوب بن قيطون وفي سنة ستين عند رجوع يحيى بن وانودين من واقعة أم الرجلين خرج عسكر من الموحديين إلى السوس لنظر محمد بن على الزلماط ولقيه على بن بدر فهزم جموعه وقتله وعقد المرتضى من بعده على حرب على بن بدر للوزير أبي زيد بن زكنت وسرح معه عسكريا من الجند وكان فيهم دنلب من زعماء النصارانية فدارت الحرب بين الفريقين ولم يكن للموحديين فيها ظهور على كثرتهم وقوة جلدتهم وحسن بلائهم فسلبهم عن ذلك تكاسل دنلب وخروجه عن طاعة الوزير وكتب بذلك للمرتضى فاستقدمه وأمر أبو زيد بن يحيى الكدميوى باعتراضه في طريقه وقتله وفي سنة ثنتين وستين أقبل يعقوب بن عبد الحق في جموع بنى مرين فنازلوا مراكش وانصلت الحرب بينهم وبين الموحديين بظاھرھا أياما هلك فيها عبد الله انعجون

ابن يعقوب فبعث المرتضى إلى أبيه بالتعزية ولطفه وضرب له اتاوة يبعث بها إليه في كل عام فرضى ارتحل عنهم والله أعلم { الخبر عن انتقاض أبي دبوس وتغلبه على مراكش ومهلك المرتضى وما كان في دولته من الاحداث { لما ارتحل بنو مريين عن مراكش بعد مهلك انعجون فر من الحضرة قائد حروبه السيد أبو العلى الملقب بأبي دبوس ابن السيد أبي عبد الله محمد بن السيد أبي حفص بن عبد المؤمن لسعاية تمكنت فيه عند المرتضى وصحبه ابن عمه السيد أبو موسى عمران بن عبد الله بن الخليفة فلحقا بمسعود بن كلداسن كبير هسكورة فأجاره ثم لحق بيعقوب بن عبد الحق بغاس صريخا به على شأنه واشترط له المقاسمة في العمالة والذخيرة فأمدته بالمال يقال خمسة آلاف دينار عشرية وأوعز إلى ابن أبي على الخلطى بمظاهرتة وإعطائه آلات ورجع إلى على بن أبي على الخلطى فأمدته بقومه ثم سار إلى هسكورة ونزل على

[٢٦٦]

صاحبه مسعود بن كلداسن فأطاعه قبائل هسكورة وهزوجة وبعثوا إليه عزوز بن بيورك كبير صنهجة في ناحية ازمور وكان منحرفا عن طاعة المرتضى إلى حملة يعقوب ابن عبد الحق ووفد عليه جماعه من السادة والموحدين والجنود والنصارى وارتاب المرتضى بمسعود بن كانون شيخ سفيان وباسماعيل بن قيطون شيخ بني جابر فتقبض عليهما واعتقلهما وسار الكثير من قومهما إلى أبي دبوس وقتل اسمعيل بن قيطون معتقله فانتقض أخوه ثائرا ولحق بهم وحذر علوش بن كانون مثلها على أخيه فاتبعهم وزحف أبو العلى إلى مراكش ولما بلغ اغمات وجد بها الوزير أبا يزيد بن بكيت في عساكر حمايتها فناجزه الحرب فانهزم ابن بكيت وقتل عامة أصحابه وسار أبو دبوس إلى مراكش وأغار علوش بن كانون على باب الشريعة والناس في صلاة الجمعة وركز رمحه بمصراعه ودخلت سنة خمس وستين والمرتضى بمراكش غافر عن شأن أبي دبوس والاسوار خالية من الحراس والحامية وقصد أبو دبوس باب اغمات فتسور البلد من هنا لك ودخلها على حين غفلة وقصد القصبه فدخلها من باب الطبول وفر المرتضى ومعه الوزير أبو زيد بن يعلو الكومى وأبو موسى بن عزوز الهنتاتى فلحقوا بهنتاتة وألغوهم فأذعنوا بطاعتهم فرحل إلى كدمبوة ومر في طريقه بعلى بن زكدان الونكاسى كان نزع إليه عن قومه ولم يفد عليه بعد فنزل به المرتضى ورحل معه إلى كدمبوة وكان فيها وزيره أبو زيد عبد الرحمن ابن عبد الكريم فأراد النزول عليه فمنعه ابن سعد الله وسار إلى شفشاوة ووجد بها عددا من الظهر فمنحها على بن زكدان وكتب إلى ابن وانودين بمعسكره من خاصته والى ابن عطوش بمعسكره من ركراكة باللحاق به فأقلعا إلى الحضرة وخاطب أبو دبوس على بن زكدان يرغبه في القدوم عليه فارتاب المرتضى لذلك ولحق بازمور فتقبض عليه وإليها ابن عطوش وكذا صهره واعتقله وطير بالخبر إلى أبي دبوس فأمر وزيره السيد أبا موسى ان يكاتبه كيف اماكن الذخيرة فأجابه بانكار ان يكون ذخر شيأ عندهم والحلف على ذلك وسألهم بالرحم فعطف أبو دبوس عليه وفتح إلى الاهل وبعث وزيره السيد أبا موسى ومسعود بن كانون في ازعاجه إليه ثم بدا له في استحيائه بإشارة بعضى السادة فكتب خطه إلى السيد أبي موسى بقتله فقتله واستقل أبو دبوس بالامر وتلقب الواثق بالله والمعتمد على الله واستوزر السيد أبا موسى وأخاه السيد أبا زيد وبذل العطاء ونظر في الولايات ورفع المكوس عن الرعية وحدث بينه وبين مسعود بن كلداسن وحشة فارتحل إليه لازالتها وقدم عبد العزيز بن عطوش سفيرا إليه في ذلك وبلغه أن يعقوب ابن عبد الحق نزل تامسنا فأوفد عليه حميد بن مخلوف الهسكورى بهدية فقبلها وأكد بينهما العهد وانكف راجعا إلى وطنه ورجع حميد إلى الواثق ووافق وصول عبد العزيز

ابن عطوش بطاعة مسعود بن كلداسن فرجع أبو دبوس إلى مراكش بعد ان عقد لابي موسى بن عزوز على بلاد حاجة وبلغه في طريقه عن عبد العزيز بن السعيد انه حدث نفسه بالملك وإن ابن مكيث وابن كلداسن داخلوه بالولاية فصرخوا منهم الشكوة وأصاروهم في الحملة والله وارث الارض ومن عليها * (وأما هسكورة) * وهم أكثر قبائل المصامدة وفيهم بطون كثيرة أوسعها بطن هسكورة وأما سواهم من بطون كنفيسة فأنفقتهم الدولة بما تولوا من مشايعتها وإبرام عقدها فهلك رجالهم في انفاقها سبل الامم قبلهم في دولهم وأما هسكورة فكان لهم بين الموحدين مكان واعتزاز بكثرتهم وغلبهم الا أنهم كانوا أهل بدو ولم يخالطوهم في ترفهم ولا انغمسوا في نعيمهم وكان جبلهم الذي أوطنوه من حاله دون الفنة منها والذروة واعتصموا منه بالآفاق الغدد واليفاع الاشم والطود الشاهق قد لمس الافلاك بيده ونظم النجوم في مفرقه وتلفع بالسحاب في مروطه وأوى الرياح العواصف الدجوة وألقى إلى خبر السماء بأذنه وأطل على البحر الاخضر بشماريخه واستدير القفر من بلاد السوس بظهره وأقام سائر جبال درن في حجره ولما انقرض أمر الموحدين وتغلب بنو مرين على المصامدة أجمع وساموهم خطة الخسف في وضع الضرائب والمغارم عليهم فاستكانوا لعزهم وأعطوهم يد الطواعية واعتصم هسكورة هؤلاء بمعقلهم واعتزوا فيه بمنعتهم فلم يغمسوا في خدمتهم يدا ولا أعطوهم مقادا ولا رفعوا بدعوتهم راية انما هي منابذة لامرهم وامتناع عليهم سائر الايام فإذا زحفت الحشود وتمرست بهم العساكر دافعوهم بطاعة معروفة واناوة غير ملتزمة ورئيسهم مع ذلك يستخلص جبايتهم لنفسه ويدفعهم في المضايق لحمايته وربما تخطاهم إلى بعض قبائل الجبل ومن قاربه من أهل بسائط السوس يعسكر بذلك للرجل من قومه هكسورة وكنفيسة وبالحشد من العرب المواطنين بأرض السوس وسفيان وهم بطن الحارث ومن المعقل وهم بطن الثبانات وكان رئيسهم في ذكرنا بعد انقراض عبد المؤمن بن يوسف وحرروا لسان الاعجمين هو عبد الواحد وكان له في الاستبداد والصرامة ذكر وهلك سنة ثمانين وستمائة وكان منتحلا للعلم واعية له جماعة لكتبه ودواوينه حافظا لفروع الفقه يقال ان المدونة كانت من محفوظاته محبا في الفلسفة مطالعا لكتبها حريصا على نتائجها من علم الكيمياء والسيمياء والسحر والشعوذة مطالعا على الشرائع القديمة والكتب المنزلة يكتب التورية ويجالس احوار اليهود حتى لقد اتهم في عقده ورمى بالرغبة عن دينه ثم ولى من بعده ابنه عبد الله وكان مقتفيا سنن أبيه في ذلك وخصوصا في انتحال السحر

والاستشراف إلى صنعة الكيمياء ولما فرغ السلطان أبو الحسن من شأن أخيه عمر وسكن فتنة المغرب ودوخ أقطاره وحل معتصمه بالعساكر وأوطأ ساحاته الكتائب رجاله دون من يمه من اعراب السوس من ورائه بما كان من تغلبه على بلادهم واقتضائه بطاعتهم وانزال عماله بالعساكر بينهم فلاذ منه عبد الله السكسيوى بطاعة معروفة رهن فيها ابنه واشترط للسلطان الهدية والضيافة فتقبل منه ومنحه جانب الرضى ولما كانت نكية السلطان بالقيروان واضطرب المغرب فتنة وخلا جو البلاد المراكشية من المشايخ اجتمع رأى الملا من المصامدة على النزول إلى مراكش وأحكموا عقد الاتفاق بينهم واجمعوا تخريبها بما كانت دارا للامرة ولمقامة الكتائب المجرمة وزعم عبد الله السكسيوى هذا بانفاذ ذلك فيها وضمن هو تخريب المساجد لتجافهم عنها فكانت مذكورة على الايام ثم انحل عزمهم

وافترقت جماعتهم وكلمتهم بما كانت من استقامة الدولة بفاس واجتماع بنى مرين على السلطان أبى عنان كما يذكر بعد فانحجر كل منهم بوجاره ولما فرغ أبو عنان من شأن أبيه واستولى على المغرب الاوسط وغلب عليه بنو عبد الواد ولحق أخوه أبو الفضل بن مطرح اغترابه في الاندلس بالطاعة يروم الاجازة إلى المغرب لطلب حقه فأركبه السفير إلى مراحل السوس فنزل به ولحق بعبدالله السكسيوى فأواه وظاهره على أمره فجرد أبو عنان العزائم إليهم وعقد لوزيره فارس ابن ميمون بن وادرار على حربهم واستخرج جيوش المغرب وأناخ بساحته سنة أربع وخمسين واختط بسفح الجبل مدينة لحصاره سماها القاهرة وأخذت بمخنقه وزاحمت يمناكبها اركان معقله حتى لاذت للسلم واشترط ان يبنذ العهد إلى أبى الفضل المصرى عنده يذهب حيث يشاء فتقبل منه وعقد له سلما علي عاداته وأفرج عنه وخرج على عبد الله السكسيوى لايام السلطان أبى سالم ابنه محمد المعروف في لغتهم ايزم ومعناه الاسد فغلبه على أمره ولحق عبد الله يعامر بن محمد الهنتاتى كبير المصامدة لعهدده وعامل السلطان عليهم فاستجاش به ووعده عامر النصره وأمهله عاما ونصفه حتى وفد على السلطان واستوهب في ذلك ثم أجمع على نصره من عدوه فجمع له الناس وخاطب أهل ولايته أن يكون معه يدا وزحف عبد الله حتى نزل بالقاهرة وأخذ بمخنق أبيه وأشباعه ثم داخله بعض بطانته ودله على بعض العورات اقتحم منها الجبل وثاروا بابنه يزم فصاح به عبد الله وقوم وفر محمد أمامهم فأدرك بتلاسف من نواحي الجبل وقتل واسترجع عبد الله ملكه واستقلت قدمه إلى أن مكر به ابن عمه يحيى بن سليمان حين بلغ استبداد الوزير عمر بن عبد الله على سلطان المغرب واستبداد عامر بن محمد بولاية مراكش وثار منه يحيى هذا بأبيه سليمان وهو عم عبد الله كان قتله أيام امارته الاولى

[٢٦٤]

وأقام مملكا على سكسيوة إلى سنى خمس وسبعين فثار عليه أبو بكر بن عمر بن خرو فقتله بأخيه عبد الله واستقل بامر سكسيوة ومن إليهم ثم خرج عليهم لاعوام من استقلاله ابن عم له من أهل بيته لم ينقل لى من تعريفه الا أن اسمه عبد الرحمن لأن ثورته كانت بعد رحلتي الثانية من المغرب سنة ست وسبعين فأخبرني الثقة بأمره وانه ظفر بأبى بكر بن عمر وقتله واستبد بامر الجبل إلى هذا العهد فيما زعم وهو سنة تسع وسبعين ثم بلغني سنة ثمان وثمانين أن عبد الرحمن هذا ويعرف بأبى زيد بن مخلوف بن عمر أجليد قتله يحيى بن عبد الله بن عمر واستبد بامر هذا الجبل وهو الآن مالكة وهو أخو ايزم بن عبد الله والله وارث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين (وأما بقية قبائل المصامدة) من سوى هؤلاء السبع مثل هيلانة وحاجة ودكالة وغيرهم ممن أوطن هضاب الجبل أو ساحته فهم أمم لا تنحصر ودكالة منهم في ساحة الجبل من جانب الجوف مما يلى مراكش إلى البحر من جانب الغرب وهناك رباط أسفى المعروف ببنى ماكر من بطونهم وبين الناس اختلاف في انتسابهم في المصامدة أو صنهجة وتجاوزهم من جانب الغرب في بسيت ينعطف ما بين ساحل البحر وجبل درن في بسيت هناك يفضى إلى السوس يعمره من حاجة هؤلاء خلق أكثرهم في حمراء الشعراء من الشجر المعروف بارجان يتحصنون بملتها وأدواحها ويعتصرون الزيف لادامهم من ثمارها وهو زيت شريف طيب اللون والرائحة والطعم يبعث منه العمال إلى دار الملك في هداياهم فيطرفون به وبآخر مواطنهم مما يلى أرض السوس وفى القبلة عن جبل درن بلدتا دنست وبها معظم هذه الشعرا ينزلها رؤساؤهم ورياستهم في بطن منهم يعرفون بمغراوة وكان شيخهم لعهد السلطان أبى عنان ابراهيم بن حسين بن حماد بن حسين وبعده ابنه محمد بن ابراهيم بن حسين وبعده ابن عمهم خالد بن عيسى بن حماد واستمرت

رياسته عليهم إلى اعوام ست وسبعين وسبعمئة أيام استيلاء السلطان عبد الرحمن بن بطوسن على مراکش فقتله شيخ بنى مريين على بن عمر الورتاجي من بنى ويغلان منهم وما أدري لمن صارت رياستهم من بعده وهم ودكالة جميعا أهل مغرم واسع وجباية موفورة فيما علمناه والله الخلق والامر وهو خير الوارثين داخلة في ذلك وسائل عن ذلك السيد أبا زيد ابن السيد أبي عمران خليفته وأخبره بما سمع وأمره بالقبض عليه وقتله فانفذ ذلك ثم ارتحل إلى السوس لتمهيدده وحسم هلال بن بدر فيه وقدم يحيى بن وانودين لاستنفار قبائل السوس من كزولة ولمطة وكنفيسة وصناكة وغيرهم وسار يتعدى المنازل

[٢٦٥]

ويستنفر القبائل وهو بتادورنت فوجدها فقرا خلاء الا قليلا من الدور بخارجها ونزل على حميد بن صهر على بن بدر وقريبه بحسن تيسخت على وادي السوس كان لصنهاجة فغلبهم عليه ابن بدر ومملكه فنازله أبو دبوس وحاصره أياما وهزم فيها جموعه وداخل محمد بن علي بن زكدان في افراج أبي دبوس على سبعين ألف دينار يؤديها إليه فأعجله الفتح من ذلك ونجا بزمائه إلى بيته وطولب بالمال وبقي معتقلا عند ابن زكدان وامتنع على ابن بدر بحصنه ثم أطاع ووصلت رسله بطاعته فانصرف الواثق إلى حضرته ودخلها سنة خمس وستين وبلغه الخبر بانتفاض يعقوب بن عبد الحق وأنهى إليه فيعث بمرتبته إلى تلمسان صحبة أبي الحسن بن قطرال وابن أبي عثمان رسول يغمراسن خرج إليهم من مراکش ابن أبي مديون الونكاسي دليلا وسلك بهم على الثغر إلى سجلماسة وبها يحيى ابن يغمراسن فيعثهم مع بعض المعقل إلى أبيه وألفوه بجهة مليانة فأقام ابن قطرال بتلمسان ينتظره وكان يعقوب بن عبد الحق لما بلغه ذلك نهض إلى مراکش بجيوش بنى مريين ونزل بضواحي مراکش وأطاعه أهل النواحي ونهض إليه أبو دبوس بعساكر الموحديين فاستجره يعقوب إلى وادي أعفر ثم ناجزه الحرب فأختل مصافه وفر عسكره وإنهزم يريد مراکش والقوم في اتباعه فأدرك وقتل وبادر يعقوب بن عبد الحق فدخل مراکش في المحرم فاتح سنة ثمان وستين وفر بقية المشيخة من الموحديين إلى معاقلم بعد ان كانوا يابعوا عبد الحق احد بنى أبي دبوس وسموه المعتصم مدة من خمسة أيام وخرج في جملتهم وانقرض أمر بنى عبد المؤمن والبقاء لله وحده اه

[٢٦٦]

{ الخير عن بقايا قبائل الموحديين من المصامدة بجبال درن بعد انقراض دولتهم بمراكش وتصاريف أحوالهم } هذا العهد لما دعا المهدي إلى أمره في قومه من المصامدة بجبال درن وكان أصل دعوته نفى التجسيم الذي آل إليه مذهب أهل المغرب باعتمادهم وترك التأويل في المنتشابه من الشريعة وصرح بتكفير من أبي ذلك أخذ بمذهب التكفير بالمأل فسمى لذلك دعوته بدعوة التوحيد وأتباعه بالموحديين نعيًا على الملتثمين فان مذاهبهم إلى اعتقاد الجسمية وخص بالمزية من دخل في دعوته قبل تمكنها وجعل علامة تمكنها فتح مراکش فكان انما اختص بهذا اللقب أهل السابقة قبل ذلك الفتح وكان أهل تلك السابقة قبل فتح مراکش ثمانى قبائل سبعة من المصامدة هرغة وهم قبيلة الامام المهدي وهنتاتة

وتينملل وهم الذين بايعوه مع هرغة على الحراية والحماية وكنفيسة وهزوجة وكدميوية وريكة ونامنة قبائل الموحدين كوميية قبيلة عبد المؤمن كبير صحابته دخلوا إلى دعوته قبل الفتح فكانت لهم المزية عند عبد المؤمن بسابقتهم فاختص هؤلاء القبائل بمزية هذه السابقة واسمها وأقاموا بالامر وحملوا سريره فاتفقوا في مذاهبه وممالكه في سائر الاقطار على نسبة قويم من أصحاب الامر وبعدهم وبقي من بقي منهم بمجالهم ومعاقلمهم تقية حتوف وجرت عليهم قبل زناتة من بعد الملك اذبال الغلب والقهر حتى أبقوهم بالاتاوات وانتظموا في عدد الغارمين من الرعايا وصاروا يولون عليهم من زناتة تارة ومن رجالاتهم أخرى وفي ذلك عبرة وذكرى لاولى الالباب والملك لله يورثه من يشاء * (هرغة) * فأما هرغة وهم قبيل الامام المهدي قد دثروا وتلاشوا وانتفقوا في الفاصية من كل وجه لما كان أمرهم إلى غيرهم من رجالات المصامدة لا يملكون عليهم منه شيئاً * (تينملل) * وكذا تينملل اخوتهم في التعصب على دعوة المهدي والاشتمال عليه والقيام بأمره حتى تحيز إليهم وبنى داره ومسجده بينهم فكان يعطيهم من الفئ بقدر عظمهم من الابتلاء وأبعدوا في ممالك الدولة وعمالاتها فانقرض رجالاتهم وملك غيرهم من المصامدة أمرهم عليهم وقبر الامام بينهم بهذا العهد على حاله من التجلة والتعظيم وقراءة القرآن عليه احزابا بالغدو والعشي وتعاهدة بالزيارة وقام بالحجاب دون الزائرين من الغبراء تسهيل الاذن واستشعار الابهة وتقديم الصدقات بين يدي زناتة على الرسم المعروف في احتفال الدولة وهم مصممون مع كافة المصامدة ان الامر سيعود وان الدولة ستظهر على أهل المشرق والمغرب وتملا الارض كما وعدهم المهدي لا يشكون في ذلك ولا يستريبون فيه * (هنتاتة) * وأما هنتاتة وهم تلو القبيلتين في الامر وكل من بعدهم فانما جاؤا على أثرهم وتبعوا لهم لما كانوا عليه من الكثرة والبأس ومكان شيخهم ابي حفص عمر بن يحيى من صحابة الامام والاعتزاز على المصامدة وكانت لهم بافريقية دولة كما نذكرهم فانفتحت الدولتان منهم عوالم في سبيل الاستظهار وبقي بموطنهم المعروف بهم من جبال درن وهو الجبل المتاخم لمراكش على توسط من الاستبداد والخضوع ولهم في قومهم مكان

بامتناع معقلهم واطلاله على مراكش ولما تغلب بنو مرين على المصامدة وفتحوا عنهم أسباب الدعوة كان لرؤسائهم أولاد يونس انحياش إليهم بما كانوا مسخوطين في آخر دولة بنى عبد المؤمن فاختصوهم بالاثرة والمخالطة وكان على بن محمد كبيرهم لعهد السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق خالصة له من بين قومه وهلك سنة سبعين على يد ابن الملياني الكاتب بكتاب لبس فيه وأنفذه على السلطان لابنه أمير مراكش فقتل رهط من مشيخة المصامدة في اعتقاله كان منهم على بن محمد فقام السلطان لها في ركائبه وندم على ما فرط من أمره في أفلات ابن الملياني على ما يذكر من أمر هذه الواقعة في أخبار السلطان يوسف بن يعقوب ولما ولي السلطان أبو سعيد وانقطع عن المصامدة ما كان لهم من أثر الملك والسلطان وانقادوا للدولة رجع بنو مرين إلى التولية عليهم من رجالاتهم ودالوا بينهم في ذلك وأخبار السلطان بعد صدر من دولة موسى بن على ابن محمد للولاية على المصامدة وجبايتهم فعقد له وأنزله مراكش فاضطلع بهذه الولاية سنين ورسخت فيها قدمه وأورثها أهل بيته وصار لهم بها في الدولة مكان انتظموا له في الولاية وترشحوا للوزارة ولما هلك موسى عقد السلطان من بعده لآخيه محمد وأجراه على سننه إلى أن هلك فاستعمل السلطان بنيه في وجوه خدمته وعقد لعامر منهم على قومه ولما ارتحل

السلطان أبو الحسن إلى افريقية صحبه عامر فيمن صحبه من أمراء المصامدة وكافة الوجوه حتى إذا كانت نكبة القيروان سنة تسع وأربعين وسبعمائة عقد له على الشرطة بتونس على رسم الموحدين من بيوت الخطة وسعة الرزق وأسام إليه فيها فكفاه همها ولما فصل من تونس ركب الكثير من حرمه وخطاياها السفن لنظر عامر هذا حتى إذا غرق الاسطول بالسلطان أبي الحسن بما أصابهم من عاصف الريح رمى الموج بالسفينة التي كانوا بها إلى المرية من ثغور الاندلس فأنزل بها كرا ثم السلطان لنظره وبعث عنهن ابنه أبو عنان المستبد على أبيه بملك المغرب فامتنع من اسلامهن إليه وفاء بأمانته في خدمتهم وخلص السلطان أبو الحسن بعد النكبة البحرية إلى الجزيرة سنة خمسين وزحف إلى بنى عبد الواد فقلوه ونهض إلى المغرب وسلك إليه القفر حتى نزل سجلماسة فقصده أبو عنان فخرج منها إلى مراكش وقام بدعوته المصامدة وعرب جشم فاحتشد ولفى ابنه بأجمات بجهات أم ربيع فكانت الدبرة عليه ونجا إلى جبل هنتاتة وكان عبد العزيز بن محمد شيخا عليهم منذ مغيب عامر وكان في جملته وخاص معه فأنزله عيسد العزيز بداره وتأمرو هو وقومه على اجارته والموت أشهرها حتى هلك السلطان أبو الحسن كما نذكره بعد فحملوه على الاعواد ونزلوا على حكم أبي عنان فأكرمهم ورعى لهم وسلة هذا الوفاء وعقد لعبد العزيز على امارته واستقدم

[٢٦٩]

عامرا كبيرهم من مكانه بالمرية فقام بهن لامنته من خطايا السلطان وجرمه فلفاه السلطانة مبرة وتكريما وأناله من اعتنائه حقا وتخلى له أخوه عبد العزيز عن الامر فأقره نائبا ثم عقد السلطان لعامر سنة أربع وخمسين على سائر المصامدة واستعمله لجبايتهم فقام بها مضطلعا وكفاه هم الاعمال المراكشية حتى عرف غناه فيها وشكر له جبايته وهلك السلطان أبو عنان واستبد على ابنه السعيد ووزيره الحسن بن عمر المودودي وكان ينفس عليه ما كان له من الترشيح للرتبة وبينهما في ذلك شحناء فخشى بادرته وخرج من مراكش إلى معقله من جبل هنتاتة وحمل معه ابن السلطان أبي عنان الملقب بالمعتمد وكان أبوه عقد له يافعا قبيل وفاته على مراكش لنظر عامر فخلص به إلى الجبل حتى إذا استوت قدم السلطان أبي سالم في الامر واستقل بملك المغرب سنة ستين وقد عليه عامر بن محمد مع رسله إليه وأوفد ابن أخيه محمد المعتمد فتقبل السلطان وفادته وشكر وفاءه وأقام ببابه مدة ثم عقد له على قومه ثم استنفره معه إلى تلمسان ولم يزل مقيما ببابه إلى قبل وفاته فأنفذه لمكان امارته ولما هلك السلطان أبو سالم واستبد بالمغرب بعده عمر بن عبد الله بن عمر على ما نذكره وكانت بينه وبين عامر السلطان صداقة وملاطفة وصل يده بيده وأكد العهد معه على سد تلك الفرجة وحول عليه في حوط البلاد المراكشية وأن لا يولى من قبله وكان زعيما بذلك وعقد له على الاعمال المراكشية وما إليها إلى وادي أم ربيع وفوض إليه أمر تلك الناحية واقتسما المغرب شق الابلمة وخاص إليه الاعياص من ولد السلطان أبي سعيد أبو الفضل بن السلطان أبي سالم وعبد المؤمن بن السلطان أبي على فاعتقل عبد المؤمن وامكن أبا الفضل من امارته على ما يذكر بعد وساءت الحال بينه وبين عمر ونهض إليه من فاس بجموع بنى مرين وكافة العساكر واعتصم بجيله وقومه واستبد على الامر من بعده ووصل عبد المؤمن من معقله يجاجى به بنو مرين لما كانوا يوملون من ولايته واستبداده لما أسفهم من حجر الوزراء لملوكلهم فلما رأوا استبداد عامر عليه أعرضوا عنه وانعقد السلم بينه وبين عمر ابن عبد الله على ما كان عليه من مقاسمته إياه في أعمال المغرب ورجع واستقل عامر بناحية مراكش وأعمالها حتى إذا هلك عمر بن عبد الله بيد عبد العزيز بن السلطان أبي الحسن كما

نذكره حدثت أبا الفضل بن السلطان أبي سالم نفسه بالفتك بعامر بن محمد كما فتك عمه بعمر بن عبد الله ونذر بذلك فاحتمل كرائمه وصعد إلى داره بالجبل ففتك أبو الفضل بعبد المؤمن ابن عمه لانه كان معتقلا بمراكش واستحكمت لذلك النقرة بينه وبين عامر بن محمد وبعث إلى السلطان عبد العزيز فنهض من فاس في جموعه سنة تسع وستين وفر أبو الفضل فلحق بتادلا وتقبض عليه عمه السلطان عبد العزيز وقتله كما يذكر

[٢٧٠]

في أخباره وطلب عامرا في الوفاة فخشيه على نفسه واعتصم بمعقله فرجع إلى حضرته واستجمع عزائمه وعقد على مراكش وأعمالها لعلى بن أجانا من صنائع دولتهم وأوعز إليه بمنازلة عامر وقومه من معتصمه وأوقع به وتقبض على طائفة من بنى مريين وصنائع السلطان في المعركة وأودعهم نتيجته فحرك بها عزائم السلطان إليه في قومه من بنى مريين وعساكر المغرب وأحاط به ونازله حولا ثم تغلب عليه سنة احدى وسبعين وانفضت جموعه وتقبض عليه عند افتتاح الجبل فسيق أسيرا إلى السلطان فقيده ووقل به إلى الحضرة ولما قضى نسك الفطر من سنته أحضره وويخه ثم أمر به قتل إلى مصرعه واثخن جلدا بالسياط وضربا بالمقارع حتى فاض عفا الله عنه وعقد السلطان على قومه لفارس ابن أخيه عبد العزيز كان نزع إليه بين يدي مهلك عمه وعفا عن ابنه أبي يحيى بسابقته إلى الطاعة قبيل افتتاح الجبل عليهم أشار عليه بذلك أبوه نظرا له فظفر بالسلامة والحظ وأصاره السلطان في جملته ثم هلك بعد ذلك فارس بن عبد العزيز واضطرم المغرب فتنة بعد مهلك السلطان عبد العزيز سنة أربع وسبعين وصارت أعمال مراكش في ايالة السلطان عبد الرحمن بن على الملقب بأبي تغلوس ابن السلطان أبي على ونزع إليه أبو يحيى بن عامر فعقد له على قومه ثم أتهمه باحتمال الاموال منذ عهد ابنه وميزه إلى استصفائه ونذر به ابن عامر فلحق ببعض قبائل المصامدة سراتهم بأطراف السوس ونزل عليهم وكان مهلكه فيهم أعوام ثمانين وسبعمائهم والله وارث الارض ومن عليها * (كدميوه) * وأما كدميوه وكانوا تبعاً لهنتاتة وتينملل في الامر وجبلهم بصدف جبل هنتاتة وكان رؤساءهم لعهد الموحدين بنو سعد الله ولما تغلب بنو مريين على المصامدة ووضعوا عليهم الضرائب امتنع يحيى بن سعد الله وبعض الشئ يحصن تافرجا وتيسخنت من جبلهم وخالفه عبد الكريم بن عيسى وقومه إلى طاعة بنى مريين واختلف إليهم العساكر إلى أن هلك يحيى بن سعد الله سنة أربع وتسعين وستمائة وعساكر يوسف بن يعقوب مجمرة على حصاره فهدموا حصونه وأذلوا من قومه واستخلص السلطان يوسف بن يعقوب عبد الكريم بن عيسى منذ عهد أبيه فعقد له عليهم ثم تقبض على أمراء المصامدة وعقله فيمن اعتقل منهم حتى إذا فعل ابن الملياني فعلته في استهلاكهم لعداوة عمه بما ليس الكتاب على لسان السلطان لابيه على أمير مراكش فقتل عبد الكريم فيمن قتل منهم وقتل معه بنو عيسى وعلى ومنصور وابن أخيه عبد العزيز ابن محمد وامتعض السلطان لذلك وأفلت ابن الملياني من معسكره لحصار تلمسان فدخلها

[٢٧١]

ثم قام بأمر كدميوه عبد الحق الملياني سعد الله أيام السلطان أبي الحسن وابنه أبي عنان وكانت بينه وبين عامر بن محمد فتنة جرها منصب العمالة بشأن المجاورين من القبائل وقديم العداوة بين السلف فلما استفحل أمر عامر بالولاية على مراكش وسائر المصامدة نبذ

إلى عبد الحق العهد ونحلة الخلاف والمداخلة للسكسيوى شيخ
الفتنة المستعصى منذ أول الدولة فصمد إليه سنة سبع وخمسين
وسبعمائة في قومه ومشايخ السلطان التى كانت بمراكش لنظره
فاقتحم عليه معقله عنوة وقتله واستولى على كدميووة ولحق بنو
سعد الله بفاس فأقاموا بها حتى إذا خاض السلطان أبو سالم البحر
إلى ملكه بعد أخيه أبى عنان ونزل بغمارة نزل إليه يوسف بن سعد
الله واعتقد منه ذمة سابقيته تلك فلما استولى على البلد الجديد
واستقل سلطانه عقد له على قومه رعيًا لوسيلته فأقام في ولايته
مدة السلطان أبى سالم وكان عامل مراكش محمد بن أبى العلى
من حاشية السلطان وبيوت الولاة بالمغرب معولا على أعمال
مراكش ليستظهر وطير إليه الكتاب بذلك ونزل إلى مراكش وقتل بها
يوسف بن سعد الله ونكث ابن أبى العلى ثم قتله والحقه بابنه عبد
الحق وذهبت الرياسة من كدميووة برهة من الدهر ثم رجعت إليهم
في بنى سعد الله والله تعالى قادر على ما يشاء ويده تصاريف
الامور لا رب سواه ولا معبود الا اياه * (واما وريكه) * وهم مجاورون
لهنتاتة وبينهم فتنة قديمة وحروب متصلة ودماء مطلولة كانت بينهم
سجالا وهلك فيها من الفريقين أمم إلى ان غلبهم هنتاتة باعتزازهم
بالولاية والله تعالى أعلم بغيبه وهو على كل شئ قدير

[٢٧٢]

{ الخبر عن بنى يدر إمراء السوس من الموحدين بعد انقراض بنى
عبد المؤمن وتصاريف أحوالهم } كان أبو محمد بن يونس من جملة
وزراء الموحدين من هنتاتة وكان المرتضى قد استوزره ثم سخطه
وعزله سنة خمسين وستمائة وألزمه داره بتا مصلحت وفر عنه قومه
وحاشيته وكان من أهل قرابته على بن يدر من بنى باداسن ففر
إلى السوس وجاهر بالخلاف سنة احدى وخمسين ونزل بحصن
تأصاحت بسفح الجبل حيث يدفع وادى السوس سن درن وشيده
وحصنه وتغلب على حصن تيسخت من أيدي صنهجة وشيده وأنزل
فيه

[٢٧٣]

ابن عمه بوحمدين ثم تغلب على بسيط السوس وجاجأ بنى حسان
من اعراب المعقل من مواطنهم بنواحي ملوية إلى بلاد الريف
فارتحلوا إليه وعات بهم في نواحي السوس وأطاع له كثير من قبائله
فاستوفى جبايتهم وأجلب على عامل الموحدين بتار ودانت وضيق
عليه المسالك وتفاقم أمره واتهم الوزير أبو محمد بن يونس بمدخلته
وعثر على كتابه إلى علي بن يدر فأمر المرتضى باعتقاله وقتله سنة
ثنتين وخمسين وأغزى أبا محمد بن اصال إلى بلاد السوس في
عسكر الموحدين والجند وعقد له عليها فنزل تارودانت وتحصن على
بن يدر في تيونودين وزحف إليه ابن أصناك في عسكره فهزمه ابن
يدر وقتل كثيرا منهم ورجع إلى مراكش مفلولا وأقام على بن يدر
على حاله من الخلاف وأغزاه المرتضى محمد بن علي ازلماط في
عسكر من الموحدين سنة ستين فهزموهم وقتل ابن ازلماط فعقد
المرتضى من بعده على السوس لوزيره أبى زيد بن بكيت فزحف إليه
ودارت الحرب بينهما مليا وانقلب من غير ظفر واستفحل ابن يدر ببلاد
السوس واستخدم الاعراب من الشيبانات وذوى حسان واطاعته
القبائل من بنيه وبنى كزولة وكانت لهم فتن وحروب يستظهر في
اكثرها بذوى حسان ولما استولى أبو دبوس على مراكش سنة
خمس وستين وفرغ من تمهيد ملكه بها اعتزم على الحركة إلى
السوس ورحل من مراكش وقدم بين يديه يحيى بن وانودين
لاحتشاد القبائل ومن بالجبل ثم أسهل من تامسكروط إلى بسيط

السوس ونزل على بنى باداس وقبيلة ابن يدر على فرسخين من تيو نوذين وقصد تيزخت بنارودنت وعابن اثار الخراب الذي بها من عيث ابن يدر ولما بلغ حصن تيزخت خيم بساحته وحشد أمما من القبائل لحصاره وكان بو حمدين ابن عم على بن يدر فحاصره أياما ولما اشتد عليه الحصار داخل على بن زكدان من مشيخة بنى مرين كان في جملة أبى دبوس فداخله في الطاعة وتقبل السلطان طاعته على النزول عن حصنه ثم أعجله الحرب واقتحم عليهم الجلب ولجؤا إلى الحصن وفر حمدين إلى بيت على بن زكدان وأمره السلطان باعتقاله واستولى السلطان على الحصن وأنزل به بعض السادة لولايته وارتحل أبو دبوس إلى محاصرة على ابن يدر فحاصره أياما ونصب عليه المجانيق ولما اشتد عليه الحصار رغب في الاقالة ومعاودة الطاعة فتقبل وأقلع السلطان عن حصاره وقفل إلى حضرته ولما استولى بنو مرين على مراكش سنة ثمان وستين استبد على بن يدر وتملك سوس واستولى على تارودنت والقري وسائر امصاره وقواعده ومعاقله وأرهب حده للاعراب فزحفوا عليه وكانت عليه الدبرة وقتل سنة ثمان وستين وقام بأمره على ابن أخيه عبد الرحمن ابن الحسن مدة ثم هلك وقام بأمرهم على بن الحسن بن بدر ولما صار أبو على بن السلطان

[٢٧٤]

أبى سعيد إلى ملك سجلماسة يصلح عقده مع أبيه كما يذكر في أخبارهم فنزلها وشيد ملكه بها واستخدم كافة عرب المعقل فرغبوه في ملك السوس وأطمعوه في أموال ابن يدر فغزاه من سجلماسة وفر ابن يدر امامه إلى جبال نكيسة واستولى السلطان أبو على على حصنه بانصاقت وسائر امصار السوس واستصفى ذخيرته وأمواله ورجع إلى سجلماسة ثم استولى السلطان أبو الحسن من بعد ذلك عليه وانقرض ملك بني يدر ولحق به عبد الرحمن ابن على بن الحسن وصار في جملته وأنزل السلطان بأرض السوس مسعود بن ابراهيم ابن عيسى البريتانى من طبقة وزرائه وعقد له على تلك العمالة إلى أن هلك وعقد لآخيه حسون من بعده إلى ان كانت نكبة القيروان وهلك حسون وانفض العسكر من هنا لك وتغلب عليه العرب من بنى حسان والشبانان ووضعوا على قبائله الاتاوات والضرائب ولما استبد أبو عنان بملك المغرب من بعد أبيه أغزى عساكره السوس لنظر وزيره فارس بن ودرار سنة ست وخمسين فملكه واستخدم القبائل والعرب من أهله ورتب المشايخ بامصاره وقفر إلى مكان وزارته فانفضت المشايخ ولحقت به وبقي عمل السوس ضاحيا من ظل الملك لهذا العهد وهو وطن كبير في مثل عرض البلاد الجريدية وهوائها المتصل من لدن البحر المحيط إلى نيل مصر الهابط من وراء خط الاستواء في القبلة إلى الاسكندرية وهذا الوطن قبلة جبال درن ذو عمائر وقري ومزارع ومدن وامصار وجبال وحصون ويحرق به وادى السوس ينصب من باطن الجبل إلى ما بين كلاوة وسيكسيوة ويدفع إلى بسيطه ثم يمر مغربا إلى أن ينصب في البحر المحيط والعمائر متصلة حفا في هذا الوادي ذات المدن والمزارع وأهلها يتخذون فيها قصب السكر وعند مصب هذا الوادي من الجبل في البسيط مدينة تارودنت وبين مصب هذا الوادي في البحر ومصب وادى أش مرحلتان إلى ناحية الجنوب على ساحل البحر وهناك رباط ماسة الشهير المعروف بتردد الاولياء وعبادتهم وتزعم العامة ان خروج الفاطمي منهم ومنه أيضا إلى زوايا أولاد بو نعمان مرحلتان في الجنوب كذلك على ساحل البحر وبعدها على مراحل عصب الساقية الحمراء وهى منتهى مجالات المعقل في مشاتيهم وفى رأس وادى السوس جبل زكنون قبلة جبل الكلاوى وفى قبلة جبال درن جبال نكيسة تنتهى إلى جبال درعه ويعرف الآخر منها في الشرق بابن حميدي ويصب من جبال نكيسة وادى نول ويمر مغربا إلى ان يصب في البحر وعلى هذا الوادي بلدتا كاوست محط الرفاق والبضائع

بالقبلة وبها سوق في يوم واحد يقصده التجار من الآفاق وهو من الشهرة لهذا العهد بمكان وبلد ابغرى بسفح جبال نكيسة وبينها وبين تاكوصت مرحلتان وأرض السوس مجالات لنزول لمطة فلمطه منهم مما يلي

[٢٧٥]

درن وكزولة مما يلي الرمل والقفير ولما تغلب المعقل على بسائمه اقتسموها مواطن فكان الشبانان أقرب إلى جبال درن وصارت قبائل لمط من أحلافهم وصارت كزولة من أحلاف ذوى حسان والأمر على ذلك لهذا العهد وببئ الله تصاريف الأمور لا رب سواه ولا معبود الا اياه على عبد الرحمن بن يحيى بن عبد الرحمن بن بدر من بنى باداسن { الخبر عن دولة بنى حفص ملوك أفريقية من الموحدين ومبدا أمرهم وتصاريف أحوالهم } قد قدمنا أن قبائل المصامدة بجبل درن وما حوله كثير مثل هنتاتة وتينملل وهرغه وكنفيسة وسكسيوة وكدميوة وهزوجة ووربكة وهزميرة وركراكة وحاحة وكلاوة وغيرهم ممن لا يحصى وكان منهم قبل الاسلام وبعده رؤساء وملوك وهنتاتة هؤلاء من أعظم قبائلهم وأكثرها جمعا وأشدّها قوة وهم السابقون للقيام بدعوة المهدي والممهّدون لأمره وأمر عبد المؤمن من بعده كما ذكرنا في أخباره بلسان المصامدة حتى كان كبيرهم لعهد الامام المهدي الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى ونقل البيدق ان اسمه بلسانهم فارصكات وهنتاتة لهذا العهد تقول انه اسم جدّهم وكان عظيما فيهم غير مدافع وهو أول من تابع الامام المهدي من قومه فجاء يوسف بن وانودين وأبو يحيى بن بكيت وابن يغمور وغيرهم منهم على أثره واختص بصحابة المهدي فانتظم في العشرة السابقين إلى دعوته وكان تلو عبد المؤمن فيهم ولم تكن مزية عبد المؤمن عليه الا من حيث صحابة المهدي وأما في المصامدة فكان كبيرهم غير مدافع وكان يسمى بين الموحدين بالشيخ كما كان المهدي يسمى بالامام وعبد المؤمن بن يحيى بن محمد بن وانودين ابن علي بن أحمد بن والال بن ادريس بن خالد بن اليسع بن الياس بن عمر بن وافق بن محمد ابن نجية بن كعب بن محمد بن سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب هكذا نسبه ابن نخيل وغيره من من الموحدين ويظهر منه ان هذا النسب الفرشى وقع في المصامدة والتحم بهم واشتملت عليه عصبية شأن الانساب التي تقع من قوم إلى قوم وتلتحم بهم كما قلناه أول الكتاب ولما هلك الامام وعهد بأمره إلى عبد المؤمن وكان بعيدا عن عصبية المصامدة الا ما كان له من أثره المهدي واختصاصه فكتّم موت المهدي وعهد عبد المؤمن ابتلا لطاعة المصامدة وتوقف عبد المؤمن عن ذلك ثلاث سنين ثم قال له أبو حفص نقدمك كما كان الامام يقدمك فعلم ان أمره منعقد ثم أعلن ببيعته

[٢٧٦]

وأمضى عهد الامام بتقديمه وحمل المصامدة على طاعته فلم يختلف عليه اثنان وكان الحل والعقد في المهمات إليه سائر أيام عبد المؤمن وابنه يوسف واستكفوا به نواب الدعوة فكفاهم همها وكان عبد المؤمن يقدمه في المواقف قبلي فيها وبعثه على مقدمته حين زحف إلى المغرب الاوسط قبل فتح مراكش سنة سبع وثلاثين وزناتة كلهم مجتمعون بمنداس لحرب الموحدين مثل بنى ومانو وبنى عبد الواد وبنى ورسيغان وبنى توحين وغيرهم فحمل زناتة على الدعوة بعد ان أثنخ فيهم لأول دخول عبد المؤمن لمراكش خرج عليه الثائر بماسة وانصرفت إليه وجوه الغوغا وانتشرت ضلالتة في النواحي وتفاقم أمره فدفع لحربه الشيخ أبا حفص فحسم داءه ومحا أثر

غوايته ولما اعتزم عبد المؤمن على الرحلة إلى افريقية حركته الاولى لم يقدم شيئا على استشارة أبي حفص ولما رجع منها وعهد إلى ابنه محمد خالفه الموحدون ونكروا ولاية ابنه فاستدعى أبا حفص من مكانه بالاندلس وحمل الموحدون على البيعة له وأشار بقتل الهرغى رأس المخالفين في شأنه فقتله وتم أمر العهد لابنه محمد ولما اعتزم عبد المؤمن على الرحلة إلى افريقية سنة أربع وخمسين حركته الثانية لفتح المهديّة استخلف الشيخ أبا حفص على المغرب وينقل من وصاة عبد المؤمن على الرحلة إلى افريقية لبيته انه لم يبق من أصحاب الامام الا عمر بن يحيى ويوسف بن سليمان فأما عمر فانه من أوليائكم وأما يوسف فجهزه بعسكره إلى الاندلس تسترح منه وكذلك فافعل بكل من تكرهه من المصامدة وأما ابن مردنيش فاتركه ما تركك وترى به ريب المنون وأخل افريقية من العرب وأجلهم إلى بلاد المغرب وادخرهم لحرب ابن مردنيش إن احتجت إلى ذلك ولما ولي يوسف بن عبد المؤمن تخلف الشيخ أبو حفص عن بيعته ووجم الموحدون لتخلفه حتى استبد غرضه في حكم امضاه بمقعد سلطانه وأعجب بفضله واعطاه صفقة يمينه وأعلن بالرضا بخلافته فكانت عند يوسف وقومه من أعظم البشائر وتسمى بأمير المؤمنين سنة ثلاث وستين ولما ولي يوسف بن عبد المؤمن وتحركت الفتنة بجبال غمارة وصنهاجة التي تولى كبرها سبع بن منقباد سنة ثنتين وستين عقد للشيخ أبي حفص على حربهم فجلى في ذلك ثم خرج بنفسه فأئخن فيهم وكمل الفتح كما ذكرناه ولما بلغه سنة أربع وستين تكالب الطاغية على الاندلس وغدره بمدينة بطليوس واعتزم على الاجازة لحياتها قدم عساكر الموحدون إليها لنظر الشيخ أبي حفص ونزل قرطبة وأمر من كان بالاندلس من السادة أن يرجعوا إلى رأيه فاستنقذ بطليوس من هذا الحصار وكانت له في الجهاد هنا لك مقامات مشهورة ولما انصرف من قرطبة إلى الحضرة سنة احدى وسبعين هلك عفا الله عنه في طريقه بسلا قريها وكان ابناؤه

[٢٧٧]

من بعده يتداولون الامارة بالاندلس والمغرب وافريقية مع السادة من بنى عبد المؤمن فولى المنصور ابنه أبا سعيد على افريقية لاول ولايته وكان من خبره مع عبد الكريم المنتزى بالمهديّة ما ذكرناه في أخباره واستوزر أبا يحيى بن أبي محمد بن عبد الواحد وكان في مقدمته يوم المعركة سنة احدى وتسعين فجلى عن المسلمين وكان له في ذلك الموقف من النصرة والثبات ما طار له به ذكر واستشهد في ذلك الموقف وعرف أعقابه بنى الشهيد آخر الدهر وهم لهذا العهد بتونس ولما نهض الناصر إلى افريقية سنة احدى وستمائة لما بلغه من تغلب ابن غانية على تونس فاسترجعها ثم نازل المهديّة فتعاونت عليه ذئاب الاعراب وجمعهم ابن غانية ونزل قابس فسرح الناصر إليهم أبا محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص في عسكر من الموحدون فأوقع باين غانية بتاجرا من نواحي قابس سنة ستين وستمائة وقتل جبارة أخو ابن غانية وأئخن فيهم قتلا وسبيا واستبعد منهم السيد أبا زيد بن يوسف بن عبد المؤمن الوالى كان بتونس وأسره ابن غانية ورجع إلى النصار بمكانه من حصار المهديّة فكان سبيا في فتحها وكان ذلك مما حمل الناصر على ولاية الشيخ أبي محمد بافريقية حسبا يذكر ان شاء الله تعالى لما تكالب ابن غانية واتباعه على افريقية واستولى على امصارها وحاصر تونس وملكها وأسر السيد أبا زيد أميرها ونهض الناصر من المغرب سنة احدى وستمائة كما ذكرناه فاسترجعها من أيديهم وشردهم عن نواحيها وخيم على المهديّة يحاصرها وقد أنزل ابن غانية ذخيرته وولده بها وأجلب في جموعه خلال ذلك على قابس فسرح الناصر إليه الشيخ أبا محمد هذا في عساكر الموحدون وزحف إليهم بتاجرا من جهات قابس فهزمهم واستولى على معسكرهم

وما كان بأيديهم وأتخن فيهم بالقتل والسبي واستنقذ السيد أبا زيد من أسرهم ورجع إلى الناصر بمعسكره من حصار المهديّة ظافرا ظاهرا وعابن أهل المدينة يوم هزمه بالغنائم والاسرى فيهتوا وسقط في أيديهم وسألوا النزول على الامان وكمل فتح المهديّة ورجع الناصر إلى تونس فأقام بها حولا إلى منتصف سنة ثلاث وستمائة وسرح أثناء ذلك أخاه السيد أبا اسحق يتبع المفسدين ويمحو مواقع عينهم فدوخ ما وراء طرابلس وأتخن في بنى دمر ومطماطة ونفوسه وشارف أرض سرت وبرقة وانتهى إلى سويقة ابن مذكور وفر ابن غانية إلى صحراء برقة وانقطع خبره وانكف السيد راجعا إلى تونس واعتزم الناصر على الرحلة إلى المغرب وقد أفاء على افريقية ظل الرضى وضرب عليهم سرادق الحماية وبدا له ان ابن غانية سيخالفه إليها وان مراكش بعيدة عن الصريخ وأنه لا بد من رجل يسد فيها مسد الخلافة ويقيم

[٢٧٨]

بها شؤون الملك فوقع اختياره على أباي محمد بن الشيخ أباي حفص ولم يكن ليعدهو لما كان عليه هو وأبو ه في دولتهم من الجلالة وأن أمر بنى عبد المؤمن انما تم بوافق الشيخ أباي حفص ومظاهرتة وان أبا ه المنصور كان قد أوصى الشيخ أبا محمد به وباخوته وكان يوليه صلاة الصبح إذا حضره شغل وأمثال ذلك وسار الخبر بذلك إلى أباي محمد فامتنع وشافهه الناصر به فاعتذر فبعث إليه ابنه يوسف فأكرم موصله وأجاب على شريطة اللحاق بالمغرب بعد قضاء مهمات افريقية في ثلاث سنين وأن يختار عليهم من رجالات الوحدين وأن لا يتعقب عليه في توليته ولا عزله فقبل شرطه ونودى في الناس بولايته ورفعت بين الموحدين رايته وارتحل الناصر إلى المغرب ورجع عنه الشيخ أبو محمد من بجاية فقعده مقعد الامارة بقصبة تونس في السبت العاشر من شوال سنة ثلاث وستمائة وأنفذ أوامره واستكتب أبا عبد الله محمد بن أحمد بن نخيل ورجع ابن غانية إلى نواحي طرابلس فجمع أحزابه واتباعه من العرب من سليم وهلال وكان فيهم محمد بن مسعود في قومه من الزواودة وعادوا عينهم وخرج إليهم أبو محمد سنة أربع وستمائة في عساكر الموحدين وتجز إلى بنو عوف من سليم وهم مرداس وعلاق فلقبهم بشير فتوافقوا واحتربوا عامة يومهم ونزل النصر ثم انفض عسكر ابن غانية آخر النهار واتبعهم الموحدون والعرب واكتسحوا أموالهم وأفات ابن غانية جريحا إلى أقصاميرة ورجع أبو محمد إلى تونس بالظفر والغنيمة وخطب الناصر بالفتح واستنجاز وعده في التحول عن الولاية فخاطبه بالتنكر والعذر بمهمات المغرب عن ادالته وأنه يستأنف النظر في ذلك وبعث إليه بالمال والخيل والكسي للانفاق والعطاء كان مبلغها مائة ألف دينار ثنتان وألف وثمانمائة كسوة وثلثمائة سيف ومائة فرس غير ما كان أنفذ إليه من سبنة وبجاية ووعدته بالزيادة وكان تاريخ الكتب سنة خمس فاستمر أبو محمد على شاته وترادفت الوقائع بينه وبين يحيى الميورقي كما نذكره ان شاء الله تعالى * (وقبعة تاهرت وما كان من أباي محمد في تلافيتها واستنقاذ غنائمها) * كان يحيى بن غانية لما أفلت من وقبعة أشير بدا له ليقتصدن بلاد زناتة بنواحي تلمسان وقارن ذلك وصول الشيخ أباي عمران بن موسى بن يوسف بن عبد المؤمن واليا عليها من مراكش وخروجه إلى بلاد زناتة لتمهيد انحائه وجباية مغارمهم وكتب إليه الشيخ أبو محمد نذيرا بشأنه وأن لا يعرض له وأنه في اتباعه فابى من ذلك وارتحل إلى تاهرت وصبحه بها ابن غانية فانفض معسكره وقرب زناتة إلى حصن بها وقتل السيد أبو عمران واستبيحت تاهرت فكان آخر العهد بعمرانها وامتلأت أيديهم من الغنائم والسبي وانقلبوا إلى افريقية فاعترضه الشيخ أبو محمد في موضع

فأوقع بهم واستنقذ الاسرى من أيديهم واكتسح سائر مغانمهم وقتل فيها كثير من الملتئمين ولحق فلهم بناحية طرابلس إلى ان كان من أمرهم ما نذكره ان شاء الله تعالى كان ابن غانية بعد واقعة أشير واستنقاذ أبي محمد تاهرت من يده خلص إلى جهة طرابلس وتلاحق به فل الملتئمين وأولياؤه من العرب وكان المجلى معه في مواقف الزواودة من رياح وكبيرهم محمد بن مسعود فتوامروا واعتزموا على معاودة الحرب وتعاقدوا على الثبات والصبر وانطلقوا يستألفون الاعراب من كل ناحية حتى اجتمع إليهم من ذلك أمم كان فيهم رياح وزغب والشريد وعوف وذباب ونعات واحتفلوا في الاحتشاد وأجمعوا دخول افريقية فبادرهم أبو محمد قبل وصولهم إليه وخرج من تونس سنة ست وأعد السير إليهم وتزاحفوا عند جبل نفوسة واشتدت الحرب ولما حمى الوطيس ضرب أبو محمد أبيته وفسطاطه وتحيز إليه بعض الفرق من بنى عوف بن سليم واختل مصاف ابن غانية واتبعه الموحدون إلى أن دخل في غيابات الليل وامتلأت أيديهم بالاسرى والغنائم وسيقت طعائن العرب وقد كانوا قدموها بين أيديهم للحفيظة اذ اذا في الكر والفر فأصحت مغنما للموحدين وريات خدورها سببا وهلك في المعركة خلق من الملتئمين وزناتة والعرب وكان فيهم إليه بن محمد بن مسعود البلط بن سلطان شيخ الزواودة وابن عمه حركات بن الشيخ بن عساكر ابن السلطان وشيخ بنى قره وجرار بن ويفرن كبير مغراوة ومحمد بن العارى بن غانية في آخرين من أمثالهم وانصرف ابن غانية مهيب الجناح مغلول الحد عفوا بالباس من جميع جهاته وانقلب أبو محمد والموحدون أعزة ظاهرين واستفحل أمر أبي محمد بافريقية وحسم عامة الغساد واستوفى جبايتها وطالت موافق حروبه ولم تهزم له راية وهلك الناصر وولى ابنه يوسف المنتصر واستبد عليه المشيخة لمكان صغره وشغلوا بفتنة بنى مرين وظهرهم بالمغرب فاستكفي بالشيخ أبي محمد في افريقية وعول على غنائه فيها وضبطه لاحوالها وقيامه بملكها فأبقاه على أعمالها وسرب إليه الاموال لنفقاتها وأعطياتها ولم يزل بها إلى أن هلك سنة ثمان عشرة والله أعلم * (الخبر عن مهلك الشيخ ابي محمد بن الشيخ ابي حفص وولاية عبد الرحمن ابنه) * كانت وفاة الشيخ ابي محمد فاتح سنة ثمان عشرة ولما هلك انباغ الناس لمهلكه وإفترق أمر الموحدون في الشورى فريقيين ابنه عبد الرحمن بن الشيخ ابي محمد وإبراهيم ابن عمه اسمعيل ابن الشيخ ابي حفص فتردد وامليا ثم اتفقوا على الامير ابي زيد عبد الرحمن ابنه وأعطوه صفقة ايمانهم وأقعدوه بمجلس أبيه في الامارة فسكن الثائرة وشمر للقيام

بالامر عزائمه وأفاض العطا وأجاز الشعراء واستكتب أبا عبد الله ابن أبي الحسن وخاطب المستنصر بالشأن وخرج في عساكره لتمهيد النواحي وحماية الجوانب إلى ان وصل كتاب المستنصر بعزله لثلاثة أشهر من ولايته حسبا نذكره فارتحل الثورة حجبون الرنداحى لمداخلة ابي القاسم العزفى واتفق الملا على ولاية العزفى وحولوا الدعوة للمرتضى وذلك سنة سبع وأربعين وبتبعهم أهل طنجة في الدعوة واستبد بها ابن الامير وهو يوسف بن محمد بن عبد الله بن أحمد الهمداني كان واليا عليها من قبل ابي على بن اخلاص فلما وصل الامر للعزفى والقائد حجبون الرنداحى حالهم هو إلى الدعوة الحفصية واستبد عليهم ثم خطب للعباسي وأشرك نفسه معه في الدعاء إلى ان قتله بنو مرين غدرا كما نذكره وانتقل بنوه إلى تونس ومعهم صهرهم القاضي أبو الصنم عبد الرحمن بن يعقوب ابن خالته ساطبه انتقل هو وقومه إلى طنجة أيام الجلا فنزلوا بها وأصهر إليهم بنو الامين وارتحلوا معهم إلى تونس وعرف دين القاضي أبو القاسم

وفضله ومعرفته بالاحكام والوثائق واستعمل في خطة القضاء بالحضرة أيام السلطان وكان له فيها ذكر ولما بلغ الخبر بمهلك الامير ابي زكريا إلى صقلية أيضا وكان المسلمون بها في مدينة بلرم قد عقد لهم السلطان مع صاحب الجزيرة على الاشتراك في البلد والضاحية فتساقنوا حتى إذا بلغهم مهلك السلطان بادر النصارى إلى العيث فيهم فلجأوا إلى الحصن والاوغار ونصبوا عليهم نائرا من بنى عباس وحاصر طاغية صقلية من الجبل وأحاط بهم حتى استنزلهم فأجازهم البحر إلى دعوته وأنزلهم لو جاره من عمائرهم ثم نفذ إلى جزيرة مالطه فأخرج وألحقهم باخوانهم واستولى الطاغية على صقلية وجزائرها ومحا منها كلمة الاسلام بكلمة كفره والله غالب على أمره { الخبر عن بيعة السلطان ابي عبد الله المستنصر وما كان في أيامه من الاحداث } لما هلك السلطان أبو زكريا بظاهر بونه سنة سبع وأربعين كما قدمناه اجتمع الناس على ابنه الامير ابي عبد الله وأخذ له البيعة عمه محمد اللحياني على الخاصة وسائر أهل العسكر وأرتحل إلى تونس فدخل الحضرة ثالث رجب من سنته وجدد بيعته يوم وصوله وتلقب المستنصر بالله ثم جدد البيعة بعد حين واختار لوضع علامته الحمد لله والشكر لله وقام باعفاء ملكه وتقويض على خاصة أبيه الخصى كافور كان قهرمان داره فأشخصه إلى المهديّة وأوعز إلى الجهات بأخذ البيعة على أهل العمالات فترادفت من كل جانب واستوزر ابا عبد الله بن ابي يهدى واستعمل على القضاء ابا زيد التوزري وكان معلّم ولد عمه محمد اللحياني كما نذكره والله تعالى أعلم

[٢٨١]

كان للامير ابي زكريا من الاخوة اثنان محمد وكان أسن منه ويعرف باللحياني لطول لحيته والآخر أبو ابراهيم وكان بينهم من المخالصة والمصافاة مالا يعبر عنه ولما هلك الامير أبو زكريا وقام بالامر ابنه أبو عبد الله المستنصر واستوزر محمد بن ابي يهدى الهنتاتي وكان عظيما في قومه فأمل ان يستبد عليه لمكان صغره إذ كان في سن العشرين ونحوها واستصعب عليه حجر السلطان بما كان له من الموالي العلوج والصنائع من بيوت الاندلس فقد كان أبو ه اصطنع منهم رجلا ورتب جندا غلبوا الموحدين وزاحموهم في مراكزهم من الدولة فداخل ابن ابي يهدى اخوى السلطان وبث عندهما الاسف على ما فاتهما من الامر فلم يجد عندهما ما أمل من ذلك فرجع إلى ابن محمد اللحياني فاجابه إلى ذلك وبايعه ابن ابي يهدى سرا ووعد المظاهرة وغى الخبر بذلك إلى السلطان من عمه محمد اللحياني وحذره من غائلة ابنه وأبلغه ذلك أيضا القاضي أبو زيد التوزري منتصحا وباكر ابن ابي يهدى مقعده للوزارة بباب السلطان لعشرين من جمادى سنة ثمان وأربعين وتقضى على الوزير ابي زيد بن جامع وخرج ومشىخة الموحدين معه فبايعوا لابن محمد اللحياني بداره واستركب السلطان أولياءه وعقد للقائد ظافر على حربهم فخرج في الجند والأولياء ولحق الموحدين بالمصلى خارج البلد فقل جمعهم وقتل ابن ابي يهدى وابن وازكتدن وسار ظافر موسى السلطان إلى دار اللحياني عم السلطان فقتله وابنه صاحب البيعة وحمل رؤسهما إلى السلطان وقتل في طريقه أخاه أبا ابراهيم وابنه وانتهب منازل الموحدين وخربت ثم سكنت الفتنة وهدأت الثائرة وعطف السلطان على الجند والأولياء وأهل الاصطناع قادر ارزاقهم ووصل تفقدتهم وأعاد عبد الله بن ابي الحسين إلى مكانه بعد ان كان هجره أول الدولة وتزحزح لابن ابي يهدى عن رتبته وتضاءل لاستطالته فرجع إلى حاله واستقامت الامور على ذلك ثم سعى عند السلطان بمولاه ظافر وقمعوا عنوة ما أتاه من الافتيات في قتل عمه من غير جرم ونذر بذلك فخشى البادرة ولحق بالزواودة وكان المتولي لكبر هذه السعاية هلال مولاه فعقد له مكانه واستقر في حوار العرب طريقا إلى ان كان من أمره ما نذكره ان شاء الله تعالى *

(الخبر عن الآثار التى أظهرها السلطان في أيامه) * فمنها شروعه في اختطاط المصانع الملوكية وأولها المصيد بناحية بنزرت اتخذه للصيد سنة خمسين فأدار سياجا على بسيط من الارض قد خرج نطاقه عن التحديد بحيث لا يراع فيه سرب الوحش فإذا ركب للصيد تخطى ذلك السياج إلى قورا في لمة من مواليه

[٢٨٢]

المختصين وأصحاب بيرزون بما معهم من الجوارح بازات وصقورا وكلابا سلوقية وفهودا فيرسلونها على الوحش في تلك القورا وقد وثقوا باعتراض البناء لها من امام فيقضى وطرا من ذلك الفنص سائر يومه فكان ذلك من أفخم ما عمل في مثلها ثم وصل ما بين قصوره ورياض رأس الطالبية بحائطين ممتدين يجوزان عرض العشرة أذرع أو نحوها طريقا سالكا ما بينهما وعلى ارتفاع عشرة أذرع يتحجب الحرم في خروجهن إلى تلك البساتين عن أن تقع العيون عليهم فكان ذلك مصنعا فخما وأثرا على أيام الدولة خالدا ثم بنى بعد ذلك الصرح العالي بفناء داره ويعرف بقية اسارك باللسان المصمودى هو القورا الفسيحة وهذا الصرح هو ايوان مرتفع السماء متباعد الاقطار متسع الارحاء يشرع منه إلى الغرب وجانبه ثلاثة أبو اب لكل باب منها مصراعان من الخشب مؤنق الصنعة ينوء كل مصراع منها في فتحه وغلقه بالعصبة أولى القوة ويفضى بابها الاعظم المقابل لسمت الغرب إلى معارج قد نصبت للظهور عليها عريضة ما بين الجوف إلى القبلة بعرض الايوان يناهز عددها الخمسين أو نحوها ويفضى البابين عن جانبه إلى طريقين تنتهيان إلى حائط القورا ثم تعطفان إلى ساحة القورا يجلس السلطان فيها على اريكته مقابل الداخل أيام العرض والوفود ومشاهد الاعياد فجاءت من أفخم الاوابين واحفل المصانع التى تشهد بأبهة الملك وجلالة الدولة واتخذ ايضا بخارج حضرته البستان الطائر الذكر المعروف بأبى فهر يشتمل على جنات معروشات وغير معروشات اغترس فيها من شجره كل فاكهة من أغصان التين والزيتون والرمان والنخيل والاعناب وسائر الفواكه وأصناف الشجر ونضد كل صنف منها في دوحة حتى لقد اغترس من السرو والطلح والشجر البرى وسمى دوح هذه بالشعراء واتخذ وسطها البساتين والرياضات بالمصانع والجرار وشجر النور والنزهة من الليم والنارنج والسدر والريحان وشجر الياسمين والخيرى والنيلوفر وأمثاله وجعل وسط هذه الرياض روضا فسيح الساحة وضع فيه للماء حاجزا من اعواد الحور جلب إليه الماء في القناة القديمة كانت ما بين عيون زغوان وقرطاجنة تسلك بطن الارض في أماكن وتركب البناء العالي ذالها كل الهائلة والفسى القائمة على الارجل الضخمة في أخرى فعطف هذه القناة من أقرب الثمرات إلى هذا البستان وامطأها حائطا وصل ما بينهما حتى ينبعث من فوهة عظيمة إلى جب عميق المهوى رصيف البناء متباعد الاقطار مربع الفناء مجلل بالكلس إلى أن يعمه الماء فيرسله في قناة أخرى قريبة الغاية فينبعث في الصهريج إلى أن يعبق حوضه وتضطرب أمواجه ويترفه الحظايا عن السعي بشاطئه لبعده مداه فيركب في الجوارى المنشآت فيبارى بهن لما استقل

[٢٨٣]

ابن جميل زيان بن أبى الحمالات مدافع بن أبى الحجاج بن سعد بن مردنيش بملك بلنسية وغلب عليها السيد أبو زيد وأبو حفص وذلك عند خمود ريج عبد المؤمن بالاندلس وخروج ابن هود وثورة ابن الاحمر بأرجونة واضطراب الاندلس بالفتنة وأسف الطاغية إلى ثغور الاندلس من كل جانب وزحف ملك أرغون إلى بلنسية فحاصرها

وكانت للعدو سنة ثلاث وثلاثين سيع محلات لحصار المسلمين اثنا
منها على بلنسية وجزيرة شقر وشاطبية ومحلة بجان ومحلة
بلطسيرة ومحلة بمرسية ومحلة بليلة وأهل جنوة من وراء ذلك على
سبته ثم تملك طاغية قشتا له مدينة قرطبة وظهر طاغية ارغون
بكتير من حصون بلنسية والجزيرة وبنى حصن أنيسة لحصار بلنسية
وأنزل بها عسكره وانصرف فاعتزم زيان ابن مردنيش على غزو من
بقى بها من عسكره وانتفر أهل شاطبية وشمير وزحف إليهم
فانكشف المسلمون وأصيب أكثرهم واستشهد أبو الربيع بن سالم
شيخ المحدثين بالاندلس وكان يوما عظيما وعنوانا على أخذ بلنسية
ثم ترددت عليها سرايا العدو ثم زحف إليها طاغية ارغون في رمضان
سنة خمس وثلاثين فحاصرها واستبلغ في نكايتها وكان عبد المؤمن
بمراكش قد فشل ربحهم وظهر أمر بنى أبى حفص بافريقية فأمل
ابن مردنيش وأهل شرق الاندلس الامير أبا زكريا للكفرة وبعثوا إليه
بيعتهم وأوفد عليه ابن مردنيش كاتبه الفقيه أبا عبد الله بن الابر
صريخا فوفد وأدى بيعتهم في يوم مشهود بالحضرة وأنشد في ذلك
المحفل قصيدته على روى السنين يستصرخه فيها للمسلمين وهى
هذه أدرك بخيلك خيل الله أندلسا * ان الشهيد إلى منحاتها درسا
وهب لنا من عزيز النصر ما التمسست * فلم يزل منك عز النصر
ملتتمسا وحاش ممن تعانیه حشاشتها * فطال ما ذاقت البلوى صباح
ما يا للجزيرة أضحى أهلها جزرا * للنائبات وأمسى جدها تسعا في
كل شارقة امام بائقة * يعود مأتها عند العدا عرسا وكل غاربة
اجحاف نائبة * تننى الامان حذارا والسرور أسا تقاسم الروم لا نالت
مقاسمهم * ولا عقائلهم المحجوبة الانسا وفى بلنسية منها
وقرطبة * ما يذهب النفس أو ما ينزف النفسا مدائن حلها الاشراك
مبتسما * جولان وارتحل الاسلام منبئسا وصيرتها العوادى الحاديات
بها * يستوحش الصرف منها ضعف ما أنسا يا للمسا جدعات للعدا
بيعا * وللنداء يري انباؤها جرسا لهفا عليها إلى استرجاع فائتها *
مدارسا للمثاني أصبحت درسا

[٢٨٤]

وأربعا نهلت أيدى الربيع بها * ما شئت من خلع موشية وكسا كانت
مدائن للاحداق موقنة * فسرح النظر من أدواجها وعسى وحال ما
حولها من منظر عجب * يستوقف الركب أو يستركب الجلوسا
سرغانما عاد جيش الكفر محتربا * بعث الربا في مغانيها الذى كبسا
وابتز بزتها تخيف حائف الاسد * - د الضاريات بها لكل ما افترسا فأين
عيش جنيناه بها سمرا * وأين غصن جنيناه بها سلسا محا
محاسنها طاغ أتيح لها * ما نام عن هضمها حيننا ولا نعسا وريح
ارجائها لما أحاط بها * فغادر الشم من أعلامها خنسا خلا له الجو
فامتدت يدها إلى * ادراك ما لم تمل رجلاه مختلسا وأكثر الزعم
بالتثليث منفردا * ولو رأى زائد التوحيد ما نيسا صل حبلها أيها
المولى الرحيل فما * ابقى المراسى لها حبلا ولا مرسا وأحى ما
طمست منها العداة كما * أحيت من دعوة المهدي ما طمسا أيام
صرت لنصر الحق مستبقا * وبت من نور ذلك الهدى مقتبسا وقت
فيها لامر الله منتصرا * كالصارم اهتز أو كالعارض انجسا تمحو الذى
كتب التجسيم من ظلم * والصبح ماحية أتواره الغلسا هذى رسائلها
تدعوك من كتب * وأنت أفضل مرجو لمن يئسا وافتك جارية بالنجح
راجية * منك الامير الرضا والسيد الرئسا خاضت خضارة يعلوها
ويخفضها * عبا به فتعاني اللين والشرسا وربما سمحت والريح
عاتية * كما طلبت بأقصى شدة الفرسا تؤم يحيى بن عبد الواحد بن
أبى * حفص مقبلة من تربه القدسا ملك تقلدت الاملاك طاعته *
دينا ودينا فغشاها الرضا يئسا من كل غاد على يمانه ملتثما * وكل
صاد إلى نعماه ملتتمسا مؤيد نورها نجما لائته * ولو دعا أبقا ولى
وما احتبسا امارة تحمل الافدار رايتها * ودولة عزها يستعصب
القعسا يبدى النهار بها من ضوءه شنيا * و يطلع الليل من ظلمائه

لعسا كأنه البدر والعلياء هالته * تحف من حوله شهب القنا حرسا له
الثرا والثريا خطتان فلا * أعز من خطيته ماسما ورسا يا أيها الملك
المنصور أنت لها * عليا توسع اعداء الهدى تعسا وقد تواترت الانبياء
انك من * يحيى تقبل ملوك الصغر أندلسا

[٢٨٥]

طهر بلادك منهم انهم نجس * ولا طهارة ما لم تغسل النجسا
وأوطئ الفيلق الجزار أرضهم * حتى يطاطئ رأسا كل من رأسا
وانصر عبيدا باقصى شرقها شرق * عيونهم أدمعا تهمل زكا وخسا
هم شيعة الامر وهى الدار قد نهكت * داء متى لم تباشر جسمه
انتكسا املا هنيئا لك التمكين ساحتها * جردا سلاهب أو خطية
دعسا واضرب لها موعدا للفتح نرقبه * لعل يوم الاعادي قد أتى
وعسى فأجاب الامير أبو زكريا داعيتهم وبعث إليهم اسطوله مشحونا
بمدد الطعام والأسلحة والمال مع أبى يحيى بن يحيى بن الشهيد
بن اسحق بن أبى حفص وكانت قيمة ذلك مائة ألف دينار وجاءهم
الاسطول بالمدد وهم في هوة الحصار فنزل بمرسى دانية واستفرغ
المدد بها ورجع بالناض إذ لم يخلص إليه من قبل ابن مردنيش من
يتسلمه واشتد الحصار على أهل بلنسية وعمدت الافوات وكثر
الهلاك من الجوع فوقعت المراودة على تسليم البلد فتسلمها جانبه
ملك ارغون في صفر سنة ست وثلاثين وخرج عنها ابن مردنيش إلى
جزيرة شقر فأخذ البيعة على أهلها للامير أبى زكريا ورجع ابن الابار
إلى تونس فنزل على السلطان وصار في جملة وألح العدو على
حصار ابن مردنيش بجزيرة شقر وأزعجه عنها إلى دانية فدخلها في
رجب من سنته وأخذ عليهم البيعة للامير أبى زكريا ثم داخل أهل
مرسية وقد كان بويج بها أبو بكر عزيز بن عبد الملك بن خطاب في
مفتتح السنة فافتحمها عليه في رمضان من سنته فقتله وبعث
بيعتهم إلى الامير أبى زكريا وانتظمت البلاد الشرقية في طاعته
وانقلب وفد ابن مردنيش إليه من تونس بولايته على عمله سنة
سبع وثلاثين ولم يزل بها إلى أن غلبه ابن هود على مرسية وخرج
عنها إلى لمنت الحصون سنة ثمان وثلاثين إلى أن أخذها طاغية
برشلونة من يده سنة أربع وأربعين وأجاز إلى تونس والبقاء لله وحده
* (الخبر عن الجوهرى وأوليته ومال أمره) * اسم هذا الرجل محمد
بن محمد الجوهرى وكان مشتهرا بخدمة ابن اكمازير الهنتانى والى
سبته وعمارة من اعمال الغرب وكان حسن الضبط متراميا إلى
الرياسة ولما ورد على تونس وتعلق باعتماد السلطان نظر فيما
يزلفه ويرفع من شأنه فوجد جباية أهل الخيام بافريقية من البرابرة
الموطنين من الاعراب غير منضبطة ولا محصية في ديوان فنبسه
على انها مأكلة للعمال ونهبة للولاة فدفع إليها فأنهى جبايتها وصارت
عملا منفردا يسمى عمل العمود وصار له بذلك بين العمال ذكر جذب
له السلطان أبو زكريا بضعه وعول على نصيحته وأثره باختصاصه
ووافق ذلك موت أبى الربيع الكنفيسى المعروف بابن

[٢٨٦]

الفرقيير صاحب الاشغال بالحضرة فاستعمل مكانه وكان لا يلى تلك
الخطة الا كبير من مشيخة الموحدين فرشحه السلطان لها لكفايته
وعنائه فظفر منها بحاجة نفسه واعتدها ذريعة إلى امنيته فاتخذ
شارة أرباب السيوف وارتبط الخيل واتخذ الآلة في حروبه مع أهل
البادية إذا احتاج إليها واسف اثناء ذلك أبا على بن النعمان وأبا عبيد
الله ابن الحسين بعدم الخضوع لهما فنصبا له وأغريا به السلطان
وحذراه غائلة عصيانه وكان فيه اقدام أوجد به السبيل على نفسه
ويحكى أن السلطان استشاره ذات يوم في تقديم بعض أهل الخلاف

والعصيان فقال له عندي ببابك آلاف من الجنود ارم بها من تشاء من امثالهم فأعرض عنه السلطان واعتدها عليه ووجد لها مصداقا لما نعى عنه ولما قدم عنه عبد الحق بن يوسف بن ياسين على الاشغال ببجاية مع زكريا ابن السلطان أظهر له الجوهرى ان ذلك له بسعايته وعهد إليه بالوقوف عند أمره والعمل بكتابه فألقى عبد الحق ذلك إلى الامير زكريا فقام لها وقعد وأنف من استبداد الجوهرى عليه ولم تزل هذه وأمثالها تعد عليه حتى حق عليه القول فسطا به الامير أبو زكريا وتقبض عليه سنة تسع وثمانين ووكّل امتحانه إلى اعدائه ابن لمان والندومي فتجلد على العذاب وأصبح في بعض أيامه ميتا في محبسه ويقال خنق نفسه وألقى شلوه بقارعة الطريق فتفنن على أهل الشمامسة في العبث به وإلى الله المصير كان الامير أبو زكريا منذ استقل بأمر افريقية واقتطعها من بنى عبد المؤمن كما ذكرنا متطاولا إلى ملك الحضرة بمراكش والاستيلاء على كرسى الدعوة وكان يرى أن بمظاهرة زناتة له في شأنه يتم له ما يسمو إليه من ذلك فكان يداخل امراء زناتة فيه ويرغبهم ويراسلهم بذلك على الاحياء من بنى مرين وبنى عبد الواد وتوجين ومغراوة وكان يغمراسن منذ تقلد طاعة آل عبد المؤمن أقام دعوتهم بعمله متحيزا إليهم سلما لوليهم وحربا على عدوهم وكان الرشيد منهم قد ضاعف له البر والخلوص وخطب منه مزيد الولاية والمصافاة وعاوده الاتحاف بأنواع اللطاف والهدايا تيمما لمسراته وميلا إليه من جانب أمثاله بنى مرين المجليين على المغرب والدولة فاستنكر السلطان أبو زكريا اتصال الرشيد هذا بغمراسن وألزمهم من جواره بالمحل القريب وبينما هو على ذلك إذ وفد إليه عبد القوى أمير بنى توجين وبعض وفد بنى منديل بن عبد الرحمن امراء مغراوة صريخا على يغمراسن فسهلوا له أمره وسولوا له الاستبداد على تلمسان وجمع كلمة زناتة واعتداد ذلك ركابا لما يرومه من امتطاء ملك الموحدين بمراكش وانتظامه في أمره وسلما لارتقاء ما سموا إليه من ملكه وبابا لولوج المغرب على أصله فحركه املاؤهم وهزه إلى النفرة صريخهم وأهب الموحدين وسائر الاولياء والعساكر إلى الحركة على تلمسان واستنفر

[٢٨٧]

لذلك سائر البدو من الاعراب الذين في طاعته من بنى سليم ورياح بطعنهم فاهبطوا الحامية ونهض سنة تسع وثلاثين في عسكر ضخم وجيوش وافرة وسرح امام حركته عبد القوى بن العباس وأولاد منديل بن محمد لحشد من وافى بأوطانهم وذويان قبائلهم وأحياء زغبة أحلافهم والعرب وضرب لهم موعدا لموافاتهم في تخوم بلادهم ولما نزل صحراء زامر قبلة تيطخ منتهى مجالات رياح وبنى سليم بالمغرب تتافل العرب عن الرحلة بطعنهم في ركاب السلطان وتلوا بالمعاذير فالطف الامير أبو زكريا الحيلة في استنهاضهم وتنبية عزائمهم وارتحلوا معه حتى نازل تلمسان بجميع عساكر الموحدين بساحة البلد وبرز يغمراسن وجموعه للقاء بصحبتهم ناشبة السلطان بالنبل فانكشفوا ولاذوا بالجدران وعجزوا عن حماية الاسوار فاستمكنت المقاتلة من الصعود ورأى يغمراسن ان قد أحيط بالبلد فقصد باب العقبة من أبو اب تلمسان ملتفا في ذويه وخاصته واعترضته عساكر الموحدين فصمم نحوهم وجدل بعض أبطالهم فأفروا له ولحق بالصحراء وتسللت الجيوش إلى البلد من كل حرف فاقتحموه وعاثوا فيه بقتل النساء والصبيان واكتساح الاموال ولما تجلى غشى تلك الهبة وحسر مثار الصدمة وخمدت نار الحرب راجع الموحدون بصائرهم وامعن الامير أبو زكريا نظره فيمن يقلده أمر تلمسان والمغرب الاوسط وينزله بثغرها لاقامة دعوة الدائلة من دعوة بنى عبد المؤمن والمدافعة عنها واستكبر ذلك أشرافهم وتدافعوه وتشرد له امراء زناتة ضعفا عن مقاومة يغمراسن وعلموا بأنه الفحل الذى لا يقرع انفه ولا يطرق غيله ولا يصد عن فريسته وسرح يغمراسن

الغارة في نواحي المعسكر واختطفوا الناس من حوله واطلعوا من المراقب عليه ثم بعث وفده متطار حين على السلطان في الملائمة والاتفاق وإتصال اليد على صاحب مراكيش طالبا الوتر في تلمسان وإفريقية وأن يفرده بالدعوة المحمدية فأجابه إلى ذلك ووفدت أمه سوط النساء للاشتراط والقبول فأكرم موصلها وإسنى جائزتها وأحسن وفادتها ومنقلبها وسوغ ليغمراسن في شرطه بعض الاعمال بإفريقية وأطلق أيدي عماله على جبايته وارتحل إلى حضرته لسبع عشرة ليلة من نزوله وفي اثناء طريقه وسوس إليه الموحدون باشتداد يغمراسن عليه وأشاروا بإقامة منافسيه من زناتة وامراء المغرب الاوسط شجا في صدره ومعترضا عن مرامه والبسهم ما ليس من شارة السلطان وزيه فأجابهم وقلد كلا من عبد القوى ابن عطية التوجيني والعباس بن منديل المغراوي ومنصور الملكيشى أمر قومه ووطنه وعهد إليهم في ذلك وأذن لهم في اتخاذ الآلة والمراسم السلطانية على سنن يغمراسن قريتهم فاتخذوها بحضرته وبمشهد ملا من الموحدين وأقاموا مراسمها ببابه

[٢٨٨]

واتخذ السير إلى تونس قرير العين بامتداد ملكه وبلوغ وطره والاشراف على اذعان المغرب لطاعته وانقياده لحكمه وإدالة دعوة بنى عبد المؤمن فيه بدعوته فدخل الحضرة واقتعد أريكته وأنشده الشعراء بالفتح وأسنى جوائزهم وتناولت إليه أعناق الأفاق كما نذكره والله أعلم { الخبر عن دخول أهل الاندلس في الدعوة الحفصية ووصول بيعة اشبيلية وكثير من امصارها } كان باشبيلية أبو مروان أحمد الباجى من أعقاب أبى الوليد وأبو عمرو بن الجد من أعقاب الحافظ أبى بكر الطائر الذكر ورثوا التجلة عن جدهم وأجراهم الخلفاء على سننهم وكانا مسمتين متبوعين من أهل بلدهما ومطاعين وجاء أبو القاسم في جملة الامير زكريا وأوصى به ابنه إلى ان حدثته نفسه بالتوثب والخروج وخامره الرعب من اشاعة تناقلها الدهماء سببها أن السلطان استحدث احدث الفلوس من التحاس مقدرة على سكتته من الفضة حاكى بها سكة الفلوس بالمشرق تسهيلا على الناس في المعاملات بأسواقهم وتيسير الاقتضاء حاجاتهم ولما كان لحق سكة الفضة من غش اليهود المتناولين لصفها ووصوغها وسمى سكتته التى استحدثها بالحدوس ثم أفسدها الناس بالتدليس وضربها أهل الرتب ناقصة من الوزن وفشا فيها الفساد واشتد السلطان في العقوبة عليها فقطع وقتل وصارت ريبة لمن تناولها وأعلن الناس بالنكير في شأنها وتنادوا بالسلطان في قطعها وكثر الخوض في ذلك وتوقعت الفتنة وأشيع من طريق الحدثان الذى تكلف به العامة ان الخارج الذى يثير الفتنة هو قاسم بن أبى زيد فأزال السلطان تلك السكة وعفا عنها وهمه شأن أبى القاسم ابن عمه وبلغه الخبر فخامره الرعب إلى ما كان يحدث نفسه بالخروج ففر من الحضرة سنة احدى وستين ولحق برياح ونزل على أميرهم شبل بن موسى بن محمد رئيس الزواودة فتابع له زمام أمره ثم بلغه اعتزام السلطان على النهوض إليه فخشى بادرته واضطرب أمر العرب من قبيله ولما أحس أبو القاسم باضطرابهم وخشى أن يسلموه إذا أرادهم السلطان عليها تحول عنها ولحق بتلمسان وأجاز البحر منها إلى الاندلس وصحب الامير أبا اسحق ابن عمه في مثنوى اعتزامهما بالاندلس ثم ساءت أفعاله وعظم استنثاره وفشا النكر عليه من الدولة فلحق بالمغرب وأقام بتينملل مدة ثم رجع إلى تلمسان وبهامات وقام الامير أبو اسحق بمكانه من جوار ابن الاحمر إلى ان كان من امره ما نذكره ان شاء الله تعالى * (الخبر عن خروج السلطان إلى المسيلة) * لما اتصل بالسلطان شأن قاسم ابن عمه أبى زيد وفصاله من رياح إلى المغرب بعد عقدهم

بيعته واجلابهم على البلاد معه خرج من تونس سنة أربع وستين في عساكر الموحدين وطبقات الجنود لتمهيد الوطن ومحو آثار الفساد منه وتقديم العرب على الطاغية وتنقل في الجهات إلى ان وصل بلاد رياح فدوخها ومهد ارجاءها وفر شبل بن موسى وقومه الزواودة إلى القفر واحتل السلطان بالمسيلة آخر وطن رياح ووافاه هنا لك محمد ابن عبد القوى أمير بنى توجين من زناتة فجدد الطاعة متبركا بزيارته فتلقيه بالبر تلقى امثاله وأثقل كاهله بالجهاز والجوائز وجنب له الجياد والمقريات بالمراكب المثقلة بالذهب واللجوم المحملات وضرب الفساطيط الفسيحة الارحاء من ثياب الكتان وجيد القطن إلى ما يتبع ذلك من المال والظهر والكراع والاسلحة وأقطع له مدينة مقره وبلدا وماش من عمل الزاب وانقلب إلى وطنه ورجع السلطان إلى تونس وفي نفسه من رياح ضغن إلى أن صرف إليهم وجه تدبيره كما نذكره ولثانية احتلاله في الحضرة كان مهلك مولاه هلال ويعرف بالقائد وكان له في الدولة مكان بمكان تلال للسلطان وكان شجاعا جوادا خيرا محببا سهلا مقبلا على أهل العلم وذوى الحاجات وله في سبيل الخير آثار منقولة طار له بها ذكر فارتضى السلطان لمهلكه والله أعلم كان شبل بن موسى وقومه من الزواودة فعلوا الافاعيل في اضطراب الطاغية ونصب من لحق بهم من أهل هذا البيت للملك فتابعوا أولا للامير أبي اسحق كما ذكرناه ثم بعده لابي القاسم ابن عمه أبي زيد وخرج إليهم السلطان سنة أربع وستين ودوخ أوطانهم ولحقوا بالصحراء ودافعوه على البعد بطاعة ممرضة فتقبلها وطوى لهم على البيت ورجع إلى تونس فأوعز إلى أبي هلال عباد عامل بجاية من مشيخة الموحدين باصطناعهم واستئلافهم لتكون وفادتهم عليه من غير عهد وجمع السلطان احلافه من كعوب بنى سليم وذياب أفاريق بنى هلال وخرج من تونس سنة ستين في عساكر الموحدين وطبقات الجند ووافاه بنو عساكر ابن السلطان اخوة بنى مسعود ابن السلطان من الزواودة فعقد لمهد بن عساكر عن امارة قومه وغيرهم من رياح وفر بنو مسعود ابن السلطان مصحرين والسلطان في اثرهم حتى نزل نقاوس وعسكروا بثايا الزاب ورسلمم تختلف إلى أبي هلال ايناسا للمراجعة على يده للدخلة في الساحة فأشار عليهم بالوفادة على السلطان وفاء بقصده من ذلك فتقبلوا اشارته ووفد أميرهم شبل بن موسى بن محمد بن مسعود وأخوه فتقبض عليهم لحينهم وعلى دريد ابن تازير من شيوخ كرفة وانتهت اسلابهم وضربت اعناقهم ونصبت اسلاؤهم بزوايا من جهات نقاوس حيث كانت بيعتهم لابي القاسم بن أبي زيد ويعث برؤوسهم إلى بسكرة فنصبها بها وأخذ السير غازيا إلى أحيائهم وأحلهم بمكانها من ثايا الزاب

وصحبهم هنا لك فأجفلوا وتركوا الظهر والكراع والابنية فامتلات أيدي وسدريكش منها ونجوا بالعيال والولد على الاقتاب والعساكر في اتباعهم إلى ان أجازوا وادى شدى قبلة الزاب وهو الوادي الذي يخرج أصله من جبل راشد قبلة المغرب الأوسط ويمر إلى ناحية الشرق مجتازا بالزاب إلى أن يصب في سيخة نفاوة من بلاد الجريد فلما جاز فلهم الوادي أصحروا إلى المفازة المعطشة والارض الحرة السوداء المستحجرة المسماة بالحماة فرجعت العساكر عنهم وانقلب السلطان من غزاته ظافرا ظاهرا وانشده الشعراء في التهئة ولحق فل الزواودة بملوك زناتة فنزل بنو يحيى بن دريد على يغمراسن بن زيان وبنو محمد بن مسعود على يعقوب بن عبد الحق فأجازوهم وأوسعوهم حياء وملؤا ايديهم بالصلوات ومرابطهم بالخيل واحياءهم بالابل ورجعوا إلى مواطنهم فتغلوا على واركلة وقصور ريغة واقتطعوها من ايالة السلطان ثم انصرفوا إلى الزاب فجمع لهم

عامله ابن عتو وكان موطناً بمقرة ولقيهم على حدود ارض الزاب فهزموه واتبعوه إلى بطاوة فقتلوه عندها واستطالوا على الزاب وحبل أوراس وبلاد الحصنة إلى ان إقتطعتهم الدول اياها من بعد ذلك فصارت ملكاً لهم والله تعالى أعلم * (الخبر عن طاغية الافرنجة ومنازلته تونس في أهل نصرانيته) * هذه الامة المعروفة بالافرنجة وتسميها العامة بالافرانسييس نسبة إلى بلد من أمهات أعمالهم تسمى افرانسة ونسبهم إلى بافت بن نوح وهم بالعدوة الشمالية من عدوتى هذا البحر الرومي الغربي ما بين جزيرة الاندلس وخليج القسنطينة مجاورون الروم من جانب الشرق والجلالقة من جانب الغرب وكانوا قد أخذوا بدين النصرانية مع الروم ومنهم لقنوا دينها واستفحل ملكهم عند تراجع ملك الروم وأجازوا البحر إلى افريقية مع الروم فملكوها ونزلوا امصارها العظيمة مثل سيبتلة وجلولا وقرطاجنة ومرناق وباغاية ولمس وغيرها من الامصار وغلبوا على من كان بها من البربر حتى اتبعوهم في دينهم وأعطوهم طاعة الانقياد ثم جاء الاسلام وكان الفتح بانتزاع الاعراب من أيديهم سائر امصار افريقية والعدوة الشرقية والجزر البحرية مثل اقریطش ومالطة وصقلية وميورقة ورجوعهم إلى عدوتهم ثم أجازوا خليج طنجة وغلبوا القوط والجلالقة والبشكنس وملكوا جزيرة الاندلس وخرجوا من ثناياها ودورها إلى بسائط هؤلاء الافرنجة فدوخها وعاثوا فيها ولم تزل الصوائف تتردد إليها صدرا من دولة بنى أمية بالاندلس وكان ولاة افريقية من الاغالية ومن قبلهم أيضا يرددون عساكر المسلمين وأساطيلهم من العدوة حتى غلبوهم على الجزر البحرية ونازلوهم في بسائط عدوتهم فلم تزل في نفوسهم من ذلك ضغائن فكان يخالجه الطمع في ارتجاع ما غلبوا عليه منها وكان الربع أقرب

[٢٩١]

إلى سواحل الشام وطمع فيها فلما وصل أمر الروم بالقسنطينة ورومة واستفحل ملك الفرنجة هؤلاء وكان ذلك على هيئة سمو الخلافة بالمشرق فسموا حينئذ إلى التغلب على معاقل الشام وثغوره وزحفوا إليها وملكوا الكثير منها واستولوا على المسجد الأقصى وبنوا فيه الكنيسة العظيمة بدل المسجد ونازلوا مصر والقاهرة مرارا حتى جاد الله للاسلام من صلاح الدين أبى أيوب الكردي صاحب مصر والشام في أواسط المائة السادسة جنة واقية وعذابا على أهل الكفر مصوبيا قابلي في جهادهم وارتجع ما ملكوه وظهر المسجد الأقصى من افكهم وكفرهم وهلك على حين عمل من الغزو والجهاد ثم عاودوا الكرة ونازعوا مصر في المائة السابعة على عهد الملك الصالح صاحب مصر والشام وأيام الامير أبى زكريا بتونس فضربوا أبنيهم بدمياط وافتتحوها وتغلبوا في قرى مصر وهلك الملك الصالح خلال ذلك وولى ابنه المعظم وأمكنت المسلمين في الغزو فرصة أيام فيض النيل ففتحو الغياض وأزالوا مدد الماء فأحاط بمعسكرهم وهلك منهم عالم وقيد سلطانهم أسيرا من المعركة إلى السلطان فاعتقله بالاسكندرية حتى مر عليه بعد حين من الدهر وأطلقه على أن يمكنوا المسلمين من دمياط فوفوا له ثم على شرط المسالمة فيما بعد فنقضه لمدة قريبة واعتزم على الحركة إلى تونس متجنبا عليهم فيما زعموا بمال ادعاء تجار أرضهم وأنهم أقرضوا الليانى فلما نكبه السلطان طالبوه بذلك المال وهو نحو ثلثمائة دينار بغير موجب يستندون إليه فغضبوا لذلك واشتدوا إلى طاغيتهم فامتعض لهم ورغبوه في غزو تونس لما كان فيها من المجاعة والموتان فأرسل الفرنسييس طاغية الافرنج واسمه سنلويس بن يونس وتلقب بلغة الافرنج ريد افرنس ومعناه ملك افرنس فأرسل إلى ملوك النصارى يستنفرهم إلى غزوها وأرسل إلى القائد خليفة المسيح بزعمهم فأوعز إلى ملوك النصرانية بمظاهرتة وأطلق يده في أموال الكنائس مددا له وشاع خبر استعداد النصارى للغزو في سائر بلادهم وكان الذين أجابوه للغزو ببلاد

المسلمين من ملوك النصرانية ملك الانكشار وملك اسكوسنا وملك نزول وملك برشلونة واسمه ريدراكون وجماعة آخرون من ملوك الافرنج هكذا ذكر ابن الاثير وأهم المسلمين بكل نغر شأنهم وأمر السلطان في سائر عمالاته بالاستكثار من العدة وأرسل في الثغور لذلك باصلاح الاسوار واختزان الحبوب وانقيض تجار النصارى عن تعاهد بلاد المسلمين وأوفد السلطان رسله إلى الفرنسيين لاختبار حاله ومشارطته على ما يكف عزمه وحملوا ثمانين ألفا من الذهب لاستتمام شروطهم فيما زعموا فأخذ المال من أيديهم وأخبرهم أن غزوه إلى ارضهم فلما طلبوا المال اعتل عليهم بأنه لم يباشر قبضه ووافق شأنهم معه وصول رسول عن صاحب مصر فأحضر عند الفرنسيين واستجلس فأبى

[٢٩٢]

وأنشده قائلا من قول أبى مطروح شاعر السلطان بمصر قل للفرنسيين إذا جئته * مقال صدق من وزير نصيح أجرك الله على ما جرى * من قتل عباد نصارى المسيح أتيت مصرا تبتغى ملكها * تحسب ان الزمر بالطبل ربح فساقك الحين إلى أدهم * ضاق به عن ناظريك الفسيح وكل أصحابك أودعتهم * بسوء تدبيرك بطن الضريح سبعون ألفا لا يرى منهم * الا قتيل أو أسير جريح ألهمك الله إلى مثلها * لعل عيسى منكم يستريح ان كان باباكم بذا راضيا * فرب غش قد أتى من نصيح فاتخذوه كاهنا انه * أنضح من شق لكم أو سطيح وقل لهم ان أزمعوا عودة * لاخذ ثار أو لشغل قبيح دار ابن لقمان على حالها * والقيد باق والطواشي صيح يعنى بدار ابن لقمان موضع اعتقاله بالاسكندرية والطواشي في عرف أهل مصر هو الخصى فلما استكمل انشاده لم يزد ذلك الطاغية الا اعتوا واستكبارا واعتذر عن نقض العهد في غزو تونس بما يسمع عنهم من المخالفات عذرا دافعهم به وصرف الرسل من سائر الآفاق ليومه فوصل رسل السلطان منذرين بشأنهم وجمع الطاغية حشده وركب أساطيله إلى تونس آخر ذى القعدة سنة ثمان وستين فاجتمعوا بسردانية وقيل بصقلية ثم واعدهم بمرسى تونس وأقلعوا ونادى السلطان في الناس بالندير بالعدو والاستعداد له والنفير إلى أقرب المدائن وبعث الشوانى لاستطلاع الخبر واستفهم أياما ثم تواتت الاساطيل بمرسى قرطاجنة وفاوض السلطان مع أهل الشورى من الاندلس والموحدين في تخليتهم وشأنهم من النزول بالساحل أو صدهم عنه فأشار بعضهم بصددهم حتى تنفذ ذخيرتهم من الزاد والماء فيضطرون إلى الاقلاع وقال آخرون إذا أقلعوا من مرسى الحضرة ذات الحامية والعدد صبحوا بعض الثغور سواها فملكوه واستباحوه واستصعبت مغالبتهم عليه فوافق السلطان على هذا وخلوا وشأنهم من النزول فنزلوا بساحل قرطاجنة بعد ان ملئت سواحل رودس بالمرابطة بجند الاندلس والمطوعة زهاء أربعة آلاف فارس لنظر محمد بن الحسين رئيس الدولة ولما نزل النصارى بالساحل وكانوا زهاء ستة آلاف فارس وثلاثين ألفا من الرجالة فيما حدثنى أبى عن أبيه رحمهما الله قال وكان أساطيلهم ثلاثمائة بين كبار وصغار وكانوا سبعة يعاسب كان فيهم الفرنسيين واخوة جرون صاحب صقلية وصاحب الجزر والعلجة زوج

[٢٩٣]

الطاغية تسمى الرينة وصاحب البر الكبير وتسميهم العامة من أهل الاخبار ملوكا ويعنون انهم متباينون ظاهروا على غزو تونس وليس كذلك وانما كان واحدا وهو طاغية الفرنجة واخوته وبطارفته عد كل واحد منهم ملكا لفضل قوته وشدة بأسه فأنزلوا عساكرهم في

المدينة القديمة من قرطاجنة وكانت مائلة الجدران اضطرم المعسكر بداخلها ووصلوا ما فصله الخراب من أسوارها بألواح الخشب ونضدوا شرفاتها وأداروا على السور خندقا بعيد المهوى وتحصنوا وندم السلطان على اضاءة الحزم في تخريبها أو دفاعهم عن نزلها وأقام ملك الفرنجة وقومه متمرسين بتونس ستة أشهر والمدد ياتيه في أساطيله من البحر من صقلية والعدوة بالرجل والاسلحة والاقوات وسلك بعض المسلمين طريقا في البحيرة واتبعه العرب فأصابوا غرة في العدو فظفروا وغنموا وشعروا بمكانهم فكلفوا بحراسة البحيرة وبعثوا فيها الشوانى بالرماة ومنعوا الطريق إليهم وبعث السلطان في ممالكه حاشدا فوافته الامداد من كل ناحية ووصل أبو هلال صاحب بجاية وجاءت جموع العرب وسد ويكش وولهاصة وهوارة حتى أمده ملوك المغرب من زناتة وسرح إليه محمد بن عبد القوي عسكر بنى توجين لنظر ابنه زيان وأخرج السلطان ابنيته وعقد لسبعة من الموحديين على سائر الجند من المرتزقة والمطوعة وهم اسمعيل بن أبي كلداسن وعيسى بن داود ويحيى بن أبي بكر ويحيى بن صالح وأبو هلال عياد صاحب بجاية ومحمد بن عيو وأمرهم كلهم راجع ليحيى بن صالح ويحيى ابن أبي بكر منهم واجتمع من المسلمين عدد لا يحصى وخرج الصلحاء والفقهاء والمرابطون لمباشرة الجهاد بأنفسهم والتزم السلطان القعود بايوانه مع بطانته وأهل اختصاصه وهم الشيخ أبو سعيد المعروف بالعود وابن أبي الحسين وقاضيه أبو القاسم بن البراء وأخو العيش واتصلت الحرب والتقوا في منتصف محرم سنة تسع بالمنصف فزحف يومئذ يحيى بن صالح وجرون فمات من الفريقين خلق وهجموا على المعسكر بعد العشاء وتدامر المسلمون عنده ثم غلبوا عليه بعد ان قتل من النصارى زهاء خمسمائة فأصبحت ابنيته مضروبة كما كانت وأمر بالخندق على المعسكر فتعاورته الايدي واحترف فيه الشيخ أبو سعيد بنفسه وابتلى المسلمون بتونس ووطنوا الظنون واتهم السلطان بالتحول عن تونس إلى القيروان ثم ان الله أهلك عدوهم وأصبح ملك الفرنجة ميتا يقال حتف أنفه ويقال أصابه سهم غرب في بعض المواقف فأبته ويقال أصابه مرض الوباء ويقال وهو بعيد ان السلطان بعث إليه مع ابن جرام الدلاصى بسيف مسموم وكان فيه مهلكه ولما هلك اجتمع النصارى على ابنه دمياط سمي بذلك لميلاده بها فبايعوه واعتزموا على الاقلاع وكان أمرهم راجعا إلى العليجة فراسلت المستنصر أن يبذل لها ما خسروه

[٢٩٤]

في مؤنة حركتهم وترجع بقومها فاسعفها السلطان لما كان العرب اعتزموا على الانصراف إلى مشاتيهم وبعث مشيخة الفقهاء لعقد الصلح في ربيع الاول سنة تسع وستين فتولى عقده وكتابه القاضى ابن زيتون لخمسة عشر عاما وحضر أبو الحسن على بن عمرو وأحمد بن الغماز وزيان بن محمد بن عبد القوي أمير بنى توجين واختص جرون صاحب صقلية بسلم عقده على جزيرته وأقلع النصارى باساطيلهم وأصابهم عاصف من الريح أشرفوا منه على العطب وهلك الكثير منهم وأغرم السلطان الرعايا ما أعطى العدو من المال فأعطوه طواعية يقال انه عشرة أحمال من المال وترك النصارى بقرطاجنة تسعين منجنيقا وخاطب السلطان صاحب المغرب وملوك النواحي بالخبر ودفاعه عن المسلمين وما عقده من الصلح وأمر بتخريب قرطاجنة وأن يؤتى بنيانها من القواعد فصير ابنيتها طامسة ورجع الفرنجة إلى دعوتهم فكان آخر عهدهم بالظهور والاستفحال ولم يزلوا في تناقص وضعف إلى أن افترق ملكهم عمالات واستبد صاحب صقلية لنفسه وكذا صاحب نابل وحنوة وسردانية وبقي بيت ملكهم الاقدم لهذا العهد على غاية من الفشل والوهن والله وارث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين أصل هذا الرجل من بنى سعيد رؤسا القلعة المجاورة لغرناطة وكان كثير منهم قد استعملوا أيام

الموحدين بالعدوتين وكان جده أبو الحسن سعيد صاحب الاشغال بالقيروان ونشأ حافده محمد هذا في كفالتة ولما عزل وقفل إلى المغرب هلك ببونة سنة أربع وستمئة ورجع حافده محمد إلى تونس والشيخ أبو محمد بن أبي حفص صاحب افريقية لذلك العهد فاعتلق بخدمة ابنه أبي زيد ولما ولى الامر بعد وفاة أبيه غلب محمد هذا على هواه ثم جاء السيد أبو علي من مراكش وعلى افريقية محمد بن أبي الحسين في جملته إلى أن هلك في حصار هسكورة بمراكش كما قدمناه ورجع ابن أبي الحسين إلى تونس واتصل بالامير أبي زكريا لاول استبداده فغلب على هواه وكان منحتا في صحابة الملوك ولما ولى المستنصر اجراه على سنته برهة ثم تنكر له اثر كائنة اللحياني وعظمت سعاية اعدائه من الباطنية وأشاعوا مداخلته لابي القاسم بن عزومة أبي زيد ابن الشيخ أبي محمد فنكبه السلطان واعتقله بداره تسعة أشهر ثم سرحه واعاده إلى مكانه ونار من اعدائه واستولى على أمور السلطان إلى أن هلك سنة احدى وتسعين وكلف ابن عمه سعيد بن يوسف بن أبي الحسن اشغال الحضرة وكان قد اقتنى مالا جسيما ونال من الحضرة منالا عظيما وكان الرئيس أبو عبد الله متفنا في العلوم مجيدا في اللغة والشعر ينظم فيجيد وينتر فيحسن وله من التأليف كتاب ترتيب المحكم لابن سيده على نسق

[٢٩٥]

الصحاح للجوهري واختصاره وكان في رياسته صليب الرأي قوى الشكيمة على الهمة شديد المراقبة والحزم في الخدمة وله شعر نقل منه التيجاني وغيره ومن أشهره ما نقل له يخاطب عنان بن جابر عن الامير أبي زكريا لما خالف واتبع ابن غانية وهى على روى الرء وكان قبلها أخرى على روى الدال وكان له ولد اسمه سعيد وتوفى في حياة أبيه في المراتب السلطانية ثم اغتبط دون غايته وفى ثالث مهلكه كان مهلك الشيخ أبي سعيد عثمان بن محمد الهنتاتي المعروف بالعود الرطب ويعرف أهل بيته بالمغرب بنى أبي زيد وكان منهم عبد العزيز المعروف بصاحب الاشغال كان فر من المغرب أيام السعيد بجفوة ثالثة ولحق بسجلماسة سنة احدى وأربعين وقد كان انتزى بها عبد الله الهزوحى وباع للامير أبي زكريا فأجازه عبد الله إلى تونس ونزل على الامير أبي زكريا ونظمه في طبقات مشيخة الموحدين وأهل مجلسه ثم حظى عند ابنه المستنصر بعد نكبة بنى النعمان حظوة لا كفاء لها واستولى على الرأي والتدبير إلى أن هلك سنة ثلاث وسبعين فشيخ طيب الذكر ملحقا بالرضوان من الخاصة والعامه والله مالك الامور * (الخبر عن انتقاض أهل الجزائر وفتحها) * كان أهل الجزائر لما رأوا تقلص ظل الدولة عن زبانة وأهل المغرب الاوسط حدثوا أنفسهم بالاستبداد والقيام على أمرهم وخلع ربة الطاعة من أعناقهم فجأهروا بالخلعان وسرح السلطان إليهم العساكر سنة تسع وستين وأوعز إلى صاحب القفر صاحبه وهو أبو هلال عياد بن سعيد الهنتاتي فقدم إليها في عساكر الموحدين سنة احدى وسبعين ونازلها مدة حول وامتنعت عليه فأقلع عنها ورجع إلى بجاية وهلك بمعسكر بنى ورا سنة ثلاث وسبعين ثم ان السلطان صرف عزمه إلى منازلهم سنة أربع وسبعين وسرح إليهم العساكر في البر وأنفذ الاساطيل في البحر وعقل على عسكر تونس لابي الحسن بن ياسين وأوعز إلى عامل بجاية بانفاذ عسكر آخر فانفذه لنظر أبي العباس بن أبي الاعلام ونهضت هذه العساكر برا وبحرا إلى أن نازلتها وأحاطت بها من كل جانب واشتد حصارها ثم افتتحها عنوة وأثنخ فيهم القتل وانتهبت المنازل وافتضح الكرائم في ابكارهن وتقبيض على مشيخة البلد فنقلوا إلى تونس مصفدين واعتقلوا بالقصبة إلى ان سرحهم الواثق بعد مهلك السلطان والله تعالى أعلم كان السلطان بعد فتح الجزائر قد خرج من تونس للصيد وتفقد العمالات فأصابه في سفره مرض

ورجع إلى داره واشتدت علته وكثر الارجاف بموته وخرج يوم الاضحى
سنة خمس وخمسين يتهادى بين رجلين ورجلاه تختان في الارض
وجلس للناس

[٢٩٦]

على منبر منجلدا ثم دخل بيته وهلك ليلته تلك رضوان الله عليه
وكان شأن هذا السلطان في ملوك ال حفص عظيم وشهرته طائرة
الذكر بما انفسح من أمر سلطانه ومدت إليه ثغور القاصية من
العدوتين يد الاعتصام به وما اجتمع بحضرته من اعلام الناس الوافدين
على ابنه وخصوصا الاندلس من شاعر مفلح وكاتب بليغ وعالم
نحرير وملك أورع وشجاع أهيش متفيئين ظل ملكة متناغين في
البادية لطموس معالم الخلافة شرقا وغربا على عهده وخفوق صوت
الملك الا في ابوانه فقد كان الطاغية التهم فواعد الملك بشرق
الاندلس وغربها فأخذت قرطبة سنة ثلاث وثلاثين وبلنسية سنة
ست بعدها واشبيلية سنة ست وأربعين واستولى على بغداد دار
خلافة العرب بالمشرق وحاضرة الاسلام سنة ست وخمسين وانتزع
بنو مرين ملك بنى عبد المؤمن واشتملوا على حضرة مراكش دار
خلافة الموحدين سنة ثمان وستين كل ذلك على عهده وعهد أبيه
ودولتهم أشد ما كانت قوة وأعظم رفاهية وجباية وأوفر قبيلة وعصابة
وأكثر عساكر وجندا فامله أهل العلم للكرة وأجفلوا إلى الامسك
بحقوقه وكان له في الابهة والجلال أخبار وفي الحروب والفتوح آثار
مشهودة وفي أيامه عظمت حضارة تونس وكثر ترف ساكنها وتأنق
الناس في المراكب والملابس والمباني والمعان والآنية
فاستجادوها وتناغوا في اتخاذها وافشائها إلى أن بلغت غايتها ثم
رجعت من بعده ادراجها والله مالك الامور ومصرفها كيف يشاء *
(الخبر عن بيعة الواثق يحيى بن المستنصر وهو المشهور بالمخلوع
وذكر أحواله) * لما هلك السلطان المستنصر سنة خمس وسبعين
كما قدمناه اجتمع الموحدون وسائر الناس على طبقاتهم إلى ابنه
يحيى فبايعوه ليلة مهلك أبيه وفي غدها وتلقب الواثق وافتتح أمره
برفع المظالم وتسريح أهل السجون وإفاضة العطاء في الجند وأهل
الديوان وإصلاح المساجد وإزالة كثير من الوظائف عن الناس وامتدحه
الشعراء فأسنى جوائزهم وأطلق عيسى بن داود من اعتقاله وردّه
إلى حاله وكان المتولي لاخذ البيعة عن الناس والقائم بأمره سعيد
بن يوسف بن أبى الحسين لمكانه من الدولة ورسوخه في الشهرة
فقام بالامر ولم يزل على ذلك إلى أن نكبه وأدال منه بالخير والله
أعلم هذ الرجل اسمه يحيى بن عبد الملك الغافقي وكنيته أبو
الحسن أندلسيا من أعمال مرسية وقد مع الجالية من شرق
الاندلس أيام استيلاء العدو وكان يحسن الكتابة ولم يكن له من
الخلال سواها فصرف في الاعمال ثم ارتقى إلى خدمة أبى الحسن
فاستكتبه ثم رقاها إلى ولاية الديوان فعظمت حالته وكانت له اثناء
ذلك مداخلة للواثق ابن السلطان واعتدها

[٢٩٧]

له سابقة فلما استوثق الامر للواثق رفع منزلته واختصه بالشورى
وقلده كتاب علامته وكان سعيد بن أبى الحسين مزاحما له منافسا
لما كان أسف من تقديمه فأغرى به السلطان ورغبه في ماله
فتقبض على أبى سعيد بن أبى الحسين لسنة أشهر من الدولة
سنة وسبعين واعتقل بالقصبة واستقل على معلة ابن ياسين وابن
صياد الرجالة وغيرهم وقدم على الاشغال مدافعا في الموالي
المعلوجين ووكل أبى زيد بن أبى الاعلام من الموحدين بمصادرة ابن
أبى الحسين على المال وامتحانه ولم يزل يستخرج منه حتى ادعى

الاملاق واستحلف فخلف ثم ضرب فادعى مؤتمنا من ماله عند قوم استكشفوا عنه فأدوه نم دل بعض مواليه على ذخيرة بداره دفيئة فاستخرج منه زهاء ستمائة آلاف من الدنانير فلم يقبل بعدها مقاله وبسط عليه العذاب إلى أن هلك في ذي الحجة من سنته ودفن شلوه بحيث لم يعرف مدفنه واستبد أبو الحسن الخير على الدولة والسلطان وبعث أخاه أبا العلاء واليا على بجاية وأسف المشيخة والبطانة بعثوه واستبداده وما يتجشمونه من مكابرة بابه إلى ان عاد وبال ذلك على الدولة كما نذكره ان شاء الله تعالى * (الخبر عن اجازة السلطان أبي اسحق من الاندلس ودخول أهل بجاية في طاعته) * كان السلطان المستنصر قد عقد على بجاية سنة ستين لابي هلال عياد بن سعيد الهنتاتي وادال به من أخيه الامير أبي حفص فأقام واليا عليها إلى أن هلك بينى ورا سنة ثلاث وسبعين كما قدمنا وعقد عليها من بعده لابنه محمد وكان له غناء في ولايته واضطلاع بأمره إلى أن هلك المستنصر وولى ابنه الواثق فبادر إلى انقياد طاعته وبعث وفد بجاية ببيعتهم ثم قلد أبو الحسن القائم بالدولة أخاه ادريس ولاية الاشغال ببجاية فقام بها وأفنى الاموال وتحكم في المشيخة وأنف محمد بن أبي هلال من استبداده عليه فهم ادريس بنكبته فخشى محمد بن أبي هلال بادرتة وداخل بعض بطانته في قتله وفاوض الملا فيه فعدوا عليه لاول ذي القعدة سنة سبع وسبعين بمقعده من باب السلطان فقتلوه ورموا برأسه إلى الغوغاء والزعانف فبعثوا به ووافق ذلك حلول السلطان أبي اسحق بتلمسان وكان عند بلوغ الخبر إليه بمهلك أخيه المستنصر أجمع أمره على الاجازة لطلب حقه بعدما تردد برهة ثم اعتزم وعاد إلى تلمسان ونزل على يغمراسن بن زيان فقام لمورده واحتفل في ميرته وفعل أهل بجاية وابن أبي هلال فعلتهم وخشوا بوادر السلطان بالحضرة فخاطب السلطان أبا اسحق واتوه ببيعتهم وبعثوا وفدهم يستحثونه للملك فأجابهم ودخل إليها آخر ذي القعدة من سنته فبايعه الموحدون والملا من أهل بجاية وقام بأمره محمد بن هلال ثم زحف في عساكره إلى قسنطينة فنازلها وبها عبد العزيز ابن عيسى بن داود فامتنعت عليه فأقلع عنها إلى ان كان من أمره ما نذكره

[٢٩٨]

لما بلغ الخبر إلى الواثق ووزيره المستبد عليه ابن المبر بدخول السلطان أبي اسحق بجاية شيع العساكر إلى حربه وعقد عليها لعمه أبي حفص واستوزر له أبا زيد بن جامع فخرج من تونس واضطرب معسكره ببجاية وعقد الواثق على قسنطينة لعبد العزيز بن عيسى ابن داود لذمة صهر كانت له من ابن الجيد فتقدم إلى قسنطينة ومانع عنها الامير أبا اسحق كما ذكرناه ثم اضطرب رأى ابن الجيد في خروج الامير أبي حفص وأراد انقباض عسكره فكتب الواثق إلى أبي حفص ووزيره ابن جامع يفرى كل واحد منهما بصاحبه فتفاوضا واتفقا على الدعاء للامير أبي اسحق وبعثوا إليه بذلك واتصل الخبر بالواثق وهو بتونس منتبذا عن الحامية والبطانة فاستيقن ذهاب ملكه وأشهد الملا وانخلع عن الامر لعمه السلطان أبي اسحق غرة ربيع الاول من سنة ثمان وسبعين وتحول عن قصور الملك بالقصبة إلى دار الافورى وانقرضت دولته وأمره والبقاء لله وحده * (الخبر عن استيلاء السلطان أبي اسحق على الحضرة) * لما بلغ السلطان أبا اسحق كتاب أخيه الامير أبي حفص وابن جامع من بجاية بادر مغذا إليهم ثم وافاه خبر انخلاع الواثق ابن أخيه بتونس فارتحلوا جميعا وسائر أهل الحضرة على طبقاتهم إلى لقائه وأتوا طاعتهم ودخل الحضرة منتصف الحجة آخر سنة ثمان وسبعين ومحمد بن هلال شيخ دولته وعقد على حجابته لابي القاسم بن الشيخ كاتب أبي الحسن وعلى خطة الاشغال لابن أبي بكر بن الحسن بن خلدون كان وفد مع ابنه الحسن على الامير أبي زكريا

من اشبيلية لدمية رعاها لهم لما كانت أم ولده أم الخلائف من هدايا ابن المحتسب أبي زكريا محلهم ورحل الحسن إلى المشرق ومات هنا لك وبقى ابنه أبو بكر بالحضرة فاستعمله الامير أبو اسحق لاول دخوله في خطة الاشغال ولم يكن يليها الا الموحدون كما قلناه وعقد لفضل بن علي بن مري على الزاب ولم يكن أيضا يليه الا الموحدون لكن رعى لفضل بن مري ذمة اغترابه معه إلى الاندلس فعقد له على الزاب ولاخيه عبد الواحد على بلاد قسطيلة ثم تقبض على أبي الخير وأمر باعتقاله ودفعه إلى موسى بن محمد بن ياسين للمصادرة والامتحان ووجد مكان التمايم عليه طوايع وطلسمات مختلفة الاشكال والصور وتسحر بها فيما زعموا مخدومه فجاوبه وكان شأنه الامتحان والاستحلاف والهلاك شأن سعيد أبي الحسن أيام صولته إلى أن هلك في شهر جمادى الاولى من سنته والله لا يظلم منقار ذرة ولما اعتقد السلطان أبو اسحق كرسى ملكه واستوثق عرى خلافته تقبض على محمد بن أبي هلال وقتله بجرنكته سنة ست وسبعين لما كان يتوقع منه من المكروه في الدولة وما عرف

[٢٩٩]

به من المساعى في الفتنة والله أعلم لما انخلع الواثق عن الامر وتحول إلى دار الافورى فأقام بها أياما وكان له ثلاثة من الولد أصغر الفضل والطاهر والطيب فكانوا معه ثم نمى عنه للسلطان أبي اسحق انه يروم الثورة وانه داخل في ذلك بعض رؤساء النصارى من الجند فأطلق مكان ترشيحه واعتقله بمكان اعتقال بنيه وهو من القصة أيام أخيه المستنصر ثم بعث إليهم ليلتهم فذبحوا جميعا في شهر صفر سنة تسع وسبعين واستوثق له الامر وأطلق من عنان الامارة لولده إلى ان كان من شأنهم ما يذكر ان شاء الله تعالى { الخبر عن ولاية الامير أبي فارس ابن السلطان أبي اسحق على بجاية بعهد أبيه والسبب في ذلك { كان للسلطان أبي اسحق من الابناء خمس أبو فارس عبد العزيز وكان أكبرهم وأبو محمد عبد الواحد وأبو زكريا يحيى وخالد وعمر وكان السلطان المستنصر قد حبسهم عند فرار أبيهم إلى رباح في أيامه ببعض حجر القصر وأجرى عليهم رزقا فنشؤا في ظل كفالته وجميم رزقه إلى ان استولى أبو هم السلطان أبو اسحق على الملك فطلعوا بأفاقه وطالت فروعهم في دوحه واشتملوا على العز واصطنعوا أهل الواثق من الرجال وأرعى السلطان لهم ظلهم في ذلك وكان المجلى فيها كبيرهم أبو فارس لما كان مرشحا لولاية العهد وكان ممن اصطنعه وألقى عليه رداء محبته في الناس وعنايته أحمد بن أبي بكر بن سيد الناس البعمرى وأخوه أبو الحسين لسابقة رعاها لهما وذلك أن أبا هما أبا بكر بن سيد الناس كان من بيوت اشبيلية حافظا للحديث راوية ظاهريا في فقهه على مذهب داود وأصحابه وكانت لاهل اشبيلية خصوصا من بين الناس الاندلس فلما تكالب الطاغية على الدولة والتهم ثغورها واكتسح بسائطها وأشرف إلى قواعدها وامصارها أجاز الاعلام وأهل البيوت إلى أرض المغربين وأفريقية وكان قصدهم إلى تونس أكثر لاستفحال الدولة الحفصية فلما رأى الحافظ أبو بكر اختلال أحوال الاندلس وقبح مصابرها وخفة ساكنها أجمع الرحلة عنها إلى ما كان بتونس من سابقته عند هؤلاء الخلفاء فأجازو البحر ونزل بتونس فلما هلك السلطان تكريمه وجعل إليه تدريس العلم بالمدرسة عند حمام الهواء التى أنشأتها أمه أم الخلائف ونشأ بنوه أحمد وأبو الحسن في جو الدولة وحجر كفالته للاختصاص الذى كان لابيهم بها وعدلوا عن طلب العلم إلى طلب الدنيا وتشوفوا إلى مراتب السلطان واتصلوا بأبناء السلطان أبي اسحق بمكانهم من حجر القصر حيث أنزلهم عمهم بعد ذهاب أبيهم فخالطوهم واستخدموا

لهم ولما استولى السلطان على الامر ورشح ابنه أبا فارس للعهد وأجراه على سنين الوزارة فاصطنع أحمد بن سيد الناس ونوه باسمه وخلع عليه ملبوس كرامته واختصه بلقب حجابته وأخوه أبو الحسين يناهضه في ذلك عنوة ونفس ذلك عليهما البطانة فأغروا السلطان أبا اسحق ثانية وخوفوه شأنه وإن أحمد بن سيد الناس داخله في التوثب بالدولة وتولى كبر هذه السعاية عبد الوهاب بن قائد الكلاعي من علية الكتاب ووجههم كان يكتب للعمامة يومئذ فسطا السلطان بابن سيد الناس سنة تسع وستين آخر ربيع استدعى إلى باب القصر فتعاورته السيوف هيرا ووورى شلوه ببعض الجفر وبلغ الخبر إلى الامير أبي فارس فركب إلى أبيه في لبوس الحزن فعزاه أبوه عن ذلك بأنه ظهر لابن سيد الناس على المكر والخديعة بالدولة واماط سواده بيده ونجا أبو الحسين من هذه المهلكة واعتقل في لمة من رجال الامير أبي فارس بعد ان توارى أياما إلى أن أطلق من محبسه وكان من أمره ما ذكره بعد واستبلغ السلطان في تأنيس ابنه ومسح الضغينة عن صدره فعقد له على بجاية وأعمالها وأنفذه إليها أميرا مستقلا وأنفذ معه في رسم الحجابة جدى محمد ابن صاحب اشغاله أبي بكر بن الحسن بن خلدون فخرج إليها سنة تسع وستين وقام بأمرها ولم يزل أميرا بها إلى آخر دولته كما نذكر والله أعلم اسم هذا الرجل أبو بكر بن موسى بن عيسى ونسبته في كوميه من بيوت الموحدين كان مستخدما لابن كلداني الوالى بقسنطينة فكان له غناء وصداقة وولاه السلطان أبو اسحق حافظا على قسنطينة واتصلت ولايته وهلك المستنصر واضطربت الاحوال ثم ولاه الواثق ثم السلطان أبو اسحق وكان ابن وزير هذا طموعا جموعا لاموال الناس لا يمل وعلم أن قسنطينة معقل ذلك النصر وحصنه فحدثته نفسه بالامتناع بها والاستبداد على الدولة وساء أثره في أهلها فرفعوا أمرهم إلى السلطان أبي اسحق واستعدوه فلم يعدهم لما رأى من مخايل الحراية من الطاغية وكتب هو بالاعتذار والنكير لما جاء به فتقبله وأعطى له من هنياته ولما مر به الامير أبو فارس إلى محل امارته من بجاية سنة تسع وسبعين قعد عن لقائه وأوفد إليه جمعا من الصلحاء بالمعاذير والاستعطاف فمنحه من ذلك كفاء مرضاته حتى إذا أبعد الامير أبو فارس إلى بجاية اعتزم على الانتزاء كاتب ملك ارغون في جيش من النصارى يكون معهم في ثغره يردد بهم الغزو على أن يكون فيما زعموا داعية له فأجابه ووعدده ببعث الاسطول إليه فجاهر بالخلعان وانتزى بثغر قسنطينة داعيا لنفسه آخر سنته وزحف إليه الامير أبو فارس من بجاية في عساكره واحتشد الاعراب وفرسان القبائل إلى أن احتل بميلة ووفد عليه من

أهل قسنطينة جمع من الرعية بعثهم ابن وزير فأعرض عنهم وقصد قسنطينة في أول ربيع سنة احدى وثمانين فتار بها وجمع الايدي على حصارها ونصب المجانيق وقرر قواعد الرماة وقاتلها يوما أو بعض يوم وتسور عليهم المعقل من بعض جهاته وكان المتولي لتسوره صاحبه محمد بن أبي بكر بن خلدون وابان بن وزير عند الصدمة حتى أحيط به قتل هو وأخوه وأشياعهما ونصبت رؤسهم بسور البلد وتمشى الامير في سكك البلد مسكنا ومؤنسا وأمر برم ما تتلم من الاسوار وباصلاح الفناطر ودخل إلى القصر وبعث بالفتح إلى أبيه بالحضرة وجاء اسطول النصارى إلى مرسى الفل في مواعدة ابن وزير فأخفق مسعاهم وارتحل الامير أبو فارس ثالثة الفتح إلى بجاية فدخلها آخر ربيع من سنته والله أعلم * (الخبر عن قيادة ابن السلطان العساكر إلى الجهاد) * كان السلطان يؤثر ابناءه بمراتب ملكه ويوليهم خطط سلطانه شغفا بهم وترشيحا لهم فعقد في رجب سنة احدى وثمانين لابنه الامير زكريا على عسكر من

الموحدين والجند وبعثه إلى قفصة للاشراف على جهاتها وضم حبايتها فخرج إليهم وقضى شأنه من حركته وانصرف إلى تونس في رمضان من سنته ثم عقد لابنه الآخر أبى محمد عبد الواحد على عسكره وأنفذه إلى وطن هوارة لانقضاء مغارمهم وحباية ضرائبهم وفرائضهم وبعث معه عبد الوهاب بن قائد الكلاعى مباشرا لذلك وواسطة بينه وبين الناس فانتهى إلى القيروان وبلغه شأن الدعى وظهوره في ذباب بنواحي طرابلس فطير بالخبر إلى السلطان وأقبل على شأنه ثم انتشر أمر الدعى وانكفا راجعا إلى تونس والله تعالى أعلم كان السلطان لما أجاز البحر من الاندلس لطلب ملكه ونزل على يغمراسن بن زيان بتلمسان فاحتفل لقدمه وأركب الناس للقائه وأتاه ببيعته على عادته مع سلفه لما علم انه أحق بالامر ووعده النصر من عدوه والموازرة على أمره وأصهر إليه في احدى بناته المقصورات في خيام الخلافة بابنه عثمان تشريفا خطبه منه فأولاه اسعافا به ولما استولى السلطان على حضرته واستبد بأحوال ملكه بعث يغمراسن ابنه ابراهيم المكنى بأبى عامر في وفد من قومه لاتمام ذلك العقد فاعتمد السلطان ميرتهم وأسعف طلبتهم وأقاموا بالحضرة أياما وظهر من اقدامهم في فتن الدعى مقامات وانصرفوا بطعبيتهم سنة احدى وثمانين محبوبين وابتنى بها عثمان لحين وصولها فكانت من عقائل قصورهم ومفاخر دولتهم وذكر لهم ولقومهم إلى آخر الايام

[٣٠٢]

{ الخبر عن ظهور الدعى أبى عمارة وما وقع من الغريب في أمره } كان أحمد بن مرزوق أبو عمارة من بيوتات بجاية الطارئين عليها من المسيله نشأ ببجاية وسيما محترفا بصناعة الخياطة غمرا وكان يحدث نفسه بالملك لما كان يزعم أن العارفين يخبرونه بذلك وكان هو يخط فيريه خطه ذلك ثم اغترب عن بلده ولحق بصحراء سجلماسة واختلط بعرب المعقل وانتمى إلى أهل البيت وادعى أنه الفاطمي المنتظر عند الأعمار وأنه يحيل المعادن إلى الذهب بالصناعة فاشتملوا عليه وحدثوا بشأنه أياما أخبرني طلحة ابن مظفر من شيوخ العمارية احدى بطون المعقل انه رأى أيام ظهوره بالمعقل ملتبسا بتلك الدعوى حتى فضحه العجز ثم لما زهدوا فيه لعجز مدعاه ذهب يتقلب في الارض حتى وصل إلى جهات طرابلس ونزل على ذباب وصحب منهم الفتى نصيرا مولى الواثق بن المستنصر ويلقب برى ولما رأى تبين فيه شيئا من الفضل ابن مولاه فطفق يبكى ويقبل قدميه فقال له ابن أبى عمارة ما شأنك فقص عليه الخبر فقام صدقتني في هذه الدعوى وأنا أثرك من قاتلهم وأقبل نصير على أمراء العرب مناديا بالسرور بابن مولاه حتى خيل عليهم ثم نزل بادس إلى ابن أبى عمارة من محاورات وقعت بين العرب وبين الواثق قصها عليهم بن أبى عمارة نغيا للريب بأمره فصدقوا واطمانوا وأتوه ببيعتهم وقام بأمره صرغم ابن صابر بن عسكر أمير ذباب وجمع له العرب ونازلوا طرابلس وبها يومئذ محمد بن عيسى الهنتاتى وشهر بعنق الفضة فامتنعت عليهم ورحلوا إلى بحر بين الموطنين بيزور وجهاتها من هوارة فأوقعوا بهم ثم سار في تلك النواحي واستوفى حباية لماية وزواوة وأعرم نفوسة وغريان ونغزة من بطون هوارة وضائع ألزمها اياهم واستوفاهما ثم زحف إلى قايس فبايع له عبد الملك بن مكى في رجب سنة احدى وثمانين وأعطاه صفقته طواعية وفاء بحق أبائه فيما طوقوه وذريعة إلى الاستقلال الذى كان يؤمله وأعلن بخلافته ونادى بقومه واستخدم له بنى كعب بن سليم ورياستهم في بنى شيخة لعبد الرحمن ابن فأجابوا داعيه وأتابوا إلى خدمته وتوافت إليه بيعة أهل حزبه والحامية وقرى نغزوة ثم زحف إلى توزر وبلاد قسطيلة فأطاعوه ثم رجع إلى قفصة فبايع له أهلها وعظم أمره وعلا صيته فجهز إليه السلطان أبو اسحق العساكر من تونس كما نذكره والله تعالى أعلم لما تفاقم أمر الدعى بنواحي

طرابلس ودخل الكثير من أهل الانصار في طاعته جهز السلطان
عساكره وعقد لابنه الامير أبى زكريا على حربه فخرج من تونس
ونازل القيروان واقتضى منها غنائم ووضائع استأثر منها بأموال ثم
ارتحل إلى لقاء الدعى

[٣٠٣]

وانتهى إلى نموده وبلغه هنا لك ما كان من استيلاء الدعى على
قفصة فارجف به العسكر وانفضوا من حوله ورجع إلى تونس فدخلها
آخر يوم من رمضان من سنته وارتحل الدعى على أثره من قفصة
واحتل بالقيروان فبايع له أهلها واقتدى به أهل المهديّة وصفاقس
وسوسة فبايعوا له وكثر الأرحاف بتونس فاضطرب السلطان وأخرج
معسكره بظاهر البلد في وسط شوال وضرب الغزو على الناس
واستكثر من العدد وخرج إلى معسكره بظاهر البلد وتلوم بها لآزاحة
العلل وارتحل الدعى من القيروان زاحفا إليه فتسربت إليه طبقات
الجنود ومشيجة الموحدين رضى عنهم بمكانه وطاغية بنى
المستنصر خليفته الطويل أمد الولاية عليهم رحمة لما نازل الواثق
وأبناءه من عملهم ثم انفض عن السلطان كبير الدولة موسى بن
ياسين في معظم من الموحدين ولحق الدعى بطريقه فاحتل من
السلطان وانتفضت عرى ملكه وفر إلى بجاية كما نذكره ان شاء الله
تعالى { الخبر عن لحاق السلطان أبى اسحق بجاية ودخول الدعى
بن أبى عمارة إلى تونس وما كان من أمره بها } لما انفض معسكر
السلطان أبى اسحق آخر شوال من سنة احدى وثمانين ركب في
خاصته وبعض جنوده ذاهبا إلى بجاية ومر بتونس فوقف عندها ثم
احتمل أهله وولده وسار في كلب البرد فكان يعاني من قلة الاقوات
وتعاور المطر والثلج شدة وكان يصانع القبائل في طريقه سلما له ثم
مر بقسنطينة فمنعه عاملها عبد الله بن توفيان الهرغى من دخولها
وقرب إليه بعض القرى من الاقوات وارتحل إلى بجاية وكان من أمره
ما يذكر ودخل الدعى بن أبى عمارة إلى الحضرة وقلد موسى بن
ياسين وزارته وأبا القاسم أحمد بن الشيخ حجابته وتقبض على
صاحب الأشغال أبى بكر بن الحسين بن خلدون فاستصفاه وصادره
على مال امتحنه عليه ثم قتله خنقا وصرف خطة بجاية إلى عبد
الملك بن مكى رئيس قابس واستكمل القاب الملك وقسم الخطط
بين رجال الدولة وصرف همه إلى غزو بجاية والله تعالى أعلم لما
وصل السلطان أبو اسحق إلى بجاية في شهر ذى القعدة من سنته
طريدا عن ملكه غافلا عن كرسى سلطانه انتضى عليه ابنه الامير
أبو فارس ومنعه من الدخول إلى قصره فنزل بروض الرفيع وأراده على
الخلع فانخلع له وأشهد الملا من الموحدين ومشيجة بجاية بذلك
وأنزله قصر الكوكب ودعا الناس إلى بيعته آخر ذى القعدة فبايعوه
وبلغت المعتمد على الله ونادى في أوليائه من رباح وسديكش
وخرج من

[٣٠٤]

بجاية زاحفا إلى الدعى واستخلف عليه أخاه الامير أبا زكريا وخرج
معه الامير أبو حفص وأخواه فكان من أمره ما نذكره ان شاء الله
تعالى { الخبر عن زحف الامير أبى فارس للدعى ثم انهزامه
إمامه واستلحامه واخوته في المعركة وما كان اثر ذلك من مهلك
أبيهم السلطان أبى اسحق وفرار أخيه الامير أبى زكريا إلى
تلمسان } لما بلغ الخبر إلى الدعى باستبداد الامير أبى فارس على
أبيه واستعداده للقائه تقبض على أهل البيت الحفصى فاعتقلهم
بعد ان هم بقتلهم وخرج من تونس في عساكر من الموحدين
وطبقاتهم الجند في صفر سنة ثنتين وثمانين فانتهى إلى مرماجنة

وتراءى الجمعان ثالث ربيع الاول فاقتتلوا عامة يومهم ثم اختل مصاف الامير أبى فارس وتخاذل انصاره فقتل في المعركة وانتهب معسكره وقتل اخوته صبرا عبد الواحد قتله الدعى بيده وعمر وخالد وأبو محمد بن عبد الواحد وبعث برؤوسهم إلى تونس فطيف بها على الرماح ونصبت باسوار البلد وتخلص عمه الامير أبو حفص من الواقعة إلى ان كان من أمره ما نذكر وبلغ خبر الواقعة إلى بجاية فاضطرب أهلها وماج بعضهم في بعض وخرج السلطان أبو اسحق وابنه الامير أبو زكريا إلى تلمسان فقدم أهل بجاية عليهم محمد ابن السيد قائما فيهم بطاعة الدعى وخرج في اثناء السلطان فأدرکه بجبل بنى غبرين من زواوة فتقبض عليه ونجا الامير أبو زكريا إلى تلمسان وبقي السلطان أبو اسحق ببجاية معتقلا ريثما بلغ الخبر إلى تونس وأرسل الدعى محمد بن عيسى بن داود فقتله آخر ربيع الاول سنة ثنتين وانفض أمره ولله عاقبة الامور لا رب غيره ولا معبود سواه قد ذكرنا أن الامير أبا حفص حضر واقعة بنى أخيه مع الدعى بمراجنة فخلص من المعركة راجلا ونجا إلى قلعة سنان معقل هواره القريب من مكان الملحمة ولأذ به في ذهابه إلى منجاة ثلاثة من صنائعهم أبو الحسن بن أبى بكر بن سيد الناس الفازارى ومحمد بن أبى بكر بن خلدون وهو جد المؤلف الاقرب وربما كانوا يتناقلون على ظهورهم إذا أصابه الكلال ولما نجا إلى قلعة سنان تحدث به الناس وشاع خبر منجاة إليها وكان الدعى قد أشف العرب وثقلت وطأته عليهم بما كان يسئ والملكة فيهم فليوم دخوله شكوا إليه الناس عيئهم فتقبض على ثلاثة منهم وقتلهم وصلبهم ثم سرح شيخ الموحدين عبد الحق ابن تافراكين لحسم عليلهم واوعز إليه بالاثخان فيهم فاستلحم من لقى منهم ثم تقبض على مشايخ بنى علال وأودع سجونه منهم نحو من الثمانين فساء أثره فيهم وتطلبوا أعياص

[٣٠٥]

لبيت وتسامعوا بخبر الامير أبى حفص بمكانه من قلعة سنان فرحلوا إليه وأتوه ببيعتهم في ربيع سنة ثلاث وثمانين وجمعوا له شيا من الآلة والاخيية وقام بأمره أبو ليل بن أحمد أميرهم وبلغ الخبر إلى الدعى فداخلته الظنة في أهل دولته وتقبض على أبى عمران ابن ياسين شيخ دولته وعلى أبى الحسن بن ياسين وابن وأنودين وعلى الحسن بن عبد الرحمن يعسوب زناتة فامتنحهم واستصفى أموالهم ثم قتلهم أخرا وتوجع لهم الناس واضطرب أمر الدعى إلى ان كان ما نذكره انتهى { الخبر عن خروج الدعى ورجوعه واستيلاء السلطان أبى حفص على ملكه وغلبه ومهلكه } لما ظهر السلطان أبو حفص وبايعه العرب تسامع به أهل الحضرة واجتمع إليه الناس وأوقع الدعى بأهل الدولة فمقتوه وخرج من تونس يريد قتاله فأرجف به أهل العسكر ورجع منهزما ودخلت البلاد في طاعة السلطان أبى حفص ونهض إلى تونس فنزل بسحوم قريبا منها وعسكر الدعى بظاهر البلد تجاهه وطالت بينهما الحرب أياما والناس كل يوم يستوضحون خبء الدعى ومكره إلى ان تبرؤا منه وأسلموه ورحل من مكان معسكره ولأذ بالاختفاء ودخل السالمطان البلد في ربيع الآخر سنة ثلاث وثمانين واستولى على سرير ملكه وطهر من الدنس قاصيه ودانيه واختفى الدعى بتونس وغاص في لجة ساكنيتها وأحاط به البحث فعثر عليه لليال من مدخل السلطان بدور بعض السوقة يعرف بأبى قاسم القرمادى فهدمت لحينها ونزل إلى السلطان فأحضر له الملا وويخه وساء له فاعترف بادعائه في نسبهم فأمر بامتحانه وقتله وذهب في غير سبيل مرحمة وطيف بشلوه ونصب رأسه وكان عبد الله بن يغمور المباشر لقتله وكان خبره من المثلات واستبد السلطان بملكه وتلقب المستنصر بالله وبادر الناس إلى الدخول في طاعته وبعث أهل القاصية ببيعتهم من طرابلس وتلمسان وما بينهما وعقد للشيخ أبى عبد الله الفازارى على عساكره على الحروب والضحاية وأقطع البلاد والمغارم للقرب

رعيا لذمة قيامهم بأمره ولم يكن لهم قبلها اقطاع وكان الخلفاء قبله يتحامون عن ذلك لا يفتحون فيه على أنفسهم بايا وأقام متمتعا في ماله وفي حضرته إلى ان كان ما نذكر ان شاء الله تعالى كان من أعظم الحوادث تكالب العدو في أيام هذا السلطان على الجزر البحرية فاستوت أساطيلهم على جزيرة جربة في رجب من سنة ثمان وثمانين ورياستها يومئذ من محمد بن مهو من شيخ الوهبة ويخلف بن امغار شيخ النكازة وهما فرقنا الخوارج وزحف إليها المراكيا صاحب صقلية نائبا عن العدريك بن البريدا كون ملك برشلونة

[٣٠٦]

شاطئة البحر وكانوا فيما قيل سبعين اسطولا من غريان وشوانى وضايقهم مرارا ثم تغلبوا عليها فانتهبوا أموالها وحملوا أهلها أسرا وسبيا فقبل انهم بلغوا ثمانية آلاف بعد أن رموا بالرضف في الجيوب فكانت هذه الواقعة من أشجى الوقائع للمسلمين ثم بنوا بساحلها حصنا واعتمروه وشحنوه حامية وسلاحا وفرض عليهم المقرب مائة ألف دينار كل سنة وأقام على ذلك المراكيا إلى رأس المائة وبقيت الجزيرة في ملك النصارى إلى أن عادوا إلى مالقة أواخر الاربعين والسبعمئة كما نذكره وفي سنة خمس وثمانين طفر العدو بجزيرة ميورقة ركب إليها طاغية برشلونة اساطيله في عشرين ألفا من الرجال المقاتلة ومروا بميورقة كأنهم بحر من البحار وطلبوا من أبى عمر بن حكيم ورديسا النزول للاستسقاء فأذن لهم فلما تساحلوا أذنوا أهلها بالحرب فتزاحفوا ثلاثا يتخن فيهم المسلمون في كلها قتلا وجراحة بما يناهز آلاف والطاغية في بطارفته فانحدر عن الزحف فلما كان اليوم الثالث واستولت الهزيمة على قومه زحف الطاغية في العسكر فانهمزم المسلمون ولجؤا إلى قلعتهم فانحصروا بكعابها وعقدوا لابن حكم ذمة في أهله وحاشيته فخرجوا إلى سبتة ونزل الباقون على حكم العدو وسار إلى ميورقة واستولى على ما فيها من الذخيرة والعدة والامر بيد الله وحده وفي سنة ست وثمانين بعدها غدر النصارى بمرسى الخزور فاقتموها بعد أن ثلموا أسوارها واكتسحوا ما فيها واحتملوا أهلها اسرى وأضرموا بيوتها ثم مروا بمرسى تونس وانصرفوا إلى بلادهم وفيها أو في سنة تسع بعدها نازل اسطول العدو مدينة المهديّة وكان فيها الفرسان لقتالها فزحفوا إليها ثلاثا طفر بهم المسلمون في كلها ثم جاء مدد أهل الاجم فانهمزم العدو حتى اقتحموا عليه الاسطول وانقلبوا خائبين وتمت النعمة { الخبر عن استيلاء الامير أبى بكر زكريا على الثغر المغربي بجاية والجزائر وقسنطينة وأولية ذلك ومصايريه } كان للامير أبى بكر زكريا ابن السلطان من الترشيخ للامر بهديه وشرف همته وحسن ملكته ومخالطته أهل العلم ما يشهد له بحسن حاله وهو الذى اختط المدرسة للعلم بازاء دار الاقورى حيث كان سكناه بتونس ولما لحق بتلمسان بعد منجاته من مهلك أبيه بجاية نزل علي صهره عثمان بن يغمراسن بتلمسان وجاء في أثره أبو الحسن بن أبى بكر بن سيد الناس صنيعا أبيه وأخيه بعد ان خلس مع السلطان أبى حفص من الواقعة التى من ماجنة فلما بايع له العرب وبدت مخايل الملك رأى أبو الحسن ايثار السلطان للفازازى عليهم فنكب عنه ولحق بالامير أبى زكريا بتلمسان واستحثه لطلب ملكه واستقرض من تجار بجاية مالا أنفق في اقامة ابهة الملك له وجمع الرجال واصطنع

[٣٠٧]

الاولياء وفشا الخبر بما يرومه من ذلك فصدّه عثمان بن يغمراسن عنه بما كان تقلد من طاعة السلطان أبى حفص على سننهم مع

الخلفاء بالحضرة قبله فاعتزم الامير أبو زكريا على شأنه وخرج من تلمسان موريا بالصيد الذي كان ينتحله أيام قيامه بينهم ولحق بدوود بن هلال بن عطاق أمير بنى يعقوب وكافة بنى عامر من زغبة وأوعز عثمان بن يغمراسن إلى داود وبرده إليه فابى من اخفاره ذمته وارتحل معه بقومه إلى آخر بلاد زغبة ونزلوا على عطية بن سليمان بن سباع من رؤساء الزواودة فتلقاه بالطاعة وارتحلوا جميعا إلى ضواحي قسنطينة فدخل العرب وسوريكش في طاعته ونزل البلد سنة ثلاث وثمانين وعاملها يومئذ أبو نوفيان من مشيخة الموحدين وكان صاحب بجاية بها أبو الحسن بن طفيل كان له من العامل صهر فدخل الامير أبا زكريا في شأن البلد وشرط لنفسه وصهره فأمضى السلطان شريطهم وأمكنوه من البلد وأقاموا بها دعوته وارتحل إلى بجاية وكان قد حدث فيها اضطراب بين أهلها أدى إلى الخلاف والتباين واستحثوا الامير أبا زكريا فأغذ السير إليهم ودخلها سنة أربع وثمانين ويقال ان ملكه بجاية كان سابقا على ملكه بقسنطينة وهو الاصح فيما سمعناه من شيوخنا وبعث إليهم أهل الجزائر بطاعتهم فاستولى على هذه الثغور القريبة وتلغب المنتخب لاحياء دين الله وأغفل ذكر أمير المؤمنين أديا مع عمه الخليفة بالحضرة حيث مالا الموحدين أهل الحل والعقد من الجماعة ونصب للحجاية أبا الحسن بن سيد الناس فقام بها ورسخ ملكه وملك بنيه بهذه الناحية الغربية وانقسمت به الدولة إلى أن خلع الأمر للملوك من عقبه واستولوا على الحضرة كما نذكره ان شاء الله تعالى والله ولى التوفيق لما استولى الامير أبو زكريا على الناحية الغربية واقتطعا من أعمال الحضرة اعتمد في الحركة على تونس فنهض إليها في عساكره سنة خمس وثمانين ووفد عليه عبد الله بن رحاب بن محمود من مشيخة ذياب ومانعه الفازازى عن احواز تونس فنزل قابس وحاصرها وكان له في قتالها أثر واستولت الهزيمة على مقاتلتها ذات يوم فأئخن فيهم قتلا وأسرا وهدم ربيضا وأحرق المنازل والنخل وارتحل إلى مسراته وكان من خبره أن الامير أبا زكريا لما فصل من تلمسان لطلب ملكه على كره منه وامتنع جاره ودوود ابن عطاق من رده وامتلا له عداوة وحقدا جدد البيعة لصاحب تونس ووافد بها على بن محمد الخراساني من صنائعه وكان له اثناء ذلك ظهور على ابن توجين ومغراوة بالمغرب الاوسط وضاق ذرع أهل الحضرة بمكان الامير أبا زكريا من مطالبهم

[٣٠٨]

وتدويخه لفاصيتهم فدخلوا عثمان بن يغمراسن في منازل مقله بعد بجاية ليردوه على عقبه عنهم فزحف إلى بجاية سنة ست وثمانين ونزلها أياما وامتنع عليه سائر ضواحيها فلم يظفر بأكثر من الاطلاع عليها وانكفاً الامير أبو زكريا راجعا إلى بجاية سنة ست وثمانين إلى ان كان من أمره ما سنذكره ان شاء الله تعالى * (الخبر عن فاتحة استياد أهل الجزيرة) * كان بعض الايام بين سداده وكتومه من عمل تقويس فتنة قتل فيها ابن شيخ سداده وأقسم لينارن فيه بشيخ كتومة نفسه وكان عامل توزر محمد بن أبا بكر التينملل من مشيخة الموحدين فتذمم شيخ كتومة وبذل له مالا على نصره من عدوه فكاتب الحضرة وأعلن بالخلاف أهل اسواد واحتشد لهم أهل نطقة وتقويس وخرج في حشد أهل توزر وغزاهم في بلدهم ولاذ باعطاء الرهن وبذل المال فلم يقبل فأمدهم أهل نغزاوة وزحفوا إليه فانهمزمت جموعه وأنحنوا فيهم قتلا وأسرا إلى توزر وذلك سنة ست وثمانين ثم عاود غزوهم عقب ذلك ففتحو عليه ثم عقد لهم سلما على الوفاء بمغارمهم واشترطوا أن لا حكم عليهم في سواها وان رؤساء نغزاوة منهم فأمضى شرطهم وكان أول استياد أهل الجريد كما نذكره ان شاء الله تعالى كان أبو دبوس آخر خلفاء بنى عبد المؤمن بمراكش لما قتل سنة ثمان وخمسين وستمائة وافترق بنوه وتقلبوا في الارض لحق منهم عثمان بشرق

الاندلس ونزل على طاعية برشلونة فأحسن تكريمه ووجد هنا لك أعقاب عمه السيد أبي زيد المنتصر أخى أبي ديبوس في مثنواهم من إيالة العدو وكان لهم هنا لك مكان وجاه لنزوع أبيهم السيد أبي زيد عن دينه إلى دينهم فاستبلغوا في مساهمة قريتهم هذا الوافد وخطبوا له عن الطاعة خطبا ووافق ذلك حصول مرغم بن صابر بن عسكر شيخ الجوارى من بنى ذياب في قبضة أسره وكان قد أسره الغزي من أهل صقلية بنواحي طرابلس سنة ثنتين وثمانين وباعوه من أهل برشلونة فاشتراه الطاعية وقام عنده أسيرا إلى ان نزع إليه عثمان بن أبي ديبوس هذا كما ذكرناه وشهر بطلب حق الدعوة الموحدية وأمل الظفر في القاصية لبعدها عن الحامية فعبر البحر إلى طرابلس وكان من حظوظ كرامته عند الطاعية ان أطلق له مرغم بن صابر وعقد له حلفا معه على مظهرته وجهاز له أساطيل وشحنها بالمدد من المقاتلة والاقوات على مال شرطوه فنزلوا على طرابلس سنة ثمان وثمانين واحتشد مرغم قومه وحملهم على طاعة ابن أبي ديبوس ونزلوا البلد معه ومع جنده من النصرانية فحاصروهم ثلاثا وساء أثرهم فيها ثم رحل النصارى باسطولهم ورسوا بأقرب السواحل

[٣٠٩]

إلى البلد وتنقل ابن أبي ديبوس ومرغم في نواحي طرابلس بعد أن أنزلوا عليها عسكرا للحصار فاستوفوا من جباية المغارم والوضائع مالا دفعوه للنصارى في شرطهم وانقلبوا في أسطولهم وأقام ابن أبي ديبوس يتقلب مع العرب واستدعاه ابن مكى من بعد ذلك لان يشتد به في استبداده فلم يتم أمره إلى أن هلك بحربة والله وارث الارض ومن عليها { الخبر عن مهلك أبي الحسن بن سيد الناس حاجب بجاية وولاية ابن أبي حى مكانه } قد قدمنا سلف هذا الرجل وأوليته وانه لحق بالامير أبو زكريا بتلمسان وأبلى في خدمته فلما استولى الامير أبو زكريا على الثغر الغربي واقتطعه عن اعمال الحضرة ونزل ببجاية وظاهر بها تونس عقد لابي الحسن بن سيد الناس على حجابته وفوض إليه فيما وراء بابه وأجراه في رياسته على سنن أبي الحسن الرئيس قبله في دولة المستنصر الذى كانوا ينقلون طريقه وينزعون إلى مراميه بل كانت رياسته هذا في حجابته أبلغ من رياسته ابن أبي الحسن لجلاء جو الدولة ببجاية من مشيخة الموحدين الذين يراحمونه كما كان ابن أبي الحسن من احمائهم فاستولى أبو الحسن بن سيد الناس على الدولة ببجاية وقام بأمر مخدمه أحسن قيام وصار إلى الحل والعقد وانصرفت إليه الوجوه وتمكن في يده الزمام إلى أن هلك سنة تسعين أعظم ما كان رياسته وأقرب من صاحبه مكانا وشرفا فأقام الامير أبو زكريا مكانه كاتبه أبا القاسم بن أبي حى ولا أدرى من أوليته أكثر من أنه من جالية الاندلس ورد على الدولة وتصرف في اعمالها واتصل بأبي الحسن بن سيد الناس فاستكتبه ثم رفاه واستخلصه لنفسه وأجره رسنه وتناول زمام الدولة من يد سيد الناس فقادها في يد مظفر خدمته حتى اجتمعت عليه الوجوه وأمله الخاصة وإطلع السلطان على اضطلاع وكفايته في أمور مخدمه وهلك أبو الحسن بن سيد الناس فرشحه السلطان بخطته فقام بها سائر أيامه وصدرا من أيام ابنه الامير أبي البقاء حتى كان من أمره ما نذكره بعد ان شاء الله تعالى من أمره { الخبر عن خروج الزاب عن طاعة الامير أبي حفص إلى طاعة الامير أبي زكريا وانتظام بسكرة في جماعته } كان السلطان أبو اسحق قد عقد على الزاب لفضل بن على بن مزنى من مشيخة بسكرة كما قدمناه فقام بأمره ولما هلك السلطان عدا عليه بعض أفريق العرب المواطنين قرى الزاب بمدخلة قوم من أعدائه وقتلوه سنة ثلاث وثمانين كما نذكره وأملوا الاستبداد بالبلد فدفعهم عنها المشيخة من بنى زيان واستقلوا بأمر بلدهم وباعوا للامير أبي

حفص صاحب الحضرة ودانوا بطاعته على السنن وتوافقوا دانية منصور بن فضل بن مزني وكان لحق بالحضرة عند مهلك ابنه بكرفة من احياء هلال بن عامر وهم العرب المتولون أمر جبل أوراس ونزل على الشبه بأفريقيهم فأركبوه وكسبوه ولحق بجاية سنة ثنتين وسبعين فنزل بباب السلطان ورغبه في ملك الزاب وصانع الحاجب ابن أبي حى بأنواع التحف وضمن له تحويل الدعوة بالزاب للسلطان الامير أبو زكريا وتسريب جبايته إليه فاستماله بذلك وعقد له على الزاب وامده بالعسكر ونازل بسكرة فامتعت عليه ورأى مشيختها بنو دمار بعدهم عن ضريح تونس والحاح عدوهم منصور ابن فضل فأعلنوا بطاعة الامير أبي زكريا وبعثوا إليه ببيعتهم ووفدهم ودفع عادية ابن مزني عنهم فأرجعهم بما أملوه من القبول وأن تسكون أحكامهم إلى قائد عسكره ونظر ابن مزني مصروفا إلى بجاية ولما وصل الوفد إلى بسكرة خرجوا إلى القائد ومنصور بن مزني فأدخلوه البلد ودانوا بالطاعة وتصرفت الامور على ذلك إلى أن كان من أمر منصور بن مزني ما نذكره في اخباره ولم يزل الزاب في دعوة الامير أبي زكريا وبنيه إلى ان استولي على الحضرة وبنوه لهذا العهد كما تراه في الاخبار بعد ان شاء الله تعالى { الخبر عن مهلك عبد الله الفازازي شيخ الموحدين والحاجب أبي القاسم بن الشيخ رؤساء الدولة { كان أبو عبد الله الفازازي من مشيخة الموحدين وكان خالصة للسلطان أبي حفص وعقد له على العساكر كما قدمناه ودفعه إلى الحروب وتمهيد النواحي فقام في ذلك المقام المحمود ودوخ الجهات واستنزل الثوار ودفعهم وجبى الخراج وكانت له في ذلك آثار مذكورة وفي بلاد الجريد ومشيختها تصاريف وأحوال وهو الذي امتحن أحمد بن بهلول بسعاية المشيخة من أهل توزر وكج عنانه من مراميه إلى الرياسة عليهم وهلك آخر حركاته إلى بلاد الجريد على مرحلتين من تونس سنة ثلاث وتسعين ولسنة منها كان مهلك الحاجب أبي القاسم بن الشيخ وكان من خير أوليته انه قدم من بلده دانية إلى بجاية سنة ست وعشرين واتصل بعاملها محمد بن ياسين فاستكتبه وغلب عليه واستدعى ابن ياسين إلى الحضرة وابن الشيخ في حملته والتمس السلطان من يرشحه لكتابته ويخف عليه فاطن ابن ياسين في وصف كاتبه أبي القاسم بن الشيخ وحلاه وإبتلاه السلطان فلم يرضه وصرفه ثم راجع رأيه فيه واستحسنه ورسمه في خدمته وأمر ابن أبي الحسن بتلقيه الآداب وتصريفه في وجوه الخدمة ومذاهبها فكان له في ذلك غناء وخفة على مخدمه إلى ان هلك ابن أبي الحسن وكان الخراج بدار السلطان موقوفا على نظره من جملة ما إليه وكان قلمه عاملا فيه فأفرد ابن الشيخ بذلك بعد مهلكه إلى آخر أيام

السلطان المنتصر ولما ولي السلطان الواثق استبد ابن أبي الحسن عليه كما قلناه فأبقاه على خطته واختصه لنفسه ودرجه في جملة ثم جاءت دولة السلطان أبي اسحق فأقامه في رسمه وزاحمه بأبي بكر بن خلدون صاحب اشغاله وكانت الرياسة الكبرى على عهده لبنيه أبي فارس ثم أبي زكريا عبد المؤمن من بعده ثم كانت قضية الدعى فاستولى على ملكهم فاستخلص أبا القاسم بن الشيخ واستضاف له إلى خطة الشفير كتاب العلامة في فواتح السجلات فلما ارتجع للسلطان أبي حفص ملكه وقتل الدعى خافه ابن الشيخ لما كان من رتبته عند الدعى فلاذ بالصلحاء لامارة من الخير والعبادة وصلت بينهم وبينه فشغفوا له وتقبلها السلطان وأظهر لهم ذات نفسه في الحاجة إلى استعماله وقلده حجابته مجموعة إلى تنفيذ كتاب العلامة في فواتح السجلات فلما ارتجع السلطان أبو حفص ملكه وقتل الخارج وصرف العلامة إلى غيره من طبقة الدولة فلم يزل

على ذلك إلى أن هلك سنة أربع وتسعين وبقي اسم الحجابة من بعده في هذه الخطط الثلاثة وأمر التدبير والحرب ورياستهما راجع إلى مشيخة الوحدين إلى أن تصرمت الاحوال وادبل بعضها من بعض كما يأتيك أثناء الاخبار وقلد السلطان من بعد ابن الشيخ حجابته لابي عبد الله المحبى من طبقة الخير فقام بها إلى آخر الدولة والله وارث الارض ومن عليها * (الخبر عن مهلك السلطان أبى حفص وعهده بالامر من بعده) * لم يزل السلطان أبو حفص علي أكمل حالات الظهور والدعة إلى أن استوفى مدنه وأصابه وجع أول ذى الحجة من سنة أربع وتسعين ثم اشتد به الوجع وأهمه أمر المسلمين وما قلده من عدتهم فعهد لابنه عبد الله بالخلافة ثانى أيام التشريق ونكره الموحدون لتخلفه عن المراتب لصغره وانه لم يحتلم وتحدثوا في ذلك وأفضى الخبر إلى السلطان فأسخطه وعدل عنهم إلى الشورى مع الولي أبى محمد المرجاني وكان رأيه فيه حميلا وظنه به صالحا وكان الواثق بن المستنصر لما قتل هو وبنوه بمحبسهم فرت احدى جواريه وقد اشتملت على حمل منه إلى رباط هذا الولي فوضعت في بيته فسماه الشيخ محمدا وعق عليه وأطعم الفقراء يومئذ عصيدة الحنطة فلقب بأبى عصيدة إلى آخر الدهر ثم صار بعد الاختفاء ودواعيه إلى قصورهم ونشأ في ظل الخلفاء من قومه حيث شب وبقيت له مع الولي أبى محمد ذمة يثابر كل منها على الوفاء بها فلما فاوضه السلطان أبو حفص في شأن العهد وقص نكير الموحدين لولده أشار عليه الشيخ بصرف العهد إلى محمد بن الواثق فتقبل اشارته وعلم ترشيحه وأنفذ بذلك عهده بمحضر الملا ومشيخة الموحدين وهلك آخر ذى الحجة سنة أربع وتسعين والى الله المصير اه

[٣١٢]

* (الخبر عن دولة السلطان أبى عصيدة وما كان على أثرها من الاحوال) * لما هلك السلطان أبو حفص اجتمع الملا من الموحدين والاولياء والجند والكافة إلى القصبة فباعوا بيعة عامة لولى عهده السلطان أبى عبد الله محمد ويلقب كما ذكرناه بأبى عصيدة ابن السلطان الواثق في الرابع والعشرين لذى الحجة سنة أربع وتسعين فانشرت بيعته الصدور ورضيته الكافة وتلقب المستنصر بالله وافتتح أمره بقتل عبد الله ابن السلطان أبى حفص لمكان ترشيحه وقلد وزارته محمد بن يزبكش من مشيخة الموحدين وأبقى محمدا الشخشى علي خطة الحجابة وصرف التدبير والعساكر ورياسة الموحدين إلى أبى يحيى زكريا بن أحمد بن محمد اللجاني فقام بما دفع إليه من ذلك وضايقه فيه عبد الحق بن سليمان رئيس الموحدين قبله حتى إذا نكب وهلك استبد هو على الدولة واستقل الشخشى بحجابته وكان محمد بن ابراهيم بن الدباغ رديفا له فيها وكان من خبر ابن الدباغ هذا ان ابراهيم أباه وفد على تونس في جالية اشبيلية سنة ست وأربعين فولد هو بتونس ونشأ بها واستفاد صناعة الديوان وحسابه من المبرزين فيه كابى الحسن وأبى الحكم بن مجاهد وأصهر اليهما في ابنة أبى الحسن فانكحاه ورشجاه للامانة على ديوان الاعمال ولما استقل أبو عبد الله الفازازى بالرياسة استكتبه وكان طياشا مستعصيا على الخليفة فكان كاتبه محمد بن الدباغ يروضه لأغراض الخليفة إذ دسها إليه الحاجب ابن الشيخ فيقع ذلك من الخليفة أحسن الموقع ولما ولى السلطان أبو عصيدة وكانت له عنوة سابقة رعاها وكان حاجبه الشخشى بهمة غفلا عن أدوات الكتاب فاستكتب السلطان ابن الدباغ ثم رقاها إلى كتابة علامته سنة خمس وتسعين وكان يتصرف فيها فأصبح رديفا للشخشى في حجابته وجرت أمور الدولة على ذلك إلى أن هلك الشخشى سنة تسع وتسعين فقلده السلطان حجابته فاستقل بها على ما قدمناه من ان التدبير والحرب مصروف إلى مشيخة الموحدين * (الخبر عن نكبة عبد الحق بن سليمان وخبر بنيه من

بعده) * كان أبو محمد عبد الحق بن سليمان رئيس الموحدين لعهد السلطان أبي حفص وأصله من تينملل الموطنين بتيرس مذ أول الدولة كانت له ولسلفة الرياسة عليهم وصارت إليه رياسة الموحدين كافة بالحضرة أيام هذا السلطان وكان له خالصة وشيعة وكان حريصا على ولاية ابنه عبد الله للعهد وكان يدافع نكير الموحدين في ذلك فأسره بماله السلطان أبو عبيدة ولما استوثق له الامر وقتل عبد الله بمحبسه تقيض على أبي محمد محمد بن سليمان واعتقله في صفر سنة خمس وتسعين ولم يزل معتقلا إلى أن قتل بمحبسه على رأس المائة وفر عند نكبته ابنه محمد وعبد الله فأما عبد الله فلحق بالامير أبي زكريا وصار

[٣١٣]

في جملته إلى ان دخل تونس مع ابنه السلطان ابى البقاء خالد وأما محمد فأبعد المفرد ولحق بالمغرب الأقصى ونزل على يوسف بن يعقوب سلطان بنى مريين من معسكر من حصار تلمسان فاستبلغ في تكريمه وأقام عنده مدة ثم عاود وطنه ونزل عن طريقه إلى النسيك ولبس الصوف وصحب الصالحين وفضى فريضة الحج وامتد عمره وحسنت فيه ظنون الكافة واعتقدوا فيه وفى دعائه وكثرت غاشيته لالتماس البركة منه وأوجب الخلفاء ازاء ذلك تجلة أخرى وأوفدوه على ملوك زناتة مرة بعد مرة في مذاهب الرد وقصود الخير وحضر في بعض الجهاد بجبل الفتح عندما ازلته عساكر السلطان أبي الحسن ولم يزل هذا دأبه إلى ان هلك في الطاعون الجارف في منتصف المائة الثامنة والله تعالى أعلم * (الخبر عن مراسلة يوسف بن يعقوب سلطان بنى مريين ومهاداته) * كان السلطان أبو عبيدة لما استفحل أمره واستوسق ملكه حدث نفسه بغزو الناحية الغربية وارتجاع ثغورها من يد الامير أبي زكريا وكان الامير أبو زكريا قد انتقض عليه أهل الجزائر بعد مهلك عاملها عليها من الموحدين من بنى الحمارير وانتزى بها بعده محمد ابن علان من مشيختها واستفحل أمر عثمان بن يغمراسن وبنى عبد الواد من ورائه وتغلبوا على توجين ومغراوة وبلكين وكان سعيه لصاحب الحضرة بما كان متمسكا بدعوتهم ومتقبلا مذهب أبيه في بيعتهم فقويت عزائم السلطان أبي عبيدة لذلك ونهض من الحضرة سنة خمس وتسعين وتجاوز تخوم عمله إلى أعمال قسنطينة وأجفلت امامه الرعايا والقبائل وانتهى إلى ميلة وفيها كان منقلبه إلى حضرته في رمضان من سنته ولما ضايق عمل بجاية بغزوه أعمل الامير أبو زكريا نظره في تسكين الناحية الغربية ليتفرغ عنها إلى مدافعة السلطان صاحب الحضرة فوصل يده بعثمان بن يغمراسن وأكد معه قديم الصهر بحادث الود والمواصلة وفى خلال ذلك زحف يوسف بن يعقوب سلطان بنى مريين إلى تلمسان وألقى عليها بكلكله واستجاش عثمان بن يغمراسن بالامير أبي زكريا فأمده بعسكر من الموحدين لقيهم عسكر من بنى مريين فهزموهم وأثنوا فيهم قتلا ورجع فلهم إلى بجاية وسرح يوسف بن يعقوب عساكر بنى مريين إلى بجاية وعقد عليها لآخيه أبي يحيى بعد ان كان عثمان بن سباع وقد عيها نازعا عن صاحب بجاية إليه ومرغبا له في ملكها فأوسع له في الحباء والكرامة ما شاء وبعث معه هذا العسكر فانتهوا إلى بجاية وضابقوها ثم جاوزوها إلى تاكرارت وبلاد سدونكش وعاثوا في تلك الجهات ودوخوها وانقلبوا راجعين إلى السلطان يوسف بن يعقوب بمعسكره من تلمسان وكان السلطان أبي عبيدة صاحب الحضرة لما علم بامداد الامير أبي زكريا لعثمان بن

[٣١٤]

بغمراسن بعث إلى يوسف بن يعقوب عدوهم وحرصه على بجاية ونواحيها وسفر له في ذلك رئيس الموحدين أبو عبد الله بن الكجار من أولى سفارته ثم سفر ثانية سنة ثلاث وسبعمئة بهدية ضخمة فأغرب فيها بسرج وسيف ومهماز من الذهب من صنعة الحلبي الفاخر من حصى الياقوت والجوهر ورافقه في هذه السفارة الثانية وزير الدولة أبو عبد الله بن بيزكين ورجع بهدية ضخمة من يوسف بن يعقوب كان من جملتها ثلثمائة من البغال واتصلت المخاطبات والسفارات والهدايا والملاطفات وكان يوسف ابن يعقوب يكتب السلطان في تلك الشؤون تعريضات ويكتب رئيس الموحدين أبا يحيى اللحياني وتردد عساكر بني مرين إلى نواحي بجاية إلى أن هلك يوسف بن يعقوب كما يأتي في أخباره إن شاء الله تعالى { الخبر عن مقتل هداج وقتنة الكعوب وبيعتهم لابن أبي دبوس وما كان بعد ذلك من نكبتهم } كان هؤلاء الكعوب قد عظمت ثروتهم واصطناعهم منذ قيامهم بأمر الأمير أبي حفص فعمروا ونموا ويطروا النعمة وكثر عينهم وفسادهم وطال أضرارهم بالسابلة وحطمهم للجنات وانتهاهم الزرع فاضطغن لهم العامة وحقدوا عليهم سوء آثارهم ودخل رئيسهم هداج بن عبيد سنة خمس وسبعمئة إلى البلد فحضرته العيون وهمت به العامة وحضر المسجد لصلاة الجمعة فتجنوا عليه بأنه وطئ المسجد بخفيه وقال لم أنكر على ذلك انى أدخل مجلس السلطان بهما فنادوا به عقب الصلاة وقتلوه وجروا شلوه في سلك المدينة فزاد عينهم واجلابهم على السلطان واستقدم أحمد بن أبي الليل شيخ الكعوب لذلك العهد عثمان بن أبي دبوس من مكانه نواحي طرابلس ونصبه للامر وأجلب بعد على الحضرة فلم يزالا وخرج إليهم الوزير أبو عبد الله بن بيزكين في العساكر فهزمهم وسار بالعسكر لتمهيد الجهات وتسكين ثائرة العرب فوفد عليه أحمد بن أبي الليل ومعه سليمان من رجالات هوارة بعد ان راجع الطاعة وصراف ابن أبي دبوس إلى مكانه فتقبض عليهما وبعث بهما إلى الحضرة فلم يزالا معتقلين إلى ان هلك أحمد بحبس سنة ثمان وقام بأمر الكعوب محمد بن أبي الليل ومعه حمزة ومولاهم ابن أخيه عمر رديفين لهم خرج الوزير بعساكره سنة سبع واستوفد مولاهم ابن عمرو تقبض عليه وبعث به إلى الحضرة فاعتقل معه عمه أحمد وجاهر أخوه حمزة بالخلاف واتبعه عليه قومه فكثير عينهم وأضروا الرعايا وكثرت الشكاية من العامة ولغطوا بها في الاسواق وتصايحوا ثم نفر إلى باب يريدون الثورة فسد الباب دونهم فرموا بالحجارة وهم في ذلك يعتدون ما نزل بهم عند الحاجب ابن الدباغ ويطلبون شفاء صدورهم بقتله ورفع أمرهم الحاجب واستلحمهم

[٣١٥]

جميعا فأبى من ذلك السلطان وأمره بملاطفتهم إلى ان مكنت بيعتهم ثم تتبع بالعقاب من تولى كبر ذلك منهم وانحسم الداء وكان ذلك في رمضان من سنة ثمان واستمر العرب في غلوائهم إلى أن هلك السلطان فكان ما يأتي ذكره ان شاء الله تعالى والله أعلم * (الخبر عن انتفاض أهل الجزائر واستبداد ابن علان بها) * قد قدمنا ما كان من انتفاض الجزائر أيام المستنصر ودخول عساكر الموحدين عليهم عنوة واعتقال مشيخته بتونس حتى أطلقوا بتونس بعد مهلكة ولما استقل الأمير أبو زكريا الأوسط بملك الثغور الغربية من بجاية وفسنطينة وكان الوالي على الجزائر ابن الحكم زمن الموحدين فيبادر إلى طاعته باتفاق من مشيخة الجزائر ووفد عليه وكتب ابن الكجار بولايتها فلم يزل واليا عليهم إلى ان نشأت بنو مرين وزحفوا إلى بجاية وكان ابن الحكمار قد أسن وهرم فأدركنه الوفاة خلال ذلك وكان ابن علان من مشيخة الجزائر مختصا به ومنتصرا بأوامره ونواهييه ومصدرا لامارته حصلت له بذلك الرياسة على أهل الجزائر سائر أيامه ويقال كان له معه صهر فلما وصل ابن الكجار حدثته نفسه بالاستبداد والانتزاع بالجزائر فبعث عن أهل الشوكة من بطوانة

ليلة هلاك أميره وضرب أعناقهم وأصبح مناديا بالاستبداد والامير أبو زكريا عنده لما كان من منازلة بنى مرين بجاية إلى ان هلك وبقيت في انتقاضها على الموحدين آخر الدهر إلى ان تملكها بنو عبد الواد كما يذكر ان شاء الله تعالى * (الخبر عن مهلك الامير أبي زكريا وبيعة ابنه الامير أبي البقاء خالد) * كان الامير أبو زكريا قد استولى على الثغور الغربية كما قلنا واقتطعها من أعمال الحضرة وقسم الدعوة الحفصية بدولتين وكان على غاية من الحزم والتيقظ والصرامة لم يبلغها سواه وكان كثير الاشراف على وطنه والمباشرة لأعماله بنفسه وسد خلله ولم يزل على ذلك إلى أن هلك على رأس المائة السابعة وكان قد عهد بالامر لابنه الامير أبي البقاء خالد سنة ثمان وتسعين وعقد له على قسنطينة وأنزله بها فلما هلك الامير أبو زكريا جمع الحاجب أبو القاسم بن أبي حى مشيخة الموحدين وطبقات الجند وأخذ بيعتهم للامير أبي البقاء وطير له بالخبر واستقدمه فقدم وبويع البيعة العامة وأبقى ابن أبي حى على حمايته واستوزر يحيى بن أبي الاعلام وقدم على صنهاجة أبا عبد الرحمن بن يعقوب بن حلوب منهم ويسمى المزدار وقلد رياسة الموحدين أبا زكريا يحيى بن زكريا من أهل البيت الحفصي واستمر الامر على ذلك إلى ان كان ما نذكره ان شاء الله تعالى * (الخبر عن سفارة القاضى الغيرينى ومقتله) *

[٣١٦]

قد قدمنا ما كان من زحف بنى مرين إلى بجاية بمداخلة صاحب تونس ولما تولى السلطان أبو البقاء اعتزم على المواصلة مع صاحب تونس قطعاً للزبون عنه وعين للسفارة في ذلك شيخ القرابة المائة أبا زكريا يحيى بن زكريا الحفصي ليحكم شأن المواصلة بينهما ويبحث معه القاضى أبا العباس الغيرينى كبير بجاية وصاحب شوراها فادى رسالتهم إنقلبوا إلى بجاية ووجد بطانة السلطان السبيل في الغيرينى فأغروه به وأشاعوا أنه داخل صاحب الحضرة في التوثب بالسلطان وتولى كبر ذلك ظافر الكبير وذكر بحديثه وما كان منه في شأن السلطان أبي اسحق وانه أغرى بنى غبرين به فاستوحش منه السلطان وتقبض عليه سنة أربع وسبعمائة ثم أغروه بقتله فقتل بمحبسه في سنة ثلاث وتولى قتله منصور التركي والله غالب على أمره } الخبر عن سفارة الحاجب بن أبي حى إلى تونس وتنكر السلطان له بعدها وعزله { ولما ولى السلطان أبو البقاء كانت عساكر بنى مرين مترددين إلى أعمال بجاية بمداخلة صاحب تونس كما ذكرناه فدوخوا نواحيها وكان ابن أبي حى مستبداً على الدولة في حجابته فضاقت ذرعه بشأنهم وأهمته حال الدولة معهم ورأى ان اتصال اليد بصاحب الحضرة مما يكف عن عزمهم فعزم على مباشرة ذلك بنفسه لوثوقه من سلطانه فخرج من بجاية سنة خمس وسبعمائة وقدم إلى الحضرة رسولا علي سلطانه فاهتزت له الدولة ولقى بما يجب له ولمرسله من البر وأنزله شيخ الموحدين ومدير الدولة أبو يحيى زكريا بن اللحيانى بداره استبلاغاً في تكريمه وقضى من أمر تلك الرسالة حاجة صدره وكانت بطانة الامير أبي البقاء لما خلا لهم وجه سلطانهم منه تهافتوا على النصح إليه والسعاية بابن أبي حى عنده وشمر لذلك يعقوب بن عمر وجلا منه وتابعه عليه عبد الله الرخامى من كاتب ابن أبي حى وصديقه بما كان ابن طفيل قريبه يسخط عليه الناس ويوغر له صدورهم بباؤه وتمغيه بهم فالح له العداوة في كل جانحة وأسخطه على عبد الله الرخامى وكان صديقه ومداخله فتولى من السعاية فيه مع يعقوب بن عمر كبرها وألقى إلى السلطان أن ابن أبي حى داخل صاحب الحضرة في تمكينه بثغور قسنطينة بما كان على الامير العامل بقسنطينة صهراً لابن أبي حى وهو الذى ولاه عليها فاستتراب السلطان به وتنكر له بعد عوده من تونس وخشى كل منهما بادرة صاحبه ثم رغب ابن أبي حى في قضاء فرضه وتخليه سبيله إليه فأسعف وخرج من

بجاية ذاهبا إلى الحج ولحق بالقبائل من ضواحي قسنطينة وبجاية فنزل عليهم وأقام بينهم مدة ثم لحق بتونس وأقام بها إلى حين مهلك السلطان أبي عصيدة وبيعة أبي بكر الشهيد وحضر دخول الامير أبي البقاء عليه بتونس وخلص

[٣١٧]

من تيار تلك الصدمة فلحق بالمشرق وقضى فرضه ثم عاد إلى المغرب وفر بافريقية ولحق بتلمسان وأغرى أبو حمو بالحركة على بجاية فكان ما نذكره ان شاء الله تعالى * (الخبر عن حجابة أبي عبد الرحمن بن عمر ومصاير أمره) * هو يعقوب بن أبي بكر بن محمد بن عمر السلمى وكنيته أبو عبد الرحمن كان جده محمد فيما حدثنى أهل بيتهم قاضيا بشاطبة وخرج مع الجالية أيام العدو إلى تونس ونزل بالربيع الجوفى أيام السلطان أبي عصيدة وانتقل ابنه أبو بكر ومحمد إلى قسنطينة ونزلا على ابن أوقتان العامل عليها من مشيخة الموحدين لعهد الامير أبي زكريا الأوسط فأوسعهما عناية وتكريما وولى أبا بكر على الديوان واستخلصه لنفسه وكان يتردد إلى الحضرة ببجاية في شؤنه فاتصل بمرجان الخصى من موالى الامير أبي زكريا وخواص داره واستخدم على يد الامير خالد وأمه من كرائم السلطان فحظى عندهم وتزوج ابنه يعقوب من بنات القصر وخوله ونشأ في جو تلك العناية وأعلقوا بصحبة الحاج فضل قهرمان دار السلطان وخاصته فاستخدم له سائر أيامه إلى ان هلك وكان الحاج فضل كثيرا ما يتردد إلى الاندلس لاستجادة الثياب منها وبعثه السلطان آخر امره إلى الاندلس فاستصحب ابن عمر وهلك الحاج فضل هنا لك فعدل السلطان عن خطاب ابنه محمد إلى خطاب ابن عمر فأمره باتمام ذلك العمل والقدوم به فقدم هو وابن الحاج فضل وساء لهما السلطان عن عملهما فكان ابن عمر أوعى من صاحبه فحلى بعينه وخف عليه واعتلق بذمة من خدمته أحطته عند السلطان ورفقته فاستعمل في الجباية ثم قلد أعمال الاشغال وزاحم ابن أبي حى وعبد الله الرخامى وغصوا به فأغروا السلطان بكنيته فنكبه وأشخصه إلى الاندلس فأقام هنا لك واستعطف السلطان أبا البقاء بعد مهلك أبيه وتشفع بوسائل خدمته فاستقدمه وقدم على على وحسين ابني الرنداحى وركب معهما البحر إلى بجاية في مغيب ابن أبي حى كما ذكرناه فقلد السلطان حجابته ليعقوب بن عمر وقدم على الاشغال عبد الله الرخامى وكان ناهضا في أمور الجباية لمباشرتها مع مخدومه فأصبح رديفا لابن عمر وغص بمكانه فأغرى به السلطان ودله على مكان تثريبه وعلى عداوته فنكب وصورر وامتحن وغرب إلى ميورقة حتى افتداه يوسف بن يعقوب سلطان بنى مريين من أسره واستقدمه ليقلده أشغاله عن تنكره لعبد الله بن أبي مدين كما نذكره في اخباره فهلك يوسف بن يعقوب دون ما أمل من ذلك وأقام الرخامى بتلمسان وبها كان مهلكه واستقل يعقوب بن عمر بأعباء خطته واضطلع بها وفوض إليه السلطان في الابرام والنقض فحول المراتب بنظره وأجرى الامور على غرضه وكان أول ما أتاه صرعته لمرجان مصطنعه ملا صدر السلطان عليه وحذره مغيبته فتقبض

[٣١٨]

عليه وألقى في البحر فالتقمه الحوت فخلا وجه السلطان لابن عمر وتفرد بالعقد والحل إلى أن استولى السلطان أبو البقاء على الحضرة وكان من أمره ما يذكر ان شاء الله تعالى { الخبر عن ثورة ابن الامير بقسنطينة وبيعة السلطان أبي عصيدة ثم فتح السلطان أبي البقاء خالد لها وقتله } كان يوسف بن الامير الهمداني بعد ان قتله بطنجة

أبناء أبي يحيى من بنى مرين كما يأتي في أخبارهم انتقل بنوه إلى تونس أيام المستنصر ورعى لهم السلطان وسيلة قيامهم بالدعوة الحفصية أيام على ابن خلاص بسببته وبعدها إلى أن غلبهم عليها العزفى كما نذكره في أخبارهم فلقاهم مبرة وتكريما ونزلوا من الحضرة حين نزل تحت جارية ونعمة وعناية وكان كبيرهم متحمقا متعاطفا فريما لقي من الدولة لذلك شغبا الا أن الابقاء عليهم صار مانعا من اضطهادهم ونشأ بنوهم في ظل ذلك النعيم ثم هلك السلطان واضطربت الامور وضرب الدهر ضرباته ولحق على منهم بالثغر الغربي وتأكدت له مع ابن أبي حى لحمة نسب وذمة صهر ووشجت بينهما عروقها فلما استقل ابن أبي حى بحجاية الامير أبي زكريا لم يال جهدا في مشاركة على ابن الامير وترقيته المنازل إلى أن ولاه ثغر قسنطينة مستقلا بها وحاجبا للسلطان أبي بكر بن الامير أبي زكريا وأنزله معه فقام بحجايته وأظهر فيها غناؤه وحزمه حتى إذا سخط السلطان ابن أبي حى وصرفه عن حجايته تنكر أبو الحسن بن الامير وخشى بوادى السلطان فحول الدعوة إلى صاحب الحضرة وطير إليه بالبيعة واستدعى المدد والنائب فوصله رئيس الموحدين والدولة أبو يحيى زكريا بن أحمد بن محمد اللحيانى وعقد البيعة لسلطانه سنة أربع وسبعمائة وبلغ الخبر إلى السلطان أبي البقاء ببجاية فنهض إليه بالعساكر آخر سنة أربع وسبعمائة ونازله أياما فامتنع عليه وهم بالافراج عنه ثم داخل رجل من بطانة ابن الامير يعرف بابن نوزة أبا الحسن بن عثمان من مشيخة الموحدين وكان معسكره بباب الوادي فناجزهم الحرب من هنا لك حتى انتهى إلى السور فتسنمه المقاتلة باغضاء ابن موزة لهم عنه وركب السلطان في العساكر عند الصدمة ووقف على باب البلد وقد استمكن أولياؤه منه فخرج إليه بنو المعتمد وبنو باديس ومشيخة البلد فاقتحم البلد عنوة ومضى أبو محمد الرخامى واستنزله ثم حمله في رجال السلطان إلى دار ابن الامير فغشبه بها وقد انفض عنه الناس واستخفى بغرفة من غرف داره واستمار فلاطفه الرخامى واستنزله ثم حمله على برذون مستديرا وأحضره بين يدي السلطان فقتل ونصب شلوه وأصبح آية للمعتبرين والله أعلم * (الخبر عن حركة السلطان أبي البقاء إلى الجزائر) *

[٣١٩]

قد قدمنا ما كان من انتفاض الجزائر على الامير أبي زكريا واستبداد ابن علان بها فلما استولى السلطان أبو البقاء على الامر وتمهدت له الاحوال وأقلع بنو مرين بعد مهلك يوسف بن يعقوب عن تلمسان أعمال السلطان نظره في الحركة إليها فخرج إليهم سنة سبع أو ست وانتهى إلى منيجه ودخل في طاعته منصور بن محمد شيخ ملكين وجمع قومه ولجأ إليه راشد بن محمد بن ثابت بن منديل أمير مغراوة هاربا امام بنى عبد الواد فاواه إلى ظله وألقى عليه جناح حمايته واحتشد جميع من في تلك النواحي من القبائل وزحف إلى الجزائر وأقام عليها أياما فامتنعت عليه وأنكفأ راجعا إلى حضرته ببجاية ومطاولته الجزائر بالقتال إلى ان كان من أمرها وتغلب بنو عبد الواد عليها كما نذكره في أخبارهم وجاء معه راشد بن محمد إلى بجاية متذمما لخدمته إلى أن قتله عبد الرحمن بن خلوف كما يذكر في موضعه ان شاء الله تعالى * (الخبر عن السلف وشروطه بين صاحب تونس وصاحب بجاية) * لما افتتح السلطان أبو البقاء خالد قسنطينة وقتل ابن الامير وفرغ من ذلك الشأن أدرك أهل الحضرة الندم على ما استدبر وأمن مهادنة صاحب الثغر وقارن ذلك مهلك يوسف ابن يعقوب الذى كانوا يرجونه شاغلا له فجنحوا إلى السلم وبعثوا وفداهم في ذلك إليه فأسدوا وألجموا وشرط عليهم السلطان أبو البقاء ان من هلك منهما قبل صاحبه فالامر من بعده للآخر والبيعة له فتقرر الشرط وحضر الملا والمشيخة من الموحدين ببجاية ثم بتونس فأشهدوا به على أنفسهم وربط ذلك العهد وأحكمت أو أخيه

إلى أن نقضها أهل الحضرة عند مهلك السلطان أبى عصيدة كما
نذكره ان شاء الله تعالى * (الخبر عن سفر شيخ الدولة بتونس ابن
الليحاني لحصار جربة ومضيه منها إلى الحج) * لما انعقد أمر هذا
الصلح واستتم راجع رئيس الدولة أبو يحيى زكريا بن الليحاني نظره
لنفسه وأعمل فكره في الخلاص ممن استوطنه وكان يؤمل رجوع
الوفد المقربين بالهدية من أمراء الديار المصرية إلى يوسف بن يعقوب
فيصحبهم لقضاء فرضه وأبطأ عليه شأنهم فاعتزم على قصده وورى
بحركة آل جزيرة جربة لاسترجاعها من أيدي النصارى والرجوع عنها
ففر بعد ذلك إلى الجريد لتمهيد أحواله وتناول الرأي في الظاهر من
أمره مع السلطان فأذن له وسرح معه العساكر فخرج من تونس في
جمادى سنة ست غازيا آل جربة ولم يزل يغذ السير حتى انتهى
إلى محازها ثم عبر عنه إلى الجزيرة وكانت النصارى لما تغلبوا عليها
سنة ثمان وثمانين شيّدوا بها حصنا لاعتصام الحامية بالقشتيل
فنزلت العساكر عليه وأبعد الشيخ أبو يحيى عماله ببيجاية وأقام في
منازلته

[٣٢٠]

شهرين وانقطعت الاقوات واستعصى الحصن الا بالمطاورة فرجع إلى
قابس ثم ارتحل إلى بلاد الجريد وانتهى إلى توزر ونزلها وأعمل في
خدمته أجمع محمد بن بهلول من مشيختها فاستولى بجباية الجريد
وعاد إلى قابس وأنزله عبد الملك بن عثمان بن مكى بداره وصرح بما
ورى عنه من حجه وصرف العساكر إلى الحضرة وولى بعده رياسة
الموحدين وتديبر الدولة أبو يعقوب بن يزدوتن وتحول عن قابس إلى
بعض جبالها تجافيا عن هوائها الوخم وأقام في انتظار الركب
الحجازى وكان مريضا فتحول إلى طرابلس فأقام بها عاما ونصفه إلى
ان وصل وفد الترك من الغرب الاقصى آخر سنة ثمان فخرج معهم
حاجا ثم قضى فرضه وعاد فكان من شأنه واستيلائه على منصب
الخلافة ما يأتي ذكره ووصل من النصرانية إلى قشتيل سنة ثمان
بعد منصرف العساكر عنهم وفيهم مدرك ابن الطاغية صاحب صقلية
فقاتلهم أهل الجزيرة من المكارية بنظر أبى عبد الله بن الحسين من
مشيخة الموحيدين ومعه ابن أومغار في قومه من أهل جربة فأظفروه
الله بهم ولم يزل شأن هذه الجزيرة من المكان مع العدو كذلك منذ
نشأت دولة صنهاجة وربما وقعت الفتنة بين المكارية فتصل احدى
الطائفتين يدها بالنصارى إلى ان كان ارتجاعها في هذه النوبة سنة
وأربعين لعهد مولانا السلطان أبى يحيى كما نذكره في اخباره ان
شاء الله تعالى * (الخبر عن مهلك السلطان أبى عصيدة وخبر أبى
بكر الشهيد) * كان السلطان أبو عصيدة بعد تهيب سلطانه وتمهيد
ملكه طريقه مرض الاستسقاء فآزم به ثم مات على فراشه في
ربيع الآخر سنة تسع ولم يخلف ابنا وكان بقصرهم سبط من أعقاب
الامير أبى زكريا جدهم من ولد أبى بكر ابنه الذى ذكرنا وفاته في
خبر شقيقه أبى حفص في فتح مليانة أيام السلطان المستنصر فلم
يزل بنوه في قصورهم وفى ظل ملكهم ونشأ منهم أبو بكر بن عبد
الرحمن بن أبى بكر في ايلة السلطان أبى عصيدة ورى في جميع
نعمته فلما هلك السلطان أبو عصيدة ولم يعقب وكان السلطان أبو
البقاء خالد قد نزع إليه حمزة بن عمر عند الايالة من خروج أخيه من
محبسه فرغبه في ملك الحضرة واستحثه عليها ثم وصل أبو عبد الله
بن يركين السلطان أبى عصيدة واستنهض السلطان أبى البقاء من
ملك تونس فنهض كما نذكر واستتراب الموحدون بتونس في شأن
حركته فخافوه على أنفسهم فباعوا لهذا الامير أبى بكر الذى عرف
بالشهيد بما كان من قبله لسبع عشرة ليلة من بيعته وأبقى أبى عبد
الله بن يركين على وزارته وزحزح محمد بن الدباغ عن رتبة الحجابة
فتوعدده لما كان يحقد عليه من التقصير به أيام سلطانه فكان عون
عليه إلى ان هلك عند استيلاء السلطان أبى البقاء كما نذكره ان
شاء الله تعالى

* (الخبر عن استيلاء السلطان أبي البقاء على الحضرة وانفراده بالدعوة الحفصية) * لما بلغ السلطان أبا البقاء بمكانه من بجاية وأعمالها الخبر بمرض السلطان أبي عصيدة مع ما كان من العقد بينهما بأن من مات قبل صاحبه جمع الأمر بعده للأخر داخلته الطنة أن ينتقض أهل الحضرة في هذا الشرط واعتزم على النهوض لمشاركة الحضرة ووصل إليه حمزة بن عمر نازحا عنهم فرغبه واستحثه وخرج من بجاية في عساكره وورى بالحركة إلى الجزائر لما كان من انتقاضهم على أبيه واستبداد ابن علان بها ثم ارتحل إلى قصر جابر وعند بلوغه إليه ورد الخبر بمهلك السلطان أبي عصيدة وبيعة الموحدين بعده لابي بكر بن عبد الرحمن بن أبي بكر ابن الامير أبي زكريا فاضطعتها على الموحدين وأخذ السير وانحاش إليه كافة أولاد أبي اليل واجتمع أمثالهم أولاد مهلهل إلى صاحب تونس وخرج معهم شيخ الدولة أبو يعقوب بن يزدرتن والوزير أبو زكن أبو عبد الله بن تبكن في العساكر للقاء ووقوا سلطانهم بأنفسهم فلما زحف إليهم السلطان أبو البقاء اختل مصافهم وانهمزموا وانتهب المعسكر وقتل الوزير أبو زكن وأجفلت أحياء العرب إلى القفر ودخل العسكر إلى البلد واضطرب الأمر وخرج الامير أبو بكر بن عبد الرحمن فوقف بساحة البلد قليلا ثم تفرق عنه العسكر وتسايلوا إلى السلطان أبي البقاء وفر أبو بكر ثم ادرك ببعض الجهات فمئل إلى السلطان فاعقله وغزا بالسلطان أهل الحضرة من المشيخة والموحدين والفقهاء والكافة ففقدوا بيعته وقتل الامير فسمى الشهيد آخر الدهر وباشر قتله ابن عمه أبو زكريا يحيى بن زكريا شيخ الموحدين ودخل السلطان من الغد إلى الحضرة واستقل بالخلافة وتلقب بالناصر لدين الله المنصور ثم استضاف إلى لقبه المتوكل وأبقى ابا يعقوب بن يزدرتن في رياسته على الموحدين مشاركا لابي زكريا يحيى بن ابي الاعلام الذي كان رئيسا عنده قبلها واستمر على خطة الحجابة أبو عبد الرحمن يعقوب بن عمر وولى على الاشغال بالحضرة منصور بن فضل بن مزني وجرت الحال على ذلك إلى أن كان ما نذكره ان شاء الله تعالى * (الخبر عن بيعة ابن مزني يحيى بن خالد ومصاير أموره) * كان يحيى بن خالد ابن السلطان أبي اسحق في جملة السلطان أبي البقاء خالد وتكررت له الدولة لبعض النزعات فخشى البدار وفر فلحق بمنصور بن مزني وكان منصور قد استوحش من ابن عمر فدعاه إلى القيام بأمره فأجاب وعقد له على حجابته وجمع له العرب وأجمع على قسنطينة أياما وبها يومئذ ابن طفيل وكانت قد اجتمعت ليحيى بن خالد زعنفة من الاوغاد اشتملوا عليه واشتمل عليهم وأغروه بابن مزني فوعدهم إلى حين ظفروا واطلع ابن مزني على سوء دغلته فنفض يده من طاعته وانصرف عنه إلى بلده فانفضت جموعه

وراجع ابن مزني طاعة السلطان أبي البقاء ومخالصة بطانته وحاجه فتقبلوه ولحق يحيى بن خالد بتلمسان مستجيشا ونزل على أميرها أبي زيان محمد بن عثمان بن يغمراسن فهلك لأيام من قدومه وولى بعده أبو حمو موسى بن عثمان فأمدته وزحف إلى محاربة قسنطينة فامتنعت عليه ثم استدعاه ابن مزني إلى بسكرة فأقام عنده وأسنى له الجراية ورتب عليه الحرس وكان السلطان ابن اللحياني يبعث إليه من تونس بالجائزة مصانعة له في شأنه حتى لقد أقطع له بتونس من قرى الضاحية ما كان للسلطان وابنه فلم يزل في اسهامه واسهام بنيه من بعده إلى أن هلك يحيى بن خالد بمكان عنده سنة احدى وعشرين والله تعالى أعلم * (الخبر عن بيعة

السلطان أبى بكر بقسنطينة على يد الحاجب ابن عمر وأولية ذلك) * لما نهض السلطان أبو البقاء إلى الحضرة عقد على بجاية لعبد الرحمن بن يعقوب بن مخلوف مضافا إلى رياسته في قومه كما كانوا يستخلفون أباه عليها عند سفرهم عنها وكان يلقب المزوار وجعله حاجبا لآخيه الامير أبى بكر على قسنطينة فانتقل إليها وعكف السلطان أبو البقاء في تونس وعظم بطشه فقتل عدوان بن المهدي من رجالات سدونكش ودعار بن حريز من رجالات ابن امانج فتفاوض رجال الدولة في شأنه وخشوا غدرته وأعمل الحاجب ابن عمر وصاحبه منصور بن فضل عامل الزاب الحيلة في التخلص من ابالته واستعصب راشد بن محمد أمير مغراوة كان نزع إليهم عند استيلاء بنى عبد الواد على وطنهم فتلقوه من الكرامة بما يناسبه واستقر في جملتهم وعليه وعلى قومه تدور رضى حروبهم واستصحب السلطان أبو البقاء خالد إلى الحضرة الامير على زناتة فدفع بعضهم حشمه إلى الحاجب في مقعد حكمه وقد استعدى عليه بعض الخدم فأمر بقتله لحيته وأحفظ ذلك الامير راشد بن محمد فرتب لها عزائمه وقوض خيامه لحيته مغاضبا فوجد الحاجب بذلك سبيلا إلى قصده وتمت حيلته وحيلة صاحبه وأهم السلطان شأن بجاية ونواحيها وخشى عليها من راشد بما كان صديقا ملاطفا لعبد الرحمن بن مخلوف وفاوضهما فيمن يدفعه إليها فأشار عليه الحاجب بمنصور بن مزنى وأشار منصور بالحاجب وتدافعها أياما حتى دفعها جميعا إليه وطلب ابن عمر من السلطان العقد لآخيه أبى بكر على قسنطينة فعقد له وولى عليا ابن عمه الحجابة بتونس نائبا عنه وفصل من الحضرة ولحق بقسنطينة وصرف منصور بن فضل إلى عمله بالزاب فكان من خلفه ما يذكر وقام ابن عمر بخدمة السلطان أبى بكر بتصرف في حجابته ثم داخله في الانتقاض على أخيه ويدت مخايل ذلك عليهم فارتاب لهم السلطان أبو البقاء وأحس على بن الغمر بارتياحه فلحق بقسنطينة وجهز السلطان أبو البقاء عسكريا وعقد

[٣٢٣]

عليه لطافر مولاه المعروف بالكبير وسرحه إلى قسنطينة فانتهى إلى باجة وأناخ بها إلى أن كان من أمره ما يذكر ويادر ابن عمر إلى المجاهدة ودعا مولانا السلطان أبى بكر إليه فأجابه وأخذله البيعة على الناس فتمت سنة احدى عشرة وسبعمائة وتلقب بالمتوكل وعسكر بظاهر قسنطينة إلى أن بلغه مجاهرة ابن مخلوف بخلافهم فكان ما نذكره ان شاء الله تعالى { الخبر عن استيلاء السلطان على بجاية ومقتل ابن مخلوف وما كان من الادارة في ذلك } كان يعقوب بن مخلوف ويكنى أبى عبد الرحمن كبير صنهاجة من جند السلطان المواطنين بنواحي بجاية وكان له مكان في الدولة وغناء في حروبهم ودفاع عدوهم ولما نزلت عساكر بنى مرين على بجاية مع أبى يحيى بن يعقوب بن عبد الحق سنة ثلاث وسبعمائة كان له في حروبهم مقامات مذكورة وأثار معروفة وكان الامير أبو زكريا وابنه يستخلفونه بجاية ازمان سفرهم عنها وكان يلقب بالمزوار ولما هلك خلفه في سبيله تلك ابنة عبد الرحمن واستخلفه السلطان أبو البقاء خالد على بجاية عندما نهض إلى تونس سنة تسع وأنزله بها وكان طموحا لجوجا مدلا بياسه وقدمه ومكانه من الدولة فلما دعا السلطان أبو بكر لنفسه وخلع طاعه أخيه وأخذله أبو عبد الرحمن بن عمر البيعة على الناس وخطبوه بأخذ البيعة له على من يليه ببجاية وأعمالها فأبى منها وتمسك بدعوة صاحبه ونفس على ابن عمر ما تحصل له من ذلك من الحظ فجاهر بخلافهم وجمع واحتشد وتقبض على صاحب الاشغال عبد الواحد بن القاضى أبى العباس الغمارى وعلى صاحب الديوان محمد بن يحيى القالون مصطنع الحاجب بن عمر من أهل المرية كان اسدي إليه عند اجتيازه به معروفا ورجل إليه عندما استولى على لرتبة ببجاية فكافاه عن معروفه واصطنعه

وألقى عليه محبته ورفاهه إلى الرتب وصرفه في أعمال الجباية وقلده ديوان بجاية فتقبض عبد الرحمن بن مخلوف عليه وعلى صاحبه وجمع الناس وأعلن بالدعوة للسلطان أبي البقاء خالد وارتحل السلطان أبو بكر من معسكره بظاهر قسنطينة وأخذ السير إلى بجاية ونزل مطلا عليه وأمهل الناس عامه يومهم وشرط ابن مخلوف على السلطان عزل ابن عمر وترددت الرسل بينهم في ذلك وكان الوزير أبو زكريا بن أبي الأعلام من الساعين في هذا الإصلاح بما كان له من الصهر على ابن مخلوف وحين رجع إليه بامتناع السلطان عن شرطه ومنعه من الرجوع إليهم وحبسه عنده وزحف أهل المعسكر بالسلطان وخاموا عن لقاء صنهاعة ومن معهم من مغراوة أهل الشوكة والعصية والعدد والقوة وأجفل السلطان من معسكره فانتهب وأحدث

[٣٢٤]

إليه وسلب من كان من المعسكر وأخلاق الناس ودخل السلطان إلى قسنطينة في فل من معسكره وبعث ابن مخلوف عسكريا في اتباعه فوصلوا إلى ميله فدخلوها عنوة ثم وصلوا إلى قسنطينة فقاتلها أياما ثم رجعوا إلى بجاية وأقام السلطان واضطرب أمره وتوقع زحف ظافر إليه من باجة واتصل به أن أبا يحيى زكريا بن أحمد اللحياني قفل من المشرق وأنه لما انتهى طرابلس دعا لنفسه لما وجد بأفريقية من الاضطراب فبوع وتوافقت إليه العرب من كل جهة فرأى السلطان من مذاهب الحزم أن يبعث إليه بالحاجب ابن أبي عبد الرحمن بن عمر ليشيد من سلطانه ويشغل أهل الحضرة عنه فوري بالفرار عن السلطان وتواطأ معه على المكر بابن مخلوف في ذلك ولحق ابن عمر باللحياني واستحثه لملك تونس وهون عليه الأمر وغدا السلطان عند فصول ابن عمر على منازلها فكبسها وسطا بحاشيته وولى حجابته حسن بن ابراهيم بن أبي بكر بن ثابت رئيس أهل الجبل المطل على قسنطينة والغل من كتامة ويعرف قومه بينى نهلان وكان قد اصطنعه من قبل وارتحل بالعساكر إلى بجاية سنة ثنتي عشرة واستخلف على قسنطينة عبد الله بن ثابت أخا الحاجب وأشييع بالجهات أن السلطان تنكر لابن عمر وسخطه وأنه ذهب إلى ابن اللحياني واستجاشه على الحضرة وبلغ ذلك ابن مخلوف واستيقن اضطراب حال السلطان خالد بتونس فطمع في حجابة السلطان أبي بكر وتوثق لنفسه منه بالعهد بمدخلة عثمان ابن سل بن عثمان بن سباع بن يحيى من رجالات الزواودة والولى يعقوب الملاذى من نواحي قسنطينة وأخذ السير من بجاية ولقى السلطان ببرجيوه من بلاد مدونكش فلقاه مبرة ورجبا ثم استدعاه من جوف الليل على رواقه إلى شرب مع مواليه فعاقروهم الخمر إلى أن ثمل واستغضبه ببعض النزعات فغضب وأفرغ فتناولوه طعنا بالخناجر إلى أن قتلوه وجر واشلوه فطرحوه بين الفساطيط وتقبض على سائر قومه وحاشيته وفر كاتبه عبد الله بن هلال فلحق بالمغرب وارتحل السلطان مغذا إلى بجاية فدخلها وظفر بها وتملك بها حتى ربا ملكه وعلا وكان دخوله إلى بجاية على حين غفلة من أهلها واستولى السلطان على سائر المملكة التي كانت تحت إيالة أبيه بالجهة المعروفة بالناحية الغربية وتكمل واستوسق له أمرها وأقام في انتظار صاحبه ابن عمر إلى أن كان من الأمر ما نذكره إن شاء الله تعالى { الخبر عن مهلك السلطان أبي البقاء خالد واستيلاء السلطان أبي يحيى بن اللحياني على الحضرة } كان السلطان أبو البقاء خالد بعد بيعة السلطان أبي بكر بقسنطينة قد اضطربت أحواله وجهز إليه العساكر لمنازلة قسنطينة وعقد عليها لمولاه ظافر المعروف بالكبير فعسكر

بجاية وأراح ينتظر أمر السلطان وكان أبو يحيى زكريا بن أحمد بن محمد بن اللحياني ابن أبي محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص قد بويع بطرابلس لما قفل من المشرق ورأى اضطراب الاحوال ووفد عليه هنا لك الحاجب أبو عبد الرحمن بن عمر بهدية من السلطان أبي بكر وانه يمدده ويظاهاهه على شأنه فأحكم ذلك من عقدتي وشد من أمره وتوافت إليه رجالات الكعوب أولاد أبي اليل ومعهم شيخ دولته أبو عبد الله محمد بن محمد المزدوري فأغذوا السير إلى الحضرة وبعث السلطان إلى مولاه ظافر بمكانه من باجة مستجيشا به فاعترضوه قبل وصوله وأوقعوا به واعتقلوا ظافرا وصبحوا تونس ثامن جمادى سنة احدى عشرة ووقفوا بساحتها فكانت هبة بالبلد قتل فيها شيخ الدولة أبو زكريا الحفصي وغدا القاضي أبو اسحق بن عبد الرفيق على السلطان وكان متبوعا صارما قوى الشكيمة فأغراه بمدافعة العدو فخام عن لقائه واعتذر بالمرض واشهد بالانخلاع عن الامر وحل البيعة ودخل أبو عبد الله المزدوري القصر فاستمكن من اعتقاله ثم جاء السلطان أبو يحيى اللحياني على أثره بلا تأخر فبويع البيعة العامة بظاهاها ودخل إلى البلد واستولى عليها وولى على حجابته كاتبه أبا زكريا يحيى ابن على بن يعقوب على الاشغال بالحضرة بحضرة ابن عمه محمد بن يعقوب وبنو يعقوب هؤلاء أهل بيت بشاطبة من بيوت العلم والقضاء وقدموا إلى الحضرة امام بجاية وكان منهم أبو القاسم عبد الرحمن بن يعقوب وفد مع ابن الامين صاحب طنجة كما قدمناه وتصرف في القضاء بافريقية وولاه السلطان المنتصر قضاء الحضرة وسافر عنه إلى ملوك مصر وكان بنو على هؤلاء عبد الواحد ويحيى ومحمد من أقاربه فكان لهم ظهور في دولة السلطان أبي حفص وبعدها وكان عبد الواحد منهم صاحب جباية الجريد وهلك بنو زر سنة ثنتين وسبعمئة وكان السلطان أبو يحيى بن اللحياني قد استكتب أخاه أبا زكريا يحيى ايام رياسته على الموحدين فحظى عنده واختصه ولازمه وحج معه فلما ولى الخلافة أحطاه وولاه حجابته ولما استقر بتونس واستوسق له الامر أعاد الحاجب أبا عبد الرحمن بن عمر إلى مرسله السلطان ابن بكر بعد أن وثق معه العهد إلى أبي يحيى على المعاهدة وضمن له ابن عمر فأقام عنده مكرما متسع الجراية والاسهام إلى أن كان من الامر ما نذكره ان شاء الله تعالى والله أعلم * (الخير عن قدوم ابن عمر على السلطان بجاية ونكية ابن ثابت وظافر الكبير) * لما قدم ابن عمر على بجاية استبد بمحاربتة وكفالتة كما كان وليوم وصوله من عبد الله ابن هلال كاتبه ابن مخلوف ولحق بتلمسان وشمر ابن عمر عزائمه للاطلاع بأمره ودفع حسن بن ابراهيم بن ثابت عن الرتبة فلم يتزحزج يوما وخرج لجباية الوطن ثم أغرى به

السلطان وحذره من استبداده بقسنطينة لمكان معقله المجاور لها وسعايات تنصح بها حتى صادفت القفول بمكانه والوثوق بنصائحه وخرج السلطان في العساكر من بجاية إلى قسنطينة سنة ثلاث عشرة للنظر في احوالها فلما انتهى إلى برجيوه لقيه عبد الله بن ثابت فتقبض عليه وعلى أخيه حسن بن الحاجب سنة ثلاث عشرة بعد أن استصفى أموالهما ويقال انه بعد خروج حسن بن ثابت إلى عمل قسنطينة بعث في أثره بعض مواليه وأوعز معهم إلى عمل عبد الكريم بن منديل ورجالات سدونكش فقتلوه بوادي القطن وأن السلطان لم يباشر نكيتة وكان ظافر الكبير بعد انهزامه وحصوله في أسر العرب كما قدمناه انعموا عليه وأطلقوه ولحق بالسلطان أبي بكر فأثره واستخلصه كما كان لآخيه وولاه على قسنطينة عند نكية بن ثابت واستكتب أبا القاسم ابن عبد العزيز لخلوه من الولايات فأقام ظافرا واليا بقسنطينة ثم استقدمه السلطان إلى بجاية وقد غص ابن

عمر بمكانه فأغرى به السلطان فتقبض عليه وأشخصه في السعية إلى الأندلس والله أعلم * (الخبر عن منازلة عساكر بني عبد الواد بجاية وما كان في ذلك من الاحداث) * كان السلطان أبو يحيى بعد انهزام جنده عن بجاية سنة عشر بعث سعيد بن بشر بن يخلف عن مواليه إلى أبي حمو موسى بن عثمان بن يغمراسن وكان قد أتيح له في زناطة المغرب الاوسط ظفر واعتزاز فملك أمصارهم من أيدي بني مرين من بعد مهلك يوسف بن يعقوب على تلمسان ودوخ جهاته واستولى على أعمال مغراوة وتوجين وملك الجزائر واستنزل منها ابن علان الثائر بها وملك تدلس من يد ابن مخلوف فطمع لذلك موسى بن عثمان في ملك بجاية ثم بلغه مهلك ابن مخلوف فبعث إليه السلطان في المواصلة واستيلاء السلطان على ثغره فاستمر على المطالبة وادعى أن بجاية له في شرطه وقرن ذلك لحاق صنهجة إليه عند مهلك صاحبهم فرغبوا في ملك بجاية وضمنوا له ثم قدم عثمان بن سباع ابن يحيى مغاضبا للسلطان بما كان من اساءته عليه في ابن مخلوف واخفار ذمته وعهده فيه واستقر عنده ابن أبي يحيى بعد منصرفه عن الحجابة ورجوعه من الحج فرغبوا في ذلك واستحثوه لطلب بجاية فسرح العساكر إليها لنظر محمد ابن عمه يوسف بن يغمراسن ومسعود بن عمه أبي عامر ابراهيم ومولاه مسامح وبعث معهما أبا القاسم بن أبي يحيى الحاجب ففصلوا عنه بدار مقامه بشلف فأغذوا السير وهلك ابن أبي يحيى في طريقه بجبل ونازلوا البلد ثم جاوزوها إلى الجهات الشرقية فأخذوا فيها ودخلو خيل ابن ثابت واستولوا عليه واستباحوه سنة ثلاث عشرة ونالت منهم الحامية في المدافعة بالقتل والجراحات أعظم النيل وقفلوا راجعين فشيّدوا حصنا باوصفون فخرّب وانتهبت

[٣٢٧]

أقواته وعدده وسرح أبو حمو عساكرا آخر لحصار بجاية عقد عليه لمسعود بن عمر بن عامر بن ابراهيم بن يغمراسن فنازلوها سنة خمس عشرة واتصل بهم خروج محمد بن يوسف بن يغمراسن وبنو توجين معه على أبي حمو وانهم أوقعوا به وهزموه واستولوا على معسكره فأجفل مسعود بن أبي عامر وعسكره وأفرجوا عن بجاية ووصل على أثرها خطاب محمد بن يوسف بالطاعة والانحياش فبعث السلطان إليه صنيعته محمد ابن الحاج فضل بالهدية والآلة ووعده بالمظاهرة وتسويغ السهام التي كانت ليغمراسن بافريقية وشغل ابن عبد الواد عن بجاية وخرج السلطان في عساكره للاشراف على وطنه إلى أن كان ما نذكره ان شاء الله تعالى * (الخبر عن استبداد ابن عمر بجاية) * لم يزل ابن عمر مستبدا على السلطان في حجابته يرى أن زمامه بيده وأمره متوقف على إنفاذه وصار يغريه ببطانته فيقتلهم ويغرمهم وربما كان السلطان يأنف من استبداده عليه ودخله بعض أهل قسنطينة سنة ثلاث عشرة لما أهمهم من حصارها واتصلت حاله معه على ذلك النحو من الاستبداد إلى أن بلغ السلطان الشوة وأرهب حده وسطا محمد بن فضل فقتلهم في خلوة مع قربه من غير مؤامرة الحاجب وياكر ابن عمر مقعده بباب دار السلطان فوجد شلوه ملقى في الطريق مدرجا في ثيابه وأخبر أن السلطان سطا به فدخله الريب من استبداد السلطان وأرهاب حده وخشى بوادره وتوقع سعاية البطانة وأهل الخلوة فتحيل في بعده عنه واستبداده بالثغر دونه فأغراهم بطلب افريقية من يد ابن اللحيانى وجهزهم بما يصلح من الآلة والفساطيط والعساكر والخدام ورتب له المراتب وارتحل السلطان إلى قسنطينة سنة خمس عشرة ثم تقدم غازيا إلى بلاد هوارة وأجفل عنها ظافرا بهم وكان قائدها من مواليهم فاستوفى بجاية هوارة وقفل إلى قسنطينة سنة ست عشرة واستبد ابن عمر بجاية ومدافعة العدو من زناطة عنها واستخلف على حجابة السلطان محمد بن قانون قرّة عينه بما كان يؤمل من استبداده إلى أن كان من أمره ما نذكره ان شاء الله تعالى

* (الخبر عن سفر السلطان أبي يحيى اللحياني إلى قابس وتجافيه عن الخلافة) * كان هذا السلطان أبو يحيى اللحياني قد طعن في السن وكان بصيرا بالسياسة مجريا للامور وكان يرى من نفسه العجز عن الخلافة واستحقاقها مع أبناء الامسير أبي زكريا الاكبر استفحال صاحب الثغور الغربية الامير أبي زكريا واستغلاظ أمره بمن انتظم في ديوان جنده من أعياص زناتة وفحول شولهم من توجين مغراوة وبنى عبد الواد وبنى مرين كانوا

[٣٢٨]

يفزعون إليه مع الامام من ملوكهم خشية على أنفسهم لما فاسموهم في النسب وساهموهم في يعسوية القبيل وفحولية الشول ومنهم من غلبوا على مواطنهم فملكوها عليهم مثل مغراوة وبنى توجين وملكيش فاستكف بذلك جند السلطان وكثرت جموعه وهابه الملوك ونهض سنة ست عشرة إلى افريقية وجال في بلاد هوارة وأخذ جبايتها كما ذكرنا فتوقع السلطان ابن اللحياني زحفه إليه بتونس وكانت افريقية مضطربة عليه وكان تعوبله في الحامية والمدافعة على أوليائه من العرب ولى منهم حمزة بن عمر بن أبي ليل فحكمه الشركة في سلطانه وأفرده برياسة العرب وأجره الرسن وسرب إليه الاموال وكثر بذلك زيون العرب واخلافهم عليه فاجتمع على التقويض عن افريقية ونفض من الخلافة فجمع الاموال والذخيرة وباع ما كان بمودعاتهم من الأنية والفرش والخرثي والماعون والمتاع حتى الكتب التي كان الامير أبو زكريا الاكبر جمعها واستجاد أصولها ودواوينها أخرجت للوراقين فبيعت بدكاكين سوقهم فجمع من ذلك زعموا قناطر من الذهب تجاوز العشرين قنطارا وجوالقين من حصى الدر والياقوت وخرج من تونس إلى قابس موريا بمشاركة عملها فاتح سنة سبع عشرة بعد ان رتب الحامية والحضرة وباجة والحمامات واستخلف بالحضرة وخرج من تونس إلى قابس وانتهى إلى قابس فأقام بها وصرف المال في جهاتها إلى أن كان من بيعة ولده من تونس كما نذكره بعد ان شاء الله تعالى * (الخبر عن نهوض السلطان أبي بكر إلى الحضرة ورجوعه إلى قسنطينة) * لما رجع السلطان من هوارة إلى قسنطينة سنة ست عشرة كما قدمناه استبلغ في جهاد حركة أخرى إلى تونس فاحتشد وقسم العطاء وأزاح العلل واعترض الجنود على طبقاتهم من زناتة والعرب وسدونكش واستخلف على قسنطينة الحاجب محمد بن القانون وبعث إلى حاجبه الاعظم أبي عبد الرحمن بن عمر بمكانه من امارة بجاية في مدد المال للنفقات والاعطيات فبعث إليه منصور بن فضل موزنى عامل الزاب وكان ابن عمر لما رأى من كفايته وانه جماعة للمال استضاف له عمل جبل أوراس والحصنة وسدونكش وعباص وسائر اعمال الضاحية فكانت اعمال الجباية كلها بنظره واموالها في حساب دخله وخرجه فبعثه ابن عمر ليقيم انفاق السلطان واستخلفه على خطة حجابته وارتحل السلطان من قسنطينة في جمادى سنة سبع عشرة يطوى المراحل ولقيه في طريقه وفود العرب وانتهى إلى باجة مستغيثا حاميتها إلى تونس وكان السلطان أبو يحيى اللحياني قد خرج عنها إلى قابس كما قدمناه واستخلف عليها أبا الحسن بن وانودين وبعث إليه بنهوض السلطان أبي بكر إلى تونس وانه محتاج

[٣٢٩]

إلى المدافعة فاعتذر لهم اللحياني بما قبله من الاموال وأطلق يدهم في الجيش والمال فركبوا واستلحقوا رئيس الديوان وأخرجوا ابنه محمدا ويكنى أبا ضربة فأطلقوه من اعتقاله ولقيهم الخبر باشراف

السلطان أبي بكر إلى باجة فخرجوا جميعا من تونس وخالفهم إلى السلطان مولاهم ابن عمر بن أبي الليل كان مضطغنا على الدولة متربصا بها كما كان اللحياني يؤثر عليه أخاه حمزة فلقى السلطان دوين باجة فأعطاه صفقته واستحثه ووصل إلى تونس فنزل روض السنافرة من رياض السلطان في شعبان من سنة سبع عشرة وخرج إليه الملا وترددوا في البيعة بعض الشئ انتظار الشأن أبي ضربة وأصحابه وكان من خبرهم ان السلطان لما أغذ السير من باجة بادر حمزة بن عمر إلى بطانة اللحياني وأوليائه بتونس فلقبهم وقد خرجوا عنها فأشار عليهم ببيعة أبي ضربة ابن السلطان اللحياني ومزاحفة القوم به فبايعوه وزحفوا إلى لقاء السلطان ودس حمزة إلى أخيه مولاهم أن يزحف بالمعسكر فأجفل السلطان عن مقامته بروض السنافرة سبعة أيام من احتلاله قبل أن يستكمل البيعة وارتحل إلى قسنطينة ورجع عنه مولاهم من تخوم وطنة وسرح منصور بن مزني إلى ابن عمر بباجة ودخل أبو ضربة بن اللحياني والموحدون إلى تونس منتصف شعبان من سنته وبويع بالحضرة البيعة العامة وتلقب المنتصر وأراد أهل تونس على إدارة سور بالارباض فيكون سياجا عليها فأجابوه إلى ذلك وشرع فيه وأوهنه العرب في مطالبهم واشتطوا عليه في شروطهم إلى أن عاود مولانا السلطان حركته كما نذكر ان شاء الله تعالى { الخبر عن استيلاء السلطان أبي بكر على الحضرة وإيقاعه بأبي ضربة وفرار أبيه من طرابلس إلى المشرق } لما فقل السلطان من تونس إلى قسنطينة بعث قائده محمد بن سيد الناس بين يديه إلى بجاية فارتاب لذلك ابن عمر بوصول أمره وتنكر له ولعر السلطان بذلك وأغضى له وطالبه في المدد فاحتفل في الحشد والآلة والابنية وبعث إليه سبعة من رجال الدولة بسبعة عساكر وهم محمد بن سيد الناس ومحمد بن الحكم وظفر السنان وأخوه من موالى الامير أبي زكريا الاوسط ومحمد المديوني ومحمد المحرسى ومحمد البطوي وبعث له من فحول زيناتا وعظمائهم عبد الحق بن عثمان من أعياص بنى مرين كان ارتحل إليه من الاندلس كما نذكر في خبره وأبا رشيد بن محمد بن يوسف من أعياص بنى عبد الواد فيمن كان معهم من قومهم وحاشيتهم وتراموا بعساكرهم عند السلطان بقسنطينة فاعتزم على معاودة الزحف إلى تونس وكان قد اختبر أحوال افريقية وأحسن في ارتياضها فخرج في صفر من سنة ثمانى عشرة واستعمل على حجابته أبا عبد الله

[٣٣٠]

ابن الفالون ويرادفه أبو الحسن بن عمرو وافاه بالاندلس وفد هواره وكبيرهم سليمان بن جامع وأخبروه بأن أبا ضربة بن اللحياني انتقل من باجة بعد أن نازلها معتزما على اللقاء فارتحل مولانا السلطان مغذا ولقيه مولاهم ابن عمر فراجع الطاعة وارتحلوا في اتباع أبي ضربة وجموعه حتى شارفوا القيروان فخرج إليه عاملها ومشيعتها فألقوا إليه باليد وأعطوا الطاعة وارتحل السلطان راجعا عن اتباع عدوه إلى الحضرة وقد نزل بها أبو ضربة بن اللحياني من بطانة محمد بن الفلاق لتمانع ذويها فأخرج الرماة إلى ساحتها وقل العساكر ساعة من نهار ثم اقتحموها عليه واستبيح عامة أرباضها وقتل ابن الفلاق ودخل السلطان إلى الحضرة في ربيع من سنته فأقام خللا انعدت بين العامة وقدم على الشرطة ميمون بن أبي زيد واستخلفه على البلد ورحل في اتباع أبي ضربة بن اللحياني وجموعه فأوقع بهم بمصوب من جهات بلاد هواره وقتل من مشيخة الموحدين أبا عبد الله بن الشهيد من أهل البيت الحفصى وأبا عبد الله بن ياسين ومن ضبة كتاف أبي الفضل الجائى وتقبض على شيخ الدولة أبي محمد عبد الله بن يعمر وقيد إلى السلطان فعفا عنه وقومه ليومه ثم أعاده إلى خطته بعد ذلك ورجع السلطان إلى تونس من سنته وكان السلطان أبو عيسى بن اللحياني لما بلغه

الخبر بنهوض السلطان إلى تونس حركته الثانية سنة سبع عشرة وما كان من بيعة الموحدين والعرب لابنه أبي ضربة وارتحل من مقامه بقابس إلى نواحي طرابلس ثم بلغه رجوع السلطان إلى قسنطينة فأوطن طرابلس أبا عبد الله بن يعقوب قريب حاجبه ومعه هجرس بن مرغم كبير الجوازي من ذئاب فدوخ البلاد وفتح المعازل وجبى الاموال وانتهى إلى برقة واستخدم آل سالم وآل سليمان من حزب ذئاب ورجع إلى سلطانه بطرابلس ووفاه الجند بانهازم أبي ضربة ابنه فبعث حاجبه أبا زكريا ابن يعقوب ووزيره أبا عبد الله بن ياسين بالاموال لاحتشاد العرب ففرقوها في علان وذئاب وزحف أبو ضربة إلى القيروان وبلغ خبره إلى السلطان أبي بكر فخرج من تونس آخر شعبان من سنة ثمان عشرة فأجفلوا عن القيروان ثم تذامروا وعقلوا رواحلهم مستميتين بزعمهم حتى أطلت عليهم العساكر بمكان فج النعام فانفضت جموعهم وشردت رواحلهم وارتحلوا منزهمين والقتل والنهب يأخذ منهم مأخذه ولجأ أبو ضربة في فله إلى المهديّة وكانوا مقيمين على دعوة أبيه فامتنع منها إلى أن كان من شأنه ما ذكره وبلغ خبره إلى أبيه بمكانه من طرابلس فاضطرب معسكره وبعث إلى النصاري في اسطول بحمله إلى الاسكندرية فوافده ستة أساطيل فاحتمل أهله وولده وركب البحر ومعه حاجبه أبو زكريا بن يعقوب إلى الاسكندرية واستخلف على طرابلس أبا عبد الله بن أبي

[٣٣١]

عمران من ذوى قرابته وصهره فلم يزل بها إلى أن استدعاه الكعوب ونصوه للامر وأجلبوا به على السلطان مرارا كما نذكره بعد وركب السلطان أبو يحيى بن اللحياني البحر إلى الاسكندرية فنزل بها على السلطان محمد بن قلاون من ملوك الترك بمصر والشام واستقدمه إلى مصر فعظم من مقدمه واهتز للقائه ونوه من مجلسه وأسنى من جرابته واقطاعه إلى أن هلك سنة ثمان وعشرين ورجع السلطان أبو بكر إلى تونس بعد الواقعة على أبي ضربة وقومه بفج النعام فدخلها في شوال من سنته واستقامت أفريقية على طاعته وانتظمت أمصارها وثغورها في دعوته إلى المهديّة وطرابلس كما ذكرناه إلى أن كان ما يأتي ذكره ان شاء الله تعالى { الخبر عن مهلك الحاجب بن عمر بجاية وولاية الحاجب محمد بن القالون عليها ثم الادالة منه بابن سيد الناس { كان الحاجب بن عمر لما استبد بجاية سنة خمس عشرة انتقل السلطان إلى قسنطينة ولم يراجعها بعد ثم لما رجع من تونس ثانية حركته سنة سبع عشرة صرف إليه منصور ابن فضل وبعث في أثره قائده أبا عبد الله محمد ابن حاجب أبيه محمد بن سيد الناس يهين له قصوره بجاية للتحويل إليها فردّه ابن عمر وتكر له وطالبه السلطان في الممد فبادر به فأقطعه جانب الرضا وعقد له على بجاية وقسنطينة كما ذكرنا ذلك كله قبل فاستبد ابن عمر بالثغر وما إليه من الاعمال مقتصرًا على ذكر السلطان في الخطبة واسمه في السكة وأقام على ذلك إلى أن ملك السلطان تونس واستولى علي جهاتها وبعث إليه بابن عمه على بن محمد بن عمر فعقد له أبو عبد الرحمن الحاجب على قسنطينة فمضى إليها وهو في خلال ذلك كله يدافع عساكر زناتة عن بجاية وقد كان أبو حمو صاحب تلمسان بعد ظهوره على محمد بن يوسف واسترجاعه بلاد مغراوة وتوجين من يده كما قدمناه يسرب العساكر لحصارها وابتنى بالوادي على مرحلتين منها قلعة بكر يجهز بها الكتائب لحصارها ثم هلك أبو حمو وولى ابنه أبو تاشفين من بعده سنة ثمان عشرة فتنفس مخنق الحصار عن بجاية ريثما كانت حركة السلطان إلى تونس وفتحها ثم خرج أبو تاشفين من تلمسان لتمهيد أعماله وقتل محمد بن يوسف بمعقله من جبل وانشريس كما نذكره في أخبارهم فارتحل من هنا لك راجعا إلى تلمسان وأصاب ابن عمر مرض فبعث عن على ابن عمه بمكان عمله بقسنطينة وعهد إليه بأمره والقيام بولاية بجاية إلى أن يصل أمر

السلطان وهلك لا يام على فراشه في شوال من سنة تسع عشرة وقام على بن عمر بأمر بجاية واتصل الخبر بالسلطان فأهمه شأن الثغر وطير ابن سيد الناس إليه مع قهرمانه داره لتحصيل خربته والبحث عن ذخيرته فاستوفى من ذلك فوق الكثرة من الصامت والذخيرة وقدم معه

[٣٣٢]

على بن غمر فأولاه السلطان من رضاه ما أحسب أمله وأقام بالحصرة إلى أن كان منه خلاف مع ابن أبي عمران ثم راجع الطاعة وقد أحفظ السلطان بولاية عدوه فلما عاد إلى تونس أوعز إلى مولاه نجاح وحملال بقتله فأغتلوه خارجا من بستانه فأشوهوه وهلك من جراحته والله اعلم } الخبر عن امارة الامير أبي عبد الله على قسنطينة وأخيه الامير أبي زكريا على بجاية وتولية ابن القالون على حجابتها { لما هلك ابن عمر أهم السلطان شأن بجاية لما كانت عليه من حال الحصار ومطالبة بنى عبد الواد فرأى أن يكشف الحامية بالثغور القريبة وينزل بها ابناءه للمدافعة والحماية وعقد على قسنطينة لابنه الامير أبي عبد الله وعقد على بجاية لابنه الآخر الامير أبي زكريا وجعل حجابتها لابي عبد الله بن القالون مستيدا عليها لمكان صغرهما وأكثف له الجند وأمره بالمقام ببجاية للممانعة من العدو الملح على حصارها وارتحلوا من تونس فاتح سنة عشرين في احتفال من العسكر والاصحاب والابهة وابقى خطة الحجابة خلوا ممن يقوم بها ابقاء على ابن القالون وبقى للتصرف في الامور من رجالات السلطان أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز الكردى الملقب بالمزوار وكان مقدما على بطانة السلطان المعروف بالدخلة وعلى الاشغال الكاتب أبو القاسم بن عبد العزيز وسنذكر اوليتهما بعد وانصرف إلى بجاية رافلا في حلق العز والتنويه إلى أن كان من أمره ما نذكره ان شاء الله تعالى والله أعلم } الخبر عن استفدام ابن القالون والادالة منه بابن سيد الناس في بجاية وبظافر الكبير في قسنطينة { لما انصرف أبو عبد الله بن يحيى بن قالون إلى بجاية وخلا وجه السلطان فيه لبطانته عند ولايته ببجاية بثوا فيه السعايات ونصبوا له الغوائل وتولى كبر ذلك المزوار بن عبد العزيز بمدخلة أبي القاسم بن عبد العزيز صاحب الاشغال وعظمت السعايات فيه عند السلطان حتى داخلته فيه الظنة وعقد لمحمد بن سيد الناس على بجاية وقام بأمر حصارها وحجابة أميرها إلى أن استقدم للحجابة وكان من أمره ما نذكره ومر ابن قالون بقسنطينة في طريقه إلى الحصرة فحدثه نفسه بالامتناع بها وداخل مشيختها في ذلك فأبوا عليه فأشخصهم إلى الحصرة نكالا بهم ونمى الخبر بذلك إلى السلطان فاسرها لابن قالون وعزم على استضافة الحجابة بقسنطينة لابن سيد الناس فاستعفى مشيختها وأروه ان الامين قريبه وابن أخيه وذكره ثروة أبيه فأقصر عن ذلك وصرف اعترامه إلى مولاه ظافر الكبير وذلك عند قدومه من المغرب وكان من خبره انه كان من موالى الامير

[٣٣٣]

أبي زكريا وكان له في دولة ابنه السلطان أبي البقاء ظهور وزحف هو بالعساكر عند ما استتراب السلطان أبو بكر فأقام بباجة وجاء المزدورى والعرب إلى تونس في مقدمة ابن اللحياني فزحف إليهم ففضوه وتقبضوا عليه كما ذكرنا ذلك كله ثم لحق بعدها بمولانا السلطان أبي يحيى وأعادته إلى مكانه من الدولة وولاه قسنطينة عند مهلك ابن ثابت سنة ثلاث عشرة ثم غص به ابن عمرو أغرى به السلطان فأشخصه في السفين إلى الاندلس وجاز إلى المغرب

ونزل على السلطان أبي سعيد إلى أن بلغه الخبر بمهلك ابن عمر فكر راجعا إلى تونس ولفاه السلطان مبرة وتكراما ووافق ذلك وصول الحاجب ابن قالون من بجاية فعقد السلطان لظافر هذا على حجابة ابنه بقسنطينة الأمير أبي عبد الله فقدمها وقام بأمرها واستعمل ذويه وحاشيته في وجوه خدمتها وصرف من كان هنا لك من الخدام أهل الحضرة إلى بلدهم وكان بها أبو العباس بن ياسين متصرفا بين يدي الأمير أبي عبد الله والكاتب أبو زكريا بن الدباغ على أشغال الحجابة وكانا قدما من الحضرة في ركاب الأمير أبي عبد الله فصرهما القائد ظافر لحين وصوله واشتغل بأمره إلى أن كان ما نذكره ان شاء الله تعالى * (الخبر عن ظهور ابن أبي عمران وفرار ابن قالون إليه على عينه) * كان محمد بن أبي عمران هذا من أعقاب أبي عمران موسى بن ابراهيم ابن الشيخ أبي حفص وهو الذي ولي افريقية نائبا عن أبي محمد عبد الله ابن عمه الشيخ أبي محمد عبد الواحد كتب له بها من مراكش لاول ولايته فأقام واليا عليها ثمانية أشهر إلى أن قدم آخر سنة ثلاث وعشرين وستمائة وأقام أبو عمران هذا في جملتهم إلى أن هلك ونشأ بنوه في ظل دولتهم إلى أن كان من عقبه أبو بكر والد محمد هذا فكان له صيت وذكر وكان السلطان أبو يحيى زكريا بن اللحياني قد رعى له ذمة قرابته ووصله بصره عقده لابنه محمد على ابنته واستخلفه على تونس عند خروجه عنها ثم استخلفه على طرابلس عند ركوبه السفينة إلى الاسكندرية وكان أبو ضربة بعد انهزامه وافتراق جموعه اعتمص بالمهدية ونزله بها السلطان أبو بكر فامتنعت عليه وأقلع عنها على سلم عقده لابي ضربة وأقام حمزة ابن عمر في سبيل خلافة على السلطان يتقلب في نواحي افريقية حتى عظم زبونه على السلطان ونزع إليه الكثير من الاعراب وكثرت جموعه فاستقدم محمد بن أبي عمران من مكان ولايته لثغر طرابلس وزحف إلى تونس مفاوضا إلى السلطان وكمال تعبته فخرج السلطان أبو بكر عن تونس في رمضان من سنة احدى وعشرين ولحق بقسنطينة وصحبه إليها مولاهم ابن عمرو كان الحاجب محمد بن يحيى بن قالون قد غصنه البطانة والحاشية بالمعاية فيه عند السلطان وتبين له انحرافه عنه وكان معن بن مطاع الفزاري وزير

[٣٣٤]

حمزة بن عمرو صاحب شواره صديقا لابن قالون ومخالصا له فداخله في الاجلاب بابن أبي عمران فلما خرج السلطان أمام زحفهم تخلف ابن قالون بتونس وركب من الغد في البلد مناديا بدعوة ابن أبي عمران ودخل ابن أبي عمران ثانية خروج السلطان واستولى على الحضرة وأقام بها بقية سنته وصدرا من أخرى ولحق السلطان بقسنطينة فجمع عساكره واحتشد جموعه وأزاح العلل واستكمل التعبية وزحف منها في صفر سنة ثنتين وعشرين وخرج ابن أبي عمران للقائه مع حمزة بن عمر في جموع ولقيهم السلطان أولى وثانية بالرحلة وأوقع بهم وقتل شيخ الموحدين أبا عبد الله بن أبي بكر وكان على مقدمتهم محمد بن أبي منصور بن مزني وغيره وأثنى العساكر فيهم قتلا وأسرا وكان للسلطان فيها ظهور لا كفاء له ثم قبض على مولاهم ابن عمر فكان من خبره ما نذكره ان شاء الله تعالى * (الخبر عن مقتل مولاهم ابن عمرو أصحابه من الكعوب) * لما أتيح للسلطان من الظهور على ابن أبي عمران واتباعه والظفر بهم ما أتيح وصنع لهم فيه رغم أنف مولاهم ابن عمرو ظهرت من أصحابه كلمات أنبات بفاسد دخلتهم ثم نمى للسلطان أن مولاهم داخل في الفتك به ابنه منصورا وربيبه جعدان ومعدان ابن عبد الله ابن أحمد بن كعب وسليمان بن جامع من شيوخ هوارة وثنى بذلك عنهم ابن عمهم عون ابن عبد الله بن أحمد بعد أن داخلوه فيها فتنصح بها للسلطان فلما عدوا على السلطان قبض عليهم وبعثهم إلى تونس فاعتقلوا بها ورجع هو إلى الحضرة فدخلها في جمادى

من سنته وجدد البيعة على الناس وزحفت العرب في اتباعه حتى نزلوا بظاهر البلد وشارطوا عليه اطلاق مولاهم وأصحابه فأنفذ السلطان قتلهم فقتلوا بمحبسهم وبعث باشلائهم إلى حمزة فعظم عنده موقع هذا الحزن وصرخ في قومه وتأمروا أن يئاروا بصاحبهم وأغذ السير إلى الحضرة وابن أبي عمران معهم على حين افتراق وإزاحة السلطان ووطنوا أنهم ينتهزون الفرصة وخرج السلطان عن تونس لاربعين يوما من دخولهم ولحق بقسنطينة ودخل ابن أبي عمران إلى تونس فأقام بها ستة أشهر خلال ما احتشد السلطان جموعه واستكمل تعبيته ونهض من قسنطينة وزحف إليه ابن أبي عمران وهزمه ابن عمر في جموعه فأوقع السلطان بهم وأثن فيهم وشردهم في النواحي وعاد إلى تونس فدخلها في صفر سنة ثلاث وعشرين ومضى حمزة لوجهه إلى أن كان من امره ما نذكره ان شاء الله تعالى * (الخبر عن واقعة رغييس مع ابن اللحياني وزناته وواقعة الشقة مع ابن أبي عمران) * لما انهزم حمزة بن عمرو بن أبي عمران عن تونس مرة بعد أخرى ورأى حمزة ابن أبي عمران غير مغن عنه صرفه إلى مكان عمله بطرابلس وبعث إلى أبي ضربة ابن السلطان

[٣٣٥]

اللحياني بمكانه من المهديّة فداخله في الصريح بزناة والوفود على سلطان بنى عبد الواد فرحل معه أبو ضربة ووفدوا على أبي تاشفين صاحب تلمسان ورغبوه في الظفر ببجاية وأن يشغل صاحب تونس عن مددها بترديد البعوث وتجهيز العساكر إليه فسرّح معهم السلطان ألقا من العسكر وعقد عليها لموسى بن على الكردى صاحب الثغر بتميزدكت وكثير الحاشية والرجالات وارتحلوا من تلمسان يغذون السير وبلغ السلطان خبر فصولهم بتلمسان فبرز للقائهم من تونس في عساكره حتى انتهى إلى رغييس بين بونة وقسنطينة ولما أطلت عساكر زناته والعرب اختل مصاف السلطان وانهزمت المجنّبات وثبت في القلب وصدق العزيمة واللقاء فأختل مصافهم وانهزموا في شعبان سنة ثلاث وعشرين وامتلات أيدي العساكر من اسلابهم والسبايا من نساء زناته ومر عليهم السلطان وأطلقهن ورجع أبو ضربة وموسى بن على الكردى في فلهم إلى تلمسان وعاد السلطان إلى حضرته لايام من هزيمتهم ولقيه الخبر في طريقه باجتماع العرب بنواحي القيروان فتخطى الحضرة إليهم ولقيهم بالشقة وأوقع بهم ورجع إلى تونس في شوال من سنة أربع وعشرين فاتبعه حمزة ومن معه إلى تونس عند ما افتترقت العساكر ومعه ابراهيم بن الشهيد الحفصى وسبق إليه بخبرهم عامر أبو على ابن كثير فخرج للقائهم من يومه في خف من الجنود بعد أن بعث عن عسكر باجة وقائدها عبد الله العاقل مولاة فصبحه العرب بنواحي شاذلة فقاتلوه صدرها وحمى الوطيس ووصل عبد الله العاقل والناس متواقفون واشتدت الحرب ثم كانت الهزيمة على العرب واستبيحت حرمااتهم وافتترقت جموعهم ورجع السلطان إلى البلد واستقر بالحضرة والله تعالى أعلم * (الخبر عن اجلاب حمزة بابراهيم بن الشهيد وتغلبه على الحضرة) * لما انهزم أبو ضربة بن اللحياني وحمزة بن عمرو عساكر بنى عبد الواد لحق أبو ضربة بتلمسان فهلك بها ولقى حمزة بعده من الحروب مع السلطان ما لقى وبتس الكعوب من غلابه وتدمير والفتنته والاجلاب عليه فوفد حمزة ابن عمر على ابن تاشفين صريخا ومعه طالب بن مهلهل قرنه في قومه ومحمد بن مسكين شيخ بنى حكيم من أولاد القوس وكلهم من سليم ومعهم الحاجب ابن قالون فاستحثوا عساكره لصريخهم فكتب لهم السلطان كتيبة عقد عليها لموسى بن على الكردى وأعادته معهم ونصب لهم لملك تونس من أعياص أبي حفص ابراهيم بن الشهيد منهم وأبوه الشهيد هو أبو بكر بن أبي الخطاب عبد الرحمن الذي نصب للامر عند مهلك السلطان ابي عسيده وقتله السلطان أبو

البقاء خالد كما ذكرناه وكان أبو هم هذا قد لحق بالعرب ونصوه للامر وأجلبوا به

[٣٣٦]

على تونس اثر واقعة رغيص وبرزت إليهم العساكر فانهمزوا كما ذكرناه ولحق بتلمسان وجاء هذا الوفد على اثره فنصبه السلطان أبو تاشفين لهم واستعمل على حجابته محمد بن يحيى بن القالون وبعث معهم العساكر لنظر موسى بن علي الكردي وزحفوا إلى افريقية وخرج السلطان أبو بكر من تونس لمدافعتهم في ذي القعدة من سنة أربع وعشرين وانتهى إلى قسنطينة وعاجلوه قبل استكمال التعيينة فنزل بساحتها وأقام موسى بن علي على منازلها بعساكر بنى عبد الواد وتقدم ابراهيم بن الشهيد وحمزة بن عمر إلى تونس فدخلها في رجب سنة خمس وعشرين واستمكن منها وعقد على باجة لمحمد بن داود من مشيخة الموحدين وثار عليه في بعض ليالى رمضان بعض بطانة السلطان كانوا بالبلد في غيابات الاختفاء وكان منهم يوسف بن عامر بن عثمان وهو ابن أخى عبد الحق بن عثمان من اعياص بنى مريين وفيهم القائد بسلاط من وجوه الترك المرتدفة بالحضرة وابن حسان نقيب الشرفاء فاندعوا واجتمعوا من وجوه الليل وهتفوا بدعوة السلطان وطافوا بالقصبة فامتنعت عليهم فعمدوا إلى دار كشلى من الترك المرتدفة وكان بطانة لابن القالون فقاتلوا وامتنعت عليهم ثم أعجلهم الصباح عن مرامهم وتتبعوا بالقتل وفرغ من شأنهم وكان موسى بن علي ومن معه من العساكر لما تخلف عن ابن الشهيد لحصار قسنطينة أقام عليها أياما ثم أفلح عنها لخمس عشرة ليلة من منازلته ورجع إلى صاحبه بتلمسان وخرج السلطان من قسنطينة فاستكمل الحشد والتعيينة ونهض إلى تونس فأجفل منها ابن الشهيد وابن القالون ودخلها السلطان في شوال سنة خمس وعشرين واستولى على دار ملكه وأقام بها إلى أن كان من أمره ما تذكره ان شاء الله تعالى * (الخبر عن حصار بجاية وبناء تيمرزدكت وانهمزام عساكر السلطان عنها) * كان أبو تاشفين منذ خلا له الجو وتمكن في الامر من القوم يلح على بجاية بترديد البعوث ومطاوله الحصار والسلطان أبو بكر يدفع ل حمايتها والممانعة دونها من رجالات دولته وعظماء وزرانه الاول فالاول من أهل الكفاية والاضطلاع بما يدفع إليه من ذلك وسرب إليهم المدد من الاموال والاسلحة والجنود وتعهد إليهم بالصبر والثبات في المواطن ونظراؤه من وراء ذلك وكان أبو تاشفين كلما أحس من السلطان أبى بكر بنهوضه إلى المدافعة عنها أو عزم على غزو كتائبه المجهزة عليها رماه بشاغل يوهن من عزمه ويسكن عنان بطشه وكانت فتنة ابن عمر من أدهى الشواغل في ذلك بما كان يجنب العرب عن الطاعة ويجمع الاعراب للاجلاب على الحضرة وينصب الاعياص يطمعهم فيما ليس لهم من نيل الخلاف كان ذلك ديدنا متصلا أزمان تلك المدة ولما سرح

[٣٣٧]

أبو تاشفين العساكر سنة خمس وعشرين إلى ابراهيم بن الشهيد وحمزة بن عمر وأوليائهم من أهل افريقية وعقد عليها لموسى بن علي من رجالاته نازل قسنطينة ثم أفلح عنها وعاد حصارها سنة ثمان وعشرين وشن النارة في نواحيها واكتسح الاموال ورجع إلى وادى بجاية فاخذت مدينة بسكلات على مرحلة منها وعلى فارة الطريق الشارع من الغرب إلى الشرق بما كانت بجاية رائعة عنه إلى البحر فاخذتوا تلك المدينة وشيدوها وجمعوا الايدي عليها وقسموها مسافات على جيوشهم فاستتمت لاربعين يوما وسموها بتيمرزدكت

باسم حصنهم الاقدم بالجبل قبالة وجدة حيث امتنع يغمراسن على السعيد ونازله وهلك عليه كما ذكرناه في أخباره وشحنوا هذه المدينة بالاقوات والعدد وعمروها بالمقاتلة من الرجل والفرسان والقبائل وأخذت بمخنق البلد وقلق السلطان بمكانها فاعوز إلى قواد عساكره وأصحاب عمالاته من مواليه وصنائعه أن يفروا بعساكرهم إلى صاحب الثغر محمد بن سيد الناس ويزحفوا معه إلى هذا البلد المخروپ ويستमितوا دون تخريبه فنهض ظافر الكبير من قسنطينة وعبد الله العاقل من هوارة وظافر السنان من بونة وتوافوا بجاية سنة سبع وعشرين وبلغ موسى بن علي خبرهم فاستنفر من عساكر بنى عبد الواد وخرجت العساكر جميعا من بجاية تحت لواء ابن سيد الناس وزحف إلى العدو بمحلهم من بسكلات فكانت الدبرة عليه وعلى أصحابه وقتل ظافر الكبير ورجع فلهم إلى بجاية وداخلت ابن سيد الناس فيهم الظنة كما تداخل موسى بن علي ابن زبون كل واحد منهما بصاحبه على سلطانه فمنعهم من دخول البلد ليلتذ وأسحروا قافلين إلى أعمالهم وعقد السلطان على قسنطينة لابي القاسم بن عبد العزيز أياما ثم استقدمه إلى الحضرة ليستعين به محمد بن عبد العزيز المزوار في خطة حجابته بما كان غفلا من الادوات التى تحتاج إليها الحجابة وعقد على حجابة الامير أبي عبد الله بقسنطينة لمولاه ظافر السنان إلى ان كان من تحويل شأنه ما نذكره اه *)الخبر عن مهلك الحاجب المزوار وولاية ابن سيد الناس مكانه ومقتل ابن القالون) * هذا الرجل محمد بن القالون المعروف بالمزوار لا أدري من أوليته أكثر من أنه كردى من الاكراد الذين وفد رؤساؤهم على ملوك المغرب أيام اجلاهم التتر عن أوطانهم بشهر زور عند تغلبهم على بغداد سنة ست وخمسين وستمائة فمنهم من أقام بتونس ومنهم تقدم إلى المغرب فنزلوا على المرتضى بمراكش فأحسن جوارهم وصار قوم منهم إلى بنى مرين واخرون إلى بنى عبد الواد حسبا يذكر في أخبارهم ومن المقيمين بالحضرة كان سلف ابن عبد العزيز هذا إلى أن نشأ هو في دولة الامير أبي زكريا الاوسط صاحب الثغور الغربية تحت كنف من اصطناعه واختلط بأبنائه وقدم في جملة ابنه السلطان أبي

بكر إلى تونس مقدما في بطانته ورئيسا على الحاشية المتسمين بالدخلة وكان يعرف بذلك بالمزوار وكان شهما وقورا متدينا وله في الدولة حظ من الظهور وهو الذى تولى كبر السعاية في الحاجب بن القالون حتى ارتاب بمكانه ووفد إلى أبي عمران سنة احدى وعشرين كما قدمناه وولاه السلطان الحجابة مكانه فقام بها مستعينا بالكاتب أبي القاسم بن عبد العزيز لخلوه هو من الادوات وانما كان شجاعا ذا همة ولم يزل على ذلك إلى أن هلك في شعبان سنة سبع وعشرين وأراد السلطان على الحجابة محمد بن خلدون جدنا الاقرب فأبى ورغب في الاقالة فأجيب جنوحا لما كان بسبيله منذ سنين من الصاعية في السكون والفرار من الرتب وأشار على السلطان بصاحب الثغر محمد بن أبي الحسين بن سيد الناس لتقدمة سلفه مع سلف السلطان وكثرة تابعه وحاشيته وقوة شكيمة في الاضطلاع بما يدفع إليه أخبرني بهذا الخبر أبى رحمه الله وصاحبنا محمد بن منصور بن مزنى قال لى حضرت لاستدعاء جدكم إلى معسكر السلطان بباجة يوم مهلك المزوار وأدخله السلطان إلى رواقه وغاب مليا ثم خرج وقد استفاض بين البطانة والحاشية أنه دعى إلى الخطة فاستكره وأقام السلطان يومئذ في خطة الحجابة الكاتب أبا القاسم بن عبد العزيز يقيم الرسم واستقدم خالصة محمد ابن حاجب أبيه أبي الحسين ابن سيد الناس فقدم في محرم فاتح ثمان وعشرين وولاه حجابته فاضطلع بها وحدد له العقد على بجاية وحجابة ابنه بها فدفع إليها للنباية عنه في الحجابة صنيعته محمد بن فرحون ومعه كاتبه أبو القاسم بن المريرد وجرى

الحال على ذلك ببجاية وعساكر زنانة تجوس خلالها ومعاقلم تأخذ بمخنقها وقدم ابن القالون دوين مقدم ابن سيد الناس بشفاعة من نزله على بن أحمد سيد الزواودة وطمع في عوده إلى الخطة وكان من خبره أنه لما تخلف عن السلطان بتونس في خدمة ابن أبي عمران رأى ركوب السفن إلى الاندلس فأعجلهم السلطان عن ذلك وخرج مع ابن أبي عمران فأجلب معه على الحضرة مرارا ولحق بتلمسان ثم جاء مع ابن الشهيد وفعل الأفاعيل ثم انحل أمر ابن الشهيد ولحق هو بالزواودة من رياح ونزل على على بن أحمد رئيسهم لذلك العهد فأجاره وأنزله بطولقة من بلاد الزاب وخاطب السلطان في شأنه واقتضى له الامان حتى أسعف ووفد على الحضرة مع أخيه موسى بن أحمد وفي نفس ابن القالون طمع في الخطة وسبقه ابن سيد الناس إلى السلطان فأشغل بها وجاء ابن القالون من بعده فأوصله السلطان إلى نفسه واعتذر إليه ووعدته وعقد له على قفصة فسار إليها وصحب موالى السلطان من المعلوجين بشهير وفارح وأوعز ابن سيد الناس إلى مشيخة قفصة يتقبضون على حاميته ليتمكن الموالى منه فلما نزل بساحة البلد قتل في سكرها فكانت لقتله هبة تسامع الناس بعظمها من خارج

[٣٣٩]

البلد وبرز ابن القالون من فسطاطه وقد كر فتقدم إليه الموالى الذين جاؤا معه وتناولوه طعنا بالخناجر إلى أن هلك والله وارث الارض ومن عليها * (الخبر عن ولاية الفضل على بونة) * كان السلطان عقد على بونة منذ أول دولته لمولاه مسرور المعلوجى فقام بأمرها فاضطلع بولايتها وكان من القبضة ومراسي الحروب بمكان وكان مع ذلك غشوما جبارا وخرج إلى ولهاصة سنة فاضطرهم ونهضوا إلى مدافعتهم عن أموالهم فحاربهم وبلغ خبر مهلكه إلى السلطان فعقد على بونة لابنه أبى العباس الفضل وبعثه إليها وولى على حجابته وقيادة عسكره ظافر السنان من مواليه المعلوجين فقام بما دفع إليه من ذلك أحسن قيام إلى أن كان من أمرهم ما تذكره * (الخبر عن واقعة الرياس وما كان قبلها من مقتل الامير أبى فارس أخى السلطان) * كان السلطان أبو بكر لما قدم إلى تونس قدم معه اخوته الثلاثة محمد وعبد العزيز وعبد الرحمن وهلك عبد الرحمن منهم وبقي الأخران وكانا في ظل ظليل من النعمة وحظ كبير من المساهمة في الجاه وكان في نفس الامير أبى فارس تشوف إلى نيل الرتبة وتريص بالدولة وكان عبد الحق بن عثمان بن محمد بن عبد الحق من فحول بنى مريين وأعياص ملكهم قدم على الحضرة نازعا إليها من الاندلس فنزل على ابن عمر ببجاية قبيل مهلكه سنة ثمان عشرة ثم لحق بالسلطان فلقاه ميرة ورحبا ووفر حظه وحظ حاشيته من الجرايات والاقطاع وجعل له أن يستركب ويستلحق وكان يستظهر به في مواقف حروبه ويتجمل في المشاهد بحركاته بما كان سيدا في قومه وكان قد انعقدت له بيعة على أهل وطنه وكانت فيه غلظة وأنفة وإباء وغدا في بعض أيامه على الحاجب بن سيد الناس فتلغاه الاذن بالعدز فذهب مغاضبا ومر بدار الامير أبى فارس فحمله على ذات صدره من الخروج والثورة وخرجا من يومهما في ربيع سنة سبع وعشرين ومرا ببعض أحياء العرب فاعترضهما أمير الحى فعرض عليهما النزول فأما عبد الحق فأبى وذهب لوجهه إلى أن لحق بتلمسان وأما الامير أبو فارس فأجاب ونزل وطبروا بالخبر إلى السلطان فسرح لوقته محمد بن الحكيم من صنائعه وقواد دولته في طائفة من العسكر والنصارى فصجوه في الحى وأحاطوا ببيت نزله باليد ودافع عن نفسه مستميتا فقتلوه قعصا بالرماح وجاؤا بشلوه إلى الحضرة فدفن بها ونزل عبد الحق بن عثمان على أبى تاشفين حين نزل ورغبه فيما كان بسبيله من مطالبة الدولة الحفصية وتدويخ ممالكها ووفد على أثره حمزة بن عمر ورجالات سليم صريخا على

عادتهم فأجاب أبو تاشفين صريخهم ونصب لهم محمد بن عمران
وكان من خبره أنه تركه السلطان اللحياني عاملا على طرابلس فلما

[٣٤٠]

انهزم أبو ضربة وانحل أمره استقدمه العرب وأجلبوا به على الحضرة
سنة احدى وعشرين فملكها ستة أشهر ثم أجفل عنها عند رجوع
السلطان إليها ولحق بطرابلس إلى أن انتقض عليه أهلها سنة أربع
وعشرين وثاروا به وأخرجوه فلحق بالعرب وأجلبوا به على السلطان
مرارا ينهزمون عنه في كلها ثم لحق بتلمسان واستقر بها عند أبي
تاشفين في خير جوار وكرامة وجراية إلى أن وصل هذا الوفد إليه
سنة تسع وعشرين فنصبه للامر بافريقية وامدهم بالعساكر من
زناتة عليهم ليحيى بن موسى من بطانته وصنائع أبيه ورجع معهم
عبد الحق بن عثمان بمن في جملة من بنيه وعشيرته ومواليه
وحاشيته وكانوا أحلاس حرب وفتيان كريهة فنهضوا جميعا إلى تونس
فرحف السلطان للقائهم وتراءى الجمعان بالرياس من نواحي هوارة
آخر سنة تسع وعشرين فدارت الحرب واختل مصاف السلطان وقلت
جموعه وأحيط به فأقلت بعد عصب الربق وأصابته في حومة الحرب
جراحة وهن لها وقتل كثير من بطانته وحاشيته كان من أشهرهم
محمد المديوني وانتهب المعسكر وتقبض على أحمد وعمر ابني
السلطان فاحتلما إلى تونس حتى أطلقهما أبو تاشفين بعد ذلك في
مراسلة وقعت بينه وبين السلطان فاتحه فيها أبو تاشفين وجنح إلى
السلم وأطلق الابنين ولم يتم شأن الصلح من بعد ذلك وتقدم ابن
أبي عمران بعد الواقعة إلى تونس فدخلها في صفر سنة ثلاثين
واستبد عليه يحيى بن موسى قائد بني عبد الواد وحجب التصرف
في شئ من أمره ثم عاد يحيى بن موسى إلى سلطانه أبي بكر
من قسنطينة إلى تونس بعد أن استكمل الحشد والتعبية فأحفل
ابن عمران عنها ودخل إليها السلطان في رجب من سنته إلى أن
كان ما تذكره { الخبر عن مراسلة ملك الغرب في الاستجاشة على
بني عبد الواد وما يتبع ذلك من المصاهرة } كان السلطان أبو بكر لما
خلص من واقعة الرياس نجا إلى بونة وركب منها البحر إلى بجاية وقد
ضاق ذرعه بالحاح بنى عبد الواد على ممالكة وتجهيز الكنائس على
ثغره وترديد البعوث إلى وطنه فأعمل نظره في الوفاة على ملك
المغرب السلطان أبي سعيد ليذكره ما بين سلفه وسلفهم من
السابقة وما لهم عند بنى عبد الواد فيأخذ بحجزتهم عند ثم عين
للوفاة عليه ابنه الامير أبو زكريا وبعث معه أبا محمد عبد الله بن تافرا
كين من مشيخة الموحدين لسان الخطابة ونجيا لشوراه وركبوا البحر
من بجاية فنزلوا بمرسى غساسة واهتز صاحب المغرب لقدمه
وأكرم وفادته واستبلغ في القرى والاجازة وأجاب دعاءهم إلى محاربة
عدوهم وعدوه على شريطة اجتماع اليد عليها وموافاة السلطان
أبي سعيد والسلطان أبي يحيى بعساكرهما تلمسان لموعد ضربه
لذلك وكان السلطان أبو

[٣٤١]

سعيد بعث سنة احدى وعشرين يحيى الرنداحي قائد الاسطول
بسببة إلى مولانا السلطان أبي بكر في الاصحار على احدى كرائمه
وشغل عن ذلك ما وقع من شأن ابن أبي عمران فلما وفد عليه ابن
السلطان وأولياؤه أعاد الحديث في ذلك وعين للنيابة عنه في
الخطبة من السلطان ابراهيم بن أبي حاتم العزفي وصرفه مع الوفد
فوافوا السلطان بتونس آخر سنة ثلاثين وقد أطرده عدوه وشفى
نفسه فجاءه شقة الامير أبي زكريا بالسفر إليهم وزفها إليه في
أساطيله سنة احدى وثلاثين وانفذ لزفاتها من مشيخة الموحدين أبا

القاسم بن عتو ومحمد بن سليمان الناسك وقد مر ذكره فنزلت على وثير من الغبطة والعز وكان الشأن في مهرها وزفافها ومشاهد أعراسها وولائمها وجهازها كله من المفخر للدولتين ولم يزل مذكورا على الايام * (الخبر عن حركة السلطان إلي المغرب وفرار بنى عبد الواد وتخريب تيمرز دكت) * مات السلطان أبو سعيد على تفيئة ما قدمناه من الاخبار آخر سنة احدى وثلاثين وولى السلطان أبو الحسن من بعده فبعث إلى أبي تاشفين يخاطبه في القبض على عنان عيثة ببلاد الموحدين وطغيانه عليها فلج واستكبر وأساء الرد فنهض إليه على سبيل الصرخ لهم سنة ثنتين وثلاثين وطوى البلاد طيا إلى تلمسان وأفرجت عساكرهم عن بجاية إلى سلطانهم وتقدم السلطان أبو الحسن عن تلمسان لمشاركة أحوال بجاية والاخذ بحجزة العدو لمحاصرتها وبعث عسكرا من قومه مددا لهم عقد عليهم لمحمد البطوي وأركبهم أساطيله من سواحل وهران فدخلوا إليها وقبولوا بما يناسبهم من الكرامة والجرية واستنهض السلطان أبو الحسن أبا بكر لحصار تلمسان معه كما كان الشرط بين أبيه وبين ابنه الامير أبي زكريا فشرع السلطان في جهاز حركته وازاحة علة وأقام السلطان أبو الحسن في تاسالة في انتظاره شهرا حتي انصرف فصل الشتاء وبلغه بمعسكره من تاسالة أن أخاه السلطان أبا على صاحب سجلماسة انتقض عليه وخرج إلى درعة فقتل عامله عليها بعد أن كان داخله وعقد له على المهادنة والتجا في عنه بمكانه من سجلماسة فلما بلغه هذا الخبر كر راجعا إلى المغرب لاصلاح شأنه وكان السلطان أبو بكر قد خرج من تونس واحتفل في الحشد والتعبية فانتهى إلى بجاية وبعث مقدماته إلى ثغور بنى عبد الواد المحيطة ببجاية فهزموا كتائبها ثم زحف بجملته إلى تيمرز دكت وفرت عنها الكتائب المجهزة بها فأناخ عليها حتى خربها وانتهب أموالها وأسلحتها ونسف آثارها وقفل عنها إلى بلد المسيلة أختها في الغي وموطن أولاد سباع من الزاودة كانت مشيختهم سليمان ويحيى أبناء على بن سباع وعثمان بن سباع عمهم وابنه سعيد قد تمسكوا بطاعة أبي تاشفين وحملوا عليها قومهم ونهجوا لعساكره السبيل إلى وطى بلاد

[٣٤٢]

الموحدين والعيث فيها ومجاذبة حبلها وأقطعهم أبو تاشفين بلاد المسيلة وجبال مشنان ووانوغة وجبل عياض فأصاروها من أعماله فلما شرد السلطان عساكرهم عن بجاية وهدم ثغرهم عليها واسترجع أعمال بجاية إليها سار بجموعه إلى هذا الوطن ليسترجع أعماله ويجدد به دعوته وزاد في اغرائه بذلك علي ابن أحمد كبير أولاد محمد لقتال أولاد سباع هؤلاء ونظرائهم وأهل أوتارهم ودخولهم فارتحل غازيا إلى المسيلة حتى نزلها واصطلم نعمها وخرب أسوارها وبلغه بمكانه منها شأن عبد الواحد ابن السلطان اللحياني واجلابه على تونس وكان من خبره أنه قدم من المشرق بعد مهلك أبيه السلطان أبي يحيى زكريا سنة تسع وعشرين فنزل على ذباب وباع له عبد الملك بن مكى رئيس المشيخة بقابس وتسامع به الناس وافريقية شاعرة من الحامية والعساكر لنهوضهم مع السلطان فاعتنم حمزة بن عمر الفرصة واستقدمه فباع له ورجل به إلى الحضرة فنزل بساحتها ودخل عبد الواحد بن اللحياني بصحابة ابن مكى إلى البلد فأقاموا بها ريثما بلغ الخبر إلى السلطان فقفل من الحضرة وبعث في مقدمته محمد بن البطوي من بطانته في عسكر اختارهم لذلك فأجفل ابن اللحياني وجموعه عن تونس لخمس عشرة ليلة من نزوله ودخل البطوي إليها وجاء السلطان على أثره أيام عيد الفطر سنة ثنتين وثلاثين { الخبر عن نكبة الحاجب ابن سيد الناس وولاية ابن عبد العزيز وابن عبد الحكم من بعده } قد قدمنا أولية هذا الرجل وان أبا هـ أبا الحسن كان حاجبا للامير أبي زكريا ببجاية ولما هلك سنة تسعين وستمائة خلف ابنه محمدا هذا

في كفالة السلطان ومرعى نعمته فاشتمل كرسيمهم عليه وأواه إلى حجره وأرضهم مع الكثير من بنيه ونشأ في كنفه وكان الحجاب للدولة من بعد أبيه مثل ابن أبي حى والرخامى صنائع لابيهم فكانوا يعرفون حقه ويؤثرونه على أنفسهم في التجارة ولم يدرأ في سن الرجولية والسعى في المجد الا أيام ابن عمر آخرهم فكان له منه مكان حتى إذا ارتحل السلطان أبو يحيى إلى قسنطينة لطلب تونس ووجه له ابن عمر الآلات والعساكر وأقام له الحجاب والوزراء والقواد كان فيمن سرح معه محمد بن سيد الناس قائدا على عسكر من عساكره وكان سفيرا للسلطان فكانت له عنده أثرة واختصاص وعقد له من بعد مهلك ابن عمر على بجاية لما عزل عنها ابن القالون كما قدمنا فاستبد بها على السلطان وحماها دون عساكر زناتة ودفع في صدورهم عنها وكان له في ذلك كله مقامات مذكورة وكانت بينه وبين قائد زناتة موسى بن على بن زيون مداخلة كل واحد منهما في مكان صاحبه على سلطانه ووطن لامرهما وقلده حجابته سنة سبع وعشرين كما قدمناه واستخلف على مكانه ببجاية صنيعته محمد بن فرحون

[٣٤٣]

وأحمد بن مزيد للقيام بما كان يتولاه من مدافعة العدو وكفالة الامير أبى زكريا ابن السلطان وقدم هو على السلطان وأسكنه بقصور ملكه وفوض إليه أمور سلطانه تفويض الاستقلال فجرى في طلق الاستبداد عليه وأرعى له السلطان حبل الامهال واعتد عليه فلتات الدالة على ما كانت الظنون ترجم فيه بالمداهنة في شأن العدو والزبون على مولاه باستغلاظهم وأمهله السلطان لمكانه من حماية ثغر بجاية والاشتغال به دونه حتى إذا تجلت غمامتهم وأطل أبو الحسن عليهم من مرقبه ونهض السلطان أبو بكر إلى بجاية وخرب تيمر زدكت فأغراه البطانة حينئذ بالحاجب محمد بن سيد الناس وتنبه له السلطان فأحفظ له استبداده وتقبض عليه مرجعه من هذه الحركة في ربيع سنة ثلاث وثلاثين واعتقله ثم امتحنه بأنواع العذاب لاستخراج المال منه فلم ينس بقطرة وما زال يستغيث ويتوسل بسوابقه من الرضاع والمربى وسوابق أبيه عند سلفه حتى لدغه العذاب فأفجش ونازل من السلطان وانخدع فقتل شدخا بالعصا وجرشولوه فأحرق خارج الحضرة وعفا رسمه كان لم يكن وإلى الله عاقبة الامور ولما تقبض السلطان على ابن سيد الناس ومحا أثر استبداده قلد حجابته الكاتب أبا القاسم بن عبد العزيز وقد كان قدم من الحج عند مبايعة ابن مكى لعبد الواحد بن اللحياني فلحق بالسلطان في طريقه إلى تيمر زدكت فلم يزل معه إلى أن دخل حضرته وتقبض على ابن سيد الناس فولاه الحجابة وكان مضعفا لا يقوم بالحرب فعقد السلطان على الحرب والتدبير لصنيعته وكبير بطانته يومئذ محمد بن الحكيم وفوض له فيما وراء الحضرة وهو محمد بن على بن محمد بن حمزة بن ابراهيم بن أحمد اللخمي ونسبه في بنى العز في الرؤساء بسبته وحده أحمد هو أبو العباس المذكور بالعلم والدين والرأى ابن القاسم المستقل برياسة سبته من بعد الموحدين وكان من خبر أوليته فيما حدثني به محمد بن يحيى بن أبى طالب العز في آخر رؤساء العزفيين بسبته والمنقضى أمرهم بها بانقضاء رياسته وحدثني أيضا بها حسين ابن عمه عبد الرحمن بن أبى طالب وحدثني بها أيضا الثقة عن ابراهيم ابن عمهما أبى حاتم قالوا جميعا ان أبا القاسم العزفى كان له أخ يسمى ابراهيم وكان مسرفا على نفسه وأصاب دما في سبته وحلف أخوه أبو القاسم ليقنادهن منه ففر ولحق بديار المشرق هذا آخر خبرهم وأن محمدا هذا من بنيه وبقية الخبر عن أهل هذا البيت من سراتهم أن ابراهيم أنجب محمدا وأنجب محمد حمزة ثم أنجب حمزة عليا فكلف بالقراءة واستظهر علم الطب في ايلة السلطان أبى بكر بالثغور الغربية وأصاب السلطان وجع في بعض أزمانه وأعياه دواؤه

فجمع له الاطباء وكان فيهم على هذا فحدس على المرض وأحسن
المدواة فوقع من السلطان أحسن المواقع واستخلصه لنفسه
وخلطه بخاصته وأهل

[٣٤٤]

خلوته وصار له من الدولة مكان لا يجاربه أحد فيه وكان يدعى في
الدولة بالحكيم وبه عرف ابنه من بعده وأصهر إلى أحد بيوت
قسنطينية فزوجوه وخلط أهله بحرم السلطان وولد له محمد ابنه
بقصره ورضع مع الامير أبى بكر ابنه ونشأ في حجر الدولة وكفالتها
على أحسن الوجوه من تربيته ولما بلغ الحد وصرف إليه رئيس
الدولة يعقوب بن عمر وجه اقباله واختصاصه فكان له منه مكان
اكسبه ترشيحا للرياسة فيما بعد من بين خواص السلطان وخلصائه
ولما نهض السلطان إلى افريقية قلده قيادة بعض العساكر ثم عقد
له بعد مهلك ابن عمر على عمل باجة حين رقى ابن سيد الناس
عنها إلى بجاية وكان عمل باجة من أعظم الولايات في الدولة فأضطلع
به ثم لما أمر السلطان بطانته في نكبة ابن سيد الناس دفعه لذلك
فولى القبض عليه وكنبه في عصبة من البطان في بعض الحجر من
رياض رأس الطابية واستدعى ابن سيد الناس إلى السلطان وممر
بمكانهم فلما انتهى إليهم توثبوا به وشدوه كتفا وتلوه إلى محبسه
بالبرج المعد لعقاب أمثاله بالقصبة وتولى ابن الحكيم من امتحانه
وعذابه ما ذكرناه إلى أن هلك وعقد له السلطان مكانه على الحرب
والتدبير من خططه ووفوض إليه فيما وراء الحضرة كما قلناه وجعل
تنفيذ الاموال والكتب على الاوامر لابن عبد العزيز فكان عدله في
حمل الدولة الا أن ابن عبد الحكيم كان أشف فيه لما كان إليه من
التدبير في الحرب والرياسة على الكتابة لرياسة السيف على القلم
فاضطلع برياسته وأحسن الغناء والولاية إلى أن كان من خبره وخبر
الدولة ما نذكر * (الخبر عن فتح قفصة وولاية الامير أبى العباس
عليها) * كان أهل الجريد منذ تقلص عنهم ظل الدولة عند انقسام
الملك بين الثغور الغربية والحضرة وما إليها وصار أمرهم إلى الشورى
من المشيخة الا في الاحيين يؤملون الاستبداد كما كانوا عليه من
قبل الموحيدين فقدم عبد المؤمن إلى افريقية وبنى الدند على قفصة
وقسنطينة وابن واطاس على توزر وابن مطروح على طرابلس فأملوا
فتكها وشغل مولانا السلطان أبو بكر عنهم بعد استقلاله بالامر
وانفراده بالدعوة الحفصية شأن الفتنة مع آل يغمراسن بن زيان
واجلاب عساكرهم مع حمزة بن عمر على أوطانه حتى إذا أخذ
السلطان أبو الحسن بحجزتهم وأطل عليهم من مراقبه فعادوا إلى
أوكارهم بعد أن استبدوا وتنفس مخنق الثغور الغربية من حصارهم
وزال عن كاهل الدولة اصرها فاهتم وسكن اضطراب الخوارج على
الدولة وخفت أصوات المرجفين في مهالكها وصرف السلطان نظره
إلى اعطاف الذئاب الغاوية والكلاب الغاوية زعماء أمصارها واعراب
فلاتها فنهض إلى قفصة سنة خمس وثلاثين وقد كان استبد

[٣٤٥]

بشوارها يحيى بن محمد بن على بن عبد الجليل بن العابد
الشريدى من بيوتاتها فنارلها أياما والعساكر تلج عليها بأنواع القتال
ونصب عليها المجانيق فامتنعوا ثم جمع حتى قطع تحيلهم وامتنع
صرائحهم فنادوا بالامان فأمّنهم وخرج إليه ابن عبد الجليل رئيسهم
الأخر من سنته فأشخصه إلى الحضرة وأنزله بها ورجالات من قومه
بنى العابد وفر سائرهم إلى قابس فنزل في جوار ابن مكى ودخل
أهل البلد في حكمه وتفيؤا بعد أن كانوا ضاحين من الملك ظله
فأحسن التجاوز عنهم وبسط المعدلة فيهم وأحسن أمل ذوى

الحاجات منهم بالاسهام والاقطاع وتجديد ما بأيديهم من المكتوبات السلطانية ثم آثرهم بسكنى بلده المخصوص بعيد لعهد الامير ابي العباس وأنزله بين ظهرانيهم وأوطأه بهم وعقد له على قسنطينة وما إليها وجعل معه على حجابته أبا القاسم ابن عتو من مشيخة الموحدين وقفل إلى حضرته فدخلها في رمضان من سنته والله أعلم { الخبر عن ولاية الاميرين ابي فارس عزوز وأبي البقاء خالد على سوسة ثم اضافة المهديّة اليهما } لما نكب السلطان حاجبه ابن سيد الناس وولى محمد بن فرحون على حجابة ابنه الامير ابي زكريا وقرب ذلك ما نزل بال يغمراسن من عدوهم تفرغ السلطان للنظر في ملكه وتمهيد احواله وأن يرسى قواعد أعماله بنجباء أبنائه فعقد على سوسة والبلاد الساحلية لولديه الاميرين عزوز وخالد شريكين في الامر وأنزلهما بسوسة وأنزل معهما محمد بن طاهر من صنائع الدولة ومن بيوت أهل الاندلس القادمين في الجالية ورياسة سلفهم بمرسية معروفة في أخبار الطوائف وكان أخوه أبو القاسم صاحب الاشغال بالحضرة فأقاما كذلك ثم هلك محمد بن طاهر فاستقدم السلطان محمد بن فرحون من بجاية معه باستبداد اليد وأن يولى من شاء على حجابته وأنزل ابن فرحون مع هذين الاميرين لصغرهما سنة خمس وثلاثين ثم استدعاه الامير أبو زكريا فرجع إليه وأقام هذان الاميران بسوسة حتى إذا نكب السلطان قائده محمد بن الحكيم واستنزل قريبه محمد بن الزكرك من المهديّة كان أنزله بها ابن الحكيم لما افتتحها من يد المتغلب عليها من أهل رجيس ويعرف بابن عبد الغفار سنة واتخذها حصنا لنفسه وأنزل بها قريبه هذا وشحنها بالعدد والاقوات فلم يغن عنه ولما هلك استنزل ابن الزكرك وبعث السلطان عليهما ابنه الامير أبا البقاء وأفرد الامير أبا فارس بولاية سوسة فأقاما كذلك إلى ان كان من خير مهلكهما ما تذكره ان شاء الله تعالى { الخبر عن ولاية الامير ابي عبد الله صاحب قسنطينة من الابناء وولاية بنيه من بعده }

[٣٤٦]

كان الامير أبو عبد الله مخصصا من أبيه من بين ولده بالاثرة والعناية قد صرف إليه اقباله وأوقع عليه محبته لما كان يتوسم في شواهده من الترشيح وما تحلى به من خلال الملك وكان الناس يعرفون له حق ذلك وذلك ان ابن عمر كان مستبدا بالثغور الغربية بجاية وقسنطينة ومدافعا عنها العدو من زناتة المطالبين لها فلما هلك ابن عمر سنة تسع عشرة كما قدمناه صرف السلطان نظره إلى ثغوره فعقد على بجاية لابنه الامير ابي زكريا وعقد على حجابته لابن القالون وسرحه معه لمدافعة العدو وعقد على قسنطينة للامير ابي عبد الله ومعه أحمد بن ياسين وخرجوا جميعا من تونس سنة عشرين ونزل كل بعمله وقدم ظافر الكبير من الغرب فولاه السلطان حجابة ابنه بقسنطينة وأنزله بها إلى أن هلك سنة سبع وعشرين على تيمردكت كما ذكرناه فجاء لحجابته من تونس أبو القاسم بن عبد العزيز الكاتب فأقام أربعين يوما ثم رجع إلى الحضرة وأضاف السلطان حجابة قسنطينة لابن سيد الناس إلى حجابة بجاية وبعث إليها نائبا عنه مولاه هلالا النازع إليه عن موسى بن علي قائد بنى عبد الواد فقام بخدمة الامير ابي عبد الله إلى ان كانت نكبة ابن سيد الناس عند ما بلغ الامير أبا عبد الله اثره وجرى في طلق استبداده ففوض له في عمله السلطان وأطلق من عنانه وكان يؤامره في شأنه ويناجيه في خلوته وأنزل معه بقسنطينة نبيلًا من المعلوجين يقيم له رسم الحجابة ثم استدعى ظافر السنان من تونس سنة أربع وثلاثين لقيادة الاعبية والحرب فقدم لذلك وأقام سنة ونصفها ثم رجع وقام نبيل لحجابته كما كان ودفع يعيش من صنائع الدولة لقيادة العساكر وحماية الاوطان فقامه لذلك مراسم الخدمة ورتب الدولة واستمرت حال الامير ابي عبد الله على ذلك والايام تزده ظهورا ومساغيه الملوكية تكسبه جلالا وترشجا إلى أن أسقط دون غايته

وإغتاله الاجل عن مداه فهلك رضوان الله عليه آخر سبع وثلاثين وقام بأمره من بعده كبير بنيه الامير أبو زيد عبد الرحمن فعقد له السلطان أبو بكر على عمل أبيه لنظر نبيل مولاهم لمكان صغره واستمرت حالهم على ذلك إلى آخر الدولة وكان من أمره ما نذكر بعد والله تعالى أعلم } الخبر عن شأن العرب ومهلك حمزة ثم اجلاب بنيه على الحضرة وانهمهم ومقتل معزوز بن همرو ما قارن ذلك من الاحداث لما ملك السلطان أبو الحسن تلمسان وأعمالها وقطع دابر آل زيان واجتث أصلهم وجمع كلمة زناته على طاعته واستتبعهم عصابة تحت لوائه ودانت القبائل بالانقياد له ورجفت القلوب لرعيه ووفا عليه حمزة بن عمر يرغبه في ممالك افريقية ويستحثه

[٣٤٧]

لها ديدنه مع أبي تاشفين من قبله فكف بالياس من غلوائه وزجره عن خلافه على السلطان وشقاقه ونهج له بالشفاعة سبيلا إلى معاودة طاعته والعمل بمرضاته فرجع حمزة إلى السلطان عائذا بحمله متوسلا بشفاعة صاحبه راغبا بادعائه وقلعه مواد الخلاف من العرب باستقامته فتلقيه السلطان بالقبول واسعاف الرغبة على المناصحة والمخالصة ولم يزل حمزة بن عمر من لدن رضى مولانا السلطان عنه صحيح الطاعة خالص الطوية متأدبا بمؤامرة محمد بن الحكيم قائد عسكره دولته على تدويخ افريقية وتدويخ أعمالها وحسم أدواء الفساد منها وأخذ الصدقة من جميع طواعن البد والنازعة في أقطارها وجمع الطوائف المتعاصين بالثغور على القاء اليد للطاعة والكف عن أموال الجباية فكانت لهذا القائد آثار لذلك مهدت من الدولة وأرغمت أنوف المتعاصين بالاستبداد في القاصية حتى استقام الأمر وانمحت آثار الشقاق فاستولى على المهديّة سنة سبع وثلاثين وغلب عليها ابن عبد الغفار المنتزى عليها من أهل رحيس واستولى على سمعة وتقبض على صاحبها محمد بن عبدون من مشيختها وأودعه سجن المهديّة إلى أن أطلق بعد نكبتة ونازل توزر من بعد ذلك حتى استقام ابن بهلول على طاعته للعصية واسترهن ولده ونازل بسكرة غير مرة يدافعه يوسف بن منصور من بنى منزى بذمة يدعيها من السلطان أبي بكر وسلفه يعطيه الجباية يدفع ما كان من الاعتلاق بخدمة السلطان أبي الحسن فتجافى عنه ابن الحكيم لذلك بعد استيفاء مغارمه وزحف إلى بلاد ريغة فافتتح قاعدتها تغرت واستولى على أموالها وذخيرتها وسار إلى جبل أوراس فافتتح الكثير من معاقله وعصفت ریح الدولة بأهل الخلاف من كل جانب وجاست عساكر السلطان خلال كل أرض وفى أثناء ذلك هلك حمزة بن عمر سنة ثنتين وأربعين على يد ابن عون بن أبي على من بنى كثير أحد بطون بنى كعب بطعنة طعنه غيلة فأشواه وقام بأمره من بعده بنوه وكبيرهم يومئذ عمر وداخلتهم الظنة بأن قتله باملاء الدولة فاعصو صبوا وتأمروا واستجاشوا بأقتالهم أولاد مهلهل فجيشوا معهم وزحف ابن الحكيم في عساكر السلطان من زناتة والجند فقلوه واستلحموا كثيرا من وجوههم ورجع إلى الحضرة ففحص بها واتبعوه فنزل بساحتها وقتلوا العساكر سبع ليال ثم اختلّفوا ونزل طالب بن مهلهل إلى طاعة السلطان فأجفلوا وخرج السلطان في جمادى من سنته في عساكره واحزابه من عرب هوارة فأوقع بهم بقيادة من ضواحي القيروان ورجع إلى حضرته آخر رمضان من سنته وذهبوا مغلولين إلى القفر ومروا في طريقهم بالامير أبي العباس بقفصة فرغبوه بالخلاف على أبيهم وإن يجلبوا به على الحضرة فاملى لهم في ذلك حتى

[٣٤٨]

ظفر بالمعز بن مطاع وزير حمزة وكان رأس النفاق والفرية فتقبض عليه وقتله وبعث برأسه إلى الحضرة ونصب بها ووقع ذلك من مولانا السلطان أحسن المواقع ووفد بعدها على الحضرة فبايع لها بالعهد في آخر سنته في محفل شهده الملا من الخاصة والكافة بابوان ملكه ن وكابو ما مشهودا قرئ فيه العهد على الكافة وانفصلوا منه داعين للسلطان وراجع بنو حمزة الطاعة بعدها واستقاموا عليها إلى أن كان من أمرهم ما نذكره إن شاء الله تعالى { الخير عن مهلك الحاجب ابن عبد العزيز وولاية أبي محمد بن تافراكين من بعد وما كان على تفيئة ذلك من نكبة ابن الحكيم { هذا الرجل اسمه أحمد بن اسمعيل بن عبد العزيز الغساني وكنيته أبو القاسم وأصل سلفه من الاندلس انتقلوا إلى مراكش واستخدموا بها للموحدين واستقر أبوه اسمعيل بتونس ونشأ أبو القاسم بها واستكتبه الحاجب ابن الدباغ ولما دخل السلطان أبو البقاء خالد إلى تونس ونكب ابن الدباغ لجا ابن عبد العزيز إلى الحاجب ابن عمر وخرج من تونس إلى قسنطينة واستقر ظافر الكبير هنا لك فاستخدمه إلى أن غرب إلى الاندلس كما قدمناه واستعمله ابن عمر على الاشغال بقسنطينة سنة ثلاث عشرة فقام بها وتعلق بخدمة ابن القالون واستعمله على أشغال تونس ثم كانت سعائته في ابن القالون مع المزوار بن عبد العزيز إلى أن فر ابن القالون سنة احدى وعشرين وولى الحجابة المزوار بن عبد العزيز وكان أبو القاسم بن عبد العزيز هذا رديفه لضعف ادواته ولما هلك ابنه عبد العزيز المزوار بقى أبو القاسم بن عبد العزيز يقيم الرسم إلى أن قدم سيد الناس من بجاية وتقلد الحجابة كما قدمناه فغص بمكان ابن عبد العزيز هذا وأشخصه عن الحضرة وولاه أعمال الحامة ثم استقدم منها عندما ظهر عبد الواحد اللحياني بجهات قابس فلحق بالسلطان في حركته إلى تيمرزدكت وأقام في جملة السلطان إلى أن نكب ابن سيد الناس وولى الحجابة بالحضرة كما ذكرت ذلك كله من قبل إلى أن هلك فاتح سنة أربع وأربعين فعقد السلطان على حجابته لشيخ الموحدين أبي محمد بن عبد الله بن تافراكين وكان بنو تافراكين هؤلاء من بيوت الموحدين في تيخالل ومن ايت الخميس وولى عبد المؤمن كبيرهم عمر بن تافراكين على قابس أول ما ملكها الموحدون سنة أربعين وخمسائة إلى أن فتحوا مراكش فكان عبد المؤمن يستخلفه عليها أيام مغيبه عنها على الامارة والصلاة ولما ثار بمراكش عبد العزيز وعيسى ابنا أوامر أخو الامام المهدي سنة احدى وخمسين كان مغيبه عنها على أول ثورتهم ان اعتراضوا عمر بن تافراكين عند ندائه بالصلاة فقتلوه وفضحهم الصبح فاستلحمهم العامة ثم كان ابنه عبد

الله بن عمر من بعده من رجالات الموحدين ومشيختهم ولما عقد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن على قرطبة لآخيه السيد أبي اسحق انزله معه عبد الله بن عمر بن تافراكين للمشورة مع جماعة من الموحدين كان منهم يوسف بن وانودين وكان عبد الله المقدم فيهم وجاء ابنه عمر من بعده مشتغلا بمذهبه مرموقا بتجلته ولما ولى السيد أبو سعيد بن عمر بن عبد المؤمن على افريقية ولاه قابس وأعمالها إلى أن استنزله عنها يحيى من عامه سنة ثنتين وتسعين وخمسائة ثم كان منهم بعد ذلك عظماء في الدولة وكبراء من المشيخة آخرهم عبد العزيز بن تافراكين حليف الموحدين بمراكش لما نقضوا بيعة المأمون فاغتاله في طريقه إلى المسجد عند الأذان للصبح لما كان محافظا على شهود الجماعات ورعاها له المأمون في أخيه عبد الحق وبنيه احمد ومحمد وعمر فلما استلحم الموحدون وعمهم الجزع ارتحل عبد الحق موريا بالحج ونزل على السلطان المستنصر فانزله بمكان من الحضرة وسرحه بعض الاحياء إلى الحامة لحسم الداء فيها وقد كان توقع الخلاف من مشيختها فحسن غناؤه فيها وقتل أهل الخلاف وحسم العلل وولاه السلطان

أبو اسحق على بجاية بعد مقتل محمد بن أبي هلال فاضطلع بها ولما ولي ادعى ابن عمارة انه سرحه في عسكر من الموحدين لقهري العرب وكف عداوتهم فأئخن فيهم ما شاء ولم يزل معروفا بالرياسة مرموقا بالتجلة إلى أن هلك وكان بنو اخيه عبد العزيز وهم أحمد ومحمد وعمر جاؤا على أثره من المغرب فنزلوا بالحضرة خير منزل وغذوا بلبان النعمة والجاه فيها وكان أحمد كبيرهم وولاه السلطان أبو حفص على قفصه ثم على المهديّة ثم استعفى من الولاية فعوفى وكان السلطان أبو عبيدة يستخلفه على الحضرة إذا خرج منها على ما كان لاوله إلى أن هلك لاول المائة الثامنة سنة ثلاث ونشأ ابنه أبو محمد عبد الله وأبو العباس أحمد في حجر الدولة وجو عنايتها وأصهر عبد الله منهما إلى أبي يعقوب بن رذوتين شيخ الدولة في ابنته فعقد له عليها وأصهر من بعده أخوه أحمد بن أبي محمد بن يعمور في ابنته فعقد له أيضا عليها واستخلص أبو ضربة بن اللحياني كبيرها أبا محمد عبد الله وأثره بصحبته فلم يزل معه إلى أن كانت الواقعة عليه بمصوح وتقبيض على كثير من الموحدين فكان في حملتهم ومن عليه السلطان أبو بكر ورقاه في رتب عنايته إلى أن ولاه الوزارة بعد الشيخ أبي محمد بن القاسم ثم قدمه شيخا على الموحدين بعد مهلك شيخهم أبي عمر بن عثمان سنة ثنتين وأربعين وبعثه إلى ملك المغرب مع ابنه الامير أبي زكريا صاحب بجاية صريخا على بنى عبد الواد فحل في خدمة السلطان وعرض سفارته وتوجه للانبأ بعدها إليه واختص بالسفارة إلى ملك المغرب سائر أيامه وغص الحاجب ابن سيد الناس بمكانه وهم بمكروهه فكفح السلطان عنانه

[٣٥٠]

عنه ويقال انه أفضى إليه بذات صدره من نكبته ولما انقسمت خطط الدولة من الحرب والتدبير ومخالصة السلطان وتنفيذ أوامره بين ابن عبد العزيز الحاجب وابن الحكيم القائد كان له هو القدح المعلى في المشورة والتدبير وكانوا يرجعون إليه ويعولون على رأيه وكان ثالث أنا فيهم ومصقلة آرائهم ولما ذهب الحاجب ابن عبد العزيز إلى السلطان زعموا بين يدي مهلكه بالتحذير من ابن الحكيم وسوء دخلته وأنه فاوضه أيام نزول العرب عليه بساح تونس سنة ثنتين وأربعين كما قدمناه في الادالة من السلطان ببعض من بنى أبي دبوس كانوا معتقلين بالحضرة ألقاها الغدر على لسانه ضجوا من فعود السلطان عن الخروج بنفسه إلى العرب وسأمة ما هو فيه من الحصار واعتدها عليه ابن عبد العزيز حتى ألقاها إلى السلطان عند موته وبرئ منها إليه فاودعها اذنا واعية وكان حتف ابن الحكيم ولما هلك وولى شيخ الموحدين أبو محمد بن تافراكين فاوضه في نكبة ابن الحكيم وكان يترى به لما كان بينهما من المناقسة وكان ابن الحكيم غائبا عن الحضرة في تدويخ القاصية وقد نازل جبل أوراس فافتحمه واقتضى مغارمه وتوغل في أرض الزاب واستوفى جبايته من عامله يوسف بن منصور وتقدم إلى ريغة ونازل تغرت واقتحمها وامتلأت أيدي العساكر من مكاسبهم وخيلهم واتصل به خبر مهلك ابن عبد العزيز وولاية أبي محمد بن تافراكين الحجابة فنكر ذلك لما كان يظن أن السلطان لا يعدل بها عنه وكان يرشح له كاتبه أبا القاسم وازار ويرى أن ابن عبد العزيز قبله لم يتميز بها ايثارا عليه فبداله ما لم يحتسبه فظن الظنون وجمع أصحابه وأغذ السير إلى الحضرة وقد أمر السلطان أبا محمد بن تافراكين في نكبته وأعد البطانة للقبض عليه وقدم على الحضرة منتصف ربيع من سنة أربع وأربعين وجلس له السلطان جلوسا فخما فعرض عليه هديته من المقريات والرفيق والانعام حتى إذا انفض المجلس وشيع السلطان وزراؤه وانتهى إلى بابها أشار إلى البطانة فلاحقوا به ونقلوه إلى محبسه وبسط عليه العذاب لاستخراج الاموال فأخرجها من مكان احتجابها وحصل منها في مودع السلطان أربعمائة ألف من الذهب

العين أو مثالها أو ما يقاربها قيمة من الجوهر إلى أن استصفى ولما افتك عظمه ونفذ ماله حنق بمحبسه في رجب من سنته وذهب مثلا في الايام وغرب ولده مع أمه إلى المشرق وطوح بهم الاغتراب إلى أن هلك منهم من هلك ورجع الحضرة على عبيد منهم في آخرين من أصغرهم بعد أيام وأحوال والله يحكم لا معقب لحكمه * (الخبر عن شان الجريد واستكمال فتحه وولاية أحمد بن مكى على جزيرة جرية) * كان أمر الجريد قد صار إلى الشورى منذ شغلت الدولة بمطالبة زناتة بنى عبد الواد

[٣٥١]

وما نالها لذلك من الاضطراب واستبد مشيخة كل بلد بأمره ثم انفرد واحد منهم بالرياسة وكان محمد بن بهلول من مشيخة توزر هو القائم فيها والمستبد بأمرها كما سنذكره ولما نعت الدولة إلى الاستبداد وأرهب السلطان حده للثوار وعفى على آثار المشيخة بقفصة وعقد لابنه الامير أبى العباس على بلاد قسطلية وأنزل بقفصة فأقام بها ممهدا لامارته ومرددا بعونه إلى البلاد اختاراً لما يظهرون من طاعته وزحف حاجبه أبو القاسم من عتو سنة بالعساكر إلى نفطة ابتلاء لطاعة رؤسائها بنى مدافع المعروفين بنى الخلف وكانوا اخوة أربعة استبدوا برياستها في شغل الدولة عنهم فسامهم سوء العذاب ولاذوا منه بجدران الحصون التى ظنوا أنها مانعهم وتبرأت منهم الرعايا فادركهم الدهش وسألوا النزول على حكم السلطان فجدبوا إلى مصارعهم وصلبوا على جذوعهم آية للمعتبرين وأفلت السيف عليا صغيرهم لنزوعه إلى العسكر قبل الحادثة فكانت له ذمة وإفية من الهالكة فانتظم الامير أبو العباس بلد نفطة في مملكته وحدد له العقد عليها أبوه وتملك الكثير من نفزاوة ولما استبحث نفطة ونفزاوة سمت همته إلى ملك توزر جرثومة الشفاق وعش الخلاف والنفاق وخشى مقدمها محمد بن بهلول عيث حاله فذهب إلى مصانعة قائد الدولة محمد بن الحكيم بذات صدره فتجافى عنه إلى أن كان مهلكهما في سنة واحدة واضطرب أمر توزر وتوائب بنوه واخوته وقتل بعضهم بعضا وكان أخوه أبو بكر معتقلا بالحضرة فأطلقه السلطان من محبسه بعد ان أخذ عليه الموائيق بالطاعة والجبابة ومضى إلى توزر فملكها وطالبه الامير أبو العباس صاحب قفصة وبلاد قسطلية بالانقياد الذى عاهد عليه فنازعه ما كان في نفسه من الاستبداد وصارت توزرشجى معترضا في صدر امارته فخطب أباه السلطان أبى بكر وأغراه به فنهض إليه سنة خمس وأربعين والتقى به ففر عنه وانتهى إلى قفصة وصار الخبر إلى أبى بكر بن بهلول رئيسها يومئذ فادركه الدهش وانفض من حوله الاولياء وجاهر بطاعة السلطان ولقائه ففر عنه كاتبه وكاتب أبيه المستولي على أمره على بن محمد المعمودى المعروف الشهرة ولحق ببسكرة في جوار يوسف بن مزنى وأغذ السلطان السير إلى توزر فخرج إليه أبو بكر بن بهلول وألقى إليه يده وخلط نفسه بجملته ثم ندم على ما فرط من أمره وأحس بالنكير من الدولة وانذر بالهلكة فلحق بالزاب ونزل على يوسف بن منصور ببسكرة فتلقيه من الترحيب والقرى بما تحدث به الناس ولما استولى السلطان على توزر وانتظمها في أعماله عقد عليها لابنه الامير أبى العباس وأنزله بها وأمكنه من رقيتها ورجع السلطان إلى الحضرة طاغرا عزيزا واتصلت أيام ملكه إلى ان هلك على فراشه

[٣٥٢]

كما يذكر واتصلت ممالك الامير أبى العباس في بلاد الجريد وتاور أبو بكر بن بهلول توزر مرارا تغلت في كلها من الهلكة إلى ان مات

ببسكرة سنة سبع وأربعين قبيل مهلك الناس كما يذكر وأقام أبو العباس بمحل امارته ولم يزل يمهد الاحوال ويستنزل الثوار وكان أبو مكى قد امتنع عليه بقباس وكان من خبره انه لما رجع عبد الملك من تونس مع عبد الواحد بن اللحياني الذي كان حاجبا له وذهب ابن اللحياني إلى المغرب وأقام هو بقباس ثم استراب بمكان أمره مع السلطان حين ذهب ملك آل زيان فأوفد أخاه أحمد بن مكى على السلطان أبي الحسن متصلا من ذنوبه متذمما بشفاعته منه إلى السلطان أبي بكر فشجع له وأعاد السلطان إلى مكان رياسته واستقام هو على الطاعة ونكب عن سنن العصيان والفتنة وكان لاحمد بن مكى حظ من المال والادوات ونفس مشغوفة بالرياسة والشرف وكان يقرض الشعر فكان يجيد ويرسل فيحسن وكان خط كتابته أنيقا ينحو به منحى الخط الشرقي شأن أهل الجريد فيمتع ما شاء فكانت لذلك كله في نفس الامير أبي العباس صاغية إليه وكان هو مستيريا بالمخالطة لما شاء من آثاره السالفة ولم يزل الامير أبو العباس يفتل له في الذروة والغارب إلى ان جلبه إلى مجلس السيدة أمه الواحدة أخت مولانا السلطان قافلة من حجها فمسح ما كان ب صدره وأحكم له عقد مخالطته واصطنعه لنفسه فحل من امارته بمكان غبطة واعتزاز وعقد له السلطان على جزيرة جربة واستضافها إلى عمله وأنزل عنها مخلوف بن الكماد من صنائعه كان افتتحها سنة ثمان وثمانين وعقد له السلطان عليها فنزلها أحمد بن مكى واستقل عبد الملك أخوه برياسة قابس فقاما على ذلك وحردا عزائمهما في ولاية أبي العباس صاحب أعمال الجريد فلم يزالوا كذلك إلى أن كان من أمر الجميع ما نذكر ان شاء الله تعالى * (الخبر عن مهلك الوزير أبي العباس بن تافراكين) * كان السلطان أبو بكر عند نكبة القائد بن الحكيم استعمل على حجابته شيخ الموحدين أبا محمد بن تافراكين كما ذكرناه وفوض إليه فيما وراء بابه وعقد على الوزارة لآخيه أبي العباس أحمد وكان أبو محمد جلس الباب لمكان الحجابة فرفع إلى الحرب وفود العساكر وامارة الضاحية أخاه أبا العباس فقام بما دفع إليه من ذلك وكان بنو سليم بعد مهلك حمزة بن عمر نقموا ما كان عليه من الاذعان وسموا إلى الخلاف والعناد فكان من أبناء حمزة في ذلك من الاجلاب على الحضرة ما ذكرناه وكان سحيم بن من أولاد القوس بن حكيم بنه وبينهم غدر وخلاف وعناد وكان السلطان قد ولى على حجابة ابنه الامير أبي العباس في أعمال الجريد ابا القاسم بن عتو من مشيخة

الموحدين وكان يناهض بنى تافراكين بزعمه في الشرف وينفس عليهم ما اتاهم الله من الرتبة والحظ فلما ولى أبو محمد الحجابة ملئ منه حسدا وحقدا وداخل فيما زعموا سحيم هذا القرى في النيل من أبي العباس بن تافراكين صاحب العساكر وشارطه على ذلك بمنا أداه إليه وتكاثموا أمرهم وخرج أبو العباس بن تافراكين فاتح سنة سبع في العساكر لجباية هوارة فوفد عليه سحيم هذا وقومه وضايقوه في الطلب ثم انتهزوا الفرصة بعض الايام وأجلبوا عليه فانفض معسكره وكبابه فرسه فقتل وحمل شلوه إلى الحضرة فدفن بها وجاهر سحيم بالخلاف وخرج إلى الرمال فلم يزل كذلك إلى مهلك السلطان كما نذكر ذلك ان شاء الله تعالى { الخبر عن مهلك الامير أبي زكريا صاحب بجاية من الانباء وما كان بعد ذلك من ثورة أهل بجاية بأخيه الامير أبي حفص وولاية ابنه الامير أبي عبد الله { كان السلطان أبو بكر لما هلك الحاجب بن عمر عقد على بجاية لابنه الامير أبي زكريا كبير ولده وأنفذه إليها مع حاجبه محمد بن القالون كما ذكرناه وجعل أموره تحت نظره ثم رجع القالون إلى تونس فأنزل معه ابن سيد الناس فلما استبد سيد الناس بحجابة الحضرة جعل على حجابته أبا عبد الله بن فرحون ثم لما تقبض على ابن سيد الناس وعلى ابن فرحون وقد استبد الامير أبو زكريا بأمره وقام على

نفسه فوض إليه السلطان الامر في بجاية وبعث إليه ظافرا السنان مولى أبيه الامير أبى زكريا الاوسط قائدا على عسكره والكاتب أبا اسحق بن علاق متصرفا في حجابته فأقاما ببابه مدة ثم صرفهما إلى الحضرة وقدم لحجابته أبا العباس أحمد بن أبى زكريا الرندى كان أبوه من العل وكان ينتحل مذهب الصوفية العلات ويطالع كتب عبد الحق بن سبعين ونشأ أحمد هذا ببجاية واتصل بخدمة السلطان وترقى في الرتب إلى أن استعمله الامير أبو زكريا كما قلناه ثم هلك وقد أنف السلطان أبو بكر من الامراء هؤلاء على حجابة ابنه فأنفذ لها من حضرته كبير الموحدين يومئذ وصاحب السفارة أبا محمد ابن تافراكين سنى أربعين وسعمائة فأقام أحوال ملكه وعظم أبهة سلطانه وجهز العساكر لسفره وأخرجه إلى أعماله فطاف عليها وتفقدتها وانتهى إلى تخومها من المسيلة ومقرة ولم يستكمل الحول حتى سخطه المشيخة من أهل بجاية لما نكروا من الابهة والحجاب حتى استغلظ عليهم باب السلطان وتولى كبر ذلك القاضى ابن يوسف تعسا وملالا واستعفى هو من ذلك فأعفى وعاد إلى مكانه بالحضرة ثم استقدم الامير أبو زكريا حاجبه الاول بعهد ابن سيد الناس وهو أبو عبد الله محمد بن فرحون وقد كان

[٣٥٤]

السلطان بعثه في غرض الرسالة إلى ملك المغرب في الامطول الذى بعثه مددا للمسلمين عند اجازة السلطان أبى الحسن إلى طريف وكان أخوه زيد بن فرحون قائد ذلك الاسطول بما كان قائده ببحر بجاية فلما رجع أبو عبد الله بن فرحون من سفارته تلك أذن له في المقام عند الامير أبى زكريا واستعمله على حجابته إلى أن هلك فولى من بعده في تلك الخطة ابن القشاش من صنائع دولته ثم عزله وولى عليها أبا القاسم بن علناس من طبقة الكتاب واتصل بدار هذا الامير وترقى في ديوانه إلى أن ولاه خطة الحجابة ثم عزله وولى يحيى بن محمد بن المنت الحضرمي كان أبو ه وعمه قدما على جالية الاندلس وكانا ينتحلان القراءات وأخذ أهل بجاية عن عمه أبى الحسن علم القراءات وكان خطيبا بجامع السلطان ونشأ على ابن أخيه واستعمل في الديوان وكان طموحا للرياسة واتصل بحظية كانت للمولى أبى زكريا تسمى أم الحكم قد غلبت على هواه فرسمت على ابن المنت هذا بخطة الحجابة واستعمله فيها فقام بها وأصلح معونات السلطان وأحوال مقاماته في سفره وجهز له العساكر وجال في نواحي أعماله وهلك هذا الامير في احدى سفارته وهو على حجابته بتكرار من أعمال بجاية من مرض كان أزم به في ربيع الاول سنة سبع وأربعين وكان ابنه الامير أبو عبد الله في حجر مولاه فارح بن معلوجى بن سيد الناس وكان اصطنعه فألفاه قابلا للترشيخ فأقام مع ابن مولاه ينتظر أمر الخليفة وبادر حاجبه الاول أبو القاسم بن علناس إلى الحضرة وأنهى الخبر إلى الخليفة فعقد على بجاية لابنه الامير أبى حفص كان معه بالحضرة وهو من أصغر ولده وأنفذه إليها مع رجاله واولى اختصاصه وخرج معه أبو القاسم بن علناس فوصل إلى بجاية ودخلها على حين غفلة وحمله الاوغاد من البيطانية على ارهاق الحد واطهار السطو فخشى الناس البوادر وائتمروا ثم كانت في بعض الايام هبة تماالا فيها الكافة على التوثب بالامير القادم فطافوا بالقصبة في سلاحهم وبادوا بامارة ابن مولاهم ثم تسوروا جدرانها واقتحموا داره وملكوا أمره وأخرجوه برمته بعد أن انتهوا جميع موجودهم وتسابلوا إلى دار الامير أبى عبد الله محمد بن أميرهم ومولاهم بعد أن كان معتزما على التقويض عنهم واللحاق بالخليفة جده وأذن له في ذلك عمه القادم فبايعوه بداره من البلد ثم نقلوه من الغد إلى قصر بالقصبة وملكوه أمرهم وقام بأمره مولاه فارح ولقبه باسم الحجابة واستمر حالهم على ذلك ولحق الامير أبو حفص بالحضرة آخر جمادى الاولى من سنته لشهر من يوم ولايته إلى أن كان من شأنه بعد مهلك

مولانا السلطان ما نذكره وتدارك السلطان أمر بجاية وبعث إليهم أبا عبد الله بن سليمان من كبار الصالحين ومشيخة الموحدين يسكنهم ويؤنسهم وبعث معه كتاب العقد عليها لحافده الامير أبى زكريا طالبا

[٣٥٥]

مرضاتهم فسكنت نفوسهم وأنسوا بولاية ابن مولاهم وجاءت الامور إلى مصابرها كما نذكره بعد ان شاء الله تعالى والله ولى التوفيق * (الخبر عن مهلك مولانا السلطان أبى بكر وولاية ابنه الامير أبى حفص) * بينما الناس في غفلة من الدهر وظل ظليل من العيش وأمن من الخطوب وتحت سرادق من العز وذمة وافية من العدل اذرع بالسرف وتكدر الشرق وتقلصت ظلال العز والامن وتعطل فناء الملك ونعى السلطان أبو بكر بتونس فجأة من جوف الليل ليلة الاربعاء ثانى رجب من سنة سبع وأربعين وسبعمائة فهب الناس من مضاجعهم متسايلين إلى القصر يستمعون نبالات النعى وأطافوا به سائر ليلتهم تراهم سكارى وما هم بسكارى وبادر الامير أبو حفص عمر من داره إلى القصر فملكه وضبط أبوابه واستدعى الحاجب أبا محمد بن تافراكين من داره ودعوا المشيخة من الموحدين والموالي وطبقات الجند وأخذ الحاجب عليهم البيعة للامير أبى حفص ثم جلس من الغد جلوسا فخما على الترتيب المعروف في الدولة أحكمه الحاجب أبو محمد لمعرفة لعوائدها وقوانين ترتيبها تلقنه عن أشياخه وانقض المجلس وقد انعقدت بيعته وأحكمت خلافته وكان الامير خالد ابن مولانا السلطان مقيما بالحضرة قدمها رائدا منذ أشهر وأقام متنهنا من الزيارة فلما سمع النعى فر من ليلته وتقبض عليه أولاد منديل من الكعوب وردوه إلى الحضرة فاعتقل بها وقام أبوه محمد بن تافراكين بخطة الحجابة كما كان وزيادة تفويض واستبداد إلى أن كان بطانة السلطان يكثر السعاية فيه ويوغرون صدره عليه يذكرون منافساته ومنافسة سابقة بين الحاجب والامير أبا م أبيه واتصل ذلك منهم حطا لمكانه وانذر الحاجب بذلك منهم فأعمل الحيلة في الخلاص من صحابتهم كما يذكر بعد اه والله تعالى أعلم { الخبر عن زحف الامير أبى العباس ولى العهد من مكان امارته بالجريد إلى الحضرة وما كان من مقتله مقتل أخويه الاميرين أبى فارس عزوز وأبى البقاء خالد } كان السلطان أبو بكر قد عهد إلى ابنه الامير أبى العباس صاحب أعمال الجريد كما ذكرناه سنة ثلاث وأربعين فلما بلغه خبر مهلك أبيه وما كان من بيعة أخيه حقد على أهل الحضرة ما جاؤا به من نقض عهده ودعا العرب إلى مظاهرة أمره فأجابوه ونزعوا جميعا إلى طاعته عن طاعة أخيه بما كان مرهفا لحذه في الاستبداد والضرب على أيدي أهل الدولة من العرب وسواهم وزحف إلى الحضرة ولقيه أخوه أبو فارس صاحب عمل

[٣٥٦]

سوسة بالقيروان فأناه طاعته وصار في جملته وجمع السلطان أبو حفص عمر جموعه واستركب واستلحق وأزاح العلل وخرج غرة شعبان وارنحل عن تونس وحاجبه أبو محمد بن تافراكين قد انذر منه بالهلكة واعتمل في أسباب النجاة حتى إذا تراءى الجمعان رجع الحاجب إلى تونس في بعض الشغل وركب الليل ناجيا إلى المغرب وبلغ خبر مغره إلى السلطان فأجفل واختل مصافه وأطلق أخاه أبا البقاء من معتقله ثم دخل إلى قصره لسبع ليال من ملكه وصبحه الامير أبو حفص في ثامنها فافتحم عليه البلد لصاغنة كانت له في قلوب الغوغاء من غشيانه نساءهم وطروقه منازلهم أيام جنون الشباب وقضاء لذاته في مرياه وقتك بأخيه الامير أبى العباس ولسرعان ما نصب رأسه على القناة وداست شلوه هنا لك العسكر

وأصبح آية للمعتبرين واثارت العامة بمن كان بالبلد من وجوه العرب ورجالاتهم فقتلوا في تلك الهيئة من كتب عليه القتل وتلوا كثيرا منهم إلى السلطان فاعتقلهم وقتل أبا الهون بن حمزة بن عمر من بينهم وتقبض على أخويه خالد وعزوز فأمر بقطعهم من خلاف فقتلوا وكان فيه مهلكهم واستوسق ملكه بالحضرة واستعمل على حجابتها أبا العباس أحمد بن علي بن زين من طبقة الكتاب وكان كاتباً للضحشى الحاجب وبعد للقائد ظافر الكبير واتصل السلطان أبو بكر لأول ملكه بالحضرة فأسف على ابن عمر بولاية ابن القالون الحاجب فخاطب السلطان فيه ونكبه ثم أطلق من محبسه ومضى إلى المغرب ونزل على السلطان ابن سعيد فأجمل نزله ثم رجع إلى الحضرة ولم يزل مشرداً أيام السلطان كلها واستكتب الأمير أبو حفص ولده محمداً وكانت له به وصلة فلما استوسق له الملك بعد مفر أبي محمد بن تافراكين كما ذكرناه وولى أبا هـ أبا العباس هذا على حجابته وعقد على حربه وعساكره لظافر مولى أبيه وجده المعروف بالسنان واستخلص لنجواه وسره كاتبه أبا عبد الله محمد بن الفضل ابن نوار من طبقة الفقهاء والقضاة من أهل البيوت النابذة بتونس كان له بها سلف مذكور واتصل بدار السلطان وارتسم بها مكتباً لولده وقرأ عليه هذا الأمير أبو حفص فيمن قرأ عليه منهم فكانت له من أجل ذلك يد ومزيد عناية ولما استبد بأمره كان هو مستبداً بشوراه وجرت الحال على ذلك إلى أن كان من أمره ما نذكر إن شاء الله تعالى والله تعالى أعلم { الخير عن استيلاء السلطان أبي الحسن على إفريقية ومهلك الأمير أبي حفص وانتقال الإبناء من بجاية وقسنطينة إلى المغرب وما تخلل ذلك من الأحداث } كان السلطان أبو الحسن يحدث نفسه منذ ملك تلمسان وقبلها بملك إفريقية ويترى بالسلطان أبي بكر ويسر له حسداً في ارتقاء فلما لحق به حاجبه أبو محمد بن تافراكين بعد

[٣٥٧]

مهلكه رغبه في سلطانها واستحثه بالقدوم عليها وجدد له الجوار فتنبهت لذلك عزائمهم ثم وصل الخبر بمهلك ولى العهد وأخويه وخبر الواقعة فأحفظه لذلك بما كان من رضاه بعهدته وخطه بالوفاق على ذلك بيده في سجله وذلك أن حاجب الأمير أبي العباس وهو أبو القاسم بن عتو من مشيخة الموحدين كان سفر عن السلطان لآه خر أيامه إلى السلطان أبي الحسن بهدية وحمل سجل العهد فوقف عليه أبا السلطان الحسن وسأل منه امضاءه لمولاه وكتب ذلك بخطه في سجله فخطه بيمينه وأحكم له عقده فلما بلغه مهلك ولى العهد تغلل بأن النقض أتى على ما أحكمه فأجمع غزو إفريقية ومن بها فعسكر بظاهر تلمسان وفرق الاعطيات وأزاح العلل ثم رحل في صفر من سنة ثمان وأربعين يجر الدنيا بما حملت وأوفد عليه أبناء حمزة بن عمر أمراء البدو بإفريقية ورجال الكعوب أحاهم خالداً يستصرخه لئلا أخيههم أبي الحول الهالك يوم الواقعة فأجابهم ونزع إليهم أيضاً أهل القاصية من إفريقية بطاعتهم فجاءوا في وفد واحد مع ابن مكي صاحب قابس وابن نملول صاحب توزر وابن العابد صاحب قفصة ومولاهم ابن أبي عنان صاحب الحامة وابن الخلف صاحب نفطة فلقوه بوهران وأتوه بيعتهم رغبة ورهبة وأدوا بيعة ابن ثابت صاحب طرابلس ولم يتخلف عنهم إلا من بعد داره ثم جاء من بعدهم وعلى أثرهم صاحب الزاب يوسف بن منصور بن مزني ومعه مشيخة الموحدين الزواودة وكبيرهم يعقوب بن علي فلقيه بنو حسن من أعمال بجاية فأوسع النيل حيا وتكرمة وأسنى الصلات والجوائز وعقد لكل منهم على بلده وعمله وبعث مع أهل الجزائر الولاة للجباية لنظر مسعود بن إبراهيم اليرساوي من طبقة وزرائه وأعد السير إلى بجاية فلما أطلقت عساكره عليها توافر أهلها في الامتناع ثم أتوا وخرج أميرها أبو عبد الله محمد ابن الأمير أبي زكريا فاتاه طاعته وصرفه إلى المغرب مع اخوانه وأنزله ببلد ندرومة وأقطع له الكفاية من

حبايتها وبعث على جباية عماله و خلفائه وسار إلى قسنطينة فخرج إليه ابناء الامير ابي عبد الله يقدمهم كبيرهم أبو زيد وأتوه طاعتهم وأقبل عليهم وصرّفهم إلى المغرب وأنزلهم بوجدة وأقطعهم جبايتها وأنزل بقسنطينة خلفاءه وعماله وأطلق القرابة من مكان اعتقالهم بها وفيهم أبو عبد الله محمد أخو السلطان أبي بكر وبنوه ومحمد ابن الامير خالد واخوانه وبنوه وأصارهم في جملته حتى صرفهم إلى المغرب من الحضرة من بعد ذلك ووفد عليه هنا لك بنو حمزة بن عمرو مشايخ قومهم الكعوب فأخبروه باجفال المولى أبي حفص من تونس مع طواعن أولاد مهلهل واستحثوه باعتراضهم قبل لحاقهم بالقفر وسرح معهم العساكر في طلبه لنظر حمو العسرى من مواليه وسرح عسكريا آخر إلى تونس لنظر يحيى بن سليمان من بنى عسكري ومعه

[٣٥٨]

أبو العباس بن مكى وسارت العساكر لطلب الامير أبي حفص فأدركوه بأرض الحامة من جهات قابس وصيحوهم فدافعوا عن أنفسهم بعض الشيء ثم انفضوا وكبا بالامير أبي حفص جواده في بعض نافقاء اليرابيع وانجلت الغيابات عنه وعن مولاه طافر راجلين فتقبض عليهما وأوثقهما قائد الكنايب بيده حتى إذا جن الليل وتوقع أن يفلتتهما العرب من اساره قبل أن يصل بهما إلى مولاه فذبحهما وبعث برؤسهما إلى السلطان أبي الحسن فوصلا إليه بباجة وخلص الغل من الواقعة إلى قابس فتقبض عبد الملك بن مكى على رجالات من أهل الدولة كان فيهم أبو القاسم بن عتو من مشيخة الموحدين وصخر بن موسى من رجالات سدويكيش وغيرهما من أعيان الدولة فبعث بهم ابن مكى إلى السلطان فأما ابن عتو وصخر بن موسى وعلى بن منصور فقطعهم من خلاف واعتقل الباقي وسبقت العساكر إلى تونس ثم جاء السلطان على أثرهم ودخل الحضرة في الزى والاحتفال في جمادى الآخرة من سنته وخفتت الاصوات وسكنت الدهماء وانقبضت أيدي أهل الفساد وانقرض أمر الموحدين الا أديالا في بونة فانه عقد عليها للمولى الفضل ابن مولانا أبي بكر لمكان صهره ووفادته عليه بين يدي مهلك أبيه ثم ارتحل السلطان إلى القيروان ثم إلى سوسة والمهدية وتطوف على المعالم التي بها ووقف على آثار ملوك الشيعة وصنهاجة في مصانعها ومبانيها والتمس البركة في زيارة القبور التي تذكر للصحابة والسلف من التابعين والاولياء في ساحتها وقفل إلى تونس فدخلها آخر شعبان والله تعالى أعلم * (الخبر عن ولاية الامير أبي العباس الفضل على بونة وأولية ذلك ومصايره) * كان السلطان أبو الحسن قد أصره إلى السلطان أبي بكر قبيل مهلكه في احدى كرائمه وأوفد عليه في ذلك عريف بن يحيى كبير بنى سويد من زغبة وصاحب شواره وخالصة سره مع وفد من رجالات دولته في طبقات الفقهاء والكتاب والموالي كان فيهم صاحب الفتيا بمجلسه أبو عبد الله السطى وكاتب دولته أبو الفضل عبد الله بن أبي مدين وأمير الحرم عنبر الخصى فأسعفه السلطان وعقد له على حظيته عزونة بثقة ابنة الفضل وزفها إليه بين يدي مهلكه مع أخيها الفضل ومعه أبو محمد عبد الواحد بن الجماز من مشيخة الموحدين وأدركهم الخبر بمهلك السلطان في طريقهم فلما قدموا على السلطان أبي الحسن تقبلهم بقبول حسن ورفع مجلس الفضل واستتب له ملكها فأعرض عن ذكر ذلك الا أنه رعى له ذمة الصهر وسابقة الوعد فأسعفه بالعقد على بونة مكان عمله منذ أيام أبيه وأنزله بها عندما رحل عنها إلى تونس وانقمع المولى الفضل من ذلك حقا لما يرجوه من تجايفهم له عن ملك آبائه لحق وفادته وصهره وأقام بمكان عمله منها يؤمل الكر

إلى ان كان من أمره ما نذكر والله أعلم { الخبر عن بيعة العرب لابن أبي دبوس وواقعهم مع السلطان أبي الحسن بالقيروان وما قارن ذلك كله من الاحداث { كان السلطان أبو الحسن لما استوسق له ملك افريقية اسف العرب بمنعهم من الامصار إلى ملوكها بالاقطاعات والضرب على أيديهم في الاتاوات فوجموا لذلك واستكانوا لغلبيته وتربصوا الدوائر وربما كان بعض البادية يشن الغارات في الاطراف فيعتدها السلطان على كبارهم وأغاروا بعض الايام في ضواحي تونس فاستاقوا الظهر الذي كان في مرعاها وأظلم الجو بينهم وبينه وخشوا عاديته وتوقعوا بأسه ووفد عليه أيام الفطر من رجالتهم خالد بن حمزة وأخوه أحمد من بنى كعب وخليفة بن عبد الله من بنى مسكين وخليفة بن بوزيد من رجالات حكيم وساءت طنونهم في السلطان لسوء أفعالهم فدخلوا عبد الواحد بن اللحياني في الخروج على السلطان وكان من خبر عبد الواحد هذا أنه بعد اجفاء من تونس سنة ثنتين وثلاثين كنا ذكرناه لحق بأبي تاشفين فأقام عنده في ميرة وتكرمة ولما أخذ السلطان أبو الحسن بمخنق تلمسان واشتد حصارها سأل عبد الواحد بن أبي تاشفين تخليته للخروج فودعه وخرج إلى السلطان أبي الحسن فنزل عليه ولم يزل في جملته إلى أن احتل بافريقية فلما خشن ما بينه وبين الكعوب والتمسوا الاعياص من بنى أبي حفص فيصطفونهم للامر رجوا أن يظفروا من عبد المؤمن هذا بالبغيه فدخلوه وارتاب لذلك وخشى بادرة السلطان فرفع إليه الخبر فتقبض السلطان عليهم وأحضرهم معه فأنكروا وبهتوا ثم ويخهم واعتقلهم وعسكر بساحة الحضرة لغزوهم وتلوم لبث الاعطيات وأزاح العلل وبلغ الخبر إلى أحيائهم فقطع اليأس أسباب رجائهم وأنطلقوا يحزبون الاحزاب ويلمون للملك الاعياص وكان أولاد مهلهل أقبالهم وعديلة حملهم قد أيأسهم السلطان من القبول والرضا بما بالغوا في نصيحة المولى أبي حفص ومظاهرتة فلحقوا بالقفر ودخلوا الرمال فركب إليهم قتيبة بن حمزة وأمه ومعهم طعائن أبنائهما متذممين لأولاد مهلهل بالعصية والقرابة فأجابوهم واجتمعوا بقصطيلة وتحاثوا التراب والدماء وتذامروا بما شملهم من رهب السلطان وتوقع بأسه وتفقدوا من أعياص الموحدين من ينصبونه للامر وكان بتوزر أحمد بن عثمان بن أبي دبوس آخر خلفاء بنى عبد المؤمن بمراكش وقد ذكرنا خبره وخروجه بجهات طرابلس وإجلابه مع العرب على تونس أيام السلطان أبي عصيدة ثم انفضوا وبقي عثمان بجهات قابس وطرابلس إلى أن هلك بجزيرة جربة واستقر بنو أبيه

عبد السلام بالحضرة بعد حين فاعتقلوا بها أيام السلطان أبي بكر ثم غرِبهم إلى الاسكندرية مع أولاد ابن الحكيم عند نكبته كما ذكرنا ذلك كله فنزلوا بالاسكندرية وأقبلوا على الحرف لمعاشهم ورجع أحمد هذا من بينهم إلى المغرب واستقر بتوزر واحترف بالخياطة ولما تفقد العرب الاعياص دلهم على نكرته بعض أهل عرفانه فانطلقوا إليه وجاهوا به وجمعوا إليه الآلة ونصبوه للامر وتبايعوا على الاستماتة ورجع إليهم السلطان في عساكره من تونس أيام الحج من سنة ثمان ولقيهم بالثنية دون القيروان فغلبهم وأجفلوا أمامه إلى القيروان ثم تذامروا ورجعوا مستميتين ثانی محرم سنة تسع فاختل مصافه ودخل القيروان وانتهوا معسكره بما اشتمل عليه وأخذوا بمخنقه إلى أن اختلفوا فأفرجوا عنه وخلص إلى تونس كما نذكر والله تعالى أعلم * (الخبر عن حصار القصبة بتونس ثم الافراج عن القيروان وعنهما وما تخلل ذلك) * كان الشيخ أبو محمد بن تافراكين أيام حجابة السلطان أبي بكر مستبدا بأمره مفوضا إليه في سائر شؤنه فلما استوزره السلطان أبو الحسن لم يجره على ما لوفه لما كان قائما على أمره وليس التفويض للوزراء من شأنه وكان يظن أن السلطان

أبا الحسن سيكل إليه أمر إفريقية وينصب معه أفضل للملك وربما زعموا أنه عاهده على ذلك فكان في قلبه من الدولة مرض وكان العرب يفاوضونه بذات صدورهم من الخلاف والاحلاب فلما حصلوا على البغية من الظهور على السلطان أبي الحسن وعساكره وأحاطوا به في القيروان تحيل ابن تافراكين في الخروج على السلطان لما تبين فيه من النكر منه ومن قومه وبعث العرب في لقائه وأن يحملوه حديث بيعتهم إلى الطاعة فأذن له وخرج إليهم وقلدوه حجابة سلطانهم ثم سرحوه إلى حصار القصبية وكان عند رحيله من تونس خلف بها الكثير من أبنائه ووجوه قومه واستخلف عليها عسكر السلطان على أنفسهم فلجأ من كان معهم من تونس إلى قصبيتها وأحاط بهم الغوغاء فامتنعت عليهم واتخذوا الآلة وفرقوا الاموال في الرجال وعظم فيها غناء بشير من المعلوجين الموالى فطار له ذكر وكان الامير أبو سالم ابن السلطان أبي الحسن قد جاء من المغرب فوافاه الخبر دوين القيروان فانفض معسكره ورجع إلى تونس فكان معهم بالقصبية ولما فرج عن ابن تافراكين من هوة الحصار بالقيروان طمعوا في الاستيلاء على قصبية تونس وفض ختامها فدفعوه إلى ذلك ثم لحق به سلطانه ابن أبي دبوس وعانى من ذلك ابن تافراكين صعبا لكثرة الرجل الذين كانوا بها ونصب المجانيق عليها فلم يغن شيئا وهو أثناء ذلك يحاول النجاء بنفسه لاضطراب الامور واختلال الرسوم إلى أن بلغه خلوص السلطان من القيروان إلى سوسة وكان من خبره أن العرب بعد

[٣٦١]

ايقاعهم بعساكره أحاطوا بالقيروان واشتدوا في حصارها وداخل السلطان وأولاد مهلهل من الكعوب وحكيما من بنى سليم في الافراج عنه واشترط لهم على ذلك الاموال واختلف رأى العرب لذلك ودخل عليه قتيبة بن حمزة بمكانه من القيروان زعما بالطاعة فتقبله وأطلق اخويه خالدا وأحمد ولم يثق إليهم ثم جاء إليه محمد بن طالب من أولاد مهلهل وخليفة بن أبي زيد وأبو الهول بن يعقوب من أولاد القوس وأسرى معهم بعسكره إلى سوسة فصبحها وركب منها في أساطيله إلى تونس وسبق الخبر إلى ابن تافراكين بتونس فتسلل من أصحابه وركب السفينة إلى الاسكندرية في ربيع سنة تسع وأربعين وأصبحوا وقد فقدوه فاضطربوا وأجفلوا عن تونس وخرج أهل القصبية من أولياء السلطان فملكوها وخرّبوا منازل الحاشية فيها ونزل السلطان بها من أسطوله في ربيع الاخير فاستقلت قدمه من العثار ورجا الكرة لولا ما قطع أسبابها عنه مما كان من انتزاع أبنائه بالمغرب على ما تذكره في أخبارهم وأجلب العرب وابن أبي دبوس معهم على الحضرة ونازلوا بها السلطان فامتنعت عليهم فرجعوا إلى مهادنتهم فعقد لهما السلم ودخل حمزة بن عمر إليه وافدا فحبسه إلى أن تقيض على ابن أبي دبوس وأمكته منه فلم يزل في محبسه إلى أن رحل إلى المغرب ولحق هو بالاندلس كما تذكره في أخباره وأقام السلطان بتونس ووفد عليه أحمد بن مكى فعقد لعبد الواحد بن اللحياني على الثغور الشرقية طرابلس وقابس وصفاقس وجربة وسرحه مع ابن مكى فهلك عند وصوله إليه في الطاعون الجارف وعقد لابي القاسم بن عتو من مشيخة الموحدين وهو الذى كان قطعه باغراء أبي محمد بن تافراكين فلما ظهر خلافه أعاد ابن عتوالى مكانه وعقد له على بلاد قسطلية وسرحه إليها وأقام هو بتونس إلى أن كان ما تذكره ان شاء الله تعالى { الخبر عن استيلاء الامير الفضل على قسنطينة وبجاية ثم استيلاء أمرائهما بتمهيد الملك { كان سنن السلطان أبي الحسن في دولته بالمغرب وفود العمال عليه آخر كل سنة لايراد جبايتهم والمجاسية على أعمالهم فوفدوا عليه عامهم ذلك من قاصية المغرب ووافاهم خبر الواقعة بقسنطينة وكان معهم ابن مزنى عامل الزاب وقد أيضا بجبايته وهديته وكان معهم ابن عمه تاشفين ابن السلطان أبي الحسن كان

أسيرا من يوم واقعة طريف ووقعت المهادنة بين الطاغية وبين أبيه فأطلقه وأوفد معه جمعا من بطارفته وقدموا معه على أبيه ووفد معه أخوه عبد الله من المغرب وإن أيضا معهم وفد السودان من أهل مالي في عرض السفارة واجتمعوا كلهم بقسنطينة فلما اتصل بهم خير الواقعة على السلطان كثر الاضطراب وتطلبت السفهاء من الغوغاء إلى ما بأيديهم

[٣٦٢]

وخشى الملا من أهل البلد على أنفسهم فاستدعوا أبا العباس الفضل من عمله ببونة ولما أطل على قسنطينة ثارت العامة بمن كان هنا لك من الوفد والعمال وانتهبوا أموالهم واستلحموا منهم وخلص أبناء السلطان مع وفود السلطان والجلالفة إلى بسكرة مع ابن مزني وفي خفارة يعقوب بن علي أمير الزاودة فأوسع ابن مزني قري وتكرمة إلى أن لحقوا بالسلطان أبي الحسن بتونس في رجب من سنة تسع ودخل المولى الفضل إلى قسنطينة وأعاد ما ذهب من سلطان قومه وشمل الناس بعدله واحسانه وسوغ الاقطاع والجوائز ورحل إلى بجاية لما أنس من صاغية أهلها إلى الدعوة الحفصية فلما أطل عليها ثار أهلها بالعمال الذين كان السلطان أنزلهم بها واستباحوهم وأفلتوا من أيدي نكبتهم بحريفة الرقل ودخل الفضل إلى بجاية واستولى على كرسى ملكها ونظمها مع قسنطينة وبونة في ملكه وأعاد القاب الخلافة ورسومها وشتاتها كما كانت واعتزم على الرجيل إلى الحضرة وبينما هو يحدث نفسه بذلك إذ وصل الخبر بقدم أمراء بجاية وقسنطينة من المغرب وكان من خبرها أن الامير أبا عنان لما بلغه خبر الواقعة بأبيه وانتزاع منصور ابن أخيه إلى ملكه بالبلد الجديد دار ملكهم وأحس بخلص أبيه من هوة الحصار بالقيروان وثب على الامر ودعا لنفسه ورحل إلى المغرب كما تذكره في أخباره وسرح الامير أبا عبد الله محمد ابن الامير أبي زكريا صاحب بجاية والانباء إلى عمله وأمدته بالاموال وأخذ عليه الموائيق ليكون له رداً دون أبيه وليحولن بينه وبين الخلوص متى مر به وانطلق أبو عبد الله إلى بجاية وقد سبقه إليها عمه الفضل واستولى عليها فنازله بها وطال حصارها ولحق بمكانه من منازلها نبيل المولى ابن المعلوجى مولى الامير أبي عبد الله وكافل بنيه من بعده وتقدم إلى قسنطينة وبها عامل من قبل الفضل فثار به الناس لحيته ودخل نبيل وملك البلد وأقام فيها دعوة الامير أبي زيد ابن الامير أبي عبد الله وكان الامير أبو عنان استصحبه وأخوانه إلى المغرب وبعد احتلاله بفاس سرحهم إلى مكان امارتهم بقسنطينة بعد أن أخذ عليهم الموثق في شأن أبيه بمثل موثق ابن عمهم فجاءوا على اثر نبيل مولاهم ودخلوا البلد واحتل أبو زيد منها بمكان امارته وسلطان قدمه كما قيل رحلتهم إلى المغرب ولم يزل الامير أبو عبد الله ينازل بجاية إلى أن بيثها بعض ليالى رمضان من سنته بمداخلة بعض الاشياء من رجالها داخلهم مولاة وكافله فارح في ذلك فسرب فيهم الاموال وواعدوه للبيات وفتحوا له باب البر من أبو ابها واقتحمه وفاجأهم هدير الطبول فهب السلطان من نومه وخرج من قصره فتسنىم الجبل المطل عليها وتسرب في شعابه إلى أن وضح الصباح وظهر عليه فجئ به إلى ابن أخيه فمن عليه واستبقاه وأركبه السفينة إلى بلد بونة في شوال من سنة

[٣٦٣]

تسع وأربعين ووجد بعض الاعياص من قرابته قد ثاروا بها وهو محمد بن عبد الواحد من ولد أبي بكر ابن الامير أبي زكريا الاكبر كان هو وأخوه عمر بالحضرة وكان لعمر منها النظر على القرابة فلما كان هذا

الاضطراب لحقوا بالفضل وتركهم بيونة عند سفره إلى بجاية فحدثهم أنفسهم بالانتزاء فلم يتم لهم أمر وثار بهم الحاشية والعامّة فقتلوا لوقتهم ووافى الفضل إلى بونة وقد انجلت غيبتهم ومحيث آثارهم فدخل إلى قصره وألقى عصا تسياره واستقل الأمير أبو عبد الله ابن الأمير أبي زكريا بجاية محل إمارة أبيه الأمير أبي زيد ابن الأمير أبي عبد الله بقسنطينة محل إمارة أبيه والأمير أبو العباس الفضل بيونة محل إمارته منذ عهد الأمر والسلطان أبو الحسن بتونس إلى أن كان من أمرهم ما نذكره إن شاء الله تعالى * (الخبر عن حركة الفضل إلى تونس بعد رحيل السلطان أبي الحسن إلى المغرب) * كان العرب بعد ما قدمنا من طاعتهم وإسلامهم سلطانهم إلى أبي دبوس قد انفضوا عن السلطان أبي الحسن وأجلبوا عليه ثانية وتولى كبر ذلك قتيبة بن حمزة وخالف إلى السلطان أخوه خالد مع أولاد مهلهل وإفترق أمرهم وخرج كبيرهم عمر بن حمزة حاجا فاستقدم قتيبة وأصحابه الأمير الفضل من مكان إمارته بيونة لطلب حقه واسترجاع ملك أبيائه فأجابهم ووصل إلى أبيائهم آخر سنة تسع فنازلوا تونس وأجلبوا عليها ثم أفرجوا عن منازلها أول سنة خمسين وأفرجوا عنها آخر المصيف واستدعاهم أبو القاسم بن عتو صاحب الجريد من مكان عمله بتوزر فدخل في طاعة الفضل وحمل أهل الجريد كلهم عليها واتبعه في ذلك بنو مكي وانقضت إفريقية عن السلطان أبي الحسن من أطرافها فركب أساطيله إلى المغرب أيام الفطر من سنة خمسين ومضى المولى الفضل إلى تونس وبها أبو الفضل ابن السلطان أبي الحسن كان أبوه قد عقد له عليها عند رحيله إلى المغرب تفاديا عن ثورات الغوغاء ومضرة هيعتهم وأمن عليه بما كان عقد له من الصهر مع عمر بن حمزة في ابنته فلما أطلت رايات المولى الفضل على تونس أيام الحج نبضت عروق التشييع للدعوة الحفصية وأحاطت الغوغاء بالقصر ورحموه بالحجارة وأرسل أبو الفضل إلى بنى حمزة متذمما بصهرهم فدخل عليه أبو الليل وأخرجه ومن معه إلى الحى واستركب له من رجالات بنى كعب من أبلغه مأمونه وهداه السبيل إلى وطنه ودخل الفضل إلى الحضرة وقعد بمجلس أبيائه من الخلافة وجدد ما طمسسته بنو مريم من معالم الدولة واستمر أمره على ذلك إلى أن كان من أمره ما نذكر إن شاء الله تعالى { الخبر عن مهلك الفضل وبيعة أخيه المولى أبي اسحق في كفالة أبي محمد بن تافراكين وتحت استبداده }

لما دخل أبو العباس الفضل إلى الحضرة واستبد بملكها عقد على حجابته لأحمد بن محمد ابن عتو نائبا عن عمه أبي القاسم ريثما يفئ من الجريد وعقد على جيشه وحره لمحمد بن الشواش بطانته وكان وليه المطارد به أبو الليل قتيبة بن حمزة مستبدا عليه في سائر أحواله منتشطا في طلباته وأنف له بطانته من ذلك فحملوه على التنكر له وأن يدل منه بولاية خالد أخيه وبعث عن أبي القاسم بن عتو وقد قلده في حجابته وفوض إليه أمره وجعل مقاد الدولة بيده فركب إليه البحر من سوسة واستألف له خالد بن حمزة ظهيرا على أخيه بعد أن نبذ إليه عهده وفاوضهم أبو الليل بن حمزة قبل استحكام أمورهم فغلب على السلطان وحمله على عزله قائده محمد بن الشواش فدفعه إلى بونة على عساكرها واضطربت نار الفتنة بين أبي الليل بن حمزة وبين أخيه خالد وكاد شملهم إن يتصدع وبينما هم يجيشون نار الحرب ويجمعون الجموع والأحزاب إذ قدم كبيرهم عمر وأبو محمد عبد الله بن تافراكين من حجهم وكا ابن تافراكين لما احتل بالاسكندرية بعث السلطان فيه إلى أهل المشرق وخاطبه ملوك مصر في التحكيم فيه فأجاره عليه الأمير المستبد على الدولة يومئذ سقاروس وخرج من مصر لقضاء فرضه وخرج عمر بن حمزة لقضاء فرضه أيضا فاجتمعا في مشاهد الحاج آخر سنة خمسين وتعاقدا على الرجوع إلى إفريقية والتظاهر على أمرهما

وقفلاً فألفياً خالداً وقتيبة على الصغير فأشار عمر بن داية فاجتمعا وتواقفاً ومسح الأحن من صدورهما وتواطوا جميعاً على المكر بالسلطان وبعث إليه وليه قتيبة بالمراجعة فقبله وانفقوا على أن يقلد حجابته أبا محمد ابن تافراكين صاحب أبيه وكبير دولتهم ويدل به من ابن عتو فأبى ثم أصبحت ونزلت أحيانهم ظاهر البلد واستحثوا السلطان للخروج إليهم ليكملوا عقد ذلك ووقف بساحة البلد إلى أن أحاطوا به ثم اقتادوه إلى بيوتهم وأدناوا لابن تافراكين في دخول البلد فدخلها لاحدى عشرة من جمادى الأولى سنة احدى وخمسين وعمد إلى دار المولى أبى اسحق ابراهيم ابن مولانا السلطان أبى بكر فاستخرجه بعد أن بذل من العهد لامة والمواثيق ما رضيتها وجاء به إلى القصر وأقعدته على كرسى الخلافة وباع له الناس خاصة وعامة وهو يومئذ غلام مناهز فاعتقدت بيعته ودخل بنو كعب فأتوه طاعتهم وسبق إليه أخوه الفضل ليلتذ فاعتقل وغط من جوف الليل بمحبسه حتى فاض ولاذ حاحبه أبو القاسم بن عتو بالاختفاء في غيابات البلد وعثر عليه لليال فاعتقل وامتنح وهلك في امتحانه وخوطب العمال في الجهات باخذ البيعة على من قبلهم فبعثوا بها واستقام ابن بهلول صاحب توزر على الطاعة وبعث بالجباية والهدية واتبعه صاحب نفطة وصاحب قفصة وخالفهم ابن مكى وذهب إلى الاجلاب على ابن

[٣٦٥]

تافراكين لما كان قد كفل السلطان وحجزه عن التصرف في أمره واستبد عليه إلى أن كان من أمره ما نذكر ان شاء الله تعالى والله تعالى أعلم { الخبر عن حركة صاحب قسنطينة وما كان من حجابة أبى العباس بن مكى وتصاريف ذلك } لما استولى أبو محمد بن تافراكين على تونس وباع للمولى أبى اسحق بالخلافة واستبد عليه نغم عليه الامراء شأن استبداده ونغمه ابن مكى للسعى عليه لمنافسة كانت بينهما قديمة من لدن أيام السلطان أبى بكر واستعان على ذلك باولاد مهلهل مقاسمي اولاد أبى الليل في رئاسة الكعوب ومجاديبهم حبل الامارة فلما رأوا صاعية ابن تافراكين إلى اولاد أبى الليل أقتالهم أجمعوا له ولهم وحالفوا بنى حكيم من قبائل علان وأجليوا على الضواحي وشنوا الغارات ثم وفد على الامير أبى زيد صاحب قسنطينة وأعمالها يستحثهم للذهوض إلى افريقية واستخلاص ملك آبائه ممن استبد عليه واحتازه دونهم فسرح معهم عسكريين لنظر ميمون ومنصور الجاهل من مواليه وموالى أبيه وارتحلوا من قسنطينة وارتحل معهم يعقوب بن على كبير الزواودة بمن معه من قومه وسرح أبو محمد بن تافراكين من الحضرة للقاسم عسكرياً مع أبى الليل وقتل يومئذ أبو الليل قتيبة بن حمزة بيد يعقوب ابن سحيم من اولاد القوس شيوخ بنى حكيم ورجع فلهم إلى تونس وامتدت أيدي اولاد مهلهل وعساكر قسنطينة في البلاد وجبوا الاموال من اوطان هوارية وانتهوا إلى ابدة ثم قفلوا راحلين إلى قسنطينة وولى على اولاد أبى الليل مكان قتيبة أخوه خالد بن حمزة وقام بأمرهم وكان أبو العباس بن مكى أثناء ذلك يكتب المولى أبا زيد صاحب قسنطينة من مكان ولايته بفاس وبعده من نفسه الوفادة والمدد بالمال والاحزاب والقيام باعطيات العرب حتى إذا انصرم فصل الشتاء ووفد عليه مع اولاد مهلهل لقاء مبرة وتكريماً وعقد له على حجابته وجمع عساكره وجهاز آلاته وأزاح علل تابعه ورجل من قسنطينة سنة ثلاثى وخمسين في صفر وجهاز أبو محمد بن تافراكين سلطانه أبا اسحق لما يحتاج إليه من العساكر والآلة وجعل على حربيه ابنه أبا عبد الله محمد بن نزار من طبقة الفقهاء ومشيخة الكتاب كان يعلم أبناء السلطان الكتاب ويقرئهم القرآن كما قدمناه وفصل من تونس في التعبئة حتى إذا تراءى الجمعان كر محمد وتزاحفوا فاختل مضاف السلطان أبى اسحق وافتترقت جموعه وولوا منهزمين واتبعهم القوم عشية يومهم ولحق السلطان بصاحبه أبى

محمد بن تافراكين بتونس وجاؤا على اثره فنازلوا تونس أياما وطالت عليهم الحرب ثم امتنعت عليهم وارتحلوا إلى القيروان ثم إلى قفصة وبلغهم أن ملك المغرب

[٣٦٦]

الاقصى السلطان أبا عبد الله قد خالفهم إلى قسنطينة بمداخلة أبي محمد بن تافراكين واستجاشته ونازل جهات قسنطينة وانتهب زروعها وشن الغارات عليها وفي بسائطها فيبلغهم أنه رجع إلى بجاية منكمشا من زحف بنى مريين واعتزم الامير أبو زيد على مبادرة نغره ودار امارته يعنى قسنطينة ورغب إليه أبو العباس بن مكى وأولاد مهلهل أن يخلف بينهم من اخوانه من يجتمعون إليه ويزاحفون به فولى عليهم أخاه العباس فبايعوه وأقام فيهم هو وشقيقه أبو يحيى زكريا إلى أن كان من شأنه ما نذكر وانصرف الامير أبو زيد عند ذلك من قفصة يغذ السير إلى قسنطينة واحتل بها في جمادى من سنته والله تعالى أعلم { الخبر عن وفادة صاحب بجاية على ابى عنان واستيلائه عليه وعلى بلده ومطلبه قسنطينة } كان بين الامير أبي عبد الله صاحب بجاية وبين الامير أبي عنان أيام امارته بتلمسان ونزول الاعياص الحفصيين بندرومة ووجدة أيام أبيه كما ذكرناه اتصال ومخالصة أحكمها بينهما نشب الشباب والملك وسابقة الصهر فكان الامير أبو عبد الله من أجل ذلك صاغية إلى بنى مريين أوجد بها السبيل على ملكه ولما مر السلطان أبو الحسن في أسطوله عند ارتحاله من تونس كما قدمناه أمر أهل سواحله بمنعه الماء والأقوات من سائر جهاتها رعا للذمة التى اعتقدها مع الامير أبى عنان في شأنه وجنوحا إلى تشييع سلطانه ولما أوقع السلطان أبو عنان بنى عبد الواد سنة ثلاث وخمسين واستولى على المغرب الاوسط ونجافلهم إلى بجاية أوعز إلى الامير أبى عبد الله باعتراضهم في جهاته والتقبض عليهم فأجابهم إلى ذلك وبعث العيون بالمراصد في ضواحي بجاية على محمد ابن سلطانهم أبى سعيد عثمان بن عبد الرحمن وعلى أخيه أبى ثابت الزعيم بن عبد الرحمن وعلى وزيرهم يحيى بن داود بن سليمان فاوثقوهم اعتقالا وبعث بهم إلى السلطان أبى عنان ثم جاء على اثرهم فتلقاه بالقبول والتكرمة وأنزله بأحسن نزل ثم دس إليه من اغراه بالنزول له عن بجاية رغبة فيما عند السلطان ازاء ذلك من التجلة والادالة عنها بمكناسة المغرب والراحلة من زيون الجند والبطانة واخفافا مما سواه ان لم يعتمده فأجاب إليه على اليأس والكره وشهد مجلس السلطان والملا من بنى مريين بالرغبة في ذلك فأسعف وانيفت جائزته واقتطعت له مكناسة من أعمال المغرب ثم انتزعها لايام قلائل ونقله في جملته إلى المغرب وبعث الامير أبو عنان مولاه فارحا المستبد عليه ليأتيه بأهله وولده وعقد أبو عنان على بجاية لعمر بن على ابن الوزير من بنى واطاس وهم ينتسبون بزعمهم إلى على بن يوسف أمير لمتونة فاختصه أبو عنان بولايتها لمتانة هذا النسب

[٣٦٧]

الصنهاجى بينه وبين أهل وطنها منهم وانصرفوا جميعا من المرية ولما احتلوا بجاية تأمر أولياء الدعوة الحفصية ومن بها من صنهاجة والموالي وهجست رجالانهم في قتل عمر بن على الوزير وأشياع بنى مريين وتصدى لذلك زعيم صنهاجة منصور بن ابراهيم بن الحاج في رجالات من قومه باملاء فارح زعموا وغدوا عليه في داره من القصة فأكب عليه منصور ينجيه فطعنه وطعن آخر منهم القاضى ابن مر كان بما كان شيعه لبنى مريين ثم أجهزوا على عمر بن على ومضى القاضى إلى داره فمات واتصلت الهبة بفارح فركب إليه

وهتف الهاتف بدعوة صاحب قسنطينة المولى أبي زيد وطيروا إليه بالخبر واستحثوه للقدوم وأقاموا على ذلك أياما ثم تأمر الملا من أهل بجاية في التمسك بدعوة صاحب المغرب خوفا من بوادره فثاروا بفارح وقتلوه أيام التشريق من سنة ثلاث وخمسين وبعثوا برأسه إلى السلطان بتلمسان وتولى كبر ذلك هلال صاحبه من موالى ابن سيد الناس ومحمد بن الحاجب أبي عبد الله بن سيد الناس ومشيجة واستقدموا العامل حواس من بنى مرين وهو يحيى بن عمر بن عبد المؤمن من بنى ونكاس فبادر إليهم وسرح السلطان أبو عنان إليها حاجبه أبا عبد الله محمد بن أبي عمر في الكتائب فدخلها فاتح أربع وخمسين وذهبت صنهاعة في كل وجه ولحق كبارهم وذوو الفعلة منه بتونس وتقبض على أعمال مولى ابن سيد الناس لما دخلته فيه من الظنة وعلى القاضي محمد بن عمر لما كان شيعة لفارح وعلى زعماء الغوغاء من أهل المدينة وأشخصهم معتقلين إلى المغرب وصرف نظره إلى تمهيد الوطن واستدعى كبراء العرب وأهل النواحي من أعمال بجاية وقسنطينة ووفد عليه يوسف بن مري صاحب الزاب ومشيجة الزاودة فاسترهن أبناءهم على الطاعة وقفل بهم إلى المغرب واستعمل أبو عنان على بجاية موسى بن ابراهيم البريناني من طبقة الوزراء وبعث إليها ولما وفدوا على السلطان جلس جلوسا فخما ووصلوا إليه ولقاهم تكربة ومبرة وأوسعهم حياء واقطاعا وأنقذ لهم الصكوك والسجلات وأخذ على طاعتهم العهود والمواثيق والرهن وانقلبوا إلى أهلهم وعقد لحاجبه ابن أبي عمر وعلى بجاية وأعمالها وعلى حرب قسنطينة من ورائها ورجعه إليها فدخلها في رجب من سنته وأوعز السلطان إلى موسى بن ابراهيم بالولاية على سدويكش والنزول بينى ياورار في كتيبة جهزها هنا لك لمضايقة قسنطينة وجباية وطنها وكل ذلك لنظر الحاجب ببجاية وكان بقسنطينة أبو عمر تاشفين ابن السلطان أبي الحسن معتقلا من لدن واقعة بنى مرين وكان موسوسا في عقله معروفا بالجنون عند قومه وكان الامراء بقسنطينة قد أسنوا جرايته في اعتقاله وأولوه من المبرة والكفاية كفاء نسبه فلما زحف كتائب بنى مرين إلى بنى ياورار آخر عمل بجاية

[٣٦٨]

ودانوا قسنطينة ومن بها من الحروب والحصار نصب المولى أبو زيد هذا الموسوس أبا عمر لبجائى به رجالات بنى مرين أهل العسكر ببجاية وبنى ياورار وجهز له الآلة وتسامعوا بذلك ففرع إليهم الكبير منهم وخرج نبيل حاجب الامير أبي زيد إلى أهل صنهاعة من بونة ومن كان على دعوته من سدويكش والزواودة فجمعهم وزحفوا جميعا إلى وطن بجاية واتصل الخبر بالحاجب ببجاية فبعث في الزواودة من مشائهم بالصحراء فأقبلوا إليه حتى نزلوا التلول ووفد عليه أبو دينار بن على بن أحمد واستحثه للحركة على قسنطينة فاعترض عساكره وأزاح عليلهم وخرج من بجاية في ربيع من سنة خمسين فكر أبو عمر ومن معه راجعين إلى قسنطينة وزحف الحاجب فيمن معه من بنى مرين والزواودة وسدويكش ولقيهم نبيل الحاجب بمن معه فكانت عليه الدبرة واكتسحت أموال بونة ورجع ابن أبي عمر بعساكره إلى قسنطينة فأناخ عليها سبعا ثم ارتحل عنها إلى ميلة وعقد يعقوب بن على بين الفريقين صلحا على أن يمكنوه من أبي عمر الموسوس فبعثوا به إلى أخيه السلطان أبي عنان فأنزله ببعض الحجر ورتب عليه الحرس وسار الحاجب في نواحي أعماله وانتهى إلى المسيلة واقتضى مغارمها ثم انكفا راجعا إلى بجاية وملكها فاتح سنة ست وخمسين وزحف إلى قسنطينة فحاصرها وامتنعت عليه فرجع إلى بجاية ثم زحف من العام المقبل سنة سبع وخمسين كذلك ونصب عليها المجانيق فامتنعت عليه وأرجف في عسكره بموت السلطان فانفضوا وأحرق بمجانيقه ورجع إلى بجاية وعمر الكتائب بينى ياورار لنظر موسى بن ابراهيم

البرنياني عامل سدويكش إلى أن كان من الايقاع به ويعسكره ما نذكر ان شاء الله تعالى والله أعلم * (الخبر عن حادثة طرابلس واستيلاء النصارى عليها ثم رجوعها إلى ابن مكى) * كانت طرابلس هذه ثغرا منذ الدول القديمة وكان لهم عناية بحمايتها لما كان وضعها في البسيط وكان ضواحيها قفرا من القبائل فكان النصارى أهل صقلية كثيرا ما يحدثون أنفسهم بملكها وكان ميخائيل الانطاكي صاحب أسطول زجار قد تملكها من أيدي بنى حزروق من مغاوة آخر دولتهم ودولة صنهاجة كما ذكرنا ثم رجوعها ابن مطروح ودخلت في دعوة الموحدين ومرت عليها الايام إلى أن استبد بها ابن ثابت ووليها من بعده ابنه في أعوام خمسين وسبعمئة منقطعا عن الحضرة ومقيما رسم الدعوة وكان تجار الجوينيين يترددون إليها فاطلعوا على عوراتها واثتمروا في غزوها واتعدوا لمرساها فوافوه سنة خمس وخمسين وانتشروا بالبلد في حاجاتهم ثم بيتوها ذات ليلة فصعدوا أسوارها وملكوها عليهم وهتف هاتفهم بالحرب وقد لبسوا السلاح فارتاعوا وهبوا من مضاجعهم فلما رأوهم بالاسوار لم يكن همهم الا النجاة

[٣٦٩]

بأنفسهم ونجا ثابت بن محمد مقدمهم إلى حلة الجوار في اعراب وطنها من ذئاب احدى بطون بنى سليم فقتل لدم كان أصابه منهم ولحق أخويه بالاسكندرية واستباحها النصارى واحتلموا في سفنهم ما وجدوا بها من الخرثى والمتاع والعقائل والاسرى وأقاموا بها وداخلهم أبو العباس بن مكى صاحب قابس في فدائها فاشترطوا عليه خمسين ألفا من الذهب العين فبعث فيهم لملك المغرب السلطان أبي عنان يطرفه بمثوبتها ثم تعجلوا عليه فجمع ما عنده واستوهب ما بقى من أهل قابس والجامه وبلاد الجريد فجمعوها له حسبة ورغبة في الخير وأمكنه النصارى من طرابلس فملكها واستولى عليها وأزال ما دنسها من وضر الكفر وبعث السلطان أبو عنان بالمال إليه وأن يرد على الناس ما أعطوه وينفرد بمثوبتها وذكرها فامتنعوا الا قليلا منهم ووضع المال عند ابن مكى لذلك ولم يزل ابن مكى أميرا عليها إلى ان هلك كما نذكره في أخبارهم ان شاء الله تعالى { الخبر عن بيعة السلطان أبي العباس أمير المؤمنين ومفتتح أمره السعيد بقسنطينة } كان الامير أبو زيد قد ولى الامر من بعد أبيه الامير أبي عبد الله بولاية جده الخليفة أبي بكر وكان اخوته جميعا في جملته ومنهم السلطان أبو العباس أمير المؤمنين لهذا العهد والمنفرد بالدعوة الحفصية من لدن مهلك ابيهم يرون أن الوراثة لهم وأن الامر فيهم حتى لقد يحكى عن شيخ وقته الولي أبي هادى المشهور الذكر وكان من أهل المكاشفة أنه قال ذات يوم وقد جاؤا لزيارته بأجمعهم على طريقهم وسنن أسلافهم في التبرك بالاولياء فدعا لهم الشيخ ما شاء الله ثم قال البركة ان شاء الله في هذا العرش وأشار إلى الاخوة مجتمعين وكان الحذاق والمنجمون أيضا يخبرون بمثلها ويحومون بوطنهم على أبي العباس منهم لما يتفرسون فيه من الشواهد والمخايل فلما كان من منازلة أخيه أبي زيد بتونس سنة ثلاث وخمسين ما قدمناه ثم ارتحل عنها إلى نفطة وأراد الرجوع إلى قسنطينة للارجاف يسائل السلطان أبا عثمان وانه زحف إلى آخر عمله من تخوم بجاية رغب إليه حينئذ أولاد مهلهل اولياؤه من العرب وشيعته وصاحبه أبو العباس بن مكى صاحب عمل قابس وحرمة أن يستعمل عليهم من اخوته من يقيم معهم لمعاودة تونس بالحصار فسرح أخاه مولانا العباس فتخلف معهم لذلك وفى جملته شقيقه أبو يحيى فأقاما بقابس وكان صاحب طرابلس محمد بن ثابت قد بعث اسطوله لحصار جربة فدخل الامير أبو العباس بمن معه الجزيرة وخابضوا إليها البحر فأجفل عسكر ابن ثابت وأفرجوا عن الحصن ثم رجع السلطان إلى قابس وزحف العرب أولاد مهلهل إلى

تونس وحاصروها أياما فامتنعت عليهم ورجع إلى أعمال الجريد وأوفد أخاه أبا يحيى زكريا على السلطان

[٣٧٠]

صريخا سنة خمس وخمسين فلقاه ميرة ورحبا وأسني جائزته وأحسن وعده وانكفا راجعا عنه إلى وطنه وممر بالحاجب أبي عمر عند إفراجه عن قسنطينة ولحق بأخيه بمكانه من قاصية إفريقية واتصلت أيديهما على طلب حقهما وفي خلال ذلك فسد ما بين أبي محمد بن تافراكين صاحب الامر بتونس وبين خالد بن حمزة كبير أولاد أبي الليل فعدل عنه إلى أفتاله وأولاد مهلهل واستدعاهم للمظاهرة فأقبلوا إليه وتحيز خالد إلى السلطان أبي العباس وزحفوا معه إلى تونس فنزلوها سنة ست وخمسين وامتنعت عليهم وأفرجوا عنها واستقدمه أخوه أبو زيد اثر ذلك لينصره من عساكر بنى مريين عند ما تكاثروا عليه وضاق به الحصار فأجابه وقدم عليه بخالد وقومه وخرج الأمير أبو زيد مع خالد إلى منازل تونس واستخلف على قسنطينة أخاه أبا العباس فدخلها ونزل بقصور الملك منها وأقام بها مدة وعساكر بنى مريين قد ملات عليه الضاحية فدعاها الأول إلى الاستياد وأنه أبلغ في المدافعة والحماية لما كانوا يتوقعون من زحف العساكر إليهم من بجاية فأجاب وبويج شهر من سنة ست وخمسين وانعقد أمره وزحف عبد الله بن علي صاحب بجاية إلى قسنطينة من سنته وفي سنة سبع بعدها فحاصره ونصب المجانيق ثم أجفل آخر الأرجاف كما ذكرناه وتنفس مخنق الحصار عن قسنطينة وكان الأمير أبو زيد أخوه لما ذهب مع خالد إلى تونس ونازلها امتنعت عليه ورجع وقد استبد أخوه بامر قسنطينة فعدل إلى بونة وأرسل أبا محمد بن تافراكين في سكنى الحضرة والنزول لهم عن بونة فأجابه ونزل عنها الأمير أبو زيد لعمه السلطان أبي اسحق وتحول إلى تونس فأوسعوا له المنازل وأسنوا الجرايات والجوائز وأقام في كفالة عمه إلى ان كان من أمره ما نذكره والله أعلم { الخبر عن واقعة موسى بن ابراهيم واستيلاء أبي عنان بعد علي قسنطينة وما تخلل ذلك من الاحداث } لما استبد السلطان أبو العباس بالامر وزحفت إليه عساكر بجاية وبنى مريين فأحسن دفاعها عن بلده وتبين لاهل الضاحية مخايل الظهور فيه فدخله رجالات من سدويكش من أولاد المهدي بن يوسف في غزو موسى بن ابراهيم وكتائبه المجرمة بنى باورار ودعوا إلى ذلك ميمون بن علي بن أحمد وكان منحرفا عن أخيه يعقوب ظهير بنى مريين ومناصحهم فأجاب وسرح السلطان أخاه أبا يحيى زكريا بينهم عن في جملة من العساكر وصحبوهم في غارة شعواء فلما شارفوهم ركبوا إليهم فتقدموا ثم أحجموا واختل مصافهم وأحيط بهم وأثنى قائد العسكر موسى بن ابراهيم بالجراحة واستلحم بنوه زيان وأبو القاسم ومن إليهم وكانوا أسود هياج وفرسان ملحمة في آخرين من أمثالها

[٣٧١]

وتتبعوا بالقتل والنهب إلى أن استبيحوا ونجافلهم إلى بجاية ولحقوا بالسلطان أبي عنان ولما بلغه الخبر قام في ركائبه وعقد وفتح ديوان العطاء وبعث وزراءه للحشد في الجهات وأعد من الجنود وأزاح العلل وشكاه موسى بن ابراهيم فعود عبد الله ابن علي صاحب بجاية عن قصده فسخطه ونكبه وعقد مكانه ليحيى بن ميمون بن مضمود وتلوم بعده أشهرها في تجهيز العساكر وبعث السلطان أبو العباس أخاه أبا يحيى إلى تونس صريخا لعمه السلطان أبي اسحق فأعجله الامر عن الاياب إليه وارتحل أبو عنان في عساكره ثم بعث في مقدمته وزيره فارس بن ميمون بن ودرار وزحف على أثره في ربيع

سنة ثمان وخمسين وأعد السير إلى قسنطينة وقد نازلها وزيره ابن ودرار قبله فلما نزل بساحتها وقد طبقوا الأرض الفضاء بجيوشه وعساكره وحمل أهل البلد وأدركهم الدهش فانفضوا وتسلبوا إليه وتحيز السلطان أبو العباس إلى القصبة فامتنع بها حتى توثق لنفسه بالعهد ثم نزل إليه فلقاه تكريماً ورحباً وأسنى له الفساطيط في جواره ثم بداله لأيام قلائل فنقض عهده وأركبه السفن إلى المغرب وأنزله بسبته ورتب عليه الحرس وبعث خلال ذلك إلى بونة فدخلت في طاعته وفر عنها عمال الحضرة ولما استولى عقد على قسنطينة لمنصور بن مخلوف شيخ بني بايان من قبيل بني مرين ثم بعث رساله إلى أبي محمد بن تافراكين في الاخذ بطاعته والنزول عن تونس فردهم وأخرج سلطانه المولى أبا اسحق مع أولاد أبي الليل ومن إليهم من العرب بعد أن جهز إليه العساكر وما يصلح من الآلة والجند وأقام هو بتونس وأجمع أبو عنان النهوض إليه ووفد عليه أولاد مهلهل يستحثونه لذلك فسرح معهم عسكراً في البر لنظر يحيى بن رحو بن تاشفين معطى حشود بني تيريين من قبائل بني مرين وصاحب الشورى في مجلسه وسرح عسكراً آخر في الاسطول لنظر محمد بن يوسف المعروف بالايك من بني الاحمر بنى الملوك بالاندلس لهذا العهد فسبق الاسطول وصبحوا تونس وقتلوا يوماً أو بعض يوم وأتيح لهم الظهور فخرج عنها أبو محمد بن تافراكين ولحق بالمهدية واستولت عساكر بني مرين على تونس في رمضان سنة ثمان وخمسين وحق لهم الظهور فخرج عنها أبو محمد بن تافراكين ولحق يحيى بن رحو بعسكره فدخل البلد وأمضى فيها أوامر السلطان ثم دعاه أولاد مهلهل إلى الخروج لمباغته أولاد أبي الليل وسلطانهم فخرج معهم لذلك وأقام ابن الاحمر وأهل الاسطول بالبلد في خلال ذلك جاهر يعقوب بن علي بالخلاف لما تبين من نكر السلطان أبي عنان وارهاف حده للعرب ومطالبتهم بالرهن وقبض أيديهم عن الاتاوات ومسح اعطافه بالمدارة فلم يقبلها فلحق يعقوب بالرمل واتبعه السلطان فأعجزه فعدا على قصوره ومنازله بالبلد والصحراء فخربها وانتسفها ثم رجع إلى قسنطينة وارتحل منها يريد

[٣٧٢]

افريقية وقد نهض المولى أبو اسحق بمن معه من العرب للقاءه وانتهوا إلى حصن سبته ثم تمشت رجالات بني مرين وائتمروا في الرجوع عنه حذراً أن يصيبهم بافريقية ما أصابهم من قبل فانفضوا متنسليين إلى المغرب ولما خف المعسكر من أهله أقصر عن القدوم إلى افريقية فرجع إلى المغرب بمن بقى معه واتبع العرب آثاره وبلغ الخبر إلى أبي محمد بن تافراكين بمكان منجته من المهدية فسار إلى تونس ولما أطال عليها ثار أهل البلد بمن كان عندهم من عسكر بني مرين وعمالهم فنجوا إلى الاسطول ودخل أبو محمد ابن تافراكين إلى الحضرة وأعاد ما طمس من الدولة ولحق به السلطان أبو اسحق بعد أن تقدم الامير أبو زيد في عسكر الجنود والعرب لاتباع آثار بني مرين ومنازلة قسنطينة فاتبعهم إلى تخوم عملهم ورجع أبو زيد إلى قسنطينة وقتلها أياماً فامتنت عليه فانكفاً راجعاً إلى الحضرة ولم يزل مقيماً بها إلى أن هلك عفا الله عنه وعنا أمين سنة وكان أخوه يحيى بن زكريا قد لحق بتونس من قبل صريخاً كما قلناه فلما بلغهم أن قسنطينة قد أحيط بها تمسكوا به فلحق به الفل من مواليهم وصنائعهم فكانوا معه إلى أن يسر الله أسباب الخير والسعادة للمسلمين وأعاد السلطان أبا العباس إلى الامر من بعد مهلك أبي عنان كما يذكر ومر إيلته على الخلع فطلع على الرعايا بالعدل والامان وشمول العافية والاحسان وكف أيدي العدوان ورفع الناس والدولة في ظل ظليل ومرعى جميل كما نذكر ان شاء الله { الخبر عن انتقاض الامير أبي يحيى زكريا بالمهدية ودخوله في دولة أبي عنان ثم نزوله عنها إلى الطاعة وتصاريه ذلك } كان الحاجب أبو

محمد عند رجوعه إلى الحضرة صرف عنايته إلى تحصين المهديّة بعدها للدولة وزرا من حادث ما يتوقعه من المغرب وأهله فشيّد من أسوارها وشحن بالاقوات والأسلحة مخازنها وكان أحمد بن خلف من أوليائه وذويه مستبدا عليه فأقام على ذلك حولا أو بعضه ثم ضجر الأمير أبو يحيى زكريا من الاستبداد عليه واستنكف من حجره في سلطانه فوثب به أحمد بن خلف فقتله وبعث عن أبي العباس أحمد بن مكى صاحب جربة وقابس ليقيم له رسم الحجابة لما كان مناويا لابي محمد بن تافراكين كافلة فوصل إليه وطيروا بالخبر إلى السلطان أبي عنان صاحب المغرب وبعثوا إليه ببيعتهم واستحثوه لصريخهم واضطراب أمرهم وسرح أبو محمد ابن تافراكين إليها العسكر فأجفلوا أمامه ولحق المولى أبو يحيى زكريا بقابس وولى عليها أبو محمد بن تافراكين محمد بن الحكجك من قرابة ابن ثابت اصطنعه عندما وقعت الحادثة علي طرابلس ولحق به فاستعمله على المهديّة ولما وصل الخبر إلى أبي عنان بشأن

[٣٧٣]

المهديّة جهز إليها الاسطول وشحنه بالمقاتلة والرجال وعين الموالى والخاصة فالقوها وقد رجعت إلى ايلة الحضرة ووصل إليها ابن الحكجك وأقام بها وحسن غناؤه فيها إلى أن كان من أمره ما نذكر وأقام الأمير زكريا بقابس وأجلب به أبو العباس بن مكى على تونس ثم بعثوه بالزواودة ونزل على يعقوب بن علي وأصهر إليه في ابنة أخيه سعيد فعقد له عليها ولما استولى أخوه أبو اسحق على بجاية استعمله على سدويكش والله تعالى أعلم * (الخبر عن استيلاء السلطان أبي اسحق على بجاية وإعادة الدعوة الحفصية إليها) * لما رجع السلطان أبو عنان من قسنطينة إلى المغرب أراح بسببته وسرح عساكره من العام المقبل إلى افريقية لنظر وزيره سليمان بن داود فسار في نواحي قسنطينة ومعه ميمون بن علي بن احمد ادبل به من يعقوب على قومه من الزواودة وعثمان بن يوسف ابن سليمان شيخ أولاد سباع منهم وحضر معهم يوسف بن مري عامل الزاب اوعز إليه السلطان بذلك فدوخ الجهات وانتهى إلى آخر وطن بونة واقتضى المغارم ثم انكفا راجعا إلى المغرب وهلك السلطان أبو عنان اثر قفوله سنة تسع وخمسين واضطرب المغرب ثم استقام على طاعة أخيه السلطان أبي سالم كما نذكره وكان أهل بجاية قد تقموا على عاملهم يحيى بن ميمون من بطانة السلطان أبي عنان سوء ملكته وشدة سطوته وعسفه فدخلوا أبا محمد بن تافراكين على البعد في التوثب به فجهز إليهم السلطان أبو اسحق ما يحتاج إليه من العساكر وتلقاهم يعقوب بن علي وظاهرهم على أمرهم وسار أخوه أبو دينار في جملتهم ولما أطلق على بجاية ثارت الفوغاء بيحيى بن ميمون العامل كان عليهم منذ عهد السلطان أبي عنان فألقى بيده وتقبض عليه وعلى من كان من قومه وأركبوا السفين إلى الحضرة وأودعهم أبو محمد بن تافراكين سجونه تحت كرامة وجرابة إلي أن من عليهم من بعد ذلك وأطلقهم إلى المغرب ودخل السلطان أبو اسحق إلى بجاية سنة احدى وستين واستبد بها بعض الاستبداد وحاجبه وكافله أبو محمد يدبر أمره من الحضرة ثم استقدم ابنه ونصب لوزارة السلطان أبي محمد عبد الواحد بن محمد بن اكما قرى من مشيخة الموحدين فكان يقيم له رسم الحجابة وقام بأمر الرجل بالبلد من الفوغاء على بن صالح من زعانفة بجاية واوغادها التفت عليه الثوار والدعار واصبحت له بهم شوكة كان له بها تغلب على الدولة إلى أن كان من أمره ما نذكره ان شاء الله تعالى والله أعلم * (الخبر عن فتح جربة ودخولها في دعوة السلطان أبي اسحق صاحب الحضرة) * هذه الجزيرة من جزر هذا البحر الذي هو قريب من قابس إلى الشرق عنها قليلا

طولها من المغرب إلى المشرق ستون ميلا وعرضها من ناحية الغرب عشرون ميلا ومن ناحية الشرق خمسة عشر ميلا وبين فرضتها في ناحية الغرب ستون ميلا وشجرها التين والنخل والزيتون والعنب واختصت بالنسيج وعمل الصوف للباسهم فيتخذون منه الأكسية المعلمة للاشتغال وغير المعلمة للباس ويجلب منها إلى الإفطار فتنتقيه الناس للباسهم وأهلها من البربر من كتامة وفيهم إلى الآن سدويكش وصدغيان من بطونهم وفيهم أيضا من بعده وهواره وسائر شعوب البربر وكانوا قديما على رأى الخوارج وبقي بها الآن فريقان منهم الوهيبية وهم بالناحية الغربية ورياستهم لبنى سمرمن والنعارة وهم بالناحية الشرقية وجرية فاصلة بينهما والظهور والرياسة على الكل لبنى النجار من الانصار من جند مضر ولاء معاوية على طرابلس سنة ست وأربعين فقدم افريقية وفتح جربة سنة سبع بعدها وشهد الفتح حسين بن عبد الله الصنعاني ورجع إلى برقة فمات بها ولما تزل في ملكة المسلمين إلى أن دخل دين الخوارج إلى البربر فأخذوا به ولما كان شأن أبي زيد سنة احدى وثلاثين وثلثمائة فأخطوا بدعوته بعد أن دخلها عنوة وقتل مقدمها يومئذ ابن كلوس وصلبه ثم استردها المنصور بن اسمعيل وقتل أصحاب أبي زيد ولما غلبت العرب صنهاجة على الضواحي وصارت لهم أخذ أهل جربة في انشاء الاساطيل وغزوا الساحل ثم غزاهم على بن يحيى بن تميم بن المعز ابن باديس سنة تسع وخمسمائة باساطيله إلى أن انقادوا وضمنوا قطع الفساد وصلاح الحال ثم تغلب النصارى عليها سنة تسع وعشرين وخمسمائة عند تغلبهم على سواحل افريقية ثم ثار أهلها عليهم وأخرجوهم سنة ثمان وأربعين ثم غلبوا عليها ثانية وسبوا أهلها واستعملوا على الرعية وأهل العلم ثم عادت للمسلمين ولم تزل مترددة بين المسلمين والنصارى إلى أن غلب عليها أيام عبد المؤمن بن علي واستقام أمرها إلى أن استبد أمراء بنى حفص بافريقية ثم افترق أمرهم بعد حين واستبد المولى أبو زكريا بن السلطان أبي اسحق بالناحية الغربية وشغل صاحب الحضرة بشأنه كما قدمناه فتغلب على هذه الجزيرة أهل صقلية سنة ثمان وثمانين وستمائة وبنوا بها حصن القشتيل مربع الشكل في كل ركن منه برج وبين كل ركنين برج ويجاوره حفير وسوران وأهم المسلمين شأنها ولم تزل عساكر الحضرة تتردد إليها كما تقدم إلى أن كان فتحها أيام السلطان أبي بكر على يد مخلوف بن الكماد من بطانته سنة ثمان وثلثين واستضافها ابن مكى صاحب قابس إلى عمله فأضافها إليه وعقد له عليها فصارت من عمله سائر أيام السلطان ومن بعده واتصلت الفتنة بين أبي محمد بن تافراكين وبين ابن مكى وبعث الحاجب أبو محمد ابن تافراكين عن أبيه أبي عبد الله وكان في جملة السلطان بيجاية كما قلناه ولما وصل

إليه سرجه في العساكر لحصار جربة وكان أهلها قد نعموا على ابن مكى سيرته فيهم ودرسوا إلى أبي محمد بن تافراكين بذلك فسرح إليه ابنه في العساكر سنة ثلاث وستين وكان أحمد بن مكى غائبا بطرابلس قد نزلها منذ ملكها من أيدي النصارى وجعلها دارا لامارته فنهض العسكر من الحضرة لنظر أبي عبد الله بن الحاجب أبي محمد ونزلوا في الاسطول فطلعوا بالجزيرة وضائقوا القشتيل بالحصار إلى أن غلبوا عليه وملكوه وأقاموا به الحضرة واستعمل عليه أبو عبد الله ابن تافراكين كاتبه محمد بن أبي القاسم بن أبي العيون كان من صنائع الدولة منذ العهد الاول وكانت لابييه قرابة من أبي عبد العزيز الحاجب ترقى بها إلى ولاية الاشغال بتونس مناهضا لابي القاسم بن طاهر الذي كان يتولاها يومئذ فكان رديفه عليها إلى أن هلك ابن طاهر فاستبد هو بها منذ أيام الحاجب أبي محمد واتصل ابنه محمد

هذا بخدمة ابن الحاجب واختص بكتابته إلى ان استعمله على جربة عند استيلائه عليها هذه السنة وانكفا راجعا إلى الحضرة فلم يزل محمد بن أبي العيون واليا عليها ثم استبد بها على السلطان بعد مهلك الحاجب وقرار يده على السلطان إلى ان غلبه عليها السلطان أبو العباس سنة أربع وسبعين كما ذكره ان شاء الله * (الخبر عن دعوة الامراء من المغرب واستيلاء السلطان أبي العباس على قسنطينة) * لما هلك السلطان أبو عنان قام بأمره من بعده وزيره الحسن بن عمر ونصب ابنه محمد السعيد للامر كما ذكره في أخباره وكان يضطغن للامير أبي عبد الله صاحب بجاية فقبض عليه لأول أمره واعتقله حذرا من وثوبه على عمله فيما زعموا وكان السلطان أبو العباس بسببته منذ أنزله السلطان أبو عنان بها ورتب عليه الحرس كما ذكرنا فلما انتزى على الملك المنصور بن سليمان من أعياص ملكهم ونازل البلد الجديد دار الملك ودخل في طاعته سائر الممالك والاعمال بعث في السلطان أبي العباس واستدعاه من سببته فنهض إليه وانتهى في طريقه إلى طنجة ووافق في ذلك اجازة السلطان أبي سالم من الأندلس لطلب ملكه وكان أول ما استولى عليه من أعمال المغرب طنجة وسببته فاتصل به السلطان أبو العباس وظاهره على أمره إلى أن نزع إليه قبيلة بني مرين عن منصور بن سليمان المنتزى على ملكهم فاستوسق أمره واستثبت سلطانه ودخل فاس وسرح الامير أبا عبد الله من اعتقال الحسن بن عمر كما قدمناه ورعى للسلطان أبي العباس ذمة سوابقه القديمة والحادثه فرفع مجلسه وأسنى جرابته ووعد بالمظاهرة على امره

[٣٧٦]

واستقروا جميعا إلى ابالته إلى أن كان من تغلب السلطان أبي سالم على تلمسان والمغرب الاوسط ما ذكره في أخبارهم واتصل به ثورة أهل بجاية بعاملهم يحيى بن ميمون ورجالات قبيلهم فامتعض لذلك وحين فقل إلى المغرب نقض يده من الاعمال الشرقية ونزل للسلطان أبي العباس عن قسنطينة دار امارته ومثوى عزه ومنبت ملكه فأوعز إلى عاملها منصور بن مخلوف بالنزول له عنها وسرحه إليها وسرح معه الامير أبا عبد الله ابن عمه لطلب حقه في بجاية والاجلاب على عمه السلطان عبد الحق جزاء بما نال من بني مرين عند افتتاحها من المعرة وارتحلوا من تلمسان في جمادى من سنة احدى وستين واقتعد سرير ملكه منها وتباشرت بعودته مقاصر قصورها فكانت مبدأ سلطانه ومظهر السعادة ومطلعا لدولته على ما نذكر بعد وأما الامير أبو عبد الله صاحب بجاية فلحق بأول وطنها واجتمع إليه أولاد سباع أهل ضاحيتها وقفرها من الزواودة ثم زحف إليها فنازلها أياما وامتنعت عليه فرحل عنها إلى بني ياورار واستخدم أولاد محمد بن يوسف والعزير بين أهل ضاحيتها من سدويكش ثم نزعوا عنه إلى خدمة عمه ببجاية فخرج إلى القفر مع الزواودة إلى أن كان من أمره ما ذكره ان شاء الله تعالى * (الخبر عن وصول الامير أبي يحيى زكريا من تونس وافتتاحه بونة واستيلائه عليها) * كان الامير أبو يحيى زكريا منذ بعثه أخوه أبو العباس إلى عمهما السلطان أبي اسحق صريخا لم يزل مقيما بتونس وبلغه استيلاء السلطان أبي عنان على قسنطينة وهو بتونس ثم لما كانت عودة مولانا أبي العباس من المغرب واستيلاؤه على قسنطينة فخشى الحاجب أبو محمد بن تافراكين بادرته وتوقع رجفه إليها وغلبه اياه على الامر ورأى أن يخفض جناحه في أخيه ويتوثق به فاعتقله بالقصبة تحت كرامه ورعى وبعث فيه السلطان أبو الحسن بعد مروضة في السلم فأطلقه وانعقد بينهما السلم ولما وصل الامير أبو يحيى ابن أخيه بقسنطينة عقد له عن العساكر وأصاروها نجما لعمله واستمرت حالها على ذلك إلى أن كان من أمرها ما ذكره ان شاء الله تعالى * (الخبر عن استيلاء الامير أبي عبد الله على بجاية ثم على تدلس بعدها) * لما قدم السلطان أبو عبد الله

من المغرب ونزل بجاية فامتنعت عليه خرج إلى أحياء العرب كما قدمناه ولزم صحابته أولاد يحيى بن على بن سباع بعد توالى الوفاة بها وأقام بين ظهرانهم وفى حلالهم ومتعهدا في طلب بجاية برحلة الشتاء والصيف نفقة عياله ومؤنة حشمه وأنزلوه بتلك المسيلة من أوطانهم وطالبوا له عن جبايتها وأقام على ذلك سنين خمسا ينزل بجاية في كل سنة منها مرارا وتحول في السنة الخامسة عنهم إلى أولاد

[٣٧٧]

على بن أحمد ونزل على يعقوب بن على فأسكنه بمقره من بلاده إلى أن بدا لعمه المولى أبى اسحق رأيته في اللحاق بتونس لما توقع من مهلك صاحبه وكافله أبى محمد بن تافراكين أسره إليه بعض الجند فحذره مغبته ووقع من ذلك في نفوس أهل بجاية انحراف عنه وخرج أمره وراسلوا أميرهم الأقدم أبى عبد الله من مكانه بمقره وظاهره على ذلك يعقوب بن على وأخذله العهد على رحلات سدويكش أهل الضاحية وارتحلوا معه إلى بجاية ونازلها أياما ثم استيقن الغوغاء اعتزام سلطانهم على التقويض عنهم وسئموا ملكة على بن صالح الذى كان عريفا عليهم فثاروا به وبنذوا عهده وانفضوا من حوله إلى الامير أبى عبد الله بالحرس من ساحة البلد ثم قاد إليه عمه أبى اسحق فمر عليه وخلقى سبيله إلى حضرته فلحق بها واستولى أبو عبد الله على بجاية محل امارته في رمضان سنة خمس وستين وتقبض على على بن أبى صالح ومن معه من عرفاء الغوغاء أهل الفتنة فاستصفى أموالهم ثم امضى حكم الله في قتلهم ثم نهض إلى تدلس لشهرين من مملكة بجاية فغلب عليها عمر بن موسى عامل بنى عبد الواد ومن اغتاص قبلهم وتملكها في آخر سنة خمسين وبعث عنى من الأندلس وكنيت مقيما بها نزيلا عند السلطان أبى عبد الله بن أبى الحاج بن الأحمر في سبيل اغتراب ومطاوعة تغلب منذ مملك السلطان أبى سالم الجاذب بضعى إلى تقويمه والترقى في خطط كتابته من ترسيل وتوقيع ونظر في المظالم وغيرها فلما استدعاني هذا الامير أبو عبد الله بادرت إلى امثاله ولو شاء ربك ما فعلوه ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير فاجزت البحر شهر جمادى من سنة ست وقلدنى حجابته ودفع إلى أمور مملكته وقمت في ذلك المقام المحمود إلى أن يأذن الله بانقراض أمره وانقطاع دولته والله الخلق والامر ويده تصاريف الامور * (الخبر عن مهلك الحاجب أبى محمد بن تافراكين واستبداد سلطانه من بعده) * كان السلطان أبو اسحق آخر دولته بجاية قد تجبر ملك حاجبه المستبد عليه أبى محمد بن تافراكين لما كان أهل صنهاجة أهل التنجيم يحدثونه بذلك فأجمع الرحلة إليها وانفض عنه أهل بجاية إلى ابن أخيه كما قدمناه واستولى عليه ثم أطلقه إلى حضرته فلحق بها في رمضان سنة خمس وستين وتلقاه أبو محمد بن تافراكين ورآه مرثف الحد للاستبداد الذى ألفه بجاية فكأيله بصاع الوفاق وصارقه نقد المصانعة وازدلف بأنواع القربى وقاد إليه النجائب ومنحه الذخائر والاموال وتجاوى له عن النظر في الجباية ثم أصهر إليه السلطان في كريمته ففقد له عليها وأعرس السلطان بها ثم كان مهلكه عقب ذلك فاتح ست وستين فوجم السلطان لنعيمه وشهد جنازته حتى وضع في لحده من المدرسة التى اختطها لقراءة العلم ازاء داره جوفى المدينة وقام على قبره باكيا وحاشيته يتناولون

[٣٧٨]

التراب جثما على جدته فقرن في الوفاء معه ما تحدث به الناس واستبد من بعده بأمره وأقام سلطانه لنفسه وكان أبو عبد الله الحاجب غائبا عن الحضرة وخرج منها بالعسكر للجباية والتمهيد فلما بلغه خبر مهلك أبيه داخلته الظنة وأوجس الخيفة فصرف العسكر إلى الحضرة وارتفع مع حكيم من بنى سليم وعرض نفسه على معاقل افريقية التي كان يظن أنها خالصة لهم فصدده محمد بن أبي العيون كاتبه عن عزمه فحمد الحكيم صنيعه وطاف بهم على المهديّة وبعث إليه السلطان بما رضىه من الامان فاستصحب بعد النفور ويادر إلى الحضرة فتلقيه السلطان بالبر والترحيب وقلده حجابته وأنزله على مراتب العز والشرف ونكر هو مباشرة السلطان للناس من رفعه للحجاب ولم يزل يريضة لما ألف من الاستبدا منذ عهد أبيه فأظلم الجو بينه وبين السلطان ودبت عقارب السعاية لمهاده الوثير فتنكر وخرج من تونس ولحق بقسنطينة ونزل بها على السلطان أبي العباس مرغبا له في ملك تونس ومستحثا فأنزله خير نزل ووعدته بالنهوض معه إلى افريقية بعد الفراغ من أمر بجاية لما كان بينه وبين ابن عمه صاحبها من الفتنة كما نذكرها بعد واستبد السلطان أبو اسحق بعد مفر ابن تافراكين عنه ونظر في أعطاف ملكه وعقد على حجابته لاحمد بن ابراهيم المالقي مصطنع الحاجب أبي محمد من طبقة العمال وعلى العساكر والحرب لمولاه منصور سريحة والمعلوجى ورفع الحجاب بينه وبين رجال دولته وصنائع ملكه حتى باشر جبايات الخراج وعرفاء الحشم وأوصلهم إلى نفسه وألغى الوسائط بينهم وبينه إلى حين مهلكه كما نذكر ذلك ان شاء الله تعالى والله تعالى أعلم * (الخبر عن استيلاء السلطان أبي العباس على بجاية وملك صاحبها ابن عمه) * لما ملك الامير أبو عبد الله بجاية واستقل بامارتها تنكر للرعية وساءت سيرته فيهم بارهاف الحد للكافة واسخاط الخاصة فنغلت الصدور ومرضت القلوب واستحكمت النفرة وتوجهت الصاغية إلى ابن عمه السلطان أبي العباس بقسنطينة لما كان استفسد منه وأعلن بلذاته وأقوم على سلطانه وكانت بينهما فتنة وحروب جرتها المنافسة في تخوم العمالتين منذ عهد الآباء وكان السلطان أبو العباس أيام نزوله على السلطان أبي سالم محمود السيرة والخلال مستقيم الطريقة في مثنوى اغترابه وربما كان ينقم على ابن عمه هذا بعض النزغات المعرضة لصاحبها للاملافة فاستقل بصحبته وشغل بذلك ضميره فلما استولى على بجاية علا ألى الفتنة فتنبه وشمر عزائمها فكان مغلبا فيها واعتلق منه يعقوب بن على بدمه في المظاهرة على السلطان أبي العباس فلم يغن عنه وراجع يعقوب سلطانه ثم جهز هو العساكر من بجاية لمزاحمة تخوم قسنطينة وفيها مولانا

أبو العباس فنهض إليه ثانية بنفسه في العساكر وتراجع العرب من أولاد سباع بن يحيى وجمع هو أولاد محمد وزحف فيهم وفي عسكر من زناتة والتقى الفريقان بناحية سطيف فاختلف مصاف أهل بجاية وانهمزوا واتبعهم السلطان أبو العباس إلى تاكرارت وجال في عمله ووطئ نواحي وطنه وقفل إلى بلده ودخل الامير أبو عبد الله إلى بجاية وقد استحكمت النفرة بينه وبين أهل بلده فدسوا إلى السلطان أبي العباس بقسنطينة بالقدوم عليهم فوعدهم من العام القابل وزحف سنة سبع وستين في عساكره وشيعته من الزواودة أولاد محمد وانضوى إليه أولاد سباع بشيعة بجاية بالجوار والسابقة القديمة لما نكروا من أحوال سلطانهم وعسكر الامير أبو عبد الله بليزوا في جمع قليل من الاولياء واقام بها يرجو مدافعة ابن عمه بالصلح فبيته السلطان بمعسكره من ليزوا وصبحه في غارة شعواء فانفض جمعه واحيط به وانتهب المعسكر وفر إلى بجاية فأدرك في بعض الطريق وتقبض عليه وقتل قصعا بالرماح وأعد السلطان أبو العباس السير إلى بجاية فأدرك بها صلاة الجمعة تاسع عشر شعبان

من سنة سبع وستين وكننت بالبلد مقيما فخرجت في الملا وتلقاني بالمبرة والتنويه وأشار إلى بالاصطناع واستوسق له ملك جده الامير ابي زكريا الاوسط في الثغور النبوية واقمت في خدمته بعض شهر ثم توخمت الحنقة في نفسي واذنته في الانطلاق فأذن لي تكرما وفضلا وسعة صدر ورحمة ونزلت على يعقوب بن علي ثم تحولت عنه إلى بسكرة ونزلت على ابن موسى إلى أن صفا الجو واستقبلت من أمرى ما استدبرت واستأذنته لثلاث عشرة سنة من انطلاقي عنه في خبر طويل نقصه من شأني فأذن لي وقدمت عليه فقابلتني وجوه عنايته وأشرقت على أشعة نبعته كما نذكر ذلك من بعد ان شاء الله تعالى { الخبر عن زحف حمو وبنى عبد الواد إلى بجاية ونكبتهم عليها وفتح تدلس من أيديهم بعدها } كان الامير ابو عبد الله صاحب بجاية لما اشتدت الفتنة بينه وبين عمه السلطان ابي العباس مع ما كان بينه وبين بنى عبد الواد من الفتنة عند غلبه اياهم على تدلس يكابد حمل العداوة من الجانبين وصفا إلى مهادنة بنى عبد الواد فنزل لهم عن تدلس وأمكن منها قائد العسكر المحاصر لها وأوفد رسله على سلطانهم ابي حمو بتلمسان وأصهر إليه أبو حمو في ابنته فعقد له عليها وزفها إليه بجهاز أمثالها فلما غلبه السلطان أبو العباس على بجاية وهلك في مجال حربه أشاع أبو حمو الامتعاظ له لمكان الصهر وجعلها ذريعة إلى الحركة على بجاية وزحف من تلمسان يجر الشوك والمدر في آلاف من قومه وطبقات العساكر والجند وتراجع العرب حتى انتهى إلى وطن حمزة فأجفل أمامه أبو الليل

[٣٨٠]

موسى بن زغلي في قومه بنى يزيد وتحصنوا في جبال زاوية المطلية على وطن حمزة وبعث إليه رسله لاقضاء طاعته فاثقهم كنافا وكان فيهم يحيى حافد ابي محمد صالح نزع عن السلطان ابي العباس إلى ابي حمو وكان عينا على غزاة ابي الليل هذا لما بينهما من الولاء والجوار والوطن وجاء في وفد الوفادة عن ابي حمو فتقبض عليهم وعليه فقتله وبعث برأسه إلى بجاية وامتنع على ابي حمو وعساكره فأجلبوا إلى بجاية ونزل معسكره بساحتها وقاتلها أياما وجمع الفعلة على الآلات في الحصار وكان السلطان أبو العباس بالبلد ومعسكره مع مولاة بشير بتكرار وتبعهم أبو زيان بن عثمان بن عبد الرحمن وهو عم ابي حمو من اعياص بيتهم وكان من خبره أنه كان خرج من المغرب كما نذكره في أخباره ونزل على السلطان ابي اسحق بالحضرة ورعى له أبو محمد الحاجب حق بعثه فأوسع في كرامته ولما غلب الامير أبو عبد الله على تدلس بعث إليه من تونس ليوليه عليها وتكون رداً بينه وبين حمو ويتفرغ هو للاجلاب على وطن قسنطينة فبادر إلى الاجابة وخرج من تونس ومر السلطان أبو العباس بمكانه من قسنطينة فصدر على سبيله واعتقاله عنده مكرما فلما غلب على بجاية وبلغه الخبر بزحف ابي حمو أطلقه من اعتقاله ذلك واستبلغ في تكرمته وحيائه ونصبه للملك وجهر له بعض الآلة وخرج في معسكره مولاة بشير ليجأئ به بنى عبد الواد عن ابن عمه ابي حمو لما سئموا من ملكه وعنفه وكان زغبة عرب المغرب الاوسط في معسكره ابي حمو وكان على حذر من مغبة أمره معهم فراسلوا أبا زيان وأثتمروا بينهم في الارجاب بالمعسكر ثم تحينوا لذلك ان شب الحرب بين أهل البلد وأهل المعسكر فأجفلوا خامس ذى الحجة وانفض بالمعسكر وانتحوا إلى مضايق الطرقات بساح البلد فكظت بزحامهم وتراكموا عليها فهلك الكثير منهم وخلفوا من الاثقال والعيال والسلاح والكراع مالا يحيط به الوصف وأسلم أبو حمو عياله وأمواله فصارت نهبا واجتلبت حظاياه إلى السلطان فوهبها لابن عمه ونجا أبو حمو بنفسه بعد أن طاح في كظيظ الزحام فؤاده فنزل له وزيره عمران بن موسى عن مركوبه فكان نجاؤه عليه ونزل بالجزائر ولحق بمنها بتلمسان واتبع أبو زيان اثره واضطرب

المغرب الاوسط كما نذكره في اخباره وخرج السلطان أبو العباس من بجاية على اثر هذه الواقعة فنزل تدلس وافتتحها وغلب عليها من كان بها من عمال بنى عبد الواد وانتظمت الثغور الغربية كلها في ملكه كما كانت في ملك جده الامير ابى زكريا الاوسط حين قسم الدعوة الحفصية بها إلى ان كان ما نذكره بعده ان شاء الله تعالى * (الخبر عن زحف العساكر إلى تونس) *

[٣٨١]

كان أبو عبد الله بن الحاجب ابى محمد بن تافراكين لما نزع عن السلطان ابى اسحق صاحب الحضرة لحق بحلل أولاد مهلهل من العرب ووفدوا جميعا على السلطان أبى العباس فاتح سنة سبع وستين يستحثونه إلى الحضرة ويرغبونه في ملكها فاعتذر لهم لما كان عليه من الفتنة مع ابن عمه صاحب بجاية وزحف إليها في حركة الفتح وصاروا في جملته فلما استكمل فتح بجاية سرح معهم أخاه المولى أبا يحيى زكريا في العساكر فساروا معه إلى الحضرة وابن تافراكين في جملته فنزلوها أياما وامتنعت عليهم وأقلعوا على سلم ومهادنة انعقدت بين صاحب الحضرة وبينهم وقفل المولى أبو يحيى بعسكره إلى مكان عمله ولحق ابن تافراكين بالسلطان فلم يزل في جملته إلى أن كان من فتح تونس ما نذكره والله تعالى أعلم * (الخبر عن مهلك السلطان أبى اسحق صاحب الحضرة وولاية ابنه خالد من بعده) * لما نزل السلطان أبو اسحق بالحضرة على ما ذكرناه وتخلف عن المهادنة مع السلطان أبى العباس طورا بطور واستخلص لدولتهم منصور بن حمزة أمير بنى كعب يستظهر به على أمره ويستدفع برأيه وشوكته فخلص له سائر أيامه وعقد سنة تسع وستين لابنه خالد على عسكر لنظر محمد بن رافع من طبقات الجنود من مغراوة مستبدا على ابنه وسرحه مع منصور بن حمزة وقومه وأوعز إليهم بتدويخ ضواحي بونة واكتساح نعمها وجباية ضواحيها فساروا إليها وسرح الامير أبو يحيى زكريا صاحب بونة عسكره مع أهل الضاحية فأغنوا في مدافعهم وانقلبوا على أعقابهم فكان آخر العهد بظهورهم ولما رجعوا إلى الحضرة تنكر السلطان لمحمد بن رافع قائد العسكر فخرج من الحضرة ولحق معاوية بمكانهم من لحقه من أعمال تونس واستقدمه السلطان بعد أن استعجب له فلما قدم تقبض عليه وأودعه السجن وعلى اثر ذلك كان مهلك السلطان ليلة من سنة سبعين بعد أن قضى وطرا من محادثة السمر وغلبه النوم آخر ليلة فنام ولما أيقظه الخادم وجده ميتا فاستحال السرور وعظم الاسف وغلب على البطانة الدهش ثم راجعوا بصائرهم ورفعوا الدهش عن أنفسهم وتلافوا أمرهم بالبيعة لابنه الامير أبى البقاء خالد فأخذها له على الناس مولاه منصور سريجة من المعلوجين وحاجبه أحمد ابن ابراهيم الياقنى على هذا الامير المنصوب للامر فلم يكن له تحكم عليها وكان أول ما افتتحا به امرهما ان تقبضا على القاضى محمد بن خلف الله من طبقة الفقهاء كان نزع إلى السلطان من بلده نقطة مغاضبا لمقدمها عبد الله بن على بن الخلف فرعى له نزوعه إليه واستعمله بخطة القضاء بتونس عند مهلك أبى على عمر بن عبد الرفيع ثم ولاة قود العساكر إلى بلاد الجريد وحربهم فكان له منها عناء واستدفعوه مرات بجبايتهم بيعتونه

[٣٨٢]

بها إلى السلطان ومرات بمصانعة العرب على الارجاج بمعسكره وكان ابن الياقنى بغض بمكانه عند السلطان فلما اشتد على ابنه أعظم فيه السعاية وتقبض عليه وأودعه السجن مع محمد بن على

بن رافع ثم بعث عليهما من داخلهما في الفرار من الاعتقال حتى دبروه معه وظهر على أمرهما فقتلتهما في محبسهما خنقا والله متولى الجزاء منه وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ثم أظهر ابن اليالقى من سوء سيرته في الناس وجوره عليهم وعسفه بهم وانتزاع أموالهم وإهانة سيال الاشراف منهم ما نغموه وضرعوا إلى الله في انقاذهم من ملكته فكان ذلك على يد مولانا السلطان أبى العباس كما نذكر ان شاء الله تعالى { الخبر عن فتح تونس واستيلاء السلطان عليها واستبداده بالدعوة الجفصية في سائر عمالات افريقية وممالكها } لما هلك السلطان أبو اسحق صاحب الحضرة سنة سبعين كما قدمنا وقام بالامر مولاه منصور سريجة وصاحبه اليالقى ونصبوا ابنه الامير خالدا للامر صبيا لم يناهز الحلم غرا فلم يحسنوا تديير امره ولا سياسة سلطانه واستخلصوا لوقتهم منصور بن حمزة أمير بنى كعب المتغلبين على الضاحية ثم أطمعوه بسوء تدييرهم في شركته لهم في الامر ثم قلبوا له ظهر المجن فسخطهم ولحق بالسلطان أبى العباس وهو مظل عليهم برقية من الثغور الغربية مستجمع للتوثب بهم فاستحثه لملكهم وحرضه على تلافى أمرهم ورم ما تتلم من سياج دولتهم وكان الاحق بالامر لشرف نفسه وجلالته واستفحال ملكه وسلطانه وشياع الحديث على عدله ورفعته وجميل سيرته ولما أن أهل مملكته نظروا لعقب نظره فيهم واستبداد سواه عليهم فأجاب صريخه وشمر للنهوض عزمه وكان أهل قسنطينة قد بعثوا بمثل ذلك فسرح إليهم أبا عبد الله بن الحاجب أبى محمد بن تافراكين لاستخبار طاعتهم وابتلاء دخلتهم فسار إليهم واقتضى سمعهم وطاعتهم وسارع إليها يحيى ابن يملول مقدم توزر والخلف بن الخلف مقدم نغطة فأثوها طواعية وانقلب عنهم وقد أخذوا بدعوة السلطان وأقاموها في أمصارهم ثم خرج السلطان من بجاية في العساكر وأغذ السير إلى المسيلة وكان بها ابراهيم ابن الامير أبى زكريا الاخير فأجابه أولاد سليمان بن على من الزواودة من مثنوى اغترابه بتلمسان ونصوه لطلب حقه في بجاية من بعد أخيه الامير أبى عبد الله وكان ذلك بمداخلة من أبى حمو صاحب تلمسان ومواعيد بالمظاهرة مختلفة فلما انتهى السلطان إلى المسيلة نذبوا إلى ابراهيم عهده وتبرؤا منه ورجعوا من حيث جاؤا وانكفأ السلطان راجعا إلى بجاية ثم نهض منها إلى الحضرة وتلقته وفود افريقية جميعا بالطاعة وانتهى إلى البلد فخيم بساحتها

أياما يغاديا القتال ويراوحها ثم كشف عن مصدوقته وزحف إلى أسوارها وقد ترجل أخوه والكثير من بطانته وأوليائه فلم يقم لهم حتى تسنموا الاسوار برياض رأس الطابية فنزل عنها المقاتلة وفروا إلى داخل البلد وخامر الناس الدهش وتبرأ بعضهم من بعض وأهل الدولة في مركبهم وقوف بباب الغدر من أبو اب القصبة فلما رأوا أنهم أحيط بهم ولوا الاعقاب وقصدوا باب الجزيرة فكبروا قبالة وثار أهل البلد جميعا بهم فحاصروا بساحتهم من البلد بعد عصب الريق ومضى الجند في اتباعهم فأدرك أحمد بن البالى فقتل وسبق رأسه إلى السلطان وتقضى على الامير خالد واعتقل ونجا العليج منصور سريجة برأس طمرة وخام وذهل عن القتال دون الاحبة ودخل السلطان القصر واقتعد أريكته وانطلقت أيدي العيث في ديار أهل الدولة فاكنتسحت ما كان الناس يضطغنون عليهم تحاملهم على الرعية واغتصاب أموالهم واضطربت نار العيث في دورهم ومخلفهم فلم تكذ أن تنطفئ ولحق بعض أهل العافية معرات من ذلك لعموم النهب وشموله حتى أطفأه الله ببركات السلطان وجميل نيته وسعادة أمره ولاذ الناس منه بالملك الرحيم والسلطان العادل وتهافتوا عليه تهافت الفراش على الذبال يلثمون أطرافه ويجدون بالدعاء له ويتنافسون في انتفاس مجيده إلى أن غشيهم الليل

ودخل السلطان قصوره وخلا بما ظفر من ملك آباءه وبعث بالامير خالد في الاسطول إلى قسنطينة فعصفت به الرياح وانخرقت السفينة وترادفت الامواج إلى أن هلك واستبد السلطان بأمره وعقد لآخيه الامير أبى يحيى على حجابته ورعى لابن تافراكين حق إنحياشه إليه ونزوعه فجعله رديفا لآخيه واستمر الامر على ذلك إلى أن كان من أمره ما نذكر ان شاء الله تعالى { الخبر عن انتقاض منصور بن حمزة واجلابه بالعم أبى يحيى زكريا على الحضرة وما كان عقب ذلك من نكبة ابن تافراكين { كان منصور بن حمزة هذا أمير البلد من بنى سليم بما كان بنى كعب وكان السلطان أبو يحيى يؤثره بمزيد العناية ويجعل له على قومه المزية وكان بنو حمزة هؤلاء منذ غلبوا على السلطان أبى الحسن على افريقية وأزعجوه منها قد استطالت أيديهم عليها وتقسموها أوزاعا وأقطعهم أمراء الحضرة السهمان في جبايتها زيادة لما غلبوا عليه من ضواحيها وأمصارها استئلافا لهم على المصاهرة واقامة الدعوة والحماية من أهل الثغور الغربية فملكوا الاكثر منها وضعف سهمان السلطان بينهم فيها فلما استولى هذا السلطان أبو العباس على الحضرة واستبد بالدعوة الحفصية كبح أعنتهم عن التغلب والاستبداد وانتزع ما بأيديهم من الامصار والعمالات التي كانت من قبل

[٣٨٤]

خالصة السلطان وبدا لهم ما لم يكونوا يحتسبونه فاحفظهم ذلك وأهمهم شأنه وتكر منصور بن حمزة وقلب ظهر المجن ونزع يده من الطاعة وغمسها في الخلاف وتابعه على خروجه على السلطان أبو معنونة أحمد بن محمد بن عبد الله بن مسكين شيخ حكيم وارتحل باحيائه إلى الزواودة صريخا مستجيشا بالامير أبى يحيى بن السلطان أبى بكر القيم بين ظهرانهم من لدن قفلته من المهديّة وانتزأه بها على أخيه المولى أبى اسحق كما ذكرناه فنصب للامر وباعوه وارتحل معهم وأعدوا السير إلى تونس ولقيهم منصور بن حمزة في احياء بيته فبايعوا له وأوفدوا مشيختهم على يحيى بن علول شيطى الغواية المراد على الخلاف يستحثونه للطاعة والمدد بمداخلة كانت بينهم في ذلك سول لهم فيها بالمواعيد وأملى لهم حتى إذا غمسوا أيديهم في النفاق والاختلاف سوفهم عن مواعيد حمايته بماله فأسرها منصور في نفسه واعتزم من يومئذ على الرجوع إلى الطاعة ثم رحلوا للاجلاب على الحضرة وسرح السلطان أبو العباس أخاه الامير أبى يحيى زكريا للقيهم في العساكر وتراحفوا فأشبح لمنصور وقومه ظهور على عساكر السلطان وأوليائه ثم يستكملهم واجلبوا على البلاد أياما ونمى إلى السلطان أن حاجبه ابى عبد الله بن تافراكين داخلهم في تبييت البلد فتقبض عليه وأشخصه في البحر إلى قسنطينة فلم يزل بها معتقلا إلى أن هلك سنة ثمان وسبعين ثم سرب السلطان أمواله في العرب فانتقض على المنصور قومه وخشى معه حاله وسوغه السلطان جائزته فعاود الطاعة ورهن ابنه ونبد إلى السلطان زكريا العم عهده ورجعه على عقبه إلى الزواودة والتزم طاعة السلطان والاستقامة على المظاهرة إلى أن هلك سنة ست وسبعين قتله محمد بن أخيه قتيبة في مشاجرة كانت بينهما طعنه بها فاشواه ورجع جريحا إلى بيته وهلك دونها أوآخر يومه وقام بأمر بنى كعب بعده صولة بن أخيه خالد وعقد له مولانا السلطان على أمرهم واستمرت الحال إلى أن كان من أمره ما نذكر ان شاء الله تعالى * (الخبر عن فتح سوسة والمهديّة) * كانت سوسة منذ واقعة بنى مرين بالقيروان تغلب العرب على العمالات فأقطعها السلطان أبو الحسن لخليفة بن عبد الله بن مسكين فيما سوغ للعرب من الامصار والاقطاعات مما لم يكن لهم فاستولى عليها خليفة هذا ونزلها واستقل بجبايتها وأحكامها واستبد بها على السلطان ولم يزل كذلك إلى أن هلك وقام بأمره في قومه عامر بن عمه محمد ابن مسكين أيام استبداد أبى محمد بن تافراكين

فسوغها له كذلك مفضلا مرهبا من قتله ثم قتله بنو كعب وأقام بأمر حكيم من بعده أحمد الملقب أبو صعنونة بن محمد أخی خليفة بن عبد الله بن مسكين فاستبد بسوسة على السلطان واقتعدها دار امارته وربما

[٣٨٥]

كان ينتفض على صاحب الحضرة فيجلب عليها من سوسة ويشن الغارات في نواحيها حتى لقد أوقع في بعض أيامه بمنصور سريحة مولى السلطان أبى اسحق وقائد عسكره فتقبض عليه واعتقله بسوسة أياما ثم من عليه وأطلقه وعاود الطاعة معه ولم يزل هذا ذأبهم وكانت لهم في الرعايا آثار قبيحة وملكات سيئة ولم يزالوا يضرعون إلى الله في انقاذهم من أيدي جورهم وعسفهم إلى أن تأذن الله لاهل إفريقية وهبت ريح العز على المغرب في جميع النواحي فتنكر أهل سوسة لعاملهم أبى صعنونة هذا وأحسن بتكراتهم فخرج عنهم وتجاوى للسلطان على البلد وثارت عامتها بعماله وجهضوهم ونزل عمال السلطان بها ثم كانت من بعد ذلك حركة المولى أبى يحيى إلى نواحي طرابلس ودوخ جهاتها واستوفى جباية أعمالها وكان بالمهدية محمد بن الجكجك استعمله عليها الحاجب أبو محمد بن تافراكين أيام ارتجاعه إياها من أيدي أبى العباس بن مكى والامير أبى يحيى زكريا المنتزى بها ابن مولانا السلطان أبى بكر كما مر وأقام ابن الجكجك أميرا عليها بعد موت الحاجب فلما وخزته شوكة الاستطالة من الدولة وطلع نحوه فنام العساكر فرق من الاستيلاء عليه وركب أسطوله إلى طرابلس ونزل على صاحبها أبى بكر بن ثابت لذمة صهر قديم كان بينهما وبادر مولانا السلطان إلى تسليم المهديّة وبعث عليها عماله وانتظمت في ملكيته واطردت أحوال الظهور والنحج وكان بعد ذلك ما نذكر ان شاء الله تعالى * (الخبر عن فتح جربة وانتظامها في ملك السلطان) * كان محمد بن أبى القاسم بن أبى العيون منذ ولاه أبو عبد الله محمد بن تافراكين على هذه الجزيرة قد تقبل مذاهب جيرانها من أهل قابس وطرابلس وسائر الجريد في الامتناع على السلطان ومصارفة الاستبداد وانتحاله مذاهب الامارة وطرقها ولبوس شؤونها وقد ذكرنا سلفه من قبل وان والده كان صاحب الاشغال بالحضرة أيام الحاجب أبى محمد تافراكين وانه اعتلق بكتابة ابنه أبى عبد الله مولاه على جربة عند افتتاحه إياها سنة وانه قصده عند مغره عن المولى أبى اسحق لينزل جربة معولا على قديم اصطناعه إياه فمنعه ثم داخل شيوخ الجزيرة من بنى في الامتناع على السلطان والاستبداد بأمرهم فأجابوه وأقام ممتنعا سائر دولة مولانا السلطان وابنه من بعده ولما استولى مولانا السلطان أبو العباس على تونس داخله الروع والوحشة وصار إلى مكاثرة رؤساء الجريد في التطافر على المدافعة بزعمهم فأجرى في ذلك شأوا بعيدا مع تخلفه في مضماره بقديمه وحديثه وصارف السلطان سوء الامتثال وإتيان الطاعة ومنع الخيانة فاحفظ ذلك ولما افتتح أمصار الساحل

[٣٨٦]

وتغوره سرح ابنه الامير أبا بكر في العساكر إلى جربة ومعه خالصة الدولة محمد بن على ابن ابرهيم من ولد أبى هلال شيخ الموحدين وصاحب بجاية لعهد المستنصر وقد تقدم ذكره وأمدّه في الاسطول في البحر لحصارها ونزل الامير بعسكره على مجازها ووصل الاسطول إلى حراسها فأطاف بحصن القشتيل وقد لاذ ابن أبى العيون بجدرانها وافترق عنه شيوخ الجزيرة من البربر وانحاش معه بطانته من الجند المستخدمين معه بها ولما رأوا ما لا طاقة لهم به

وان عساكر السلطان قد أحاطت بهم برا وبحرا نزلوا إلى الاسطول واستولوا على داره وولوا على الجزيرة وارتحلوا قافلين إلى السلطان ووصل محمد بن أبي العيون إلى الحضرة ونزل بالديوان فأركب القصة على حمل وظيف به على أسواق البلد اظهار العقوبة الله النازلة به وأحضره السلطان فويخه على مرتكبه في العناد ومدخلته أهل الغواية من امراء الجريد في الانحراف عنه ثم تجافى عن دمه وأودعه السجن إلى أن هلك سنة تسع وسبعين * (الخبر عن استقلال الامراء من الابناء بولاية الثغور الغربية) * كان السلطان عندما استجمع الرحلة إلى افريقية باستحثاث أهلها لذلك ووفادة منصور ابن حمزة شيخ الكعوب مرغبا فيها أهمه لذلك شأن الثغور الغربية وأحال اختياره في بنيه بسير أحوالهم ويعيش على الاكفاء لهذه الثغور منهم فوقع نظره أولا على كبير ولده المخصوص بعناية الله في القاء محبته عليه الامير أبي عبد الله فعقد له على بجاية وأعمالها وأنزله بقصور الملك منها وأطلق يده في مال الجباية وديوان الجند واستعمل على قسنطينة وضواحيها مولاه القائد بشير سيف دولته وعنان حربه وناشئ قصده وتلاد مرباه وكانت لهذا الرجل نخوة من الصرامة والبأس ودالة بالقديم والحادث وخلال لقيها أيام التغلب في أواوين الملك وكان ملازما ركاب مولاه في مطراح اعتزامه وأيام تمحيصه وربما لقي عند الورود على قسنطينة من المحنة والاعتقال الطويل ما أعاضه الله عنه بجميل السرور وعود العز والملك إلى مولاه على أحسن الاحوال فظفر من ذلك بالبغية وحصل من الرتبة على الامنية وكان السلطان يثق بنظره في العسكر وبيعته في مقدمة الحروب وكان عند استيلائه على بجاية وصرف العناية إليها ولاء أمر قسنطينة وأنزله بها وأنزل معه ابنه الامير أبا اسحق وجعل إليه كفالاته لصغره ثم استنفره بالعساكر عند النهوض إلى افريقية فنهض في حملته وشهد معه الفتح ثم رجع إلى عمله بقسنطينة بمزيد التفويض والاستقلال فلم يزل قائما بما دفع إليه من ذلك إلى أن هلك وكان السلطان قد أوفد ابنه أبا اسحق على ملك بن مقرب والسلطان عبد العزيز عندما استولى على تلمسان مهنتا بالظفر ملقحا غراس

الود وأنفذ معه شيخ الموحدين ساسة أبا اسحق بن أبي هلال وقد مر من قبل ذكر أخيه فتلقاهما ملك بن مقرب بوجوه المبرة والاحتفاء ورجعهما بالحديث الجميل عنه سنة ثلاث وسبعين ونزل الامير أبو اسحق بقسنطينة دار امارته وعقد له السلطان عليها وألقاب الملك ورسومه مصروفة إليه والقائد بشير مولى أبيه مستبد عليه لمكان صغره إلى أن هلك بشير سنة ثمان وسبعين عندما استكمل الامير أبو اسحق الحال واستجمع الامارة فجدد له السلطان عهده عليها وفوض إليه في امارتها فقام بما دفع إليه من ذلك أحسن قيام وأحواله تصدق الظنون وتومى إليه وشهادة المخاليل التي دلت عليه فاستقل هذان الاميران بعهد بجاية وقسنطينة وأعمالها مفوضا اليهما الامارة ماذونا لهما في اتخاذ الآلة وإقامة الرسوم الملوكية والشارة وكان الامير أبو يحيى زكريا الاخ الكريم مستقلا أيضا ببونة وعملها منذ استيلائه عليها سنة قد أضافها السلطان وأصارها في سهمانه فلما ارتحلوا إلى افريقية عام الفتح وتيقن الاخ أبو يحيى طول مغيبه واغتباط السلطان أخاه لكونه معه عقد عليها لابنه الامير أبي عبد الله محمد وأنزله بقصره منها وفوض إليه في امارته لما استجمع من خلال التشريع والذكر الصالح في الدين واستمر الحال على ذلك لهذا العهد وهو سنة ثلاث وثمانين وسبعمئة والله مدبر الامور سبحانه * (الخبر عن فتح قفصة وتوزر وانتظام أعمال قسنطينة في طاعة السلطان) * كان أمر هذا الجريد قد صار شورى بين رؤساء أمصاره فيما قبل دولة السلطان أبي بكر لاعتقال الدولة حينئذ بانقسامها كما مر فلما استبد السلطان أبو بكر بالدعوة الحفصية وفرغ من

الشواغل صرف إليهم نظره وأوطأهم عساكره ثم نهض بنفسه فجاء اثر الشورى منها وعقد لابنه أبى العباس عليها كما قلناه فلما كان بعد مهلكه من اضطراب افريقية وتغلب الاعراب على نواحيها ما كان منذ هزيمة السلطان أبى الحسن وتنازع رؤسائهم بعد أن كانوا سوقة في انتحال مذاهب الملك ومساربه يقتعدون الارائك ويتفقدون في المشى بين السكك المراكب ويهيئون في ابوانهم سبال الاشراف ويتخذون الآلة أيام المشاهد آية للمعتبرين في تغلب الايام وأضحوا كاهل الشامات حتى لقد حدثهم أنفسهم بالقاب الخلافة وأقاموا على ذلك أحوالا والدولة في التياتها فلما استبد السلطان أبو العباس بافريقية وعمالاتها وأتيح منه بالحضرة البازى المطل من مرقبه والاسد الخادر في عرينه وأصحاب الخلاف والنفاق يفتلون بذلك في عزائمه وأرعى هو لهم حبل الامهال وفسح لهم مجال الايناس بالمعاونة والوعد رجاء الفينة إلى الطاعة المعروفة والاستقامة على الجادة فأصروا وازدادوا عنادا ونفاقا فشمر لهم عن

[٣٨٨]

عزائمه ونبذ إليهم عهدهم على سواء ونهض من الحضرة سنة سبع وسبعين في عساكره من الموحدين وطبقات الجند والموالي وقبائل زناتة من استألف إليه من العرب أولاد مهلهل وحكيم وأصهار أولاد أبى الليل على المدافعة عن أهل الجريد ووافقوا السلطان أياما ثم أجفلوا أمامه وغلبهم السلطان على رعاياهم من تحيزه وكانوا من بقايا بنى يفرن عمروا ضواحي افريقية مع طواعن هوارة ونفوسة ومغراوة وكان للسلطان عليهم مغارم وجبايات وافرة فلما تغلب المغرب على بسائط افريقية وتنافسوا في الاقطاعات كانت طواعن من تحيز هؤلاء في اقطاع أولاد حمزة فكانت جبايتهم بهم موفورة ومالهم دائرا بما صاروا مددا لهم بالمال والكرام والدروع والادم وبالفرسان منهم يستظهرون بهم في حروبهم مع السلطان ومع قومهم فاستولى السلطان عليهم في هذه السنة واكتسح أموالهم وبعث رجالهم اسرى إلى سجون الحضرة وقطع بها عنهم أعظم مادة كانت تمدهم فحمد ذلك من عتوهم وقص من جناحهم إلى آخر الدهر ووهنوا له ثم عاد السلطان إلى حضرته وافترق أشياعه ونزع عنهم أبو صعنونة فتألف على أولاد أبى الليل وزحفوا إلى الحضرة فاحتلوا بساحتها أياما وشنوا الغارات عليها ثم انفضوا عنها وخرج على اثرهم لأول فصل الشتاء وتساحل إلى سوسة والمهدية فاقترض مغارم الاوطان التي كانت لابي صعنونة ثم رجع إلى القيروان وارتحل منها يريد قفصة وجمع أولاد أبى الليل للمدافعة عنها وسرب فيهم صاحب توزر الاموال فلم تغن عنه وزحف السلطان إلى قفصة فنزلها ثلاثا ولجوا في عصيانهم وقتلوه بجمع الابدى على قطع نخيلهم وتسايلت إليه الرعية من أماكنهم وأسلموا أحمد بن القائد مقدمهم وابنه محمد المستبد عليه لكبره ودخوله فخرج إلى السلطان واشترط له ما شاء من الطاعة والخراج ورجع إلى البلد وقد ماج أهلها بعضهم في بعض وهموا بالخروج فسابقهم ابنه أحمد المستبد على ابيه وكان السلطان سرح أخاه أبا يحيى في الخاصة والاولياء إلى البلد فلقبه محمد بنواحي ساحتها فبعث به إلى السلطان ودخل هو إلى القصبه وتملك البلد وتقبض السلطان على محمد بن القائد لوقته وسبق إليه أبوه أحمد من البلد فجعل معه واستولى على داره وذخائره واجتمع المدد والكافة من أهل البلد عند السلطان وأتوه بيعتهم وعقد عليها لابنه أبى بكر وارتحل بعد السير إلى توزر وقد سار الخبر بفتح قفصة إلى ابن يملول فركب لحيته واحتمل أهله وما خف من ذخائره ولحق بالزاب وطير أهل توزر بالخبر إلى السلطان فلقبه أثناء طريقه وتقدم إلى البلد فملكها واستولى على ذخيرتها ابن يملول ونزع بقصوره فوجد بها من الماعون والمتاع والسلاح وأنية الذهب والفضة ما لا يعد لأعظم ملك من ملوك الارض وأحضر بعض الناس

ودائع كانت لهم عنده من نفيس الجواهر والحلى والثياب وبرؤا منها إلى السلطان وعقد السلطان على توزر لابنه المنتصر وأنزله قصور ابن يملول وجعل إليه امارتها واستقدم السلطان الخلف بن الخلف صاحب نفطة فقدم عليه وأناه طاعته وعقد له على بلده ولاية حجابة ابنه بتوزر وأنزله معه وقفل إلى حضرته وقد كان أهل الخلاف من العرب عند تغلبه على أمصار الجريد إلى التلول فلما قصد حضرته اعترضوه دونها فأوقع بهم وفل من عزمهم وأجفلوا إلى الجهات الغربية يؤملون منها ظفرا لما كان ابن يملول قد جأجأ بهم إلى خدمة صاحب تلمسان والاستجاشة به فوفد عليه بتلمسان منصور بن خالد منهم ونصر ابن عمه منصور صريخين به على عادة صريخهم بابى تاشفين سلفه فدافعهم بالمواعدة وتبينوا منها عجزه وأنكفوا راجعين ووفد صولة على السلطان بعد أن توثق لنفسه فأشترط له على قومه ما شاء ورجع إليهم فلم يرضوا بشرطه ونهض السلطان من الحضرة في العساكر والاولياء من العرب وأجفلوا أمامهم فأتبعهم وأوقع بهم ثلاث مرات وافقوه فيها ثم أجفلوا ولحقوا بالقيروان وقدم وفدهم على السلطان والاشترط له كما يشاء فتقبل ووسعهم عفوه وصاروا إلى الانقياد والاعتماد في مذاهب السلطان ومرضاته وهم على ذلك لهذا العهد * (الخبر عن ثورة أهل قفصة ومهلك ابن الخلف) * لما استقل الخلف بن علي بن الخلف بحجابة المنتصر ابن السلطان وعقد له مع ذلك على عمله بنفقة فاستخلف عليها عامله ونزل بتوزر مع المنتصر ثم سعى به أنه يداخل ابن يملول ويراسله فبث عليه العيون والارصاد وعثر على كتابه بخط كاتبه المعروف إلى ابن يملول والي يعقوب بن علي أمير الزواودة يحرضهما على الفتنة فتقبض عليه وأودعه السجن وبعث عماله إلى نفطة واستولى على أمواله وذخائره وخاطب أبا ه في شأنه فأمله بعد أن تبين نقضه الطاعة وسعيه في الخلاف وكان السلطان قبل فتح نفطة قد نزع إليه من بيوتاتها أحمد بن أبي يريد وسار في ركابه إليها فلما استولى على البلد رعى له ذمة نزوعه إليه وأوصى به ابنه أبا بكر فاستولى على مشورته وحله وعقده وطوى على البيت ثم حدثته نفسه بالاستبداد وتحين له الموافقت واتفق أن سار الامير أبو بكر من نفطة لزيارة أخيه المنتصر بتوزر وخلف بالبلد عبد الله الترمكي من مواليهم وكان السلطان أنزله معه وولاه حجابته فلما توارى الامير عن البلد داخل ابن أبي يزيد عنفة من الاوغاد وطاف في سكك المدينة والمهاتفة معه ينادي بالثورة ونقض الطاعة وتقدم إلى القصبة فأغلقها القائد عبد الله دونه وحاربها فامتنتع عليه وفرع عبد الله الطبل بالقصبة واجتمع إليه أهل القرى فأدخلهم من باب كان بالقصبة يفضى إلى الغابة فكثروا ومنع

ابن أبي يزيد وتسلسل عنه الناس فلاذ بالاختفاء وخرج القائد من القصبة فتقبض على كثير من أهل الثورة وأودعهم السجن واستولى على البلد وسكن الهيعة وطار الخبر إلى المولى أبي بكر فأغذ السير منقلبا إلى قفصة ولحين دخوله ضرب أعناق المعتقلين من أهل الثورة وأمر الهاتف ينادى في الناس بالبراءة من ابن أبي يزيد وأخيه ولايام من دخوله عثر بهما الحرس في مقاعدهم بالباب مستترين بزى النساء فتقبضوا عليهما وتلوهما إلى الامير فضرب أعناقهما وصلبهما في جذوع النخل وكانا من المترفين فأصبحا مثلا في الايام وقد خسرا دينهما ودنياهما ذلك هو الخسران المبين وارتاب المنتصر صاحب توزر حينئذ بابن الخلف وحذر مغبة حاله فقتله بمحبسه وذهب في غير سبيل مرحمة وانتظم السلطان أمصار

الجريد كلها في طاعته واتصل ظهوره إلى أن كان ما ذكره ان شاء الله تعالى * (الخبر عن فتح قابس وانتظامها في ملكة السلطان) * هذه البلد لم تزل في هذه الدولة الحفصية لبني مكى المشهور ذكره في هذه العصور وما إليها وسيأتى ذكر أخبارهم ونسبهم وأوليتهم في فصل نفرده لهم فيما بعد وكان أصل رياستهم فيها اتصالهم بخدمة الامير أبى زكريا لاول أيام ولاية قابس سنة ثلاث وعشرين وستمائة فاختصوا به وداخلهم في الانتقاض على أخينا أبى محمد عبد الله عندما استجمع لذلك فأجابوه وتابعوه فرعى لهم هذه الوسائل عندما استبد بافريقية وأفردهم برياسة الشورى في بلدهم ثم سمو إلى الاستبداد عندما فشل الدولة عن العاصية بما حدث من افتن وانفراد الثغور الغربية بالملك ولم يزالوا جانحين إلى هذا الاستبداد ورامقين إليه بنظر العين والانتقاض على السلطان ومداخلة الثوار والاجلاب بهم على الحضرة والدولة أثناء ذلك في شغل عنهم وعن سواهم من أهل الجريد منذ أحقاب متطاولة بما كان من انقسام الدولة والحاح صاحب الثغور الغربية على مطالبة الحضرة ثم استبد مولانا السلطان أبو بكر بالدعوة الحفصية في سائر عمالات افريقية وشغله عن شاغل الفتنة مع صاحب تلمسان ومنازلتهم ثغر بجاية وتسريبه جيوش بنى عبد الواد مرة بعد أخرى مع الاعياص من بنى أبى حفص والعرب إلى افريقية وكان المتولي الرياسة بقابس يومئذ عبد الملك بن مكى بن أحمد بن عبد الملك ورديفه فيها أخوه أحمد وكانا يداخلان أبا تاشفين صاحب تلمسان في الاجلاب على الحضرة مع جيوشه والثوار القادمين معهم وربما خالفوا السلطان إلى الحضرة أزمان مغيبه عنها كما وقع لهم مع عبد الواحد بن اللحيانى وقد مر ذكر ذلك فلما استولى السلطان أبو الحسن على تلمسان وانمحي أثر بنى زيان فزع السلطان أبو بكر لهؤلاء الثوار الرؤساء

[٣٩١]

بالشريد الدائنين بالانتقاض سائر أيامهم وزحف إلى قفصة فملكها فذعروا ولحق أحمد ابن مكى بالسلطان أبى الحسن متدما بشفاعته بعد أن كان الركب الحجازى من المغرب مر بقابس وبه بعض كرائم السلطان فأوسعوا حياءهم وسائر الركب قرى وحباء وقدموا ذلك وسيلة بين يدي وفادته فقبل السلطان وسيلتهم وكتب إلى مولانا السلطان أبى بكر شافعا فيهم لذمة السلطان والصحف فتقبل شفاعته وتجاوز عن الانتقام منهم بما اكتسبوه ثم هلك مولانا السلطان أبو بكر وماج بحر الفتنة وعادت الدولة إلى حالها من الانقسام وانسدت على صاحب الحضرة وجوه الانتصاف منهم فعاد بنو مكى وسواهم من رؤساء الجريد إلى حالهم من الاستبداد على الدولة وقطع أسباب الطاعة ومنع المغارم والجباية ومشايعة صاحب الغربية ركونا على صاحب الحضرة فلما استبد مولانا السلطان أبو العباس بالدعوة الحفصية وجمع الكلمة واستولى على كثير من الثغور المنتفضة تراسل أهل هذه العصور الجريدية وتحدثوا بما دهمهم وطلبوا وجه الخلاص منه والامتناع عليه وكان عبد الملك بن مكى أقعدهم بذلك لطول مراسلة الفتنة وانحياشه إلى الثوار وكان أحمد أخوه ورديفه قد هلك سنة خمس وستين وانفرد هو برياسة قابس فراسلوه وراسلهم في الشأن وأجمعوا جميعا على تجييش العرب على السلطان وتسريب الاموال ومشايعة صاحب تلمسان بالترغيب في ملك افريقية فانتدبوا لذلك من كل ناحية وبعثوا البريد إلى صاحب تلمسان فأطمعهم من نفسه وعللهم بالمواعيد الكاذبة والسلطان أبو العباس مقبل على شأنه يفتل لهم في الذروة والغارب حتى غلب أولاد أبى الليل الذين كانوا يغزونهم بالمدافعة عنهم وافتتح قفصة وتوزر ونفطة وتبين لهم عجز صاحب تلمسان عن صريخهم فحينئذ بادر عبد الملك إلى مراسلة السلطان يعده من نفسه الطاعة والوفاء بالجباية ويستدعى لاقضاء ذلك منه بعض

حاشيته فأجابه إلى ذلك وبعث أمره إليه ورجع إلى الحضرة في انتظاره فطاوله ابن مكي في العرض ورده بالوعد ثم اضطرب أمره وانتقض عليه أهل ضاحيته بنو أحمد احدى بطون ذياب وركبوا إليه فحاصروه وضيقوا عليه واستدعوا المدد لذلك من الامير أبى بكر صاحب قفصة فأمدهم بعسكر وقائد فنزلوه واشتد الحصار واتهم ابن مكي بعض أهل البلد بمدخلتهم فكبسهم في منازلهم وقتلهم وتنكرت له الرعية وساءت حاله ودس إلى بعض المفسدين من العرب من بنى على في تبييت العسكر المحاصرين له واشترط لهم على ذلك ما رضوه من المال فجمعوا لهم وبيتوهم فانفضوا ونالوا منهم وبلغ السلطان خبرهم فاحفظه وأجمع الحركة على قابس وعسكر بظاهر الحضرة في رجب سنة احدى وثمانين وتلوم أياما حتى استوفى العطاء واعترض العساكر وتوافقت أحياء أوليائه من أولاد مهلهل وحلفائهم من سائر

[٣٩٢]

سليم ثم ارتحل إلى القيروان وارتحل منها يريد قابس وقد استكمل التعبية وبادر إلى لقيه والاخذ بطاعته مشيخة ذياب أعراب من بنى سلم ووفد منهم خالد بن سباع بن يعقوب شيخ المحاميد وابن عمه على بن راشد فيمن إليهم يستحثونه إلى منازلة قابس فأغذ السير إليها وقدم رسله بين يديه بالاعذار لابن مكي وانتهوا إليه فرجعهم بالانابة والانقياد إلى الطاعة ثم احتمل رواجه وعبى ذخائره وخرج من البلد ونزل على أحياء ذياب هو وابنه يحيى وحافده عبد الوهاب ابن ابنه مكي مالك لها منذ سنين من قبل واتصل الخبر بالسلطان فبادر إلى البلد ودخلها في ذى القعدة من سنته واستولى على منازل ابن مكي وقصوره ولا ذاهل البلد بطاعته وولى عليها من حاشيته وكان أبو بكر بن ثابت صاحب طرابلس قد بعث إلى السلطان بالطاعة والانحياش ووافته رسله دون قابس فلما استكمل فتحها بعث إليه من حاشيته لاقتضاء ذلك فرجعهم بالطاعة وأقام عبد الملك بن مكي بعد خروجه من قابس بين أحياء العرب ليالى قلائل ثم بغته الموت فهلك ولحق ابنه وحافده بطرابلس فمنعهم ابن ثابت الدخول إليه فنزلوا بزور من قراها في كفالة الجوارى من بطون ذياب ولما استكمل السلطان الفتح وشؤونه انكفا راجعا إلى الحضرة فدخلها فاتح ثنتين وثمانين ولحق إليه رسوله من طرابلس بهدية ابن ثابت من الرقيق والمتاع بما فيه الوفاء بمغارمه بزعمه ووفد عليه بعد استقراره بالحضرة رسل أولاد أبى الليل متطارحين في العفو عنهم والقبول عليهم فأجابهم إلى ذلك ووفد صولة بن خالد شيخهم وقبله أبو صعنونة شيخ حكيم ورهنوا ابناءهم على الوفاء واستقاموا على الطاعة واتصل النجاح والظهور والامر على ذلك لهذا العهد وهو فاتح ثلاث وثمانين وسبعمائة والله مالك الامور لا رب غيره * (الخبر عن استقامة ابن مزنى وانقياده وما اكتنف ذلك من الاحوال) * كان هؤلاء الرؤساء المستبدون بالجريد بالزباب منذ فرغ السلطان لهم من الشواغل واسترابوا لمغبة حالهم معه ومراوغتهم له بالطاعة يرون استحداث الشواغل ويؤملون لها سلطان تلمسان لعهدهم أبا حمو الاخير وأنه ياخذ بحجزته عنهم ان وصلوا به أيديهم واستحثوه لذلك لايلافهم مثلها من سلف قومه وأبى حمو بن تاشفين من قبله قياسا متورطا في الغلط بعيدا من الاصابة لما نزل بسلطان بنى عبد الواد في هذه العصور من الضعف والزمانة وما أصاب قومهم من الشتات بأيديهم وأيدي عدوهم وتقدمهم في هذا الشأن أحمد بن مزنى صاحب بسكرة لقرب جواره واشتهار مثلها من سلفه فاتبعوه وقلدوه وغطى هواهم جميعا على بصيرتهم وقارن ذلك نزول الامير أبى زيان ابن السلطان أبى سعيد عم أبى حمو على ابن يملول بتوزر عند منادمة سالم

ابن ابراهيم الثعلبي اياه وكان طارد به أياما ثم راجع أبو حمو وصرفه سنة ثمان وسبعين فخرج من أعمال تلمسان وأبعد المذهب عنهم ونزل على ابن يملول بتوزر وطير الخير إلى امامه في تلك الفتنة أحمد بن مزني واعتبطوا بمكان أبي زيان وأن تمسكهم به ذريعة إلى اعتماد أبي حمو في مرضاتهم واجابته إلى داعيهم وركض بريدهم إلى تلمسان في ذلك ذاهبا وجائيا حتى أعيت الرسل وانتهت المذاهب ولم يحصلوا على غير المقاربة والوعد لكن على شرط التوثق من أبي زيان وبينما هم في ذلك إذ هجم السلطان على الجريد وشرده عنه أولاد أبي الليل الذين تكفل الرؤساء به بالمدافة وافتتح قفصة وتوزر ونفطة ولحق يحيى بن يملول ببسكرة واستصحب الامير أبا زيان فنزل على ابن مزني وهلك لايام قلائل كما ذكرناه واستحكمت عندها استرابة يعقوب بن علي شيخ رباح بأمره مع السلطان لما سلف منه من مداخلة هؤلاء الرهط وتمسكهم بحقوقه والمبالغة في العذر عنهم ثم غدرته أنصاره من مشيخة الزواودة وانحاشوا إلى السلطان فأفاض عليهم عطاءه واختصهم بولايته فحدث لذلك منه نفرة واضطراب وارتحل إلى السلطان أبي العباس ليتمسك بذلك طرق التوثب من أبي زيان وربما دس لهم بمشارطة اعتقاله والقائه في غيابات السجون وفي مغيب يعقوب هذا طرق السلطان طائف من المرض أرجف له المفسدون بالجريد ودس لشيع ابن يملول بتحيزه إلى صبي من أبناء يحيى مخلف ببسكرة فذهل ابن المزني عن النسب لها ذهابا مع صاغية الولد وأوليائه وجهزهم لانتهاز الفرصة في توزر مع العرب المشاركين في مثلها بالمال وأغذوا السير إلى توزر على حين غفلتهم من الدهر وخف من الجند فجلى المنتصر وأولياؤه في الامتناع وصدق الدفاع وتمحضت بهذه الانالة طاعة أهل توزر ومخالصتهم وانصرف ابن يملول باخفاق من السعي واليم من الندم وتملك للمكاره ووافق ببسكرة قدوم يعقوب بن علي فرجعه من المغرب فبالغ في تغييبهم بالملامة على ما أحدثوا بعده من هذا الخرق المتسع الغنى عن الراقع وكان السلطان لأول بلوغ الخير باجلابهم علي توزر وممالاة ابن مزني على ابنه وأوليائه أجمع النهوض إلى بسكرة وعسكر بظاهر الحضرة وفتح ديوان العطاء وجهز آلات الحصار وسرى الخب بذلك إليهم فخلصوا نجيا ونقضوا عنه آراءهم فتمحض لهم اعتقال أبي زيان الكفيل لهم بصريخ أبي حمو على زعمه فتعللوا عليه ببعض النزعات وتورطوا في اخفار ذمته وطيروا بالصريخ إلى أبي حمو وانتظروا فما راعهم الا وافده بالعدر عن صريخهم والاعاضة بالمال فتيبنوا عجزه ونبذوا عهده وبادروا عليه السبيل لابي زيان والغدر به لما كان السلطان نكر عليهم من أمرهم فارتحل عنهم ولحق بقسنطينة وحملهم يعقوب بن علي على اللباد بالطاعة وأوفد ابن عمه متطارحا وشافعا فتقبل السلطان منه

وسيلته وأغضى لابن مزني عن هنائه وأسعفهم بكبير دولته وخالصة سره أبي عبد الله ابن أبي هلال ليتناول منه المخالصة ويمكن له الالفة ويمسح عنه هو اجس الارتياب والمخافة وكان قد انتهى إليهم من الجباة ففصل عن الحضرة وارتحل السلطان في ذي القعدة آخر سنة ثنتين وثمانين لتفقد عماله وابتلاء الطاعة من أهل أوطانه ولما وصل وافد السلطان إلى أبي مزني ألقى زمامه إليه وحكمه في ذات يده وقبله ومحا أثر المراوغة واستجد لبؤس الانحياش والطاعة وبادر إلى استجادة المقربات وانتقاء صنوف النحف وبعث بذلك في ركاب الوافد فدفع الذي عليه من الضريبة المعروفة محملا أكباد جياده وظهور مطاياه ووصلوا إلى معسكر السلطان بساح تبسة فاتح سنة ثلاث وثمانين فجلس لهم السلطان جلوسا فخما ولقاهم قبولا

وكرامة فعرضوا الهدية وأعربوا عن الانحياش والطاعة وحسن موقع ذلك من السلطان وشملهم احسان السلطان في مقامتهم وجوائزهم على الطبقات في انصرافهم وانقلبوا بما ملا صدورهم احسانا ونعمة وظفروا برضا السلطان وغبطته وحسبهم بها أمنية ويبد الله تصاريف الامور ومظاهر الغيوب * (الخبر عن انتقاض أولاد أبي الليل ثم مراجعتهم الطاعة) * قد ذكرنا ما كان من رجوع أولاد أبي الليل هؤلاء إلى بل طاعة السلطان اثر منصرفه من فتح قابس وانهم وفدوا عليه بالحضرة فتقبلهم وعفا عن كبائرهم واسترهن على الطاعة أبناءهم واقتضى بالوفاء على ذلك أيماهم وخرج الاخ الكريم أبو يحيى زكريا في العساكر لاقتضاء المغارم من هوارة التي استأثروا بها في مدة هذه الفتن وارتحل معه أولاد أبي الليل واحلافهم من حكيم حتى استوفى جبايته وجال في أقطار عمله ثم انكفا راجعا إلى الحضرة ووفدوا معه على السلطان يتوسلون به في أفعالهم بالعسكر إلى بلاد الجريد لاقتضاء مغارمهم على العادة واستيفاء اقطاعاتهم فسرح السلطان معهم لذلك ابنه أبا فارس وارتحلوا معه بأحيائهم وكان ابن مزنى وابن يملول من قبله ويعقوب بن علي كثيرا ما يرأسلونهم ويستدعونهم لمثل ما كانوا فيه من الانحراف ومشايعة صاحب تلمسان ولما اعتقلوا أبا زيان ببسكرة كما ذكرناه وتوفى بصريخ أبي حمو ومظاهرتة فنبضت عروق الخلاف في أولاد ابن أبي الليل وفرعوا إلى العلاق ببعقوب ابن علي رجاء فيما توهموه من استغلال أمرهم بصاحب تلمسان ويأسا من معاودة التغلب الذي كان لهم على ضواحي إفريقية ففارقوا الامير أبا فارس بعد أن بلغوه مأمنه من قفصة وساروا بأحيائهم إلى الزاب فلم يقعوا على الغرض ولا ظفروا بالبغية

[٣٩٥]

ووافوا يعقوب وابن مزنى وقد جاءهم وافد ابى حمو بالبعود عن نصرتهم والامير أبو زيان قد انطلق لسبيله عنهم فسقط في أيديهم وعادوهم الندم علي ما استدبروا من أمرهم وحملهم يعقوب على مراجعة السلطان وأوفد ابنه محمدا في ذلك مع وافد العز بن أبي عبد الله محمد بن أبي جلال فتقبلهم وأحسن التجاوز عنهم وبعث أبا يحيى أخاه لاستقدامهم أمانا لهم وتأييسا وبذل لهم فوق ما أملوه من مذهب الرضا والقبول واتصل النجاح والظهور والحمد لله * (تغلب ابن ابن يملول على توزر وارتجاعها منه) * قد كان تقدم لنا أن يحيى بن يملول لما هلك ببسكرة خلف صبيا اسمه أبو يحيى وذكرنا كيف اجلب على توزر سنة ثنتين وثمانين مع لفيق الاعراب ورياح مرداس فلما كان سنة ثلاث وثمانين بعدها وقعت مغاضبة بين السلطان وبين أولاد مهلهل من الكعوب وانحدروا إلى مشائهم بالصحراء فبعث أميرهم يحيى بن طالب عن هذا الصبي أبي يحيى من بسكرة فنزل بأحيائه بساح توزر ودفع الصبي إلى حصارها واجتمع عليه شيعته من نواحي البلد وأشراف من أعراب الصحراء واجلبوا على البلد وناوشوا أهلها القتال وكان بها المنتصر ناجيا بنفسه إلى بيت يحيى بن طالب واستذم به فأجاره وأبلغه إلى مأمنه بقفصة وبها عاملها عبد الله التريكي واستولى ابن ابن يملول على توزر واستنفد ما معه وما استخرجه من ذخائر توزر في عطيات العرب وزادهم جباية السنة من البلد بكمالها ولم يحصل على رضاهم وبلغ الخبر إلى السلطان بتونس فشمّر عزائمه وعسكر بظاهر البلد واعترض الجند وأزاح عليلهم وارتحل إلى ناحية الاريص وهو يستألف الاعراب ويجمع لقتال أولاد مهلهل أمثارهم وأعداءهم أولاد أبي الليل وأولياءهم وأحلافهم يستكثر بهم حتى نزل على محصن بسببة فأراح بهم أياما حتى توافت أمداده من كل ناحية ونهض يريد توزر ولما احتل بقفصة قدم أخاه الامير أبا يحيى وابنه الامير المنتصر في العساكر ومعهما صولة بن خالد بقومه أولاد أبي الليل وسار على أثرهم في التعبية ولما انتهى أخوه وابنه إلى توزر حاصروها وضيقوا عليها أياما ثم وصل السلطان فرحف إليها العساكر

من جوانبها وقتلها يوما إلى المساء ثم تباكرها بالقتال فخذل ابن
ابن يملول أصحابه وأفردوه فذهب ناجيا بنفسه إلى حبل العرب
ودخل السلطان البلد واستولى عليه وأعاد ابنه إلى محل امارته منه
وانكفا راجعا إلى قفصة ثم إلى تونس منتصف أربع وثمانين * (ولاية
الامير زكريا ابن السلطان على توزر) *

[٣٩٦]

ثم عاد ابن يملول إلى الاجلاب على توزر من السنة القابلة وخرج
السلطان في عساكره فكر راجعا إلى الزاب ونزل السلطان قفصة
ووافاه هنا لك ابنه المنتصر وتظلم أهل توزر من أبي القاسم
الشهرزوري الذي كان حاجيا للمنتصر فسمع شكواهم وأبلغ إليه
الخاصة سوء دخلته وقبيح أفعاله فتقبض عليه بقفصة واحتمله مقيدا
إلى تونس وغضب لذلك المنتصر وأقسم لا يلي على توزر وسار مع
السلطان إلى تونس وولى السلطان على توزر الامير زكريا من ولده
الاصغر لما كان يتوسم فيه من النجاة فصدقت فراسته فيه وقام
بأمرها وأحسن المدافعة عنها وقام باستئلاف الشارد من أحياء العرب
وأمرانهم حتى تم أمره وحسنت ولايته والله متولى الامور بحكمته لا
اله الا هو * (وفاة الامير أبي عبد الله صاحب بجاية) * كان السلطان
لما سار إلى فتح تونس وولى على بجاية ابنه محمدا كما مر وأقام
له حاجيا وأوصاه بالرجوع إلى محمد بن أبي مهدي زعيم البلد وقائد
الاسطول المتقدم على أهل الشطارة والرجولية من رجل البلد
ورماتهم فقام هذا الامير أبو عبد الله في منتصف الملك ببجاية أحسن
قيام واصطنع ابن مهدي أحسن اصطناع فكان يجرى في قصوره
وأغراضه ويكفيه مهمه في سلطانه ويراقب مرضاة السلطان في
أحواله والامير يعرف له ذلك ويوفيه حقه إلى أن أدركته المنية أوائل
خمس وثمانين فتوفى على فراشه أنس ما كان شربا وأمن ذرعا
مشيعا من رضا ابيه ورعيته بما يفتح له أبواب الرضا من ربه وبلغ نعيه
إلى أبيه بتونس فيبادر بانفاذ العهد لابنه أبي العباس أحمد بولاية
بجاية مكان ابنه وجعل كفالة أمره لابن أبي مهدي مستيدا عليه
واستقامت الامور على ذلك * (حركة السلطان إلى الزاب) * كنت
أنهيت بتأليف الكتاب إلى ارتجاع توزر من أيدي ابن يملول وأنا يومئذ
مقيم بتونس ثم ركب البحر منتصف أربع وثمانين إلى بلاد المشرق
لقضاء الغرض ونزلت بالاسكندرية ثم بمصر ثم صارت أخبار المغرب
تبلغنا على السنة الواردين فمن أول ما بلغنا وفاة هذا الامير ابن
السلطان ببجاية سنة خمس وثمانين ثم بلغنا بعدها حركة السلطان
إلى الزاب سنة ست وثمانين وذلك أن أحمد بن مزني صاحب
بسكرة والزاب لعده كان مضطرب الطاعة متحيزا على السلطان
وكان يمنع في أكثر السنين المغارم معولا على مدافعة العرب الذين
هلكوا بضواحي الزاب والتلول دونه وأكثر وثوقه في ذلك ببعقوب بن
على وقومه الزاودة وقد مر طرف من أخباره مثبتا في أخبار الدولة

[٣٩٧]

وكان ابن يملول قد أوى إلى بلده واتخذ وكرا في جوه وأجلب على
توزر مرارا برأيه ومعونته فاحفظ على ذلك السلطان ونبه له عزائمه
ثم نهض سنة ست وثمانين يريد الزاب بعد أن جمع الجموع واحتشد
الجنود واستألف العرب من بنى سليم فساروا معه وأوعبوا ومر على
فحص تيسه ثم خرج من طرف جبل أوراس إلى بلد بهودا من أعمال
الزاب واعصوب الزاودة ومن معهم من قبائل رياح على المدافعة
دون بسكرة والزاب غير من بنى سليم أن يطرقوا أوطنانهم أو يردوا
مراعيهم الا بنى سباع من شبل من الزاودة فانهم تحيزوا إلى
السلطان وانتفر ابن مزني حماة وطنه ورجالة قومه من الاثنج فغصت

بسكرة بجموعهم وتوافق الفريقان وأنا لهم السلطان القتال أياما وهو يرأس يعقوب بن على ويستحثه لما كان يطعمه به من المظاهرة على ابن مزني ويعقوب يخادعه بانحراف قومه عنه وإتلافهم على ابن مزني ويرغبه في قبول طاعته ووضع أوزار الحرب مع رياح حتى يتمكن له فرصة حرب فتقبل السلطان نصيحته في ذلك وأغضى لابن مزني ولرياح عنها وقبل طاعته وضربته المعلومة وانكفا راجعا ومر بجبل أوراس ثم إلى قسنطينة فأراح بها ثم ارتحل إلى تونس فوصل إليها منتصف سنة ثمانين اه * (حركة السلطان إلى قابس) * كان السلطان قد فتح مدينة قابس سنة احدى وثمانين وانتظمها في أعماله وشرد عنها بنى مكى فذهب إلى نواحي طرابلس وهلك كبيرهم عبد الملك وعبد الرحمن ابن أخيه أحمد وذهب ابنه يحيى إلى الحج وأقام عبد الوهاب في توزر ثم رجع إلى جبال قابس يحاول على ملكها واستتب له ذلك بوثوب جماعة من أهل البلد يعاملها يوسف بن الأبار من صنائع السلطان يقبح أيلته وسوء سيرته فدخلوا جماعة من شيعة ابن مكى في ضواحي قابس وقرائها وواعدوهم فجاؤا لميعادهم وعبد الوهاب معهم واقتحموا باب البلد وقتلوا البواب وقصدوا ابن الأبار فقتلوه في مسكنه سنة ثنتين وثمانين وملك عبد الوهاب البلد واستقل بها كما كان سلفه وجاء أخوه يحيى من المشرق فأجلب عليه مرارا يروم ملك البلد منه فلم يتبها له ذلك ونزل على صاحب الحامة وأقام عنده يحاول أمر البلد منها فبعث عبد الوهاب إلى صاحب الحامة ويذل له المال على أن يمكنه منه فبعث به إليه فاعتقله بعض العروسيين وأقام يراوغ السلطان على الطاعة ويذل ماله في أعراب الضاحية من ذئاب وغيرهم للمدافعة عنه ومنع الضريبة التي كانوا يؤدونها للسلطان أيام طاعتهم والسلطان مشغول عنهم بهم فلم يفرغ من شواغله بافريقية والزاب نهض إليه سنة تسع وثمانين بعد أن اعترض عساكره واستألف من العرب

[٣٩٨]

أولياءه وسرب فيهم عطاء ونزل على قابس وقد استعد لها وجمع الآلات لحصارها فاكسح نواحيها وحتم عليها بعساكره يقاتلها ويقطع نخيلها حتى أعاد الكثير من ألفافها براحا وموج الهوى في ساحته فصح إذ كانوا يستوخمونه لاختفائه بين الشجر في مكائف الطلال وما يلحقه في ذلك من التعفن فذهب عنها ما كان يعهد فيها من ذلك الوخم رحمة من الله أصابتهم من عذاب هذا السلطان * وربما صحت الاجسام بالعلل * ولما اشتد بهم الحصار وضاق المخنق وطن ابن مكى أنه قد أحيط به استعتب للسلطان واستأمن فأعته وأمنه ورهن ابنه على الطاعة وابتاء الضريبة وأفرج عنه السلطان وانكفا راجعا إلى تونس واستقام ابن مكى حتى كان من تغلب عمه يحيى عليه ما تذكره * (رجوع المنتصر إلى ولايته بتوزر وولاية أخيه زكريا على نفطة ونفزاوة) * كان العرب أيام ولاية المنتصر بتوزر قد حمدوا سيرته واصفقوا على محبته والتشيع له فلما رجع السلطان على قابس وقفوا إليه في طريقه إلى أن تولى المنتصر على بلاد الجريد كما كان ورده إلى عمله بتوزر وتولى ذلك بنو مهلهل وأركبوا نساءهم الطعن في الهوادج واعترضوا بهن السلطان سافرات مولولات دخلت عليه في إعادة المنتصر إلى توزر مما لهم فيه من المصالح فقبل السلطان وسيلتهن وأعادته إلى توزر ونقل ابنه زكريا إلى نفطة وأضاف إليها عمل نفزاوة فسار إليها واستعمل بعمله وأظهر من الكفاية والأضطلاع ما تحدث به الناس عنه وكان ولايته أول سنة تسعين { فتنة الأمير ابراهيم صاحب قسنطينة مع الزواودة ووفاة يعقوب بن على ثم وفاة الأمير ابراهيم مثلها } كان للزواودة بقسنطينة عطاء معلوم مرتب على مراتبهم زيادة لما بأيديهم من البلاد في التلول والزاب بانقطاع السلطان وضاق نطاق الدولة لهذه العصور فضافت الجباية وصارت العرب يزرعون الأراضي في بلادهم بالمسيل ولا يحتسبون بمغارمها فضيق الدخل يمنعهم العطاء من

أجل ذلك ففسد طاعتهم وتنطلق بالعيث والنهب أيديهم ولما رجع الامير ابراهيم من حركته في ركاب أبيه إلى قابس وكان منذ أعوام ينقص من عطائهم لذلك ويعللهم بالمواعيد فلما قفل من قابس اجتمعوا إليه وطلبوا منه عطاءهم فتعالى عليهم وجاءه ابن على مرجعه من الحج وأشار عليه بانصاف العرب من مطالبهم فاعرض عنه وارتحل لبعض مذاهبه وتركه ونادى في العرب بالفتنة معه يروم استئلاف أعدائه فأجابه الكثير من أولاد سباع بن سبيل وأولاد سباع بن يحيى

[٣٩٩]

وياديتهم من ذوبان ورياح وخرج يعقوب من التل فنزل على نفاوس فأقام بها وانطلقت أيدي قومه على تلول قسنطينة بالنهب وانتساف الزرع حتى اكتسحوا عامتها ولحقوا به مائتي اليد مثقلى الظهر ثم طرقة المرض فهلك سنة تسعين ونقلوا شلوه إلى بسكرة فدفنوه بها وقام مكانه في قومه ابنه محمد واستمر على العصيان وصعد إلى التل في منتصف احدى وتسعين واستألف الامير ابراهيم أعداءه من الزواودة وزحف إليه أبو ستة بن عمر أخو يعقوب بن على بما معه من أولاد عائشة أم عمر وخالفه أخوه صميت إلى محمد بن يعقوب وتحاربوا مع الامير ابراهيم فهزموه وقتل أبو ستة ثم جمع السلطان لحربهم ودفع عن التلول ومنعهم من المصيف عامهم ذلك وانحدروا إلى مشاتيمهم وعجزوا بعدها عن الصعود إلى التلول وقضوا مصيفهم عامهم ذلك بالزاب وانحدروا منه إلى المشاتى فلما رجعوا من مشاتيمهم وقد فقدوا الميرة انطلقت أيديهم على نواحي الزاب فانتسفوا زروعه وكاد أن يفسد ما بينهم وبين ابن مزنى مظاهرههم على تلك الفتنة ثم ارتحلوا صاعدين إلى التلول وقد جمع الامير ابراهيم لدفاعهم عنه وبينما هو في ذلك ألم به طائف من المرض فتوفى سنة ثنتين وتسعين وافترقت جموعه وأغد محمد بن يعقوب السير إلى نواحي قسنطينة فاحتل بها مطهرا للطاعة متبرئا من الخلاف ونادى في أهل البلاد بالامان والامارة فصلحت أحوال الرعايا والسابلة وبعثوا إلى السلطان بتونس مستأمنين مستعنيين فأمنهم وأعتبهم وأقام بقسنطينة مكان ابراهيم ابنه وبعث من حضرته محمد ابن مولاه بشير لكفالته والقيام بدولته فقام بأمرها وصلحت الاحوال والله بيده تصاريف الامور * (منازلة نصارى الافرنج المهدية) * كانت أمة الفرنج وراء البحر الرومي في الشمال قد صار لهم تغلب ودولة بعد انقراض دولة الروم فملكوا جزائره وسردانية وميورقة وصقلية وملات أساطيلهم فضاءه وتخطوا إلى سواحل الشام وبيت المقدس فملكوها وعادت لهم سورة الغلب في هذا البحر بعد أن كانت سورة المسلمين فيه لا تقاوم إلى آخر دولة الموحدين بكثرة أساطيله ومراكبه فغلبهم الفرنج وعادت السورة لهم وزاحتهم أساطيل المغرب أياما ثم فشل ربح الفرنجة واختل مركز دولتهم بافرنسة وافترقت طوائف في أهل برشلونة وجنوة والبنادقة وغيرهم من أمم الفرنجة النصرانية وأصبحوا دولا متعددة فتمت عزائم كثيرة من المسلمين بسواحل افريقية لغزو بلادهم وشرع في ذلك أهل بجاية منذ ثلاثين سنة فيجتمع النفير والطائفة من غزاة البحر ويصطنعون الاسطول ويتخبرون له أبطال الرجال ثم يركبونه إلى سواحل الفرنجة وجزائرههم على حين غفلة

[٤٠٠]

فيتخطفون منها ما قدروا عليه ويصادمون ما يلقون من أساطيل الكفرة فيظفرون بها غلبا ويعودون بالغنائم والسبي والاسرى حتى امتلات سواحل الثغور الغربية من بجاية بأسراهم تصبح طرق البلاد

بضجة السلاسل والاعلال عندما ينتشرون في حاجاتهم ويغالون في فدائهم بما يتعذر منه أو يكاد فشق ذلك على أمم الفرنجة وملا قلوبهم ذلاً وحسرة وعجزوا عن الثارة به وصرخوا على البعد بالشكوى إلى السلطان بإفريقية فصر عن سماعها وتطارحوا سهمهم ونكلهم فيما بينهم وتداعوا لنزول المسلمين والاختذ بالنار منهم وبلغ خبر استعدادهم إلى السلطان فسرح ابنه الامير أبا فارس يستنفر أهل النواحي ويكون رصداً للاسطول هنا لك واجتمعت أساطيل جنوة وبرشلونة ومن وراءهم ويجاورهم من أمم النصرانية واقلعوا من جنوة فحطوا بمرسى المهديّة منتصف ثنتين وتسعين وطرقوها على حين غفلة وهو على طرف البر داخل في البحر كانه لسان دالغ فأرسوا عندها وضربوا عند أول الطرق سورا من الخشب بينه وبين البر حتى صار المعقل في حكمهم وعالوا عليه بالابراج وشحنوها بالمقاتلة ليتمكنوا من قتال البلد ومن يأتيهم من بلد المسلمين وصنعوا برجاً من الخشب من جهة البرج يشرف على أسوار المعقل ليعظم نكايتهم وتحصن أهل البلد وقاتلوهم صابرين محتسبين وتوافت إليهم الامداد من نواحي البلد فحال بينهم الفرنجة وبلغ الخبر إلى السلطان فأهمه أمرها وسرح العساكر تترا إلى مظاهرتهم ثم خرج أخوه الامير أبو يحيى زكريا وسائر بنيه فيمن حضره من العساكر فانطلقوا بجهاد هذا العدو واستنفر المقاتلة من الاعراب وغيرهم فاجتمعت بساحتها بينهم وبين المسلمين جولة جلا فيها أبناء السلطان وكاد الامير أبو فارس منهم أن يتورط لولا حماية الله التي وقته ثم تداركت عليهم الحجارة والسهام والنفط من أسوار البلد فاحترق البرج المطل عليها من جهة البحر فوجموا لحريقه ثم ركبوا من الغد أسطولهم وأقلعوا إلى بلادهم وخرج أهل المهديّة يتباشرون بالنجاة ويتنادون بشكر الامراء على ما اعتمدوه في نصرهم ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وأمر الامير أبو يحيى برم ما تتلم من أسوارها ولم ما تشعت منها وقفل إلى تونس وقد أنجح الله قصدهم وأظهرهم على عدوه وعدوهم والله تعالى ينصر من يشاء وهو القوى العزيز * (انتقاض قفصة وحصارها) * كان السلطان أبو العباس قد ولى على قفصة عندما ملكها ابنه الامير أبا بكر وأقام في خدمته من رجال دولتهم عبد الله التريكي من موالى جدهم السلطان أبى يحيى

[٤٠]

فانتظم به أمره وأقام بها حولا ثم يجافى عن امارتها ولحق بأبيه بتونس سنة ثنتين وثمانين فجعل السلطان أمر قفصة لعبد الله التريكي وولاه عليها ثقة بغناؤه واضطلاعه ولم يزل بها والياً إلى أن هلك سنة أربع وتسعين وولى السلطان مكانه محمداً ابنه وكان له اخوة اعزاء معقلا فلم تطرقه النكبة كما طرقت قومه وأبقاه السلطان بالبلد فأغرى هؤلاء الاخوة بأخيهم ووثبوا به فاعتقلوه وأظهروا العصيان ثم حمله أعيان البلد على البراءة من بنى عبد الله التريكي استرابة بهم أن يراجعوا طاعة السلطان فتوثب بهم وأخرجهم واستصفاهم واستقل برياسة البلد كما كان قومه والسلطان في خلال ذلك يردد ويبرق ويواصل الاعذار والانذار وهم قد لجوا في طغيانهم ثم جمع جنوده واحتشد واستألف الاعراب ووفر الاعطيات ونهض إليها حتى نزل بساحتها منتصف خمس وتسعين وقد استعدوا و تصنوا فآلح عليهم القتال وأذاقهم النكال وقطع عنهم الميرة فضيق مخنقهم ثم عدا على نخلهم يقطعها حتى صرع جذوعها وفسح المجال وضاق عليهم المخنق فخرج شيخهم الدينيدن إلى السلطان يعقد معه صلحا على بلده وقومه فغدر به وحبسه رجاء أن يملك بذلك البلد وكان بعض بنى العابد واسمه عمرو بن الحسن قد انتبذ عن قفصة أيام نكبتهم وأبعد في المغرب ثم رجع ونزل بأطراف الزاب ولما استقل الدينيدن بقفصة قدم عليه فأقام معه أياماً ثم استراب به وتقبض عليه وحبسه فلما غدر به السلطان اجتمعت عليه المشيخة

وعقدوا له الامرة وبعثوا إلى العرب يسترحمونهم ويعطفونهم على ذخيرتهم فيهم وسربوا إليهم الاموال فتصدى إلى الدفاع عنهم صولة ابن خالد بن حمزة أمير اولاد أبي الليل وزحف إلى السلطان بمعسكره من ظاهر البلد وكان أولياؤه من العرب قد أبعدوا عنه في الجهات لانتجاع ابلهم فما راعه الا اطلاق صولة برايته في قومه فأجفل واتبعوه وما زال يكر عليهم في بنيه وخواصه حتى ردهم على أعقابهم وأغذ السير إلى تونس وهم في اتباعه ولم يظفروا منه يعقال الا ما كان من طعن القنا ووقع السيوف حتى وصل إلى حضرته ثم ندم صولة على ما كان منه وراسل السلطان بطاعته فلم يقبله وانحدر إلى مشاتيه سنة ست وتسعين واستدعى ابن يملوك إلى صولة فأغراه بحصار توزر وأنزل معه عليها قومه فجلى الامير المنتصر ابن السلطان في دفاعهم والامتناع عليهم حتى يئسوا واضطربت آراؤهم وأفرجوا عنها مفترقين وصعد صولة إلى التلال للمصيف وعادوا الرغبة من السلطان في قبول طاعته وكان محمد الدينيدن لما أجفل السلطان عن قفصة تركه بتلك الناحية فلما وصل إلى تونس أرسل أهل قفصة في الرجوع إليهم فأجابهم بعض أشياعه ودخل البلد فبدر به عمر بن العابد وكبسه بمكانه الذي نزل به وقتله واستبد بمشيخة قفصة وخشى أهل قفصة من

[٤٠٢]

غائلة السلطان وسوء مغبة العصيان فبعثوا إلى السلطان بطاعتهم وشرط عليهم نزول عامله عندهم وهذا آخر ما بلغنا عنهم والله مصرف الامور بحكمته * (ولاية عمر ابن السلطان على سفاقس واستيلاؤه منها على قابس وجزيرة جربة) * هذا الامير عمر ابن السلطان هو شقيق ابراهيم الذي كان أميرا بقسنطينة وكان في كفالة أخيه ابراهيم فلما توفى كما مر لحق بالسلطان ابنه وأقام عنده ولما كان من وفاة أبي بكر ابن ثابت شيخ طرابلس ما قدمناه واضطرب قومه من بعده ونزع قائدهم ورئيسهم ابن خلف إلى السلطان فبعث معه ابنه عمر هذا سنة ثنتين وتسعين لحصار طرابلس وأقام عليها حولا كريتا يحاصرها ويمنع الاقوات عنها حتى ضجروا وضجر من طول المقامة فدافعوه بالضربة وانكفأ راجعا إلى أبيه سنة خمس وتسعين ووافاه حائما على قفصة عندما انتقضوا عليه وقد مر في طريقه على جربة وأراد الدخول إليها فمنعه عامل أبيه بها من الموالى المعلوجين فأنف من ذلك وشكاه إلى أبيه فولاه على سفاقس ووعدته بولاية جربة فسار هو إلى سفاقس وأجاز البحر إلى جزيرة جربة وانضم إليه جميع من بها من القبائل وامتنع منصور العامل بحصنها المسمى بالقشتيل بلسان الفرنج حتى كاتب السلطان فأمره بتمكين ابنه من الحصن والافراج له عن الجزيرة أجمع فاستبد بها ثم ان الامير عمر سما إلى ملك قابس فدخل أهل الحامة في ذلك فأجابوه وساروا معه بجموعهم سنة ست وتسعين فبيتها وملكها وقبض على رئيسها يحيى بن عبد الملك مكي فضرب عنقه وانقرض أمر بنى مكي من قابس واستقل بها الامير عمر مضافة إلى ما كان بيده والله وارث الامور * (وفاة السلطان أبي العباس وولاية ابنه أبي فارس عزوز) * كان السلطان أبو العباس أزم من به وجع النقرس حتى كان في غالب أسفاره يحمل على البغال في المحفة ثم اشتد به آخر عمره وأشرف في سنة ست وتسعين على الهلكة وكان أخوه زكريا رديفه في الملك والمرشح بعده للامر وابنه محمد واليا على بونة فوضع امارته من قبل وكان للسلطان اولاد كثيرون يتناولون على أبيهم ويغصون بعمهم زكريا ويخشون غائلته بعد أبيهم فلما قارب السلطان منيته اشتد جزعهم واشفاقهم من عمهم وبعث السلطان كبيرهم أبا بكر بعهدة على قسنطينة فسار إليهم بين يدي موته واعصوب الباقون على كبيرهم بعده إلى أبي فارس عزوز فقبضوا على عمهم زكريا وقد دخل يعود أخاه وأودعوه في بعض الحجر ووكلوا به وهلك السلطان ثلاث بعدها فبايعوا

أخاهم أبا فارس رابع شعبان سنة ست وثمانين وجاء أهل البلد إلى بيعته

[٤٠٣]

أفواجا من الاعيان والكافة فتمت بيعته وأمر بنقل ما في بيوت عمه من الاموال والذخيرة إلى قصره حتى استوعبها وضيق عليه في محبسه وقام بتدبير ملكه وسياسة سلطانه وولى بعض اخوته على منابر عمله بافريقية على سوسة على المهدي ورف أخاه اسمعيل في ملكه بتونس وأحل الباقي محل الشورى والمفاوضة وبلغ الخبر إلى أخيه المنتصر بتوزر فاضطرب أمره ولحق بالحامة فأقام بها وكذلك أخوه زكريا بنفطة فلحق بالجبال بنفزاوة وكان أخوه أبو بكر لما سار إلى قسنطينة لولاية أبيه قبيل وفاته ومر ببونة فلقبه صاحبها الامير محمد ابن عمه زكريا بما شاء من أنواع الكرامة والمبرة ووافى قسنطينة فطلب منه القائمون بها كتاب السلطان بعهدة عليها فأقرأهم اياه وفتحوا له الابواب فدخل واستولى على أمرها وكان خالصة السلطان أبي فارس عبد العزيز المتولي بالمغرب بعد وفاة أبيه السلطان أبي العباس ابن سالم في صفر من شهور السنة وحمله من الهدايا والتحف ما يليق بامثالهما فسار فلما انتهى إلى ميلة بلغه الخبر بوفاة السلطان مرسله وأوعز إليه الامير أبو بكر من قسنطينة بالرجوع إليه فرجع بهديته واستقر عنده هنا لك (هذا آخر ما بلغنا) الا من خبار الصحيحة عنهم لهذه السنين وحالهم على ذلك لهذا العهد والملك بيد الله يؤتية من يشاء لا رب سواه ولا معبود الا اياه وهو على كل شئ قدير

[٤٠٤]

أبو فارس عزوز السلطان أبو العباس بن أحمد - بن محمد بن السلطان أبي بكر - بن ابراهيم - بن عبد الواحد - بن أبي حفص الامير عمر الامير زكريا بن قابس بونه خالد بن ابراهيم أبو البقاء خالد ابن يحيى أبو فارس أبو حفص عمر ابن عبد الرحمن مزاحم السلطان أبي بكر ابراهيم بن أبي بكر الشبيه أبو محمد عبد الله أبو بكر الشهيد بهار الامير أحمد بن محمد الامير أبو بكر الامير أبو زيد عبد الرحمن أبو فارس عبد العزيز محمد أبو عبيدة بن المخلوع يحيى بن المنتصر محمد المدعو الشبيه بالفضل ولى العهد زكريا محمد بن ضربه بن زكريا أبو الحسن بن أبي زيد محمد بن أبي بكر بن عمران موسى بن ابراهيم مزاحم السلطان أبي بكر

[٤٠٥]

* (الخبر عن بنى مزنى أمراء بسكرة وما إليها من الزاب) * هذا البلد بسكرة هو قاعدة وطئ الزاب لهذا العهد وحده من لدن قصر الدوسن بالمغرب إلى قصور هولة وبادس في المشرق يفصل بينه وبين البسيط الذي يسمونه الحصنة جبل حاتم من المغرب إلى قبلة برقة ويعتمر بعض ذلك الجبل محاذة الزاب من غربه مقبلا عمرت من زناتة ويتصل من شرقيه بجبل أوراس المطل على بسكرة المعترض في ذلك البسيط من القبلة إلى الجوف وهو جبل مشهور الذكر يأتي الخبر عن بعض ساكنيه وهذا الزاب وطن كبير يشتمل على قرى متعددة متجاورة جمعا جمعا يعرف كل واحد منها بالزاب وأولها زاب الدوسن ثم زاب طلوقة ثم زاب مليون زاب بسكرة وزاب لميودة وزاب بادس وبسكرة أم هذه القرى كلها وكانت مشيختها في القديم بعد

الإغالية والشيعية لعقد صنهاجة ملوك القلعة من بنى رसान من أهلها بما كثروا بساكنها وملكوا ضياعها كان يعفر بن أبي رसान منهم له صيت وشهرة وربما نقضوا الطاعة لعهد بلكين بن محمد بن حماد صاحب القلعة في سنى خمسين وأربعمائة وضيظوا البلد وامتنعوا وتولى كبر ذلك جعفر بن أبى رمانه ونازلهم جيوش صنهاجة إلى نظر خلف بن أبى حديدة من صنائع الدولة فافتحمها عليهم واحتملهم إلى القلعة فقتلهم بلكين جميعا وجعلهم عظة لمن بعدهم وأصار الشورى لبنى سندی من أهلها وكان لعروس منهم بعد ذلك خلوص في الطاعة وانحياش إلى الدولة على حين تقلص ظلها وفشل ريحها وألوى الهرم بشبابها وهو الذى فتك بالمنتصر بن خزور الزناتى بعد وصوله من المشرق واجتلابه على السلطان بقومه من مغراوة أغرى بالاثيخ وبنى عدى وبنى هلال فمكر به السلطان وأقطعه ضواحي الزاب وريقة أطمعه ودس إلى عروس في الفتك به ففعل كما قدمنا ذكره في أخبار آل حماد وانقضت رئاسة بنى سندی بانقراض امراء صنهاجة من افريقية وجاءت دولة الموحدین والذكرة والبيت لبنى زيان وكان بنو مزنى من لفائف الاعراب وصلوا إلى افريقية أحلافا لطوالع بنى هلال بن عامر في المائة الخامسة كما قدمنا ونسبهم بزعمهم في زيان من فزارة والصحيح أنهم في لطيف من الاثيخ ثم من بنى جزى بن علوان بن محمد بن لقمان بن خليفة بن لطيف واسم أبيهم مزنة بن دنغل بن محيا بن جزى هكذا تلقبته من بعض الهلاليين وشهد لذلك الموطئ فان أهل الزاب كلهم من أفاريق الاثيخ عجزوا عن الطعن ونزلوا قراه على من كان بها قبلهم من زناتة وطوالع الفتح وانما ينزعون عن هذا النسب إلى فزارة لما صار إليه اهل الاثيخ بالزاب من المغرب والوضائع فيستكفون لذلك وينتسبون إلى غرائب الانساب وكان أول نزولهم بقرية من قرى بسكرة وكان تعرف بقرية حناس

[٤٠٦]

ثم كثروا وتسايلوا وأخذوا مع أهل بسكرة بحظ وافر من ملك القفار والمياه ثم انتقلوا إلى البلد واستمتعوا منها بالمنزل والظلال وقاسموا أهلها في الحلو والمر وانتظم كبارهم في أرباب الشورى من المشيخة ثم استنكف بنو زيان من انتظامهم معهم وحسدوهم على ما آتاهم الله من فضله وحذروهم من أنفسهم فاضطربت بينهم نار العداوة والاحن وكان أولها الكلام والترافع إلى سدة السلطان بتونس على حين استقلال أبى حفص بافريقية ولعهد الامير أبى زكريا وابنه السلطان المنتصر ثم تناجزوا الحرب وتوافقوا بسكك المدينة وكانت صاغية الدولة مع بنى زيان لقيهم في البلد ولما خرج الامير أبو اسحق على أخيه محمد المنتصر لأول بيعته ولحق بالزواودة من العرب وبايع له موسى بن محمد بن مسعود البلط أمير البدو يومئذ واعتمر به بسكرة وبلاد الزاب وأناخ عليها بكله كما قدمناه قام يومئذ فضل بن على بن أحمد بن الحسن بن على بن مزنى بدعوته وأعلن من أهل البلد بطاعته واتبعوه على كثرة ثم عاجلتهم عساكر السلطان وأجهضهم على الزاب فاعتلق فضل بن على واستمسك بذيله وصحبه في طريقه إلى الأندلس وبادار غربته منها إلى ان هلك المنتصر أخوه وهياً الله له من أمر الخلافة ما هياً حسبما ذكرناه ولما تم أمره واقعد بتونس كرسى خلافته عقد لفضل بن على على الزاب ولاخيه عبد الواحد على بلاد الجريد رعيلا لا ذمة خدمتهما وذكرنا لايلافهما في المنزل الخشن وصحبتهما فقدم راعيا على الزاب ودخل بسكرة واستكان بنو زيان لصولته وانقادوا في مرضاة الدولة إلى أمره فلم ينبسوا بكلمه في شأنه واضطلع بتلك الولاية ما شاء الله ثم كان شأن الداعي بن أبى عمارة وتلبسه وهلك السلطان أبو اسحق على يده ثم ثار منه السلطان أبو حفص بأخيه واسترجع ما ضاع من ملكهم وكان يثق بعنايته ويعول في أمر الزاب على كفايته وسما أعداؤه بنو زيان أيام ولايته فدخلوا أولاد حر من لطيف احدى

بطون الاثابج كانوا نزلوا بقرية باشاش لضيق المدينة حين عجزوا عن
الظعن وخالطوا أهل البلد في أحوالهم وامتزجوا معهم بالنسب
والصهر فأغروهم بفضل بن علي أن يكون التقدم لهم في الفتك به
وتأول الامر من يده وإن يخربوا بيوتهم من قرية باشاش ليسكنوا
إليهم ويطمئنوا إلى ولايتهم حلفا عقده على المكر بهم ولما أوقعوا
به بظاهر البلد في بعض أيام ركوبه سنة ثلاث وثمانين وتولوا من أمر
الزباب ما كان يتولاه تنكر لهم بنو زيان لحولين من ذلك الحلف
ونابذوهم العهد فخرجوا عن البلد وفقدوا مالهم بها من قريب وتفرقوا
في بلاد ريغة واستبد بنو زيان بشورى بسكرة والزباب منتقض عليهم
وعلى السلطان والزواودة قد تغلبوا عليه وعلى بلاد الحصينة من
ورائه نقلوس ومقرة والمسيلة وكان منصور بن فضل بن علي عند
مهلك

[٤٠٧]

أبيه بالحضرة في بعض شؤنه فلما هلك أبوه واستبد بنو زيان بعده
بنوا السعيات فيه إلى السلطان بالحضرة وانجحت ونقبض عليه
واعقل أيام السلطان أبي حفص ولما تغلب المولى أبو زكريا يحيى
ابن الأمير أبي اسحق على بجاية وشطيت وبونة واستقل بأمرها
وانقسمت دولة آل أبي حفص وفر منصور بن فضل بن علي من
محبسه من تونس ولحق ببجاية بعد مهلك الحاجب القائم بالامر أبي
الحسين بن سيد الناس وتولية السلطان أبي زكريا مكانه كاتبه أبو
القاسم بن أبي يحيى سنة احدى وتسعين وستمائة فلازم خدمته
وخف عليه وصانعه بوجوه النحف وتضمن له تحويل الدعوة بالزباب
لسلطانه وشريف أمواله وجبايته إليه واستماله بذلك فعقد له على
الزباب وأمه بالعسكر فنازل بسكرة ووفد أهلها بنو زيان على
السلطان ببجاية بيعتهم فرجعهم على الاعقاب إلى عاملهم منصور
وكتب إليه بقبول بيعتهم ودخل البلد سنة ثلاث وتسعين وكادهم في
بناء القصر لشيعته وتحصن العسكر بسوره ثم نابذهم العهد وثار بهم
فأحلاهم عن البلد واستمكن فيها ورسخت قدم امارته فيها واستدر
جباية السلطان واتسع له نطاق العمالة فاستضاف إلى عمل الزباب
جبل أوراس وقرى ريغة وبلد واركلى وقرى الحصنة مقرة ونقاوس
والمسيلة فعقد له السلطان على جميعها ودفعه إلى مزاحمة العرب
في جبايتها وانتهاش لحومها إذ كانوا قد غلبوا على سائر الضواحي
فساهمهم في جبايتها حتى كاد يغلبهم عليها ووفر أموال الدولة
وأنهى الخراج وصانع رجال السلطان فألقوا عليه بالمحبة وجذبوا
بضعه إلى أقصى مراتب الاصطناع فأثرى واحتجز الاموال ورسخت
عروق رياسته ببسكرة ورسخت منابت عزه وهلك المولى أبو زكريا
الاوسط على رأس المائة السابعة وولوا مكانه ابنه الأمير أبا البقاء
خالدا كما قدمناه وقام بأمره صاحبه أبو عبد الرحمن بن عمرو وكان
المنصور بن فضل هذا اختاص به واعتلاق بيد حاجبه فاستنام إليه
وعول في سائر الضواحي من ممالك السلطان على نظره وعقد له
على بلاد التل من أرض سدويكش وعباض فاستضافها إلى عمله
وجرد عن ساعد كفايته في جبايتها فلقح عقيمتها وتفجرت بنابيعتها
ثم حدثت بينه وبين الدولة منافرة وأجلب على قسنطينة بيحيى بن
خالد ابن السلطان أبي اسحق حاجبه من تلمسان ويابح له
واستألف الزواودة لمشايعته ونازل به قسنطينة ثم اطلع على مكامن
عدوه فيه وما طوى عليه من التريص به فحل عقدته ولحق ببسكرة
وراجع الطاعة ولحق يحيى بن خالد واعتقله إلى ان هلك سنة
عشرين وكانت بينه وبين المرابطين أهل السنة من العرب أتباع
سعادة المشهور الذكر فتن وحرور وطالبوه بترك المغارم والمكس
تخفيفا على الرعية وعملا بالسنة التي كانوا ملتزمين لطريقها
ونازلوه من أجل ذلك ببسكرة مرارا ثم هلك سعادة في بعض حروبه

على مليل كما في ذكره سنة خمس وسبعمائة وجمع منصور بن مزني للمرابطين وبعث عسكره يقوده ابنه على بن منصور مع على بن أحمد شيخ الزواودة وعلى المرابط أبو يحيى بن ادريس شيخ أولاد عساكر وعطية بن سليمان بن سباع وحسن بن سالم شيخ أولاد طلحة فهزموا عسكر ابن مزني وقتلوا ابنه عليا وتقبضوا على علي بن أحمد ثم منوا عليه وأطلقوه ورجعوا إلى بسكرة فنازلوها وقطعوا نخيلها ثم عاودوه ثانية وثالثة ولم يزل بينه وبين هؤلاء المرابطين فتن سائر أيامه وكان الحاجب ابن عمر قد استخلصه لنفسه وأحله محل الثقة بحلته واستقامه إلى صنائعه ولما نهض السلطان أبو البقاء إلى تونس صاحبه الحاجب في جملته حتى إذا عمل المكيدة في الانصراف على السلطان شاركه في تدبيرها إلى ان تمت كما قدمناه ورجع الحاجب إلى قسنطينة ورده إلى مكان عمله من الزاب وكان يتردد إليه بجاية للزيارة والمطالعة في أعماله إلى ان غدر به العرب في بعض طرقه إليها وتقبض من امراء الزواودة على أحمد بن عمر بن محمد بن مسعود وسليمان بن علي بن سباع بن يحيى بن مسعود على حين اجتد بالامارة من يد عثمان بن سباع بن سيل بن موسى بن محمد واقتسما رئاسة الزواودة قومهما فاستمسكنا من هذا العامل منصور بن فضل في مرجعه من عمله بلاد سدويكش وأوثقوه واعتقلا وهموا بقتله فافتدى منهم بخمسة قناطير من الذهب وصرفوا في وجوه رياستهم ألفا منها وقبض منصور بن فضل عنانه عن السفر بعدها وولى في الاحابين بعد أخذ الرهن من العرب إلى ان كانت حركة مولانا السلطان أبي يحيى إلى تونس سنة سبع عشرة أول حركاته إليها وطالب صاحبه يعقوب ابن عمر وهو بئغر بجاية بالاموال للنفقات والاعطيات فبعث إليه بمنصور بن فضل وأشار بعقده له على حجابته ليقوم بامرته ويكفيه مهمات شؤنه واعتدها منصور على ابن عمر فساء ظنه وتتكبر له ابن عمر وحالت صيغة وده وانكفا السلطان من حركته تلك مخفف السعي بعد أن نزل ظاهر تونس بعساكره كما قدمناه ولما احتل بقسنطينة بدت له من يعقوب بن عمر صاحب الثغر مخايل الامتناع فأقصر عن اللحاق به وترددت بينهما الرسل وبعث ابن عمر في منصور بن فضل ونذر منه بالشر فأجاب داعيه وصحب قائد السلطان يومئذ محمد بن أبي الحسن بن سيد الناس إليه حتى إذا كان ببعض الطريق عدل إلى بلده وهم به القائد فأجاره أولياؤه من العرب عثمان بن الناصر شيخ أولاد حرب ويعقوب بن ادريس شيخ أولاد خنفر ومن معهم من ذويهم ولحق ببسكرة وبلغ الخبر إلى ابن عمر ففرع سن الندم عليه وشايع منصور بن مزني عدوهم صاحب تلمسان أبا تاشفين ودخل في دعوته وأوفد ابنه يوسف عليه بالطاعة والهدية وملك السلطان خلال ذلك تونس وسائر بلاد افريقية وهلك ابن عمر سنة تسع عشرة ولم يزل منصور بن مزني

ممتنعا سائر أيامه على الدولة والعاسكر من بجاية تتردد لمنازلته إلى ان هلك سنة خمس وعشرين وسبعمائة وقام بأمره من بعده ابنه عبد الواحد فعقد له السلطان على عمل أبيه بالزاب واستضاف إليه ما وراءه من البلاد الصحراوية قرى ريغة وواركلي وكان السلطان قد عقد على الثغر بعد مهلك ابن عمر لمحمد بن أبي الحسين بن سيد الناس وجعل له كفالة ابنه يحيى ودفعه إليه فتجددت الوحشة بين عبد الواحد هذا وبين صاحب الثغر في سبيل المنافسة في المرتبة عند السلطان بما كانوا جميعا صنائع وبطانة للحاجب ابن عمر وبعث العساكر لحربه ومنازلة حصنه وناول عبد الواحد هذا لآل زيان الحائفين الدولة طرفا من حبل طاعته فقبل فيها مذهب ابنه آخر عمره وصار يحرض الجيوش به إلى ان استجن منه عبد الواحد بصهر

عقده له على ابنته واشترط المهادنة وتسليم الجباية وتودع أمره إلى ان اغتاله أخوه يوسف سنة تسع وعشرين بمداخلة بطانتهم من بنى سماط وبنى أبى كواية ولما أحكم مداخلتهم في شأنه أذنه عشاء للشورى معه في بعض المهمات وطعنه بخنجره فأشواه وهلك لحينه واستقل يوسف بن منصور بامارة الزاب ووصله مرسوم السلطان بالتقليد والخلع على العادة واجري الرسم في الدعاء له على منابر عمله وكان السلطان قد استدعى محمد بن سيد الناس من الثغر بجباية وفوض له أمور ملكه فهاجت نار العداوة والاحن القديمة بما بينه وبين يوسف بن منصور عامل الزاب وهم به لولا ما أخذ بحجزته من الشغل الشاغل للدولة بتخفيف آل زيان وهلك الحاجب سنة ثنتين وثلاثين في نكبة السلطان اياه كما ذكرناه وعقد لمحمد بن الحكيم على القيادة وجعل بيده زمام العساكر وفوض له في سائر القرى والضواحي فاجرى رياسه وحكمه في دولته وتغلب على أمره على حين فرغ السلطان من الشغل بمدافعة عدوه وحط ما كان من أمرهم على كاهل دولته ونهض السلطان أبو الحسن إلى آل يغمراسن فقلع اظفار اعتدائهم وقد شبا عزائمهم كما شرحنا قبل فأذكى القائد محمد بن الحكيم مع يوسف ابن منصور نار العداوة وأثار له من السلطان كامن الحفيظة وصرف وجوه العزائم إلى حمله على الجادة وتقويمه عن المراوغة في الطاعة وناهضه بالعساكر مرات ثلاثا يدافعه في كلها بتسليم الجباية إليه ثم كانت بينه وبين على بن أحمد كبير الزواودة فتن وحروب دعا إليها منافسة على في استثنائه على الجباية دونه فواضعه الحرب ودعا العرب في منازلته مموها بالدعاء على السنة وحشد أهل ريغة لذلك ونازله وانحرف عنه ابنه يعقوب ودخل إلى بسكره فاصهر له ابن مزنى في أخته بنت منصور ابن فضل وعقد له عليها فحسن دفاعه عنه وبعث ابن مزنى عن سليمان بن على كبير أولاد سباع وقرع على بن أحمد في شؤنه فكان عنده ببسكرة يغاديه القتال

[٤١٠]

ويراوحه إلى ان امتنع ابن مزنى ورحل علي بن أحمد على بسكرة وصار مع ابن مزنى إلى الاتفاق والمهادنة أعوام الاربعين من المائة الثامنة ثم كانت غزاة القائد بن الحكيم إليه نهض من افريقية بعد أن نازل بلاد الجريد واقتضى طاعتهم ومغارمهم واسترهن ولد ابن يملول ثم ارتحل إلى الزاب في جنوده ومعه العرب من سليم فأجفل بالزاب ونزل بلد أو ماش من قراه وفرت العرب من الزواودة وسائر رياح أمامه ودافعه يوسف بن مزنى بهدية دفعها إليه وهو بمكانه من أو ماش وارتحل عنه إلى بلاد ريغة فافتتح معقلهم واستباحها ودوخ سائر اعمالها ورجع إلى تونس ونكب السلطان قائده محمد بن الحكيم هذا سنة أربع وأربعين وولى ابنه أبا حفص عمر وخشى الحاجب أبو محمد بن تافراكين بادرتة وسعاية بطانته فلحق بملك المغرب المرهوب الشبا المطل على الممالك يعسوب القبائل والعشائر أبى الحسن وأغراه بملك افريقية واستجره إليها فنهض في الامم العريضة سنة ثمان وأربعين كما ذكرنا ذلك كله من قبل ووفد عليه يوسف بن منصور أمير الزاب بمعسكره من بنى حسن فلقاه برا وترحيبا واستتبعه في جملته إلى قسنطينة ثم عقد له على الزاب وما وراءه من قرى ريغة وواركلى وصرفه إلى عمالته واستقبل تونس وأمره برفع الجباية إليه مع العمال القادمين من أقصى المغرب على رأس العدل فاستعد لذلك حتى إذا سمع بوصولهم من المغرب لحقهم بقسنطينة وفجأهم هنا لك جميعا الخبر بنكبة السلطان على القيروان كما ذكرناه ونذكره فاعتزم على اللحاق ببلده واعصوب عليه يعقوب بن على بن أحمد أمير البدو بالناحية الغربية من افريقية لادمة صهر كانت بينهما ومخالصة وتحيز إليهم من كان بقسنطينة من أولياء السلطان وحاشيته وعماله ورسل الطاغية والسودان الوافدين مع ابنه عبد الله من أصغر بنيه وأواهم يوسف بن منصور

جميعا إليه وأنزلهم ببلده وكفاهم مهماتهم شهورا من الدهر حتى
خلص السلطان من القيروان إلى تونس ولحقوا به مع يعقوب بن
على فكانت تلك يدا اتخذها يوسف بن منصور عند السلطان أبي
الحسن ولقيه باقى الايام ثم اتبع ذلك بمخالفة رؤساء النواحي من
افريقية جميعا في الانتقاض عليه وأقام مستمسكا بطاعته يسرب
الاموال إليه بتونس وبالجزائر عند خلوصه إليها من النكية البحرية كما
سنذكره ويدعو له على منابره بعد تفويضه على الجزائر إلى المغرب
الاقصى لاسترجاع ملكه إلى أن هلك السلطان أبو الحسن بجبل
هنتاتة من أقصى المغرب سنة ثنتين وخمسين واستقام أمر الدولة
المرينية لابنه السلطان أبي عنان الحية الذكر ولما استضاف إلى
ملكه ملك تلمسان ومحاماً جده بنو عبد الواد بها من رسوم ملكهم
وجمع كلمة زناتة وأطل على البلاد الشرقية سنة ثلاث وخمسين
بادر يوسف بن

[٤١١]

منصور بطاعته فأتاها طواعية وأوفد على السلطان رسله بكتاب
بيعته ثم وفد عليه ثانيا مع حاجبه الكاتب أبي عبد الله محمد بن أبي
عمر وبعنه بالعساكر لتدويخ افريقية وتمهيد ملكه ببجاية كما
سنذكره ووفد عليه امرأ القبائل والبدو ورؤساء النواحي سنة أربع
وخمسين ووفد في جملتهم يوسف بن منصور أمير الزاب ويعقوب بن
على أمير البدو وسائر رؤساء الزاودة فلما هلك السلطان تكرمه ورعى
لا ذمة خلوصهم لآبيه وقومه من بين أهل افريقية وأسنى جوائزهم
وعقد ليوسف بن مزنى على الزاب وما وراءه من بلاد ريفه وواركلى
على عادتهم وانقلب محبوا وقد ثبت له من ولاية السلطان
ومخالصته حظ ورفع له ببساطه مجلس ولما نهض السلطان إلى
افريقية لافتتاح قسنطينة سنة ثمان وخمسين كما سنذكره تلقاه
يوسف بن منصور على قسنطينة فخلطه بأوليائه ونظمه في طبقات
وزرائه واستوحش يعقوب بن على يومئذ من مطالبته بالرهن له
ولقومه وانتقض فأجفلت أحيائه إلى بلاد الزاب وما وراءها من الصحراء
وارتحل السلطان بعساكره في طلبهم إلى أن احتل ببلاد الزاب
وخرّب بلاد يعقوب بن على بالزاب والتل بقطع أشجارها وتغيير
مياهاها وهدم بنائها ونسف آثارها ودخل يعقوب بأحيائه الرمل وعجزوا
السلطان فانكفاً راجعا واحتل بظاهر بسكرة فتلوم بها ثلاثا لراحة
العساكر وازاحة غلهم من وعثاء السفر وشعث الصحراء ففرق
يوسف بن منصور في قرى عساكره أيام مقامه يشملهم فيها من
العلوفة والحنطة واللحمان والادم بما أرغد عيشهم وكفاهم همهم
وتحدثت بها الناس دهرا ورفع إليه جبايته لعامه قناطر من الذهب
بعثه بيت المال بفضة القهارمة من ثقاته وأجزل السلطان مئوبته
وأسنى عطيته واختصه بكسوة ثيابه وعباله من كسا حرمه وثياب
قصره وانكفاً راجعا إلى حضرته ثم أوفد موسى بن منصور ابنه أحمد
على السلطان بسدته من فاس عند منصور وزيره سليمان بن داود
من حركة افريقية سنة تسع وخمسين وأصبحه هدية من عتاق
الخيّل وفاره الرقيق وأقام أياما في نزل كريم ومحل من المجلس رفيع
إلى أن هلك السلطان خاتمة تسع وخمسين فأرغد القائم بالدولة
من بعده جائزته وأسنى صلته وصرفه إلى عمله واستوصى به امرأ
النواحي والثغور في طريقه ولم ينشب ان شبت نار الفتنة وانتزى
الخوارج بالجهات بعد مهلك السلطان فخلص إلى ابنه بعد عنائه
وعلى ياس من النجاة بعد ان حصل في قبضة أبي حمو سلطان بنى
عبد الواد عند استيلائه على تلمسان وهو بها مع بنى مرين وقد مر
بهم مجتازا إلى وطنه فأجازه عليه صغير بن عامر من زغبة رعى لا
ذمة ابنه يوسف صاحب الزاب وتأميلا للعرب فيه وفى أعماله وبعد ان
بذل له من ذات يده ومن طرف ما وصله به بنو مرين من ذخائرهم

بعث معه صغير وفادا من قومه أبلغوه مأمنه فكانت إحدى الغرائب في نجاته واسترجع الموحدون ثغورهم بجاية وقسنطينة من يد بنى مرين وأزعجوا عنها العساكر المجرمة بها من قبائلهم كما قدمناه فراجع يوسف بن منصور طاعته المعروفة لهم إلى أن هلك سنة سبع وستين يوم عاشوراء وقام بأمره ابنه أحمد وجرى على سننه وهو لهذا العهد أمير على الزاب بمحل أبيه من امارته متنقل في مذهبه وطريقه الا أن خلق أبيه كان سجية وخلق هذا تقليد لما فيه من النحذلق وربك يخلق ما يشاء ويختار وله أولاد كبيرهم أبو يحيى من بنت محمد بن يملول أخت يحيى وهو لهذا العهد مرشح بمكانة ولما حلت بأهل الجريد الفاقرة ونزل به يحيى بن يملول الشؤم على وطنه توجس الخيفة من السلطان وتوقع المطالبة بطاعة من طاعته المعروفة فسرب الاموال في العرب ومد يده إلى جبل صاحب تلمسان ليستمسك به فوجده قاصرا عنه وأقام يقدم في أمره رجلا ويؤخر أخرى ثم قرب إليه نور الهداية في قلبه وأراه سند رشده ويأدر إلى الاستقامة في الطاعة والعدول عن المراوغة ووصله فأوفد السلطان أبو العباس شيخ الموحدين أبا العباس ابن أبي هلال وكشف له قناع المخالصة والانحياش وبعث معه وفده بهديته واستقامته وتقبله السلطان وأعادته إلى أحسن الاحوال ورضى عنه والله متولى الامور سبحانه لا رب سواه ولا معبود الا اياه أبو يحيى بن أحمد بن يوسف بن منصور بن فضل بن علي بن أحمد بن الحسين بن علي بن مزني عبد الواحد علي بن عبد الواحد علي الجريد * (الخبر عن رئاسة بنى يملول بتوزر وبنى الخلف بنفطة وبنى أبي المنيع بالحامة) * زعيم هؤلاء الرؤساء ابن يملول صاحب توزر لاتساع بلده وتمدن مصره واحتلاله منها بأمر القرى من قطره وهو يحيى بن محمد بن أحمد بن محمد بن يملول ونسبهم بزعمهم في طوابع العرب من تنوخ استقرار ولده بهذا الصقع منذ أول الفتح وتأثلوا ووشجت به عروقهم

نسبا وصهرا حتى انتظموا في بيوتات الشورى المتقدمين للوفادة على الملوك وتلقى العمال القادمين من دار الخلافة والنظر في مصالح الكافة أيام آل حماد بالقلعة وآل عبد المؤمن بمراكش وآل أبي حفص بتونس مثل بنى واطاس وبنى فرقان وبنى مارة وبنى عوض وكان التقدم فيهم أيام عبد الله الشيعي لابن فرقان وهو الذي أخرج أبا يزيد حين شعر به انه يريد القيام على أبي القاسم القائم وأيام آل حماد ليحيى بن واطاس وهو النازع بطاعة أهل قسنطينة إليهم عن آل بلكين ملوك القيروان حين انقسمت دولة آل زيري واقترق أمرهم ثم عادت الرياسة لبنى مروان لأول دولة الموحدين ومنهم كان الذي لقي عبد المؤمن وأتاه الطاعة عن نفسه وعن أهل بلده توزر فتقبله ووصله وصار الأمر للموحدين فمحووا منها آثار المشيخة والاستبداد ونشأ أحمد هذا الجد متراميا إلى الرياسة بهذا القطر يدافع عنها بالراح ويزاحم بالمناكب من وجوه البلد واشراف الوطن وسعى به إلى شيخ الموحدين وقائد العسكر أيام السلطان أبي حفص محمد الفازاري فنكبه وصادره على مال امتحنه عليه كانت أول نكبته التي أورت من زناده وأوقدت من جمره وتخلص إلى الحضرة يؤمل اعتقال مطيته وثبوت مركزه من دار الخلافة فأوطنها إياما يباكر أبو اب الوزراء والخاصة ويلثم أطراف الاولياء والحاشية وينزل كرائم ماله فيما يزلفه لديهم ويؤثره بعنايتهم حتى استعمل بديوان البحر فقعد العمال بمرفا السفن لجباية الاعشار من تجار دار الحرب ثم استضاف بما كان من عنائه فيها واضطاعه سائر أعمال الحضرة فتقلدها زعيما بامضاء الجرايات وادرار الجباية واستمرت على ذلك حاله وتضاعفت فائدته فأثرى واحتجن المال واستخرج الذخيرة قاطعا لالسنة السعاية

بالمصانعة والاتحاف بطرف ما يجلبه الروم من بضائعهم حتى أبطره الغنى ودلت على مكانته الثورة ورفع أمره إلى الحاجب فخرج التوقيع بالقبض عليه واستصفاة ماله لعهد السلطان أبي يحيى اللحياني فنكب الثانية وصودر على مئين من آلاف الدنانير وامتنح لها وباع فيها كسوته حين قرأ الكتاب وخلص من النكبة مسلوب الامانة ممزق الاديم إلى ما يستنكفون عنه من خدمة العمال ومباكره أبو ابهم والامتحان في ضروراتهم وأنجده في ذلك بخت جذب بضعه وكان في خلال ذلك شغل الحضرة شأن الثغور الغربية وامرائها فتقلص ظل الدولة عن هؤلاء بعض الشئ وحملت الرعايا بالبلاد الجريدية وصار أمرها إلى الشورى التى كانت عليها قبل فلما أدرك أحمد هذه الشورى التى كان يسمو لها سمو حباب الماء ثلج صدره وأنجح سعيه واستبد بمشيخة توزر وهلك في أعوام ثمان عشرة فخلفه من بعده في سبيله تلك ولده يحيى طموحا إلى المرتبة منافسا في الاستقلال ومزاحما بيوتات المصر بمناكب استوطأها بسائر

[٤١٤]

عمره من الدعار والاغاد بمعاقرة الخمر والمجاراة في فنون الشباب لسير أمره والاستعلاء على نظائره حتى تطارحوا في هوة الهلاك بين فتيل ومغرب ونحيب العمران لم يعطفه عليه عواطف الرحم ولا زجره وازع التقوى والسلطان حتى خلا له الجو واستوسق الامر واستقل من أمر البلد والحل والعقد بأوفى من استبداد أبيه وكان مهلكه قريبا من استبداده لخمسة سنين متلقيا الكرة من يده أخوه محمد تربه في الرياسة ومجاريه في مضمارها فأجرى إلى الغاية واقتعد كرسي الرياسة وعفى على آثار المشيخة واستظهر على أمره بمصانعة امراء البدو وأولاد أبي الليل والمئات إليهم بصهر كان عقده أبوه أحمد لابي الليل جدهم على أخته أو عمته فكانوا ردا له من الدولة فنغذ صيته وعظم استيلاؤه وامتدت أيامه وعننى الملوك بخطابه واسناد الامور في تلك البلاد إليه خلال ما توعد الكرة وتهب ريح الدولة وزحف إليه القائد محمد بن الحكيم وتقبل طاعته من عذره استنامة لما ابتلاه من خلوصه وأقام على ذلك إلى أن هلك لعام أربع وأربعين من المائة الثامنة وتصدى ولده عبد الله للقيام بالامر فوثب عليه عمه أبو زيد بن أحمد فقتله على جدث أبيه فلم يوارثه بعد ان كان الرضا به والتسليم فثارت به العامة لحينه وكان مصرا على سفك الدماء واستباحة الحرم واغتصاب الاموال حتى كان ينسب إلى الجنون مرة والي الكفر أخرى فمرج أمرهم واستولى الضجر على نفوسهم وكان أخوه أبو بكر معتقلا بالحضرة فراسله أهل توزرسرا وأطلقه السلطان من محبسه بعد ان أخذت عليه الموائيق بالطاعة والوفاء بالجباية فصمد إليها بمن في لفه من الاعراب وحشد نفاوة والمجاورين لها في القرى الظاهرة المقدرة السير وأجلب عليهم ثم بيتها فافتحمها وبادر الناس إلى القبض على يملول أخيه وأمكنوه منه فاعتقله بداره وتبرا من دمه وأصبح لثالثة اعتقاله ميتا بمحبسه وكانت قفصة من قبل ذلك لما صار امر الجريد إلى الشورى قد استبد بها يحيى بن محمد بن على بن عبد الجليل بن العابد من بيوتها ونسيهم بزعمهم في بلى ولهم حلف بزعمهم في الشريد من بطون سليم والله أعلم بأولية نزولهم بقفصة حتى التحموا بأهلها وانتظموا أمر بيوتاتها وكانت البيوت بها بيت بنى أبي حفص لعهد الامير أبي زكريا الاعلى كان يستعمله على جباية أموال الجريد ثم سعى به أنه أصاب منها فنكبه وصودر على آلاف من المال فأعطاه وأقامت رياستهم متفرقة في هذه البيوتات ولما حدثت العصبية بالبلد أيام صار امر الجريد إلى الشورى كان بنو العابد هؤلاء أقوى عصبية من سائرهم واستبد بها كبيرهم يحيى بن على فلما فرغ السلطان من شغله بزناة وخيم السلطان أبو الحسن على تلمسان فحاصرها وأقبل السلطان على النظر في تمهيد ملكه واصلاح ثغوره وافتتح أمره بغزو قفصة ونهض إليها

سنة خمس وثلاثين في عساكر من الموحيدين وطبقات الجند والاولياء من العرب فحاصرها شهرا أو نحوه وقطع نخيلها فضاقت مخنقهم بالحصار وتلاوموا في الطاعة واستبقوا بها إلى السلطان وفر الكثير من بنى العابد فلحقوا بقباس في جوار ابن مكى ونزل أهل البلد على حكم السلطان فتقبل طاعتهم وأحسن التجاوز عنهم بسط المعدلة فيهم وأحسن أمل ذوى الحاجات منهم وانكفا راجعا إلى حضرته بعد ان أثرهم بسكنى ولده المخصوص بولاية عهده الامير أبى العباس وأنزله من ظهرانهم وعقد له على بلاد الجريد واحتمل مقدم روضة يحيى بن على إلى الحضرة فلم يزل بها إلى ان هلك سنة أربع وأربعين واستبد الامير أبو العباس بأمر الجريد واستولى على نفطة كما قدمناه وقيل لبنى الخلف وهم مدافع وأبو بكر عبد الله ومحمد وابنه أحمد بن محمد اخوة أربعة وابن أخيهم بنو الخلف من مدافع ونسبهم في غسان من طوابع العرب انتقل جدهم من بعض قرى نفاوة إلى نفطة وتأئل بها وكان لبنيه بها بيت واستبد هؤلاء الاخوة الاربعة ازمان الشورى كما قدمناه ولما استولى السلطان أبو بكر علي الجريد وأنزل ابنه أبا العباس بقفصة وعقد له على سائر امصاره وأمضى طاعتهم وامتنعوا فسرّح إليهم وزيره أبا القاسم بن عتو من مشيخة الموحيدين وجهزت له العساكر من الحضرة ونزلها وقطع نخيلها ولاد أهلها بالطاعة وأسلموا بنى مدافع المتغلبين ف ضرب أعناقهم وصلبهم في جذوع النخل آية للمعتبرين وأفلت السيف منهم عليا صغيرهم لذمة اعتقدها له أبو القاسم بن عتو لنزوعه إليه قبل الحادثة فكانت واقيته من الهلكة واستولى الامير أبو العباس على نفطة واستضافها إلى عمله ثم مرض أبو بكر بن يملول في طاعته فنهض إليه السلطان أبو بكر من تونس سنة خمس وأربعين وكان الفتح كما قدمنا ولحق أبو بكر بن يملول ببسكرة فلم يزل بها إلى ان أجلب على توزر فنبتذ إليه يوسف بن مزنى عهده وانتقل إلى حصون وادى ابن يملول المجاورة لتوزر وهلك سنة ست وأربعين ثم كان مهلك السلطان وابنه أبو العباس صاحب الاعمال الجريدية اثر ذلك سنة سبع وأربعين ورجع إلى كل مصر من الجريد مقدموه فرجع أحمد بن عمر ابن العابد إلى قفصة من مكانه في جوار ابن مكى واستولى على بلده في مكان ابن عمه يحيى ابن على ورجع على بن الخلف إلى نفطة واستبد بها ورجع يحيى بن محمد بن أحمد بن يملول إلى توزر من متوى اغترابه ببسكرة ارتحل إليها مع عمه أبى بكر طفلا فلما خلا الجريد من الامارة ودرج يحيى هذا من عشه في جوار يوسف بن منصور بن مزنى وأطلقه مع أولاد مهلهل من الكعوب بعد أن وصلهم وشاركهم واسترهن فيه ابناءهم فأوصلوه إلى محل رياسته بتوزر ونصبه شيعته وأولياء آبيه وقاموا بأمره ورجع أمر الجريد كله إلى

رياسة مقدمه كما كان ثم وفدوا على السلطان أبى الحسن عند رجعته إلى افريقية ولقوه بوهران فلقاهم مبرة وتكرمة ورجع كل إلى بلده وحمل رياسته بعد ان امتحن الجزيرة ووفر الاسهام والاقطاع وأنفذ الصكوك والكتب فرجع إلى توزر يحيى بن محمد ابن أحمد بن يملول صبيا مغتلبا وإلى نفطة على بن الخلف وإلى قفصة أحمد ابن عمه ابن العابد ونزل كل واحد من هذه الامصار عاملا وحامية وعقد على الجريد كله لمسعود بن ابراهيم ابن عيسى البرنانى من طبقة وزراءه واستوصى بهؤلاء الرؤساء خيرا في جواره حتى إذا كانت نكبة السلطان بالقيروان سنة تسع وأربعين وارتحل عامل الجريد مسعود بن ابراهيم ونزل المغرب بمن معه من العمال والحامية ونمى خبره

إلى الاعراب من كرفة فصيحوه في بعض مراحل سفره دون أرض الزاب فاستلحموه ومن كان معه من الحامية واستولوا على أفنيتهم وذخيرتهم وكراعهم واستبد رؤساء تلك البلاد بامصارهم وعادوا إلى دينهم من التمريض وأذنوا بالدعاء لصاحب الحضرة بمنابرههم واستمروا على ذلك فأما يحيى بن محمد بن يملول فنزع إلى مناغاة الملوك في الشارة والحجاب واتخاذ الآلة والبيت المعمور للصلاة واقتعاد الأريكة وخطاب السمر بل وفسح للمجون والعكوف على اللذات مجالا يرى ان جماع السياسة والملك في إدارة الكاس واقتراش الأس والحجبة عن الناس والتاله على الندمان والجلاس وفتح مع ذلك على رعيته وأهل إيالته باب العسف والجور ورعى بيت المشاهير منهم غيلة فأتلفت نفوسهم وامتد أمره في ذلك إلى أن استولى السلطان أبو العباس على أفريقية وكان من أمره ما نذكر وأما جاره الجنب على بن الخلف فلم يلبث لما استبد برياسته أن حج سنة أربع وستين والتزم مذاهب الخير وطرق الرضا والعدالة وهلك سنة خمس بعد وولى مكانه ابنه محمد جاريا على سنته ثم هلك لسنة من ولايته وقام بأمره أخوه عبد الله بن على فاذكى سياسته وأوقع حزمه وأرهب للناس حده فنقموا عليه سيرته وتسمنوا عنقه واستمكن مناهضهم في الشرف ومجادبهم في رئاسة البلد القاضى محمد بن خلف الله من صاحب الحضرة بذمة كانت له في خدمته قديما واستعمله لرعيها في خطة القضاء بحضرته وأثره بالمكان منه والصحة فسعى بعيد الله هذا عند الخليفة ودله على مكان هلكته وبصره بعورات بلده واقنياد عساكر السلطان إليه في زمامه ولما احتل بظاهر البلد وعبد الله رئيسها أشد ما كان قوة وأكثر جمعا وأمضى عزما استألف أخوه الخلف بن على بن الخلف جماعة المشيخة دونه وحرصهم عليه وداخل القاضى بتببيتها وأنه بالمرصاد في اقتحامها حتى إذا كانت البيعة دس إلى بعض الاوغاد في قتل أخيه عبد الله ومكر بالقاضى والعسكر وامتنع عليهم واعتصم دونهم واستقل برياسة بلده وأقام على ذلك يناغى ابن يملول في سيره

[٤١٧]

ويطارحه الكثير من مذاهبه ويجرى في الثناء الذى بلغ إلى غايته وأولى على بنيته وأما أحمد بن عمر بن العابد فلم يزل من لدن استبداده ببلده قفصة سالكا مسالك الخمول منحطا عن رتبة التكبر منتحلا مذاهب أهل الخير والعدلة في شارته وزيه ومركبه جانحا إلى التقلل فلما أوفى على شرف من العمر استبد عليه ابنه محمد وترفع عن حال أبيه بعض الشئ إلى مناغاة هؤلاء الرؤساء المترفين فبينما هؤلاء المتقدمون في هذه الحالة من الاستبداد على السلطان انتحلوا باخلاق الملوك والتثاقل عن الرعايا بالعسف والجور واستحدثا المكوس والضرائب إذ طالما خصهم السلطان أبو العباس بالحضرة مستبدين بدعوته صار فاسهم عزائمهم فوجموا وتوحسوا الخيفة منه وأتمروا في المظاهرة واتصال اليد بعد أن كانوا يستحثونه إلى الحضرة ويبعثون إليه بالانحياش على البعد زلوقا على صاحب الحضرة ونزوعا على مصدوقية الطاعة فلما استبد السلطان أبو العباس بالدعوة استرابوا في أمرهم وسربوا أموالهم في الاعراب المخالفين على السلطان من الكعوب يؤملون مدافعتهم عنهم فشمروا لها أولاد أبى الليل بما كان وقع بينهم وبين السلطان من النفرة ونهض إليهم السلطان فغلبهم على ضواحي أفريقية على الطواعن التى كانت جبايتها لهم منذ حين كما قلناه واستحلم فأوهن ذلك من قوتهم ثم زحف الثانية إلى أمصار الجريد فلاذوا بالامتناع وأناخ السلطان بعساكره وأوليائه من العرب أولاد مهلهل على قفصة فقابلها يوما أو بعض يوم وعدا في ثانية على نخيلهم يقطعها فكأنما يقطع بذلك أمعاءهم فتبرؤا من مقدمهم وشعر بذلك فبادر إلى السلطان ونزل على حكمه فتقبض عليه وعلى ابنه شهر ذى القعدة

من سنة ثمانين وتملك البلد واستولى على ديار ابن العابد بما فيها وكان استيلاء لا يعبر عنه لطول أيامه في الولاية وكثر احتجانه للاموال وعقد السلطان على قفصة لابنه أبى بكر وارتحل يريد توزر فقبض عنها بأهله ونزل على أحياء مرداس وسرب فيهم المال فرحلوا معه إلى الزاب ولحق ببسكرة مأوى نكباته ومنتهى مقره فنزل بها على أحمد بن يوسف بن مزنى وأقام هنا لك على بلغة من توقع مطالبة السلطان له ولجأه ابن مزنى من خسارة أموالهم في لغوف العرب وسوء المغيبة إلى ان هلك لسنة أو نحوها بعد تقويضه عنهم بعثوا إلى السلطان فلقبه في أثناء طريقه وتقدم إلى البلد فنزل بقصور يملول واستولى على ذخيرته وتبرأ إليه أهل البلد من ودائع كانت له عندهم من خالص الذخيرة فدفعوها إلى السلطان وعقد لابنه المنتصر على توزر واستقدم الخلف بن الخلف من نفطة وكان يخالف أصحابه إلى الطاعة حتى نقضوها على ابن يملول وسالفه من العداوة ينقلها فلما أحيط بهم أدركه الدهش وبادر إلى السلطان بطاعته فاتاهم

[٤١٨]

وقدم عليه فتقبل السلطان ظاهره وأعطى له عن غيرها طمعا في استصلاحه وعقد عن حجابة ابنه المنتصر وأنزله معه بتوزر وأمره باستخلافه بلدة نفطة وعقد له على ولايتها وانكفا راجعا إلى حضرته وقدم ابن الخلف على أمره ورأى انه قد تورط في الهلكة فراسل ابن يملول بمكانه من توزر وعثر أولياء السلطان عن كتابه إلى يعقوب بن على شيخ رباح ومدرة حروبهم يحرضه على صريخ ابن يملول ومعونته فعملوا نكته ومداجاته وبادروا إلى القبض عليه وولوا على نفطة من قبله وخاطبوا السلطان بالثار وأقام في ارتحاله إلى ان كانت حادثة قفصة فبادر الامير المنتصر إلى قتله وكان من خبر قفصة أن ابن أبى زيد من مشيختها كان ينزع إلى السلطان قبل فتحها هو وأخوه لمنافسة بينهما وبين ابني العابد وهما محمد وأحمد بن عبد العزيز وابن عبد الله بن أحمد بن على ابن عبد الله بن على بن عمر بن أبى زيد وقد ذكر أوليتهم واستعمال سلفهم أيام الامير زكريا الأعلى في جبايته الجريد فلما استولى السلطان على البلاد رعى لهما تشيعهما وبدوهما إلى طاعته مع قومهما فأمر لهما مع ابنه بقفصة وكبيرها رديف لحاجبه عبد الله من الموالى الاتراك ومدبر لامور البلد في طاعة السلطان ثم نزع الشيطان في صدره وحدثه نفسه بالاستبداد وأقام يتحين به وذهب الامير أبو بكر إلى زيارة أخيه بتوزر فكاده بالتخلف عنه وجمع أوياشا من الغوغاء والزعانف وتقدم بهم إلى القصة وبعث بالصريخ لفتك بعبد الله التركي ونذر بذلك فأغلق أبواب القصة وبعث الصريخ في أهل القرى وقاتلهم ساعة من نهار حتى وافى إليه المدد فلما استغلظ بمدده أدركهم الدهش وانفض الاشرار من حوله ونجوا إلى الاختفاء في بيوت البلد وتقبضوا على الكثير ممن داخلهم في الثورة ووصل الخبر إلى الامير أبى بكر بتوزر فبادر إلى مكانه وقد سكن جأشه واستلجم جميع من تقبض عليه حاجبه ونادى في الناس بالبراءة من ابن أبى زيد فتبرؤا منه وعثر الحرس عليه وعلى أخيه خارجين من أبواب البلد في زى النساء فقادوهما إليه فقتلها بعد ان مثل بهما واستبد السلطان بالجريد ومحا منه آثار المساءة عليهما وانتظمه في عمالات السلطان وأما بلد الحامة وهى من عمالة قسطيلة وتعرف بحامة قابس وحامة مطماطة نسبة إلى أهلها الموطنين كانوا بها من البربر وهم فيما يقال الذين اختطوها ففيها الآن ثلاث قبائل من توجر وبني ورتاجن وهم في العصبية فرقتان أولاد يوسف ورياستهم في أولاد أبى منيع وأولاد حجاج ورياستهم في أولاد وشاح ولا أدرى كيف سبب الفرقتين فأما أبو منيع فالحديث في رياستهم في قومهم أن جدهم رجاء بن يوسف كان له ثلاثة من الولد وهم بوشباك وأبو محمد وملالة وان

رياسته بعده كانت لابنه بوشباك ثم ابنه أبى منيع من بعده ثم لابنه حسن بن أبى منيع ثم لابنه محمد بن حسن ثم أخيه موسى بن حسن ثم لآخيهما أبى عنان إلي ان كان ما نذكر وأما أولاد حجاج فكات أول رياستهم لمحمد بن أحمد بن وشاح وقبله خاله القاضى محمد بن كلمى وكان العمال من الحضرة يتعاقبون فيهم إلى ان أسقط السلطان عنهم الخراج والمغارم بأسرها وكان مقدمهم لأول دولة السلطان أبى بكر من أولاد أبى منيع وهو موسى بن حسن وكان المديوني ولد السلطان واليا عليهم وارتاب بهم بعض الايام وأحبوا الثورة به فدس بها إلى السلطان في بعض حركاته وغزاهم بنفسه ففروا وأدركوا سبعة من أولاد يوسف هؤلاء وتقبض عليهم فقتلوا ثم رجع الامير وولى موسى بن حسن ولما هلك تولى بعده أخوه أبو عنان وطال أمد ولايته عليهم وكان منسوباً إلى الخير والعفاف وهلك سنة ثنتين وأربعين وولى بعده ابنه الآخر أبو زيان ثم بعدهما ابن عمهما مولاهم ابن محمد ووفد على السلطان أبى الحسن مع وفد أهل الجريد كما مر ثم هلك فولى بعده من بنى عمهم حسان بن هجرس وثار به محمد بن أحمد بن وشاح من أولاد حجاج المذكور فعزله وأقام في ولايته إلى سنة ثمان وسبعين فثار به على الحامة وقتلوا عمر بن كلبى العاصى وولوا عليهم حسان بن هجرس وثار به يوسف واعتقله وهو يوسف بن عبد الملك بن حجاج بن يوسف بن وشاح وهو يقدمهما يعطى طاعة معروفة ويستدعى العامل ببجاية وبراوغ عن المصدوقية والغلب والاستيلاء قد أحاط به من كل جهة وأملى على بعض نسابتهم أن مشيخة أهل الحامة في بنى بوشباك ثم في بنى تأمل من بوشباك وان تأمل رأس عليهم وان وشاحا من ولد تأمل على فرقتين بنو حسن وبنو يوسف وحسان بن هجرس ومولاهم وعمر أبو علان كلهم من بنى حسن ومحمد بن أحمد بن وشاح من بنى يوسف وهذا مخالف للاول والله أعلم بالصحيح في أمرهم وأما نفاوة وأعمال قسطيلة فتنسب لهذا العهد إلى توزر وهى القرى العديدة المعروفة السير يعترض بينها وبين توزر إلى القبلة عنها التماسيح المشهورة المبالغة في الاعتساف ولها معالم قائمة من الخشب يهتدى بها السالك وربما يضل فتبتلعه ويسكن هذه القرى قوم من بقايا نفاوة من البرابرة الذين بقوا هنا لك بعد انقراض جمهورهم ولحق العرب بسائر بطون البربر ومعهم معاهدون من الفرنجة ينسبون إلى سردانية نزلوا على الذمة والجزية وبها الآن أعقابهم ثم نزل عليهم من اعراب الشريد وزغب من بنى سليم كل من عجز عن الطعن وملكوا بها القفار والمياه وكثرت نفاوة وهم لهذا العهد عامة أهلها وليس في نفاوة هذه رياسة لمقرها ورجوعها في الغالب إلى اعمال توزر ورياستها هذا حال المتقدمين ببلاد الجريد في الدولة الحفصية أوردنا أخبارهم فيها

لانهم من صنائعها وفى عداد ولايتها ومواليها والله متولى الامور اه أحمد بن يحيى بن محمد بن أبى على بن عبد الجليل بن العابد * (الخبر عن بنى مكى رؤساء قابس وأعمالها) * كانت قابس هذه من ثغور افريقية ومنتظمة في عمالتها وكان ولايتها من القيروان

أيام الاغالبية والعبيديين وصنهاجة من لدن الفتح ولما دخل الهلاليون افريقية واضطربت أمورها واقتسمت دولة صنهاجة الطوائف انتزى بقابس وصنهاجة المعز ابن محمد الصنهاجى وأدال منه يونس بن يحيى الصنبرى من مرداس رياح باخيه ابراهيم إلى أن هلك وولى أخوه القاضى ابن ابراهيم ثم نازله أهل قابس فقتلوه أيام تميم بن المعز بن باديس فبايعوا لعمر بن المعز بن باديس كان مخالفا على أخيه وذلك سنة تسع وثمانين وأربعمائة ثم غلبه عليها أخوه تميم وكام معتقاً للعرب وكانت قابس وضواحيها في قسم زغبة من عرب هلال ثم غلبتهم رياح عليها ونزل دكن بن كامل بن جامع من بنى دهمان وأخوه مادع وهما معا من بنى على احدى بطون رياح فاستحدث بها ملكا لقومه بنى جامع وأورثه بنيه إلى ان استولى الموحدون على افريقية وبعث عبد المؤمن عساكره إلى قابس ففر عنها مدافع بن رشيد آخرهم وانتظمها كما ذكرناه في أخبارهم وملكها وانقرض ملك بنى جامع وصارت قابس وأعمالها للموحدين وكان ولاية افريقية من السادة يولون عليها من الموحدين إلى أن تغلب بنو غالبية وقراقش على طرابلس وقابس وأعمالها وكان ما ذكرناه في أخبارهم ثم غلب الموحدون يحيى بن غانية عليها وأنزلو بها عمالهم ولما دعا بنو أبى حفص إلى افريقية المرة الثانية بعد مهلك الشيخ أبى محمد عبد الواحد وعقد العاقل على افريقية لابنه أبى محمد عبد الله عقد معه على قابس للامير أبى زكريا أخيه فنزلها أميرا ثم كان من شأن استبداده وخلعه لآخيه وطاعة بنى عبد المؤمن ما ذكرناه وكان مشيخة قابس لذلك العهد في بيت من بيوتانها وهم بنو مسلم لم يحضرنى ممن نسيهم وبنو مكى ونسيهم في لواتة وهو مكى بن فرح بن زيادة الله ابن أبى الحسن بن محمد بن زيادة الله بن الحسين اللواتى وكان بنو مكى هؤلاء خالصة للامير أبى زكريا ولما اعتزم على الاستبداد دخل أبو القاسم عثمان بن أبى القاسم بن مكى وتولى له أخذ البيعة على الناس وكان له ولقومه بذلك مكان من المولى أبى زكريا رعى لهم ذمتها ورفع من شأنهم بسببها ورموا بنى سليم نظراءهم في رئاسة البلد بضغائنهم إلى ابن غانية فأخمدوا مالهم بماله ومحووا آثامهم واستقلوا بشورى بلدهم وأقاموا على ذلك أيام المولى أبى زكريا الاول وابنه المستنصر ثم كان ما قدمناه من مهلك الواثق بن المستنصر وبنيه على يد عمهم السلطان أبى اسحق وكان من أمر الداعي بن أبى عمارة وكيف شبه على الناس بالفضل بن المخلوع بحيلة من مولاه نصير رام أن ينار بها من قاتلهم فتمت مكيدته في ذلك لما أراد الله ولما أظهر نصير أمره وتسايلت العرب إلى بيعته خطب لأول أمره رئيس قابس لذلك العهد من بنى مكى عبد المالك بن عثمان بن مكى فسارع إلى طاعته وحمل الناس عليها وكانت له بذلك قدم في الدولة معروف

رسوخها ولما ألقى الداعي بن أبى عمارة جسدا على كرسى الخلافة سنة احدى وثمانين قلده خطة الجباية بالحضرة مستقلا فيها بالولاية والعزل والفرض والتقدير والحسبان بعد ان أجزل من بيت المال عطاءه وجرأيته وأسنى رزقه وأهدى الجوارى من القصر إليه ولما هلك الداعي واستقلت قدم الخلافة من عثارها كما قدمناه سنة ثلاث وثمانين لحق عبد الحق بن مكى ببلده وامتنع بها على حين ركود ربح الدولة وفشلها ومرض في طاعته ودافع أهل الدولة بالدعاء للخليفة على منابره ثم حاهر بالخلعان سنة ثلاث وتسعين وبعث بطاعته إلى صاحب الثغور المولى أبى زكريا الاوسط وهلك ابنه أحمد ولى عهده سنة سبع وتسعين ثم هلك هو من بعده على رأس المائة السابعة وتخلف حافده تكما قبصوه للملك بعقبه وكفله ابن عمه يوسف بن حسن وقام بالامر مستبدا عليه إلى أن هلك وخلفه في كفالة أحمد بن ليدان من بيوت أهل قابس واصبهان وبنى

مكى وأتاب أمرهم بمهلك يوسف فنقب لهم السلطان الآن اللحيانى إلى الحضرة وأقاموا بها أياما ثم ردهم إلى بلدهم أيام مجافاته عن تونس وخروجه إلى ناحية قابس ثم هلك خلال ذلك مكي وخلف صبيين يافعين عبد الملك وأحمد فكفليما ابن ليدان إلى ان شباوا كتهلا ولهما من الامتناع على الدولة والاستبداد بأمر القطر والاقتصار على الدعاء للخليفة مثل ما كان لابييهما وأكثر لتقلص ظل الملك عن قطرهم وشغل السلطان بمدافعة يغمراسن وعساكرهم عن الثغور الغربية واجلائهم بالاعز واعتاص من أهل البيت على الحضرة ولما هلك السلطان أبو يحيى اللحيانى بمصر قفل ابنه عبد الواحد إلى المغرب يحاول أسباب الملك ونزل بساحتهم على ما كان من صنائع أبيه إليهم فذكروا العهد وأوجبوا الحق وأتوا بيعتهم كبيرهم عبد الملك بأمره ودعا الناس إلى طاعته وخالف السلطان أبا يحيى عند نهوضه إلى الثغور لحماية سنة ثلاث وثلاثين كما قدمناه فدخل الحضرة وليث بها أياما لم تبلغ نصف شهر وبلغ خبرهم إلى السلطان فانكفا راجعا وفروا إلى مكانهم من قابس والدولة بنظرهم الشزر ويترص بهم الدوائر إلى ان غلب السلطان أبو الحسن على تلمسان ومحا دولة آل يغمراسن وفرغت الدولة من شأنهم إلى ومد عمر يده إلى صفاقس فتناولها وتغلب عليها سنة سبع وخمسين وهلك السلطان أبو عنان وقد شرق صدر ابن تافراكين الغالب على الحضرة بعداوتهما فردد عليهما برا وبحرا إلى أن تخلص جزيرة جربة من أيديهما أعوام أربعة وستين وعقد عليهما

[٤٢٣]

لولده محمد فاستخلف بها كاتبه محمد بن أبى القاسم بن أبى العيون من صنائع الدولة كما ذكرناه وهلك أحمد بن مكي سنة ست وستين على فقيئة مهلك الحاجب بن تافراكين بالحضرة فكأنهما ضربا موعدا للهلكة توافياه وتخلف ابنه عبد الرحمن بطرابلس في كفالة مولاه ظافر العليج وهلك ظافر اثر مهلكه فاستبد عبد الرحمن بطرابلس وساءت سيرته فيها إلى أن نازله أبو بكر بن محمد بن ثابت في اسطوله كما نذكر سنة ثنتين وسبعين وأجلب عليه بالبرابرة والعرب من أهل الوطن فاستنقض عليه أهل البلد وثأروا به وبأدر أبو بكر بن ثابت لاقتحامها عليه وأسلموه إلى أمير من أمراء ذئاب فأجاره إلى أن أبلغه مأمنه من محلة قومه وإيالة عمه عبد الملك بقابس إلى أن هلك سنة تسع وسبعين ولم يزل عبد الملك لهذا العهد وهو سنة احدى وثمانين وإليا على عمله بقابس وابنه يحيى مستبد بوزارته وحافده عبد الوهاب لابنه مكي رديف له وقد تراجعت أحوالهم عما كانت وخرجت من أيديهم الاعمال التى كانت في عمالته لعهد أخيه أحمد مثل طرابلس وجزيرة جربة وصفاقس وما إلى ذلك من العمالات حتى كان التخت انما كان لأخيه واليمن انما استقر لجنايه وسيرتهما جميعا من العدالة وتحري مذاهب الخير والسمت والاتسام بسمات أهل الدين حملة الفقه معروفة حتى كان كل واحد منهم انما يدعى بالفقيه علما بين أهل عصره حرصا على الانغماس في مذاهب الخير وطرقه وكان لاحمد حظ من الادب وكان يفرس من الشعر فيجيد عفا الله عنه وله في الترسيل حظ ووساع بلاغة وبنحو في كتابه منحى أهل المشرق في أوضاع حروفهم وأشكال رسومهم ولأخيه عبد الملك حظ من ذلك شارك به جهابذة أهل عصره ولما انتظم السلطان أبو العباس أمصار افريقية في ملكه واستبد بالدعوة الحفصية على قومه داخل أهل الجريد منه الروع وفزعوا إليه للمعارضة في الامتناع فداخلهم في ذلك وأشاروا إلى صاحب تلمسان بالترغيب في افريقية فعجز عنهم والحوأ عليه فخام عن العداوة وزحف مولانا السلطان خلال ذلك إلى الجريد فملك قفصة وتوزر ونفطة فبادر ابن مكي إلى التلبس للاستقامة وبعث إليه بالطاعة ثم رجع السلطان إلى الحضرة فرجع هو عن المصدوقة وأتاهم أهل البلد بالحيل إلى السلطان فتقبض بعضهم ومر آخرون

وانتقض عليه بنو أحمد اهل ضواحيه من ذئاب فنارلوه وبعثوا إلى الامير الاكبر بقفصة في العسكر لمنازلته فبعث إليهم وأحاطوا به ثم انتهر الفرصة ودخل بعض العرب من بنى على في تبييت المعسكر وبذل لهم في ذلك المال فيبيته وانفض وبلغ الخبر إلى السلطان فخرج من حضرته سنة احدى وثمانين ونزل القبروان وتوافت الفتان وبعث رسله للاعذار بين يديه فردهم ابن مكى بالطاعة

[٤٢٤]

ثم احتمل رواجه ونزل باحياء العرب وأغذ السلطان السير إلى البلد فدخلها واستولى على قصورها ولاذ أهل البلد بالبيعة فأتوها واستعمل عليهم من بطانته وانكفأ راجعا إلى تونس وهلك عبد الملك لأيام فلأئل بين أجيال العرب وهلك ابنه عبد الرحمن وابن أخيه أحمد الذي كان صاحب طرابلس بعد أبيه ولحق ابنه يحيى وحفيده عبد الوهاب بطرابلس فمنعهم ابن ثابت من النزول ببلده لما كان متمسكا بطاعة السلطان فنزلوا بزور من بلاد ذئاب التي بضواحيها وأقاموا هنا لك واستقامت النواحي الشرقية على طاعة السلطان وانتظمت في دعوته والله مالك الملك ثم ذهب يحيى بن عبد الملك إلى المشرق لقضاء فرضه وأقام عبد الوهاب بين أحياء البرانس بالجيال هنا لك وكان الوالى الذى تركه السلطان بقابس قد ساء أثره في أهلها ففسد شيعتهم إلى عبد الوهاب بذلك وجاء ثم احتمل رواجه ونزل باحياء العرب وأغذ السلطان السير إلى البلد فدخلها واستولى على قصورها ولاذ أهل البلد بالبيعة فأتوها واستعمل عليهم من بطانته وانكفأ راجعا إلى تونس وهلك عبد الملك لأيام فلأئل بين أجيال العرب وهلك ابنه عبد الرحمن وابن أخيه أحمد الذى كان صاحب طرابلس بعد أبيه ولحق ابنه يحيى وحفيده عبد الوهاب بطرابلس فمنعهم ابن ثابت من النزول ببلده لما كان متمسكا بطاعة السلطان فنزلوا بزور من بلاد ذئاب التي بضواحيها وأقاموا هنا لك واستقامت النواحي الشرقية على طاعة السلطان وانتظمت في دعوته والله مالك الملك ثم ذهب يحيى بن عبد الملك إلى المشرق لقضاء فرضه وأقام عبد الوهاب بين أحياء البرانس بالجيال هنا لك وكان الوالى الذى تركه السلطان بقابس قد ساء أثره في أهلها ففسد شيعتهم إلى عبد الوهاب بذلك وجاء إلى البلد فيبيتها وثاروا بالوالى فقتلوه سنة ثلاث وثمانين وملك عبد الوهاب قابس وجاء أخوه يحيى من المشرق بعد قضاء فرضه فأجلب عليه مرارا يروم ملكها وأوثقه كتافا وبعث به إليه واعتقله بقصر العد وسنين فمكث في السجن أعواما ثم فر من محبسه ولحق بالحامة على مرحلة من قابس مستنجدا ابن وشاح صاحبها فأنجده وما زال يجلب على نواحي قابس إلى أن ملكها وتقضى على عبد الوهاب ابن أخيه مكى فقتله أعوام تسعين وسبعمائة ولم يزل مستبدا ببلده إلى سنة ست وتسعين وكان عمر ابن السلطان أبى العباس قد بعثه أبوه لحصار طرابلس فخر بها هؤلاء كما نذكره حتى استقام أهلها على الطاعة وأعطوا الضريبة فأفرج عنها ورجع إلى أبيه فولاه على صفاقس وأعمالها فاستقل بها ثم دخل أهل الحامة في ملك قابس فأجابوه وساروا معه فيبيتها ودخلها وقبض على يحيى بن عبد الملك فحضر عنقه وانقرض أمر ابن مكى من قابس والله الامر من قبل ومن بعد وهو خير الوارثين * (تم طبع الجزء السادس ويليها الجزء السابع أوله الخبر عن زناتة من قبائل البربر) *